

ثروت عكاشة



# مصر في عيون الغرباء

من الرحالة والفنانيين والأدباء  
(القرن التاسع عشر)

١





# هذا الكتاب

جولة بين عدد من كتب الرحلات ولوحات الفنانين الأوروبيين والأمريكيين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر، تتناول نماذج من انطباعات الرحالة والفنانين والأدباء الفرنسيين والإنجليز عن مصر والمصريين، قد يحمل بعضها مودة صافية وقد يزخر البعض الآخر بنقدٍ لاذعٍ أو تشهيرٍ مآكرٍ أو تحريضٍ سافر. فلا بأس من أن يعرف القارئ المصرى والعربى ما قيل فيه من مدح وما قيل فيه قَدَحٍ. وليس كل ما قيل من ذم يخلو من تحامل. والقارئ وهو يطالع هذا أو ذاك قادر على التمييز بين ما هو حق وما هو باطل.

والكتاب بمجلّديه يعرض جملة من أبدع اللوحات ذات الأهمية التى صورّها أو رسمها الفنانون الفرنسيون والإنجليز والأوروبيون ممن زاروا مصر فى القرن التاسع عشر وانفعلوا بمجتمعها وأهلها وآثارها، وخاصة ما فيه إشارة إلى ما جاء على ألسنة الرحّالة والأدباء من وصفهم لأشياء أو ذكّرهم لعادات، حتى يتسنى للقارئ أن يربط بين ما جاء مصوّراً وما جاء مدوّنًا. ومن هذه اللوحات ما هو بالألوان المائية، ومنها ما هو تصوير زيتيٍّ، ومنها ما هو بتقنية حفر الرسوم على الحجر وغيره، ومنها ما هو تسجيل فوتوغرافى حين اخترعت آلة التصوير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وقد أضاف المؤلف إلى هذه الطبعة الثانية حديثًا ولوحات مصوّرة لم يردا قبلُ فى الطبعة الأولى، إثراءً لمضمون الكتاب، لاسيما موضوع التصوير الاستشراقى الذى رأى أن يكون جامعًا لكل ما فى العالم الإسلامى من مغربه إلى مشرقه [مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام وتركيا] أدبًا ورحلةً وتصويرًا لما لهؤلاء الأدباء والرحّالة والفنانين من تجربة وخبرة عن تلك الأقطار بعد أن داستها أقدامهم وعاشوا بين أهلها.

ويضم الكتاب بمجلّديه ٦٥٠ لوحة كما ينفرد بنشر لوحات لم يسبق نشرها من قبل. وعلى هذا فالكتاب باقة اجتمعت زهراتها من حدائق الأدب والفن المختلفة قطفها د. ثروت عكاشه على هواه ونسّقها يداه لتشيع شذى جديدًا، وإن كان فى الحقيقة عصارة هذه الزهرات جميعًا.

## الناشر



ثروت عكاشة



# مصر في عيون الغرباء

من الرحالة والضيّاف والأدباء  
(القرن التاسع عشر)

المجلد الأول

دار الشروق







# قصص الرجال

من الرجال والفنانين والأدباء  
(القرن التاسع عشر)





# ثروت عكاشه

## مِصْرُ فِي عِيُونِ الْغُرَبَاءِ

من الرحالة والفنانين والأدباء  
(القرن التاسع عشر)

المجلد الأول

دار الشروق

ثروت عكاشه

مصري في عيون الغرباء

من الرحالة والفنانين والأدباء  
(القرن التاسع عشر)

المجلد الأول

الاخراج الفني  
مجدي عز الدين

الطبعة الأولى ١٩٨٤ م

الطبعة الثانية ٢٠٠٣ م

جميع حقوق النشر ، تطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع ميبويه المصري

رابعة العدوية - مدينة نصر

القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٩٦ (٢٠٢)

فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٢)

e-mail: dar@shorouk.com

www.shorouk.com



## إلى حفدي محمد عبد المجيد اللبان

بالأمس القريب أهديتُ إليك كتابيَّ «الإغريق بين الأسطورة والإبداع» و «الفن الإغريقي» ،  
وكنت عندها ما تزالُ تخطو أولى خطاك ولا تقوى على قراءتهما ؛ ولكنني تلبّثُ بك حتى  
تشبَّ .

والآن وقد شببتَ عن الطوق ومضيتَ تخوضُ مُعترك الحياة أضُمَّ إليهما كتابي هذا الذي يصف  
لك مصر في الماضي غير البعيد على لسان بعض المؤرخين والأدباء والفنانين ، منهم من هو  
مُغرض ومنهم من هو مُنصف . ولسوف تقرأ هذا كله لترى أين سيكون مكانك في حياة مصر .  
وكم أتمنى أن تكون من بين من تنشدهم مصر للنهوض بها إلى مصاف الأمم الحضارية الراقية .  
ثم ما أحرَصَني هنا على أن أفصح لك عما يُكنّهُ لك قلبي من حب فياض غامر وما يُجَنِّهُ لك  
خاطري من أمان .

## ثروت عكاشة



أول من أتوجه إليه بالشكر عن ذلك العون الكريم الذي لقيته من تيسير لي بالاطلاع وتزويد لي بالمراجع النادرة وتمكينني من تصوير ما أردت من لوحات هم : المرحوم الأستاذ الدكتور **عبد العزيز صادق** مدير عام مركز تسجيل الآثار بالقاهرة ، والأستاذ الدكتور **حمدي السكوت** رئيس قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية ، والسيدة **ليزلي ويلكنز** مديرة مكتبة الكتب النادرة بالجامعة الأمريكية سابقا ومساعدتها السيدات **نادية عبد السلام علي** و**ناهض مصطفى** و**نهال قمروز**، والدكتورة **بول بوزنر** مديرة المعهد الفرنسي للآثار سابقاً ، والدكتور **نيكولا جريمال** المدير الأسبق للمعهد الفرنسي ، والدكتورة **ضياء أبو غازي** مديرة مكتبة المتحف المصري للآثار . والمرحوم الأب **جورج قنواطي** عن مكتبة دير الرهبان الدومينيكان بالقاهرة . وكذا السادة السفراء **سميح أنور** و**جمال منصور** و**يحيى حسن** و**عزيز حمزة** و**كمال عبد الرحمن إبراهيم** لأذنهم لي بتصوير اللوحات المحفوظة بالنادي الدبلوماسي . وهذا إلى السادة أمناء متاحف اخضارة ومحمد محمود خليل وحرمة والأمير محمد على بقصر النيل .

ثم لا أنسى أن أخص بالشكر هؤلاء الأصدقاء الأوفياء الدكتور **معجدي** و**هبة** رحمة الله عليه والدكتورة **فاطمة موسى** والمستشار **أحمد لطفي** والمرحوم الأستاذ **محمد البخاري** الذين تفضلوا فقرأوا النص وأمدوني بما عن لهم من رأي سليم .

ولايفوتني أن أرجي الشكر خالصا للفنان **هبة عنایت** والأستاذ **عبد الله عبد اللطيف نصر** والدكتور **طارق سويلم** على ما قاموا به من تصوير بعض لوحات الكتاب .

يشكر المؤلف متحف «داهش» بنيويورك لتفضله بالموافقة على نشر صور بعض مقتنياته في هذا الكتاب حسبما ورد قرب كل صورة .





اتخذت مصر قرارها الجسور بإنشاء السدّ العالي في أسوان عام ١٩٥٤ . وكانت إقامة هذا السدّ إيذاناً بخلق بحيرة فسيحة من المياه تغمر منطقة النوبة الزاخرة بآثار حضارتنا العريقة التي شدّت إليها عيون العالم على مرّ العصور . وفي أواخر عام ١٩٥٨ كنت أحمل مهام وزارة الثقافة التي كان من مسؤوليتها الأولى الحفاظ على آثارنا القديمة بوصفها جزءاً مُهمّاً من تراث الحضارة الإنسانية .

وكانت الصورة وقتذاك : خطوات جادة تجري لإنشاء السدّ العالي ، وتسجيلات لآثار النوبة ، وأيد مكتوفة أمام الخطر المحدق بآثار النوبة الغالية ، وحيرة عميقة في النفوس أمام هذا التساؤل . كيف لثورة يولييه ١٩٥٢ أن تشتري رخاء المستقبل بالتفريط في معالم خالدة من تراث الماضي ؟ وكيف يكون مستقبلنا مُشرقاً إلا إذا كان امتداداً لماضي العريق ؟ وهل يمكن أن يتحقق النمو الاقتصادي دون وعي ثقافي ؟ وهل يكتمل الوجه الحقيقي لثورة يولييه إذا شيدت السدّ العالي الذي يهدف إلى رفع مستوى معيشة الإنسان المصري المعاصر دون أن تحافظ على أسمى ما أبدعه الإنسان في تاريخه البعيد؟ وهل يتألق وجدان إنسان الحاضر إذا وجد ما يُشبعه من ماديّات دون أن يجد إلى جانبه ما يُشبع حسّه من روحانيّات ؟ ومع كل يوم يقترب فيه وداع آثار النوبة كان الإحساس يتضاعف بوجوب عمل أي شيء من أجل إنقاذها حتى لا يأتي هذا اليوم أبداً . فبقاء هذه الآثار بقاء لميراث قومي عالمي خالد ، وفقدانها فقدان لجزء هام من تاريخ الإنسان عامة وتاريخ مصر خاصة .

وحين وقفتُ أستعرض آثار النوبة متطلعاً إلى معبدي أبي سمبل المنحوتين في جوف الجبل ثم متأملاً معابد فيله متخيلاً المياه وقد ابتلعت هذه الآثار التي ظلّت شاهداً مهيباً على عبقرية الإبداع المصري في فجر التاريخ البشري أحسستُ حسرة تملأ نفسي وتدفعني إلى التشبّث بهذه الآثار وراودني ما يشبه الحلم الأسطوري ، وتراءى لي وأنا موزّع النفس بين عالمي الصحوة والغفوة أن يبدأ عملاقة تندسّ في أعماق التربة وترحّز هذه المعابد الهائلة من مرقدها وتصعد بها إلى قمم الجبال حولها ، وترك لمياه السدّ مكاناً تتماوج فيه على هواها . وعلى الرغم من إيماني بأن هذا الحلم أقرب إلى عالم الخيال منه إلى عالم الواقع ، ومع علمي بأن حكومتنا مشغولة بهموم فك قيود الفقر عن ملايين المواطنين بما لا تحتل معه أن توفّر من مالها وطاقاتها المحدودين ما ينقذ للبشر تراث أسلافهم القدماء ، أخذت نفسي تسترجع ذكريات فترة أثيرة من حياتي حين أمضيت ما



ينوف عن سنوات ثلاث أعمل ملحقاً حريباً بسفارتنا بباريس كنت أتابع خلالها بشغف وإعجاب نشاط منظمة اليونسكو الوليدة وقتذاك والتي كانت تشغل وقتذاك مبني قريباً من سفارتنا، مؤمناً إيمان المتفائل بما يمكن أن تحقّقه هذه المنظمة السامية الأهداف من خير للبشرية في ميادين الفن والثقافة والأعمال . وتساءلت بيني وبين نفسي هل يمكن لليونسكو أن يكون لها دور في إنقاذ آثارنا؟ فقد رسخ في يقيني أن هذه المنظمة المنبثقة عن الأمم المتحدة والتي ينصّ ميثاقها على صيانة الآثار الفنية ذات الأهمية التاريخية هي الباب الوحيد المتاح الذي لا بد أن نظرقه أملاً في إنقاذ تلك الروائع على الصعيد الدولي ، فهي الفادرة على تفهّم المخاطر الجديّة على هذا المستوى من الرصيد الثقافي للإنسانية . وإذا كنت وقتها أعيش في عذاب القلق الذي يبعثه الإحساس بمواجهة «المستحيل» تساءلت لماذا لا نمنح «المستحيل» فرصة كي يصبح محتملاً . . . أو أملاً ، فاتصلت بالسيو رينيه ماهيه نائب المدير العام لليونسكو أدعوه للقاءني بالقاهرة . وحين وصل طرحت بين يديه الفكرة التي سكنت نفسي بإعداد مشروع لإنقاذ هذه الآثار تبنيهاً منظمة اليونسكو وتدفع مصر ثلث تكاليفه بينما يسهم عشاق الفنون في مختلف ربوع العالم بالثلثين الباقين . وكنت شديد القلق بينما أقترح عليه أن تعدّ منظمة اليونسكو حملة دولية لإنقاذ هذه الآثار تجمع فيها المساهمات المادية والعلمية التي لم أشك في أن الهيئات الثقافية في العالم ستبادر بتقديرها . وكان مما أثار حماسه إقناعي له بأن مقترحاتي هذه تكاد تكون بمثابة هدية إلى اليونسكو تذيع معها لو أنها تبثتها شهرة المنظمة لتتطرق إلى وجدان كل فرد من أفراد البشر . ثم هي لا شك سابقة للمنظمة سيكون لها ما وراءها . وهذا ما حدث فعلاً إذ ما كادت منظمة اليونسكو تفرغ من هذا المشروع حتى شاركت في غيره . ودارت المناقشة ساعات ثلاث ، وإذا هو يبعث في نفسي الأمل حين همس في أذني بالمثل القائل «إن الحياة إلى زوال ولكن الفن خالد» (\*) .

وقد شاءت الأقدار أن أطلع وقتذاك كتاباً اجتذبتني عنوانه الأسر هو «موت فيله» (١٩٠٧) للأديب الفرنسي الشهير «بيير لوتي» الذي يحكي فيه بحسرة مريّة عن أطلال المعابد المصرية القديمة بنبرة حزينة كاشفاً عن أمجادها الغابرة ، ثم ينهي حديثه مستصرخاً المصريين أن يهرعوا إلى الحفاظ على تراثهم الخالد كي يبقى نبعاً للفن تستلهمه البشرية إلى الأبد . ومن هنا مضيت أشرح لرئيسه ماهيه قضية إنقاذ آثار النوبة وفي أعماقي طمأنينة مستقرة ، لأنني كنت أحسّ وأنا أحتضن كتاب بيير لوتي بين يدي أن برفقتي داعية قديراً لنفس القضية التي باتت أهم شواغلي على المستويين الحضاري والوظيفي . وفي ثقة عميقة قدّمت نسختي من كتاب «موت فيله» إلى رئيسه ماهيه لتكون رفيقة رحلة عودته إلى باريس . وكانت ثمرة هذا اللقاء -دون دخول في التفاصيل- طلب وزارة الثقافة من منظمة اليونسكو في أبريل ١٩٥٩ إمدادها بالعون الفني والعلمي والمالي

لتحقيق الأعمال التي يتطلبها إنقاذ تراث النوبة ، ثم إصدار منظمة اليونسكو لندائها إلى مثقفي العالم في ٨ مارس ١٩٦٠ للإسهام في إنقاذ آثارها النوبة . وهكذا بدأت الحملة الدولية التي مكّنت مصر من نقل آثارها من موقعها الذي كان يهددها فيه الغرق إلى قمم الجبال المحيطة ، وكُتب لمعابد مصر أن تلوذ بالخلود دون أن يتعثّر أو يتأخر بناء السد العالي الذي كان ضرورة تخليها حاجات شعب طموح إلى التقدم والرخاء .

ومنذ ذلك الحين حرّك كتاب «موت فيله» لبيير لوتي في نفسي رغبة إلى التعرف إلى ما كتبه غيره من الأوروبيين عن مصر والمصريين خلال القرن الماضي ، فكانت جولتي بين عدد من كتب الرحالة والكتاب والشعراء والفنانين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر فألهمتهم معالمها وآثارها وعادات شعبها تلك الأفكار التي فاضت على أقلامهم وفرشاتهم فكتبوا وصوّروا .

وقد وجدت بين ثنايا ما قدّمه هؤلاء الكتاب والفنانون ما هو جدير بأن أنقله إلى القارئ العربي . ولم يكن من اليسير أن أقدم في مثل هذه العجالة المتداولة غير عدد محدود من أهم ما اجتذبتني من آثار الكتاب ولوحات الفنانين . وفي الحق إن اللوحات المصوّرة تُنبئ في وضوح عن جمال وادي نهر وعرافة آثاره وطباع أهله وأعرافه أصدق تعبير وأحسنه في حين جاءت كتابات الرحالة متنوعة ، منها ما يحمل وداعة تلك الصور الهادئة ومنها ما يشتط في سخريته اللاذعة .

وقد تخيّرت لهذه الدراسة جملة من أبداع اللوحات المصوّرة منها ما هو مطبوع بطريقة الخفر على الحجر أو على الأسطح المعدنية ، ومنها ما هو تصوير بالزيت ، ومنها ما هو تسجيل فوتوغرافي حين نشأ في منتصف القرن التاسع عشر ، بذلت جهوداً في سبيل الوصول إلى بعضها وأنا أسعى إليها باحثاً عنها في كل مكان تقع فيه . وبهذه المحاولات استطعت أن أضع بين يدي القارئ هذه المجموعة من الصور الشائقة والنادرة التي لم يسبق لبعضها أن تُشر .

وأرى من واجبي أن أتوقّف هنا لأسجل تحية تقدير لرجل بارٍ من رجال مصر المخلصين ندين له بالعرفان وهو محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ السابق الذي امتاز إلى حسّه المرفه وولعه الشديد بالفنون بقدرة لا تجارّ في العطاء والسخاء ، إذ كان كلما وقع بصره في أوروبا على لوحة مشهورة مصوّرة لفنان من كبار مصوّرّي القرن التاسع عشر عن مصر والمصريين سعى لاقتنائها مهما كلفه ذلك من ثمن ، لا يأبه لما أنفق قدر حرصه على أن يزود المؤسسات والمتاحف والنوادي بكل ما يحتفي بمصر والمصريين ويكشف عن تاريخهم السالف . ولقد أهدى قبل مماته إلى نادي محمد علي [النادي الدبلوماسي الآن] كل ما جمعه عن مصر والمصريين من نتاج

❖ انظر لكتاب هذه السطور :

١ - إنسان العصر يتوّج  
رئيس . الهيئة المصرية العامة  
للكتاب ١٩٧١ .

٢ - Ramés Recouronné  
Hommage Vivant au  
Pharaon Mort.  
"UNESCO" 1974.

٣ - مذكراتي في السياسة  
والثقافة . الفصل السادس .  
الطبعة الثالثة دار الشروق  
٢٠٠٠ .



مصورّي القرن التاسع عشر الاستشراقيين ، وهو ما سيلمس القارئ أثره في بعض اللوحات المعروضة في هذا الكتاب ، كما أوصى بأن تؤوّل مجموعته النفيسة الخاصة بما تضم من روائع المدرسة الانطباعية الفرنسية إلى متحف قومي يحمل اسمه واسم زوجته كان لى شرف الاضطلاع بتنفيذ وصيّته وافتتاح متحفهما في ٢٣ يولية ١٩٦٢ بحكم مسؤوليتي وزيراً للثقافة .

وقد حرصت على أن أعرض من الصور ما فيه إشارة إلى ما جاء على أنسنة الرحالة من وصفهم لما تقع عليه عيونهم أو ذكرهم لعادات أهل البلاد ، لهذا قد يكون من اليسير على القارئ أن يربط بين ما جاء مصوراً وما جاء مدوناً . كذلك أوردت إلى هذه الصور نماذج مما استهواني من أقوال الرحالة والأدباء المعاصرين لهؤلاء الفنانين فرنسيين وإنجليز ، قُمت بنقلها إلى العربية بتصرف لا يخفي ما تنطوي عليه أحيانا من مودة صافية وبما ترخر به أحيانا أخرى من نقد لاذع أو تشهير مآكر أو تحريض سافر . ولا يهوننّ القارئ ما قد يجده على غير ما يرضى من نيل من تاريخه ، فلا بد له من أن يعرف ما يقال عنه من مدح وما يقال فيه من قدح ، فليست كل الأنسنة ولا كل الأفلام سواء ، وإنما هي نظرات مختلفة منها المادح ومنها النقادح ولكل نزعة التي يُعَلِي عنها . وعلى المرء أن يعلم هذا كله ليستوي بين يديه تاريخه ، فالتاريخ ليس إطرء فحسب بل لا مَعْدَى إلى جانب الإطرء من كلمات قد تبدو لاذعة ، والتاريخ ليس صفوّاً كله بل قد ينطوي على ما يعيب وما يشين . ولست أعني أن كل ما قيل من مدح لا يخلو من غلوّ وأن كل ما قيل من ذم لا يخلو من تحامل ، وعلى القارئ وهو يطالع هذا وذاك أن يميّز بين ما هو حق أو باطل سواء أكان إطرء أم ذمّاً . وبهذا الإحساس الذي أنشده من القارئ لا يضيرني ما قدّمت ، فإلى قدرته وحده على التمييز أضع ما جمعت من هنا ومن هناك من شتى المراجع والمصادر في المكتبات المختلفة والمتاحف ، ثم ما حفزني أحاسيسي إلى التعقيب به من رأي أو تدليل أو تعليل .

ولا ريب أيضاً أن هذا وذاك جزء من تاريخ مصر وإن كان قد كُتِبَ بأقلام غير مصرية وصوّر على أيدي مصوّرين غير مصريين ، ومن هنا تتبع أهمية مطالعته والإلمام به . فالمرء كما هو مطالب بأن يرجع إلى ما كُتِبَ عنه بأقلام أهله جدير بأن يرجع كذلك إلى ما كُتِبَ عنه بأقلام الغير ، فبهذا وذاك يتكامل التاريخ ، وفي تجاهل أحدهما انتقاص من كماله . على أنني حرصت على أن أقدم شاهداً على أحداث هذه الفترة إلى جوار الرحالة الأجانب بُدّاً من حوليات أديب مؤرخ مصري معاصر لهم هو عبد الرحمن الجبرتي تكشف طريقته ونهجه في الكتابة عن أسلوب العصر في التعبير الأدبي مما يتيح لنا أن نستاف عبق الأدب السلفي في نفس الوقت الذي ترتشف فيه عيوننا القيم الجمالية المعمارية والعادات والتقاليد السائدة في مصر خلال تلك الفترة ، كما يتيح لنا

بالإضافة إلى ذلك أن نوازن بين واقع مصر في عيون أبنائها وبين صورتها في عيون الرحالة العابرين على أرضها . ولا شك في أن التقاط ملامح من هنا وبصمات من هناك كفيلاً بأن يزودنا بوصف صادق لمصر وأهلها في هذا الماضي القريب . وتلك هي المتعة الوجدانية التي حرصت على ألا أستأثر بها وحدي وأن أضعها بين أيدي قراء التاريخ وذوّة الأدب وعاشقي الفن والمعجبين بتراث مصر العريق .

ويضم ثبّت المراجع المؤلفات التي رجعت إليها وأخذت عنها واقتبست منها ، ولكن لا يفوتني هنا أن أنوّه بكتاب Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte للأستاذ جان ماري كاريه إذ كان أول من ارتاد هذا الميدان ، ميدان الرحالة الفرنسيين إلى مصر . ولقد استأنست بالكثير من إشارات إلى المتابع التي استقى منها كتابه ونقلت عنه نصوصاً مع تحوير في الأداء حيث اقتضاني الموقف وأشارت إلى ذلك في أمكنته من كتابي هذا . ومع أن الأستاذ كاريه قد استوعب جميع المراجع التي تناولت هذا الموضوع إلا أن هذا لم يُعَفني من الرجوع إلى تلك المراجع على أجد مزيداً أضيفه ، وقد وجدت هذا المزيد . كما رجعت إلى مراجع أخرى غير التي ذكرها مما ظهر بعد عام ١٩٣٢ وهي السنة التي ظهر فيها كتابه ، فأشرت إلى هذا أيضاً في موضعه .

وقد أضفتُ إلى هذه الطبعة الثانية حديثاً ولوحات مصوّرة لم يردا قبل في الطبعة الأولى ، إثراء لمضمون الكتاب ، لاسيما موضوع التصوير الاستشراقي الذي رأيت أن يكون جامعاً لكل ما في العالم الإسلامي من مغربه إلى مشرقه [مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام وتركيا] ، أدبا ورحلة وتصويرا لما لهؤلاء الأدباء والرحالة والفنانين من تجربة وخبرة عن تلك الأقطار ، بعد أن داستها أقدامهم وعاشوا بين أهلها .

وبعد فليس كتابي هذا غير باقة اجتمعت زهراتها من حدائق الأدب والفن المختلفة ، فطفت أوراقها على هواي ونسقتها يداي تُشيعُ شذّي جديداً ، وإن كان في الحقيقة عصارة هذي الزهرات جميعاً .

## ثروت عكاشه

المعادي في ٢ أبريل ١٩٩٩





مَنْ يُمَعِّنَ النَّظَرَ فِي نِظَامِ الْمَمَالِيكِ وَمَا جَرَى عَلَيْهِ يَجِدُ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ لَمْ يَنْشَأْ عَلَى غَرَارٍ غَيْرِهِ مِنْ النِّظَمِ الْآخَرِي بَلْ كَانَ لَهُ نَهْجُهُ الْخَاصُّ وَسِيَاقُهُ الْجَدِيدُ ، أَمَلَتْهُ الضَّرُوفُ الْمَحِيطَةُ وَشَكَلَتْهُ الْبَيْئَةُ بِمُخْتَلَفِ مُتَطَلِبَاتِهَا حِينَ اضْطَرَبَتِ الْحَيَاةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي ظِلِّ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْوَلَايَةُ وَسَادَ فِيهَا الْعَنْفُ وَالْقَسْوَةُ وَأُخِذَ الْأُمُورُ غَلَاظًا ، حَتَّى بَاتَ السَّادَةُ وَأُولُو الْأَمْرِ الَّذِينَ يَغَالِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَصَارِعُ الْفَرِيقُ مِنْهُمْ الْفَرِيقَ الْآخَرَ عَلَى الرِّيَاسَةِ وَالْجَاهِ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَا يَشَدُّ أَرْزَاقَهُمْ وَيَقْوِي سَاعِدَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ الْمُنْكَبِّينَ عَلَى فَلَاحَةِ الْأَرْضِ وَالْإِهْتِمَامِ بِأُمُورِ الْحَيَاةِ . كَانَ السَّادَةُ فِي حَاجَةٍ إِلَى نَفَرٍ مِمَّنْ احْتَرَفُوا الْقِتَالَ وَعَاشَرُوا لَهُ وَوَهَبُوا حَيَاتِهِمْ مِنْ أَجَلِهِ . وَهَكَذَا حَدَثَتِ الثَّفَاتَةُ اخْتِكَامًا إِلَى الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ وَجَدُوا فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ مَتَسَعًا لِلْكَسْبِ هَيَّاتَهُ لَهُمْ فَتَوَتَّعَتْهُمْ وَقَوَاهُمْ الْبِدْنِيَّةُ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْمُتَصَارِعِينَ الَّذِينَ تَطَلَّعُوا بِحَنَاءٍ عَنْ مُنَاصِرِينَ لَهُمْ وَرَاءَ تَخَوُّمِهِمْ فَاشْتَرَوْا مِنَ الْمَمَالِيكِ مَنْ سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِهَذَا الشِّرَاءِ وَاسْتَأْجَرُوا مِنْهُمْ مَنْ رَضِيَتْ نَفْسُهُمْ بِهِذَا الْكِرَاءِ ، فَكَانَتْ جِيُوشُ الْخُلَفَاءِ وَمُنَاصِرُوهُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُنْدِ الْمُرْتَزِقَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا الْحَيَاةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لِيُنْصَرُوا خَلِيفَةً عَلَى خَلِيفَةٍ لَا حِبَا فِي إِقَامَةِ عَدْلٍ وَلَكِنْ طَمَعًا فِي مَالٍ وَجَاهٍ وَحَيَاةٍ أَكْثَرَ رَغْدًا . وَلَقَدْ نَشَأَ الْمَمَالِيكُ عَازِفِينَ عَنْ حَيَاةِ الْإِسْتِقْرَارِ مُسْتَهِينِينَ بِالزَّرْعِ الْمُسْتَقْرِينَ نَاضِرِينَ إِلَى الْبَشَرِ عَلَى أَنْهُمْ طَائِفَتَانِ : طَائِفَةُ الْبَدْوِ الْمُقَاتِلِينَ الَّذِينَ هُمُ مِنْهُمْ ، وَطَائِفَةُ الْمَزَارِعِينَ الْمَسَالِمِينَ الَّتِي تَكْدَحُ فِي الْحَقُولِ وَقَدْ أَنْسَوُا أَنْهُمْ عَلَى كَدْحِ هَؤُلَاءِ الزَّرْعِ يَعِيشُونَ .

وَقَدْ وَاتَتْ الْخُلَفَاءُ فُرْصَةً اسْتِجْلَابِ هَؤُلَاءِ الْمَمَالِيكِ حِينَ عَمَّ الْجَذْبُ أَوَاسِطَ أَسْيَا التُّرْكِيَّةِ إِذْ غَدَتِ الْحَيَاةُ هُنَاكَ أَشَدَّ مَا تَكُونُ ضَيْقًا عَلَى أَهْلِهَا فَبَاتَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسُدُّونَ بِهِ رِمَقَهُمْ وَمَا يَقِيمُونَ بِهِ حَيَاتَهُمْ ، وَنَظَرُوا بِأَعْيُنِهِمْ عَبْرَ الْآفَاقِ فَإِذَا ثَمَّةُ مَجَالَاتٍ فِي أَشَدِّ الْعُوزِ إِلَى قَوَاهِمِ وَسَوَاعِدِهِمْ الْمَفْتُولَةِ فَهَجَرُوا مَوَاطِنَ ضَاقَتْ بِهِمْ إِلَى مَوَاطِنَ اتَّسَعَتْ لَهُمْ وَأُسْبِغَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ وَاسِعِ رِزْقِهَا ، فَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ النَّازِحِينَ عَنْ أَرْضِهِمْ فَرَسَانِ رَحِبَتْ بِهِمْ أَرْضُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَجَعَلَتْهُمْ جَنْدَهَا الَّذِينَ لَمْ يَلْبِثِ التَّارِيخُ أَنْ أَفْسَحَ لَهُمْ الْكَثِيرَ مِنْ صَفْحَاتِ كِتَابِهِ ، وَإِذَا هُوَ يَحْدُثُنَا عَنْ بَعْضِ مِنْهُمْ وَقَدْ أَعَانَ الْخُلَفَاءُ وَبَعْضُ الْآخَرِ أَخَذَ يَخْلَعُ الْخُلَفَاءَ وَيَقْتُلُهُمْ وَيَنْصَبُّ مَكَانَهُمْ غَيْرَهُمْ حَتَّى بَاتُوا هُمُ السُّلَاطِينُ الَّذِينَ يُمَلُونُ كَلِمَتَهُمْ وَلَمْ يَعُدْ لِلْخُلَفَاءِ مِنَ الْأَمْرِ مَعَهُمْ شَيْئًا . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ مَنْ تَهْدِيهِ عَقِيدَةُ أَوْ حَضَارَةُ أَوْ تَوْهَلُهُ مَوْهَبَةٌ عَقْلِيَّةٌ ، بَلْ كَانُوا جَمِيعًا عَلَى مَوَاهِبِ بَدْنِيَّةٍ اكْتَسَبُوهَا مَعَ مَعَارِكِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَشْتَوْنَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَوْقَ أَرْضِهِمُ الْأُولَى ، وَلَكِنَّهُمْ سَرَعَانِ مَا حَذَقُوا فَنُونَ الْخِدَاعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي شُؤُنِ الْحَيَاةِ .



وكان لمصر بدورها نصيبها من هؤلاء المماليك الذين حفزهم إليها ما كانوا يستمعون إليه - وهم يسمرون ليلاً حول نيرانهم الموقدة من الحطب - من الرحالة العابرين الذين كانوا يعودون إليهم بالأحاديث المستفيضة عن خيرات مصر وما تفيض به من بركات وعمالقي من سبقوهم إلى مصر وما انتهوا إليه من ملك وعز وسيادة وجاه بين عشية وضحاها ، فشجعت تلك الأحاديث من لهم فتوة على الرحيل ودفعت الآباء إلى أن ينزلوا عن أبنائهم ويبيعونهم بيع الرقيق لكل من يشتري لا يغالون في أثمانهم ، بل كما حدثنا التاريخ أنهم كانوا أزهد ما يكونون في الثمن طمعاً في ثراء واسع عريض سيحققه الأبناء حينما ينزلون أرض مصر مملوكين ليغدوا بعدها على أرض مصر مالكين . وبهذا رأينا كيف اتسعت تجارة الغلمان الذين جلب منهم على أيدي تجار الرقيق جماعات كبيرة وزرافات كثيرة زحموا هذا الوادي على أبنائه وسدوا عليهم منافذ الحياة لا سيما تلك المنافذ التي كان ينسبط في ظلها العز والجاه ، وبهذا قنع السادة بما يجلب إليهم من هؤلاء العبيد ولم يعودوا يحملون أنفسهم مؤونة شن الغارات للظفر بالأسرى والسبايا والأقنان . وحين استقر بهم المقام على أرض مصر ووجدوا في خيراتها ما يغنيهم ، ووجدوا ما انتهوا إليه من حياة السيادة والتسلط بعد أن غدت الأمور ملك يمينهم ركنوا إلى شيء من الدعة .

وعلى حين كان الرقيق الأسود يسمى «عبداً» سمي الأبيض «مملوكاً» ، ومع مر الزمن أخذت أثمان المماليك تهبط ، فبينما بيع الظاهر ببيس بثمانية دنانير ثم رد إلى بائعه لاكتشاف سحابة على إحدي عينيه الزرقاوين ، كان بعضهم يزهر بارتفاع الثمن الذي دفع فيه ، بل إن منهم من أضافه إلى قائمة ألقابه مثل السلطان قلاوون [ المملوك الوحيد الذي أسس أسرة تتوارث الملك ] الذي تسمى بالسلطان الألفي نسبة إلى الثمن الذي دفع فيه وهو ألف دينار ، ولو أن سلطاناً آخر لا يقل شهرة عنه هو قايتباي لم يزد ثمنه عن خمسين ديناراً . ويقول إيمانويل بيلوتي [ القينيسي المقيم بكريت والذي استقر عام ١٤٠٠ بالقاهرة وعدّها أعظم مدينة فوق سطح الأرض ] إنه كانت هناك تفرقة كبيرة بين أجناسهم ، فالتتار هم أبهظ المماليك ثمناً إذ يبلغ ثمن الواحد منهم ما بين مائة وثلاثين ومائة وأربعين دوقاتية ، والشركسي ما بين مائة وعشرة ومائة وعشرين ، واليوناني تسعين دوقاتية ، على حين يتراوح ثمن الصقلي أو الألباني ما بين خمسين وثمانين دوقاتية ، كما قدر بيلوتي عدد المماليك في قصر السلطان بحوالي خمسة أو ستة آلاف مملوك .

ولقد لعب هذا النظام دوراً حاسماً في حماية مجتمع كانت تهدده من الشرق والشمال مطامع المغول والصليبيين . ولما كان الهدف من شراء المماليك هو القتال ، فقد أثبتوا بغرور وسيتهم وبطولاتهم جدواهم ، إذ كانوا عند حسن ظن سادتهم في الحفاظ على عروشهم وفرض هيبتهم ومد سلطانهم ، غير أنهم لم يظفروا بنفس التقدير من جانب الشعب المصري بالرغم من أن بطولتهم القتالية واستبسالهم هو الذي جنب القاهرة المصير المفجع الذي لقيته بغداد على أيدي المغول بقيادة هولاكو ثم تيمور لnk من بعده . وبالرغم من جورهم وتعسفهم إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد مصر لها مثيلاً منذ عهد البطالمة ، فإليهم يرجع الفضل في حشد سماء القاهرة بالملئات من المآذن الرشيقة والقباب البديعة . وكم حار المؤرخون في تحليل ازدهار الفنون على أيدي مثل هؤلاء البرابرة ، فكتب ستانلي لين - پول عام ١٨٩٣ قائلا : «كيف تسنى لمثل هذه الطغمة من المغامرين المترعة نفوسهم تمرداً وغدراً والذين وفدوا على مصر رقيقاً لاحتراف القتال وسفك الدماء أن يتقلبوا ملوكاً رهيقي الحس أمام الفنون ، فتقام على أيديهم صروح تشكل أمجاداً

فذة لأي حاكم متحضر يعتلي عرشاً شرعياً ؟ فعلى الرغم من همجية خلقهم وطباعهم اتسمت العمائر والزخارف والأزياء وقطع الأثاث التي أنجزت في عهدهم بذوق جمالي لا يبارى . ولا يجد لين - پول في النهاية تفسيراً لهذا التناقض إلا أنه «حرص البرابرة على الزهو والنباهي» . وبطبيعة الحال لم يغيب عنه أن البرابرة قد داسوا بقاع العالم كله دون أن يجري على أيديهم ما حدث في مصر وحدها ، وذلك ما يشير في نفوسنا هذا التساؤل المشروع : لم لا تكون البيئة المصرية هي صاحبة الفضل الأول ؟ إن الذي يدفعنا إلى هذا القول أن علماء آخرين من أنصار نظرية الأجناس خلال القرن التاسع عشر مثل الكونت جوينو الفرنسي ومثل هوستون ستوارت تشمبرلين الإنجليزي الذي تجنّس بالجنسية الألمانية فيما بعد ، حاولوا تعليل هذه الظاهرة بأن مهاجري أواسط آسيا وخاصة سكان القوقاز كانوا جنساً أشد قدرة على الخلق والإبداع من الشعوب التي حكموها . ولا شك أن هذه النظرية بعيدة عن الصواب ، ذلك أن الأتراك والشراكسة ليسوا من الجنس الهند - أوروبي الذي يؤثره الفلاسفة المتعصبون للأجناس ، كما أن الصناع والحرفيين الذين شيدوا هذه المساجد الرائعة وأنجزوا زخارفها الأسرة هم المصريون وحدهم الذين لا شك في أن مهارة أسلافهم الفراعنة وذوقهم قد استيقظا في أعماقهم فكانا متنقّساً لهم في ظل ما يلقونه من عنت المماليك واستبدادهم .

ولم يكن المماليك بذواتهم فنانيين لكنهم كانوا ذواقين للفن على الرغم من أن ولعهم الأكبر قد انحصر في مظاهر القوة والبطش . ولعل أحداً لم يبدع في وصف عقلية المماليك وأساليبهم مثلما أبدع قولني ، ذلك الرحالة الفرنسي الذي زار مصر قبيل اندلاع الثورة الفرنسية مباشرة عندما كان المماليك يحكمونها تحت الإشراف الإسمي للدولة العثمانية . وكان مجال شراء المماليك وقتذاك قد انفسح حتى شمل الولايات الواقعة على تخوم الإمبراطورية العثمانية وخاصة البلقان ، فلقد كان معظم المماليك أبناء أسر مسيحية باعهم أبائهم لقاء ما يظفرون به من مال . ومع أن تحليل قولني لطائفة المماليك جاء في فترة انحلالهم وتداعي دولتهم إلا أن ما سجله عنهم في خاتمة القرن الثامن عشر جاء معبراً تعبيراً صادقاً عما كانوا عليه من قبل في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، إذ وصفهم قائلاً : «إنهم خليط من الغرباء لا تربطهم رابطة الأسرة ، فهم بلا ماض يشدهم ولا مستقبل يعملون من أجله ، يشيع بينهم الجهل والإيمان بالخرافات ، يدرّتهم القتل على الوحشية ، والفن على التمرد ، والدسائس على الغدر ، والرياء على النفاق ، والانغماس في شتى أنواع المندذات على الفساد . هذا إلى أنهم كانوا مذمّنين على تلك الرذيلة التي كانت منذ زمن غابر سبة الإغريق والستار ، فقد كانت هي الدرس الأول الذي يتلقاه المملوك على يد مدرّب السلاح . . . وما يكاد الفتى الذي بيع في إقليم الكرج أو غيره يصل إلى مصر حتى يتشكّل تفكيره تشكيلاً ثورياً ، فثمة مستقبل زاهر بلا حدود يفتح له ذراعيه ، إذ يتضاfer كل شيء لشحذ جرأته وضموحه ، ويرأوده الإحساس بأن القدر يسوقه لكي يصبح سيّداً آمراً وهو ما يزال عبداً مملوكاً . وسرعان ما يتقمّص هبة الشخصية التي سيكونها يوماً ، ويزن حاجة سيّده إليه فيتقاضى ثمناً غالياً لخدماته وحماسته وولائه . وإذا كان المال هو الخافز الأول في هذا المجتمع فقد كان حرص السادة شديداً على اكتساب ولاء عبيدهم بإشباع جشعهم . ومن هنا كان الغلو في التبذير المخرب لاقتصاد مصر الذي مارسه البكوات ، وهو ما كان السر وراء عصيان المماليك لبعض قادتهم بين الفينة والفينة ، ومن هنا كان تنابح الدسائس والمؤامرات دون توقف ، حتى إذا أعتق المملوك





لوحة (٢) جنتيلي بليني .  
السلطان الغوري

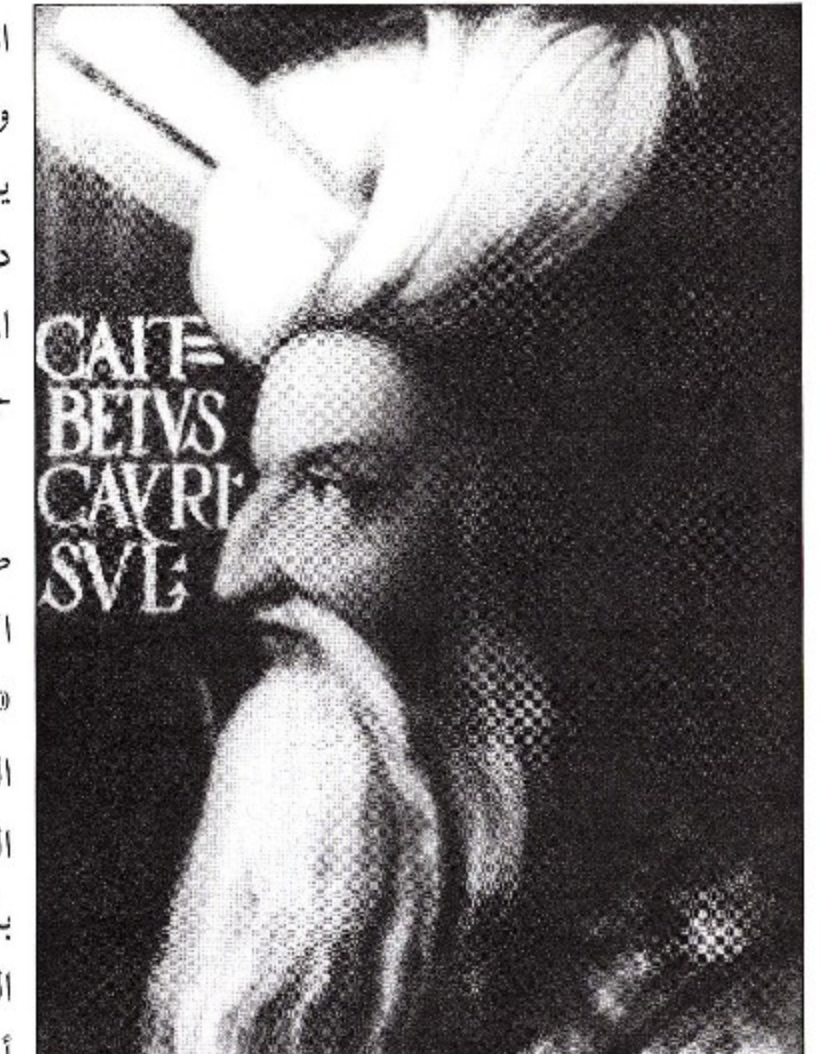
هذه العمائر مبناه الضخم الذي شُيّد بعناصر منتزعة من الأطلال والمباني القديمة بُني ليكون مجمعا يضم إلى جانب المسجد مدرسة ومكتبة عامة ومورستانا [مستشفى] ومأوى عَجْزة وضريحا وحديقة عامة في آن معا .

ولعل اهتمام المماليك بالأضرحة كان مما انحدر إليهم من أترك أواسط آسيا الذين كان أهلوها يُعنون بتمجيد أسلافهم . وثمة قول آخر وإن كان مشكوكا فيه هو أنه انحدر إليهم من التقاليد المصرية القديمة . فقد شُيّد الحكام المنحدرون من أصل تركي في وسط آسيا والهند والأناضول مثلما شُيّدوا في مصر أضرحة صرحية بديعة ، منها على سبيل المثال أضرحة جبانة شاهي زنده التي شُيّدتها تيمور لنگ بسمرقند ، وضريح تاج محل الذي شُيّد شاه جهان لزوجته أرجمند بمدينة أجرة ، والأضرحة العثمانية المبكرة في بورصة ، على حين كانت الجوامع الإسلامية الأولى مثل جامع عمرو وابن طولون والمساجد الفاطمية أماكن خالصة للعبادة وتدارس الدين ، فكان الأزهر جامعة كبرى حيث يحاضر الشيوخ طلبتهم إلى جوار الأعمدة المنتشرة هنا

وهناك ، ثم أضيفت مساكن الطلبة الوافدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وما كاد المماليك من الترك يتولون الحكم حتى باتت الأضرحة جزءا رئيسا من كيان المسجد الذي ظل مكانا للعبادة والدراسة . ولقد كان ما يُعقد حول الأضرحة من حلقات يُتلى فيها القرآن ويُعرض فيها تفسير لآيات منه ما يرجو منه الحكام أن يحو ما لهم من آثام وأن يسدل ستائر النسيان على ما كان لهم من طغيان ، يستمطرون به في زعمهم شأبيب الرحمة والمغفرة التي يرجون أن ينعموا بها في مثوهم الأخير . لهذا حرص هؤلاء الحكام الطغاة على أن يشيّدوا الأضرحة لتكون محط رحال تلك الحلقات التي معها العزاء والسلوان .

وقد شُيّد المماليك البرجية الذين حكموا مصر من عام ١٣٨٢ إلى عام ١٥١٧ أضرحتهم على بعدة من المدينة المأهولة بالسكان في المنطقة القاحلة إلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي من القاهرة . ويرقد برقوق أول السلاطين الشراكسة في ضريح شُيّد له ابنه الغليظ القلب في القرافة الشمالية ، ويفوق الضريح في جماله المسجد الذي شُيّد برقوق نفسه إلى جوار مسجد قلاوون بالنحاسين ، ولم يقتصر استعماله على إيواء جسد السلطان فحسب بل كانت تؤمّه جماهير المصلّين ، كما استقر به بعض رجال الدين ومن بينهم المؤرخ المقرئ الشهير . وعلى مسيرة قصيرة من هذا الضريح ينتصب أعظم مساجد المماليك البرجية شأنًا وهو ضريح السلطان قايتباي ، وكان آخر عظماء المماليك الملحوظين الذي رسم له وللسلطان الغوري مصوّر أوربي من البندقية . يُشاع أنه جنتيلي بليني دون أن يتأكد ذلك - صورتين شخصيتين تعدّان من الآثار النادرة لاثنين من أهم ممالك العصر ( لوحة ١ ، ٢ ) .

وحين شُيّد الفاطميون مدينة القاهرة لم يدر بخلدهم إلا أن يجعلوها معقلا لجنودهم ومقرّا لخلفائهم ، ومن ثم سورّوها وجعلوا لها البوابات المنيعه ولم يبجحوا سكنها إلا لمن ارتضوا ، ووضعوا شروطا للمرور بها إلى أن اضمحلت دولتهم وأفلتت الأمور من أيدي حكامهم فتوافد



لوحة (١) جنتيلي بليني .  
السلطان قايتباي

انفتحت أمامه أبواب الأمل وتعلّقت عيناه بأعلى المراكز ولم لا ؟ والمحتلون لهذه المناصب نظراؤه لا يزيدون عنه شيئا يعبا هو به ، فهو لا يرى فيهم غير جنود مثله لم يصلوا إلى السلطة إلا باستخدام القوة . وما دام الحاكم قد انتزع مكانه بالقوة فإن في مكنته هو أيضا أن ينتزع منه هذا المكان ، ولن يكون أقل كفاية منه في فن الحكم الذي يتمثل في طعنات جارحة بالسيف وانتهاب للمال .

وهكذا ما يكاد المماليك يشبون إلى السلطة حتى ينبروا لحمايتها عن طريق البطش والقسوة بقدر ما يعربون عن هيبته وزهوها بتشديد الأعمال الفنية الشامخة ، فابتكروا جزائين ذاع صيتهما : هما «التوسيط» وهو شطر جسد الضحية شطرين من وسطه ، «والخازوق» الشهير . ويعلّق دزموند ستيوارت على جزاء الخازوق في كتابه «القاهرة الكبرى» بقوله : «إن مثل هذا التعذيب كان يذكر السلطان على الدوام بأنه على حين أن المنجزات الفنية يمكن أن تجذب إعجاب الأجيال القادمة ، فليس غير القوة وحدها حاميا له من أن تكون نهايته هو نفسه أن يترع على قمة الخازوق » . ومع هذا فقد كان هؤلاء العبيد البيض

يلقون تدريجا جادا على ارتشاف المعاني الروحية للإسلام ، فما يكادون يصلون إلى مصر حتى يُودّعوا - كما يشهد المؤرخ «بيلوتي» - في مبنى ضخم للتدريب مشيّد من عدة طوابق حيث ينامون في قاعات فسيحة فوق حُصْر من السمار ، ويشرف عليهم أساتذة من الأغوات يتعهد كل منهم فصلا يضم خمسة وعشرين غلاما يتلقون أصول العقيدة الإسلامية حتى يحلّ وفاء النيل فيُعرضون على السلطان لانتقاء النخبة المختارة من الجيل الجديد التي يضمّنها إلى بطانته وحرسه .

وليس هناك ما يجعلنا نشك في إخلاص المماليك لعقيدة الإسلام ، ذلك أنهم إلى جانب حرصهم على التباهي باقتناء ثمين الجواهر وفاخر الأثاث وباذخ الثياب قد حرصوا الحرص كله على تشييد المساجد والسبل والبيمارستانات التي كانت وما تزال تحفا معمارية شديدة الروعة بالغة التأثير . وكان المماليك يقرّبون علماء الدين والقضاء المصريين من رجال الأزهر حرصا منهم على تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني واتخاذهم مظهرا شرعيا يؤمّن جانبهم باعتبار أن ما يصدرونه من أحكام إنما يستمد شرعيته من فتاوى العلماء الأجلاء ورجال الدين فضلا عن أنهم يمثّلون الشعب المصري إلى جانب الحكام الغزاة .

وكان الفاطميون هم أول من جلب المماليك إلى مصر في القرن العاشر ، ثم تبعهم السلاطين اللاحقون من الأيوبيين . وقد أقام المماليك الذين حكموا مصر حوالي ٢٥٠ عاما دولتين : دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢) وقد أسكنهم السلطان صالح الأيوبي جزيرة الروضة على بحر النيل وأشهرهم الظاهر بيبرس ، ودولة المماليك البرجية أو الشراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧) الذين أسكنهم السلطان قلاوون في ثكنات جديدة حول برج قلعة القاهرة . وقد أمضى قلاوون معظم فترة حكمه التي طالت أحد عشر عاما في حروب متصلة ، وكان يملك عددا من المماليك لا يقل عن اثني عشر ألفا يُنظر إليهم نظرة قادة اليوم إلى دباباتهم ومركباتهم المدرّعة . وترك قلاوون اسمه حيا في ذاكرتنا بفضل العدد الغفير من العمائر المتسمة بالنفع والجمال التي خلفها ، وأشهر



عليها من يشاء يبتني الدور ويشيد القصور . وبزوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية أبيح سكنى القاهرة لجميع الأهالي وانبرت الدولة تجمل العاصمة بغرس البساتين وبناء قصور النزهة . ولقد تغيرت القاهرة المماليك كثيرا عما كانت عليه إبان عهد الفاطميين ، ولعب نهر النيل الدور الأكبر في هذا التغيير ، إذ كان مجراه دائب الانحدار تجاه الغرب ، وهو ما أتاح لطميه أن يشكل جزيرتين هامتين التصقتا بدورهما بالضفة الشرقية . وأولاهما هي بولاق التي تشكلت كجزيرة في صدر القرن الخامس عشر عندما كان المقرزي الذي كتب عنها يعيش بمسجد ضريح برقوق ، وقد ارتبطت بطريق معبد يؤدي إلى الساحل القديم عند المقس [ قرب قصر العيني الآن ] . وكما حل ميناء المقس محل مرفأ الفسطاط القديم الذي غمره الطمي حلت بولاق محل المقس . وبنهاية القرن الرابع عشر كانت المنطقة الواقعة خلف ساحل بولاق قد اتسعت مساحتها وغدت آهلة بالسكان إلى أن شقت قناة جديدة هي « الخليج الناصري » لتوصيل المياه إلى المزارع .

وصوب الشمال قليلا كانت ثمة سفينة تدعى « الفيل » قد غرقت أثناء العهد الفاطمي ولم يتشمل حطامها ، فاجتذب هيكلها الطمي والرمال والأنقاض التي أخذت تتراكم عليها حتى شكلت جزيرة ضخمة هي شبرا الآن لم تلبث أن استصلحت للزراعة في عهد صلاح الدين الأيوبي وصارت تدر دخلاً كبيراً فيما بعد حتى إن السلطان قلاوون أوقف عائداتها حين تولّى الحكم للإنفاق على مدرسته ومورستانه . وفي نهاية القرن الرابع عشر التحمت هذه الجزيرة بجزيرة بولاق وشكلاً معاً ضاحية زراعية لمدينة القاهرة تبعد عن قلبها بمسيرة غير قصيرة ، وتفصل القاهرة عن مصدر مياهها العذبة وشربانها الحيوي الذي يربطها بالعالم الخارجي .

وإذا كان الحج هو ذروة العام الهجري ، فقد كان فيضان النيل هو ذروة المباحج الدنيوية التي اكتسبت مع ذلك صبغة دينية ، فقد كان يقام له مهرجان شعبي كبير يفتحه السلطان بالإنصات إلى تلاوة القرآن حتى تمتد مأدبة باذخة يجتمع حولها عليّة القوم وكبار القضاة ثم ينهض السلطان فيفتح السد لتندفق المياه إلى الخليج .

وكان آخر سلاطين المماليك هو قنصوه الغوري [المعاصر لسيزار بورجيا] ، وهو السلطان السادس والأربعون بين المماليك عامة والعشرون بين المماليك البرجية ، حكم من سنة ١٥٠١ إلى ١٥١٦ ومات خلال معاركه ضد الأتراك العثمانيين الذين غزوا سوريا ومصر بقيادة السلطان سليم . والأتراك كما يصفهم أندريه سيجفريد في كتابه [ سيكولوجية بعض الشعوب ] هم : « أولئك المغول الذين لا يعدّون بحق من سكان حوض البحر المتوسط من ناحيتي الأصل والثقافة وإن بلغوا شواطئه وسيطروا عليه سيطرة تامة . وبالرغم من اعتناقهم الإسلام إلا أنهم ظلوا فيه كالغرباء ، وذهبت حصيلتهم في النواحي السياسية وضروب الفنون العسكرية أدراج الرياح على خلاف ما أحدثه العرب في هذه المنطقة » . وحينما زحف الأتراك مهددين نظام المماليك لم يبذل هؤلاء جهداً لتنظيم صفوف الشعب المصري لمواجهة هذا الغزو ، ولم يتفق ذهنهم إلا عن العفو الشامل عن جميع السجناء من اللصوص والقتلة على أمل أن يشاركوا بما أوتوا من مواهب إجرامية في التصدي للغزاة . وقد اكتفى الشعب المصري عن بكرة أبيه بالوقوف موقف المتفرج على ما يجري من معارك بين الغزاة القادمين والغزاة المقيمين .

ولم تكن مصر قد عرفت حتى السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجة لاستخدام الأسلحة النارية خلال الفترة بين غزوات التتار والفتح التركي . وهي الفترة التي تأصل فيها استخدام الأسلحة النارية . إذ لم يكن ثمة تهديد خارجي على مصر يدفعها إلى طلب هذا السلاح من أوروبا التي كانت على اتصال دائم بها . ثم إن تربة مصر لم تكن تنطوي على المعادن الأساسية لصّب المدافع ، كما كانت الأوضاع الاقتصادية في مصر متدهورة نتيجة القحط والمجاعات والأوبئة . وعلى الرغم من ذلك فقد استخدمت الأسلحة النارية استخداماً واسعاً على عهد قنصوه الغوري ، بيد أن مصير دولة المماليك كان محتوماً ليس فقط للتفوق الساحق للأسلحة النارية العثمانية بل لعجزهم عن استخدام الأسلحة النارية بكفاية ، وبخاصة أنهم عهدوا بها إلى وحدات أقل شأنًا من الناحية الاجتماعية ، على حين بقي القسم الأكبر من المماليك الأصيلاء بعيداً عن استخدامها . ومن ثم كان الموقف السلبي من الأسلحة النارية بالإضافة إلى الافتقار إلى الانضباط وتفشي النزعات الطائفية هي الأسباب الأساسية في هزيمة المماليك الذين كان جيشهم برغم هذه السلبيات ما يزال خصماً قوياً يحسب له أي جيش مزود بمثل أسلحته ألف حساب . ولو كان العثمانيون قد اشتبكوا معهم بالسيوف والأقواس والرمح لكان هناك شك كبير في انتصار العثمانيين عليهم ، ولو شاء المماليك استخدام الأسلحة النارية في القتال ليزوا غيرهم ، ولكنهم أحجموا عنها احتقاراً لشأنها ولاعتبارهم أن طبيعة هذه الأسلحة تبتعد بها عن مبادئ الفروسية والخلق الحربي النبيل . وقد كشف ابن زنبيل بأسلوبه الدارج عن هذه الحقائق بدقة بالغة في وصف المعارك التي دارت بين المماليك والعثمانيين في كتابه « فتح مصر » ( ١٢٧٨ هـ ) حين قال : « إن النار لا يطيقها أحد ولم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك . ومن يقابل هذه النار المهلكة ؟ فلا قدرة لنا على عسكر الروم [ الأتراك ] وكثرتهم ونيرانهم . ولكن ما شئت المماليك إلا هذه النار التي يرمونها بها ، فما يشعر الإنسان إلا وهو مضروب بها ، وما يعرف من أي جانب جاءته . . . وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء [ مرج دابق ] كالمجزرة من الدماء . . فوجدوا الذي قتل من الشراكسة ألف نفس وأكثرهم من المدافع والبندقيات فلاقاهم الإنكشارية برشاش بندق حلت الرائد أكثر من الواقف . وما قتل من الشراكسة أحد بالسيوف والعود [ الرمح ] وإنما كان القتل فيهم بالبندق والدرزانات وآلات النيران على سائر الصنوف . . . وقد بقي فئة قليلة ولكن كل واحد منهم مقوم بالوف ، ولولا النار التي مع الروم لكنا أفنيناهم عن آخرهم » . وفي نهاية الأمر دارت معركة فاصلة دامت يومين بين طومان باي بقواته من البدو والمماليك وبين العثمانيين قرب الأهرام هزمت فيها الأسلحة النارية العثمانية المتفوقة شجاعة المماليك . ولقد أشفق أهل القاهرة على مصير السلطان طومان باي الذي تولّى السلطنة والقيادة مضطراً بعد مصرع قنصوه الغوري لأيام معدودة ولقي مصرعه هو الآخر شتفاً على باب زويلة شأن صغار العبيد . وقد ظفر طومان باي بإعجاب المصريين لشجاعته وفضائله ، غير أن كثرة ما عانوه من ظلم المماليك وجورهم لم يترك في نفوسهم أملاً بأن يستطيع سلطان بمفرده مهما كانت كفايته وتمسكه بالفضيلة أن يخلصهم من عنت هؤلاء الحكام الطغاة وجورهم . وقد راحوا يتأملون الغازي الجديد بعيون تحلم بصلاح الدين الجديد بينما هو يستعرض جنوده في طرقات القاهرة . فدخل سليم من باب النصر يتقدمه المشاة والفرسان مجتازاً القصبه الخالدة صوب باب زويلة في طريق عودته إلى



معسكره ببولاقي . وكان هذا السلطان الضئيل الحجم الذي يخطو بقفطانة المخملي الفضفاض وعمامته الضخمة وسط زغاريد النساء - في الأربعين من عمره محدودب الظهر حليق الذقن رمادي البشرة واسع العينين كبير الأنف كرية السحنة قلق اللفتات ، بيد أن إفراطه في ذبح المماليك الشراكسة سرعان ما أثار غضب الشعب المصري السريع إلى المغفرة والتسامح ، فتحول شعوره إلى عدااء ضد الغاصب الجديد الذي تخطى جميع الحدود في تعقبه للمماليك ، فلم تعد المساجد نفسها بآمن يحتمون فيه ، وبلغ عدد المماليك الذين جُزّت رؤوسهم على مشهد ومرأى من السلطان سليم ثمانمائة ، فضلا عن لقوا حتفهم خلال محاصرتهم لإلقاء القبض عليهم . وكان الجلاد يصنّف الرؤوس المفصولة عن أجسادها فيجمع رؤوس الشراكسة في كومة ورؤوس الخدم والعبيد في كومة أخرى . وما لبثت رؤوس المماليك أن شُدت إلى حبال لعرضها على الجماهير في الجزيرة الوسطى [الزمالك حاليا] ، ثم قُذِف بالجثث إلى قاع النيل . وغادر سليم القاهرة في ٩ مايو ١٥١٧ وقد جرفته الحنين إلى مناخ البسفور المعتدل بعد أن نزح معه الكثير من كنوز مصر التي انتهبها من المساجد والقلعة إلى جانب اصطحابه لألف وثمانمائة من أمهر العمال والصنّاع والحرفيين المصريين إلى إستنبول .

وهكذا فقدت القاهرة على أيدي العثمانيين استقلالها السياسي والديني معا ، ولم يكن هذا وذاك إلا طعنة لكبرياء مصر وإن كانت في الحقيقة قد استبدلت لونا من الحكم الأجنبي بلون آخر . كما فقدت مصر على أيدي الأوروبيين ما هو أدهى من ذلك وأخطر وهو زوال مركزها الاقتصادي والإستراتيجي المسيطر . ففي مايو ١٤٩٨ في نفس السنة التي اكتشف فيها كولومبوس أمريكا أبحر فاسكو داجاما إلى كلكتا على الساحل الجنوبي الغربي للهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . وهي رحلة لم تخف على السلطان الغوري خطورتها ، فقد أدرك رغم انشغاله بمشاكل مماليكه وقرود بدوه داخل البلاد وبوطاة العثمانيين على الحدود ، أن هذه الرحلة البحرية نذير شؤم على مصر ، ومن هنا كان سر زيارته المتعددة إلى السويس ومحاولته بناء أسطول لطرده الأوروبيين من مياه المحيط الهندي ، لأن التفاف فاسكو داجاما حول جنوب إفريقيا لم يكن مجرد رحلة بحرية مثيرة بل كان إيذانا بانفلات أوروبا من عزلة كانت مفروضة عليها بحكم وجود دولة المماليك القوية التي كانت الحائل الحقيقي بينهم وبين النفاذ إلى الهند والصين ، إذ كانت دولة المماليك هي الوسيط التجاري الهام بين أوروبا والشرق الأقصى حتى إنها رفعت سعر التوابل النافذة من الشرق إلى ثلاثة أضعاف ثمنها الأول فأحالت بذلك التوابل إلى ما يشبه الأحجار الكريمة ، ولا يخفى على أحد الأهمية التي يعتقها الأوروبيون على التوابل والأفاوية لمذاق أطعمتهم . وإذ تخطى الأوروبيون هذا الحاجز كاسرين ذلك الاحتكار الذي لم يستطع السادة الجدد من العثمانيين الحفاظ عليه بله استرداده ، فقد فقدت مصر أهميتها الاقتصادية بالنسبة للسوق الأوروبية . ومع فقد مصر لمركزها الإستراتيجي ولسلطانها السياسي ومصدر دخلها الأساسي فإنها لم تتحرر للأسف من سطوة المماليك الذين ما لبثوا أن عادوا يمسون بخناقها ويجثمون على أنفاسها ، إذ كان الآلاف منهم قد بقي على قيد الحياة وأُقلت الكثير منهم من المذابح الرهيبة التي حاصروهم بها العثمانيون . ولم يجد السلطان سليم يوم ولّى وجهه شطر البلقان خيرا من المماليك الذين يمكن أن يعهد إليهم بجباية الضرائب بوصفهم الأداة المثلى للجور والعسف ، فعين أحد الباشوات لممارسة الحكم من القلعة يساعده خمسة آلاف من الجنود الإنكشارية المجندين من بين

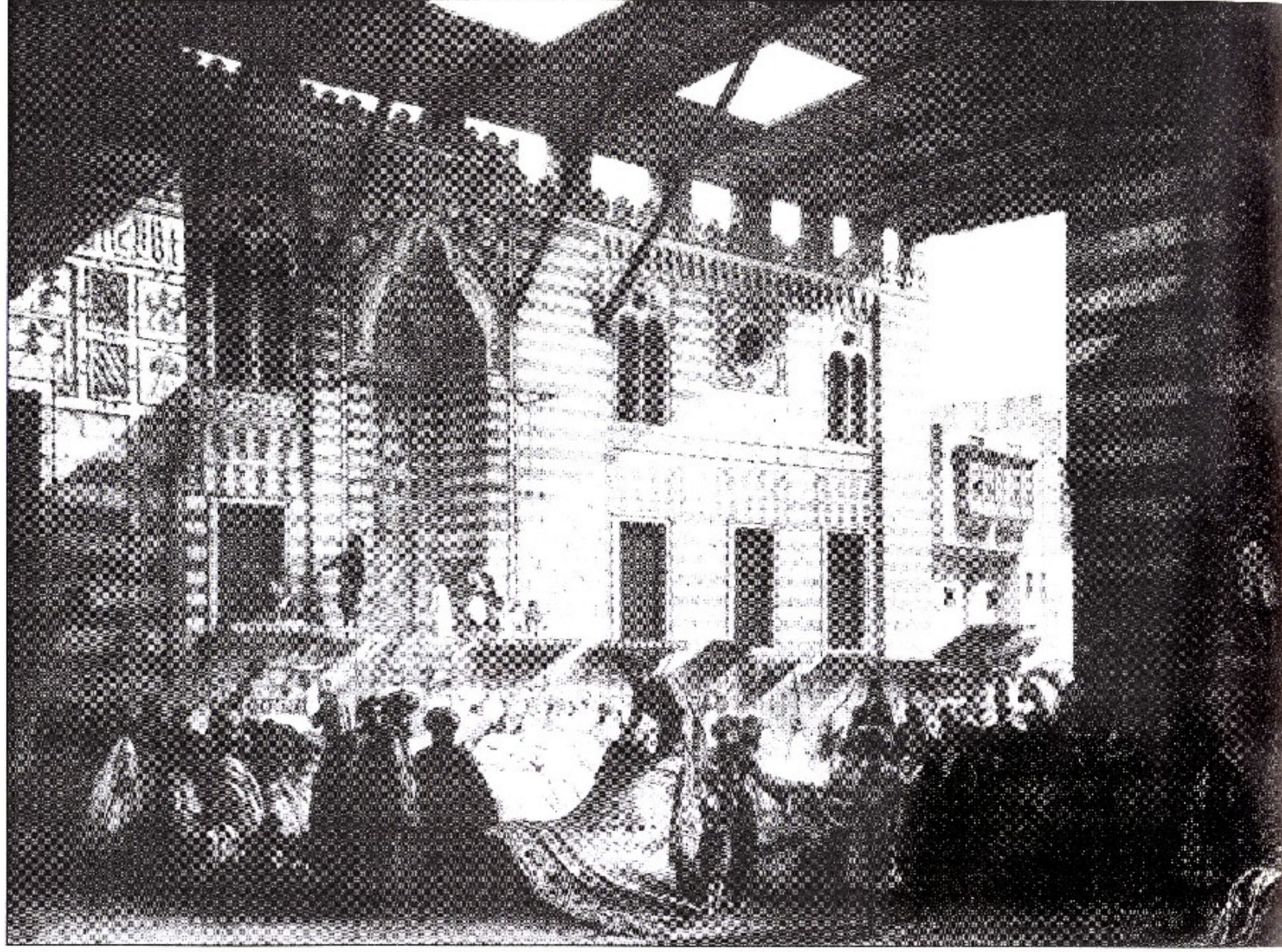
غلمان البلقان المسيحيين<sup>(١)</sup> ، كما شكّل ديوانا للمشورة لمساعدة الباشا مكونا من الضباط العثمانيين وكبار رجال الدين . وفي نفس الوقت أمّن أمراء المماليك على ممتلكاتهم واختار سنجقا [أميرا] لكل محافظة من المحافظات الإثنتي عشرة التي قُسمت إليها مصر . وإذا كان المماليك قد كفّوا عن التطلع إلى تسلم عرش السلطنة كسابق عهدهم إلا أن استحوادهم على حق جباية الجزية المفروضة على البلاد قد منحهم التصرف لاستنزاف المصريين على هواهم . والحق إنه لم يعد هناك الكثير لاستنزافه كما كانت الحال من قبل ، إذ لم تعد مصر دولة ذات سيادة تشعّب تجارتها مع دول العالم ، كما ركزت سوق التجارة بها بعد أن غدت قبائل البدو تشكل تهديدا سافرا . ويؤرخ على مبارك لهذه الحقبة في الخطط التوفيقية قائلا : «انحلت عرى الضبط والسياسة ، واختل حال الرعية ، وقل الأمن ، وكثرت اللصوص وقطّاع الطريق حتى صاروا يدخلون البلاد للنهب جهارا ليلا ونهارا بلا مبالاة . . . وكثرت الرشوة للحكام واتسع نطاقها حتى صارت أمرا معتادا . وجعل الحاكم همه في جمع المال ، يحتال بكل وسيلة لتحصيله . . . ولم يكن له أثر قط يُذكر به إلا تغيير زي اليهود والنصارى ، فألبس اليهود الطراير السود وألبس النصارى البرانيط السود . . . كما فشا شرب الدخان بمصر ولم يكن معروفا قبل ذلك . وعمّ الهول أنحاء القطر وانحلت الروابط بين الناس وخيم الفقر وكثرت الفتن دون رادع ، فلا يقع بصر المار بشوارع القاهرة إلا على فقير في أسماق بالية مرقعة أو على قتيل معجندل أو على إنكشاري أو أرناؤطي ينهب أو على محتسب يجور ويظلم . فإذا رفع نظره إلى المباني لم ير إلا خرابا وأسوارا ، وإذا انتهى إلى أطراف المدينة لم ير إلا التلال والأكوام والأطلال تبكي على ما كان ، أما ما بقي من بيوت الأمراء والمساجد فقد صار مساكن للرعاة ومعاطن للدباغة ومرمى للأوساخ وملقى للسباخ»<sup>(٢)</sup> . وأخذت القبضة العثمانية على مصر تتخاذل وتضعف ، ومع تزايد ضعفها بدأت شوكة زعيم المماليك - الذي أصبح يدعى شيخ البلد - تقوى ، كما استفحلت الصراعات بين فئات المماليك ، وأسفر ذلك كله عن تدهور شديد حق بمدينة القاهرة . وخلال القرن والنصف التالي ازدادت عزلة مصر عن العالم الخارجي فلم يدر سكان القاهرة شيئا عن تفجّر الاكتشافات العلمية المذهلة في أوروبا أو عن استعمار أمريكا أو عن اختراع المطبعة أو عن الاتصالات التجارية الجديدة بين أوروبا والشرق الأقصى . فعلى حين كان المسلمون هم الذين نقلوا الأرقام الهندية إلى الغرب وابتكروا علم الجبر وحافظوا على تقاليد مهنة الطب اليونانية إلا أنهم جهلوا ما أصاب هذا التراث من ازدهار على أيدي الورثة الأوروبيين ، كما كانت المجاعات والأوبئة تتوالى على المصريين حتى لقد افترس الطاعون وحده عام ١٦١٩ ستمائة وخمسة وثلاثين ألف نفس .

وقد خط الرحالة قولني أنه بينما ترتفع معظم بيوت باريس خمسة طوابق فإن بيوت القاهرة لا ترتفع أكثر من طابقين ، وقدّر عدد سكانها بربع مليون نسمة وعدد سكان مصر بحوالي المليونين ويقول : «إذا قسنا مدينة القاهرة بمعايير القرن الثامن عشر الجمالية فلا شك أنها كانت خليطا غير منتظم ، إذ هي تفتقر إلى النسق المتعارف عليه لكل من المنشآت الحكومية والمنشآت الخاصة ، وإلى الميادين الفسيحة المنتظمة وإلى الطرق المستقيمة التي تتيح للعمائر أن تكشف عن جمالها ، كما تملئ أطراف المدينة بالتلال المتربة التي تتجمع فيها فضلات القمامة المتركمة ، والتي تتصاعد منها الروائح العظنة التي تزكم الأنوف إلى جانب مشهدها الذي يؤذي العيون . وأشدّ ما يثير نفور المرء هو أن يرى على مقربة من هذه الأكوام القذرة وثياب المارة المهلهلة مشهد فرسان الحكام والبكوات

(١) الإنكشارية فرقة متميزة بين فرق الجيش العثماني كان أفرادها يجتشدون من بين الشباب المسيحيين تقدّمهم الأقاليم المسيحية الخاضعة للأتراك سنويا . وكانوا يشترطون منذ نعومة أظفارهم على الولاء للسلطان ويتلقون تدريبا عسكريا خاصا ، وبلغ نفوذهم خلال القرنين ١٧ ، ١٨ حدا جعلهم ينصبون السلاطين ويخلعونهم وفق هواهم إلى أن قضى عليهم السلطان محمود في عام ١٨٢٦ في مذبحه باستنبول مترسما خطى محمد على في مذبحه المماليك بالقلعة .

(٢) انظر «الخطط التوفيقية» لعلي مبارك صفحة ١٤٨ ، ٢٠٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .





لوحة (٣) روبرت هاي.  
صور وصفية للقاهرة. سوق  
الأقمشة والسجاد بالغورية

من القماشين والإسكافيين أو الصرمامية والسروجية والفرارخية، ثم أهل الخرف الوسطى كالمصراية والسيرجانية والطحانيين والسكرية والعقادين والقصبجية والحريرية والنحاسين والبياطرة والنجارين والعطارين والنقلية والقباية ودالين العقارات والصناديقية والقمصانجية وأمناء عيار النقود والصباغين والقشائين والقصاصين والقواسين [ لصناعة الأسهم ] وشيخ البصمجية . وأخيرا طبقة البورجوازية التجارية وأغلبهم تجار بُن وتوابل وجواهر وصحون وأثاث ويرأسهم شهبندر التجار .

وقد انتهى ريمون إلى أن المجتمع القاهري شهد في القرن السابع عشر والثامن عشر حركة تداخل بين طوائف الخرف والتجار الأثرياء وبين الطبقة الحاكمة والعسكرية الأجنبية من الأتراك، الأمر الذي أدى إلى تسمية هذه الطبقة الأخيرة « بالمصرية » باللغة التركية نظرا لاندماجهم في الأسر المحلية . كما وصف العلاقة الاجتماعية التي تربط بين الأغلبية المسلمة في القاهرة وبين أقلياتها القبطية واليهودية، وكان المقريري قد ذكر في خطه أن أكثر ما يتعيش به اليهود والنصارى هو كتابة الخراج والطلب ، كما يتميز النصارى بالزناز في أوساطهم واليهود بعلامة صفراء في عماماتهم . وذهب إلى أن الأقباط ما لبثوا أن انضموا إلى بعض الطوائف الحرفية وانتقلوا من الأحياء المقصورة عليهم تقليديا مندمجين مع باقي السكان ، على حين كان القرن الثامن عشر مرحلة تدهور اجتماعي بالنسبة لليهود بعد زحف الشوام المسيحيين على كثير من الوظائف التي كان يشغلها اليهود وخاصة المتصلة بالجمارك كما سبق القول . أما اليونانيون والأرمن فكان

يخطرون في أزياء شديدة الأناقة والسرف ، أولئك الذين يبتزون ثروات مصر التي باتت تتناقص على أيديهم عاما إثر عام، فبات كل ما يراه المرء ويسمعه يحرك في نفسه الإحساس بأنه يخطو وسط بلاد تسودها العبودية والاستبداد .

ويذهب قولني إلى أن المملوك كان يظفر بأكثر وأعلى مما ظفر به أي جندي على مدي التاريخ، فقد كان يحصل في شهر رمضان من كل عام على كسوة كاملة جديدة من أفخر الأقمشة الفرنسية والفينيسية والدمشقية والهندية<sup>(٣)</sup>، وينتظر تحقيق رغبته في اقتناء الجواهر والمسدسات والخياد العربية الأصيلة وشيلان الكشمير ، كما كان يهدي حريمه جواهر الماس والآلئ والزمر والياقوت بعد أن نبذ الترتير البراق في تزيين رؤوسهن وجيدهن ، وكان مصدر الحصول على ثرواتهم التي يشترون بها هذه الحلي هي سواعد الفلاحين الكادحين . ولجأ الممالك إلى كتبة من الأقباط لتحصيل الضرائب منهم ، فكانوا يسكنون سجلات لكل قرية يرصدون فيها ما يجمعونه من ضرائب يوردونها للخزانة ، غير أن أمية الفلاحين كانت تتيح الفرصة للكتبة لاستغلالهم واستيفاء الضرائب منهم مرات ، الأمر الذي كان يضطر هؤلاء الفلاحين أحيانا إلى بيع مواشيهم وأثاثهم بل وما يقترش على الأرض من حصير ونحوه سدادا لتلك الضرائب المتكررة التي كانت تثقل عواتقهم .

كذلك وقعت الجمارك المصرية تحت سيطرة اليهود إلى أن قضى المملوك على بك على نفوذهم عام ١٧٦٩ ، وحل محلهم النصارى الشوام . فقد استقر بمدينة القاهرة في مستهل القرن الثامن عشر عدد من الأسر الشامية بعد أن ترمى إليهم ما يمكن أن يحقق فيه من ثروات خيالية فتضاعفت من ثم أعدادهم ، وكان قولني يرميهم بأنهم أسوأ البشر خلقا لا ترتفع أخلاقهم إلى مستوى أخلاق المسلمين . ومع ما في سائر عباراته من قسوة إلا أنها قد تحمل بعض الصدق الواقعي مهما بدا فيها من سخرية لاذعة .

وقد انحصر المركز الاقتصادي للقاهرة في شبه مستطيل طوله كيلو متر ونصف وعرضه نصف كيلو متر هو في واقع الأمر القاهرة الفاطمية ، تلك الأحياء التي على جانبي القصبة ما بين باب الفتوح وباب زويلة [ المتولي ] ، وكانت تتجمع في هذا المستطيل التجارة الدولية للبن والتوابل والأقمشة والدخان والصابون والزجاج والأواني النحاسية والخردوات والصبافرة فضلا عن تجارة الترف وصناعة سلعها كالصاغة والجواهرجية والعقادين والقصبجية وصناعات العاج والكهرمان وتجار السلع الكمالية مثل الحلوانية والنقلية وكذلك الأنشطة الفكرية المرتبطة بالجامع الأزهر كالوراقة وبيع الكتب وبعض الحرف المتخصصة كصناعة الأثاث ونوع خاص من الأحذية كالحُفّ والبُلُغ . وتبدأ الأنشطة الثانوية بجوار هذا المركز لشدة اتصالها بما يدور فيه من أنشطة كالمسكرات والعرقسوس والصبغة التي تركزت كلها بين القصبة والخليج . وبطبيعة الحال كانت تجارة الجملة تقع بالقرب من أبواب المدينة وكذلك الأنشطة الخطرة على الصحة العامة أو الملوثة للبيئة مثل مذبج الماشية والمعاصر والمدايع وصناعة الفحم البلدي وأفران الجص والجير ومصانع البارود (لوحة ٤، ٣) وقد استطاع الأستاذ المستشرق أندريه ريمون في كتابه « أصحاب الحرف والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر » تكوين فكرة عامة عن الهيكل الطبقي للمجتمع القاهري مستندا في ذلك إلى حجج الأوقاف وسجلات المحاكم الشرعية ، فقدّم تقسيما رباعيا لا يفتقر كثيرا عن التقسيم الذي سجله المقريري لمرحلة سابقة والتقسيم الذي أعده الأستاذ لومرل : فهناك طبقة عمال اليومية من فرّاشين وقواسين وسقّائين والمتجولون بالسحلب والعرقسوس والسويبا ومسلكاتية الأرجيلات والحضرية والدخاخنية . وهناك طبقة أهل الحرف الصغرى وأصحاب المتاجر الصغيرة

(٣) يقول علي مبارك في الخطط الترفيقية صفحة ١٣٥ : « من نظر إلى ما تكن عليه الخلعة من الزركش والجوهر والذهب رأى أن الواحدة منها تفوق الجد في المصاريف . . فهي من الأطلسي الأحمر الرومي وتحت الأطلسي الأصفر والرومي وتحت الأطلسي الأصفر والرومي ، وعليها طراز وزركش مذهب بكلايب من الذهب وشاش لانس رفيع موصول بطرفه حرير أبيض ومرفوم عليه ألقاب السلطان ، ومنقوش بالحرير المنون النقوش الباهرة ، ومنطقة بالذهب مختلفة بحسب الرتبة ، فأعلاها به البلخش والزمر واللؤلؤ » .



نشاطهم محدوداً للغاية في هذه الفترة من تاريخ استيطانهم لمصر . وبينما انعقدت تجارة الدخاخنة والخردجية والقصبجية للروم كان بيع الأنسجة وخاصة الأحزمة والطرايش للمغاربة ، على حين كان الشوام وخاصة الفلسطينيين يتاجرون في الصابون .

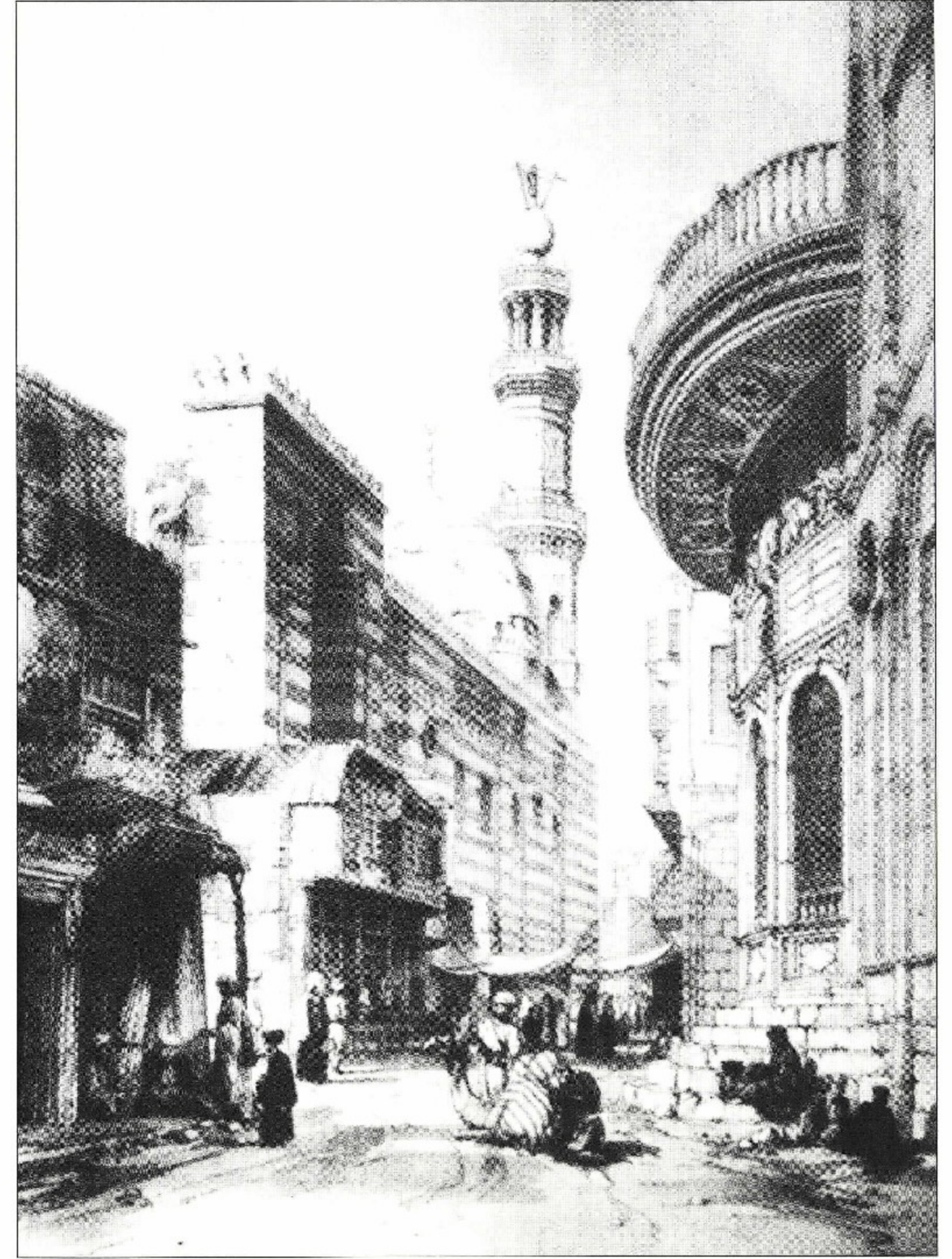
وكما كان لأهل القاهرة أسواقهم كانت هناك أماكن لتجمع المشعوذين كالحواة ومروضي القردة ، أهمها ميدان الرميلة أمام القلعة حيث يحتشد سماسرة الخيل والحمير ويتسكّل الخشاشون والمصارعون . ومع مضي الزمن تحوّل ما كان يحقّه من مبان فاخرة إلى أكواخ وعشش وأحواش وأخصاص ، وأحاطت بالمساجد أبنية قدرة شوّهت ما كانت له من بهجة .

وخلال هذه الفترة التي انطوت فيها مصر على نفسها وكان العالم الخارجي يطفّر طفرات واسعة ، فطن الإنجليز الذين كانوا أكثر توثباً من غيرهم إلى أهمية موقع مصر ، كما جري خيالهم إلى استخدام طريق [الإسكندرية - القاهرة - السويس] بوصفه أقصر الطرق إلى الهند التي يسيطرون عليها ، غير أن محاولتهم الأولى باءت بالفشل عام ١٧٧٩ إذ افترست قافلهم قسوة المناخ إلى جانب محاصرة البدو لهم وانتهاهم لتجارهم فلم يصل منهم إلى القاهرة غير واحد فحسب . وقد انعكس هذا الفشل على مركز إنجلترا التجاري في مصر الذي كان يدور حول بيع الأسلحة الصغيرة والأقمشة .

وفي القرن التالي حين حاول فرديناند دلسيس شق قناة في برزخ السويس قاوم الدبلوماسيون البريطانيون لذي الباب العالي في استنبول هذه المحاولة للحيلولة دون تنفيذ هذا المشروع . ولكن ما إن تم شق القناة وتحقق حلم الطريق القصير إلى الهند حتى سارعت بريطانيا إلى شراء الغالبية من أسهم شركة قناة السويس واضعة في اعتبارها ضرورة انتهاز الفرصة حين تسنح كي تحشد قواتها في حراسة استثماراتها على امتداد الطريق المائي الحيوي .

وكان قولني قد انتهى إلى أن عدّ المصريين جديرين بالشفقة والرأء لا بالامتهان والازدراء ، ذلك أنهم في كثرتهم فلاحون كادحون يكابدون المشاق في صبر شديد ويمكن لهم حين يحسن توجيههم أن يقيموا مجتمعا أفضل ، غير أن العقبة الكبرى التي تحول بينهم وبين ذلك هي حرمانهم من المعرفة . ويشاء القدر أن يكون ضابط فرنسي شاب يدعي نابليون بونابرت هو أحد قراء قولني المعجبين به . وكان نابليون منذ صباه مشدودا إلى الشرق حتى وجدنا بين كراساته المدرسية موجزا بخط يده لكتاب ماريني «تاريخ العرب» ، ويتجلّى من رسائله وأحاديثه أنه كان مولعا بأمجاد الإسكندر الأكبر بصفة عامة وبمصر بصفة خاصة . ولم يكد نابليون يقرأ كتاب قولني الذي تطلّع فيه إلى الشرق باعتباره موقعا مثاليا لتحقيق أطماع فرنسا الإستعمارية - شأنه شأن شاتوبريان ولامارتين بعده بربع قرن - حتى تأجّجت في وجدانه عطور الشرق الساحرة التي استافها وهو في مدينة البندقية ، فشده الشرق إليه وأخذ يراوده في أحلام يقظته .

وكان يدرك استحالة غزو بلاد الإنجليز في عقر دارهم متفقا في ذلك الرأي مع الأسقف تاليران الذي تخفّف من ثوبه الكهنوتي ليتفرّغ لإدارة سياسة فرنسا الخارجية . علي أنه رأى بدهائه أنه يستطيع أن ينزل ببريطانيا أعظم نكبة إذا أمكنه احتلال مصر ، تلك الولاية التابعة للإمبراطورية العثمانية المتهاوية والعارية من وسائل الدفاع ، والتي يمثّل احتلالها قطع طريق الإنجليز الميسور إلى الهند ، وبات نابليون يوضع أحلامه التي يتخيّل فيها نفسه بشير دين جديد يزحف به نحو آسيا ممّطيا فيلا ومعتبرا بعمامة وبين يديه قرآن جديد مبتكر تتواءم آياته مع ما يسعى إلى تحقيقه من



لوحة (٤) روبرت هاي. صور وصفية للقاهرة. سوق الأقمشة والسجاد بالغورية



أهداف . واستولت عليه هذه الفكرة التي أُلهم بتفاصيلها إستراتيجيا وتكتيكيا وتاريخيا من خلال ما طالعه للكتاب الكلاسيكين والمعاصرين ، ومن ثم كانت خطته لغزو مصر أول مرحلة من سلسلة مراحل الصدام بين أوروبا والشرق في العصر الحديث ، فعباً خبرة المستشرقين المتخصصة لخدمة الاستعمار لأول مرة كما أقدم في الوقت نفسه على تجنيد العلماء الذين صاحبوا حملته على مصر ، وشكّل منهم «المجمع العلمي» الذي أعدّ الكثير من الدراسات حول شتى الموضوعات كما سيرد تفصيلاً .

واستعد نابليون لتحطيم قوى المماليك في مصر كما حطّم قوى رجال الكهنوت في إيطاليا معترّفاً بأن يحيل الإسكندرية عاصمة جديدة للإمبراطورية فرنسية تقود قارات العالم القديم الثلاث إلى مستقبل يركز على دعائم مبادئ الثورة الفرنسية . ومن الطبيعي أن يكون المرشح لتسليم عرش هذه الإمبراطورية هو صاحب الحلم ، نابليون نفسه .

وحين نجح نابليون في احتلال مصر عرف فيها على حد تعبيره هو أجمل سني عمره التي تشكّل المثال الذي طمح إلى صنع أيامه على غرار . وقد روى في مذكراته - التي أملاها على الجنرال برتران في منفاه بجزيرة سانت هيلانة - ما ذهب إليه قولني في كتابه من أن ثمة عقبات ثلاث لا مفر من التصدي لها كي تستتب لجيش فرنسا السيطرة على الشرق . وتمثّل هذه العقبات في أن هذا الجيش مواجه بخوض حروب ثلاثة أولها ضد بريطانيا وثانيها ضد تركيا وثالثها وأصعبها ضد الأهالي المسلمين . وقد سلك نابليون مسلكاً يؤكد تبنيّه الكامل لوجهة نظر قولني ، فما كاد يدخل مصر حتى بذل جهوداً مضنية لاستمالة المصريين المسلمين ، كان أولها ذلك المنشور الشهير الذي طبعه ووزّعه على أوسع نطاق والذي يقول فيه حسب رواية الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار» :

« . . . بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية يعرف السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرتة أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد يتعامل الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الإبازة ( القوقاز ) والجراسية يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض ، وقد حكم رب العالمين القادر على كل شيء علي انتقضاء دولتهم . يأيّها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدّقوه ، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . . . قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وضربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام . . . طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلّى مراتبهم . . . » . وأرفقت ببقية هذه الندية المعسولة العبارات بضع بنود جائزة مثل : «جميع القرى الواقعة في دائرة قرية بثلاث ساعات عن المواضع التي يمرّ بها عسكر الفرنساوية واجب عليها أن ترسل للسرا عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر » . وكما وقف المصريون أمام حملة سليم العثماني على مصر عام ١٥١٧ موقف

المتفرج لم يعن المماليك ببذل الجهد في تنظيم صفوف الشعب للمساندة في مواجهة الفرنسيين . يقول الجبرتي : «كانت العلماء تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك المشايخ . . . وأطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء الحسنى . وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمر والأعلام والكاسات وهم يضجون ويذكرون بأذكار مختلفة . وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فأُنزل منها بيرقاً أسمته العامة البيرق النبوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنباييت والعصي . . . وبقيت مصر خالية انطرق لا تجد بها أحداً سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرّون على الحركة فإنهم مستترون مع النساء في بيوتهم ، والأسواق مُصْفرة وانطرق مجفرة من عدم الكنس والرش . . . » .

غير أنه لم تستطع الدعوات الدينية ولا ثقة المماليك ببأسهم وقوتهم الصمود أمام التفوق الفرنسي في النيران ولا أمام كفاية تدريب الحملة الغازية ، فوقعت عند إمبابة هزيمة المماليك ومن تبعهم من المتطوعين القاهريين والبدو المتعاونين . وسكن بونابرت بقصر محمد بك الأنفي بالأزبكية ، ولم يدخل المدينة إلا القليل من الجنود الذين : «تبعوا الأوباش الذين نهبوا البيوت الخالية ، فأخذوا منهم عدداً وافراً وعاقبوهم»<sup>(٤)</sup> ، ومشوا في الأسواق من غير سلاح يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأعلى الأثمان فأنس بهم البعض وخرجوا إليهم بالكعك والخبز والبيض والدجاج وفتح البعض الحوانيت والمقاهي . كذلك عني الفرنسيون بنظافة العاصمة وكنس الأزقة والحارات ، كما أزالوا أبواب الدروب والعطفات وأمرؤا بتعليق القناديل على أبواب البيوت ليلاً ، وما كاد يظهر وباء الطاعون حتى حرّموا دفن الموتى في المقابر الكائنة في وسط العاصمة (لوحة ٥) .

غير أن الفرنسيين سارعوا بفرض الضرائب الباهظة على التجار وأهل الحرف باعتبارها سُلفاً تُردّ ، كما انبرى الجنود ينهبون الدور دون مبالاة مما أثار سخط الأهالي وبات المرء لا يأمن على نفسه وعياله إلا بتعليق راية أو بطاقة على بابه تصرفها له سلطات الاحتلال . واتسع نطاق الفتن في العاصمة وخارجها ، وتحير الناس في أمرهم ؛ فهم إن غادروا المدينة باتوا عرضة لغارات الأعراب وفلول المماليك ، وإن استقروا بها استهدفوا لمكائد جيش الاحتلال ونزوات جنوده . فما لبث أهل القاهرة أن هبوا للوقوف في مواجهة الفرنسيين مثلما فعلوا مع جميع المعتدين على بلادهم ، فلم يطيقوا السكوت على ما بدأ يحدث من عمليات ثأرية اتسمت بالضراوة إلى حد قضى تماماً على علاقة المجاملات التي نشأت في الأيام الأولى بين المسلمين الأصلاء في مصر ومدّعي الإسلام من الغزاة الفرنسيين . ولم تكد تشب أول ثورة حتى استخدم الفرنسيون أبشع ألوان العنف والوحشية لإخمادها واعتدوا على حرمة الجامع الأزهر فدخلوه راكبي الخيل [بقيادة ألكسندر دوم والد مؤلف روايتي «الفرسان الثلاثة» و «الكونت ده مونت كريستو»] وربطوا جيادهم بقبلته وكسروا القناديل وهشّموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والودائع والمخبوءات بالدواليب والخزانات ومزّقوا الكتب وداسوا المصاحف بنعالهم ونهبوا الكثير من الدور منتهكين حرمة البقعة التي كانت أشرف البقاع وكان الناس يهيمون بسكنائها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه من الضياع . وقبض الفرنسيون على كثيرين زجّوا بهم إلى السجن وذبحوا جموعاً غفيرة ثم قذفهم في مياه النيل ( لوحة ٦ ) .

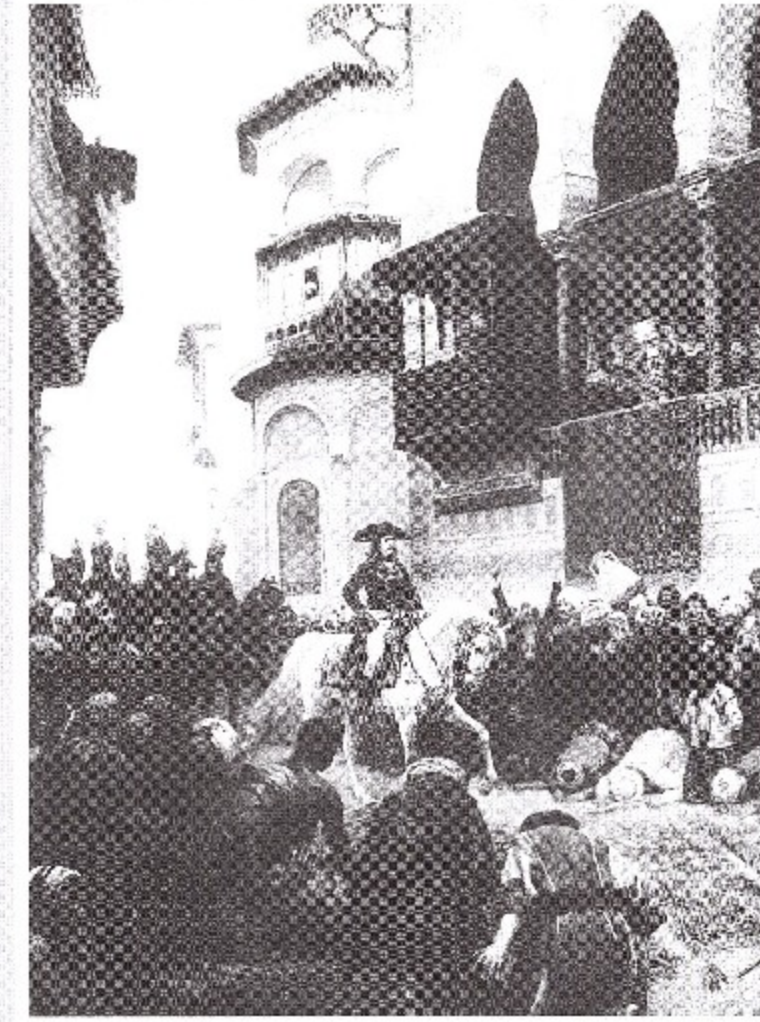
(٤) انظر المرجع السابق صفحة ١٥٨ .



غير أنه لم يأت شهر أغسطس عام ١٧٩٨ إلا وقد أصبح الفرنسيون في موقف حرج لا يحسدون عليه ، ذلك أن الأميرال نلسون الإنجليزي قد هاجم بأسطوله السفن الفرنسية الرامية بأبي قير ، فانقطعت بذلك الصلة بين الحملة الفرنسية وقاعدتها في فرنسا بعد أن باتوا في مصر سادة معزولين ، وكان هذا إيذانا بفشل حملة نابليون على مصر . على أن سلطان تركيا لم يعترف للفرنسيين بجميلهم في دحر المماليك بل أعلن الحرب عليهم . ولم يطل بقاء نابليون في مصر غير سنة كان قد أصيب فيها بلوثة وحشية تجلّت بشاعتها في حصاره لعكا ، دون أن تتوقف مع ذلك مشروعاته المثالية التي كان قد خُصّصها في البداية لتطوير المجتمع المصري .

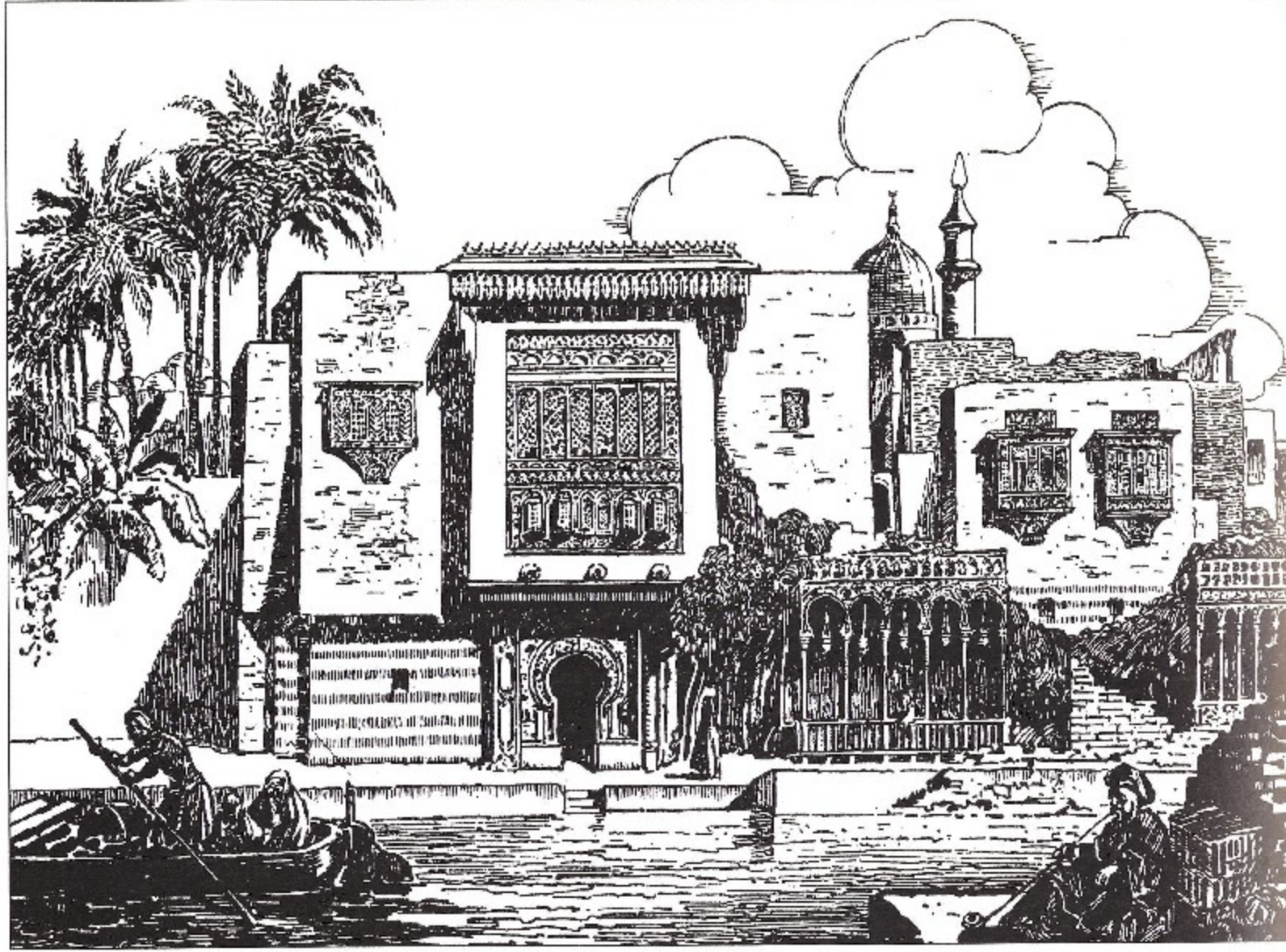
وإذ كان نابليون تلميذاً قولني فقد آمن بقيمة علماء الدين المصريين ودورهم في إقامة قاعدة للارتقاء الاجتماعي ، على أن يضيف إلى ذلك إبداعات الهندسة العصرية من أجل بعث مصر من جديد . فقد كان يحلم بأن تشكّل خمسون سنة من الرخاء في مصر مجتمعا حديثا يقام على نيله آلاف القناطر والسدود لترويض مياه النيل وتوزيع ما يفيض منها على جميع أنحاء مصر بدلا من أن تضيع هذه الثمانية أو العشرة بليون متر مكعب من المياه كل عام في البحر المتوسط ، وفي قدرتها لو حُوّلت إلى الأماكن الخفيضة من الصحراء والواحات أن تحيلها إلى حقول مثمرة يانعة وبساتين تفيض بالخير والبركة على السكان . غير أن شيئا من إصلاحات نابليون ومشاريعه لم يكتب له أن يتحقق كما أراد ، بل إن حملته على مصر لم تكن إلا حدثا خاطف العبور ، إذ سرعان ما خلف مصر سرا إلى فرنسا في أغسطس ١٧٩٧ تاركا جيشه نهبا للمرارة في أيدي قيادات تفتقر إلى حنكة نابليون في التعاون مع الأغلبية المسلمة حتى إنها استعانت بالأجانب النصارى الشوام والروم اليونانيين ، بالرغم من أن نابليون قد أوصى خليفته كليبر بأن يستعين على إدارة دفة الأمور بمصر بالزعماء الدينيين المسلمين والمستشرقين وحذّره من مغبة اتباع أي سياسة أخرى قد تكون باهظة خرقاء . وكان نابليون قد اتبع مع سياسة الحزم والشدة سياسة التقرب إلى الجماهير المصرية والتودّد إليهم من خلال احترام تقاليدهم ومشاركتهم أعيادهم مثل احتفال وفاء النيل ، حيث توجّه بصحبة كبار القادة وأعضاء ديوان مصر إلى مقياس النيل ليلتقي بألوف الناس وبالجماهير الغفيرة المصطفة على ساحل النيل والخليج والمحشدة فوق المراكب والسفن المزينة بالرايات المختلفة الألوان . وما كاد موكب نابليون يصل حتى أطلقت المدافع وعُزفت الموسيقى العسكرية وبدأ العمل في قطع الجسر ، فتدفقت مياه النيل بشدة ونثر نابليون النقود وقطع الذهب على الناس من فوق أول سفينة تمخر الخليج (لوحة ٧) .

ولم يكتف بونايرت بذلك بل انتهز فرصة الاحتفال بمولد النبي لتوطيد سلطته ، فأمر بالاحتفال به احتفالا يربو على مهرجان وفاء النيل بحيث يجمع بين الأبهة الأوروبية والطابع الشرقي التقليدي . وطلع نابليون على الناس مرتديا الجبة والقفطان معتمرا بالعمامة ليأخذ طريقه بين كبار ضباطه إلى الجامع حيث رجال الدين ، فأخذ مجلسه بينهم فوق الوسائد المطروحة في الأرض عاقدا يديه على صدره مثلهم ، واستمع إلى القصة النبوية الشريفة وهو يهتر أثناء تلاوتها كما يهترون ويميل برأسه كما يميلون وقد بدا عليه الخشوع ، الأمر الذي أثار دهشة الحاضرين وعجبهم .



لوحة (٥) بورجان . دخول نابليون إلى القاهرة





لوحة (٧)  
ترعة الخليج

وانصرف نابليون على مرأى من الجماهير متوجّها إلى منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف ليقدم مراسم التهاني . مضى والبيارق النبوية تخفق فوق رأسه وجموع الشعب تهلل من حوله ثم جلس إلى جوار المنشدين يتمتم على غرارهم ، وأظهر أناة وصبرا في شهود حفل الذكر حتى نهايته ، إلى أن مدت سماعات الطعام المنسقة على الطريقة الشرقية واتخذ مجلسه على وسادة بجوار نقيب الأشراف . على حين تفرق ضباطه حول الموائد الأخرى يشاركون القوم الطعام ، بينما تعزف الموسيقى العسكرية أنغامها وتطلق الألعاب النارية والصواريخ في الجو مشاركة في الاحتفال الديني<sup>(٥)</sup> (لوحة ٨) .

(٥) اعترف نابليون وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة «أن سلوكه هذا كان ضرباً من الدجل ، ولكنه دجل على أرفع مستوى» .

على هذه الصورة كان يريد من كليبر أن يتبع نهجه في الدجل السياسي الذي لا شك أنه لم يكن خافياً على الكثرة من الشيوخ والقضاة والعارفين ، غير أن كليبر نفسه (لوحة ٩) لم يكن مقتنعا بهذا النهج المكشوف . وانتهى الأمر بالفرنسيين خلال الفترة التي سبقت رحيلهم - الذي اتفق عليه بينهم وبين الإنجليز والعثمانيين أن يتم في صيف عام ١٨٠١ - إلى ترك جلاّدهم بارتلمي اليوناني يعمل بلا كلل في حصد أرواح المصريين ، وكان الفرنسيون قد أوكلوا إليه منصب كتخذا مستحفظان . وفيه يقول الجبرتي : «قلدوا برطلمين النصراني الرومي وهو الذي تسميه العامة فرط الرمان كتخذا مستحفظان . . . والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطوبجية عند محمد بك الألفي وله حانوت بخط الموسكي - يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة» .

وكان أول القرن التاسع عشر كالحا كئيباً بالنسبة للفرنسيين ، ففي أبريل ١٨٠٠ انقضّ المسلمون على المسيحيين المتعاونين مع جيش الاحتلال حينما خرج كليبر لضرب قوة عثمانية وصلت إلى

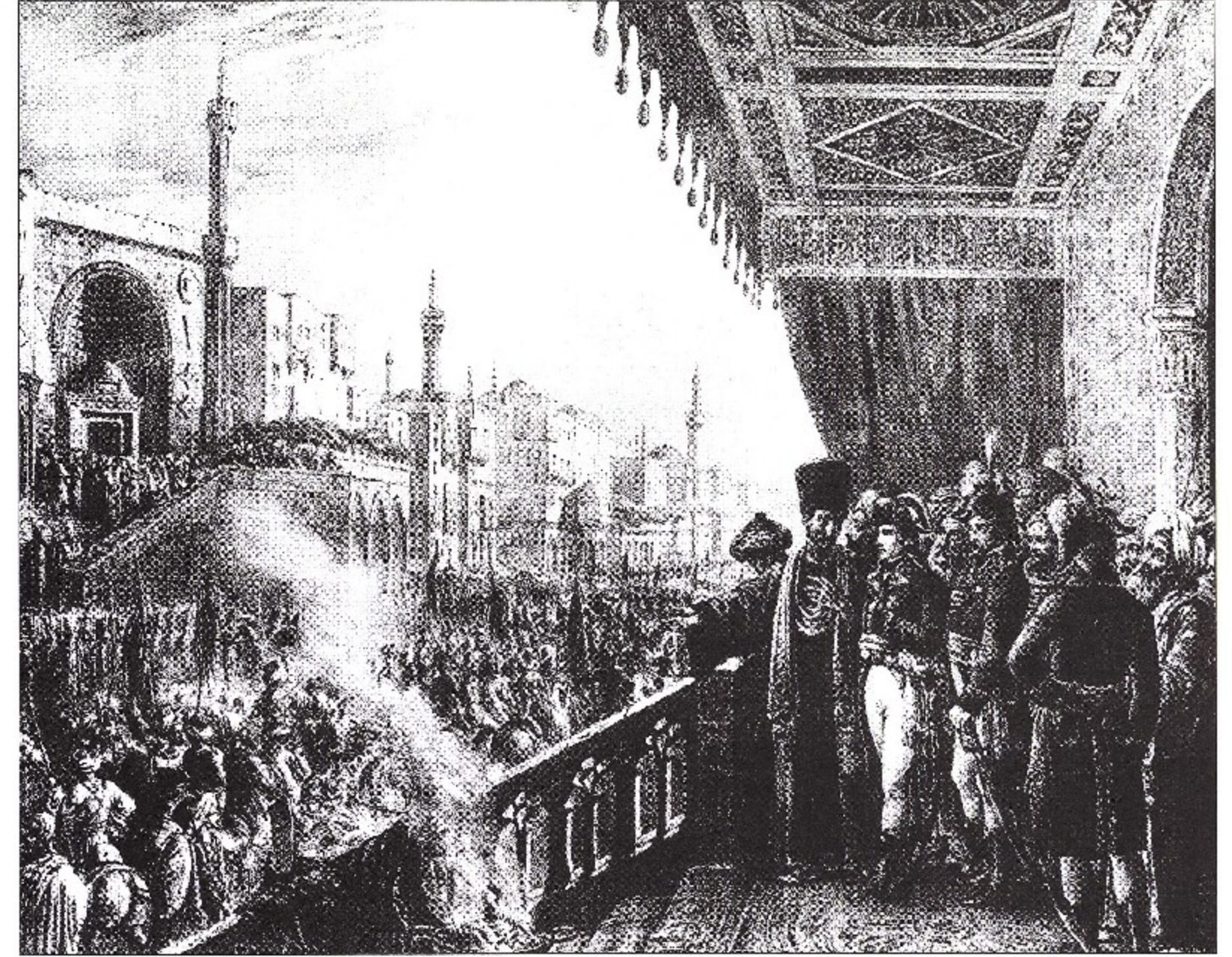


لوحة (٦) لوى جيروديه، ثورة القاهرة (تفصيل) ١٨١٠ . متحف قرساي





لوحة (٩) آنسيو . الجنرال كليبر



لوحة (٨) كولون . نابليون يشارك في احتفالات المولد النبوي الشريف .

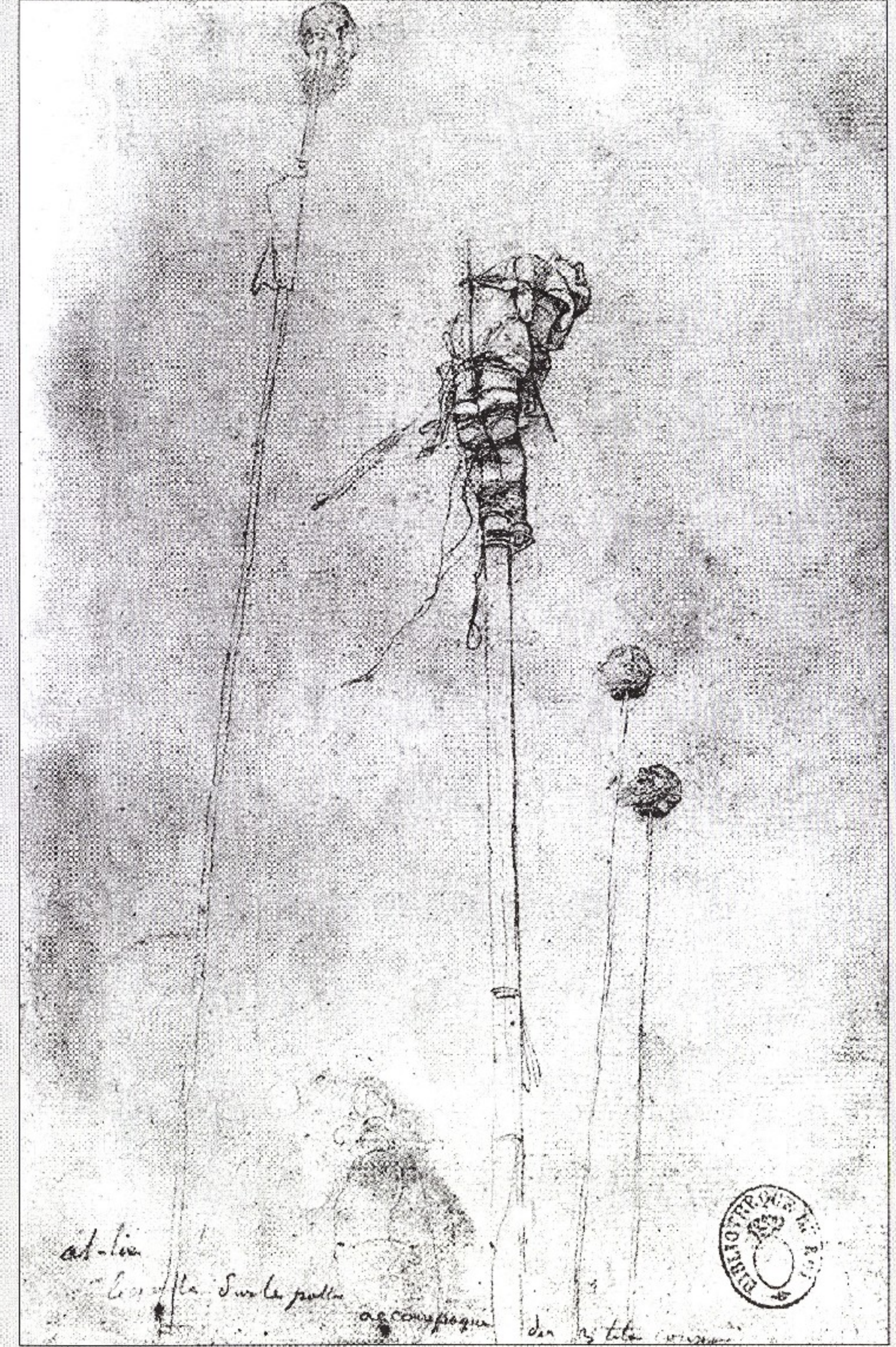


المطرية، وكان رد كليبير قذف مدينة القاهرة بالقنابل . وفي ١٤ يونيو اغتال شاب مصري مسلم يدعي سليمان الحلبي الجنرال كليبير في حديقة منزله بالقرب من الأزبكية ، واختبأ بالحديقة حتى عثر عليه الجنود وأرغموه على الاعتراف على أعوانه من طلاب الأزهر الذين أنبأهم عن عزمه على اغتيال كليبير ، وأحضروا ثلاثة منهم واتهموهم بالمشاركة في القتل لتسترهم وعدم إبلاغهم الفرنسيين بذلك . وقد قُدم الأربعة لمحكمة عسكرية أصدر قضايتها حكما بجزء رؤوس الثلاثة رفاق سليمان وركزها في عُصَى وحرق أجسادهم أمام سليمان قبل حرق يده اليمني ووضع بعد ذلك على ذؤابة الخازوق حتي يخترق جسده ويبقى ثابتا فيه إلى أن تأتي الطير على جثته ! والغريب أن يصدر هذا الحكم الوحشي الجائر من حملة مشعل مبادئ الثورة الفرنسية الذين ابتكروا مقصلة الجيلوتين رفقا بالمحكوم عليهم بالإعدام ، طائنين أن تطبيق عقوبة المماليك التقليدية كفيلة بتلقيح الأهالي الدرس المنشود .

وبدأ الجلاد برطلمين بحرق يد سليمان القاتلة حتي المرفق . ومن الطريف أن سليمان قد اعترض على حرق ذراعه في رباطة جأش مذهلة إذ قال لبرطلمين «إنك تتجاوز حد القصاص» ، فأجلسه الجلاد بعد ذلك فوق ذؤابة الخازوق . ولم يستجب الجلاد الرومي لطلب ضابط فرنسي بأن يقدم كوب ماء طلبها سليمان الحلبي ، وكان هذا الضابط قد أسي لموقف سليمان ، إذ أطاح الجلاد بالكوب بعيدا حتى لا يمنح سليمان رشفة ري تخفف سكرات الموت الرهيبة التي ظل يكابدها ساعات أربع قبل أن تهمد الحركة في جسده الشهيد (لوحة ١٠) . وحاول ميتو خليفة كليبير استرضاء المصريين بإعلان اعتناقه الإسلام وإقصاء النصاري الشوام عن المناصب الإدارية ، غير أنه أعلن في الوقت نفسه مصر محمية فرنسية (لوحة ١١) .

على أن الحملة الفرنسية بقدر ما ولدت في المصريين روح المقاومة البطولية للغزاة الأجانب قد فجرت فيهم نوعا من الإعجاب ، وهو ما نراه في سلوك الجبرتي الذي كان واحدا من فئة المثقفين الذين توسم فيهم نابليون أملا كبيرا في تطوير مستقبل البلاد ، فقد أبدى إعجابه بالفرنسيين حين زار علماء المجمع الفرنسي بقدر ما تمردت روحه ضد سوء سلوك الجنود الهمجي مع عامة الشعب من حرق للقري ومصادرة للماشية والغلال وسبي النساء وسوق للأعيان رهائن وقطع للرقاب عقابا وتأديبا . على أن أكثر ما أثار اهتمام الجبرتي حقا هو المكتبة الفرنسية التي أعدت في بيت المملوك الأمير حسن الكاشف ، وتردد عليها الجبرتي المرة تلو المرة ، إذ وجد فيها : «جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزائن ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ، ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتحت عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعون الدخول على أعز أماكنهم ، ويتلقونهم بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئهم إليهم ، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم

لوحة (١١) دوترتر .  
الجنرال ميتو .



لوحة (١٠) دوترتر . إعدام سليمان الحلبي ورفاقه



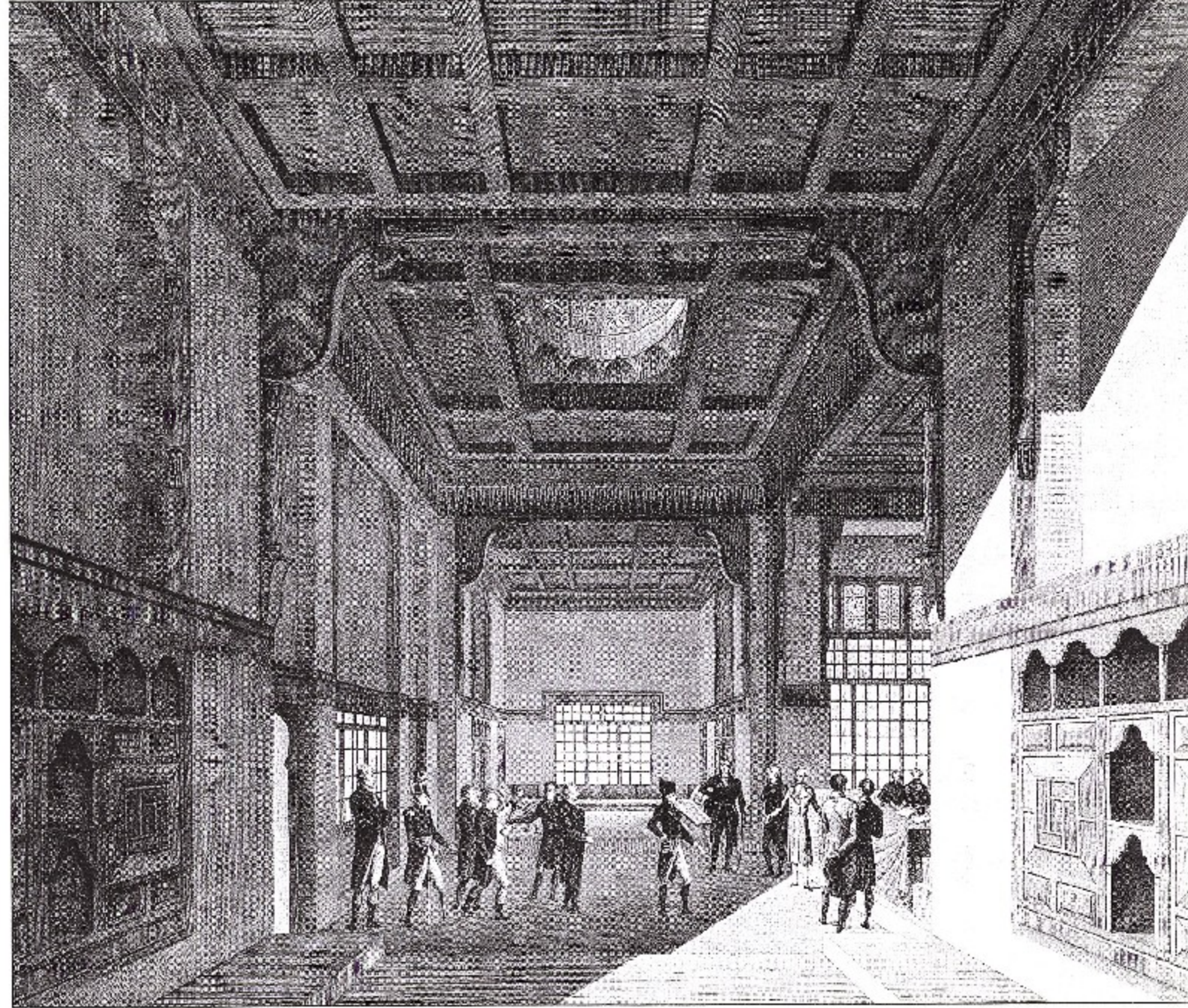
ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أهمهم مما يحير الأفكار . ولقد ذهبت إليهم مرارا وأطلعوني على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومصورون به صورته الشريفة على قدر علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب إلى الخليفة ، ويده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم السيوف .

وكانت هذه المكتبة بمثابة المنارة التي لم يقتصر إشعاعها على المصريين وحدهم بل تخطت بهم إلى سكان الشرق الأدنى كله . وعلى النقيض من سائر الغزاة اصطحب نابليون معه جملة من كبار العلماء الفرنسيين من المؤرخين والمهندسين والرسميين والكيميائيين والبيولوجيين والأركيولوجيين والجراحين كانوا بمثابة الفيلق الثقافي الملحق بالجيش والذي كوّن منهم نابليون «المجمع العلمي» الشهير . ومنذ اللحظات الأولى للاحتلال أصر نابليون على أن يباشر «المجمع العلمي» نشاطه وأبحاثه واجتماعاته على هيئة لجان تقصي الحقائق ، تعكف على دراسة الطبيعة والآثار والأوضاع السائدة ورصدها وتسجيلها في كتاب موسوعي من عدة أجزاء كبيرة الحجم نُشرت تحت اسم «وصف مصر» في ثلاثة وعشرين مجلدا ضخما فيما بين عامي ١٨٠٩ ، ١٨٢٨ (لوحة ١٢) .

كذلك أحضر نابليون معه أطقم كاملة من الحروف المطبعية العربية واليونانية ، لغتي الشرق الأدنى القديمتين . وهكذا زوّد الفرنسيون المصريين بأداة أجاد الأجيال الآخرين استخدموها فيما بعد حتي ضد الفرنسيين أنفسهم ، إذ فتحت أمامهم آفاق الثقافة الفرنسية التي بقيت رغم قصر مدة الاحتلال الفرنسي موضع التقدير العميق .

ونرى الجبرتي دقيقا متشوقا إلى المعرفة حين يعلم أن الفرنسيين ينوون إطلاق بالنون في سماء الأزيكية فيحرص على الحضور في الموعد المضروب ويصف المحاولة بتفصيل واف وإن سخر منها حين باءت بالفشل قائلا : «فلما حدث لها ذلك انكشف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات ، بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراعشون بالمواسم والأفراح» .

ومن مآثر علماء الحملة الفرنسية تلك الخريطة التي رسموها للقاهرة فيما بين عامي ١٧٩٩ و١٨٠١ والتي تكشف عن أن عرض مجري النيل في منطقة القاهرة كان ضعف عرضه الحالي ، وأن القاهرة وقتذاك كانت مكونة من ثلاث مدن تفصلها عن بعضها المزارع والتلال ، فعلى حين تحفل القاهرة الوسطى بالمساجد والعمائر الإسلامية التي تسمو عليها جميعا قلعة الجبل حيث قصور الولاة والباشوات ومقر الديوان والتي تضم وحدها حوالي ثلاثين ألف نفس ، كانت بولاق التي تبعد عن القاهرة بحوالي كيلو متر هي ثغرها الرئيس ومنها شق الفرنسيون طريق أبي العلاء إلى الأزيكية وغرسوا الأشجار على جانبيه ، بينما تعمر المدينة الثالثة وهي مصر القديمة بالكنائس القبطية وجامع عمرو .



لوحة (١٢) رقي ودوبليسي - بيرتو. المجمع العلمي المصري



ويمدنا تاريخ الجبرتي «عجائب الآثار» بصورة صادقة عن خطط القاهرة القديمة وهي الصورة الفاصلة بين القاهرة المماليك خلال العصور الوسطى وقاهرة إسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر ، فصورها مدينة شرقية في روحها وفي عمارتها وفنها وطرقها على الرغم مما أصابها من خراب على أيدي العثمانيين أو دمار بقناير الفرنسيين . ويصف د . عبد الرحمن زكي القاهرة الجبرتي بأنها : «لم يكن لها في تلك الأيام تنظيم خاص لشوارعها ، فكانت تجد بعض البيوت خارجا عن حدود الطريق العام وترى البعض الآخر داخلا ، كما ترى بيوتها لمشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى لها منافذ . ومن شيد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه في المنزل ما أحب بلا قيد . وكذا الشوارع لم تزد سعة عن الحارات . ولم يكن للحكومة إذا صح القول بأنه كان هناك في ذلك العصر شيء جدير بهذا الاسم اعتناء بأمر النظافة أو الصحة ، فكانت تُلقي القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة ، وما تبقى من أنقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلقى به بالقرب من أبواب المدينة فتصير تلالا حتى إذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريهة تنقل معها شتى العلل والأمراض . وكانت مقابر الموتى في وسط المدينة ، وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفي المساجد وفي المدارس . ولما عادت القاهرة إلى حكم العثمانيين ( ١٨٠١ ) وشيخ البلد بعد انسحاب الفرنسيين كانت مخربة تنعق على أنقاضها البوم ، واستأنف الألبانيون الأرناؤوط ورعاع الأروام والأرمن حوادثهم ، وعمت كوارث القتل والخطف والنهب ، وعاد المماليك إلى رذائلهم ومفاسدهم بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمؤخرات رواتبهم » .

وبعد أن ركز نابليون أول حجر أساس في البناء الحضاري الحديث في مصر ، توافدت بعده أفراد أسرة جديدة على حكمها أنشأها ابن أحد المزارعين في شمال اليونان هو محمد علي الذي كان قد أمضى شبابه في تجارة الدخان . وفي عام ١٧٩٨ جاء إلى مصر وهو في سن التاسعة والعشرين قائدا ثانيا لإحدى كتائب المتطوعين المجندين من بين مسلمي الإقليم الواقع في منتصف المسافة بين مقدونيا وطراقيا ، وهو نفس الإقليم الذي شهد مولد الإسكندر والبطلمة . وبالرغم مما يشاع من أن محمد علي كان ألبانيا أو تركيا إلا أنه كان دائم التباهي بأنه كان مقدونيا . فبينما كان يستقبل قنصل فرنسا ذات يوم وبرفته نفر من الضيوف الفرنسيين إذا به يتسلم نسخة مهداة من كتاب «الإسكندر المقدوني» وكانت مجلدة تجليدا فاخرا يليق بالمهدي إليه ، فانبهر محمد علي في حماس يقرر مزهواً أمام ضيوفه : «إني أنا الآخر مقدوني النشأة» ، والتفت إلى أحد التراجمة يسأله عن المدة التي تستوعبها ترجمة هذا الكتاب فيعلم أنها تطول إلى أشهر عشرة . وتهول محمد علي هذه المدة فينزح خنجرا من أحد القواسين إلى جانبه ويشطر الكتاب أثلاثا ثم يقول : «أظني بهذا قد ضمنت ترجمة الكتاب في شهرين» . وخلال زيارته الأولى لمصر لم يشترك محمد علي بكتيبته في القتال مع الفرنسيين ، غير أنه أتى إليها مرة ثانية بعد أن صدر فرمان بتعيينه واليا عثمانيا عليها في عام ١٨٠١ ، وهو نفس العام الذي تم فيه جلاء الفرنسيين عن مصر . وكان العثمانيون قد امتلأوا آملا لإحكام قبضتهم على مصر بعد أن مهد لهم الفرنسيون بالقضاء على المماليك . وكالعادة بدأ خيال محمد علي يراوده طموح الأحلام العريضة التي كانت تعشش من قبل في صدور غلمان المماليك الوافدين من الكرج والقوقاز . وكان بكوات المماليك الدائمون المتنازع فيما بينهم قد عقدوا العزم على مقاومة أية محاولة عثمانية من

شأنها أن تحرهم من السيطرة على مصر ومقداراتها . ومنذ اللحظة الأولى أخذ محمد علي يستفيد من كل شيء يدعم سلطانه ، فهو يظهر احترامه للعثمانيين الذين يستمد شرعية سلطته من فرمانهم ، كما يمالئ البكوات المماليك الذين يعرف قوة قبضتهم على زمام الأمور في مصر ، حتى إذا حل عام ١٨١٠ كان قد وطد العزم على الانفراد بالسلطة . ولقد اكتشف السر وراء امتداد سلطة العثمانيين في مصر حين اتبعوا سياسة التفريق بين الأثرياء واستغلال الفقراء مكونين بذلك مثلثا يشكل الباشا وجنوده أحد أضلاعه ، والعلماء الدينيون المصريون الضلع الثاني ، مستخدمين البدو بين الفينة والفينة حلفاء غير نظاميين ، على حين يتكون ضلع القاعدة من طبقة المماليك المتنازعة . وكان يدرك أن هذا النظام بقدر تدميره لمصر يقف حائلا حقيقيا دون تجميع السلطة في يد رجل واحد . وإذ فطن بحسب الغريزي إلى أن الحملة الفرنسية قد زعزعت الوجود العثماني بقدر ما زعزعت أسطورة المماليك في أعين الشعب المصري - وكان العثمانيون يبدون في عينيه خصما ثانيا في حين يشكل المماليك التهديد المباشر لسلطته - عقد العزم على توجيه ضربته الأولى إليهم ، فأخذ على غرارهم ينسج لهم المناورات المشتمة بالخدبة والغدر . فكان أن وجه إليهم ضربته الأولى في عام ١٨٠٥ والمماليك يتنازعون بعضهم مع بعض وينازعون في نفس الوقت سلطة محمد علي كوال على مصر ، إذ نصب لهم شركا بمناسبة عيد سد الخليج السنوي في ١٧ أغسطس ، وكان قد أوعز إلى بعض أعوانه أن يحرضوا المماليك على الاستيلاء على القاهرة العارية عن الحراسة في اللحظة التي يكون فيها الوالي وسط الحفلة ، في حين أنه كان قد أعد لذلك بتوزيع جنوده على مواقع استطاعوا منها حصد المماليك عندما تحركوا لتنفيذ الخطة . على أن محمد علي لم يكتف بما ألقاه بزعماء المماليك من تعذيب وحشي وقتل بالجملة ، فلم تكد قرست سنوات حتى انتهز في أول مارس عام ١٨١١ فرصة الحرب الوشكة مع الوهابيين الذين ناووا سلطة العثمانيين في غرب شبه الجزيرة العربية فاحتلوا جدة ومكة والمدينة لإعداد ضربته الثانية للقضاء على بقية المماليك . وكان السلطان قد عهد إلى محمد علي بتجهيز حملة تأديبية ضد الوهابيين ، فأخذ محمد علي يطمئن المماليك ويشجعهم على التعاون معه برد إقطاعياتهم بالفيوم والصعيد إليهم ، وقرر تنصيب ابنه الأثير طوسون قائدا للحملة في احتفال مهيب «يلبسه فيه السيف والخلعة اللتين وهبتهما له السلطنة السنية» ، ودعا أمراء المماليك المصريين بقيادة شاهين بك الألفي ، وأقام الخيام لاستقبالهم وأعد لهم كل مظاهر التكريم وحسن الوفادة . وفي صباح يوم الحفل صعد الجميع إلى القلعة حيث تنطلق منها مسيرة الموكب . وبعد أن أمضى كبار النجوم وأمراء المماليك لحظات في حضرة الوالي يرشفون القهوة ويتضاحكون معا بدأت مسيرة الموكب تغادر القلعة طائفة في إثر طائفة حتى جاء دور طائفة المماليك فإذا البوابة تغلق في وجوههم ويجدون أنفسهم محاصرين داخل الأسوار في المضيق المنحدر بين الباب الأعلى والباب الأسفل والرصاص يطرحهم من كل جانب والسيوف تتعقب أعناق محاولي الفرار : «واحتز بعض الجنود رأس شاهين بك وسارعوا بتقديمها إلى الباشا كي يظفروا «بالقاشيش»<sup>(٦)</sup> ، بينما كان جنود الباشا خارج القلعة ينهبون بيوت المماليك ويغتصبون نساءهم بعد تجريدهن من الحلى والجواهر ، ويقتلون من كان باقيا في الدور أو في الطرقات من المماليك الطاعنين في السن أو الفقراء حتي بلغ القتلى يومئذ ألف قتيل . وحين استتب للباشا الأمر وزع بيوت المماليك على خواصه بما فيها ومن فيها من نساء (لوحة ١٣ ، ١٤) .

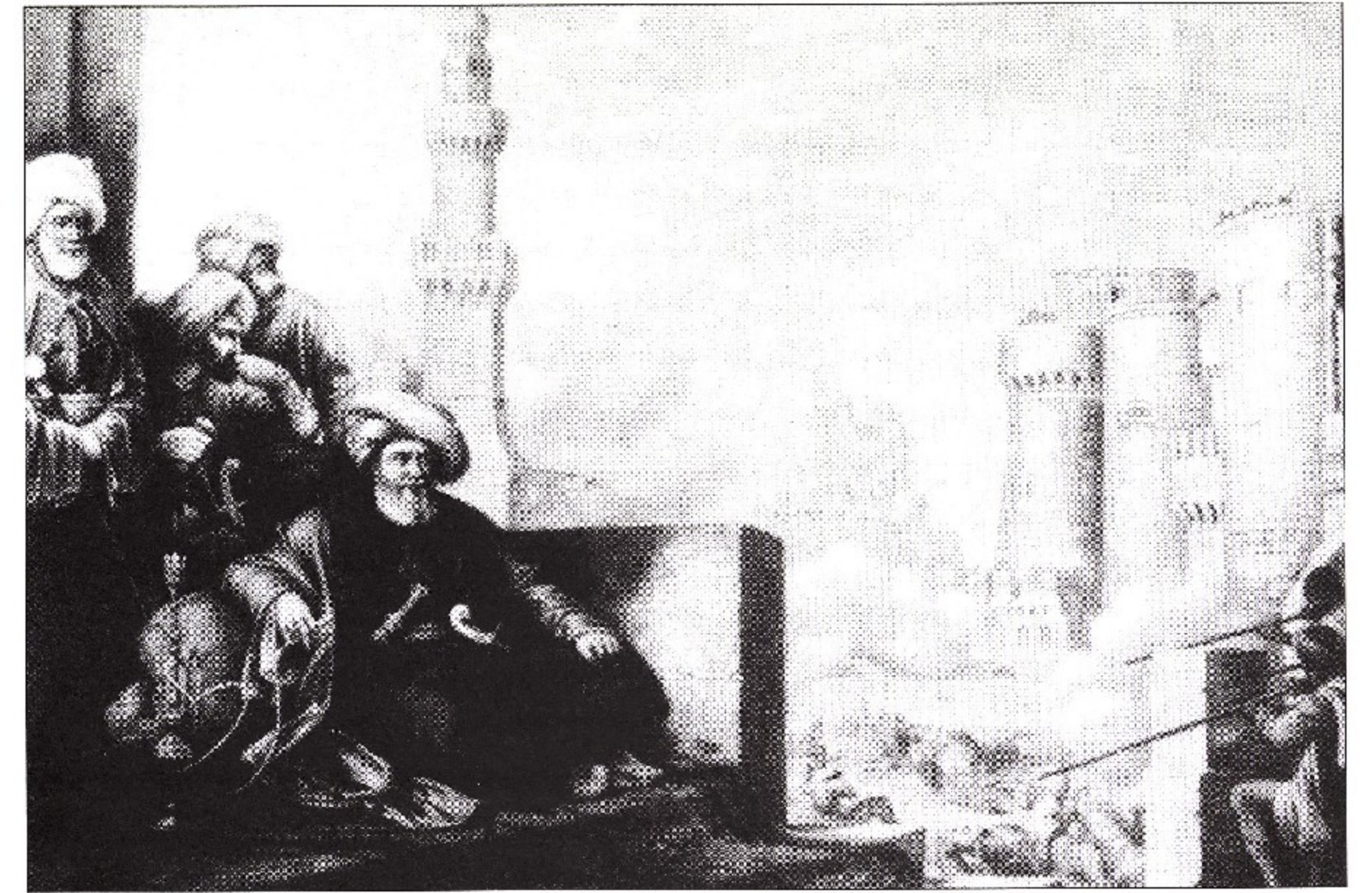
(٦) انظر المرجع السابق صفحة ٢٠٠





لوحة (١٤) مذبحة المماليك .  
لوحة مطبوعة بطريقة الحفر  
على الحجر.

لقد شاءت الأقدار لهذه الطغمة من الأرقاء الذين اغتصبوا مكان السادة والأمراء في بلد عريق أذاقوا شعبه ألوانا من العسف الهمجي وانتزعوا ما في أيدي أثري وأفقر أفرادها لينفقوها في بذخ أحقق يتقلبون وسط سحره الخرافي، شاءت الأقدار أن ينتهوا أبشع نهاية على يد أجنبي مثلهم طامع في حكم الشعب الذي سبقوه إلى انتهاب خيراته . وكان يوما فريدا توزع فيه شعب القاهرة بين مشاهدة مصرع جلاديه وتناثر أشلائهم في ثيابهم المزركشة وسط جثث خيولهم المطهّمة ، ومتابعة موكب الوالي الجديد يدق طبول الفرح وتتحوطه الرقصات والزغاريد وهو ينصبّ ابنه طوسون قائدا للحملة الموجهة لتأديب الوهابيين ، وبين متابعة جماعات المنتقمين من المماليك المقتحمين بيوتهم المغتصبين نساءهم والمسؤولين على خبايا كنوزهم . ويأتي الليل دون أن يسدل ستارا على هذا اليوم الذي سيكون له ما وراءه في التاريخ ، ووضعت هذه المذبحة النهاية الحاسمة لتاريخ المماليك ولوجودهم داخل مصر ، وأوقعت مصر خالصة بين يدي محمد علي ، فبات حاكمها الوحيد بلا منازع . وإذا كان قد بقي على صلة بالباب العالي فلم تكن في الواقع إلا صلة شكلية بحتة ، إذ كان قد اعتزم الاستقلال بمصر عن الإمبراطورية المريضة والقفز بها إلى مستوى حضاري أشدّ تميّزا . وقد استند في تدعيم ملكه على قوة الجيش شأنه شأن سلاطين المماليك ، غير أنه بدلا من شراء العبيد البيض لتجنيدهم في جيشه ، وخاصة بعد نضوب معينهم على أثر استيلاء روسيا على القوقاز وظفر البلقان باستقلاله ، خاض تجربة جسورة حين أقدم على تجنيد المصريين وتدريبهم للعمل تحت إمرة ضباط أوروبيين أو أتراك . وإذا كان قد حرص على توسيع رقعة جيشه لتوسيع ملكه إلا أنه نحى منحى مغايرا لسلاطين المماليك في حماسه المتأججة لتبني التكنولوجيا الغربية بدلا من الاكتفاء بتمثّل العادات والتقاليد الغربية وحدها ، وكان مبعث حماسه تأثره



لوحة (١٣) أوراس فرنيه .  
مذبحة المماليك . لوحة زيتية .  
المتحف الحربي بالقاهرة

ولقد خلف لنا جيمس وبستر أحد الرحالة الإنجليز الذي زار القاهرة عندما كانت أحداث هذه المذبحة الرهيبة ما تزال تتردد على كل لسان وصفا لمكيدة محمد علي في كتابه «رحلات القرم وتركيا ومصر ١٨٢٥-١٨٢٨» لا يخرج في معظمه عما رواه الجبرتي حتي وصل إلى خاتمة المأساة ليصف القلعة بعد تلك الأحداث : «حيث بدت وكأنها مجزّر بشع يعجّ بطوفان من دماء الضحايا ، تناثرت فوق ربوعها مئات الجثث المتعفنة . وهنا وهناك استلقت الجياد المبقورة بجلوها المزركشة وسروجها الباذخة وقد خضبها مزيج الوسخ والدم المتخثر . وتبعثرت أجساد الفرسان ، بعضهم مقطوع الأطراف والبعض الآخر مفصول الرؤوس ، وأغلبهم ما يزال قابضا على سيفه المحدث قبضة الهوس واليأس . وقد انطرح إلى جوارهم جيادهم منبطحة في برك من دمائهم انداكنة . وما أكثر ما ألهمت قصة المملوك الذي قفز بجواده من فوق سور القلعة فاراً بحياته خيال المصورين المعاصرين فانبثروا يسجلونها لتزيين قاعات استقبال أفراد أسرة محمد علي وإن لم تكن هذه القصة في حقيقتها غير محض خيال . فلا شك أن هذا الأمير لم يقصد القلعة يوما إما لمرضه ، أو أنه احتاط للأمر فلم يذهب مدركا أن وراء جدران القلعة تكمن الأفعى رابضة بين خمائل الورود مترصدة فريستها» .

على أنه قد تراءى لروبرت كيرزون الرحالة الإنجليزي الذي زار مصر في نفس الفترة أن يخالف رواية جيمس وبستر في كتابه المسمّى «زيارات لأديرة الشرق الأدنى» مؤكدا صدق قصة المملوك الذي قفز من فوق سور القلعة بجواده ، ذاهبا إلى أن توفيقه في الفرار قد ربط بينه وبين محمد علي بصداقة وثيقة ، كما يروي أنه شاهده بنفسه أكثر من مرة يختال مزهوا بجواده المزدان وفق الطراز المملوكي .

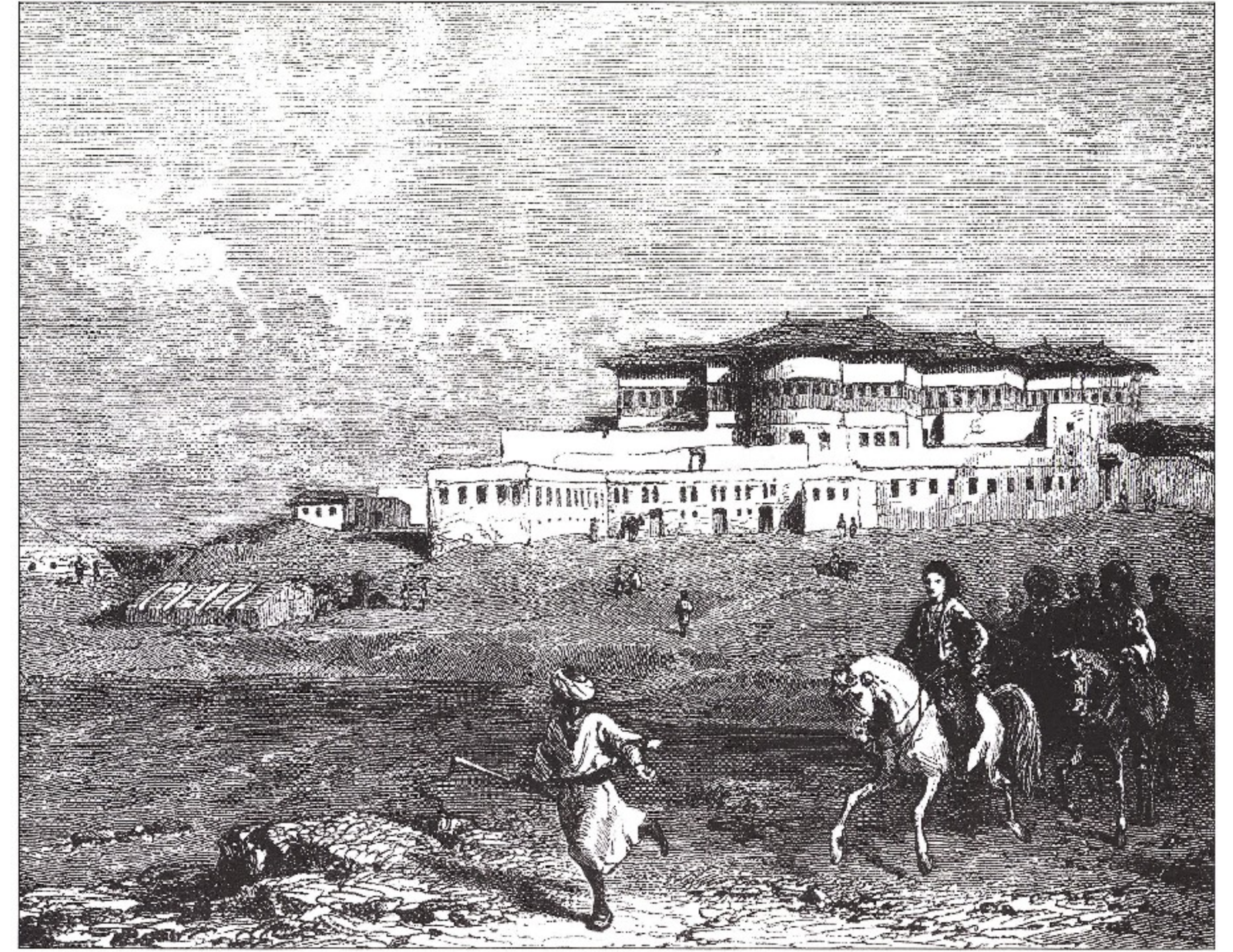




لوحة (١٦) شامارتان . مذبحه  
الإنكشارية ١٨٢٧ . لوحة زيتية  
٦٢٨×٤٧٢ سم . متحف مدينة  
روشفور سور مير .

وأمضاها بإحكام تحسده عليه الأبالسة . وما لبث أن غدا أسير هذا الإلهام الماكر ، فلم يمض وقت قصير حتي لقي الإنكشارية على يديه نفس مصير المماليك (لوحة ١٦) .

على أن محمد علي في حقيقة الأمر لم يستلهم الغرب إلا فيما يمدّه بالقوة ويدعم سلطانه كحاكم مطلق ، فلم يخطر له أن ينقل عن الغرب مؤسساته الديمقراطية أو أن يطبق ما تنادي به ثوراته من حريات إنسانية ، بل إنه لجأ إلى نفس وسائل المماليك المتعسفة من أجل دعم سلطانه ، إذ استبدل بالمماليك الجنود الأرناؤوط الألبانيين الذين لم يكونوا أقل عنفا ولا قسوة بالمصريين من المماليك (لوحة ١٧) ! . ويروي الكاتب الإنجليزي الساخر وليام ثاكري ذكرى مشهد رهيب رآه مع رفقاء رحلته أمام الفندق الذي كان ينزل فيه بالقاهرة ، وهو منظر جندي أرناؤوطي تحمله الشرطة وسط جمع غفير من الناس والجنود إلى حيث يضرب عنقه . ورغم الجمهور الغفير الذي يحيط به لم يكف هذا الأرناؤوطي عن التمرّد ومصارعة أسريه في ضراوة ووحشية وقد تمزقت ثيابه حتي بدا شبه عار ، غير أن مشهده وهو يتلوّى كالوحش الكاسر أثار إعجاب أحد رفاقه وكأما يشهد لوحة فنية ذات قيمة جمالية . ويغلب على الظن أن هذا الأرناؤوطي كان قد قُتّن بامرأة مصرية تعقبها في الطريق كي يحظى بها ففرت منه لتحتتمي في مركز الشرطة . ومع ذلك دخل وراءها يطاردها بلا اكتراث ، وحين حاول أحد أفراد الشرطة إثنائه عن قصده أخرج مسدسه



لوحة (١٥) قصر محمد علي  
بالإسكندرية . لوحة مطبوعة  
بطريقة الحفر على الحجر .

المبكر بمهارة الفرنسيين الذين وجد فيهم إلى جانب تقدمهم العلمي سنداً يوازن به الباب العاني المستند إلى عون الإنجليز .

وقد اعترف المؤرخ الفرنسي جوزيف ميشو الذي زار مصر سنة ١٨٣٠ بذكاء الباشا ودهائه وإن عاب عليه قسوة استغلاله للفلاحين والتغالي في جباية الضرائب والمكوس وتسليط الشرطة على البلاد ، واتهمه بالتعجل والعدو وراء الثراء السريع (لوحة ١٥) ، وإن اعترف مع ذلك بحرصه على تطوير الزراعة والصناعة والتجارة وجعلها كلها احتكارات في قبضة الدولة مما هبط بمستوى الرفاهية بدلا من الارتفاع به ونشر الاضطراب والفقر في الريف ، وأنضب الخزنة بدلا من ملئها ، وأنه اضطر لكي يحول دون خرق قوانينه الجائرة إلى أن ينشئ جهازا جبارا للرقابة والتجسس ، فجعل نصف الشعب يعاني من عسف نصفه الآخر وتسلطه .

ومنذ أواخر القرن السابع عشر بدأت الإمبراطورية العثمانية تعرض للهوان تذوق ألوانه المرة تلو المرة على أيدي الجيوش الأوروبية المتفوقة تكنولوجيا ، إلى حد أخذت معه الإنكشارية التي كانت فيما مضى تتصدر الصفوف وتُنزل الهزائم بالأعداء ، تتراجع لتصبح ذيل ذلك المجتمع العثماني الرجعي المغلق الذي كانت يوما ما طبيعته . ولم يهدأ بال السلطان محمود الذي باتت نوازع القلق تؤرقه خوفا من أن تغدر به إنكشاريته ، وجرى فكره إلى المذبحة التي دبرها محمد علي للمماليك





لوحة (١٨) محمد علي باشا

وأطلق عليه رصاصة أردته قتيلا ولم يلبث أن اغتال ثلاثة جنود آخرين . وعندها كانت بقية رجال الشرطة قد تمكنوا من الإمساك به . ومع أنه كان مدركا أن عنقه قد أصبحت مهددة بالقطع لم يراوده أسف ولا ندم بل ركع بكل بساطة ورباطة جأش انتظارا لقطع رأسه وكأنه يتأمل مشهد جزّ عنق شخص غيره . كذلك وقف من حوله رفاقه في الجيش في هدوء بينما كانت دماؤه تسيل على الأرض . وسرعان ما دنت زوجة عاقر تلصّح وجهها بالدم المراق من جسد الأرنؤوطي القتيل ، إذ كانت تؤمن أن في ذلك دواء للمرأة العقيم وأنها لن تلبث أن تنجب ، فهرع إليها أحد الجنود الأرنؤوط قائلًا : « أراك مولعة بالدماء فلتشهدي إذن دمك ممزوجا بدم زميلي » ، ثم أخرج مسدسه وقتل المرأة وسط الحشد المتجمع من الجنود والمواطنين ، فألقى القبض عليه وفصلت رأسه عن عنقه في اليوم التالي .

ولم يكن هذا الحادث وحده هو الذي أثار استياء ثاكري من سلوك هؤلاء المرتزقة من الأرنؤوط الذين يبتون الرعب في قلوب الأهالي جميعا . ذلك أنه شهد أيضا اغتيال أحد الأرنؤوط لصاحب حانوت في بولاق لأنه رفض أن يبيعه بطيخة بالثمن الذي أراد وفضل فصل عنقه عن جسده على تقديم بضع ملاليم إضافية لهذا التاجر . وقد دفعه هذا كله إلى أن يتساءل في أسى عميق وتهكم لاذع : « لماذا لا يدعو معالي الباشا الجنود الأرنؤوط إلى وليد في القلعة كما دعا المماليك ، ويقدم لهم إفطارا مماثلا لما قدّمه لسابقيهم ؟ » . ولعل ثاكري نسيم أو تناسي أن محمد علي قد ذبح المماليك لأنهم كانوا يسومون المصريين سوء العذاب بل لأذ كانوا يفعلون ذلك لحسابهم هم ولتدعيم سلطتهم لا لدعم سلطان محمد علي ، بينما كان الأرنؤوط هم أداة محمد علي وعدته في فرض سلطانه وهيئته .

وربّ سائل يسأل ما مكان محمد علي من هذا التمهيد التاريخي ؟ فأقول إنه على امتداد النصف الأول من هذا القرن الذي نعرض له في هذا الكتاب ونتحدث فيه عن زوَار مصر من الأدباء والفنانين الذين كتبوا عنها وصوروها كان محمد علي على رأس السلطة في مصر طوال هذه المدة ( لوحة ١٨ ) . لهذا كان على صلة وثيقة بجمهرة كبيرة من الأدباء والعلماء الأجانب الذين وفدوا على مصر لاسيما الفرنسيين منهم ، كما يسّر لكثرة منهم أداء مهامهم العلمية التي رأى فيها أنها تأخذ بيد مصر إلى النهوض والرقى ، وكانت زيارة «الباشا» محمد علي «موضوعا» أثيرا وضروريا في أغلب كتب الرحلات التي ظهرت عن مصر في عهده حتى رأينا الأديب الإنجليزي كنجليك يسخر من تلك الزيارة التقليدية سواء لمحمد علي أو غيره من الباشوات في أحد فصول كتابه «إيوثن» . وحسبنا لإيفاء محمد علي حقّه أن نسرد في إيجاز بعض ما تحقق عدا يديه مستعينا بالعلماء والمهندسين والعسكريين الفرنسيين ، ففي عهده أنشئت أجهزة البريد والبرق ومصانع تكرير السكر ومصانع البارود إلى غير ذلك من الصناعات ، واستحضر محمد علي م يربو على ألف وخمسمائة من البُستانيين الفرنسيين فأذاعوا في أنحاء مصر أفضل الوسائل الزرا التي ضاعفت الإنتاج الزراعي واستنبتوا أشجار التوت والزيتون . واستزرع الفرنسي جوميل القطن الطويل التيلة ، وعُهد إلى الفرنسي لينان بإنجاز المرافق العامة ، وإلى كلوت بك بإنشاء

لوحة (١٧) الكسندر بيديا . جنود الأرنؤوط .

« ما من أحد من الأرنؤوط إلا وصار له عدة بيوت وزوجات والتزام بلاد وسيادة لم يتخيلها ولم تخطر بذهنه ولا يفكره ولا يسهل الانسلاخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه »

الجبرتي

عجائب الآثار . جزء ٤ ص ١١







لوحة (٢١) إبراهيم باشا .  
صورة مطبوعة بطريقة الحفر  
على الحجر . مكتبة دار  
الصناعات البحرية بباريس .



لوحة (٢٠ب) جندي مشاة  
مصري من «النظام الجديد»

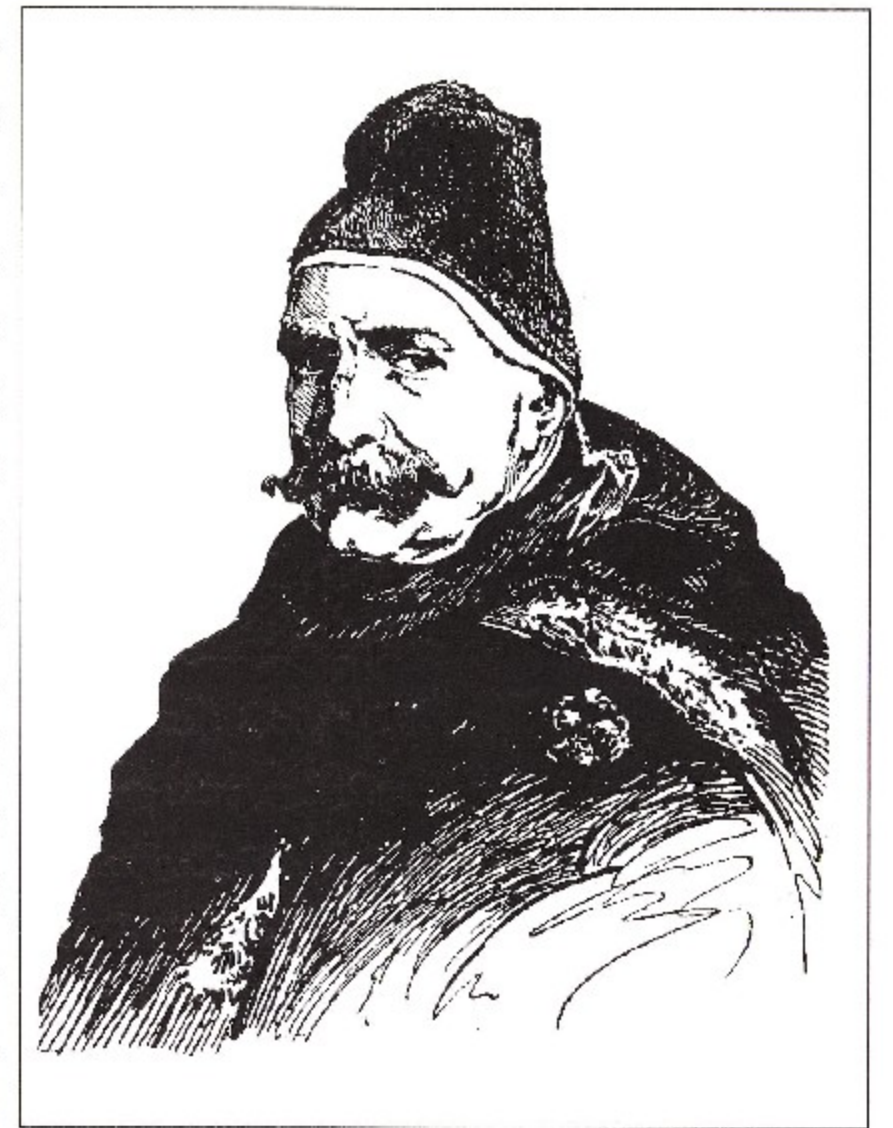
عام ١٨٢٤ يطلب من محمد علي أن يقضي على هؤلاء الثوار ويخضع له المورة وأعدا إياه أن يسند إليه ولايتها هي وسوريا .  
وحين أبلغ محمد علي رجال ديوانه بما طلبه منه السلطان صاح وزيره الأرمني بوغوص بك متملقا : «لقد توجَّ الله جبينك بتيجان الأرض أجمع وما أجدر بك متملقا : «كان يتشبه بنابليون المؤرخ الفرنسي إدوار جوان إن محمد علي : «كان يتشبه بنابليون فيمشي مثله مشية عسكرية ويسير وقد شبك ذراعيه خلف ظهره على غرار ما كان يفعل نابليون ، ويحيا مثله حياة بسيطة مسلكا وملبسا . وكان محمد علي مثل نابليون في نشأته إذ صنع نفسه بنفسه ووطد ملكه بالسيف مثله . وكما كان نابليون يحلم بأن يعيد إلى مصر مجدها السالف وعظمتها القديمة وأن يختار لنفسه عرشا تحت سماء الشرق كان محمد علي يحلم بتلك الأمنية التي راودت نابليون من قبل . وحتى عندما كان نابليون سيد أوروبا بلا منازع كان يردد أن الولايات العثمانية الناطقة بالعربية في حاجة إلى تطوير جذري ، وهي لا شك ترقب الرجل الذي يحقق لها تلك الأمنية . وكما كان جان چاك روسو يقول : «مَنْ غيّر خَدَمَ زمانه أكثر مني ؟» ، كان محمد علي يناجي نفسه قائلا : «مَنْ خَدَمَ مصر - بعد الله والنيل - أكثر مما خدمتها أنا؟» .

استجاب محمد علي لنداء الباب العالي فأرسل جيشه بقيادة ابنه إبراهيم إلى المورة يعاونه الكولونيل سيف ، فكتب له الفوز على الثوار في كل المعارك (لوحة ٢١) . ولكن سرعان ما تحركت أساطيل فرنسا وإنجلترا حين رفضت تركيا إجلاء جنودها عن المورة للتحرش بالأسطولين المصري والتركي في ميناء نقارين حيث نشبت معركة فاصلة أسفرت عن تدمير أسطول مصر وتركيا اللذين لم يكونا على قدم المساواة مع الأساطيل الأوروبية ، فاضطر محمد علي إلى استدعاء إبراهيم بجنوده من اليونان عام ١٨٢٨ . وكانت حرب المورة درسا مفيدا لمحمد علي وإبراهيم باشا ظهرت فيها كفاية الجيش المصري الذي دربه واشترك في قيادته الكولونيل سيف . لهذا كان إبراهيم كثيرا ما يحتضنه على مرأى من الجنود وهو يقول له : «نحن جنديان لا غنى لأحدنا عن الآخر . فعلينا أن يهنئ أحدهما زميله على ما أحرزناه معا من نصر» .  
وكان السلطان محمود قد وعد محمد علي بعد أن أخمد ثورة الوهابيين في شبه الجزيرة العربية وبعد حرب المورة أن يسند إليه ولاية سوريا مكافأة له على ما بذل من خدمات للباب العالي ، ولكنه لم يلتزم بوعده واكتفى بأن يوليّه جزيرة كريت المعذمة فأسرّها محمد علي في نفسه وظل ينتهز الفرصة لينال الولاية السورية الغنية الموعودة بحدّ سيفه إلى أن واثته الفرصة حين قرر والي عكا أن يضم دمشق إلى ولايته ، فأرسل محمد علي إبراهيم باشا على رأس جيشه يعاونه الكولونيل سيف . فغضب السلطان على محمد علي واستصدر فتوى بإزهاق روحه وبإرسال جيش من ستين ألف جندي تحت قيادة قائد لم يكن له رصيد من مجد سوى تخليصه السلطان من جنوده الإنكشارية بمؤامرة انتهج فيها كما قدمت مسلك محمد علي في القضاء على

مدرسة الطب والمستشفيات ومركبات الإسعاف التي تولّاها أطباء فرنسيون ، وقام على إدارة مدرسة الطب البيطري الفرنسي هامون ، كما وليت إدارة مدرسة الولادة الأنسة جوت الفرنسية . وأوفد محمد علي صفوة الشباب المصري لتلقي مختلف فروع العلم في باريس ، ووضع برئاسة العالم الفرنسي جومار النواة الأولى للبعثة المصرية التي أخذت تقوم بدور هام في مستقبل الأمة المصرية ، وأسلم الإشراف على تنظيم الجيش المصري الجديد الذي يشغل جانبا ذا أهمية قصوى من ذهنه إلى الجنرال ليثرون والجنرال بوايه والكولونيل جودان الفرنسيين . ووضع في مقدمة هؤلاء جميعا ضابط الجيش الإمبراطوري الكولونيل أوكثاف جوزيف أنتلم سيف (لوحة ١٩) ، تلك الشخصية التي أسهمت بالكثير في إنجازات هذا العصر . وقد وُلد سيف بمدينة ليون عام ١٧٨٧ ، وكان منذ نعومة أظفاره ذا هبة عسكرية فالتحق في سن السابعة عشر بالبحرية الفرنسية ليؤهل ضابطا ، وبعد خمس سنوات عُيّن ضابطا بالمدفعية البحرية . ولكن ما كادت الجيوش الفرنسية تجوب أوروبا حتى ترك خدمة الأسطول إلى

خدمة الجيش واشترك في المعارك التي خاضها الجيش الإمبراطوري بقيادة نابليون ، وكان تحت إمرة المارشال ناي أثناء الانسحاب من موسكو ، كما اشترك في القتال أثناء معارك المائة يوم . وإذا كان واضحا صريحا لم يستطع أن يكتسب تعاطفه مع نابليون بعد معركة ووترلو ، لذا كان من الاستحالة بمكان قبوله في الجيش الملكي الجديد ، فقتع بأن يستأجر مزرعة في الريف الفرنسي ، غير أن ما في طبعه من شغف بالحرب والقتال ما زال يلحّ عليه للانخراط في سلك الجندي من جديد ، إلا أن هذا الأمل كان دون تحقيقه صعوبات جمّة ، لذا عزم على الرحيل إلى بلاد الفرس التي كانت تعدّ العدة لتطوير جيشها ، وعرج وهو في طريقه إليها على مصر وقابل محمد علي الذي أعجب به فاستبقاه وضمّه إلى جيشه بعد أن وعده بتحقيق كل ما يطمح فيه إن لم يجاوزه في ذلك ، واعتنق سيف الإسلام وسُمّي سليمان بك ، وإذا كان فرنسي الأصل فإن نفوس أعوان الباشا لم تصف له قبات عليه أن يغالب هؤلاء الذين يضمرون له العدا . ولقد وجد نفسه في أول مهمة يعهد إليه الباشا بإتمامها محاصرا في قصره بعدد من الجنود ، ولكنه أفلت من تلك المؤامرة بما كان يتحلّى به من حنكة . وكم حيكت من حوله المؤامرات لتتخلص منه غير أن شجاعته كانت تنقذه دوما . وذات يوم بينما كان يُشرف على تدريب الجنود أخطأته رصاصة كانت مصوّبة إلى رأسه ولم تصبه إلا بخدش بسيط ، ولم يفزع لذلك بل أهاب بجنده قائلا : «ما أطيش رصاصكم فلتكونوا أدق تصويبا حين ترمون . هيا أطلقوا أعيرتكم» . وأطلق الجنود رصاصهم ، وعندها لم تنجح رصاصة إلى ناحية رأسه ، وما لبث الضائقون به أن استسلموا وخضعوا فأنتهى من تدريب الجيش في سنوات ثلاث على النهج الذي سُمّي «بالنظام الجديد» (لوحة ٢٠أ، ب) .

وكان أديم شبه جزيرة المورة قد دفن تحت طياته جيوشا تركية أربعة خلال حرب الاستقلال اليونانية حتى غدا الطريق إلى إستنبول ممهدا أمام «جيوش الكفار» فأسرع السلطان محمود في



لوحة (١٩) نادار :  
كولونيل سيف  
(سليمان باشا الفرنسي ساوي) .  
مجموعة خاصة : عادل ثابت



لوحة (٢٠) جندي مدفعية  
مصري من «النظام الجديد» .





لوحة (٢٣) إبراهيم باشا وفي  
صحبه سليمان باشا في  
ساحة العرض العسكري  
بباريس .

والفخامة التي تجلّت في استقبال إبراهيم باشا ، إذ حضره ثمانية أمراء وست أميرات وما ينوف عن  
ستين جنرالاً من قادة الجيش الفرنسي تكريماً للبطل المصري . وكما كان استقبال فرنسا الودّي  
احتفالاً بإبراهيم باشا كان كذلك احتفاء غير مباشر بعودة «ابنها الضال» بعد أربعين عاماً ، تلقّفته  
مصر وهو برتبة متواضعة وأعادته أميراً برتبة اللواء . ومع ذلك حاول نفر من الفرنسيين أن ينال من  
إسلامه كما حاول نفر آخر أن يعزو إسلامه إلى ما وعدّه المسلمون من جنة أشد بهجة وروعة من  
تلك التي وعدّها النصراري (لوحة ٢٣) .

وكما كان سليمان باشا جندياً وفيّاً من جنود نابليون كان كذلك وفيّاً لمحمد علي ، ودلّل على  
هذا الوفاء بما كان منه من إقدام وبسالة في ساحات المورة وسوريا والأناضول . وكان لا يفتأ  
يقول : «لقد أحببت في حياتي ثلاثة رجال هم أبي ونابليون ومحمد علي . أما الأولان فقد رحلا  
ولذلك انحصر حبي البنوي في محمد علي باشا» . وكان محمد علي هو الآخر يقول : «لقد  
خرج سليمان من صُلبي وكأنه أحد أبنائي ، وهو لن يترك مصر إلا إذا تركتها أنا» .

وإذا كان محمد علي قد وُفق في اختيار هذا القائد العسكري الفذ لينهض بجيشه الفتّي فقد  
كان موفقاً كذلك في اختيار الطبيب الفرنسي المتفاني في عمله كلوت بك الذي أنشأ كما قدمت  
مدرسة الطب بالقاهرة . وقد نشر هذا الطبيب في عام ١٨٤٠ كتاباً أشرك فيه معه جمهرة من  
الخبراء الفرنسيين الذين أسهموا في بناء مصر الحديثة هو كتاب «لمحة عامة عن مصر» (٧) عقد فيه



لوحة (٢٢) إبراهيم باشا  
والكولونيل سيف في معركة  
نصيبين .

المماليك . غير أنه لم يكن يملك حنكة محمد علي ولا كان جيشه في كفاية الجيش المصري ،  
وسرعان ما انهار جيش السلطان أمام جيش محمد علي (لوحة ٢٢) ، بل لقد باتت الدولة  
العثمانية على حد تعبير أحد رجال الدين الأتراك «أشبه بالجنة الهامدة التي يقف على رأسها قائد  
في جلال لقمان دون أن يكون مائلاً لحكمته» .

وفي أقل من ست ساعات قضى إبراهيم باشا على جيشه بأكمله ، وفي أقل من ستة أشهر صدّ  
حملتين تركيتين حتي وصل الجيش المصري إلى مدينة كوتاهية بالأناضول على بعد خمسين  
فرسخاً من العاصمة استنبول . غير أن الدول الأوروبية التي هانتها قوة محمد علي سرعان ما  
اجتمعت في لندن في يولييه ١٨٤٠ لتعيد سوريا بكاملها إلى الباب العالي ونحرم محمد علي من  
نتيجة ظفّره . وأوفدت إنجلترا الأميرال نايبير للاشتراك بأسطوله مع السفن الروسية والنمساوية في  
حصار الموانئ السورية التي كان الجيش المصري يربط فيها ، ثم حاصر الإسكندرية وهدّد بضررها  
وعقد على مسؤوليته الشخصية معاهدة مع محمد علي ضمن له بها ولذريته من بعده حكم مصر  
إذا وافق على إجلاء جنوده من سوريا . ولم تشرك فرنسا في هذا المؤتمر زاعمة أنها لا تريد أن  
تورط نفسها في المشاكل السياسية ، وحين صدر فرمان توريث أسرة محمد علي أسرع فرنسا  
فقبلته وبادرت إلى دعوة إبراهيم باشا إلى زيارة باريس وفي صحبته سليمان باشا الفرنساوي . ولم  
تخط «ساحة مارس» بباريس منذ عهد نابليون بأن تشهد عرضاً رسمياً عسكرياً يمثل تلك الأبهة



فصولاً متنوعة عن تاريخ مصر والأصول العرقية للمصريين وعن التاريخ الطبيعي والعقائد الدينية والشرائع المطبقة وعن الآثار المصرية وإنجازات حكومة محمد علي ، وكان الكتاب في أكثره دعاية للوالي . كما خصّص فصلاً للتعليم العام في مصر وأورد فيه أنه منذ إنشاء البعثة المصرية التي كان يرأسها جومار عام ١٨٢٦ أوفد الباشا مائة وأربعة عشر طالباً إلى باريس عادوا ليتقلدوا مناصب هامة ، من بينهم الشيخ رفاعة الطهطاوي إمام البعثة ومؤلف كتاب «تخليص الأبريز في تلخيص باريز» والذي عيّن ناظراً لمدرسة الألسن ، كما أسس عدداً من المدارس على غرار المدارس الفرنسية الابتدائية والإعدادية المتخصصة تكفلت الدولة بإيواء طلبتها وبطعامهم وكسائهم بل ودفع مرتبات لهم . وذهب كلوت بك في كيل المديح لمحمد علي إلى حد وصفه بأنه امتداد لعبقريّة نابليون وشارل الثاني عشر وبطرس الأكبر!

ولقد كان من الطبيعي أن تجهرَ بنقد سياسة محمد علي جمهرةٌ أخرى من المفكرين الفرنسيين من أمثال شاتوبريان الذي لم تُبهره السفن والقطر البخارية ولا أرقام حصيلة بيع المنتجات المصرية أو الثروات الخيالية التي كدّسها بعض العسكريين من الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين ، فإنه لم ير في شيء من ذلك بادرة تدل على ارتقاء مصر الحديثة سلّم الحضارة والمدنية ، على الرغم من أن محمد علي قد استطاع بشخصيته القوية وانتصاراته العسكرية ودعايته الماهرة أن يجتذب إلى صفّه الحكومة الفرنسية التي كانت تنظر إلى تركيا على أنها تجسيد للاستبداد والروتين والماضي على حين كانت تري في محمد علي رمزا للحرية والتقدم . على أن صحفياً فرنسياً هو بوسكيه ديشام<sup>(٨)</sup> الذي كان قد زجّ به في السجون الفرنسية لتجهّمه العنيف على حكومة لويس الثامن عشر اختار الرحيل إلى مصر بعد انقضاء عقوبته في السجن ليضع قلمه في خدمة الباشا باعث مصر الحديثة من خلال صحيفة أسبوعية يصدرها باسم «صدى الأهرام» . وقد وافق الباشا على إصدار هذه الصحيفة ولكنه لم يلبث أن صادرها بعد شهر واحد بتهمة إذاعتها أسراراً لغرض في نفس ديشام . وكانت هذه طعنة لبوسكيه ارتحل بعدها إلى أزمير في تركيا حيث رأس تحرير صحيفة «أزمير» وبدأ في تصفية حسابه مع محمد علي ووزيره الأرمني بوغوص بك في حملة عنيفة استخدم فيها إلى جانب موهبته الفذة في الهجاء ضراوة شرسة ، فقد صور مصر في عهد محمد علي على أنها مزرعة يستغلها حاكم أجنبي ، ولم ير في المدينة المزعومة في مصر إلا مأساة تتخفى وراء ديكور إحدى المسرحيات الهزلية ، وخلف بضع قصور أعيد طلاؤها وثُبت على واجهة كل منها لافتة تحمل اسم مدرسة لا وجود لها بغرض التباهي الأجوف . كما لم يجد في المستشارين العاملين في خدمة محمد علي إلا زمرة من الأجانب الذين كانت تُسند إليهم أعمالاً ليسوا أهلاً لها : «فعلى حين كان الموظفون العموميون من الأرمن الذين لا تعنيهم شؤون البلاد ، كان من يُلون الوزارة من الشراكسة الخانعين لأوامر الوالي ، وكانت رتبة البكوية والباشوية قاصرة على هؤلاء الذين يخرجون من ديارتهم ويُسلمون ، ورأينا الذين يُرقون إلى رتبة الضباط من الألمان الذين لم يتجاوزوا في بلادهم رتبة ضباط الصف ، ووجدنا تلك الثلّة من السويسريين نافخي الأبواق تُحشر في زمرة المحاربين الأكفأ ، وكذا كان البدو الحفاة يُحشدون في جملة الجنود النظاميين . ورأينا من بين من ينتحلون صفة الأطباء نفرا من الحلاقين لا صلة لهم بالطب . وبدأ في محيط مدرّسي اللغات الأجنبية من لم يزاولوا هذه المهنة قط وغاية علمي عنهم أنه وفدوا إلى مصر طهاة . وانضم إلى طائفة العلماء الموسوعيين

السان سيمونيون الذين زعموا أنهم على خبرة بالهندسة ، وما لبثت دواعيات السان سيمونية من الفتيات أن غدون محطّيات بعد أن اعتنقن الإسلام . ثم هو لا يرى في ذلك كله إلا مأساة عامة يتنافس فيها هؤلاء جميعاً على أرض الفراغة الجميلة التي كانت عامرة بسكانها ناعمة بخصب تربتها وثراء ماضيها فإذا هي تنقلص في عهد محمد علي ، فينكمش سكانها وتتضاءل ثروتها حتى لتحرك في النفس الأسى والأسف . وقد أحدثت هذه الضربات التي كالهيا بوسكيه لمحمد علي هزة في علاقته بفرنسا ، بل لقد كانت نذيراً بانتهاء شهر العسل الذي نعم به محمد علي طوال السنين الماضية مع الكتاب الفرنسيين . إذ ما لبث أن توالى خلال السنوات الأخيرة من حكمه ظهور العديد من الكتب الفياضة بالنقد والمعارضة . ويكفي اقتباس جزء من رسالة خطّها الفنان المصور أوراس فيرنيه في ١٦ نوفمبر ١٨٣٩ يصف فيها مورستان قلاوون - وهو مستشفى الأمراض العقلية الذي أقيم في القرن السادس عشر - حيث نطالع وصفا صارخاً متناقضاً مع ما سجله كلوت بك فيقول : «تخلّل الجدران فجوات تغطّيها شبكات حديدية ضخمة يرتقي فيها المرضى التعساء عراة فوق الأرضيات الحجرية دون حشّة من القش سوى فضلاتهم وطبقة سميكة من التراب ، وقد أحاطت بأعناقهم سلاسل ثقيلة مزدوجة تثبت أطرافها بحلقات خارجية . وهو منظر مشين رهيب لا يُتصوّر وجوده في منتصف القرن التاسع عشر في دولة تزهر بأنها تخطو حثيثاً نحو الحضارة . . . إن أولئك الذين يترقبون إصلاحاً في مصر يُفضي إلى مدينة واهمون ويخصّثون خطأ جسيماً ، فما يدور هنا هو انضباط محكم للطغيان لا يستطيع إنسان الفكاك منه» .

كما يكتب أوسيب ده سال<sup>(٩)</sup> أستاذ اللغات الشرقية : «إن حقيقة محمد علي تختلف كثيراً عن الصورة التي أشيعت عنه ، ولكنه عرف كيف يعي صحافة فرنسا لخدمة أهدافه بمجاملاته المحسوبة . فما يكاد زائر ذو مكانة مرموقة يطأ أرض مصر حتى يحاط بأيّات التكريم ، فتُعدّ له الرحلات المجانية في طول البلاد وعرضها ، ينعم بأشهى طعام ويستقل المراكب الفاخرة ويمتطي الجمال والبغال ويحفّ به السّواس والقوّاسون بأعداد لا حصر لها ، ويعامل معاملة الأمراء فتُطلق له المدافع وتُقرش له درجات القصور بالسجاد . إن الباشا يتمتع بذكاء خارق ويخفي وراء دماثته الفاتكة دبلوماسية بارعة . فعلى حين يتخذ أمام رعاياه المسلمين صفة المسلم الورع المتمسك بقواعد الدين المحافظ على التقاليد ، يتخذ أمام الأوروبيين صفة الحاكم الإنساني المتحرر» . وكتب هامون<sup>(١٠)</sup> ناظر مدرسة الطب البيطري بالقاهرة في كتابه الذي ظهر سنة ١٨٤٣ بعنوان «مصر تحت حكم محمد علي» أنه : «بعد معاهدة لندن تأجج سخط محمد علي على الأوروبيين بصفة عامة وعلى الفرنسيين بصفة خاصة لخدلانهم له ، حتى إنه بناء على نصيحة ابنه إبراهيم وحفيده عباس تراجع عن إصلاحاته فأغلق بعض المدارس وشرّد العديد من المدرّسين والفنيين ، إن مصر الحديثة ليست إلا واجهة زائفة نصبها طاغية مستبد يعبث بمقدّرات شعب مستذل يعيش في عفونة البؤس» .

ويقول فيكتور شولشييه<sup>(١١)</sup> أحد الدعاة ضد الرق في كتابه «مصر في عام ١٨٤٥» : «لم تكن المدارس في نظر محمد علي سوى أداة من أدوات الحرب ، فما كاد دوره العسكري ينتهي حتى تخلّى عنها . وإن الفلاح ليتصور جوعاً إلى جوار مخازن الوالي المكتظة بالغلل . أما اتسام محمد علي بالجنسية المصرية فليس سوى أكذوبة سياسية ، فليس محمد علي سوى تركي ظل

Eusébe De Salles. (٤)  
Pérégrenations en  
Orient, ou Voyage  
Pittoresque, historique et  
Politique en Egypte,  
Nubie, Syrie, Turquie,  
Grèce en 1837-39.  
Paris 1840

P.N. Hamont. (١٠)  
L'Egypte,  
sous mehemet Ali.  
Leauty et Lecomte.  
Paris 1843.

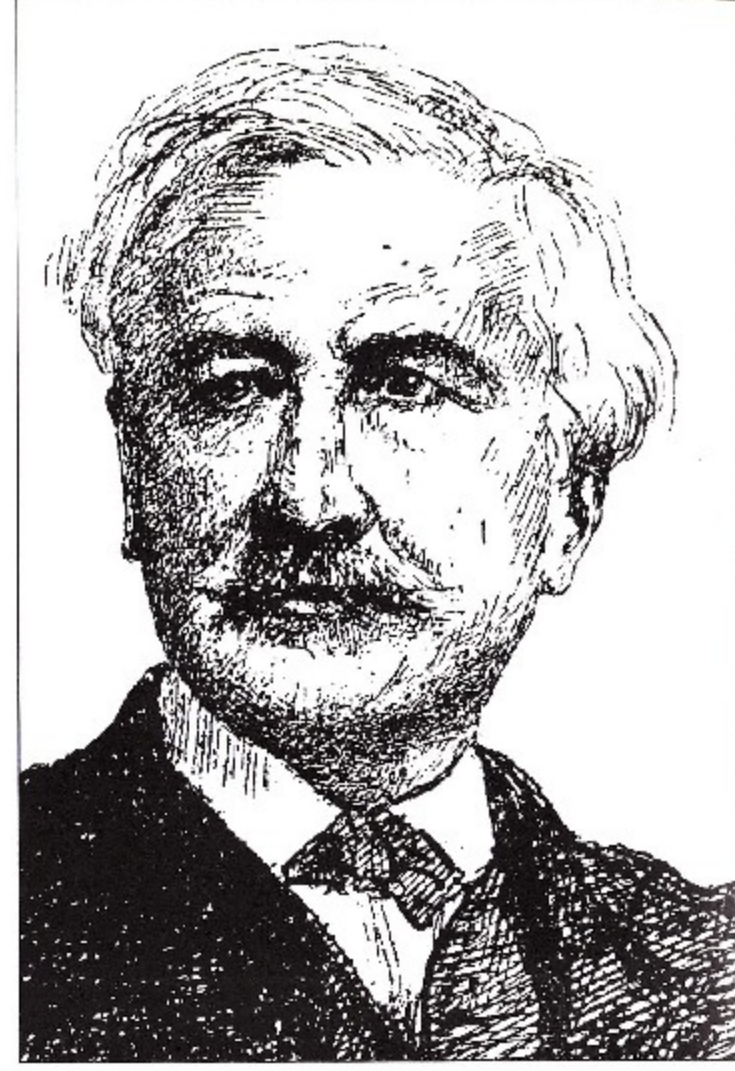
Victor Schoelcher: (١١)  
L'Egypte, en 1845.  
Pagnerre. Paris 1846.





لوحة (٢٦) يمين:  
فردينان دلسيس

لوحة (٢٥) يسار:  
سعيد باشا



لوحة (٢٤) عباس باشا . دار  
الكتب القومية بباريس

H. Gisquet: (١٢)  
L'Egypte, Les Turcs et  
les Arabes.  
Amyot, Paris 1848.

طوال عمره تركيا ولم يفكر لحظة واحدة أن يغدو مصريا ، بل إنه يعد مصر دولة فتحها بحد سيفه ويعامل المصريين معاملة الشعب المقهور ، ويعمل على أن يظل شعبا مقهورا . على حين يقول المحافظ چيسكيه في كتابه «مصر والأترك والعرب»<sup>(١٢)</sup> إن محمد علي يستنزف مصر ويعدها مزرعته الخاصة ، وقد يكون بلغ ما بلغ ولكن عن غير جدارة .

وليس من العسير على المرء أن يتبين سر حملة كثرة من الأوروبيين على محمد علي ممن كانوا بالأمس القريب يظاهرونه ، وهذا حين رأوا منه عزمه على الوقوف في وجه الباب العالي هادفا إلى أن ينشئ من مصر دولة قوية يستقل بها . هنا فزعت أوروبا التي كانت تطمح في تفتيت الإمبراطورية العثمانية المتداعية واقتسام أمصارها ، وتعاورها القلق وهي تشهد علائم ميلاد قوة كبرى تأخذ مكان الإمبراطورية التركية . ومن هنا تحول الأصدقاء القدامى إلى أعداء جدد وبات من الضروري توجيه ضربة قاصمة لقوة مصر الحديثة تنهض فيها الأقلام والسيوف جنباً إلى جنب ، وتشترك المؤامرات السياسية والاقتصادية مع المدافع والقنابل من أجل تدمير الخطر الجديد على أوروبا الطامعة في شرق مستسلم ذليل ، وهي السياسة التي ظل الاستعمار الغربي طويلا متمسكا بها حريصا على ألا تكون لمصر قوة تتزعم بها المنطقة فتتسلخ عن سيطرته . وهو ما رأيناه يتكرر على نفس الصورة تقريبا بنفس الاتساق الجنائي بين الأطراف الطامعة في ثروات المنطقة يوم قام جمال عبد الناصر وحقق لمصر استقلالها السياسي والاقتصادي والاجتماعي وأخذ يستقطب العالم العربي حول زعامته وسياسته التي رأى الغرب فيها تعاضم قوة كبرى لا يسهل لي ذراعها . وهكذا تم استدراج مصر إلى حرب عام ١٩٦٧ التي زلزلت من الكيان الجديد الناشئ خلف مفهوم القومية العربية والتجمع حول زعامة رجل أحدث تأثيرا حقيقيا في انفلات أكثر دول آسيا وإفريقيا من قبضة الاستعمار الغربي .

ولم تلبث المؤامرات التي حاكها الغرب ضد محمد علي أن آتت ثمارها ، فانكششت إمبراطوريته تحت الضغط البريطاني ، وانزوى منشئها العظيم يندب في مرارة حظ دولته العاثر حتي وفاة الأجل المحتوم عام ١٨٤٩ وخلفه عباس ابن نجده الأثير طوسون الذي توفي في سن العشرين .

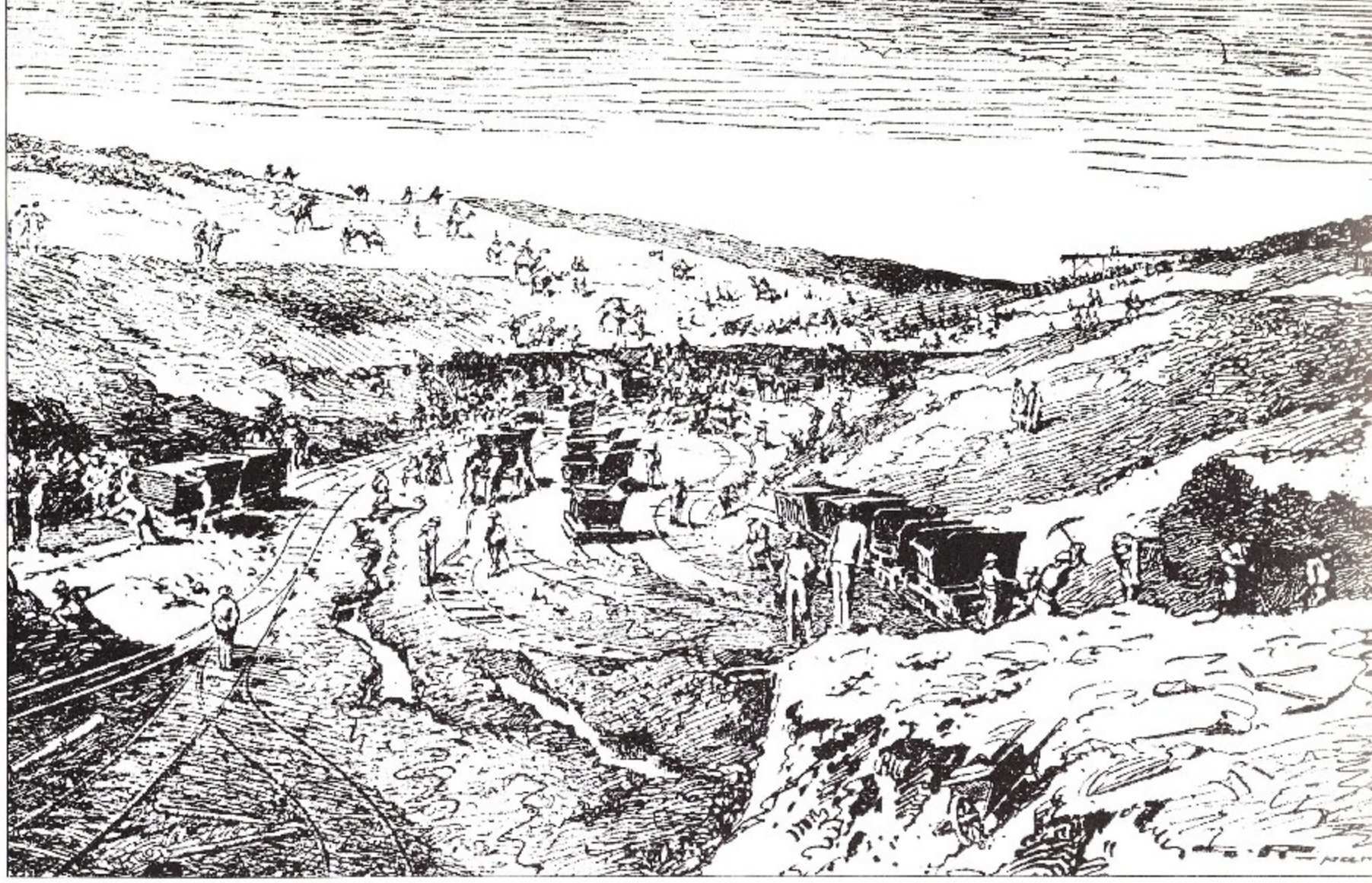
وكان عباس كما وصفه پير كراپيتيز في كتابه «إسماعيل المفترى عليه» مزيجا من الجهل والخبث والتعصب ، كثير القلب متأخرا رجعيا يمتك الأساليب الأوروبية وكل ما هو غربي ، ويخشى نفوذ المسيحيين في مصر . وكان يسخر من محمد علي بقوله : «كان جدّي يزعم أنه أوتوقراطي ، وفي الحقيقة أنه كان أوتوقراطيا على رعيته وأولاده فقط في حين كان أمام قناصل الدول بمنزلة الخداء لهم ، وإذا كان حتما على أن أذعن لأحد فأولئ بي أن أذعن لخليفة المسلمين لا للنصارى الذين أنفر منهم» . وعاش عباس في عزلة عن رعيته قلما يراه أحد ، مقيما في قصور حصينة مستورة عن الأنظار في الصحراء أو على سواحل البحر وحوله نفر من عبيده المتملقين وطائفة من الوحوش الضارية التي كان يلهو بجمعها وترويضها ( لوحة ٢٤ ) .

هكذا كانت فترة حكم عباس ردة قصيرة عن سياسة التحديث التي بدأها جدّه فسرح جزءا كبيرا من الجيش وأغلق المدارس والمصانع التي أنشأها محمد علي ، موقنا أن قيادة شعب جاهل أيسر من قيادة شعب متعلم . وكان مقتله في قصره بينها هو الحدث الوحيد المثير في سيرته ، والغريب أن أحدا لم يوجّه إليه الاتهام على ارتكاب هذه الجريمة . وإذا كان عباس ضائقا بميل جدّه

إلى الفرنسيين - الذين وصفهم الجراح البريطاني مادين بأنهم شرذمة من سفلة المستشارين وحثالة أهل جنوا ومرسليا - اتجه نحو الأنجلوساكسون ، فشجع صمويل شپرد على تأسيس فندق غدت شهرته مرادفة لشهرة الأهرام ، كما منح البريطانيين امتياز إنشاء خط سكة حديدية بين الإسكندرية والقاهرة ، استغله فيما بعد عمه سعيد المترهل الذي خلفه على العرش من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٦٣ للتفتيش على مزارعه في قاطرة مزركشة بزخارف التوريق المتشابك ومجهزة بالأرائك الجلدية ( لوحة ٢٥ ) . وكان من بين رفاق صبا سعيد فردينان دلسيس ابن قنصل فرنسا في القاهرة منذ عام ١٨٠٢ الذي لم يطل إغراؤه لسعيد بشق القناة في برزخ السويس غير ليلة واحدة ، فمنحه امتياز حفرها ناقضا بذلك سياسة سلفه الذي كان يقاوم مشروع شق القناة بكل قواه لإيمانه بأنها ستقضي على استقلال مصر ( لوحة ٢٦ ) . على أن محمد علي كان قد اقترح بدلا من شق القناة عقد محالفه بين مصر وإنجلترا تضمن للأخيرة سهولة اجتياز الأراضي المصرية في زمن وجيز ، وذلك خلال مرور حاكم الهند البريطاني بمصر عام ١٨٤٤ . وهكذا قدّر لدلسيس أن يختزل بقناته المسافة إلى الشرق ويفتض «إكزوتيته»<sup>(١٣)</sup> التليدة ويحطم الأسوار التي كانت تفصل الغرب عن دقائق الحياة اليومية في الشرق . وكان سعيد قبيل وفاته بثمانية عشر يوما قد قضى على مصر بأن تتورط في حرب طاحنة في المكسيك ليس لها فيها مصلحة على الإطلاق ولا تهمّها بأي وجه من الوجوه . ولا شك في أن اشتراك مصر في تلك الحرب يومئذ كان دليلا جليا على انسياق سعيد وراء المخططات الفرنسية إلى حد غدا معه دمية تحركها أصابع فرنسا من وراء ستار . وبعبارة موجزة أورث سعيد خلقه شعبا موثق اليدين والقدمين بمشروع قناة السويس وسياسة خارجية أملتتها باريس وديونا باهظة تثقل عاتق البلاد ، وإن كان كل من عباس وسعيد من خلال مد شبكة السكة الحديدية وشق القناة قد أعاد إلى مصر سابق عهدها كمرکز عالمي للمواصلات قبل رحلة فاسكو داجاما البحرية حول رأس الرجاء الصالح .

(١٣) Exoticism الإكزوتية أو الإغراب هي الشغف بكل غريب وافد من بلد ناء ، وذلك لما يحمله من كل عجيب مجهول تنجذب إليه النفوس ، أو هو التعلق بكل ما يتّ للخيال الرومانسي المستجلب بسبب . [المعجم الموسوعي لدمصطلحات الثقافية (م.م.م. ث) ، لكتاب هذه السطور . لوجمان ١٩٩٠] .



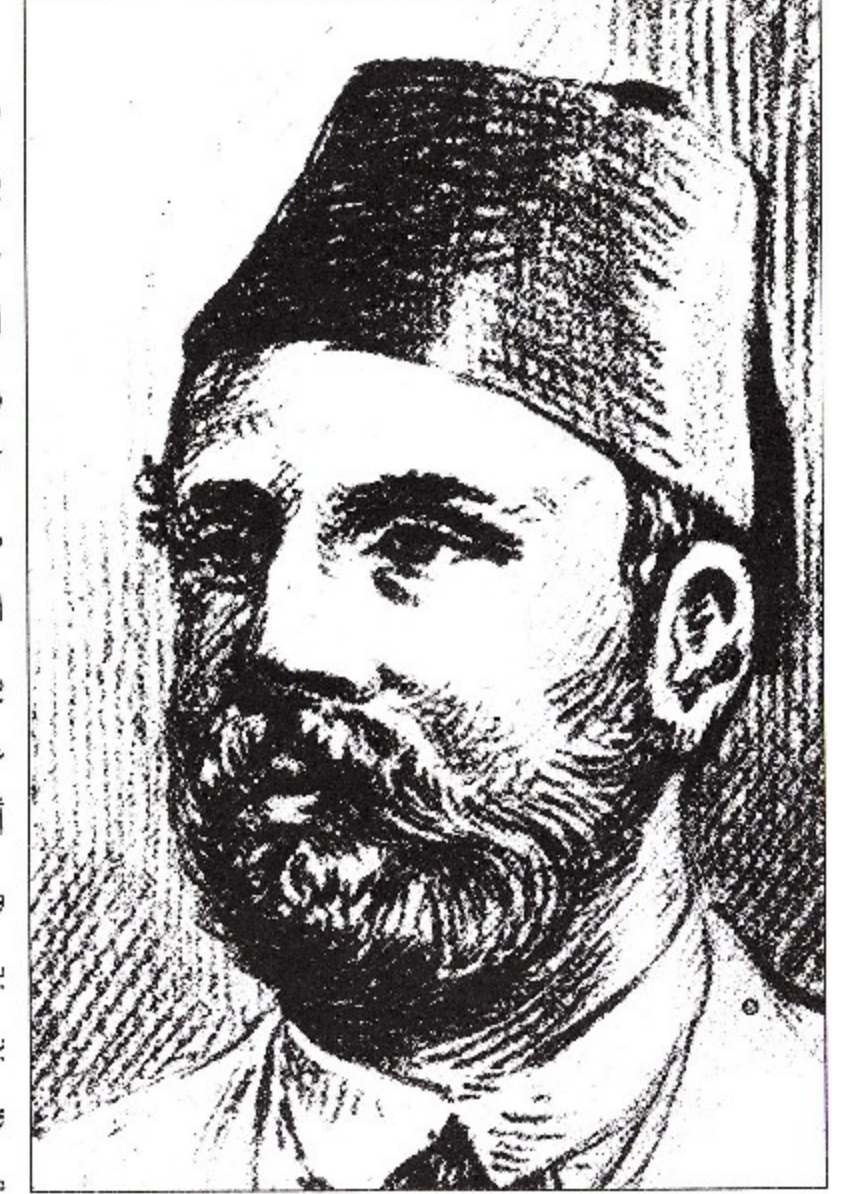


لوحة (٢٨) أعمال الحفر  
بقناة السويس

(١٤) بلغ ما أنفقه إسماعيل  
على قصر الجيزة  
١,٣٩٣,٣٧٤ جنيهًا، وعلى  
قصر عابدين ٦٦٥,٥٧٠  
جنيهًا، وعلى قصر  
الإسماعيلية ٢٠١,٢٨٦  
جنيهًا، وعلى بقية القصور  
١,٣٣٣,٦٧٩ جنيهًا.  
[انظر الخطط التوفيقية لعلی  
مبارك صفحة ٢١٣]

تعوزه معالم الذوق ، وكذا جاء تأنيثها الداخلي لا يرقى كثيرا عن مظهرها الخارجي . ولعل  
إسراف إسماعيل في بناء هذه القصور كان لأن مخصصاته بلغت ضعف مخصصات الملكة  
فيكتوريا ملكة إنجلترا وإمبراطورة الهند التي كانت تعاصره<sup>(١٤)</sup> . وكان نقص محصول القطن  
العالمي نتيجة اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية قد أدى إلى أن تحولت دول أوروبا جميعا إلى  
شراء القطن المصري الطويل التيلة بثمن يفوق خمسة أضعاف ثمنه ، مما أتاح لإسماعيل أن يظفر  
ببالغ يرصدها لمشروعاته الضخمة وإن بدد بعضها بإسراف في حفلات افتتاح قناة السويس  
(لوحات ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣) . وكان حرص إسماعيل على تبني الأفكار الأوروبية  
وعلى تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا لا إفريقيا مبعث تحوطه بألوف من الأصدقاء اليونانيين  
والإيطاليين وأهل مرسيليا والبنانيين الوافدين على حلمه بالإقامة في موطن الثراء الممتد على  
ضفاف النيل بعد أن علا اسم إسماعيل في العالم لتصديده لنظام الرق ونجاحه في إلغاء نظام  
السخرة الذي كان مطبقا في مشروع قناة السويس وفق شروطه الأولى . وقد شيد أثرياء هذه  
الجاليات الأجنبية أحياء جديدة تناثرت فوق المنطقة ما بين الأزبكية ونهر النيل ، فبنوا قصورا  
إيطالية الطابع محاطة بحداثق الأثمار ، على حين عاش الفقراء منهم في بيوت سيئة الطراز .  
ويقول م . أندرسون في كتابه «المسألة الشرقية» إن هذا الطوفان من الأوروبيين الذين بلغ عددهم  
ثمانين ألفا عام ١٨٦٥ وحدها كان له أثر ثوري على العاصمة المصرية : «فلمدة ستة قرون كانت  
القاهرة القديمة يتقاسمها المماليك مع عامة الشعب من المصريين ، يتخاطون في السراء والضراء  
في شوارع المدينة دون حاجز . وقد يستند كوخ إلى جوار قصر كما يتحاذى الشحاذ والأمير في  
صفوف الصلاة بالمساجد . أما اليوم فقد تبدل الحال وباتت هناك القاهرة مصرية وأخرى أوروبية لا

كتب الجنرال وليام لورنج ، وكان قائدا عسكريا أمريكيا بالجيش  
المصري في عهد سعيد : «استقبل شعب مصر ارتقاء سعيد العرش  
بغبطة لأنه كان يرحب بأي تغيير ينقذه من حكم عباس ، ولكنه ما  
عتم أن تملكه الحزن بسبب عبء الضرائب الباهظة الذي ألغاه عليه  
الحاكم الجديد ، وكانت سياسة سعيد تقوم على كثير من الظلم  
والاندفاع وراء الأهواء» . ويذهب كرايبتز إلى أن دفاتر الحسابات  
كانت يومئذ في عهدة طائفة من الكتبة الأقباط الذين استنبطوا أسلوبا  
معقدا لمسك الدفاتر ، ولم يكن غرضهم من ذلك الاختلاس أو مديد  
المساعدة إلى وزير المالية وإنما احتكار جميع الأعمال المتعلقة  
بحسابات الحكومة المصرية لأنفسهم ولإخوانهم في العقيدة . وبناء  
عليه توارث الأقباط أسلوبا سريا ينطوي على خفايا تلك الحسابات  
أبا عن جد ، وإذا حاول اليوم أحد أن يطلع على حقيقة تلك الدفاتر  
وفيك طلاسمها لم يظفر بطائل . لقد كانت التركة التي خلفها سعيد  
بدء الارتباك المالي الذي أوقع مصر في المصائب» . وكان إسماعيل  
بن إبراهيم باشا هو الذي هبأ القدر لاستلام هذه التركة المثقلة ،  
ولاستغلال الأهمية الإستراتيجية الجديدة لمصر ، وكذلك الإفادة من  
محصول القطن الذي أدخل محمد علي زراعته إلى مصر . ومنذ

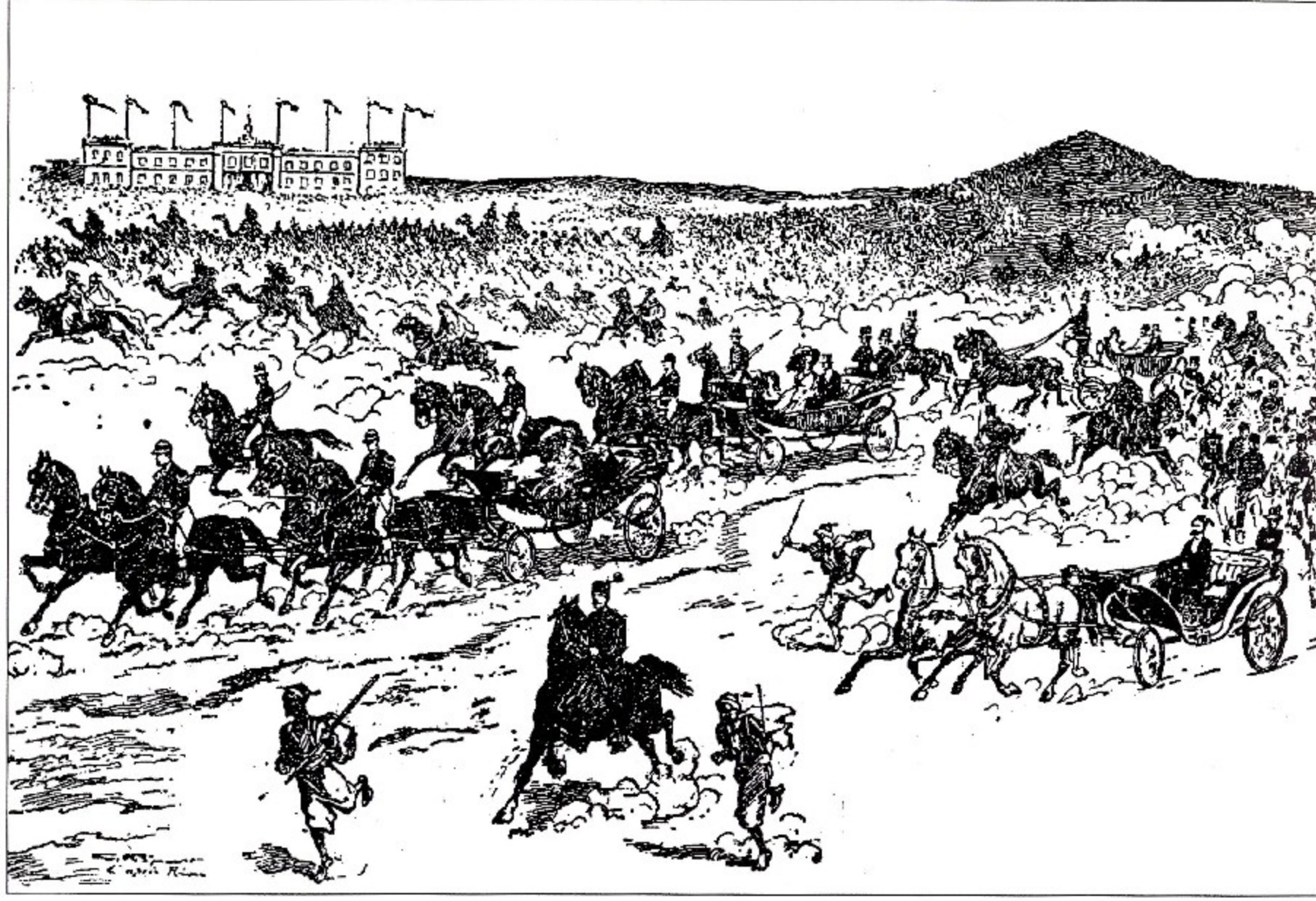


لوحة (٢٧) إسماعيل باشا

البداية عقد إسماعيل العزم على أن يمنح القاهرة وجهها عصريا جديدا هو الذي تكاد بصماته  
الواضحة تتبدى به حتى اليوم (لوحة ٢٧) . وخلال مدة حكمه التي دامت من عام ١٨٦٣ إلى  
١٨٧٩ أنفق إسماعيل ببذخ شديد على شتى مظاهر الدولة العصرية ، من منارات لتيسير الملاحة  
إلى مكاتب للبريد ومدارس للبنات وفنادق للأوربيين . غير أن ذروة بذخ إسماعيل قد تمثلت في  
احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وهي المناسبة التي خلدها بإنشاء دار للأوبرا ، ولكي  
يربط مصر بحضارة أوروبا عهد إلى الموسيقار فردي بتلحين أوبرا عن مصر القديمة هي «عايدة»  
التي كتب قصتها مارييت باشا مدير الآثار المصرية . غير أن أهم ما كان يشغل بال إسماعيل الذي  
تدققت في عهده جموع الأوروبيين على البلاد هو زيارة الإمبراطورة أوجيني زوجة ناپليون  
الثالث وأجمل جميلات أوروبا ، فشيد لها قصراً [سراي لطف الله ثم فندق ماريوط الآن] لم يظفر  
ذوقه بإعجاب بعض الأوروبيين برغم فداحة ما أنفق عليه وإن نال إعجاب ضيفته . وقد بُني هذا  
القصر في الجزيرة الوسطى أو الزمالة ، وهو الاسم الذي أطلق على بضع أكواخ كان محمد  
علي قد شيدها في هذا الموقع . وقد حصل إسماعيل من الباب العالي على أمر بتوليّه حكم مصر  
على أن يكون انتقاله إلى ورثته باسم خديوي وهو ما يعني نائب الملك .

وكان إسماعيل مولعا بالتشيد والبناء كما قدّمت فشرع في إقامة قصور متعددة بالقاهرة مثل  
تراي عابدين وقصر النيل وسراي الجزيرة والقصر العالي وسراي الزعفران وسراي العباسية  
وكذا على امتداد ضفاف النيل بجزيرة الروضة والجزيرة وشبرا إلى غير ذلك من قصور في  
الإسكندرية والمنصورة والمنيا ، التي وإن احتشدت بمظاهر الإبهار والتباهي ، إلا أن بعضها جاء





لوحة (٣١) موكب الملوك في  
حفل افتتاح قناة السويس  
بالإسماعيلية

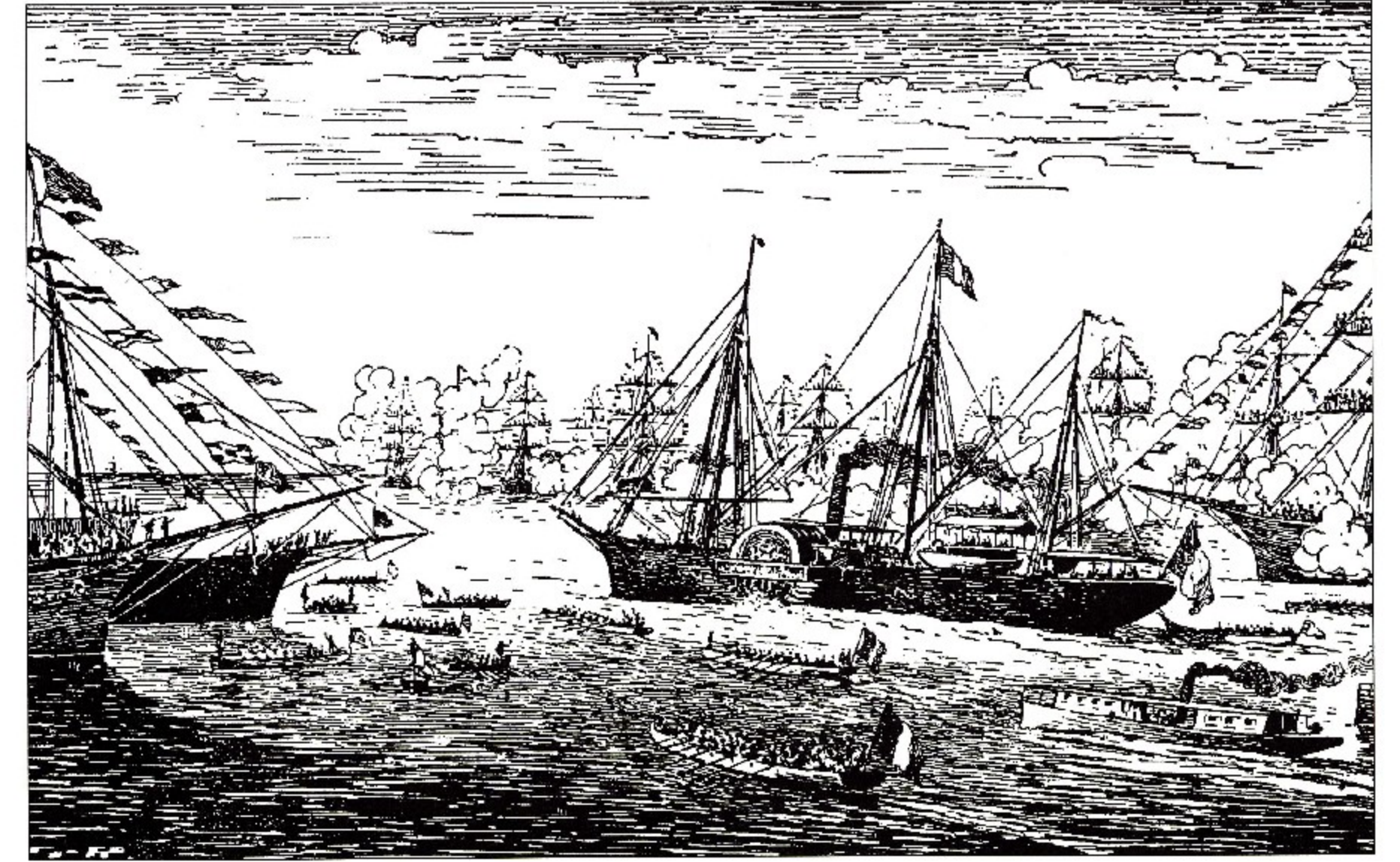
يربط بينهما شيء . فبينما كانت القاهرة الأوروبية تنفسح لأبنية وطرق جديدة أنيقة ، كانت القاهرة الأولى تعيش في ظل إهمال مطلق ، إذ شقت الحكومة طرقا جديدة مثل شارع محمد علي الذي يربط القلعة بالأزبكية ضحّت في سبيل مدّها باستقامة بهدم كثير من المساجد والقصور ذات القيمة الأثرية التي لا تعوّض .

ولعل عدم مبالاة إسماعيل بإصلاح الآثار والأبنية الإسلامية كان مرده إلى أنه كان مهتما باستحداث عاصمة جديدة ، فقد تملكته رغبة عارمة في أن يشهد الغرب أن ثمة عاصمة أوروبية في القاهرة تحكم دولة عصرية تقوم على ضفاف النيل وتمتد ما بين الإسكندرية والخرطوم . ويرسم س.س. هيل في كتابه «رحلات في مصر وسوريا» صورة أدبية كثيفة للقاهرة وقتذاك وهو يطلّ عليها من فوق تلال المقطم فيقول إن : «كل شيء تغطيه الرمال وتُضفي عليه ألوان الصحراء ، من مساكن الفقراء العارية عن السقوف إلى منازل الموسرين الكبيرة . وحتى مآذن المساجد وقبابها التي تزيّن أفق المدينة باتت هي الأخرى بالية مشوبة بألوان الموت الصحراوية ، وقد مالت بعض المنارات وانكفأ بعضها الآخر وكأنما أصابته ذفينة مدفع ! .»

غير أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن القاهرة لم تكن آنذاك دون الكثير من عواصم العالم ببيوتها الخربة المتداعية وظروفها الصحية التي دون المستوى وبانعدام وسائل الصرف الصحي وبإهمال رفع القمامة والمخلفات . فبالرغم من دأب الرحالة الأوروبيين على تعديد أوجه النقص في تنظيم المرافق بالقاهرة فإنها في حقيقة الأمر لم تكن أسوأ حالا من بعض أحياء روما أو لندن أو باريس . فقد كان ثمة فارق عظيم بين شرق لندن وغربها التي جاء وصفها على أيدي الرحالة



لوحة (٢٩) دليسي في جولة نفتيشية



لوحة (٣٠) وصول سفينة «النسر الصغير» إلى بورسعيد

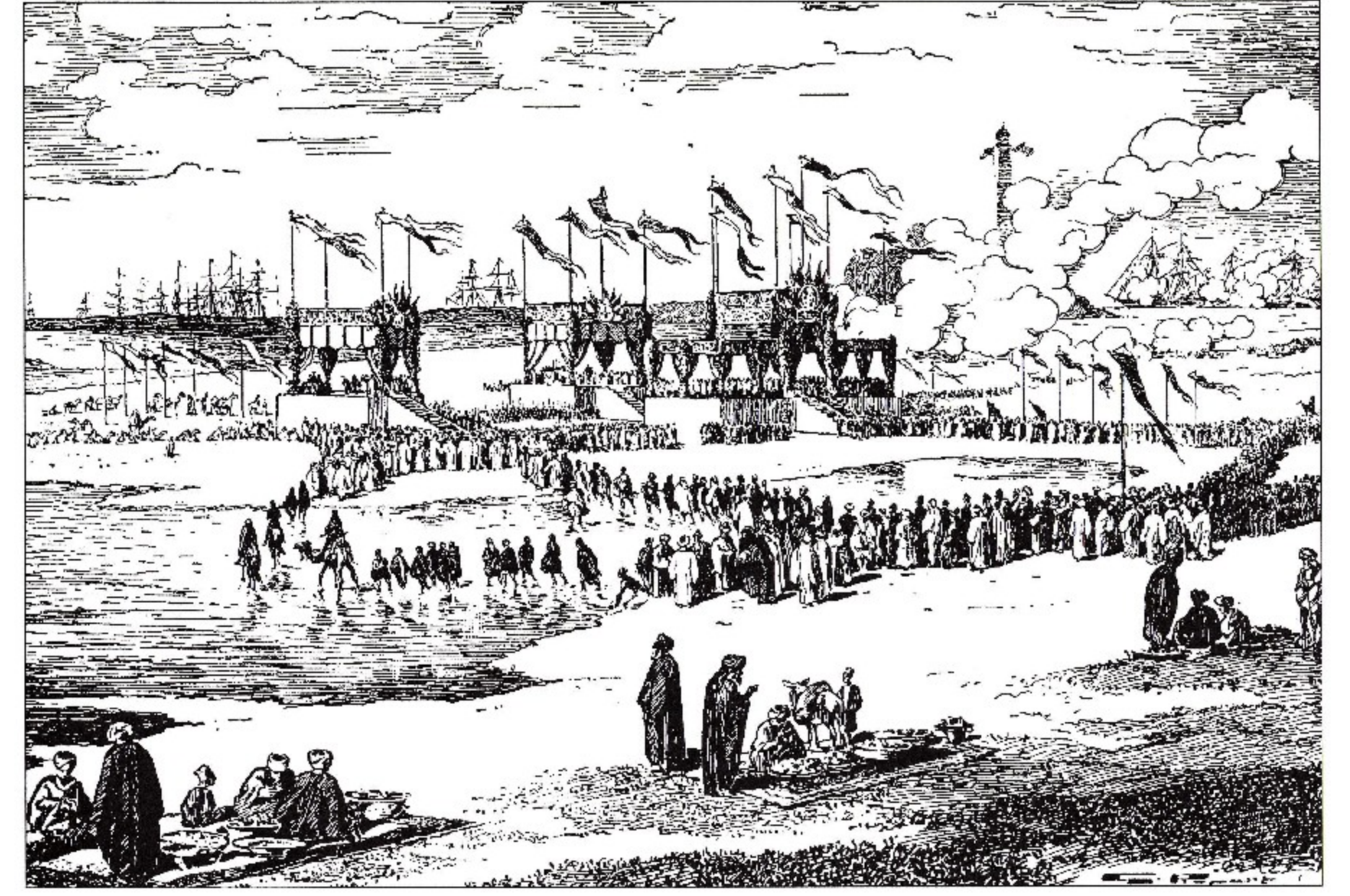




لوحة (٣٣) حفل العشاء الذي أقامه إسماعيل باشا لضيفه من الملوك والحكام .

التي تضم اليوم أنابيب المياه وأسلاك التليفون والتلغراف . ولقد أثارت كفايتها الممتازة سخرية كاتب من الكتّاب الفرنسيين وقتذاك فإذا هو يقول : « ما من شك في أن إنشاء هذه المصارف يؤذن بأنها ستكون معرضاً لحدث عجيب يقع فيها » .

ويشير دهشتنا ذلك الحماس الذي يبديه على مبارك في « خططه التوفيقية » للدعوة لسياسة التحديث المعماري فيصم مباني القاهرة التقليدية بأنها تفتقر إلى التناسب ، لا يعنى فيها بتجديد الهواء ولا بتناسق التصميم ، بينما يتوافر لطراز « البناء الرومي » الحديد بهجة المنظر وحسن الوضع وقلة التكاليف : فهي إما مربعة أو مستطيلة لا تختلف إلا بحجمها بخلاف الطراز القديم حيث تشغل القاعة الواحدة أكثر مساحة الدار . كما استعيز عن المشربيات المصنوعة من خشب الخرط بنوافذ مستطيلة تحميها ضلف زجاجية ، واستبدلت بخردة رخام الدرقاعات والحمامات بلاطات الرخام الأبيض والأسود ، وأهملت عادة زخرفة أركان الزوايا بالقرنصات الباهظة الثمن وحلت محلها السقوف الرومية المستوية أو المفرغة ، وتغيرت واجهات البيوت التي كانت تُعد في الماضي على غير قانون هندسي حتى غدت ماثلة لواجهات أحواش الموتى ، فصار تقسيم الواجهة عرضاً وارتفاعاً بكرائش بارزة تفتى بالظلال طولاً وعرضاً . وانصرف الناس عن الأبواب الدقيقة المكشّفة بالصدف وقطع الخشب المعشقة ذات الأشكال الهندسية واستعيز عن هذه الأبواب بالأبواب الحشو ، واختفت ضباب الخشب المرصعة بالعاج والأبنوس لتطل مكانها الكوالين ، وبطل استخدام الرفوف والدواليب « الصافات » التي كانت تُنجز في سمك الحائط كي تصطف عليها أواني الزينة للزهو والتباهي . وإذ كانت البضائع الأوروبية زهيدة الثمن تغير الأثاث والمفروشات فحلت محل



لوحة (٣٢) حفل افتتاح قناة السويس

الأوروبيين خلال القرن الثامن عشر ، فعلى حين تجد في غربها الطرق المرصوفة والأطورة الممهدة والمجاري الخفية في باطن الأرض والإضاءة والسكون والأمن ، كانت الطرق في شرقها موحلة غير مرصوفة ، كما كانت مجاريها على سطح الأرض يُقذف إليها بفضلات الطعام والقاذورات من النوافذ وقد تصيب المارة أثناء سيرهم في الطريق ، كما كان القصابون يذبحون الماشية في الطريق العام ويرمون أمعاءها فيها تتنازعها كلاب الحي . كذلك لم تشرع السلطات الفرنسية في إصلاح حال باريس إلا في شهر يونية عام ١٨٥٣ عندما عين نابليون الثالث البارون جورج أوجين أوسمان محافظاً لها وعهد إليه أن يعمل على تخليص مدينة باريس من « أسماط القرون الوسطى وتحويلها إلى عاصمة العواصم » . وكانت مدينة باريس وقتها تكتظ بمليون نفس محشورين في مناهة يعسر اختراقها من المساكن المتداعية والأزقة الضيقة الموحلة حتى وصفها الروائي أوجين سوبوله : بيوت بلون الوحل تتخللها قلة من أطر النوافذ تخرها الدود . . . وما أشد ضيق الشوارع التي كانت عبارة عن حارات قائمة وسخة ، تؤدي إلى درج أشد قتامة وأثرى وسخاً ، بلغ انحدارها من الشدة ما كان المرء يعجز معها عن صعودها إلا بمساعدة جبل مثبت بحلقات حديدية في الجدران اللزجة » . وبطبيعة الحال كانت باريس ما تزال تحفل بنماذج باهرة من تحف القرن السابع عشر مثل ميدان فوج والتويلري وميدان الكونكور وقصر فرساي ، غير أنه عندما بدأ أوسمان مشروعاته التي استغرقت سبعة عشر عاماً كان ثمة ستة وتسعون مصرفاً مكشوفاً للمجاري تلوث نهر السين ، وحين انتهى منها كان لكل شارع في باريس مصرفه المغطى ، فأنشأ ثلاثمائة ميل من هذه المصارف كانت جميعها دهاليز نظيفة جيدة الإضاءة . وهي



السلع الهندية والعجمية ، واستبدل الصيني بالأواني النحاسية ، وأضاءت المصابيح الزجاجية وشمع  
المنّ الأبيض مكان مسارج الصفيح والشمع الكريه الرائحة<sup>(١٥)</sup> .

\*\*\*

على أن مصر لم تجتذب إليها المماليك والتجار المغامرين بحثا عن الثراء وأصحاب المشروعات  
الصناعية والهندسية فحسب ، بل لقد اجتذبت أكثر من كل هؤلاء جمهرة من الأدباء والفنانين  
والرحالة المفكرين . وكانت قد تفتتت بين أصحاب النزعة الرومانسية<sup>(١٦)</sup> من الفلاسفة والكتّاب  
والشعراء والفنانين في مطالع القرن التاسع عشر ظاهرة النزوح الروحي ، تلك الظاهرة التي  
وراءها الشعور الوجداني بالإحساس بالحاجة إلى الفرار من بيئتهم التي عاشوا فيها إلى بيئة  
أخرى ، لا يعنيه من تلك البيئات القديمة إلا ماضيها الخافل بالتاريخ والعظمت والعبر ، وما تحفل  
به من مشاهد مثيرة للخيال ، إذ كانت الثورة الصناعية قد خلقت من بيئتهم بيئة كابية مُضنية ،  
وكلما امتد الزمن زادت بُعدا عن الصفاء السالف . وعلى حين كانت حكومات أوروبا البورجوازية  
تحوّل بين شعوبها وبين المغامرة داخل أوطانهم كانت لا تجد بأسا من أن تطلق أيديهم في المغامرة  
كيفما شاؤوا في الأقطار التي كانت لها في حساباتهم ميزات اقتصادية وإستراتيجية . وانتشرت  
هذه الظاهرة أول ما انتشرت في ألمانيا ، وكانت البيئة التي هاجر إليها الكتّاب هي الشرق من  
أدناه إلى أقصاه ، هاجروا إليه بروحهم وخيالهم لا بأجسادهم . وكان في مقدمة هؤلاء فردريك  
شليجل الذي نادى بالتقصّي في الشرق عن أنفُس ينابيع الرومانسية وإن كان يقصد بالشرق  
الهند . وجاء في إثر شليجل الشاعر الذائع الصيت يوهان قلفجانبج جوته الذي كان ينادي بأن  
الأوفق الاتجاه صوب الشرق ، بعد أن آمن بأنه لا معدى عن الفرار من عالم الواقع الخافل  
بالأخطار والمشاق إلى ذلك العالم الخيالي المثالي المنطوي على المتعة بالملاذ وإطلاق الخيال لوفى  
مقدور كل إنسان ، عالم الشرق ، عالم البساطة والفطرة الأولى الذي بقيت حضارته على  
حالها دون تغيير . وكان جوته قد ألّف ديوان شعره الخالد «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»  
الذي نهج فيه نهج أدباء الشرق وشعرائه وخاصة الفرس منهم .

ويعبر الديوان عن نظرة جوته إلى الديانات المختلفة . ومامن شك في أن عقيدة الإسلام قد  
ظفرت من بين سائر العقائد بأوفى قسط من اهتمام الشاعر ، حتى إنه أثر أن يأخذ القصص ذات  
الأصول التوراتية والإنجيلية من القرآن الكريم مباشرة ، فإذا ديوانه يفيض بإعجابه الشديد  
بالإسلام ، وإذا هو يقول : « لو انتهينا إلى أن معنى كلمة الإسلام هو تسليم أمورنا لله فنحن  
جميعا مسلمون » . ولم يجد حرجا وهو المسيحي الغربي في أن يبدو في عداد المسلمين يؤمن  
كما يؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلقد كانت عقيدته مزيجا من أنقى ما تنطوي  
عليه الديانات جميعا . ونرى له في ثنايا الديوان كم تغنى بهذا كله :

الشمال والغرب والجنوب يتهاوى ويتناثر

والعروش تُثَلّ والممالك تنزعزع وتضطرب .

فلتُهاجر إذن إلى الشرق الطاهر النقي ،

كي تستروح جو الهدأة والمرسلين .

هنالك حيث الحب والشراب والغناء .

سُعيدك بُعْ «الحضر»<sup>(١٧)</sup> شابا من جديد  
إلى هنالك حيث الطاهر والحق والنقاء ،  
بوذي أن لو أقود الأجناس البشرية

حتى أنفذ بها إلى أعماق الماضي السحيق  
حين كانت تتلقّى من لدن الربّ

وحي السماء بلغة الأرض دون بلبله الرأس بالتفكير .

أجل ، هنالك أودّ التملّي بِنُع الشباب

فيكون إيماني واسعا عريضا ، وفكري ضيقا محدودا

وبوذي أن لو أعلم كيف تقدّس الكلمات

لا لشيء إلا لأنها كلمات فاهت بها شفاء . .

في يميني أن أدخل في زمرة الرعاة ،

وأن أجدّد نشاطي في ظلال الواحات .

وفي عزمي أن أسلك كل سبيل ،

من البادية إلى الحضر ، ومن الحضر إلى البادية .

أي حافظ !<sup>(١٨)</sup> إن أغانيك لتبعث السلوى

إبان المسير في الشّعاب الصاعدة الهابطة ،

حين يغنيّ حادي القوم ساحر الغناء .

وهو على ظهر دابته ،

فيوقظ بغناؤه النجوم في أعلى السماء .

وإنه ليحلولي أي «حافظي» الأقدس أن أحیی ذكراك

عند ينبوع الصافي ، وفي حانات الصهباء ،

وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليلا

فيفغو منها مهترّا عبير المسك والعنبر<sup>(١٩)</sup> .

وكان من إعجاب الأديب الفرنسي تيوفيل جوتييه بهذا الديوان أن قال فيه : «إن جوته قد  
وضع ديوانه الشرقي خلال قصف المدافع في حروب الإمبراطورية ليجعل منه واحة نضرة يراح  
إليها الفن ، مُطرحاً جانباً شكسبير ، مقتفياً إثر الشاعر الفارسي نظامي ليعبّق كلامه بعبير صندل  
الشرق ، متخذاً لأغنية الهند غطا شرقيا» . كذلك بدأ هينريش هايني ١٨٢٧ بالكتابة عن  
الأندلس في ديوانه «المنصور» الذي تدور أحداثه في قصر اخمراء بغرناطة . ولم يكف هذا  
الشاعر اليهودي عن الثناء على بلاد الإسلام على الرغم من أنه لم يزر بلدا منها ، وحاكى هايني  
في ديوانه أوزان «نشيد الأنشاد» والقصائد الفارسية ، ومن ذلك شعره الذي قاله فيه : «أينعت  
الزهرة ست عشرة مرة وذبلت ست عشرة مرة . وأشدّ البلبل أغنيته وسكت عنها ست عشرة مرة .  
وطوال هذا المدى ظل الشاعر عاكفا آناء الليل وأطراف النهار أمام نول أفكاره لينسج آبيات  
قصيدته الطويلة » .

على أن النزوح إلى الشرق كان أحد معالم الحركة الرومانسية في إنجلترا قبل فرنسا ، وكان  
الشاعر بايرون من عمدها الكبار . وما لبث هذا الاتجاه أن نشط في أوروبا وخاصة في فرنسا

(١٧) سيدنا الخضر [إيليا]  
فتى موسى عليه السلام ، بلغا  
معا مجمع البحرين على نحو  
ما جاء في سورة الكهف (٥٩) .  
(٨١) . أتى ذكره مقرونا بذي  
القرنين ، ومن هنا يكون قد  
عاش خلال القرن الرابع  
ق . م . ، وكان مضرب المثل  
في العلم والحكمة والأناة  
والصبر . وتروى الأساطير أنه  
بلغ مع ذي القرنين نبع الحياة  
وشرب من مائه فكُتِبَ له  
الخلود . وظلت هذه  
الأسطورة مصدر إلهام  
للمتصوفة والشعراء الفرس  
لاسيما حافظ الشيرازي .  
ويخل جوته أثناء نزوحه  
الروحي إلى الشرق «أنقى  
الطاهر» أنه بدوره قد استعاد  
شبابه .

(١٨) حافظ الشيرازي (١٣٢٠  
- ١٣٨٩) . سُمّي حافظا لأنه  
كان يحفظ القرآن . ويعدّ من  
أعظم شعراء الفرس المتصوفة .  
اشتهر بغزلياته التي هام بها  
مواطنوه لما تنطوى عليه من  
دعوة إلى الزهد والتصوف .  
بلغ إعجاب جوته به حدا بعيدا  
لاسيما مزجه بين الحسنة  
والروحانية .

(١٩) انظر «الديوان الشرقي  
للمؤلف الغربي» جوته .  
ترجمة . د . عبد الرحمن  
بدوي .



فأقبل مَنْ أقبل من كتابه على النزوح إلى الشرق بأرواحهم لا بأجسادهم هم الآخرون مثل فيكتور هيجو الذي يقول في مقدمة ديوانه «المشرقيّات» : «لقد أصبحت العناية بالشرق هذه الأيام تُربّي عما كانت عليه أياما سلفت ، فعلى حين ولع الناس في عهد لويس الرابع عشر بكل ما هو يوناني تجدهم الآن مولعين بالشرق . ففي كل مكان يستحوذ الشرق - حيث الخصب والثراء والوفرة - على العقل والخيال ، وباتت أوروبا بأجمعها ترنو إليه» .

وبلغ من شيوع «المشرقيّات» ( ١٨٢٩ ) أن تحولت بعض قصائده إلى أغان شعبية مثل أنشودة القرصان التي تقول :

« لا تبالوا بتأوهات الأسيرة زاعمة أنها تختضر .

فهل تنعم الراهبة في ظلال الدير

بأعمق مما تنعم به الأسيرة المحظية في مخدع السلطان؟

وهل يومض الدار على مقابض الخناجر

أكثر مما تتألق به المحظيات بين أحضان السلاطين؟ » .

وإلى هؤلاء الكتاب والفنانين الذين نزحوا إلى الشرق بروحهم كان ثمة مَنْ نزحوا إليه بأجسادهم ، مزوّدين بقراءاتهم عنه في المراجع الكلاسيكية والآداب المعاصرة والاستشراق الأكاديمي ، إلا أن الناحية الجمالية البحتة هي التي طغت على رحلاتهم واستأثرت باهتمامهم بعد أن اجتذبهم سحر المناطق «الإكزوتية» الغريبة النائية فجاء شرقهم شرقا عايشوه واندمجوا معه جماليا وخياليا لا شرقا مستضعفا مهينا ، فهم لم يحفلوا بالنصوص المأثورة عن المستشرقين المعاصرين لهم وبمحاولاتهم المتعالية الإبانة عن سيطرة الغرب على الشرق مستخدمين لغة الاستشراق المعهودة آنذاك ، بل كانوا حريصين من وراء رحلاتهم هذه إلى الشرق على إلزام أنفسهم بما توحى إليه مشاعرهم وأحلامهم وبالتنقيب عن وطن جديد في أرض الأديان والرؤى والماضي العريق ، لا يبالون بأن يكون إنتاجهم متفقا وميول حكوماتهم الاستعمارية .

ولم يكن يتوافد على الشرق وقتذاك الكتاب والفنانون والمستشرقون فحسب بل كان هناك أيضا العديد من السياسيين والمغامرين والمهندسين ورجال الجيش الفرنسي الذين أمضوا حياتهم في خدمة الشرق . وكانت مصر في طليعة الدول التي رحّبت بهم فاعتنق بعضهم الإسلام وأخذوا بعادات أهل البلاد . ومنذ نهاية حروب نابليون غدا الشرق الأدنى موطن الإثراء السريع للبعض ، وموطن الحرية بلا قيود للبعض الآخر ، ومهبط السحر والغموض لفريق ثالث ، ومرتع المغامرة والمتع وإشباع الشهوات لفريق رابع ، تلك المتع التي أثارها قصص شهر زاد في «أنف ليلة وليلة» . وكان من هؤلاء من جاءوا مصر للتخفيف عن أنفسهم من غلواء رومانسيّتهم فإذا هم يتحوّلون أدباء ساخرين ، وكان منهم أيضا من رحل عن مصر بغير الأغراض التي وفد إليها بها وإذا هم قد امتلأت نفوسهم بلذخيرة أدبية باذخة وتحوّلوا بوجدانهم من الإيهام إلى الإفصاح .

تلك نبذة تاريخية موجزة كان علىّ أن أسوقها ، إذ هي تكشف عمّا وراءها من إنتاج هذا الحشد الهائل من الكتاب والأدباء والرحالة والفنانين الذي حان الآن أن نطالعه .

## الفصل الأول



«الرحالة الحقيقيون هم مَنْ  
يرحلون حباً في الترحال  
وحده، بقلوب في خفة الريش  
وبتقبلٍ لقدرهم المحتوم، مرددين  
دائماً: هيا بنا، دون أن يتبينوا  
حافزهم الخفي إلى ولوج هذه  
السبيل».

بودلير  
«أزهار الشر»





## الباب الأول

### الرحالة الفرنسيون

لم يكن الغرب يعرف مصر الإسلامية خلال القرن الثامن عشر معرفته بها في عهدها الفرعوني ، إذ خيّم عليها ظلام الحكم التركي فمُنيت فنونها بالتدهور وحجبت غيومه آثارها الإسلامية العظيمة ، فضلا عن أن الفن الإسلامي لم يكن قد مسّ وجدان أهل أوروبا الذين نشأوا على تذوق الحضارتين الكلاسيكية والمسيحية ، كما نشأوا على التوجّس من غارات عرب الأندلس المسلمين وغزوات الأتراك العثمانيين . هذا إلى ما كان يجده الأوروبيون المسيحيون من صعاب ومشاق إذا ما رغبوا في دخول المساجد والأضرحة والأحياء الوطنية المغلقة على نفسها ، ومن ثم قلّ من كتب عن العمارة الإسلامية بين الرحالة المسيحيين ، وإن كان بعض القساوسة<sup>(١)</sup> الذين اجتذبتهم روح البحث العلمي قد غامروا بالاختلاف إلى الأزهر سعيا وراء شراء بعض وثائق ومخطوطات العصور الوسطى الإسلامية .

Les Abbés d'Orval et (١)  
Fourmont.

Benoit de maillet (٢)

ومن بين جميع رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يحسّ بالفن العربي قبل حملة بوناپرت غير قنصل فرنسا بنواده ما ييه<sup>(٢)</sup> الذي عكف على دراسة العمارة الإسلامية ووصفها ، وإن خاض معظم الرحالة في تصوير العادات والمناسبات والأعياد ، يرسمون كل ذلك في لوحات فيها كثرة من التفاصيل المتسمة بالإنارة والسخرية في أغلب الأحيان وكأنما كانوا يتقمصون أرواح أجدادهم الصليبيين المنطوية على كراهية المسلمين . فنراهم يثيرون حملة ضارية ضد ما يرونه بعيدا عن النظافة مشوبا بالإهمال ، وضد استبداد الحكم التركي الممسك بخناق المصريين وضد عادات الأهالي وأعرافهم . غير أن بنواده ما ييه ما يلبث أن يشذّ عن هذا المسلك ، فقد كان يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وطالع ما سجّله المؤرخون العرب ، ومن ثم استطاع بفضل إقامته الدائمة التي لا تتسنى للرحالة العابرين أن يفسّر الحاضر على ضوء الماضي .

على أن مصر التي صورها بعض الرحالة الأوروبيين في صورة وطن غامض الملايح يسكنه أقوام متخلفون يَغصّ بالجان والأفزام والوحوش الخرافية مالبتت أن اتخذت في أذهان الأوروبيين صورة أقرب إلى واقعها ، بفضل رحلتين فرنسيّين لهما نفاذ في البصيرة وعمق في التأمل هما كلود إتيين سافاري والكونت شاسيف ده قولني . وقد سجلا مشاهداتهما في كتابين لهما أهميتهما الخاصة هما «رسائل من مصر»<sup>(٣)</sup> (١٧٨٥-١٧٨٦) و «رحلة إلى سوريا ومصر»<sup>(٤)</sup> (١٧٨٧) . وقد أحس الأوروبيون بقدر هذين الكتابين فرحبوا بهما ترحيبا كبيرا جعلهما يظفران بترجمة إلى الألمانية ، كما ظهرت بالمثل ترجمة إنجليزية «الرسائل» سافاري (١٧٨٦) و «الرحلات» قولني (١٧٨٧) .

C.E. Savary: Lettres (٣)  
Sur l'Egypte. Paris 1785 -  
86.

Volney (C.F. Chasse- (٤)  
boeuf). Voyage en Syrie  
et en Egypte. Paris 1787





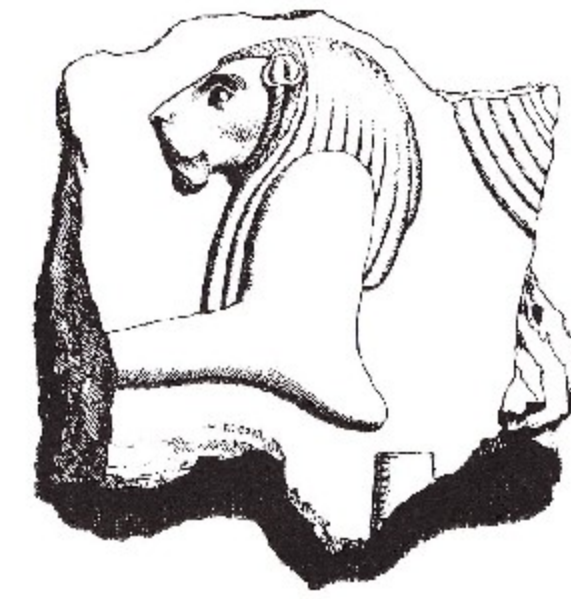
---

إرهاصة رومانية

بشاعرية مصر

**ساقاري**

١٧٨٠ - ١٧٥٠







أما سافاري فكان نموذجاً للشباب الفرنسي المثقف الذي شدته مؤلفات جان چاك روسو [وبالأخص قصته «إليز الجديدة» ذات الطابع الرومانسي قبل ظهور الرومانسية في الأدب الفرنسي] وبناردان ده سان بيير في قصته «بول وفيرجيني» التي تبرز قصة روسو إغراقا في الرومانسية. وقد نشأ سافاري في مقاطعة بريتاني المنعزلة التي يعيش في أرجائها المختلفة نبلاء إقطاعيون دأبوا على تثقيف أبنائهم وتزويدهم بشتى المعارف، هذا إلى ما توحى به طبيعة الإقليم الفريدة من شاعرية تدعو إلى التأمل وإمعان الفكر. وقد تأثر سافاري بأسلافه «الدرويد» كهنة وشعراء القبائل الكلتية الوثنية، وكانوا يدينون بعقائد خرافية تحفل بحكايات السحر والأساطير، وهو ما جعله يشبّ حالمًا مولعًا بالمطالعة التي لم تلبث أن مهّدت له آفاقا في المجالين المادي والخيالي معا، فاغترف من مؤلفات الإغريق أساطيرهم، ومن بينها قصص الرحالة أمثال سترابو<sup>(٥)</sup> الذي لفتته إليه خلفيته الثقافية الغزيرة. وهكذا اكتشف مناخا جديدا لوجدانه الغضّ، فمضى يوازن بين ما طالعه في مؤلفات روسو عن «الإنسان الطبيعي» وظهرته ونقائه قبل تشبّعه بالحضارة، وبين ما رواه سترابو عن أهالي وادي النيل، وما لبثت روحه أن اهتدت إلى أنه من الممكن أن يكون لمثل هذا «الإنسان الطبيعي» ظل في الأراضي المصرية، تلك الأراضي التي اجتذبتة أيضا بحضارتها العريقة، ولسبقها في هذا الميدان الحضاري أولئك الإغريق الذين كان يعرف عنهم كل صغيرة وكبيرة، فحثّه هذا إلى التطلع إلى أولئك السابقين. ومن هنا التقت نزعة الوجدانية بتشوّقه إلى النهل من تلك الثقافة العريقة فاعتزم القيام برحلة إلى الشرق وقد اتّقدت فيه روح الشباب وفتوته وحماسه. ولم يلبث أن دلف إلى مصر عام ١٧٧٣ ليستقر بها سنوات ثلاث بمجرد أن أكمل دراسته الجامعية وبلغ السابعة والعشرين عن عمره، وكان قد أعد لهذه الرحلة بمطالعة كل ما وقعت عليه عيناه من مؤلفات عن مصر والشرق. ومنذ أيامه الأولى في مصر أخذ يخالط العامة هائما بالطبيعة المصرية مما أتاح له زيارة أماكن لم يُعرها الرحالة من قبله التفاتا، فجال في ربوع الدلتا مسيرا النيل حتى مصبه في رشيد. ولترك له هو المنجال كي يصف لنا مشاعره: «... وبين احتشاد الأشجار الظليلة تتناثر أحواض الزهور التي يعبق بها الجو بأريجها العطر رغم نفح الظهيرة فتجعل منها الفردوس الموعد للظامئ

(٥) أوسترابون، وهو جغرافي يوناني شهير ولد في عام ٥٨ قبل الميلاد.

العطشان. على حين انزوى في إحدى الخمائل وسط الظلال النديّة رجل يقبض بيديه على غليون طويل من عُود مفرغ من أغصان الياسمين مجلّل بالعنبر وقد استغرق في نشوته وكأنه انتقل إلى جنّات النعيم... وتخطر بين هذه الخمائل المحظيات الشركسيات الفاتنات اللاتي وفدن من بلادهن محجّبات ثم ما لبثن أن خلعن العذار وتحرّرن من قيودهن وسرن يتأوّدن في خطى راقصة مشيرة مترنّمات بأنغام حانية، مُنشّدات أناشيد أسطورية تصف تقاليدهن القديمة ومتعهن في وطنهن الجديد حيث تخالط سخونة الجو عقب زهور البرتقال وأريج الورود العطرة لتثير فيهن كوامن الرغبة التي يعجزن عن مقاومة سلطانها...». تُرى كيف لشاب في مثل سن سافاري تفيض روحه رومانسية أن يقاوم كل هذا الإغراء! يغلب على الظن أنه وقع أسير غرام مبرّح على ضفاف النيل بالقرب من رشيد، وهو ما ذهب إليه حدس المؤرخ جان ماري كاريه حين طالع قصة «جميلة» التي حاكها سافاري حول فتاة شركسية عشقت شابا أوربيا كان «يلقاها بين الخمائل العطرة في ضوء القمر الفضي وقد انتشرت الزهور على العشب الأخضر فإذا الجو مشبع بأنفاس عبقها الفواح».

ويمضي سافاري يصف الريف والقرويين أو بالأصح القرويات اللاتي أعجبه منهن جمال تكوين أجسادهن وفطرة سلوكهن: «... انتصبت أعواد البوص على ضفة النهر، كما تكدّست الوديان بالمحاصيل، وشارفت شجيرات الأرز على الحصاد، ومالت لفحات النسيم بأعواده فعل الأمواج بسطح البحر، وشغل الفلاحون بري حقولهم بينما تدور البقرات بالنسانيات [الساقيات]. ألا ما أبدع هذا السكون في بلاد المتع!».

ولا يفوت سافاري أن يوصينا بزيارة جزيرة بالقرب من فوة اشتهرت بفاكهة الشمام عذب المذاق لا يشبع منه المرء قط، كما تُظلّ أشجارها بأغصانها بائعات الهوى اللاتي يعرضن بضاعتهم على السابلة. ثم ما يلبث أن يصف لنا مشاهد ريفيه سافرة تفيض رشاقة فطرية مثيرة: «إذ تتوافد الصبايا من القرى صوب النهر في خطى متمايلة لغسل ثيابهن وملء جرائهن على ضفافه، ثم يهبطن إلى النهر يستحممن بعد أن يخلعن أرديتهن التي يخلّفنها على الشاطئ، فتبدو أجسادهن المشوقة جذابة يدلّكنها بطمي النيل، ثم ما يلبث أن يغصن تحت سطح الماء، يتابع بعضهن بعضا وسط أمواجه الحانية وقد استرسلت خصائل شعورهن على أكتافهن القمحية الداكنة وبشرتهن التي لفتتها الشمس المتلّطية».

وليس ثمة غرابة بعد قراءة هذه المقتطفات أن نجد ضباط وجنود الحملة الفرنسية إلى مصر الذين تخفق قلوبهم بوفرة الشباب يؤثرون مطالعة رؤى سافاري الأسرة وهم على متون سفن الأسطول المتجهة بهم إلى الإسكندرية على تصفّح كتابات مواطنه قولني المحتشدة بالأرقام والأسرار العسكرية البحتة، ذلك الرحالة العاتي الذي بدا لهم وكأنه لم يبادل امرأة الحب في حياته، فإن مشاعر الشبان على الرغم منهم كانت تجنح إلى أسلوب سافاري العذب المشرق بالمرح والموحي بالألوان الخيالية الرفافة وهو يصف الليالي القمرية على ضفاف النيل بمثل هذه البهجة، وحتى نابليون نفسه الذي كان وقتذاك ما يزال في التاسعة والعشرين من عمره لم ينس أن يحمل بين متاعه إلى جوار كتاب قولني الجاد نسخة من «رسائل» سافاري وقصة آلام فيترتر للشاعر جوته.



(٦) باكخوس عند الرومان  
[ديونيسوس عند اليونان] أحد  
آلهة الإغريق، كانت تقام له  
مهرجانات تضحّ بالمرح  
والسكر والعريضة والموسيقى  
والرقص والغناء وذبح  
القرابين، فتنتشر بين المحتفلين  
به حالة الوجد المحموم الذي  
يسيطر على العقول والأجساد  
ويفقدها أترانها، فتتهتك  
النساء العابدات يُرسلن  
صرخات داوية ويؤدين  
رقصات عنيفة على دق طبول  
وحشية وأنغام مزمار مشبوبة  
ويزقن لحم الذبائح في جنون  
ويأكلنها فجّة [المعجم  
الموسوعي للمصطلحات  
الثقافية لكاتب هذه السطور].

وعند وصول ساقاري إلى القاهرة أخذ يختلف إلى المساجد القديمة مختتما جولاته بحدائق  
الروضة، متسللاً بين أشجار التمر حنة والبرتقال والجميز. ولم يكن ظهور الحارس المكلف بحماية  
مداخل الحمام التركي بمسطيع أن يمنع تلصّصه على الغانيات المستحلمات، ثم يواصل جولته حيث  
ترقص العوالم تكسوهن ثياب شفافة تصل إلى أقدامهن بينما تنسدل شعورهن السوداء المعطرة على  
ظهورهن، ولا يغطي نهودهن سوي نسيج دقيق شفاف: «وما يكدن يشرعن في الاهتزاز حتى  
تتكشف محاسنهن وتبدو أطرافهن وكأنها على وشك الانفصال عن أجسادهن في خلعة عارمة.  
وتصدح الأنغام من الناي المبهج والنصاجات المنعشة والدفوف التي تضبط حركات أقدامهن فيبدون  
وكأنهن سكارى أو كعابدات باكخوس<sup>(٦)</sup> المجذوبات وجدا».

وعلى الرغم من أن كبار النقاد يأخذون على ساقاري أن أسلوبه كان ما يزال مُشبعاً بكلمات  
السلف وبالتركيبات الأكاديمية كما تُثقله حذلقه الثقافية المتعمقة، إلا أنهم يجمعون على أنهم  
يلتقون فيه بواحد من كبار الكتاب تسليخ عبارته رشيقة خفيفة موجزة. فهدفه دائماً جليّ  
واضح، والمشهد الذي يصفه مبسّط تنبض فيه النشوة، حتى عدّ ساقاري من فرط تعلقه  
بالطبيعة إرهاصة بالرومانسية، تنحدر عن روسو وبرناردان ده سان بيير وتبشّر بشاتوبريان  
وشيكتور هييجو.

ويأسرنا ساقاري بوصفه الوثاب السريع لأهرامات الجيزة الذي ينفسح ويضمّر في سطور لا  
تخلو من التأمل الصافي والهيبة النبيلة قوله المأثور: «ليس ثمة منظر في العالم كله يفوق هذا  
المنظر جمالاً وتنوعاً وتأثيراً. إنه يسمو بالروح ويحضنها حضاً على التأمل».

ولم يكتف ساقاري بالتغني بالمباهج المصرية وعادات شعبها التي شدته إليها، فقد راعه  
تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلامية التي تتحكم في توقيت حياتهم لكأن حياتهم قد هيئت  
ونُسقت وفق نمط عقيدتهم، فازداد شغفه بالتعمق في وجدان مصر والتجول في ربوع هذا  
الإيمان. وإذا كانت معرفته باللغة العربية وثيقة عميقة فقد طالع القرآن الكريم وتأثر به، كما طالع  
معظم المراجع التي تتحدث عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلقه وحياته ومآثره إنساناً،  
فأحاطه عند عودته إلى فرنسا بالإجلال والتكريم، وتعجل نشر كتابه «رسائل عن مصر» تحت  
رعاية شقيق الملك لويس الخامس عشر، وأعقبه بترجمة شائقة لمعاني القرآن الكريم، ثم بكتاب  
عن حياة محمد عليه الصلاة والسلام (١٧٨٣)، كما خصّص لشمائل الرسول مؤلفاً ضخماً  
(١٧٨٤)، فضلاً عن كتاب يبحث في قواعد النحو العربية لم يُنشر إلا بعد وفاته عام ١٨١٣.  
وللأسف كانت حياة ساقاري قصيرة إذ قد عجل بها نهمه الثقافي وولعه بالترحال وأسفاره  
العديدة المرهقة فمات عام ١٧٨٨ عن ثمانية وثلاثين عاماً. ومن يدري لعل وفاته المبكرة هي  
التي أعاقت ذبوع صيته!

## رحالة غاز بعقل عالم وروح جاسوس



## قولني ١٧٥٥-١٨٢٠



كان قُسطانتان فرانسوا قولني يُعزى لوالد مشغول بالمحاماة لم يول ابنه الرعاية الكافية أو يوليه العناية المألوفة ، فاتَّسحت طفولته بالتعاسة ودبَّ الضعف إلى بنيته ، وتضاعف حزنه حين أدخله أبوه وهو في السابعة مدرسة داخلية فشَبَّ أبداً نافرًا دائب التأمل والتفكير ، وكانت تلك بداية تفوقه في العلوم الإنسانية عند التحاقه بالجامعة . وحين أحسَّ باكتماله الذاتِي رفض اسم «بواجيريه» الذي كان أبوه قد سمَّاه به واتخذ لنفسه اسماً جديداً شكَّله من المقطع الأول من اسم فيلسوفه الأثير «قولنير» ومن المقطع الأخير من موطن أستاذه في «ثيرني» . وانتقل الفتى إلى باريس فلم تحتذبه إلى إنفاق ما زوَّده به أبوه من ميراث أمه في الاستمتاع بمباهج العاصمة ، بل أخذ يتردَّد على المكتبات لاستكمال معارفه بدراسة الفلسفة والتاريخ ثم الطب ، حتى إذا هبط عليه عام ١٧٨١ ميراث لم يكن يترقبه وجدها فرصة ليقوم برحلة إلى الشرق ، إلى مصر وسوريا حتى يدلي ببدلوه في الكتابة الأدبية ويُصدر أحكامه الذاتية ، بعد أن وجد في الترحال حقلاً مواتياً لتسجيل ملاحظاته السياسية والجغرافية والعسكرية والاجتماعية . ومع أنه كان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره إلا أن صحته كانت ما تزال معتلة ، كما كان بناؤه في حاجة إلى الترويض ليقوَّى على الترحال . وإذ لم يكن قولني من ذلك الطراز الذي يترك أموره نهبا للظروف ، غادر باريس إلى الريف ليعدَّ لرحلته الهامة الشاقة ، وشرع يدرِّب نفسه على قطع المسافات الطويلة لأيام عدَّة سيراً على الأقدام ، وعلى اجتياز الحفر الواسعة وتسليق الجدران وضبط خطواته وفقاً لزمَّن يحدِّده لينتهي بذلك إلى تعرُّف ما قطع ، وروِّض نفسه على الحرمان من الطعام أياماً كاملة وعلى النوم في العراء وامتناء الخيل دون سرَّوج على غرار بدو الصحراء . وبعد أن اطمأن إلى أن تدريبه قد اكتمل مضى إلى مرسيليا في طريقه إلى مصر في نهاية عام ١٧٨٢ دون أن يخطر أباه بعزمه ، وقد علَّق على ظهره حقيبة حاجياته ، وشدَّ بندقيته إلى كتفه ، وتمنطق بحزام من الجلد حول وسطه فيه ستة آلاف فرنك من الذهب . رحل إلى مصر ليحقِّق هدفاً علمياً محدداً بوصفه مؤرخاً وفيلسوفاً يضم إلى ملاحظاته ومشاهداته الأرقام والأسانيد التي تدعّمها .

ولم يكن قولني راوية يهتم بسرد مشاهداته فحسب بل كان موسوعي النظرة مؤمناً بقوة الفكر حريصاً على تقديم سجل شامل للتعرف على مصر من خلال منهج علمي . فسقَّ خلاصة

ملاحظاته في مؤلف ضخّم دقيق التبويب ، وهو ما جعله أقرب في أسلوبه إلى نهج كتاب القرن الثامن عشر الكلاسيكيين منه إلى نهج الرحالة السابقين مباشرة على الرومانسية مثل سافاري الذي جاء أسلوبه مترعاً بالعفوية والتلقائية والبساطة والتفاؤل . والواقع أن قولني لم يجنح إلى الخيال وهو يقدم صورة مصر إلى القراء الأوروبيين برغم أنه لا يجهل جاذبية الخيال لأغلب هؤلاء القراء ، ذلك أنه كان يؤمن أن فن الرحلات ينتمي إلى علم التاريخ لا إلى الفن القصصي . ثم هو يعترف أنه لم يصوِّر البلدان بأجمل مما رآها ، كما لم يصف الناس بأفضل ولا بأسوأ مما شاهدهم . .

وقد قضى قولني بالقاهرة سبعة شهور اعترضته خلالها الكثير من العقبات التي حالت دون أن يجوس داخل البلاد أو أن يلقن اللغة العربية ، كما لم يجد من الجالية الفرنسية بالقاهرة أي عون على مدِّه بالمعلومات ، إذ لم يكن أفرادها أو حتى القنصل الفرنسي نفسه يكثرثون بعادات الأهالي وتقاليدهم المحلية . ولعل هذه الأسباب هي التي دفعته إلى التحامل على مصر ومغادرتها إلى سوريا التي كرَّس لها اهتمامه حيث كان الاستقرار فيها أكثر استتباباً منه في مصر التي كانت تمور بالتزاع بين طوائف المماليك ، فأمضى في سوريا ثمانية شهور بين الدروز في أحد الأديرة العربية حيث لقن اللغة العربية .

وإذ لم يأنس قولني كثيراً بمصر نجده شديد القسوة عليها . ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أنه - على حد قول سانت بيث - «لم يخض في عظمة أعماقها أو ينفذ إلى عبقيتها» ، فهو لم يدرس إلا طبيعة مصر وموقفها المعاصر على حين لم يعر التفاتة إلى مصر الفرعونية ومصر في ظل المسيحيين الأوائل أو الأديرة القبطية أو أضرحة الخلفاء والمماليك ، فضم كتابه قسمين أحدهما عن طبيعة مصر [ النيل والدلتا والرياح والمناخ ] والثاني عن الموقف السياسي من حيث الأجناس التي تدخل في أصول الشعب المصري وحكومته وطائفة المماليك والتجارة والأمراض المتفشية إلخ . ولم يتخلل كتابه الصارم إلا لماماً أي انطباع شخصي ، فبعد أن قسَّم الشعب إلى أجناس وطوائف وفئات ، ورسَّم صورة واضحة لحكومتها المجردة من النزاهة والتي لا تتمتع بثقة أي مواطن ، واستعرض العسكرية المملوكية الفظة الماجنة ملمحاً إلى العادة المخزية الماثورة عن اليونانيين والتتار على أنها أولى الدروس التي يتلقاها فرسان المماليك على أيدي مدرِّب السلاح ، عرج على تحليل كفاية الدولة العسكرية وكأنه يدعو فرنسا دعوة صريحة إلى احتلال مصر العارية عن أي دفاع ، والتي يمكن اجتياحها في يسر وسهولة فليس ثمة حصون ولا قلاع على امتداد حدودها ، وليس ثمة استحکامات أو مدفعية أو مهندسون ، ولا يتجاوز أسطولها الرابض في مرفأ السويس ثمانية وعشرين مركباً حربياً زوَّد كل منها بأربعة مجانيق صدئة ، ويقوم عليها بحارة لم يستخدموا البوصلة طوال حياتهم كلها ، كما يشير إلى أن ميناء الإسكندرية خال من أية حصون وليس فيه غير أربعة مدافع صالحة ، وليس بين جنوده من يعرف كيف يصوب مدفعه ، على حين أن حامية الثغر التي تبلغ الخمسمائة من الإنكشارية قد انخفض عددها إلى النصف ، أكثرهم من العمال الذين لا يجيدون غير شدِّ أنفاس النرجيلة . تُرى أية أحلام بالظفر وأية أطماع يسيرة المنال هيَّأها هذا التحريض السافر في ذهن الضابط بونايرت المغامر حين طالع كتاب قولني ؟ .



ولا نجد بكتاب قولني ما يمكن مقارنته باللوحات الريفية الخلافة التي رسمها سافاري في «رسائله» حتى إننا لا نعثر في سائر بحوثه التي ضمها كتاب رحلته على أكثر من وصفين أحدهما للقاهرة والآخر للإسكندرية خاليتين من أي إطرء ، فما أكثر ما يحذر الزائر الأوروبي حين تطأ قدماه أرض مصر من أمور يراها شائنة . وقد وجد في المصريين شعباً أسمر ضامر الجسد حافي القدمين لا يملك الواحد منهم سوى قميص أزرق يشده إلى وسطه بحزام أحمر ، بل إنه أحس في لغتهم جرساً بربرياً وفي صوتهم نبرات حلقية غليظة تؤذي سمعه المرهف . وما نظننا نراه كان يحلم بأن يرى على أرض مصر وجوها حليقة كما يري في أوروبا ، وهذا لا شك هو ما جعله يشده وهو يتطلع إلى الوجوه الملتحجة بشواربها السمراء وقد لفحتها الشمس والرياح والصلعاء وقد توجت بالعمائم ، والثياب الواسعة المنسدلة من الأكتاف إلى أخمص القدمين ولا تبرز منها تقاسيم الجسم . كذلك عاف الأسواق التي تكدست فيها أكداش البلح والرغفان المفلطحة وحشود الكلاب الضالة في الطرقات . ولم ير في سيدات مصر إلا أشباحاً جائلة ملتقة بعباءات فضفاضة ، ولولا العيون التي تنفذ من ثقوب البراقع ما فطن المرء إلى أنوثتهن . كما ضاق بالطرقات الضيقة التي لا تكتنفها طواريح وبالمساكن الخفيضة التي لا تتيح مشربياتها إلا ببصيص ضوء النهار أن ينفذ خلالها . لقد وجد أن الحياة العامة بما تشير إليه من بؤس يكسو وجوه الناس وغموض يحجب ما في البيوت تثير في نفسه الاشمئزاز من ضراوة الطغاة ووطأة الاستبداد . وهكذا سجلت الصور التي رسمها قولني للشرق هذا التكدر البشري وتلك الزر كشة في ثياب ساكنيه ، وما يستافه الزائر من عطور أرجة وروائح عطنة ، وما يسمعه من صخب انبعاة مختلطة بأذان الصلاة ، وكذا أنين الشحاذين ممتزجاً بأحان ناياتهم المشدوخة .

وفي الحق إنه لم تنهياً لقولني قدرة سافاري على تلوين الصور التي رسمها للدلتا ، فأين صور سافاري البديعة من الوصف الجاف الذي جاء عنها على لسان قولني : « بيوت القرى مبنية من اللبن وكأنها أطلال متداعية . والدلتا سهل لا نهاية له ، يتبدل شكله حسب المواسم ، فهو إما بحر راكد أو مستنقع موحل أو بساتين أخضر أو حقول مغبر . وعلى مدى البصر من كل ناحية أفق ناء مشبع بالضباب يصيب العيون بالكلل والملل . . وأشجار مصر خشنة فظة تواكب بؤس الأكواخ التي تحجبها ولا توحى بغير الإهمال والفقر » . ويرسم قولني صورة رهيبة لبؤس الأهالي المصريين بعد وباء عام ١٧٨٣ ومجاعة ١٧٨٤ فيقول : « رأيت تحت جدران الإسكندرية القديمة بعض التعساء ملتفين بجثة ميت يتناهشون مع الكلاب بقايا العفنة ! »

على أن قولني لا يقف عند رسم هذه الصورة الكئيبة لمصر ، ولا يكتفي بالحكم عليها بأنها دولة أنهكتها الفوضى والتفسخ السياسي والاجتماعي والعسكري ، بل إنه لا يري خلاص مصر إلا في «تدخل أوروبي» ينقذها من وهدتها ، ولا يتورع عن ترشيح فرنسا : « لكي تكون القوة الخارجية التي تبعث فيها الحياة بعد أن تعي ماضيها وتُشفيها من أسقامها احاضرة وتهيئها لمستقبل أفضل » . ولا يمكن أن يخفى على أحد ما وراء دعوته هذه من النوازع السياسية التي كانت تجعل فرنسا تطمع في الوثوب إلى موقع مصر الإستراتيجي للهيمنة على الطريق إلى الهند . فبعد ظهور هذا الكتاب بخمس سنوات في عام ١٧٩٢ قصد قولني جزيرة كورسيكا لاستزراع بعض النباتات الغربية وتوطينها ، وتشاء الظروف أن يلتقي فيها بضابط شاب من

ضباط المدفعية يدعي بونايرت أخذ يستمع في شغف إلى ما رواه قولني عن مصر مما حفزه بعد لقراءة كتابه الذي قدر فيه قوة حجج المؤلف وصفاء وضوحه ودقة وثاقه . وكان عهد الإرهاب الثوري قد ولى وعين قولني من حكومة المديرين «الديركتوار»<sup>(٧)</sup> أستاذا للتاريخ بمعهد المعلمين العالي<sup>(٨)</sup> . وما إن استقر رأي نابليون على غزو مصر حتى عرض على قولني أن يصحبه إليها غير أنه اعتذر .

وعلى حين كان صغار ضباط الحملة الفرنسية يأنون بقراءة «رسائل» سافاري كما قدمنا كان كتاب قولني هو الكتاب الأثير بين أيدي قادة الجيش والعلماء ، إذ كان لهم دليلاً ممتازاً وموجزاً نفيساً للجغرافيا الاقتصادية والسياسية . ونستطيع القول بلغة العصر إن قولني كان جاسوساً من الطراز الأول ، وهو ما يؤكد أنه لم يعرض الحملة الفرنسية لأية خيبة أمل ، إذ أنه لم يُجمل الواقع في أعينها أو يخدعها بمعسول الحديث عن مصر . وإذا كان سافاري محل تقدير الشعراء والمؤرخين فإن قولني كان موضع احترام العسكريين والجغرافيين ، سجل الأول قصة رحلته في تفصيل كما أحسها بأسلوب لا يبارى وإن جاء منمقاً ، بينما كتب الثاني دراسة واقعية موضوعية مجردة بأسلوب عار من كل زخرفة جامد صريح مدعم بالحجج والبراهين ، ولا يعني ذلك أن قولني لم يكشف عن موهبته كاتباً ، فهو لم يكن مصوراً بقدر ما كان رسّاماً فذاً . والحق أن كلا من سافاري وقولني قد أسهما بكتائيهما في جعل حضارة مصر كعبة يتسابق إلى السعي إليها الرحالة والمفكرون والأدباء والفنانون ، وهو ما أشاع في الرأي العام الفرنسي ترويجا وتأبيدا لحملة نابليون التي صوّرت وكأن الغرض منها اكتشاف منابع تلك الحضارة العريقة .



(٧) Directoire حكومة المديرين الخمسة التي حكمت فرنسا من ١٧٩٥ / ١٠ / ٢٦ إلى ١٧٩٩ / ١١ / ٢٩ بمساعدة مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة

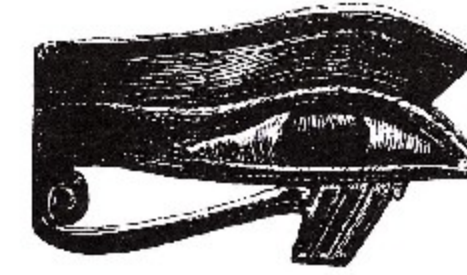
(٨) Ecole Normale



الومضة الأولى  
لعلم المصريات



قيطان دينون





جنبت عنقه نصل المقصلة تحت حكم الإرهاب ، فعهد إليه دافيد بإعداد رسوم «الأزياء الجمهورية» الجديدة التي كلّفه روبيبير بتصميمها لطبعها بطريقة الخفر على الحجر .

وكان دينون قد التقى في عام ١٧٩٧ في حفل راقص عند التيران بجنرال شاب سمعه يطلب كوبا من عصير الليمون فناوله الكوب الذي كان بيده فشكره الجنرال وتبادلا الحديث الذي كشف فيه دينون عن طلاوته المعهودة والتي لم تلبث بعد دقائق أن عقدت وأصر الصداقة بينه وبين بوناپرت وزوجته جوزفين بوهارنيه حتى أصبح من المترددين الدائمين على صالون جوزفين . وفي العام التالي بينما كان في زيارتها فاجأته بسؤالها عما إذا كان يرغب في المشاركة في الحملة الفرنسية إلى مصر ، وكان اختيار العلماء والفنانين والمرافقين للحملة قد تم والأسطول على وشك الإقلاع في ظرف بضعة أيام . وما لبث أن قبل عرضها حين اطمأن منها إلى أنه لن تكون هناك قيود على حرية حركته وبادر بإرسال التماسه إلى الجنرال<sup>(١٠)</sup> .

وما كادت قدماء تطآن أرض مصر في الإسكندرية حتى عكف على تسجيل كل ما وقعت عليه عيناه ، وقد حمل حافظه أوراقه وعلّق نظارة الميدان على كتفه وأمسك أقلامه بيده وهو يركض بجواده متقدّماً الصفوف حتى يجد متسعاً من وقت يتيح له الرسم قبل وصول الجنود ، محاولاً ترسيخ مضمون مؤلفات ساقاري وقلوني التي لم تفارقه بتسجيلها تصويراً . وقد كان أول انطباع له عن الإسكندرية أنها مدينة حزينة ، بل إنه حين وقف عند عمود السواري - المنسوب خطأً إلى پومبي بينما يُعزى في الحق إلى الإمبراطور دقلديانوس - رآه أقلّ عظمة مما بلغه من شهرة . واتجهت الحملة بعد وقت قصير صوب القاهرة عن طريق النيل دون أن يصحبها دينون الذي لم يرها إلا بعد شهرين ونصف ، إذ كان الجنرال مينو قد جرح أثناء القتال في الإسكندرية فعهد إليه نابليون بتنظيم سلطة الاحتلال في رشيد والضرب على أيدي الأهالي المصريين العصاة ، فطلب مينو من صديقه دينون مصاحبته . وبعد رحلة بحرية منهكة من الإسكندرية إلى رشيد أصيب فيها دينون بدوار البحر وصلوا إلى فرع رشيد ، واشترك دينون في حملات التأديب ضد قرى الدلتا المتمردة التي كان أهلوها لا يكفون عن مهاجمة المراكب المحملة بالموّن والذخائر المتجهة إلى القاهرة . وقد أتاحت له هذه المهمة تسجيل صور المشاهد الريفية وملامح الأهالي النمطية كما أتاحت له وجوده في رشيد أيضاً المشاركة في معركة أبي قير . وبعد تأمين الدلتا اتجه صوب القاهرة التي ما كاد يصل على بعد عشرة فراسخ منها حتى تبدّت له «الأهرام وقد اخترقت الأفق» على حدّ قوله .

وكان نابليون بعد هزيمة المماليك بقيادة مراد بك ودخوله القاهرة ظافراً قد أنشأ المعهد العلمي المصري في ٢٠ أغسطس ١٧٩٨ ، ولم يكد دينون يصل إلى القاهرة في ٢٢ سبتمبر ليتولّى منصبه عضواً في المجمع حتى عرف بتشكيل نابليون لسرية قوامها مائتان من الجنود لحراسة ثلاثمائة من العلماء الذين يتحرّقون شوقاً لزيارة أهرام الجيزة فانضم دينون إلى فريق العلماء الذين أمضوا الليل في قصر مراد بك بالجيزة ووصلوا إلى الأهرام بعد ظهر اليوم التالي . ولم تستغرق الزيارة كلها أكثر من ساعتين مكث خلالها دينون نصف ساعة داخل الهرم الأكبر وخرج منه منهكاً فمرّ مروراً عابراً بأبي الهول . وفي طريق العودة نراه يخاطر بنفسه فيتجوّل في دروب القاهرة وأزقتها ليصوّر حي الأريكية الذي اتخذ القائد العام للحملة مقرّه في أحد القصور المقامة على ضفاف بركته التي تغمرها مياه الفيضان فتحلّو بها الزهرة في القوارب ليلاً تحت ضوء القمر . ويمضي يصوّر القلعة

بعد أن انتخب الجنرال بوناپرت عضواً بالمعهد العلمي القومي خطر بباله اختيار نخبة من العلماء والباحثين والفنانين والدارسين لمرافقته في حملته إلى مصر ليعهد إليهم بمهمة تسجيل واقع البلاد وحضارتها السابقة ومن ثم النهوض بها ، فطلب من عالم الكيمياء برتوليه أن يختار هؤلاء العلماء من بين أساتذة المعاهد والجامعات . وكان المشروع الذي تحرّك من أجله إلى مصر وإن أحكم إخفاءه هو شقّ قناة السويس وفتح الطريق إلى الهند . ولكي يتجنّب برتوليه إثارة شكوك الإنجليز على أية صورة تعمّد عدم الإشارة صراحة إلى المشروع . وكان عالم الهندسة والطبيعة مونّج الذي صاحب بوناپرت أثناء حملة إيطاليا ما يزال على وفائه فقبل الاشتراك في المهمة . هذا إلى عدد آخر يربو على مائة عالم انخرطوا طواعية في هذه الزمرة إيماناً منهم بكفاية القائد العام وإعجاباً بفكرة هذا المشروع الجريء دون أن يحاولوا معرفة تفاصيله ، مكتفين بأنهم سيبحرون من ميناء طولون وطيف نابليون يطلّ عليهم ، حتى إن حماسة عالم الرياضة فورييه الذي كتب مقدمة كتاب «وصف مصر» لم تتضاءل وهو يترك مكانه العلمي في مدرسة «الپوليتكنيك» دون أن يعرف بالتحديد أين هو ذاهب ودون أن يتبين بدقّة المهمة التي سيؤدّيها .

وكان هدف الحملة قد بدأ يذيع عندما وصل نابليون التماس من رجل في الخمسين من عمره للمشاركة فيها هو الفنان المصوّر الأديب البارون دومنيك فيشان دينون . وكان دينون شخصية مرحلة جذابة لا يدع متعة إلا اقتنصها فعاش حياة مترعة بالفراشة ، كما كان من أشراف البلاد الذين يحق لهم حضور مراسم استيقاظ الملك لويس الخامس عشر<sup>(٩)</sup> ، وكان أثراً عنده ومحدثه الذي يؤنس وحشته على نحو ما كانت تفعل شهر زاد مع مولاهما شهريار وإن كان أكثر جنوحاً إلى الفحش . كما بات بالمثل أثراً لدى فولتير الذي كان دينون ينظر إليه نظرته إلى ملك من الملوك ، وما زال يلحّ عليه حتى وافق على أن يصوّرهُ فأبدع له تلك اللوحة المعروفة باسم «وجبة الغداء في فيرني» . وقد أعانته موهبته الفارقة في الرسم وروحه المرحّة وحيويته ودماثة خلقه على النجاح السريع في ساحتي الآداب والفنون ، وإلى النفاذ إلى أرقى المتنبّيات التي بات فيها طلبّة النساء وخاصة الممثلات اللاتي التفنّن حولن بالحنان والإغواء حتى كتب لهن مسرحية مثّلت على مسرح الكوميدي فرانسيز وإن لم تلق نجاحاً كبيراً ، كما رشّحه نبوغه في الرسم لتسجيل صورة للمركيزة مدام ده پومپادور عشيقه الملك . ولم يلبث أن عيّن بعد ذلك سكرتيراً بسفارات فرنسا في بطرسبرج ثم في ستوكهلم ونابلي . وقد انتخب عام ١٧٨٧ عضواً بأكاديمية الفنون الجميلة بوصفه فناناً متعدّداً المواهب . وما كادت الثورة تشب حتى بات الخطر يهدّد حياته لولا صداقته للرسام دافيد التي

(٩) عندما كان يحين وقت نهوض الملك الشمس لويس ١٤ في الصباح من فراشه مطلقاً على الوجود من حوله كانت الطقوس التي تصحب يقظة الملك du roi لا تقل شأنًا وإبهاراً عن طقوس شروق الشمس ، فإذا جمهرة من الأشراف والأنباع قد هبوا إلى حجرة النوم الملكية مع الثامنة وهي موعد يقظته يباري كلّ صاحبه فيما يقدمه للملك مما هو في حاجة إليه بعد أن خلع عنه رداء النوم وتأهب ليأخذ زيتته ويرتدي ثيابه الملكية . ومع العاشرة مساء تكون الطقوس نفسها أو قريبة منها على أضواء الشموع الذهبية الخافتة لتوديع الملك الشمس وهو يأوي إلى فراشه ويغيب عن حياتهم Coucher du roi . وكانت الحياة اليومية للملك لا تخلو في جميع مراحلها من طقوس لا ينقطع حبلها ، فكانت كل ساعة تخصّص لمناسبة بعينها بما تضمّ من لقاءات واجتماعات تتنوع شخصيات وأزيائها . وقد ظلت هذه الطقوس تأخذ مجراها في عهود خلفائه [م.م.ث.]



وأضرحة المماليك مشغولا عن كل ما حوله حتى يفاجأ باندلاع ثورة القاهرة . ولقد شغل التصوير دينون أكثر مما تشغله أعمال المجمع العلمي ، إذ كانت حيويته المتدفقة وحساسيته الفنية الفياضة تحولان بينه وبين الالتزام بحضور جلسات جهازة المجمع ومشاوراتهم الطويلة ، فربّ مشاهد على الطريق العام أو سحنة بدوي أو أطلال معبد أو مئذنة مسجد تشده أكثر مما تشده مذكرة فنية عن الرّي أو الزراعة ، فضلا عن غيبته المتصلة عن القاهرة سواء في الدلتا أم في مصر العليا . ولا يعني هذا أنه لم يشارك في أبحاث المجمع على الإطلاق فلقد أعدّ بحثا وافيا بتكليف من المجمع عن بعض أعمدة قديمة عثر عليها ملقاة إلى جوار سور قناطر المياه ، بيد أنه لم يدع الفرصة تفلته خلال هذا البحث كي يعدّ رسومه عن قناطر المياه وأضرحة الخلفاء وحيّ مصر القديمة وبولاق وحديقة المجمع العلمي وإحدى غارات البدو .

وكانت ثمة فكرة مسيطرة عليه تراوده ولا يستطيع منها فكاكا هي الاتجاه إلى الجنوب ، فكان لا يفتأ يعلن عن رغبته العارمة لزيارة آثار مصر العليا مبررا ذلك بأنه لم يغادر باريس كي يقرّ بالقاهرة . ولم تلبث أن سنحت له الفرصة حين عهد بونايرت إلى الجنرال دسيه بغزو الصعيد فأذن لدينون بمرافقة الحملة . وكانت معاملة الضباط والجنود له في مبدأ الأمر فظة غير لائقة ، إذ لم يكن العلماء يحظون باحترام رجال الجيش ، وكانت هيئة أركان الحرب تغار منهم لما يتمتعون به من عطف القائد العام وتقريبه لهم ولإغداقه الأموال الضخمة على أبحاثهم ، كما كانوا ضحية ذلك العداء التقليدي بين المدنيين والعسكريين الذين كانوا يبرمون بهم ويرون في وجودهم عبئا ثقيلا عليهم . وسرعان ما تهاوى حكم رجال الجيش المسبق أمام روح دينون المرححة الجذابة وبساطته وشجاعته التي كانت مضرب الأمثال ، وغدت العلاقة بين الفنان والضباط والجنود عميقة المودة شديدة الصفاء . ومضى دينون في إنجاز الشطر الأهم من مهمته يستطلع ويسبق غيره إلى مشاهدة شتّى المعالم ويحسن التأمل ولا يشتط في الوصف والتقييم وهو يرتاد أرضا ظل الغموض يكتنفها أكثر من ألفي سنة . فمئذ هيرودوت صعد الرحالة في النيل لايجرؤون على مغادرة مراكبهم والإبعاد في الصحراء إلا بضع ساعات يشاهدون خلالها الآثار عجولين ، على العكس من دينون الذي كان يبعد في الصحراء وقتا طويلا في صحبة الجند بعد أن اعتاد حياتهم الخشنة واستمرأها .

ومرّ اللواء الواحد والعشرون الذي التحق دينون به بالمنا ثم ملّوي . ولم تلق أنتينوبوليس على الضفة الشرقية اهتمامه إذ لم يكن يحفل بما شيد الإمبراطور هادريانوس بمصر ، غير أن هرموبوليس على الضفة الغربية ما لبثت أن حظيت بانتباهه برواقها الذي زالت معالمه اليوم فصاح هاتفا وقد ملكه الإعجاب حين تطلّع لأول وهلة إلى الطراز الفرعوني المعماري : « ما أظن الإغريق أتوا بجديد ، فليس ثمة أبدع مما أراه ، كما أنه ليس ثمة أبسط ولا أدق من تلك الخطوط القليلة التي يتألف منها هذا المعمار . فما أخذ المصريون شيئا عن غيرهم من الأمم ، وما زحموا بخطوطهم الأساسية بزخارف لا ضرورة لها بالغين بذلك ذروة الدقة والبساطة ، فلخطوطهم قدسيته . وما يبدو للنّاظر عن قرب من إفراط في الزخارف سرعان ما يتلاشى على البعد ، فلا يجد بين يديه غير الصورة الحقّة المجردة من الحشو . وما أجددنا أن نظرح جانبا القول الشائع بأن العمارة المصرية كانت تمثل الفن المعماري في طفولته ، بل هي في الحق النموذج الأصلي له » .

وإذا دينون يرسم تخطيطا أوليا للرواق يضم إليه وصفا لتيجان أعمدته الضخمة وقواعدها النحيلة . ويقف مشدوها أمام جمال الخطوط الرئيسة وكمال التكوين المعماري والاستخدام الرهيف للزخارف التي تُثري المبنى دون طغيان على البساطة التي تُفيض عليه العظمة . وكانت هذه أولى مشاهدات هذا الفنان للفن المصري القديم فشغل به وانكفأ عليه على الرغم من قلة الطعام الذي يتناوله ، وعلى الرغم من رقاده الخشن في المعسكرات ، وعلى الرغم من امتطاء جواده ما بين اثنتي عشرة وست عشرة ساعة يوميا ، وعلى الرغم من أن ريح الصحراء قد أكدّت جفونه ، وعلى الرغم من أن عينيه الملتهتين أصبحتا لا تريان في وضوح لما غشيها من دماء .

وكان على ذلك اللواء مواصلة التقدم جنوبا لملاحقة المماليك ، فمرّوا بمنقنوط وأسيوط ثم سوهاج حيث رسم دينون ديري الأقباط الشهيرين الأحمر والأبيض إلى أن بلغوا جرجا . وهنا استقر النواء ثلاثة أسابيع في انتظار السفن الحاملة للعتاد والتموين بما في ذلك الأحذية التي كانوا يفتقدونها . وبعد الالتحام في عديد من المعارك وصل الجيش إلى دندرة حيث معبد حتحور الذي أوحى للفنان ببضع صفحات نابضة بالحياة للفن المصري العملاق مبيّنا كيف خضع التحت والتصوير لفن العمارة المبكر . وهنا يقع دينون في خطأ من أخطائه القليلة ، فلم يكن معبد حتحور مبكرا كما قال إذ قد شيد بأخرة على عهد البطالمة ، وإن كان لدينون عذره في التردّي في هذه النهوة لأن الحروف الهيروغليفية لم تكن قد فُكّت رموزها بعد حتى يستطيع تحديد تاريخ هذا المعبد أو غيره . وقد خصّص دينون لدندرة ثلاث لوحات جميلة في أطلسه . والأمر الغريب أن زملاءه من العسكريين بدؤوا يشاركونه هذا الإعجاب فإذا أحدهم يقول : « منذ وطئت قدماي أرض مصر خاب ظني واستولت على الكآبة وانتابني السأم ، غير أن ما شهدته في دندرة قدردّ على قواي وذهب بكل مناعبي » . وحتى قائد اللواء نفسه الجنرال بيار قد تلبّث وحده عند سقف المعبد وقت الغروب برفقة دينون ليتأمل في إعجاب ودهشة النقش الغائر المعروف باسم نقش البروج السماوية « الزودياك » والمحفوظ اليوم بمتحف اللوفر .

وبعد بضعة أيام يصل الجيش إلى الضفة الغربية من طيبة ، تلك المدينة النائية التي تضمن الأزمان بالإفصاح عما تخبئه بين طياتها من روائع . ولهذا كان من العسير على الخيال أن يستشف ما وراء حجبها ، فبدت كانشبح المهيب تخور معه قوى المشاهد ، حتى إن جنود الحملة عندما قاربوا أطلالها ملكتهم الخشية فإذا هم مبهورين بها فتنتطلق أيديهم مصفّقة ، ثم إذا هم دون وعي يؤدون التحية العسكرية على دق الطبول ، وكأنهم ببلوغهم هذه الغاية الجليلة قد انتهى بهم مطاف الحملة .

وسرعان ما بادر دينون بوضع مخطط لما وقع عليه طرفة وكأنه يخشى أن يقلته هذا المشهد ، مشهد طيبة . واستجاب له الجنود يعاونونه فيما أخذ فيه ، فمدّوا سيقانهم ليجعلوا منها مناضد يتكىء عليها في رسمه ، وتحلقوا حوله ليظلموه ويدفعوا عنه وهج الشمس ، كي يسروا له أن يمضي في رسم ما يرسم ليُمتع به القراء بعد بعظمة طيبة ، فأحسن الزهو والفخار لمشاركة الجند إياه هذا الشعور المرهف ولما قدّموه له من عون صادق .

على أن الجنرال دسيه كان عَجلا فلم يُمهّل دينون كثيرا في طيبة ، وأخذت القوات تحوس خلال أطلال الضفة الغربية متّجهة إلى أرمنت وواصلت زحفها نحو الجنوب حتى بلغت إسنا التي حرّكت في نفس دينون شعورا جارفا بالإعجاب ، ثم هيرا كونوبوليس [ الكوم الأحمر الآن





لوحة ( ٣٤ ) دينون : مدخل الهرم الأكبر بالجيزة

أمام الكاب بجوار [إدفو] حيث يقدم لنا دينون صورة حية لنفسه وهو واقف أمام البوابة المتهمة في زي مهترئ وقبعة ممزقة وحذاء مثقوب برفقة خادمه النوبي ونوقه وجواده وحمارة وكرسية المطوي. وينتقل دينون مع الجيش إلى إدفو حتى يبلغوا أسوان وقد أبلى الحصى أحذية الجند فلقوا أقدامهم بما بقي لهم من أسمال ثيابهم الداخلية ، وهم يتهاوون فوق الرمال الملتهبة ينهكهم الجوع ويضنيهم الظما.

وما يكاد الجيش يصل إلى أسوان حتى ينكفي دينون على رسم شلالاتها ويخلو إلى تسجيل مشاهد النوبة الريفية ، ويعبر الجيش النيل فوق القوارب التي خلفها الممالك ، ويسكن دينون مع الجنرال بيار في أحد المنازل فيخلد إلى الراحة بعد أن قضى أسابيع قلقة تحت ظروف العيش القاسية في المخيمات ، وتصبح جزيرة إلفانتين الخضراء اخافلة بالزهور «بيته الريفي» حيث المتعة والتأمل والدراسة ، فلم يبق فيها حجر إلا توقف عنده ولا صخرة إلا أمعن النظر فيها . أما جزيرة فيله فكانت عصية منيعة على الفرنسيين إذ دافع عنها الأهالي بسهامهم ورماحهم وبنادقهم ، وكان لا مفر أمام الجيش الفرنسي من زحزحتهم عنها برصاص الرشاشات بعد حصار دام خمسة أيام . وبعد أن استقر الجيش بأسوان ثلاثة أسابيع وتخلص من مراد بك ومماليكه الذين انسحبوا إلى جنوب الشلالات قفل الجيش راجعا في ٢١ فبراير ١٧٩٩ . ومنذ تلك اللحظة لم يعد دينون يصحب الجنود ، فاعتلى مراكب الأسطول النهري وأخذ وهو على ظهرها يرسم تخطيطا أوليا لمعبد كوم أمبو ، لكنه إلى هذا شارك في عدة مناوشات عسكرية في منطقة طيبة التي تأمل فيها معبد الكرنك وأخذ يسائل نفسه أقصرا هذا أم معبدا ويتمتم مذهولا : « أي رتبة هنا ، وأية حكمة تبعث على الأسى ، فإن ما كان من هؤلاء الذين شيّدوا هذه الصروح يملؤني هلعا ، فهذه الآثار بكثرتها تُثقل ذهني وتبعث الجُمود في أطرافي »<sup>(١١)</sup> . وفي الحق إن دينون لم يبلغ بفهمه كنه هذه الطلسمات والرموز التي تتخلل الأشكال المنحوتة فجاء فهمه لها خاطئا ولم يقرب من إدراك خفايا الفن المصري القديم .

Vivan Denon: Voy-  
age Dans La Basse et la  
Haute Égypte.

وواصل دينون مسيرته مع الجيش في طريق العودة مارا بقنا وفيها التقى بالمهندس جيرار عضو المجمع العلمي ومعه أعضاء ثمانية من لجنة الفنون ، مما أتاح له الفرصة في أن يتدارس معهم شيئا عن الكرنك والأقصر وإسنا وإدفو ، وأن يزور وادي الملوك زيارة خاطفة نظرا لكثرة المناوشات التي كانت تقع بين الجنود والأهالي ، وإذا بالنفير لامتطاء الخيل يُعجله وهو في غرف مقبرة رمسيس الثالث يتأمل رسوم الأسلحة والتروس والسهام والجعب والقماطر والسرر المنبسطة والمطوية والكراسي والموائد . وكانت ثمة لوحة قد اجتذبت لفتاة في ثوب أبيض تعزف على قيثارة بأحد عشر وترًا . وهنا سأل نفسه كيف له أن يترك هذه الكنوز دون أن يرسمها ، ولم يلبث أن استماح القائد لإمهاله خمس عشرة دقيقة ، فسحا القائد ومنحه عشرين دقيقة . ومضى في المقبرة يصحبه جنديان يقوده أحدهما ويحمل له الآخر شمعة تضيء ما يتوق إلى رسمه . وبينما هو يخطو في المقبرة على غير هدى يلتقط ما تقع عليه يده من مشاجب وتماثيل جنائزية وما دق من أدوات إذا هو يعثر بقدم مومياء وصفها بقوله : « يُخيل إلي أنها كانت لفتاة في مقتبل العمر رشيدة رقيقة مكتملة البنيان ، فإن إيهامها المنتصب وخنصرها المستوي وبنصرها الناهض وانحناءاتها الرهيفة ، هذه كلها تُنبئ عن فتاة من أسرة رفيعة لم تحف قدمائها من عناء السير ولم تحز فيها خيوط





لوحة (٣٦) ديناون: منظر القاهرة من ميدان الأزيكية وقد غمرته مياه الفيضان. «وميدان الأزيكية هو أكبر ميادين القاهرة، تقتقر مياينه إلى التناسق وتجري فيه على مدار السنة تظاهرات، أولاها حين تغمره مياه النيل أثناء موسم الفيضان. وثانيهما حين تنحسر هذه المياه لتخلف حديقة جميلة خضراء. وقد سجلت هنا التظاهرة الأولى حيث

نعل خشن. كما تتجلى أظافرها المطلية بالحناء على نحو ما تفعل نساء مصر اليوم حين يطلن أظافرهن وأكفهن وأقدامهن»، ويشده إعجابه بمشهد انقدم ويشير فيه شاعريته، فإذا هو يسك بقلمه ليرسمها. وهذه القدم - كما سنرى - هي التي أوحى فيما بعد إلى تيوفيل جوتييه بأن يؤلف قصته المعروفة «قدم المومياء».

ولقد خلقت طيبة فيه شعورا بالقلق وقلة الرضا وإذا هو يقول مفصحا عن ذلك: «لقد طبعنتي إقامتي العابرة بطيبة بمزيج من الملهفة ونفاد الصبر والحماس والغضب والإثارة والإنهاك». فهذه اللحظات المعبودة العجلة في أهم مناطق مصر العليا ما كانت لتتيح له أن يحقق ما كان يخطر بخاطره ويحسه بوجدانه، فلو أنه أتبع نه قضاء أسابيع ثلاثة في هذا الموقع مثلما حدث في أسوان لكان أصدق حكما وأكثر استيعابا. ولكن لواء الجنرال بيار كان على أهبة الرحيل إلى قنا على أن يعود مرة أخرى لنطرد الأهالي المتمردين من قرية القرنة والاحتفاظ بشيوخها رهائن. على أن العمليات العسكرية لم تحقق أغراضها جميعا إذ نجح فريق من الأهالي في الفرار إلى الصحراء، فأشعل الجيش النار أمام الكهوف والمغارات لئلا تلتجئ دحانا فتحمل من بقي فيها على الخروج ثم سدا الجيش المداخل بالمتاريس، ولكنه لم يقع إلا على ثلاثمائة عنزة وبعض من النساء والأطفال. ثم بدأت المفاوضات لتسليم الشيوخ فانتبهز ديناون الهدنة ليتعرف على ما في الجبنة القديمة في جوف الجبل. ولقد بهت عند رؤيتها ووجد سحرا وعجبا في ذلك

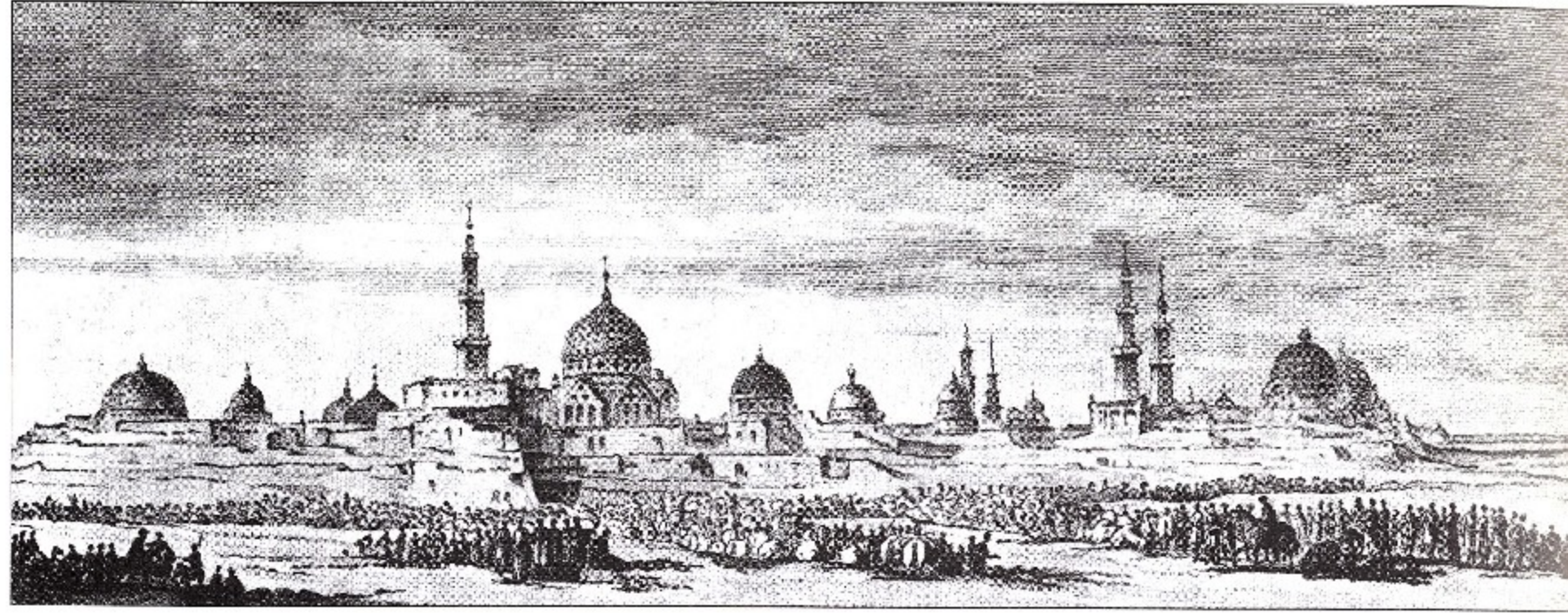
الفن الجديد بمقابر الأشراف من لوحات منقوشة صغيرة لمناظر طبيعية قد تغيرت فيها الأوضاع الجامة المجانية التي تزدان بها المقابر الملكية فبدت هنا طبيعة ترف سلاسة، كما بدت مجموعات الشخصوس محفورة لوفق قواعد المنظور حفرا غائرا أشد الغور مما جعله يعدل على رأيه الأول بأن المعادن وحدها هي التي تتقبل مثل هذا الحفر الغائر. كما هزته الحيوية التلقائية والبراءة الطبيعية التي تجلت في هذه المشاهد الجدارية فانبهر يسجل في حماس ولهفة تلك المشاهد الطريفة للمباهج الشعبية من ألعاب وموسيقى ورقص، بعد أن أدرك الفارق بين الأسلوب الكهنوتي التقليدي لمقابر الملوك وبين الأسلوب اللطيف الراقى المتحرر لمقابر الأشراف. وقد عهد القائد إلى ديناون - وكان يثق بلباقته إذ كان دبلوماسيا سابقا - أن يفاوض الأهالي في تسليم الشيوخ، ولكنه أثر ألا يتعجل الأمور وعمد إلى التسويف والتأجيل حتى يفرغ من جولاته ورسومه واضعا مهارته الدبلوماسية في خدمة أهدافه الأركيولوجية، فمضى يرخي في المباحثات إلى أن تم له اكتشاف مدينة هابو، وما إن انتهى من هذه المهمة حتى أقبل إلى القاهرة بعد رحلة استغرقت من ديسمبر ١٧٩٨ إلى يوليو ١٧٩٩ في مصر العليا.

وما كاد ديناون يصل إلى القاهرة حتى راح أعضاء المجمع الذين لم تكن الفرصة قد واتتهم بعد لزيارة الصعيد يطرونه بوابل من الأسئلة، فبسط لوحاته وأوراقه على مائدة المجمع ليقول لزملائه

يحتشد السكان من مختلف الطبقات للاحتفال بهذه المناسبة، فيتحول الميدان إلى بحيرة فسيحة تكتظ بالقوارب المضاءة التي يتنزه الناس على سطحها ناعمين بهدوء الليل وجمال الطقس. ويبدو قصر الألفي بك الذي نراه إلى اليمين مضاء بالمشاعل وقد غدا أثرا تاريخيا بعد أن أقام به بونايرت أثناء وجوده بمصر»

فيقان ديناون.





لوحة (٣٧) دينون . وادي مقابر الخلفاء



لوحة (٣٨) دينون . حديقة المجمع العلمي بالقاهرة .



لوحة (٣٩) دينون . غارة البدو قرب أسوار القاهرة مع شروق الشمس

المشدهين : «هذه رسوم رسمت كثرة منها على رُكبتي وأنا جالس ، وسائرهما وأنا على صهوة جوادي ، ولم يكن لي أن أتم إحداها على غير هذا الوجه ، إذ أني خلال عام كامل لم أجد منضدة سوية أستطيع أن أستخدمها لأرسم عليها»<sup>(١٢)</sup> . فلقد كان دينون يخطط رسومه تحت وابل نيران الممالك وهو هادئ الأعصاب كما لو كان يرسمها في هدأة على منضدة في مرسمه ، مبدعا لنا رسوما تلقائية واقعية بسيطة صريحة قد تكون أشد إحياء من الكثير من اللوحات الكبيرة وإن لم ترق من ناحية الأسلوب الفني إلى مستوى اللوحات التصويرية العظمى . وهي إن افتقدت الدقة التامة التي نلمسها في كتاب «وصف مصر» إلا أنها تتسم بخفة الروح النابضة ، إذ لم يبال صاحبها كثيرا بالتسجيل الأركيولوجي الصارم أو بالخلقة والادعاء . على أن دينون لم يكن رساما فحسب بل كان كاتباً أدبياً كذلك ، فهو لم يكتف بتزويدنا بشروح مسهبة للوحاته المطبوعة بطريقة الحفر على الحجر أو سواه<sup>(١٣)</sup> والتي رسمها من إملاء لوحاته التخطيطية بل هو قد ألّف كتاباً لجولاته ومغامراته هو «رحلة في مصر السفلى والعليا خلال عمليات الجنرال بوناپرت الحربية»<sup>(١٤)</sup> ، زوّده بأطنس شامل من الرسوم في عام ١٨٠٢ (لوحات من ٣٤ إلى ٩٢) .

ولقد نجح هذا الكتاب الموابك لوجود علماء الحملة الفرنسية في أن يقدم لأوروبا صورة أمينة صادقة لمصر في نهاية القرن الثامن عشر قبل ظهور الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» ببضعة أعوام ، كما تقدم رحلة دينون بمصر التي استوعبت ثلاثة عشر شهراً أعطاء أكثر سخاء ونفعا مما سبقها من مطبوعات فرنسية أو إنجليزية . وما من شك في أن صوره المطبوعة بطريقة الحفر لمصر أشد إتقاناً من سائر الصور المطبوعة التي سبقته والتي كان يتشدّق بها رساموها في نهاية القرن الثامن عشر . كما أن نوحته الأدبية التي وصف بها مصر جاءت أكثر شمولاً من لوحة قولني وأشد موضوعية من لوحة سافاري . ولم يقصر دينون تسجيلاته على ما شاهده في البلاد من آثار وعادات وتقاليده بل قدّم لنا صوراً لأروع لحظات المعارك خلال الحملة . وهكذا أدى دينون من بين أعضاء لجنة العلوم والفنون في جيش الشرق دوراً ريادياً فضلاً عن تفوقه عليهم بميزة أخرى ، إذ كانوا علماء فحسب بينما كان هو كاتباً وفناناً أيضاً ، غير أنه لا بد من الاعتراف بأن تصاويره كانت تفتقر إلى الدقة التسجيلية التي يلتزمها الأركيولوجيون ، فلقد حرّمته العجلة التي أحاطت به وسط حصار الطلقات النارية أن يقتفي الأثر ويحاكي تفاصيله المميزة .

وإلى جوار رسومه عن مصر الفرعونية زوّدنا برسوم شتى لمصر القبطية والإسلامية والعادات والتقاليد المصرية ، فقد صور أضرحة الولاة والأولياء وسلاطين الممالك والمساجد والمشاهد المألوفة في طرق القاهرة وموابك الجنازات والأعياد ومجالس الشيوخ ومشاهد المعارك والمناظر الرعوية التي تنتظم الفلاحين والجمال والمراكب ذات الأشعة المنسابة فوق مياه النيل والعوالم والغوازي المتبرّجات ، كما صور الممالك في شبكة القتال وبزة المراسم ، إلى جانب مختلف الأزياء وتصنيفات الشعر ، ولا سيما رسومه لوجوه الرهبان اليونان والقسس الأقباط والتجار اليهود ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا بسطها أمام عيوننا . ولا مرأى أن كتاب دينون هو أشمل مجموعة إيقونوغرافية<sup>(١٥)</sup> وأشهر حصيلة من الصور المطبوعة بطريقة الحفر عن مصر عرفت في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر .

(١٢) المرجع السابق نفسه

(١٣) Engraving فن

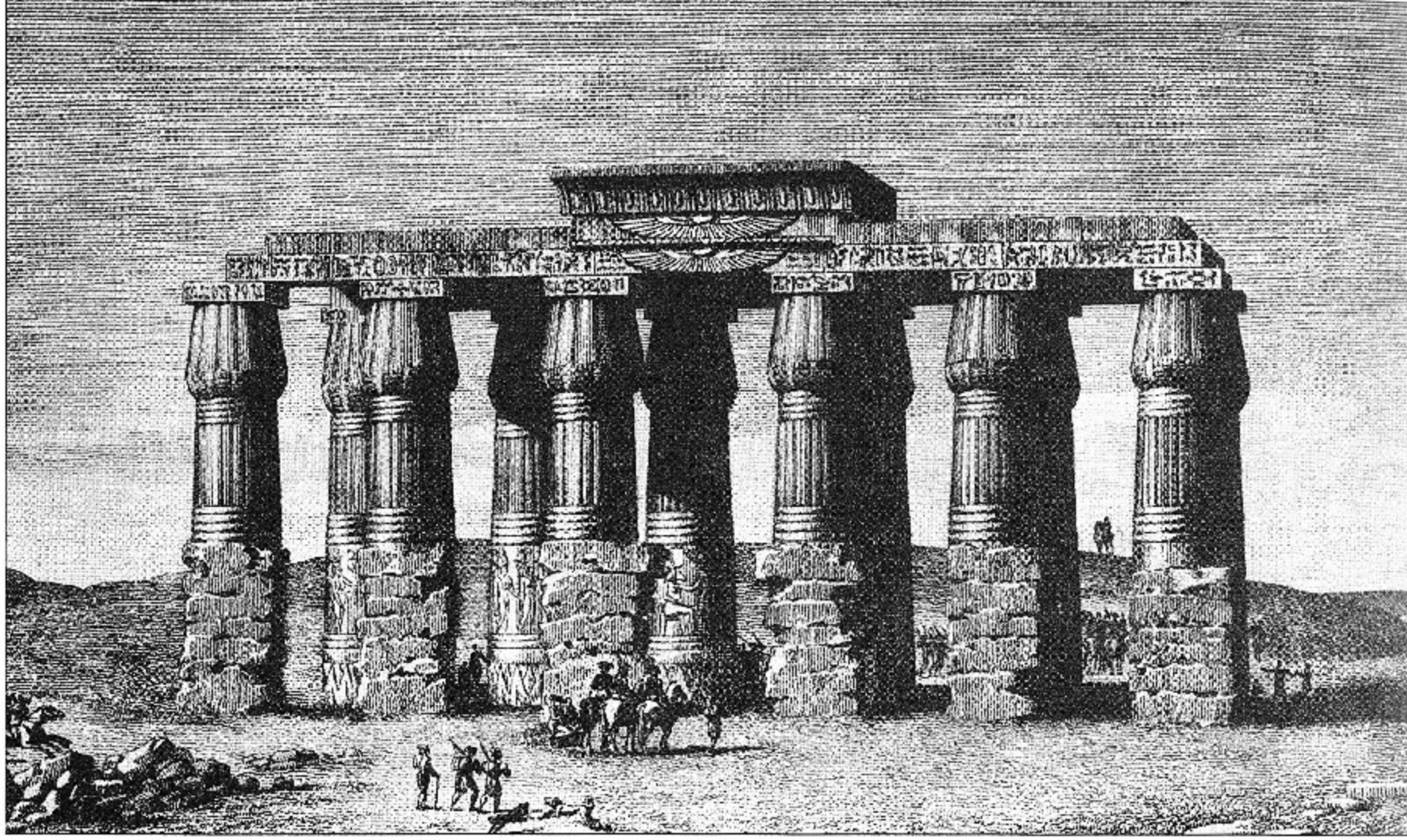
التصميمات المطبوعة هو فن الطباعة اليدوية بواسطة الحجر أو بواسطة الشاشة الحجرية أو الجلد ، أو هو الطباعة بتقنة حفر الرسوم على الخشب أو خريشتها بسن الإبرة على الرقائق المعدنية Etching . ولكي تُتخذ منها صورة مطبوعة تُمرّر الأسطوانة المشبعة بالخبير على اللوح المحفور فيعلق الخبير بالسطح ونحصل على الصورة إما بواسطة السطوح الناتئة أو الحدوش الغائرة المشبعة بالخبير [ المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية م.م.ث . ]

(١٤) ثمة نسخة من الطبعة الأولى لهذا الكتاب بمكتبة المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة . وقد أعاد المعهد طبع هذا الكتاب عام ١٩٩٠ .

(١٥) Iconography

الإيقونوغرافية هي قائمة الموضوعات التي تُعنى بها حضارة من الحضارات أو يُشغل بها عهد من العهود أو يعالجها فنان من الفنانين . وهي أيضاً كل ما يختص بموضوع فني مصوّر تصنيفاً ووصفاً [ المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية ] .





لوحة (٤٠) دينون . أطلال معبد هرموبوليس .



لوحة (٤١) دينون . أحد أحياء مدينة جرجا .

وعلى أية حال كان فيثان دينون في هذا المضمار رائداً ، وكان إحساسه بدوره الطليعي هو الذي دفعه إلى نشر كتابه فيقول في مطلعته : «عندما غادرت الإسكندرية إلى فرنسا كان أعضاء المجمع العلمي ما يزالون بالقاهرة . وقد بقيت فترة طويلة وأنا أجهل ما إذا كانوا قد قاموا بالرحلة التي كان بونايرت قد أعدّها لزيارة الصعيد قبل رحيله ، إذ إن ظروف القتال كانت قد بدأت تهدد تحركات هذه النخبة من العلماء وتحول دون وصول تقاريرهم الخصبية القيّمة إلى فرنسا . وبذلك وجدت نفسي الوحيد الذي جمع عدداً كبيراً من الرسوم التي لم أصرّ فيها معالم مصر فحسب بل صوّرت فيها مشاهد بعض المعارك الهامة التي خاضتها الحملة ، ومن ثم لم أكن لأستطيع أن أحرم مواطني من ثمرات بحوثي وجهودي المضنية وإلا أكون قد ظلمتهم . من أجل هذا التزمتُ بنشرها» .

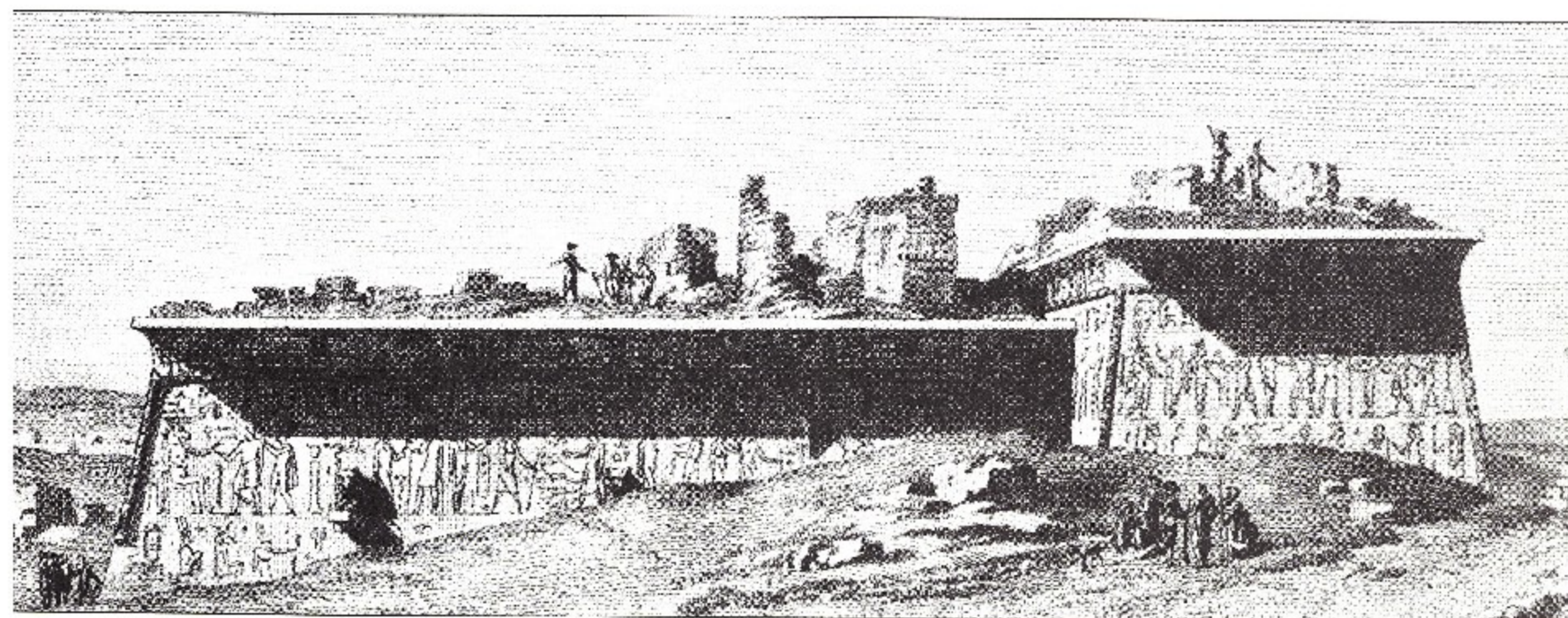
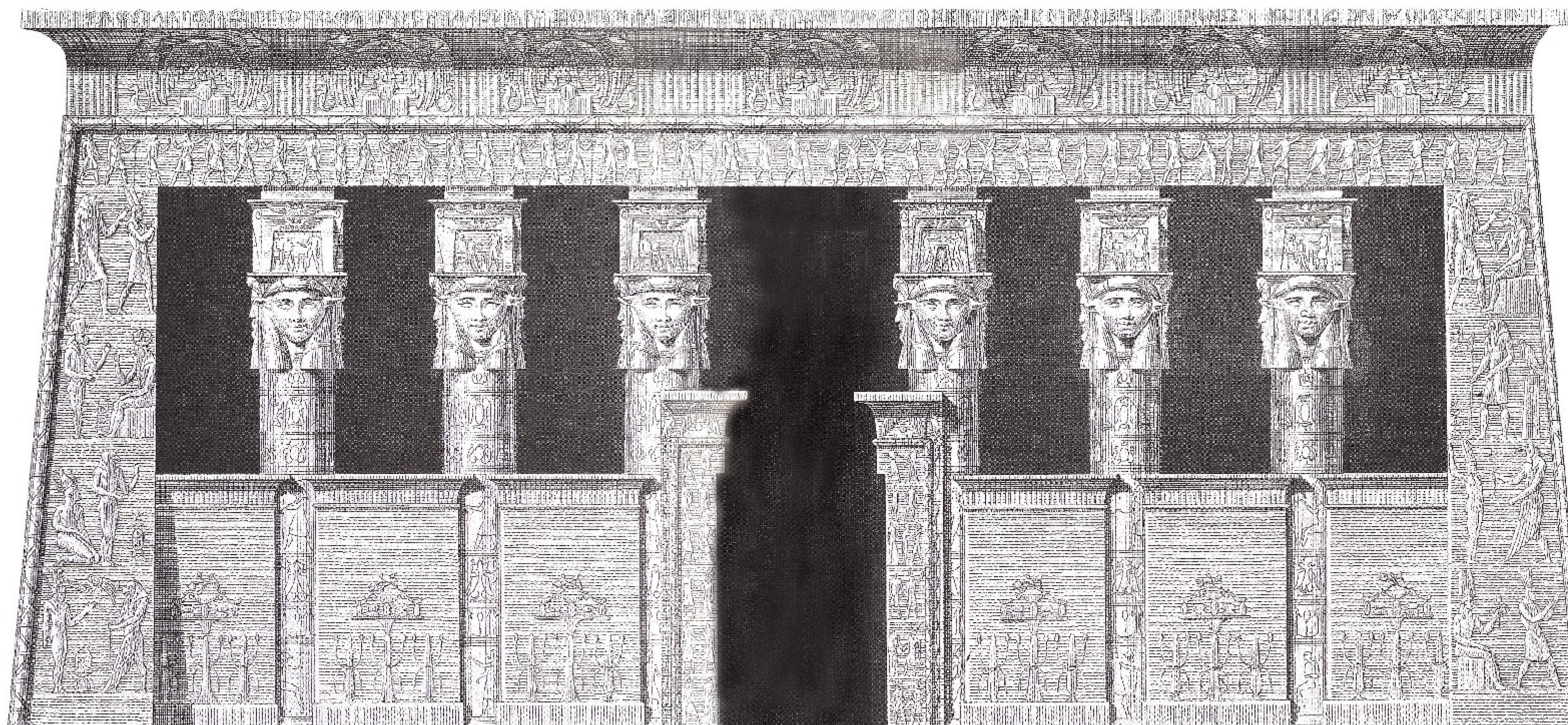
على أن النص الأدبي لدينون لم يرق إلى نفس المستوى الذي بلغته رسومه الفنية ، وقد اعتذر دينون عن ذلك فقال في صراحة : «كنت اعتزم في بادئ الأمر أن أسوق بضع ملاحظات نقدية عن الآثار ، وأن أناقش ما جاء به الرحالة من قبلي . ولقد استشرت بعض كبار الشخصيات لإضافة بعض الملاحظات العلمية إلى كل ما هو جدير بالانتباه مما قد صوّرتّه ، غير أنه ما كاد يبلغني أن المجمع العلمي قد قام برحلته وأن أعضائه قد عادوا مزودين بغنيمة كبيرة من المعلومات ، وأن الدولة ستقوم بشكورة بالإتفاق على نشر موسوعة علمية نفيسة تتناول سائر النواحي ، حتى طرحت جانباً هذا المنهج الذين يمكن أن يقوم به غيري ممن هو خير مني» . فهو لم يشأ أن يسلب العلماء ما هم أحق به منه ، ومن ثم اختصر كتابه في تواضع فجعله يوميات للحملة وسرد للرحلة فحسب واستبعد جانباً كل ما خاطر بنفسه في سبيله .

على أنه لم يتهياً لدينون الوقت كي يقدم تقريراً لهيئة المجمع مجتمعة عن نتائج رحلته ، فبعد عودة بونايرت من فلسطين أمره بأن يصحبه إلى الدلتا وطلب منه تسجيلاً مصوراً للمعركة أبي قير - التي انتصر فيها على الجيش التركي الذي نزل في أبي قير في ١١ يولية ١٧٩٩ بقيادة مصطفى باشا - بعد أن نالت رسومه لمصر العليا إعجابه . وعندها أدرك نابليون انتهاء مهمة دينون واقترح عليه أن يرافقه في رحلة العودة إلى فرنسا . وسرعان ما ظهرت ثمار رحلة دينون حين أمر القائد العام بناء على طلب العديد من أعضاء المجمع بتشكيل لجنتين متخصصتين على وجه العجلة من العلماء والفنانين لتسجيل ورسم جميع آثار الصعيد على نحو موضوعي علمي دقيق ، أحدها برياسة فورييه والأخرى برياسة كوستاز ، خلقتا القاهرة في ٢٠ أغسطس ١٧٩٩ أي قبل رحيل نابليون إلى فرنسا بثلاثة أيام مصطحباً معه مونج وبرتوليه .

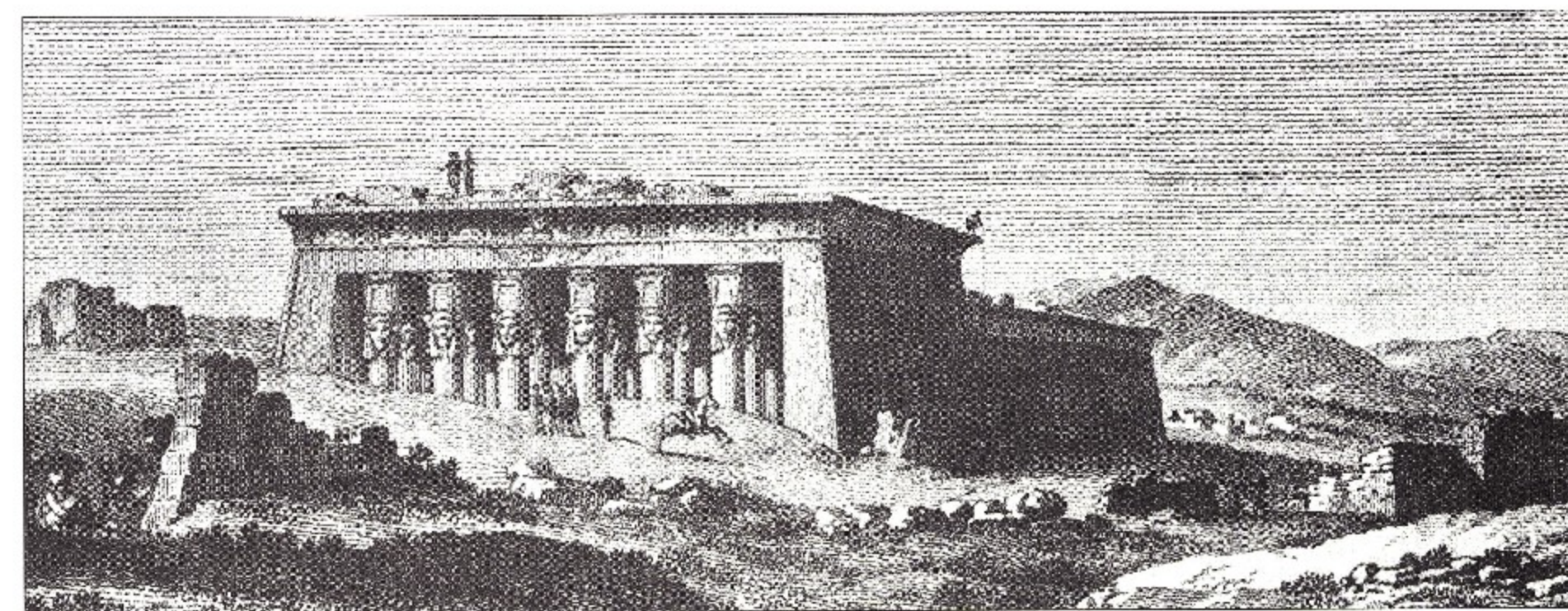
تلك كان مغامرة فيثان دينون على أرض مصر التي أزاح بها الستار لأول مرة لفرنسا ثم لأوروبا كلها عن روائع الحضارة الفرعونية ، وبلغ ما قدّمه للعالم من الرسوم المطبوعة ما ينيف عن ثلاثمائة وخمسة وعشرين رسماً . وقد عاش دينون شيخوخته الباسمة إلى آخر أيامه في داره الأنيقة بطريق «مرسى قولتير» المطلّة على نهر السين وبين يديه مقتنياته العجيبة ، ومنها قبضة من رفات إلويز ، وشعيرات شهباء من شارب هنري الرابع ، وعظمة من عظام مولير وأخرى من عظام لافونتين ، وضرس من أضراس قولتير ، وقطرة دم من دماء نابليون راعيه الجليل<sup>(١٦)</sup> .



لوحة (٤٤) دينون . مدخل  
معبد دندرة

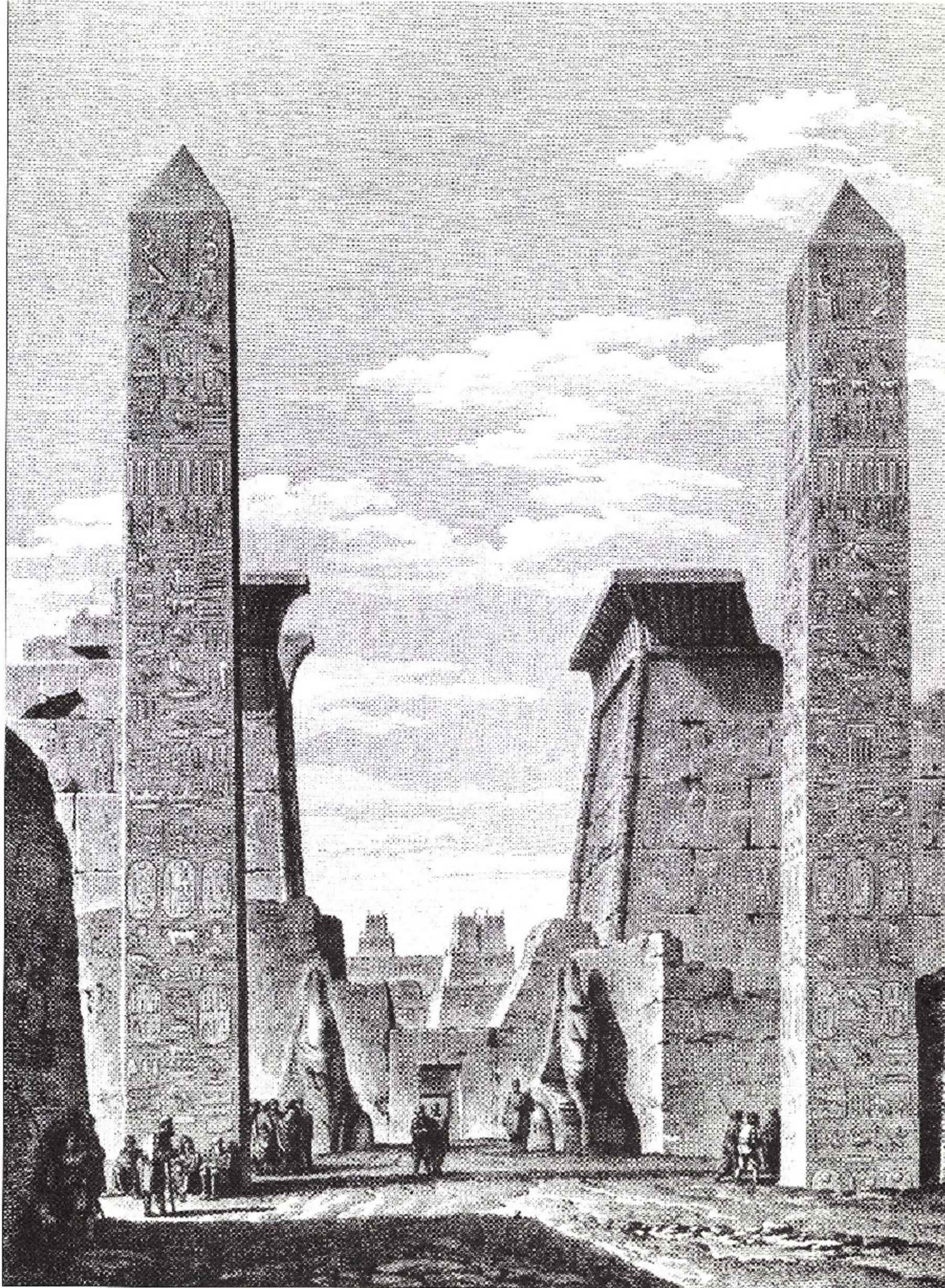


لوحة (٤٣) دينون . الجزء الجنوبي من معبد دندرة



لوحة (٤٢) دينون . معبد دندرة

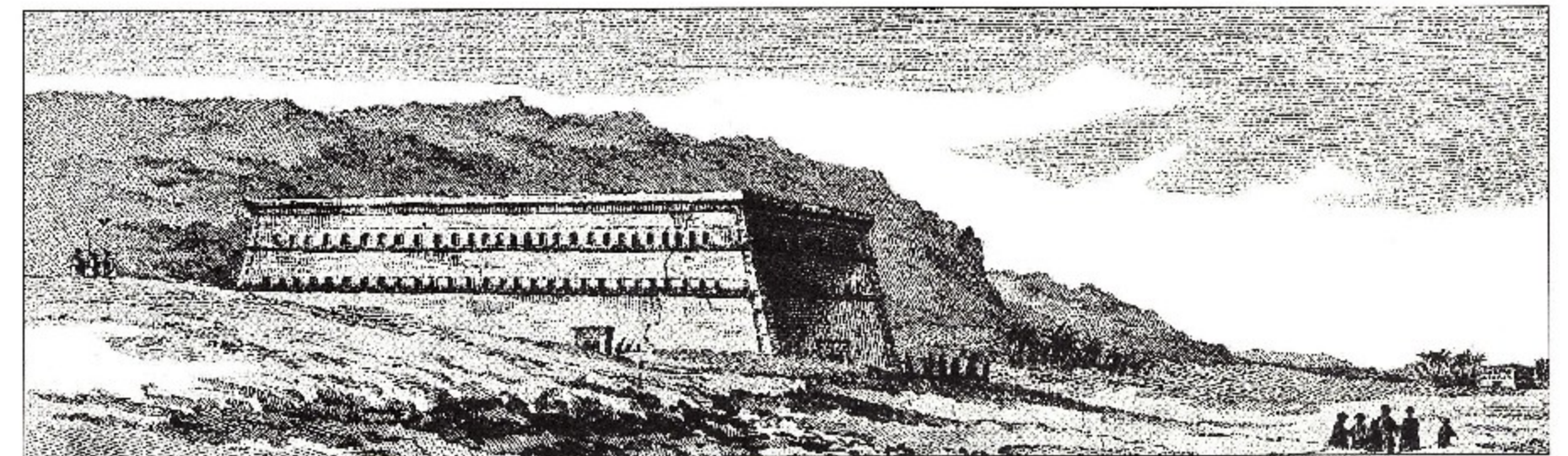




لوحة (٤٧) دينون . طيبة « الأقصر »

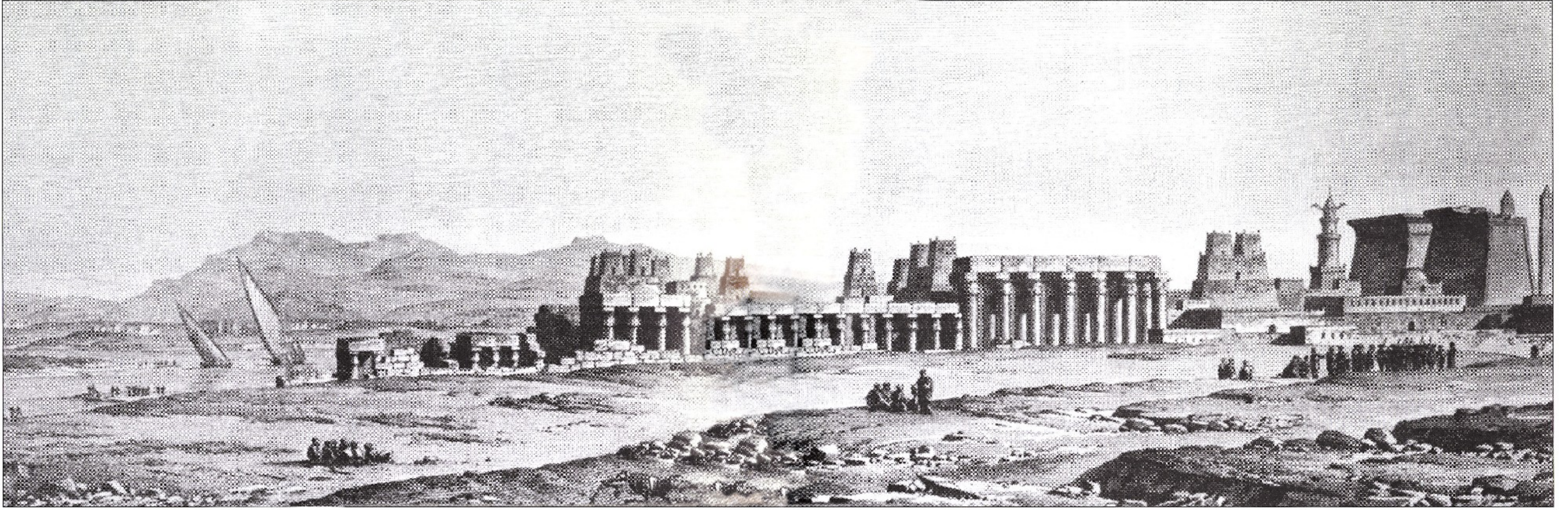


لوحة (٤٥) دينون . لوحة البروج السماوية « زودياك » . معبد دندرة



لوحة (٤٦) دينون . الدير الأبيض بسوهاج

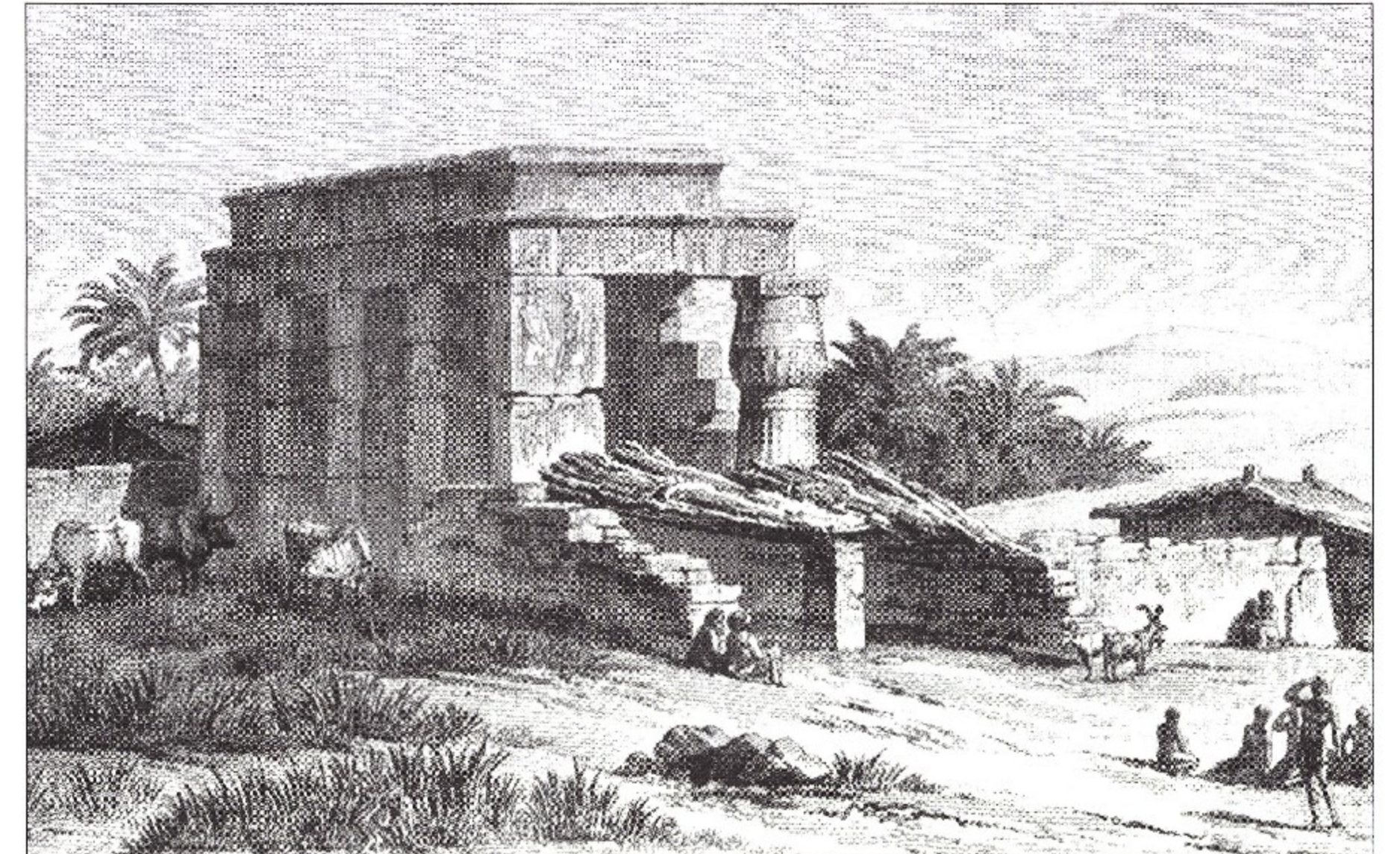




لوحة (٤٨) دينون .معابد طيبة [الأقصر]. «أي تعانق بين الضعة والعظمة، يعلو ويهبط عبر الزمان مواكبا الجلال مع البساطة» .  
جوستاف فلوبير

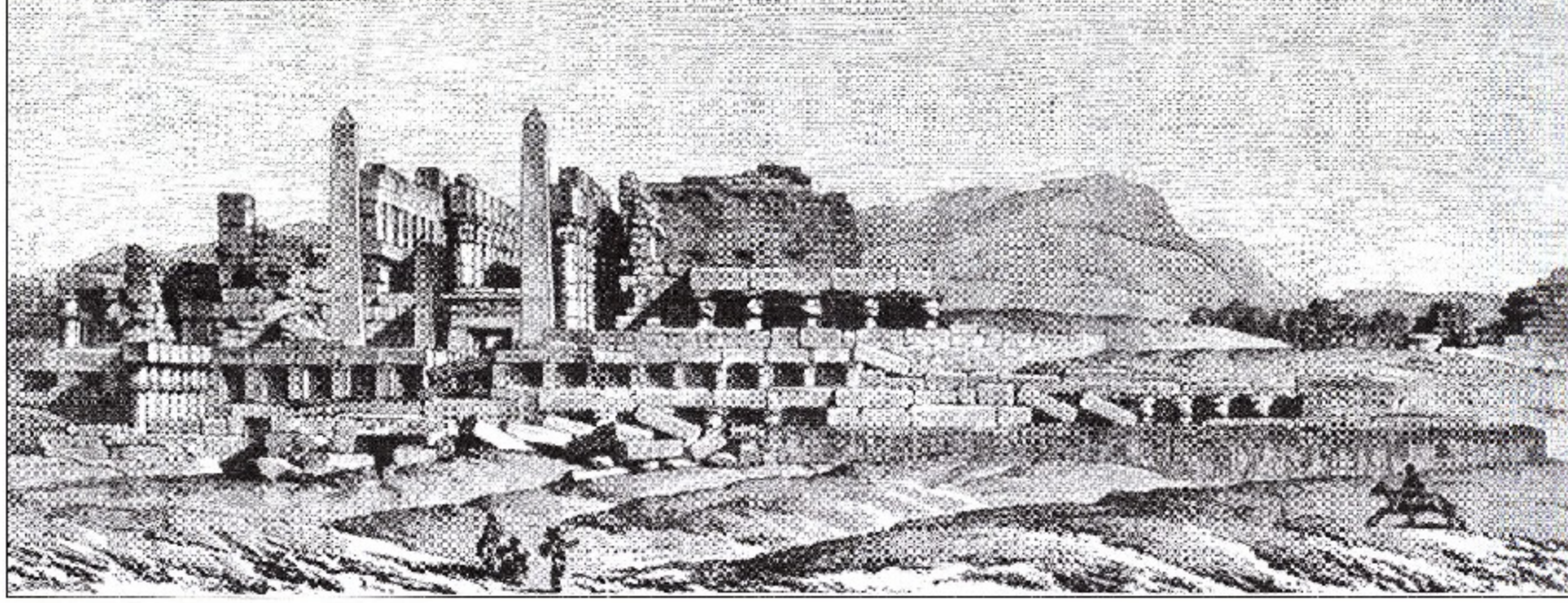
لوحة (٥٤) دينون: قدم المومياء: «قدم مومياء رقيقة لفتاة في مقتبل العمر لا شك أنها لأميرة صغيرة لم تحف قدمها من عناء السير ولم تحزّ فيها خيوط نعل خشن. وقد ظفرت من نظرتي إلى هذه القدم بما ينوق إليه رجل حين يظفر بامرأة. لقد خيل إليّ أنّي قد بادلت الغرام خلسة فتاة فرعونية»

فيقان دينون

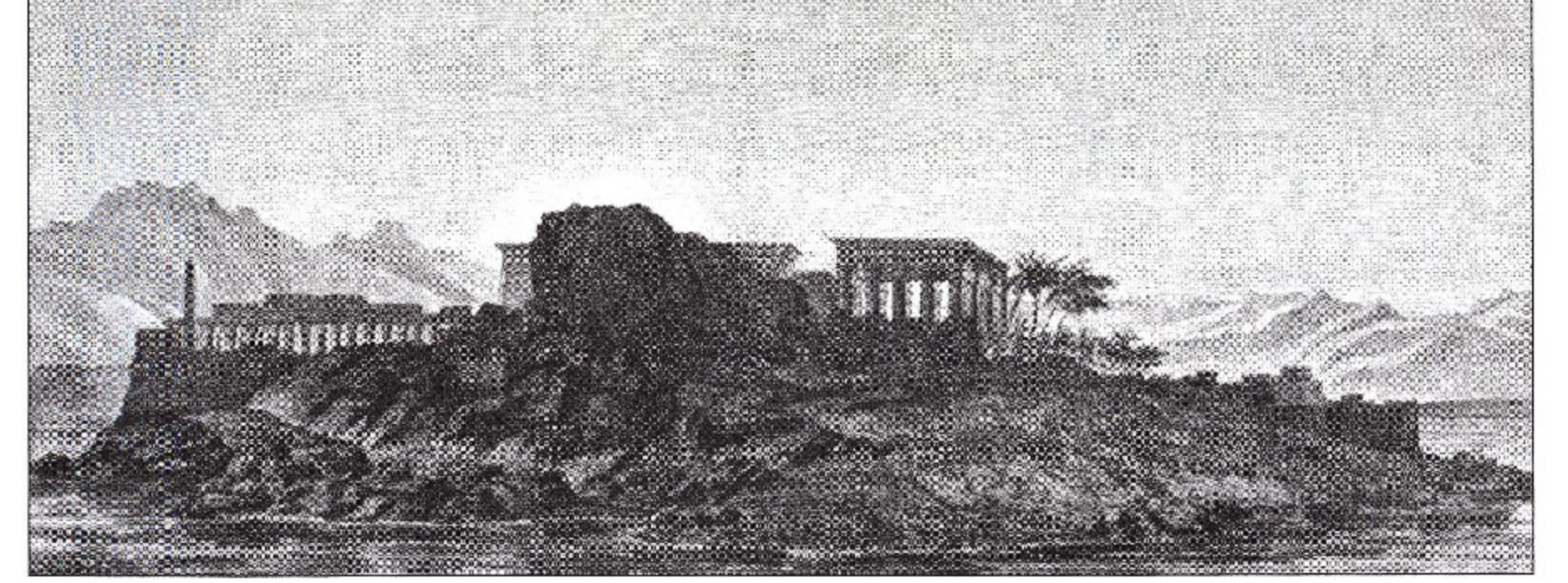


لوحة (٤٩) أطلال معبد بجزيرة إلفنتين





لوحة (٥٣) دينون، معبد الكرنك : « ما أكثر ما تصادفك مسئلة شاهقة مستقيمة تكسوها طبقة بيضاء من روث الصقور والحدآت يدق بسمكها كلما هبطت صوب القاعدة . وهي في تصوّري أثر فني لافت للنظر، بل إنني أكتشف فيه رمزية غريبة تشير إلى أن ربّة الطبيعة قد غضبت على آثار مصر التي ترفض أحجارها مدّ الطحالب بالغذاء فسُلّطت عليها الحدآت لتلطّخ بزبلها بعض مجدها القديم » .  
جوستاف فلوبير



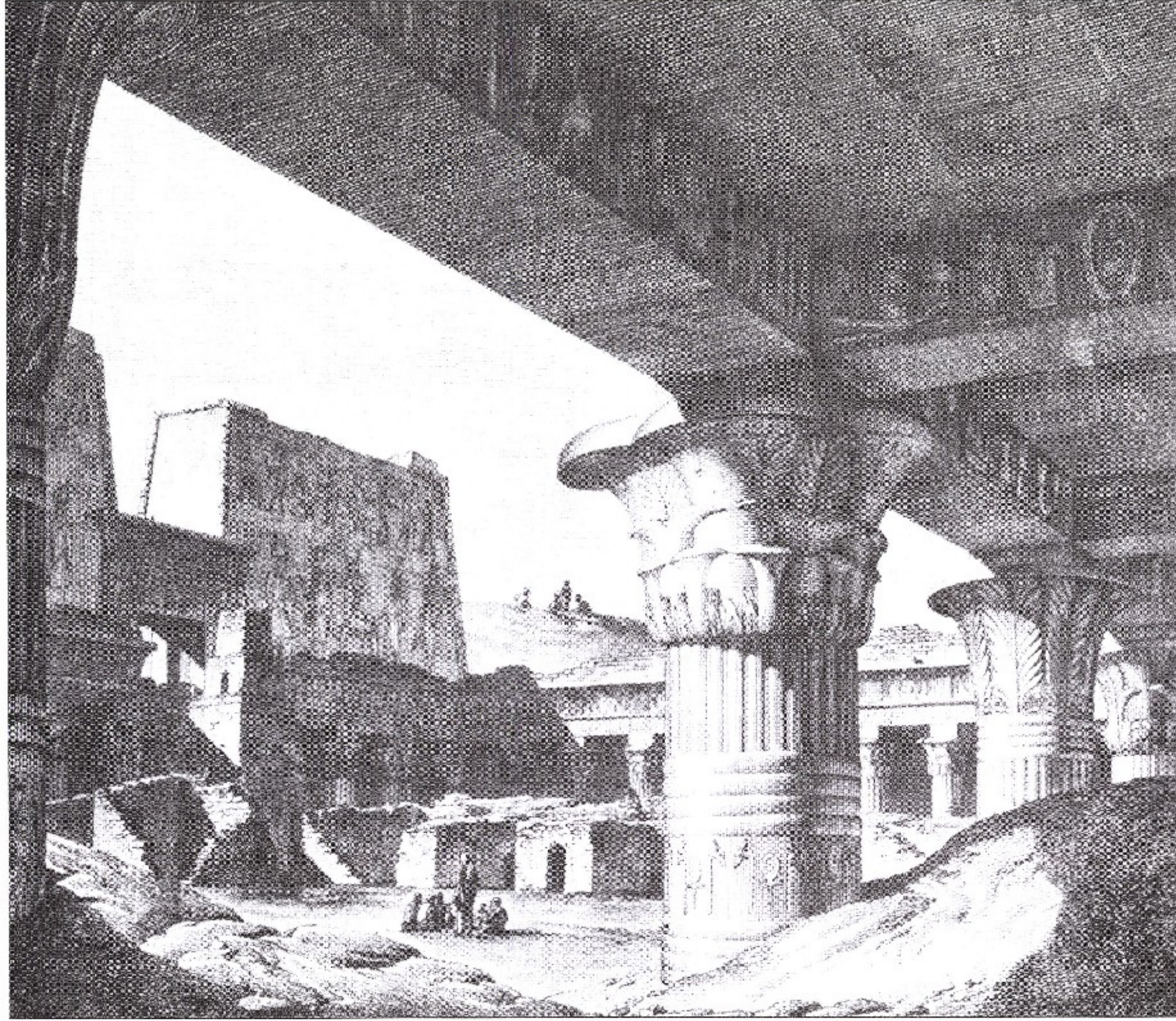
لوحة (٥٠) دينون، جزيرة فيله



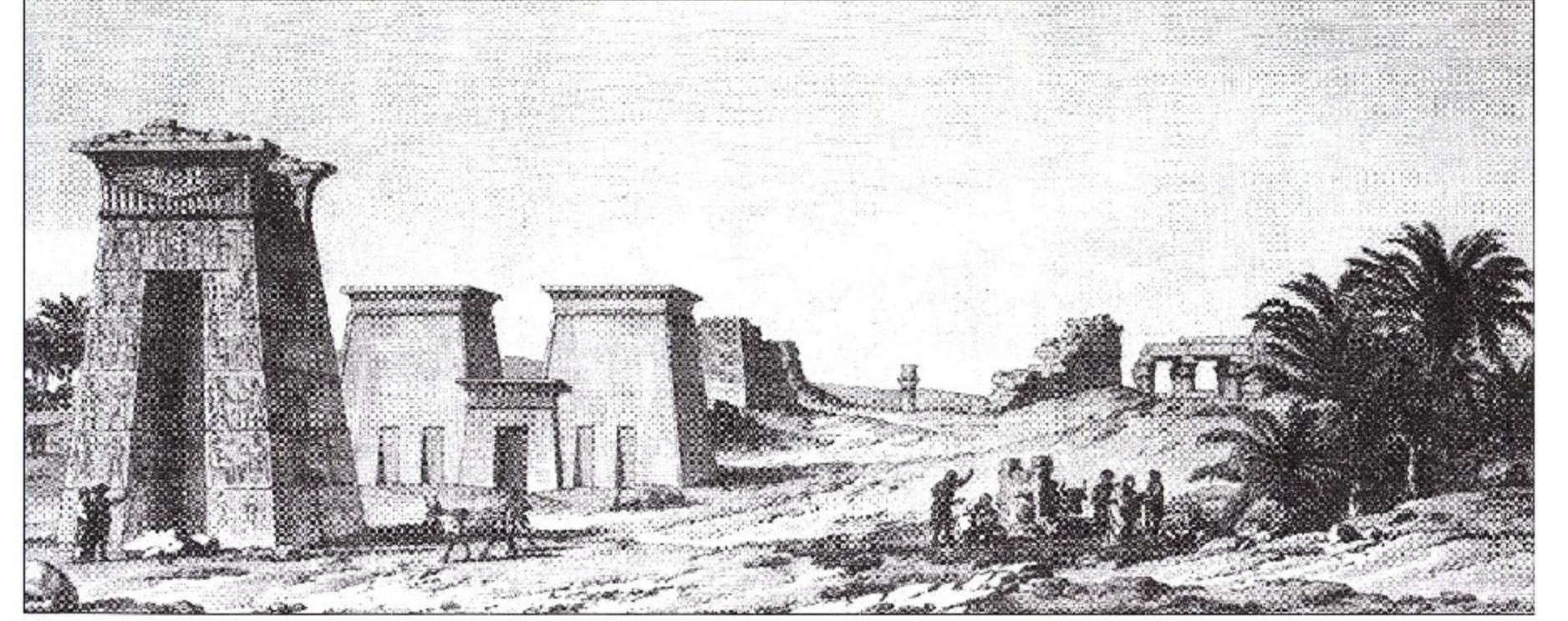
لوحة (٥١) دينون، طيبة : « ينبسط السهل الفسيح خلف الأقصر في اتجاه الكرنك وكأنه المحيط ..... ويتخذ ضوء القمر المنساب إلى أعماق الخليفة حيث نواة الكون ... وتتالق السماء بالنجوم التي تبدو الليلة وكأنها أهلة أو حبات عقود من الماس تناثرت هنا وهناك. ألا ما أفرها لغة تلك التي تشبه النجوم بالماس » .

جوستاف فلوبير

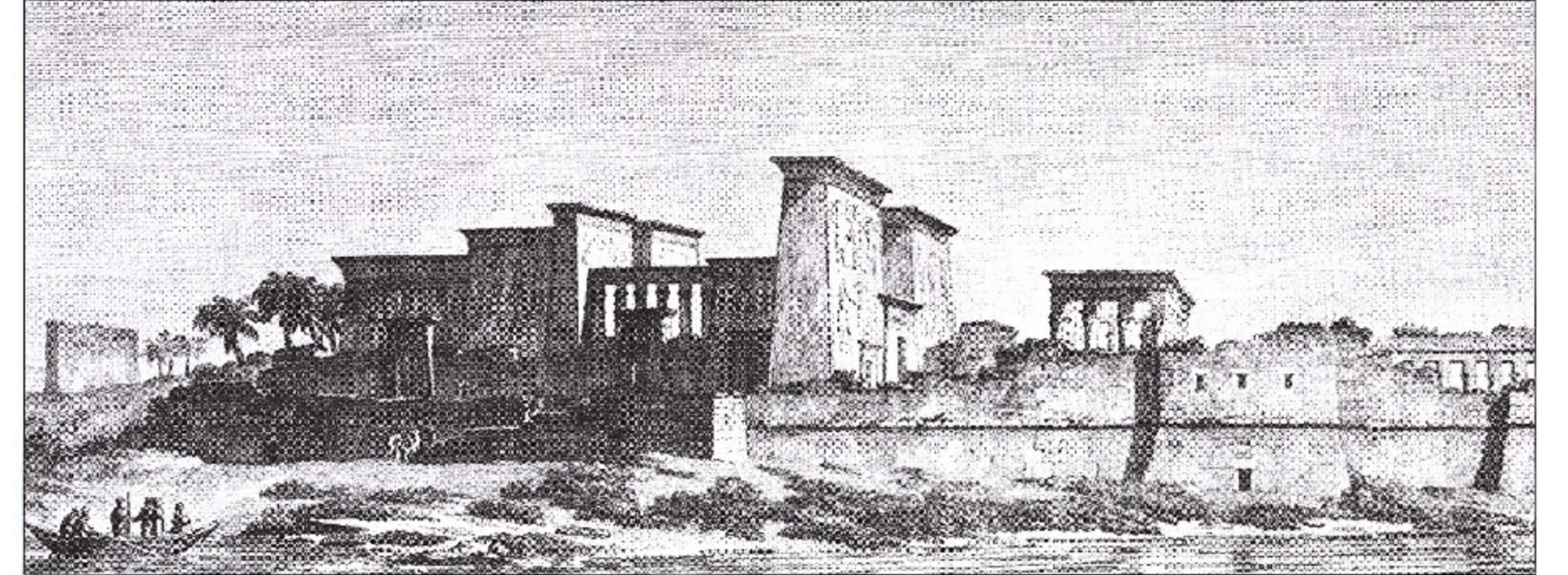




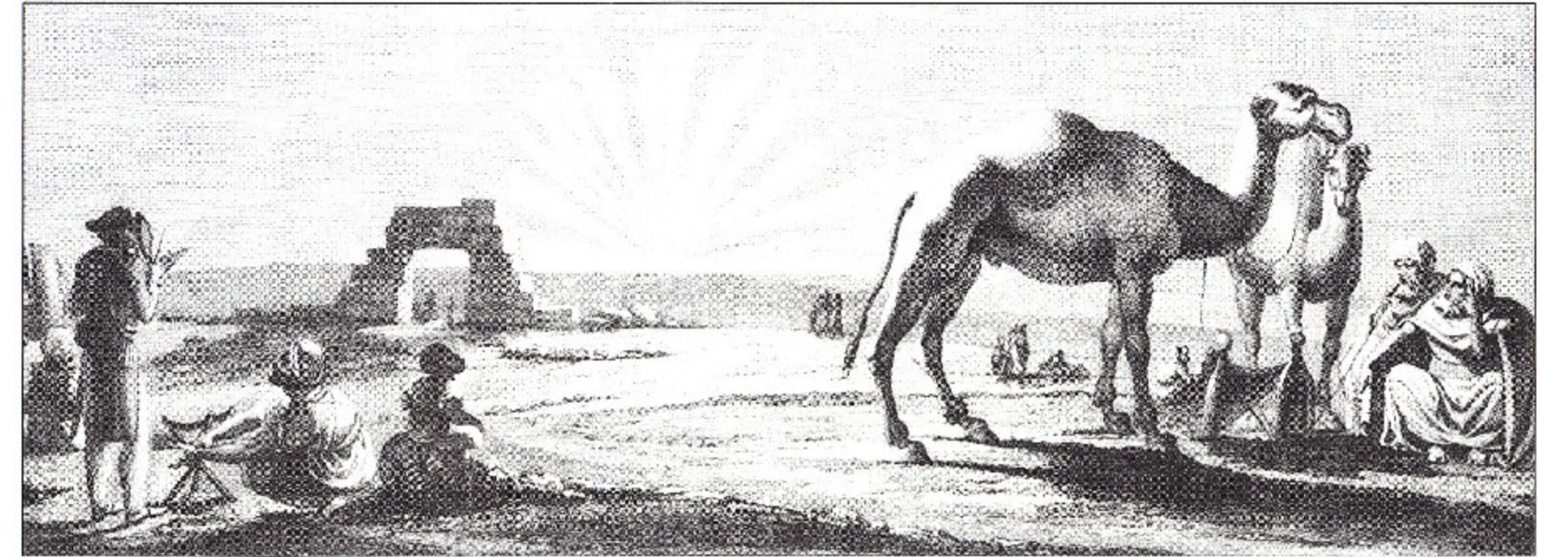
لوحة (٥٧) دينون . مشهد داخل معبد إدفو



لوحة (٥٢) دينون . معبد الكرنك

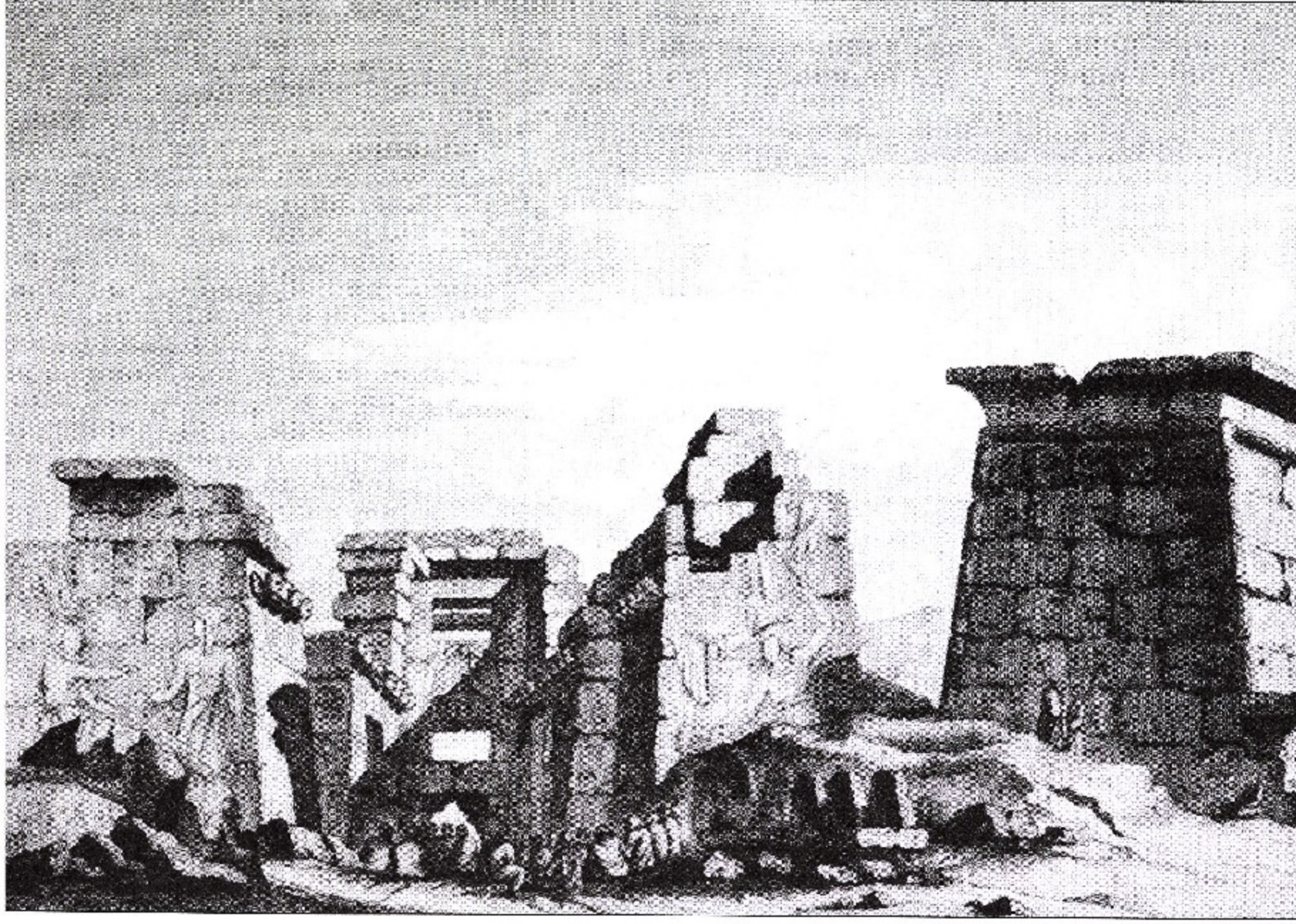


لوحة (٥٥) دينون . معابد جزيرة فيله



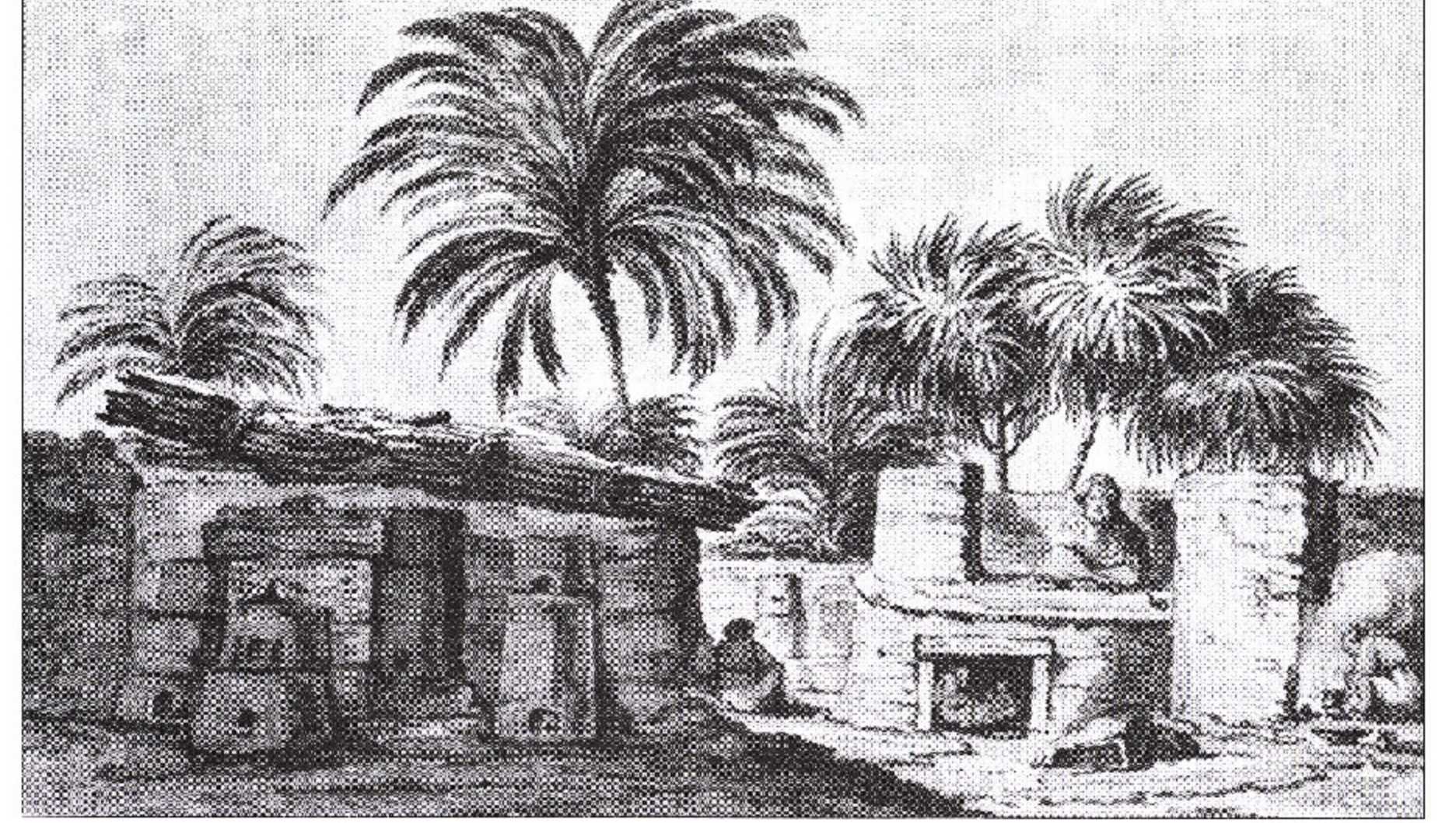
لوحة (٥٦) فيثان دينون أمام بوابة معبد هيراكونبوليس المتهدمة في زي مهترى وقبعة ممزقة وحذاء مثقوب ، برفقة خادمه النوبي ونوثة وجواده وحماره وكرسیه القابل للطي.



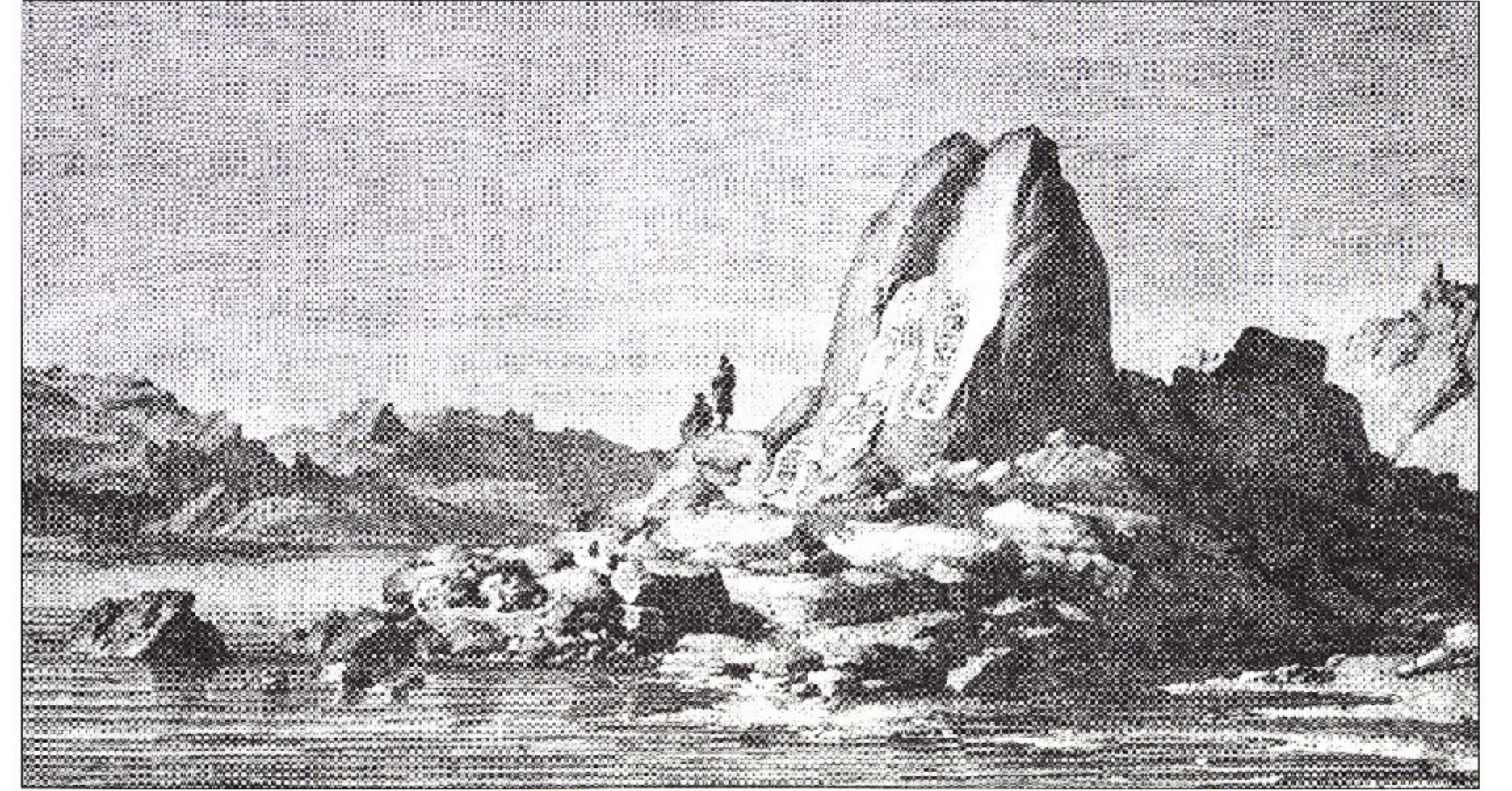


لوحة (٥٨) دينون . قصر بطيبة [هو في واقع الأمر معبد بمدينة هابو].  
« ما أشبه فضلات الطير التي تلتخ المبانى في مصر بالطحالب التي تغشى  
مبانى أوربا ، فهذه وتلك مظهر لاحتجاج الطبيعة على مايشيده الإنسان من  
مبان » .

جوستاف فلوبر



لوحة (٥٩) دينون . منزل نوبي قرب الشلال .

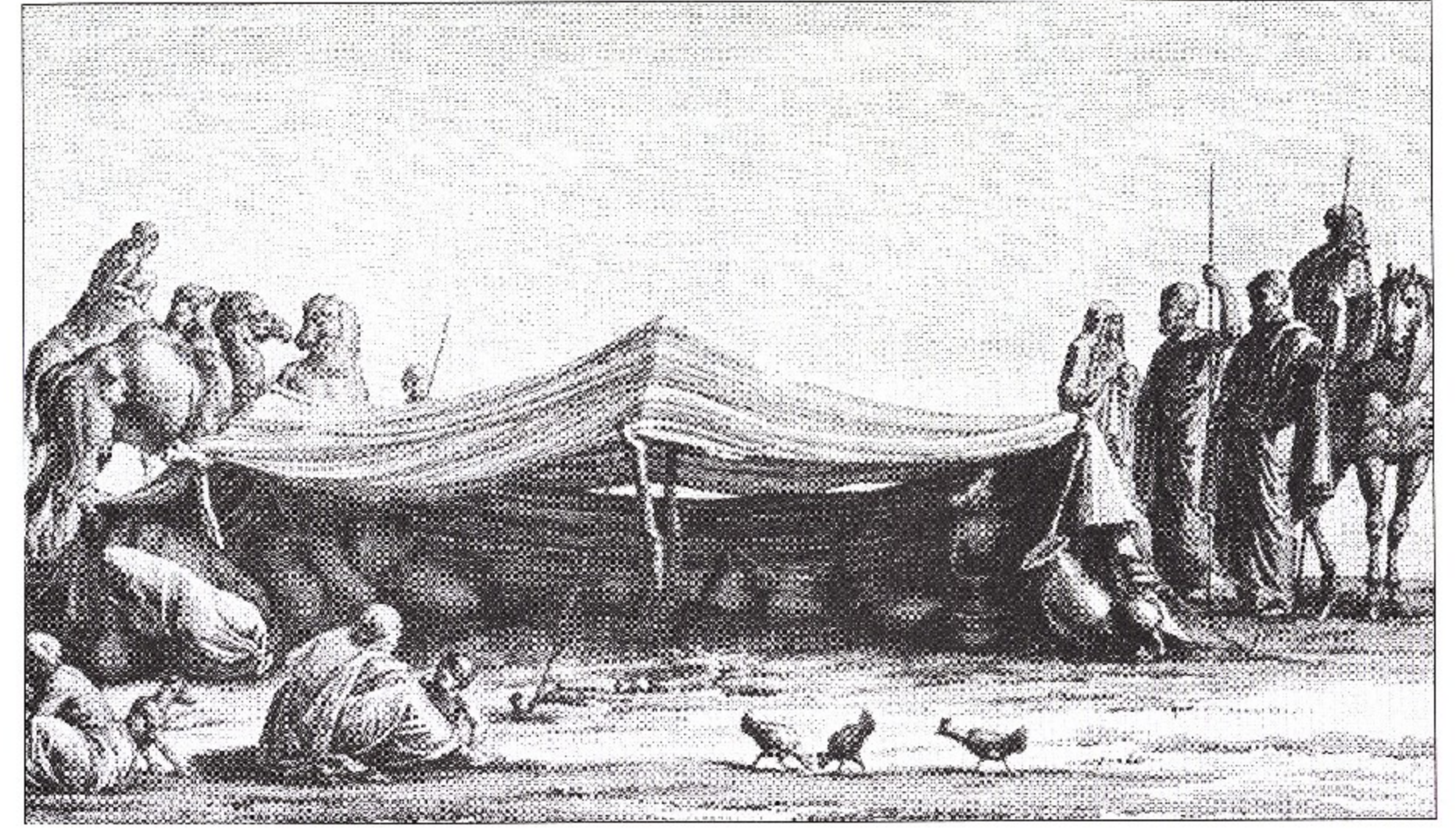


لوحة (٦٠) دينون . صخرة من الجرانيت بالقرب من فيله .





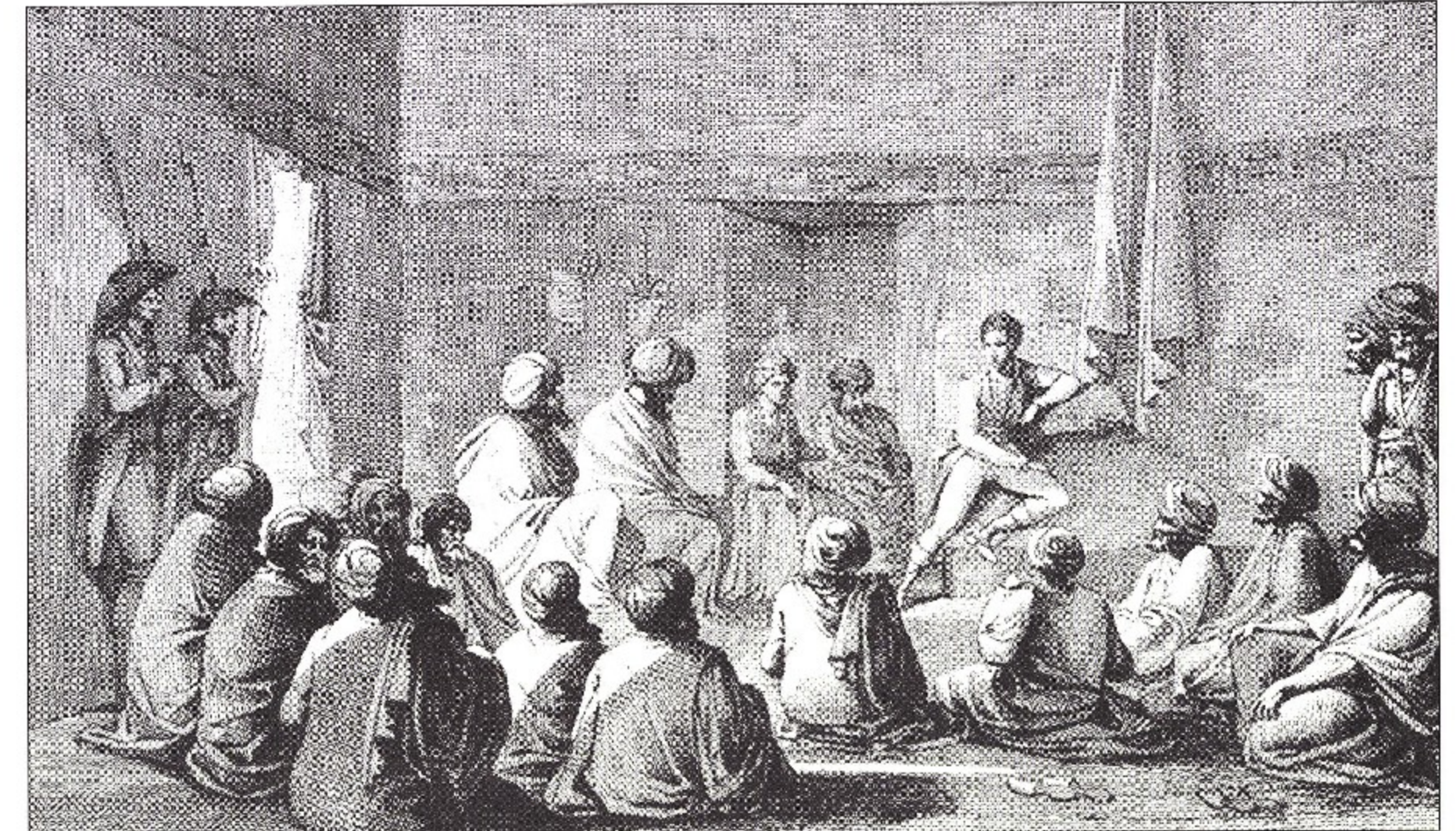
لوحة (٦٣) دينون . القيادة الفرنسية في جوف أحد المقابر قرب نجادة .



لوحة (٦١) دينون . خيمة بدوي

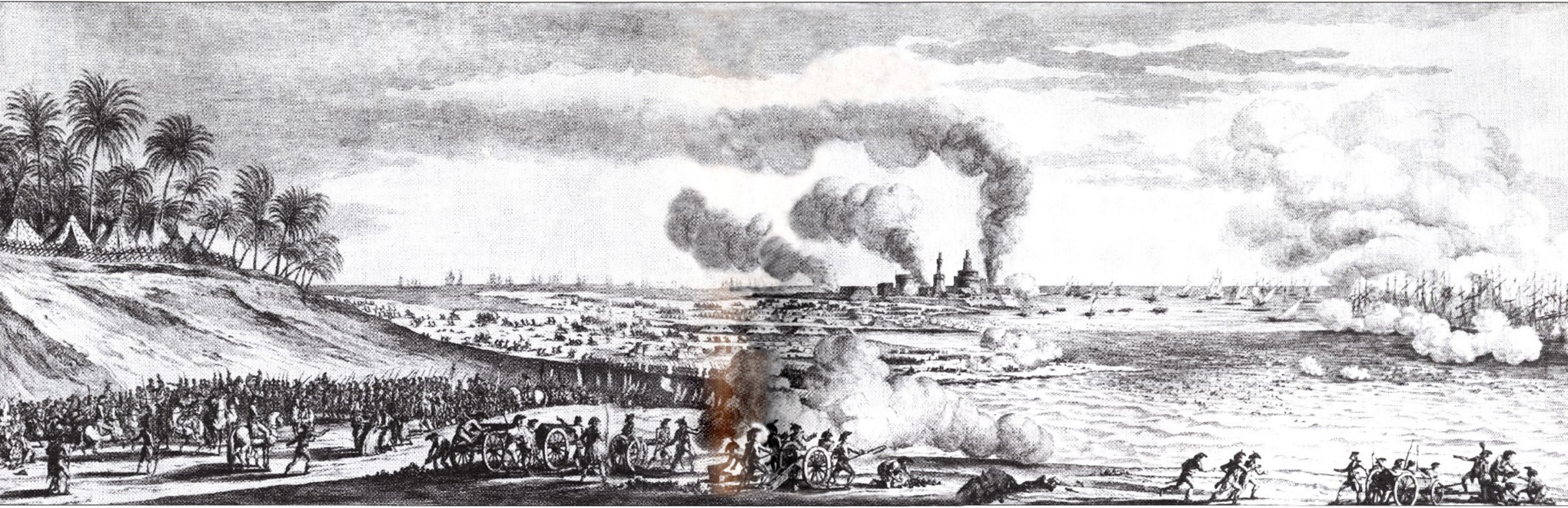


لوحة (٦٤) دينون . جندي فرنسي جريح يقود جنديا آخر فقد بصره وسط المقابر ، على حين قد انقض ابن آوى مع نسر على جثة جندي فرنسي ينهشان ما تبقى منها .



لوحة (٦٢) دينون . المحكمة العسكرية ، وقد اتخذ القاضي الفرنسي مجلسه إلى جوار علم الجمهورية الفرنسية وإلى جانبه مترجمان ، وجلس أمامه الشاكون والمشكو منهم .





لوحة (٦٥) دينون . معركة أبي قير البرية

« لحظة اندحار الأتراك . نرى فرساننا الفرنسيين يطاردون قلوب العدو وهم  
يفرون صوب البحر محاولين اللحاق بأسطولهم، غير أن نيران مدفيعتنا تردهم على  
أعقابهم لتقابلهم نيران المدافع والبنادق . وتكشف الأعلام والغنائم عن مدى انتصار  
الفرنسيين . ونرى بونايرت يعلو جواده في مركز القيادة الذي انتزعه من الأتراك  
والباشا الأسير الجريح يُساق إليه » . دينون





لوحة (٦٧) دينون . « معركة سدّ مويه بالقرب من بحر يوسف  
حيث يطارّد فرسان المماليك قُلُوب الجرحى من الفرنسيين . ويتصدّر  
اللوحة جندي يسحب زميله الجريح وقد غطى سمعه انقضاض  
فرسان المماليك » . دينون .

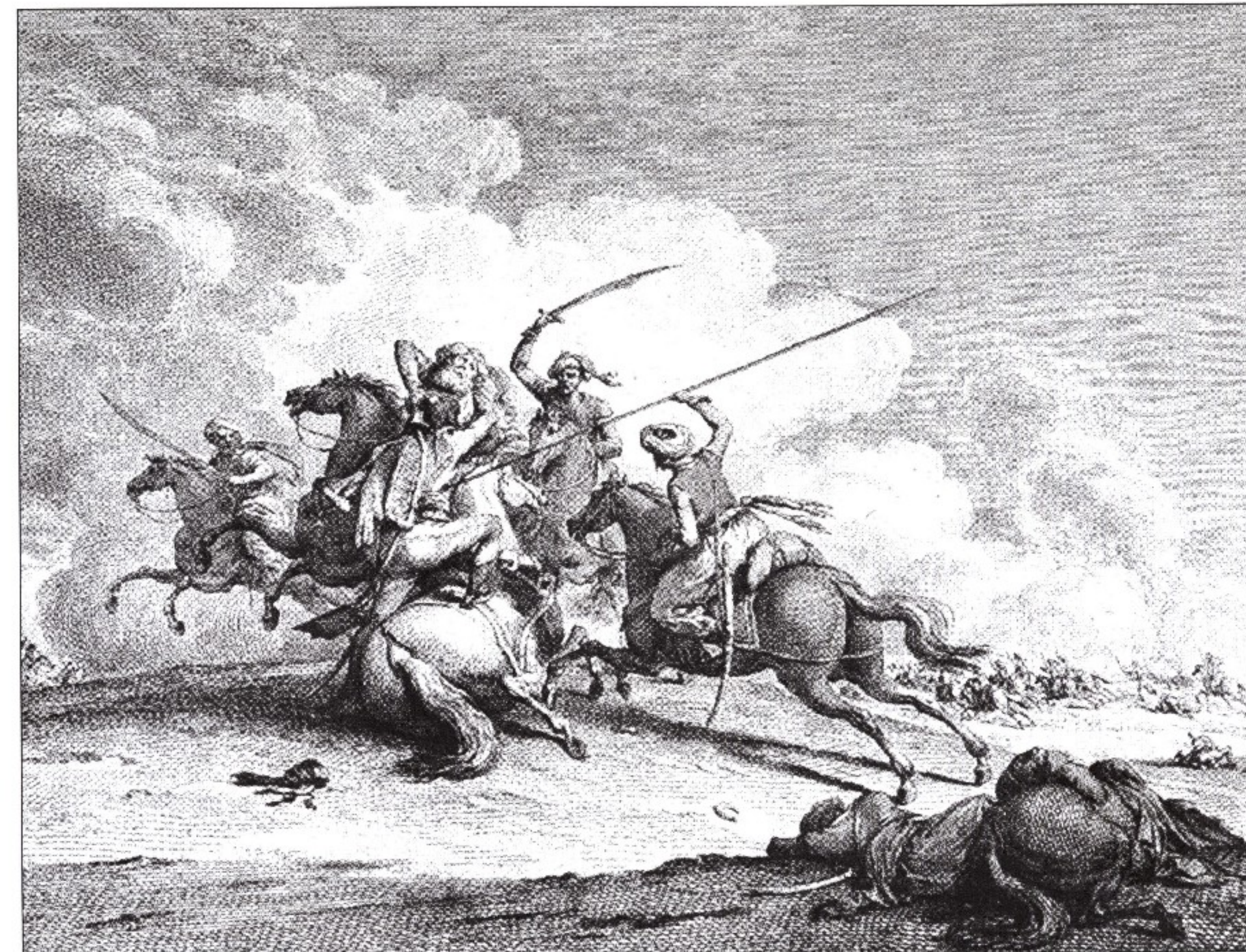


لوحة (٦٦) دينون . معركة سدّ مويه بمحافظة الفيوم [وردت خطأ  
في النص الفرنسي باسم سيدي مان] .  
« أسجل في هذه اللوحة اللحظة الرهيبة التي اضطرت فيها كتيبة  
المشاة إلى التخلي عن جرحاها عابرة الوادي صوب الهضبة التي  
انتصبت فوقها المدفعية لتحتمي بها . ويظهر البدو الأعراب وقد  
اندفعوا بدورهم فوق قمة الربوة تتنازعهم رغبة الظفر بأكبر قدر من  
الغنائم من خلال اجتياح المدفعية أو ضرب بقايا المشاة . ويغطي  
صدر اللوحة أعداد القتلى والجرحى اليأساء الذين يبرز من بينهم  
جندي يحاول إنقاذ زميله الجريح الذي يتوسل إليه أن يقلت بحياته  
قبل قوات الفرصة ، على حين يخفي جريح ثالث وجهه كي لا تقع  
عيناه على الموت الذي يترصده ليلتمس من رفاقه القضاء عليه قبل  
أن ينال منه [البرابرة]! لقد بقيت مظاهر الشجاعة واحدة على مرّ  
الزمن ، فعندما أحسّ مارك أنطونيو دنو أجله ناشد كليبواتره ألا  
تذرف الدمع عليه بعد حياة حافلة بالأمجاد ، سعيدا بأن هزيمته لم  
تأت إلا على يد روماني مثله . دينون .

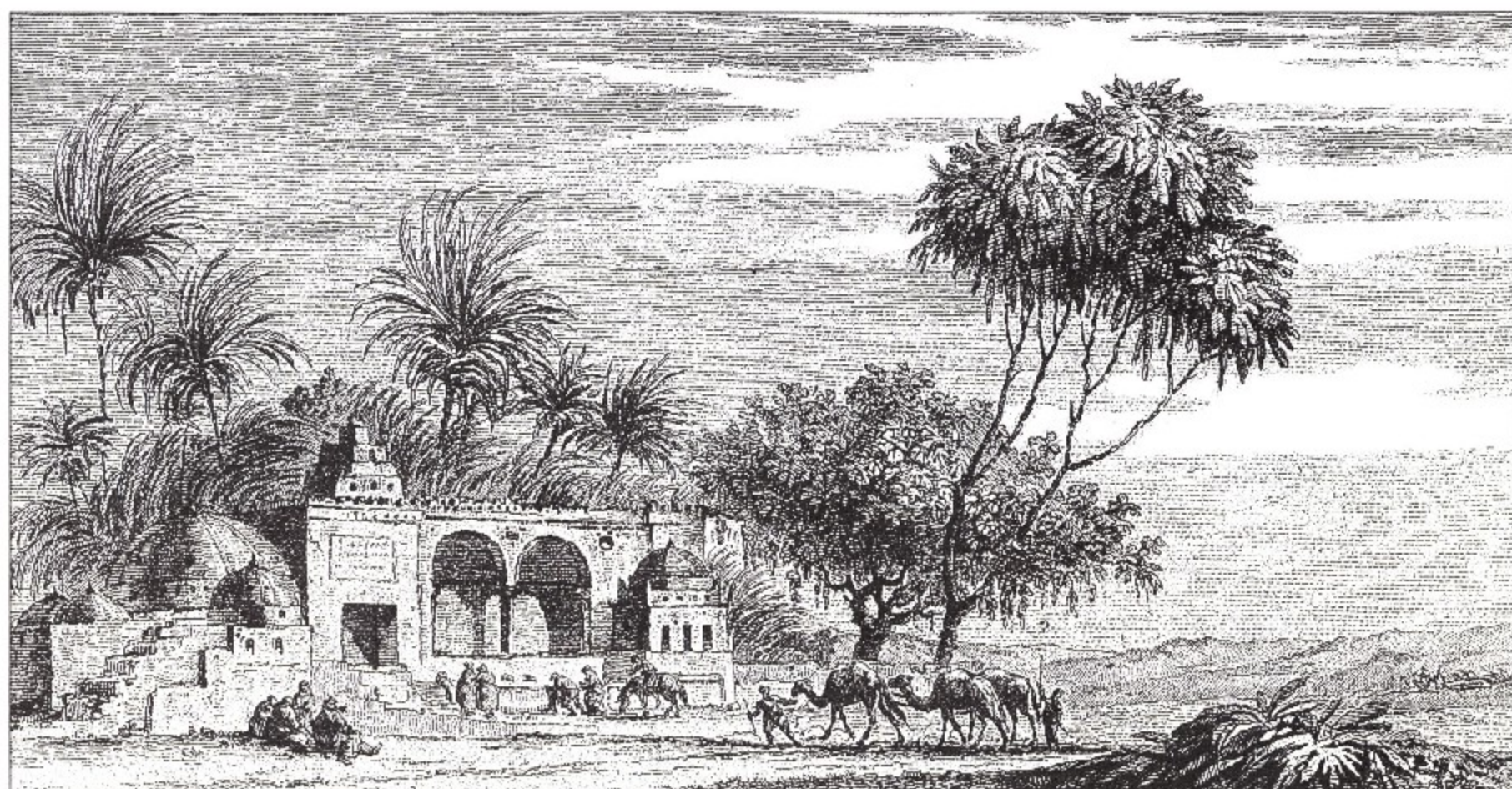




لوحة (٧٠) دينون. اجتماع شعبي تحت شجرة الجميز الضخمة يناقش فيه الأهالي شؤون الري ويحددون الترع الواجب شقها لاستقبال مياه الفيضان ويتقاسمون النفقات ، كل قرية حسب ما تنال من فائدة .



لوحة (٦٩) دينون . قتال متلاحم بين أمير اللواء دويليسيس والمملوك عثمان ، خرّ الأول فيه صريعاً.



لوحة (٧١) دينون . خان القوافل . وتبدو أشجار الدوم والتمر حنة والنخيل التي تضيء على الخان الطابع الشرقي .





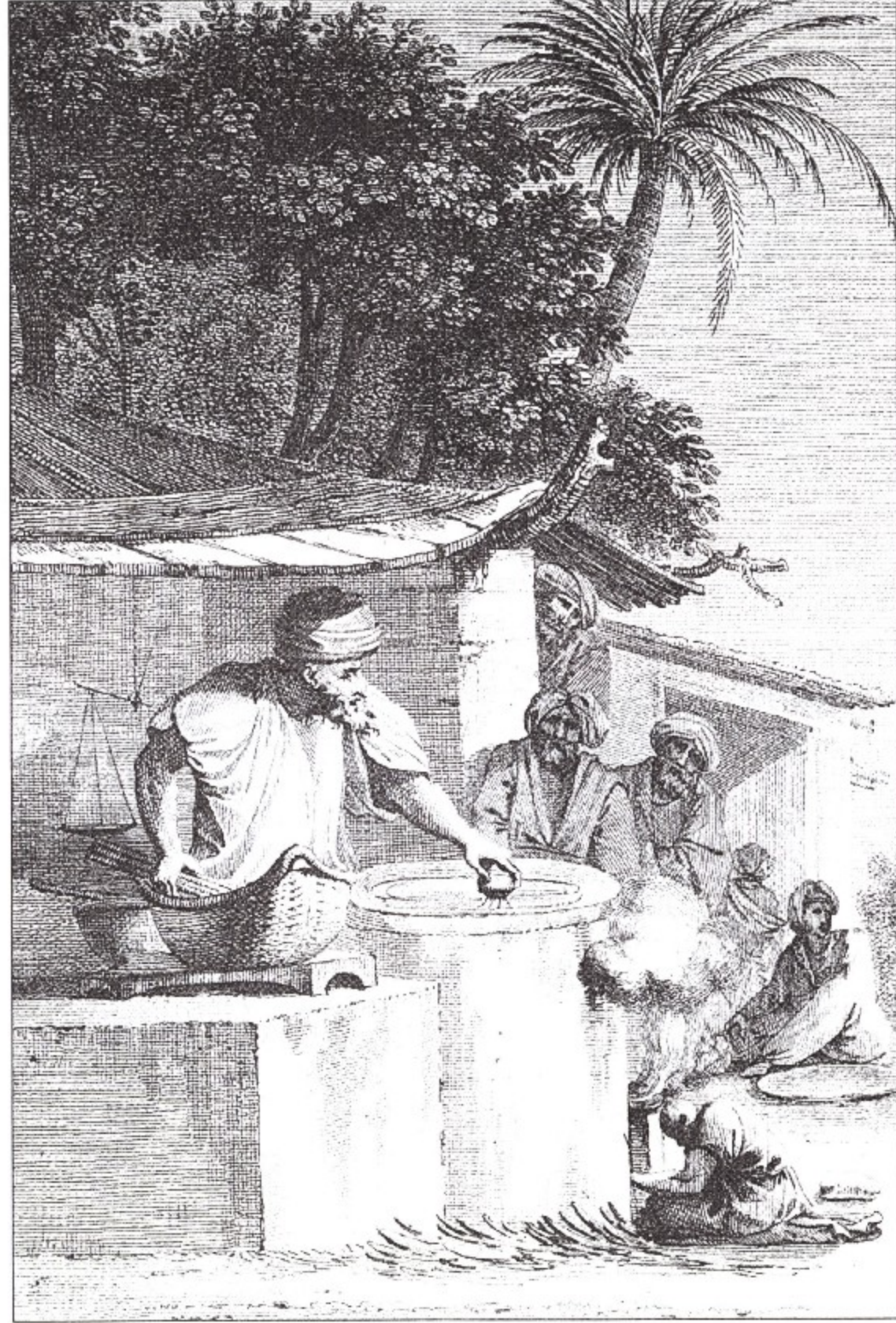
لوحة (٦٨) دينون . معركة الأهرام

« فيلقان من المماليك يهاجمان فرق الجنرالات دوجو ودسيه ورينييه ، ويتصدى الآخر لكتيبة الجنرال راميون ، في محاولة لتصوير إحدى هجمات المماليك التي كنت شاهد عيان لها عدة مرات ، والتي كانت تشدهني بسرعتها المذهلة وفروسياتها الباسلة والتضحية المنقائية بالأرواح . كذلك سجلت تأثير شظايا القنابل على فرسان المماليك وهم يقتحمون صفوفنا في شجاعة نادرة حتى بلغوا فوهات المدافع . وشاهدت رجال إسعافهم يجوسون خلال صفوف مقاتليهم لانتشال أجساد الجرحى ، وجمالهم المحملة تروح وتغدو . ويبدو النخيل بأعذاقه فوق الأرض

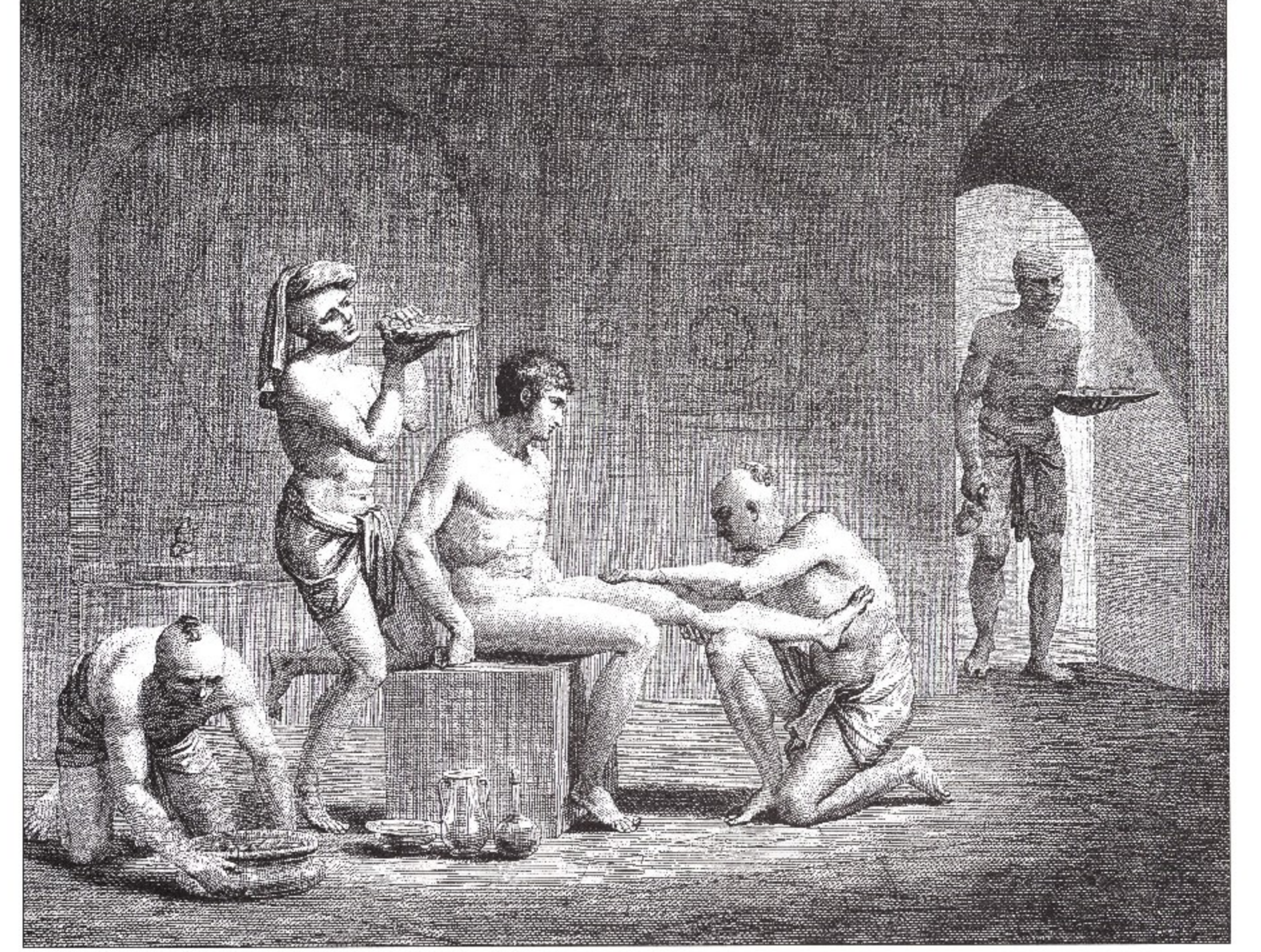
المشقة بفعل الفيضان ولهيب الشمس وكل ما يميز طابع البلاد الفريد . وإلى يمين اللوحة يمتد الطريق المؤدى إلى السويس وإلى آسيا . ونرى فيلق إبراهيم بك ومدينة القاهرة عند سفح جبل المقطم وقناطر المياه التي تصل إلى مصر القديمة وأمامها نهر النيل يضم جزر الروضة وبولاق وسفينة قيادة مراد بك التي أشعل فيها النار خلال المعركة . وعلى الضفة الأخرى من النيل نرى الجيزة وقصر مراد بك والهضبة التي تضم أهرام سقارة والجيزة ، وهي الموقع الذي كانت تحتله منف القديمة . وفي مؤخرة الصورة تظهر سلسلة الجبال الليبية .»

دينون



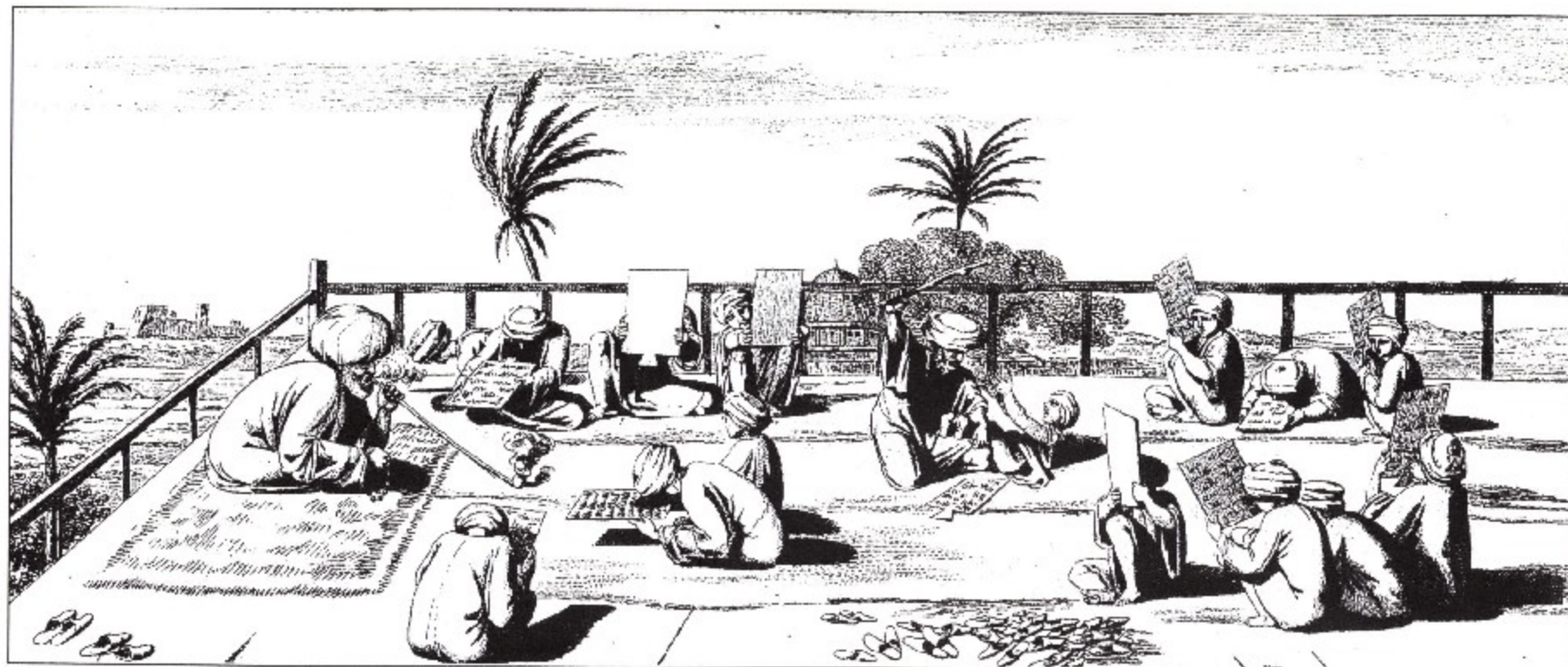


لوحة (٧٣) دينون . بائع الكنافة « المكرونة المصرية ».

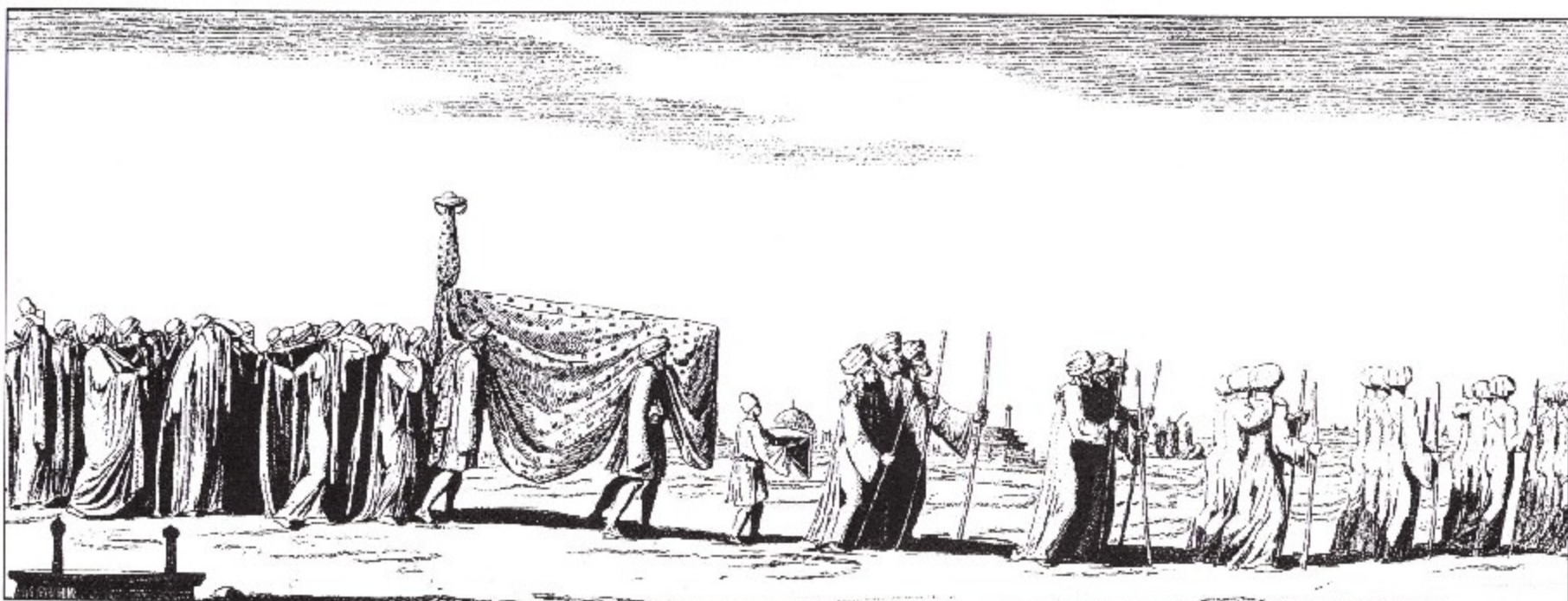


لوحة (٧٢) دينون . حمام عام بالقاهرة . ويبدو بإحدى قاعاته الخاصة شخص مرموق وقد جلس فوق مقعد من الرخام إلى جوار حوض الماء ودنا منه رجل يمسك كفه في كيس من الصوف السميك الناعم الملمس وانبرى بذلك به جسده بعد أن ألانت الأبخرة المعطرة بشرته ونفذت إلى مسام جلده، على حين يصب غلام آخر الماء الساخن على جسده ، ويعدّ ثالث المبخرة ويحمل صبي القهوة .

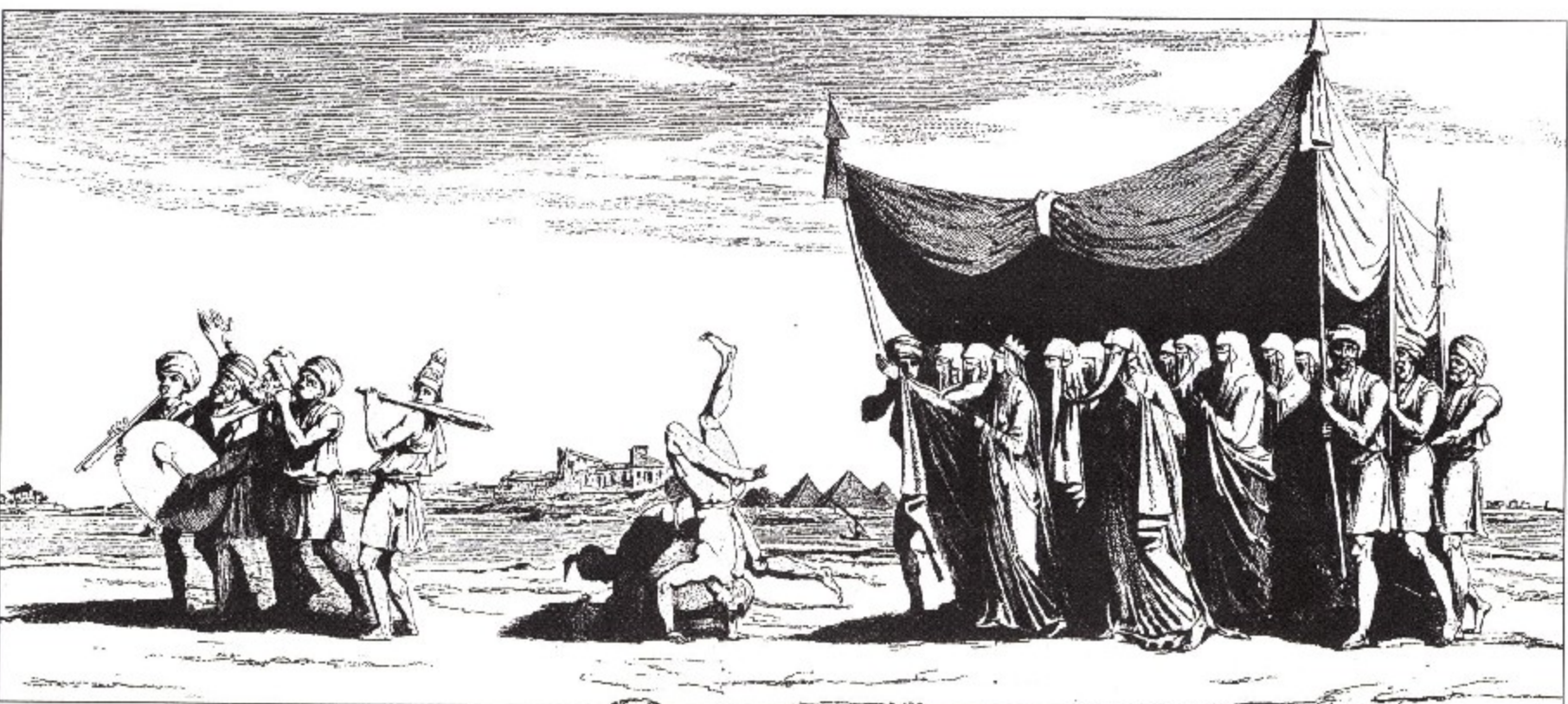




لوحة (٧٧) دينون. كُتَاب الصَّبِيَّة



لوحة (٧٨) دينون. جَنَازَة



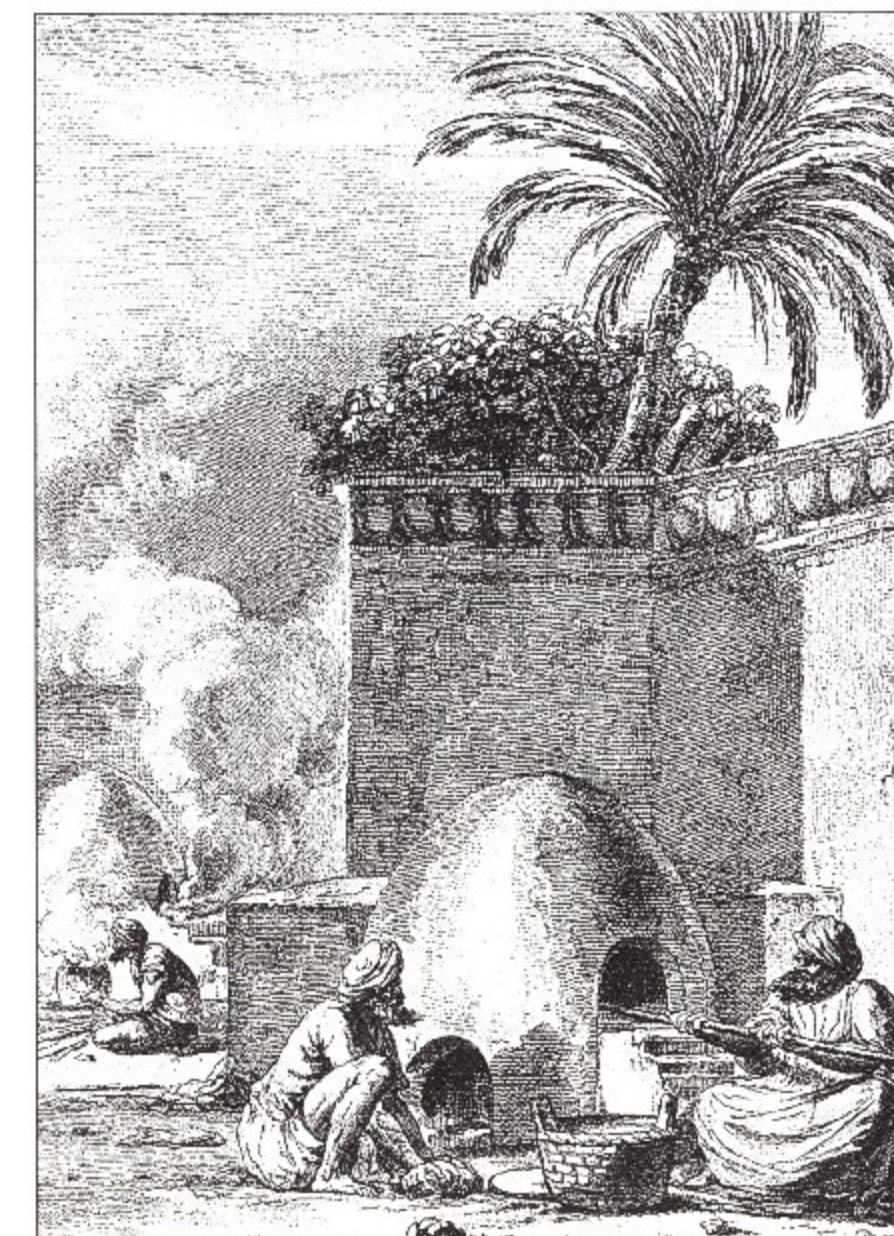
لوحة (٧٩) دينون. موكب زفاف



لوحة (٧٦) دينون: راهب يوناني وقس قبطي وتاجر يهودي ومواطن رومي من رشيد



لوحة (٧٥) دينون. الحلاق في دكانه

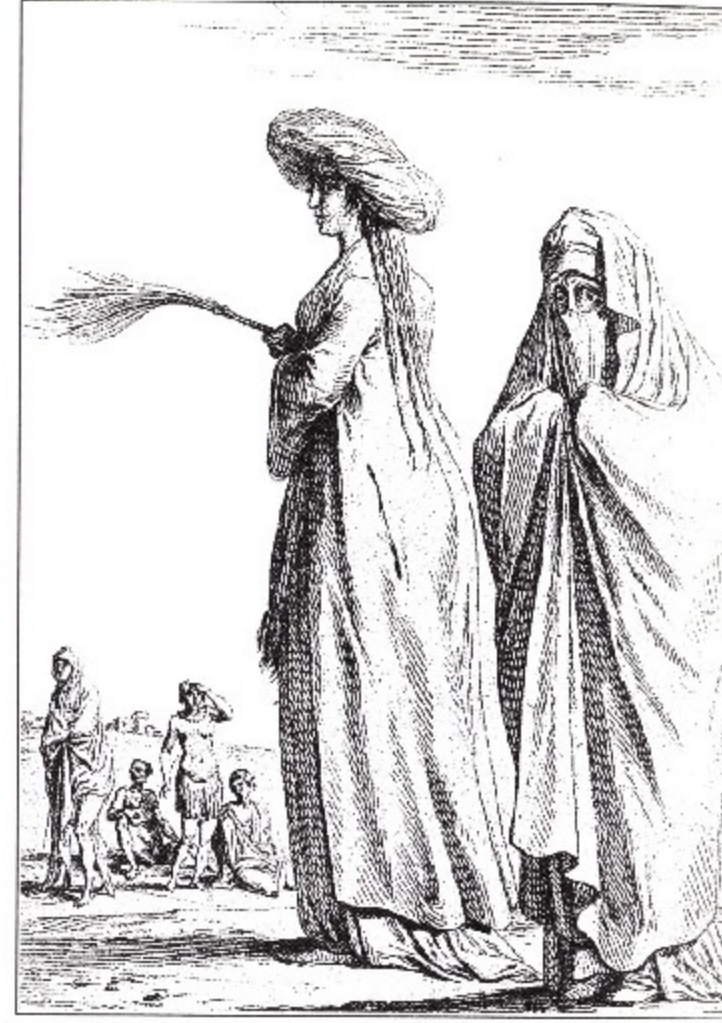


لوحة (٧٤) دينون فرن مصري.





لوحة (٨٥) دينون . سيدة مصرية بالحرملك



لوحة (٨٤) دينون . سيدة كريمة المحقد تحمل مذبة



لوحة (٨١) دينون . سيدة محجبة أثناء سيرها في الطريق العام



لوحة (٨٠) دينون . سيدة مصرية بالحرملك



لوحة (٨٧) دينون . مجذوب القرية يسخر منه القوم إبان حياته ليقدسوه بعد مماته .  
يقعى خلفه كلب ويمر به كهل ضريير .



لوحة (٨٦) دينون . مملوك في برزة رسمية تنسدل أكمامها  
مخفية الكفين تعبيراً عن احترامه لرؤسائه



لوحة (٨٣) دينون . عالمة



لوحة (٨٢) دينون . أحد أهالي دارفور من قادة قوافل العبيد الوافدين من السودان





لوحة (٩١) دينون . شيخ



لوحة (٨٩) دينون . تاجر



لوحة (٨٨) دينون . فلاح من الصعيد يحمل باكورة محصول البرسيم .



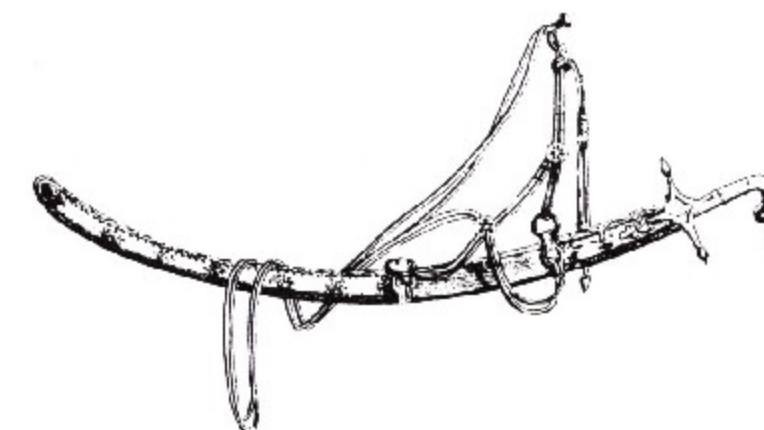
لوحة (٩٢) دينون . شحاذ كيف يقوده صبي



لوحة (٩٠) دينون . مملوك بزي القتال .



الفيلق الثقافي





لم يكن بين أفراد الفيلق الثقافي الفرنسي الذي نزل أرض مصر من يعرف بالتحديد ما سوف يلقاه من مشاق خلال جولتهم بين ربوع تلك البلاد الجديدة عليهم غير أولئك الذين أتاح لهم الحظ أن يقرؤوا وصف قولني لمصر بصدق الواقعي ، وهؤلاء لم يدهشوا أو يفاجؤوا أو يصابوا بخيبة أمل مثل أولئك الذين غررت بهم كتابات الأديب الشاعر المرح «سافاري» الذي لم يجد مصر إلا قطعة من الجنة تنهادى بين جنباتها فتيات أقرب إلى الحور العين . ولا شك أن هذه الجمهرة ممن خدعهم حديث سافاري قد تلبثوا لحظات يحطون فيها سابقهم سافاري بوابل من ألفاظ السباب وبمختارات من الشتائم قبل أن يبدؤوا رحلة تمتاز فيها المتعة بالعذاب وتشابك فيها فرحة اكتشاف الجديد بجهد السير في أرض وعرة يقسو فيها القيظ ويشح فيها الماء .

والحق أن الأسابيع الأولى التي تلت وصول أعضاء لجنة العلوم والفنون إلى مصر كانت مشحونة بالصعاب ، ولم يكن لدى الجنود فسحة من الوقت يعنون خلالها بالعلماء الذين كانوا يتناولون طعاما لم يعتادوه ملتحقين أثناء نومهم بنجوم السماء . ولا شك أن نفوسهم كانت تذهب حسرات على حياتهم الباريسية الهائلة المنتظمة في المتاحف أو في مدرسة البوليتكنيك أو في معاملهم أو في المكتبات العامة . وكان بينهم بلا شك رجال أشداء من الأطباء والجراحين وعلماء الميكانيكا ومهندسي الكباري والمطابع إلا أنه كان من بينهم أيضا رجال رفاق الحاشية ممن يزاولون في مكاتبهم أو معاملهم العلوم البحتة من هندسة وفلك وعلوم الحيوان والنبات والمعادن ومن الفنانين والصحفيين وعلماء الآثار والاقتصاديين الذين ما لبثوا أن هزتهم ظروف القتال القاسية وبلبلت أفكارهم . هذا إلى الجو العدائي الذي وجدوه يحاصرونهم ، وإلى شدة حرارة الطقس وارتفاع درجة الرطوبة في الصيف والاعتراب في بلاد لا يعرفون لغتها أو دينها أو تقاليدها ، ومن هنا كان صبّ اللعنات على سافاري متدفقا من ألسنتهم صباح مساء . على أن دخول بونايرت إلى القاهرة قد هبأ لهم بعض أسباب الراحة في مساكن لا ثقة بعد ما عانوه في حياة المعسكرات ووسط المعارك وإرهاق السير الحثيث .

وعلى غرار المجمع الوطني بباريس أنشأ نابليون «المجمع العلمي المصري» الذي لم يعين فيه بطبيعة الحال جميع أعضاء «لجنة العلوم والفنون» بل اقتصر في أقسامه الأربعة على الصفوة الممتازة، وكان مونج رئيسا للمجمع على حين كان نابليون نائبا للرئيس . على أن إنشاء هذا المجمع العلمي قد أشعل حماسة سائر أعضاء لجنة العلوم والفنون وغدا مقرها مركز الباحثين والأدباء والفنانين الوافدين<sup>(١٧)</sup> . وقد اختير للمجمع مقر مناسب حين اكتشف مونج وبرتوليه وكافاريللي على مقربة من مسجد السيدة زينب عددا من القصور المحاطة بالحدائق التي خلفها أمراء المماليك الذين تراجعوا إلى الصعيد مع مراد بك بعد معركة الأهرام ، مثل بيت حسن بك الكاشف وقاسم بك وإبراهيم بك السناري الذي ما يزال قائما إلى اليوم والذي تحول وقتذاك إلى «متحف بونايرت» ، وبطبيعة الحال كانت هذه القصور أفضل من الأطلال التي عاشوا في ظلها بالإسكندرية ومن المخيمات المضروبة في الصحراء . وفي بيت حسن الكاشف أنشئت معامل الكيمياء والطبيعة والمكتبة وأول متحف للعاديات المصرية يحتوي على بعض التوابيت وحجر رشيد الذي اكتشفه الضابط بوشار<sup>(١٨)</sup> ، كما ضم قاعة الاجتماعات الكبرى التي كان نابليون يحضرها أحيانا إلى جانب القاعات الصغرى التي تجتمع فيها اللجان المختلفة . ومضى النشاط في المجمع نابضا بالهمة والحماسة والاستقرار باستثناء الفترة التي انعزل فيها المجمع خلال ثورة القاهرة ، وبات جميع العلماء ناعمين بحياتهم منكبين في رضا على جهودهم العلمية الجادة حتى لقد أخذت صحاباتهم سخطهم على سافاري تنقش شيئا فشيئا من سمائمهم .

وكانت المهمة الأولى للملقاه على عاتق المستشرقين المرافقين للحملة الفرنسية أن يقيموا جسر نقاء ومودة بين الشعب المصري والسلطات الغازية من خلال تقديم ترجمات يسيرة الفهم على عامة الشعب لبلاغات القيادة العامة وتوجيهاتها . وكانوا قد صحبوا معهم من فرنسا أهم المؤلفات العربية المطبوعة ليجتذبوا بها المثقفين ، صفها عالم الآثار ريبو بعناية على أرفف مكتبة المجمع . وبالفعل أخذ يتردد عليها بعض المصريين للتزوّد مما احتوته من معارف على نحو ما سبق أن ذكرناه مما سجله عبد الرحمن الجبرتي من وصف لزيارته للمعهد العلمي ومشاهدته لمكتبهم وصورهم وأطالسهم .

وكانت العلاقة بين الغرب والشرق قد ارتكزت منذ منتصف القرن الثامن عشر على عنصرين ، أولهما اتساع معارف أوروبا عن الشرق بفضل اهتمامها بكل ما هو ناء غريب غير مألوف ، وهو ما تمثل في حصيلة ضخمة من الأدب صاغها روائيون وشعراء ومترجمون ورحالة موهوبون ، وثانيهما هو تفوق أوروبا العسكري والاقتصادي على الشرق . وقد شكّل الاستشراق مجموعة من العلماء الأفاضل ، وأثرى عدد اللغات الشرقية التي تدرس في الغرب ، وعكف على تحقيق عدد لا يحصى من المخطوطات الشرقية وترجمتها والتعقيب عليها ، كما زوّد دول الشرق بعدد من الدارسين المتعاطفين معه الشغوفين بلغاته . وأخذ المستشرقون يتلقون تدريجا جامعا مكثفا بعد أن غدا لكل جامعة أوروبية هامة برنامج دراسي كامل في مادة أو أكثر من مواد الدراسات الشرقية . وبات الاستشراق يحظى بالدعم المالي من الحكومات والمؤسسات العلمية التي أتاحت له طبع دراساته ونشرها حتى لقد ظهر في الفترة ما بين عامي ١٨٠٠ و ١٩٥٠ حوالي ستين ألف كتاب عن الشرق . على أن هذا لا يمكن أن يخفي الدور الكريه الذي لعبه بعض المستشرقين في التمهيد

(١٧) ضم قسم الرياضيات  
مونج وچيرار وفورييه  
وكوستاز ، وضم قسم  
الطبيعيات بيرتوليه وكورتيه  
ودينيت وچوفروا سانت  
إيلير ، وضم قسم الآداب  
والفنون فيثان دينون  
والمصورين دوترتر وريدوتيه  
والشاعر پارسيقان والمستشرق  
فتور ، وضم قسم الاقتصاد  
السياسي الجنرال عانم  
الاجتماع كافاريللي  
والبروقنصل تالين  
والدبلوماسي بوسيلج .

(١٨) Capitaine Bouchard



للاستعمار ، إذ كانت عيونهم تجوس خلال المشرق لتكشف ما يحقق مصالح دولهم الكبرى فيه ، فعرض المستشرقون - كما يصفهم إدوارد سعيد في كتابه الرائد الشائق «الاستشراق» - الشرق في مسرحية جميع من شاركوا فيها من مؤلفين ومخرجين وممثلين ومشاهدين يعملون لما يُشبع الأغراض الأوروبية ، إذ بدا فوق هذه المنصة المسرحية نتاج ثقافي ضخم تمتلئ عناصره بكل ما هو رائع مما يثير الخيال الأوروبي ويلهب حماسه . وهكذا تواكب الاستشراق مع التوسع الاستعماري الأوروبي ، ففي الفترة من عام ١٨١٥ إلى ١٩١٤ ازدادت رقعة الاستعمار الأوروبي من ٣٥ ٪ من سطح الكرة الأرضية إلى ٨٥ ٪ ، وتشكلت فوق الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط حتى الهند الصينية والملايو أكبر إمبراطوريتين هما البريطانية والفرنسية اللتان كانتا شريكتين وحليفين في بعض الأمور ومتنافستين متخاصمتين في أمور أخرى . ولعل تنافسهما لم يبلغ قمته بمثل ما بلغه في منطقة الشرق الأدنى حيث تربعت عقيدة الإسلام<sup>(١٩)</sup> . على أن التنافس بين إنجلترا وفرنسا قد بدأ في الهند وجزر الهند الشرقية إلى أن حُسم لمصلحة إنجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مما دعا نابليون بونابرت وغيره إلى التفكير في ضرب مصالح إنجلترا بالهند عن طريق الشرق الأدنى ، الأمر الذي أسفر عن الحملة الفرنسية وعن البعثات السياسية المتوالية إلى إيران التي غدت محط التنافس السياسي بين القوتين .

E.Said: (١٩)  
Orientalism .

وكانت كثرة المستشرقين المصاحبيين للحملة قد اختيروا من بين القناصل ذوي الخبرة الطويلة أو المترجمين العاملين بسفارات الشرق الأدنى أو من بين تلامذة مدرسة اللغات الشرقية بباريس التي حلت محل هيئة المتخصصين في لغات الشعوب المزمع استعمارها<sup>(٢٠)</sup> والتي أسسها كولبير بأمر ريشيليو ، وحاضر فيها إلى جوار المستشرق اللامع سلفسترد ساسي كل من لانجليه وفكتور الذي عُيّن بحكم سنّه مديرا للمجمع العلمي إلى أن قضى نحبه أثناء حصار عكا عام ١٧٩٩ فأخذ محله أميديه جويير<sup>(٢١)</sup> (١٧٧٩ - ١٨٤٧) مترجم كتاب الجغرافيا للإدريسي فيما بعد ، والذي تتلمذ أيضا على ده ساسي وأعدّ لكتاب وصف مصر بحثا عن بدو الحدود الفلسطينية ، كما أدى خدمات جليلة للجنرال دسيه حين رافقه بصحبة فيثان دينون لغزو الصعيد . وقد ظل يحتفظ لإقامته في مصر بذكرى غالية ، فهو الذي حثّ مكسيم دوكان فيما بعد على زيارتها . وكان معظم المستشرقين المصاحبيين لنابليون من تلامذة سلفسترد ساسي الذي غدا بلا منازع الأستاذ الأكبر لجمهرة أساطين الاستشراق الذين ملكوا زمام السيطرة على ساحة الاستشراق طول ثلاثة أرباع قرن .

ولم يصطحب نابليون في حملته نفرا من أفذاذ المصورين وإنما اصطحب عددا من المصورين ذوي المواهب المحدودة أمثال ريدوتيه ودوترتو وغيرهما ، شغلوا بإعداد الصور الإيضاحية [الوصفية] المصاحبة لكتاب «وصف مصر» والتي التزمت بالدقة الفائقة التي يتطلبها مثل هذا السفر .

ومن بين المستشرقين المرافقين نذكر دلايورت (١٧٧٧ - ١٨٦١) الذي زوّد واضعي خريطة مصر الكبرى بمجموعة أسماء المدن والبلدان مدوّنة بالحروف اللاتينية ثم أعدّ لكتاب «وصف مصر» دراسة موجزة عن تاريخ الممالك . غير أن جزءا كبيرا من الفضل في نشر الحضارة العربية بفرنسا والغرب يعود بلا جدال إلى چان جوزيف مارسيل (١٧٧٦ - ١٨٥٤) الذي عهد إليه بوناپرت بإدارة المطبعة القومية بمصر . وحين اندلعت ثورة القاهرة في أكتوبر ١٧٩٨ وبينما كانت المدافع الفرنسية تدكّ جامع الأزهر معقل الثورة اندفع وسط لهيب النيران ينتزع من بينها النصوص القرآنية الثمينة . وقد عُيّن بعد الحملة مديرا للمطبعة القومية بباريس ليعاون في نشر كتاب «وصف مصر» الذي

Le Corps de Jeunes  
de Langues.  
تأسست سنة ١٧٩٥ للسفراء  
والقناصل والتجار الموفدين  
إلى بلدان الشرق أسوة  
بالمدرسة التي أنشأتها  
الإمبراطورة ماريان تيريزا في  
فيينا .  
(٢١) Amédée Jaubert .

أسهم فيه بدراسات فذة عن مقياس جزيرة الروضة ، وجامع ابن طولون ، وطرار الخط الكوفي ، فضلا عن كتابين آخرين ضمّنهما جميع معارفه عن العالم الإسلامي وعن تجاربه بمصر .

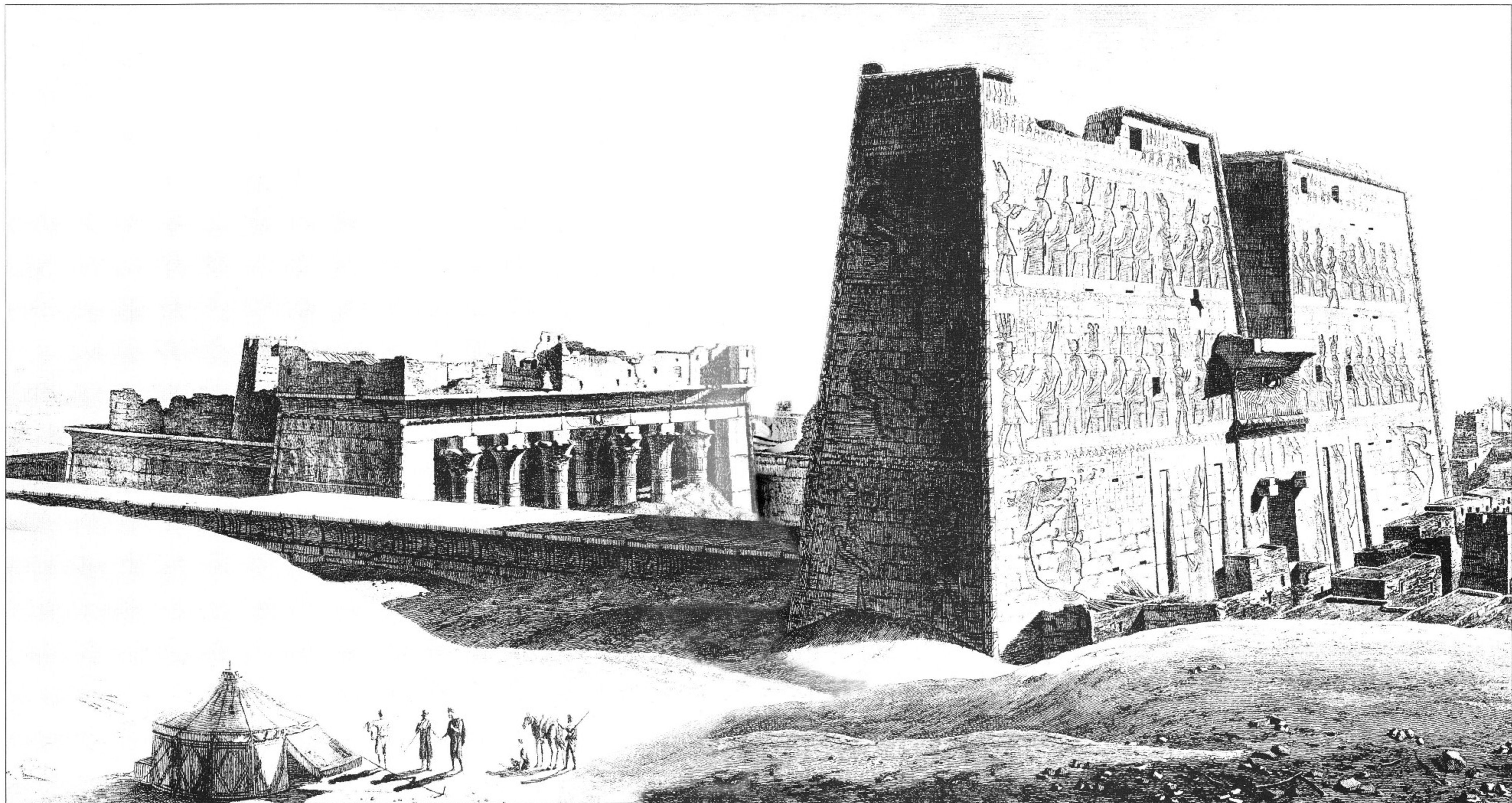
ومع أن تاريخ مصر الفرعونية لم يكن ليأخذ مكانته العلمية الدقيقة قبل تدخل شميليون الحاسم في حل رموز الهيروغليفيات عام ١٨٢٢ ، إلا أن مطلع القرن التاسع عشر يدين بعد فيثان دينون بمعارفه عن الفن الفرعوني إلى مهندسي «لجنة العلوم والفنون» الذين سجلوا على لوحات كتاب «وصف مصر» معالم العمارة والنحت والفنون الدقيقة خلال الدولة المصرية الحديثة والعصر البطلمي . ولم يكن ذلك ليتم لولا الجهود المضنية التي بذلتها البعثات العلمية الموفدة إلى الصعيد في عام ١٧٩٩ .

وقد سبق القول بأن فيثان دينون كان قد التقى في قنا خلال شهر يونية ١٧٩٩ ببعثة العلماء الأولى التي يرأسها عالم الرياضيات بيير سيمون جيرار وتضم عددا من المهندسين عهد إليهم بدراسة أحوال مياه النيل ، غير أن اثنين من أعضاء البعثة - هما فيلييه دوتيراج وچولوا - كانا أشد اهتماما بالآثار من شؤون الري وطمي الفيضان فإذا بهما أول من يسجل بدقة نقش البروج السماوية بمعبد دندره الذي أثار إعجابهم وحماسهم ، كما اكتشفا مقبرة أمنتحتب الثالث . ومع أن هذا الانحراف عن مهمتهم الهندسية قد أثار حفيظة المهندس جيرار رئيس البعثة فلامهم على اهتماماتهم الأركيولوجية ، إلا أنهما على الرغم من ذلك ما كادا يبلغان معبد الكرنك حتى عكفا على رسم نقوشه وتسجيل أبعاده بعد أن أصيبا بالذهول أمام ضخامته وشموخه ، ثم واصلوا المسيرة حتى معبد إسنا حيث أقرأ على الفور بتفوق العمارة الفرعونية على كل ما كان أعضاء البعثة يعدّونه نموذجيا من العماثر القائمة على التقاليد الأكاديمية وعلى أسس المذهب الكلاسيكي المحدث ، بل والطرار اليوناني الروماني الذي كانوا يعدّونه حتى ذلك اليوم النموذج الفني المثالي . وقد اتجه فيلييه وچولوا بعد بضعة أيام إلى أسوان برفقة المثال كاستيه<sup>(٢٢)</sup> الذي حفر على بوابة البهو الكبير لمعبد فيله النقش الذي يسجل انتصارات الجنرال دسيه ، وهناك عكفا في عزلة على رسم أطلال معبد جزيرة فيله وتسجيلها زهاء أسبوعين . على أن تسجيلهما لم يحمل تلقائية فيثان دينون ، كما أنهما لم يعيرا العناصر الزخرفية والجمالية أي التفات ، فقد رفعوا تصميم المعابد مستعينين بميزان البناء وبمقياس الأبعاد وبالبوصلة وطاولة الرسم ، ومزوّدين بالفرجار ومثلث المساح ، وسجلا كل النقوش بطريقة تكاد تكون آلية ، ناسخين النقوش الهيروغليفية دون إدراك لمغزاها ، ومع ذلك فإن فضل ابتكار أساليب الوصف الموضوعي التي كانت وقتذاك الوسيلة الوحيدة لنشر الآثار المصرية قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي مرده بلا شك إلى هذين المهندسين .

وبعد عدة شهور من إقلاع البعثة الأولى إلى الصعيد توجهت إليه بعثتان أخريان إحداهما برئاسة مهندس المساحة كوستار وتضم اثني عشر عضوا من بينهم عالم الآثار ريبو ، والثانية برئاسة عالم الرياضيات فوريه وتضم أحد عشر عضوا من بينهم چوفروا سانت إيلير وچومار وشابروول والمصورين سيسيل وريدوتيه . وحين التقت البعثتان فيما بين إدفو وجبل السلسلة مع زملائهما چولوا وفيلييه بادر الأخيران بعرض ما حققاه على زملائهم وحثّهم على اتباع نفس الأسلوب الذي سلكاه ، ومنذ ذلك الحين استقرت أركان منهجهم وبدأ العمل به بلا هوادة . فعلى يديّ چومار تم الكشف عن معبد إدفو الذي كان مدفونا تحت الرمال وكان الفلاحون قد أقاموا فوق

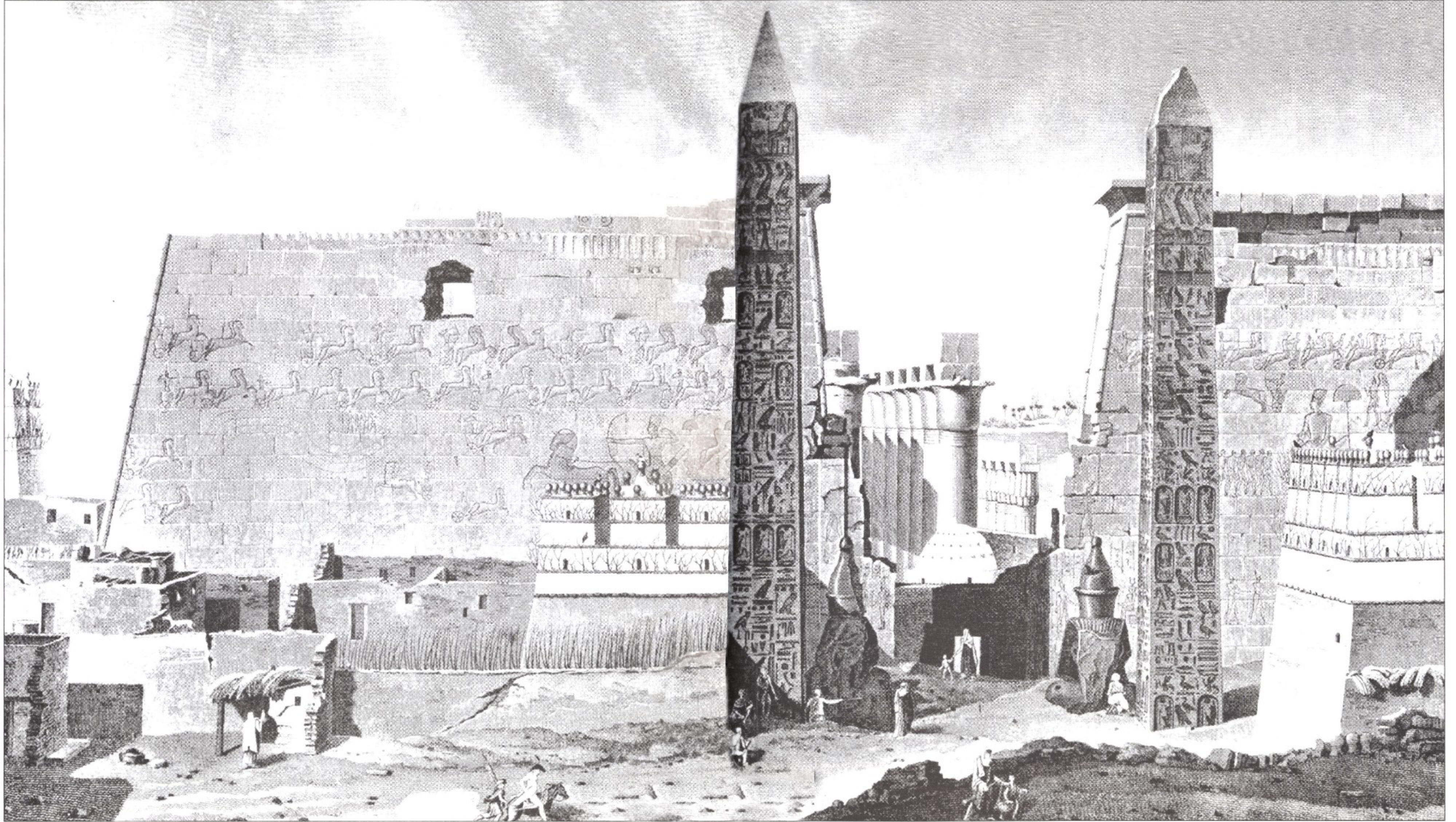
Casteix (٢٢)





لوحة (٩٣) وصف مصر . معبد إدفو



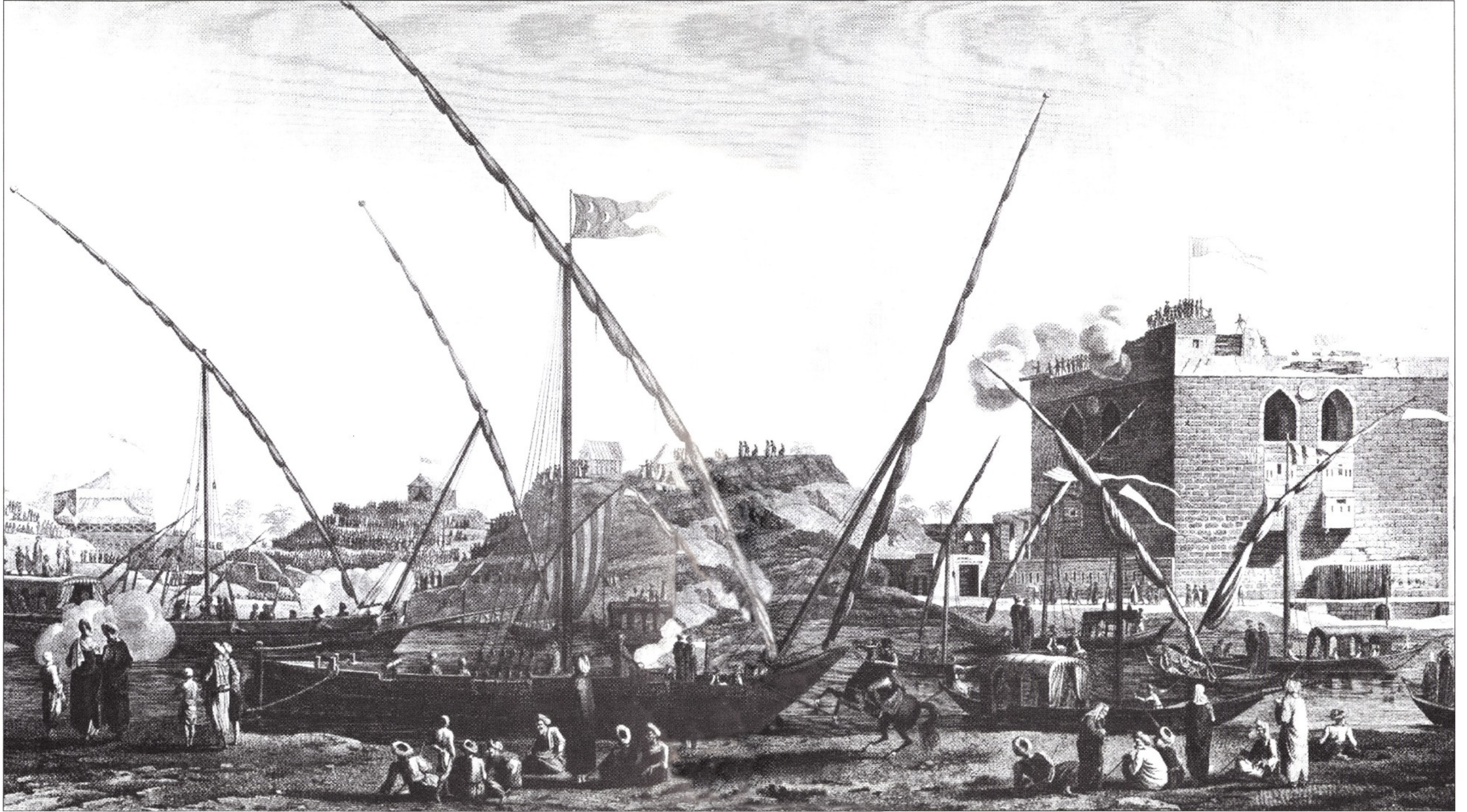


لوحة (٩٤) وصف مصر. قصر! [هو في الحقيقة أحد معابد طيبة].  
 « ليس ثمة حدث ما يطرأ ليزعج وجه الأبدية الذي لا يتغير . ففي هذا العالم الذي يتبدل فيه كل شيء تبقى مصر  
 متربعة على عرش السكون. وحين يطوقني الملل بنوباته لأجد ما يصاحبني من العشاق والأصدقاء سوى

تيوفيل جوتييه

الفلاحين والمومياءات المعاصرة لعهد رمسيس . ولا يتطلع بصري إلا إلى عمود متداع أو تمثال فقد ملامحه أو  
 قوارب ضخمة ذات أشعره بيضاء تهبط مع النيل أو تصعد معه».





لوحة (٩٥) وصف مصر .

عيد وفاء النيل أو فتح الخليج . « جرت العادة بأن النيل متى بلغ ستة عشر ذراعاً احتفل بوفائه وسمي اليوم وفاء النيل ، وكتب السجل تثبت أن النيل بلغ حداً يجوز معه للوالي أن يحصل الضرائب ، وكان الموكل بالمقياس يطلق عليه اسم قاضي المقياس . وكان المصريون يسمون بلوغ النيل فيضانه والاحتفال به جبر الخليج ، لأن خليج القاهرة كان يمدّ

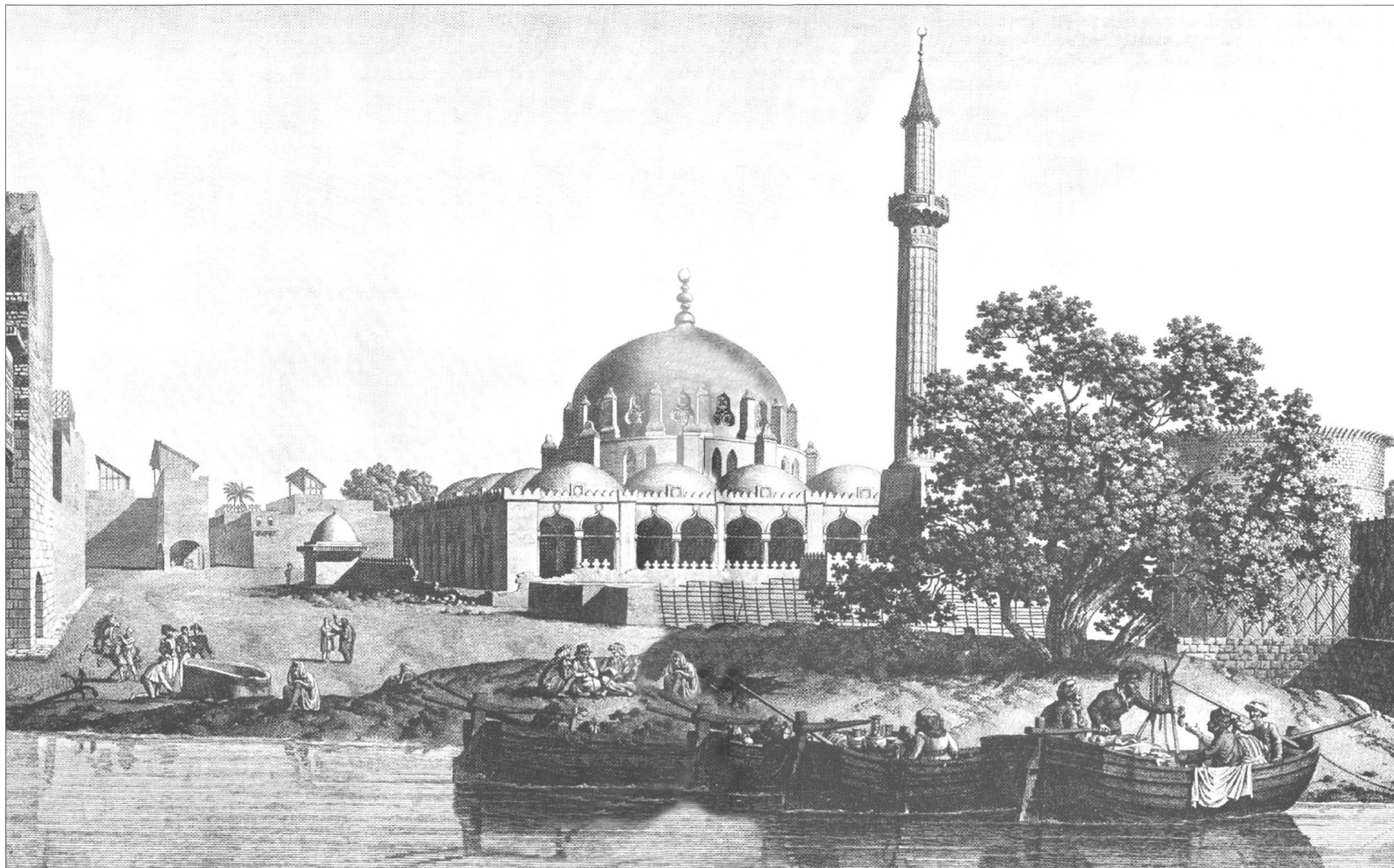
المدينة بالماء في هذا العيد ، فيسير المنادون وأولادهم في شوارع القاهرة وبايديهم الجريد عليها الرايات من البقعة الملونة بالأخضر أو الأحمر والأبيض مهللين « البحر زاد غرق البلاد » فيردّ عليهم آخرون صائحين « عوفا الله » والمقصود أوفي الله النيل . وبعد تحرير المحضر بوفاء النيل تُطلق الصواريخ وتعزف الموسيقى ليكون يوماً مشهوداً .  
« على قباب » « تحللت » « توفيت »





لوحة (٩٦) وصف مصر . قناطر المياه بالقرب من مصر القديمة مصورة من جزيرة الروضة.





لوحة (٩٧) وصف مصر. مرقا يولاق ومسجد سنان باشا



الرمال التي تغطيها أكواما يسكنونها، كما عرف كوستاز الطريق إلى مقابر الكاب على الضفة اليسرى للنيل ، فكانت دهشته هو وزملائه مماثلة لدهشة فيثان دينون حين اكتشف مقابر القرنه ، فحتي هذه اللحظة لم يكن نظر العلماء قد وقع إلا على مشاهد دينية أو حربية محفورة بوفرة على أسطح جدران المعابد على حين تمتد الآن أمام أبصارهم فوق حوائط هذه الكهوف سائر مشاهد الحياة الزراعية لدى المصريين القدماء ومناظر القنص والصيد والطراد والبذر والخصاد . وعند وصولهم إلى الأقصر انبروا يفحصون معابد الأقصر والكرك وميدامود على البر الشرقي ومعابد الرامسيوم والقرنة ومدينة هابو بالبر الغربي ، ثم انتقلوا إلى اكتشاف مقابر وادي الملوك التي لم يتسع وقت فيثان دينون لأن يزور منها غير مقبرة رمسيس الثالث المعروفة باسم مقبرة عازف القيثارة . وهكذا استطاع العلماء الفرنسيون تحطيم العوائق التي ظلت ثمانية عشر قرنا تحول دون النفاذ إلى قلب اثنتي عشرة مقبرة من المقابر الملكية . وعند وصول العلماء إلى جرجا قام قائد الحامية العسكرية بإرشادهم إلى مجموعة من الأطلال غربي النيل في أبيدوس التي كتب عنها سترابو وبلينيوس وبطلميوس ، فعكفوا على دراسة المعبد العظيم لسيدي الأول الذي ظنوه في البداية قصرا مدفونا وسط الرمال . على أن الفضل الأكبر في معرفة حقيقة معبد أبيدوس ومنحوتاته المتقنة الجميلة يعود إلى حفائر مارييت وتقاريره عنها فيما بعد .

وقد فرغت بعثتا فورييه وكوستاز من مهمتهما خلال شهري أكتوبر ونوفمبر من عام ١٧٩٩ وعاد العلماء إلى القاهرة بحافظات أوراقهم المكتظة بالرسوم والبيانات بعد أن أمضوا الصيف القاطظ في الوجه القبلي مرتدين زياً لا يلائمهم مثقلين بسيف لا تفتأ تلتطم بسيقانهم بينما حرارة الجو تنفذ عبر سراويلهم اللاصقة وستراتهم الخضراء الطويلة وقبعاتهم الضخمة السوداء المصنوعة من الجوخ ، ولكنهم ما يلبثون أن ينسوا ما عانوه من متاعب وأوجاع ، فتمتد شمس قاسية وناموس لاذع ينتشر كالدخان فوق القرى المغطاة بمياه الفيضان ، ومخاطر لقوها أثناء غارات البدو ومضايقات على أيدي الجنود الفرنسيين ، حين يطمثون إلى عودة مظفرة مزودين بالمادة العلمية التي سيضمها كتاب «وصف مصر» الذي طالبوا بالعودة إلى فرنسا للبدء في إعدادة ، غير أنهم لم يغادروا مصر إلا بعد سنتين على أثر استسلام الجنرال مينو عام ١٨٠١ . وقد استخدموا كل ما في جعبتهم من لباقة ودبلوماسية وحيل كي يعودوا إلى فرنسا مصطحبين - رغم الخطر البريطاني - نباتاتهم ومعادنها وحيواناتهم وخراطيمهم ورسومهم وبعض الآثار التي اكتشفوها . وكان حجر رشيد وتابوت نفتانوبين هذه المكتشفات غير أن الإنجليز صادروها ليحتفظوا بهما في المتحف البريطاني . وما كاد العلماء يصلون إلى فرنسا حتى بدأ العمل الكبير الذي كان بوناپرت يؤازره ويستحث مواصلته حتى صدر قرار عام ١٨٠٢ بإعداد ونشر كتاب «وصف مصر» على نفقة الخزنة العامة ، ومنح العاملين في تحريره وإعدادة رواتب ثابتة . وقد عكف العلماء على إعداد خريطة لمصر باعتمادهم على الوثائق التي جمعوها بما فيها تلك التي كان الإنجليز قد استولوا عليها حتى نجح الكولونل چاكوتان في استردادها . وقد قام قولني بالإشراف على أعمالهم وتعريفهم بطريقته في كتابة الكلمات العربية بحروف لاتينية . كما عكف ناپليون بنفسه على مطالعة مسودة المقدمة التاريخية التي كتبها جان باتيست فورييه والتي جاء فيها :

«تشكل مصر نقطة التقاء إفريقيا بآسيا وأوروبا بالشرق والذكريات بالوقائع ، إذ هي موطن الفنون المنطوية على آثار لا تحصى ، ولا تزال معابدها الرئيسة وقصورها التي أقام بها الملوك الفرعنة

قائمة وإن تكن أحدث هذه الآثار العظمى قد شيدت خلال العصر المراكب لحرب طرواده . وقد قصد مصر كل من هوميروس وليكوجورجوس ووصولون وبيثاجوراس وأفلاطون ليلقنوا عنها علومها وعقائدها وشرائعها ، كما أنشأ بها الإسكندر مدينة خالدة ظلت لوقت طويل تحتل مكان الصدارة بين الموانئ التجارية ، وقد حل بها كل من پوميبي ويوليوس قيصر ومارك أنطونيوس وقيصر أوغسطس وهم يقررون مصير روما ، ومن ثم مصير العالم . ولهذه الأسباب جميعاً بات من الطبيعي أن تجتذب هذه البلاد انتباه أمراء العالم العظام الذين يشكلون أقدار الشعوب . . . ويذكر الجميع الآن الدهشة التي عمّت أوروبا من أقصاها إلى أذناها حين تناهت إلى مسامعها أنباء وجود الفرنسيين بالشرق ، ذلك أن التخطيط لهذا المشروع الكبير قد تم في صمت كما جرى الإعداد له بهمة وسرية ضللت أكثر خصومنا يقظة وترقباً ، فلم يعرف أحد بأمر الخطة إلا بعد تحقيقها . غير أن هذه البلاد [مصر] التي نقلت معارفها إلى العديد من شعوب العالم ترزح اليوم تحت وطأة الهيمنة . . . إلى آخره» .

ولقد كان ناپليون يدرك مدى الأثر الذي سوف تسفر عنه هذه الحملة على العلاقات بين أوروبا والشرق وإفريقيا ، وعلى الملاحة في البحر المتوسط ، وعلى مصير آسيا . ولذا فقد أعلن عن تطلعه إلى أن يطبع مصر بطابع أوروبي تحتضنه بقية دول الشرق ، وأن يجعل حياة المصريين أكثر استقراراً ، كما أخذ نفسه بأن يوفر لهم أساليب المدنية الحديثة وهو ما لم يكن من الممكن أن يتم دون تطبيق آخر ما بلغته العلوم والفنون في أوروبا . وهكذا غدا كتاب «وصف مصر» نموذجاً لشتى المحاولات التي بذلت بعد ذلك من جانب الأوروبيين الذين أفادوا من جهود المستشرقين في استطلاع بلاد الشرق وفض غموضها وغربتها تمهيداً لاحتلالها واستنزاف ثرواتها لصالحهم .

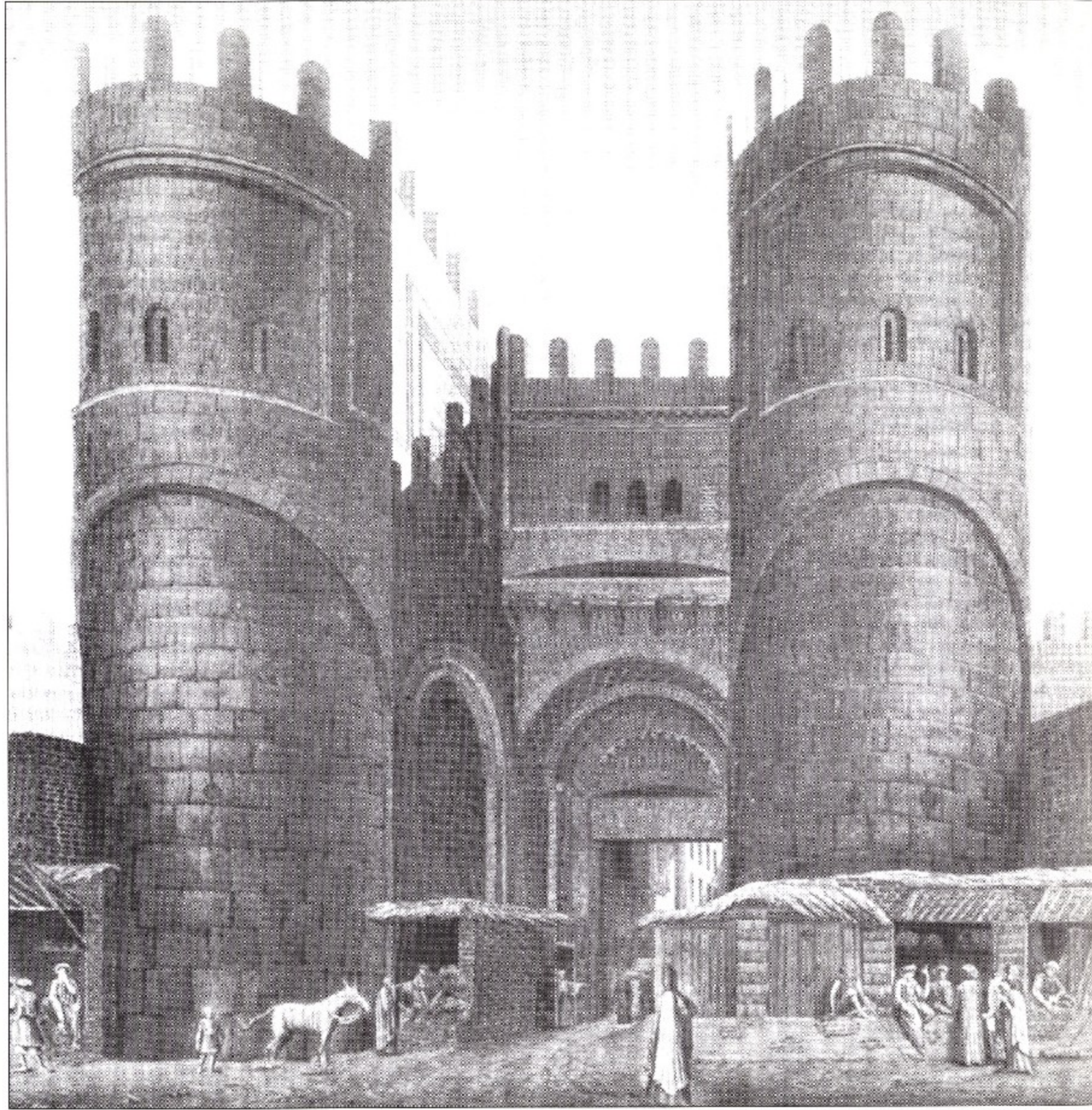
وظل جومار يشغل وظيفة سكرتير هيئة تحرير كتاب «وصف مصر» لمدة عشرين عاماً محاطاً بالعديد من معاونين ، فبينما يشرف مارسيل على الطباعة بالمطبعة القومية ، يعد لوپير وجولوا الفصل الخاص بمصر المعاصرة والإسكندرية ورشيد والقاهرة ، ويكتب ديوي إيميه فصلاً عن الدلتا ، وشابرول فصلاً عن عادات الأهالي بمصر . كما عقد جومار المقارنة بين سكان مصر القدامى والمعاصرين في أحد الفصول ، وقدم كوستاز دراسته عن زراعتهم وعاداتهم ، وسجل روييه شعائرهم الجنائزية وأساليب التحنيط إلى أن ظهر في عام ١٨٠٩ الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» الذي «طبع بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور ناپليون الأعظم» .

والحق إن الكتاب يضم أعمالاً تنتمي إلى عالم العلوم أكثر من انتمائها إلى عالم الأدب ، ذلك أن المؤلفين الذين شاركوا في وضعه من أمثال جومار وقليبييه وكوستاز كلهم من علماء الرياضيات الذين لم يذهب خيال بأحدهم إلى حد الادعاء بأنه من الأدباء ، غير أن سعيهم المتكاثف الدؤوب الدقيق قد تمخض عن أعظم كتاب كُرس لدراسة شعب من الشعوب . ويشغل الكتاب إثني عشر جزءاً من الحجم الكبير الزاخر بالعديد من الخرائط والقوائم والرسوم ، وأربعة وعشرين جزءاً من



لوحة (٩٨) وصف مصر.  
سيدة موسرة ترتدي القبقاب.





لوحة (١٠٠) وصف مصر . باب الفتوح



لوحة (٩٩) وصف مصر . جامع الحاكم بأمر الله بالقرب من باب النصر



النصوص ، تتناول الأجزاء الثلاثة الأولى - التي تقع في خمسة مجلدات يستهلها العلامة فورييه بمقدمة تاريخية - شؤون الآثار الفرعونية ومعابدها وتمثيلها وكل ما شيد بعد الفتح الإسلامي . على حين تفرد الأجزاء الأربعة عشر التالية بأبحاثاً ضافية عن مصر المعاصرة للغزو الفرنسي فضلاً عن وصف مسهب للصعيد والدلتا والقاهرة وبرزخ السويس والإسكندرية ومقياس النيل ودراسة ممتعة لشتى الفنون والموسيقى الشرقية والموازين والمكايل والمقاييس وأمور الزراعة والصناعة والتجارة وعادات المصريين المعاصرين . ويتناول بقية الكتاب الخواص الطبيعية بما في ذلك طبيعة أرض مصر وطبقاتها ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماكها وأسرار التحنيط إلى غير ذلك . ويزدان الكتاب بمجموعة فذة من الخرائط الجغرافية واللوحات الفنية المرسومة لآثار مصر القديمة والإسلامية . وقد استغرق نشره خمسة وعشرين عاماً من الجهود الجماعية ، وتطلب تنفيذ التسعمائة لوحة التي اشتمل عليها الكتاب [وأكثرها غير ملوّن] إلى الاستعانة بنخبة ممتازة من الرسّامين والمصورين والطّباعين وما يقرب من أربعمئة حقّار . فقد بدأ العمل في كتاب وصف مصر عام ١٨٠٣ ولم ينته إلا عام ١٨٢٨ بعد تدليل العقبات السياسية والمالية التي أوقفت عمليات طبّعه خمس مرات . فعلى حين كان إهداء الجزء الأول من الطبعة الأصلية موجّهاً إلى الإمبراطور ناپليون (١٨٠٨) تصدرت الجزء الأول من الطبعة الثانية صورة الملك لويس الثامن عشر (١٨٢٠)، بينما أهديت الأجزاء الأخيرة إلى الملك شارل العاشر (١٨٢٧) . وتؤكد القيمة الكبرى لهذا الإنجاز العلمي الفرنسي في أنه نزع أكفان القرون الغابرة التي كانت مصر تتدثر بها قبل ظهوره، وأنه أزاح عنها ظلمات ليل امتد عليها آلاف السنين حتى أضاء العلماء الفرنسيون أعماق التاريخ وأماطوا النقاب أمام العالم كله عن آثار ماض غامض عريق . ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد بدأ يظهر لأول مرة علم جديد هو علم «المصريات» Egyptology على أثر اكتشاف حجر رشيد الذي عقد عليه جومار أهمية خاصة وحاول فك رموزه قبل أن يأخذ شمپوليون في ذلك .

وعن «لجنة العلوم والفنون» التابعة لجيش الشرق انحدرت تلك السلالة المجيدة التي ضمت شمپوليون وپريس دافن ومارييت وماسبيرو وغيرهم من أفذاذ الرواد في كشف الستار عن خفايا الحضارة الفرعونية العريقة . وما من شك أن الفن الفرنسي يدين للحملة الفرنسية بمصر بمصدر خصب لإيحاءاتها الرائعة ، وعلى الرغم من أن «الصيغ الزخرفية» المصرية قد غدت خلال عهد «الإمبراطورية» هي البدعة الشائعة إلا أن الفضل في ظهورها لا يرجع في حقيقة الأمر إلى الحملة، إذ كانت قد ظهرت في القرن السابع عشر مؤلفات سجلت مجموعات متنوعة من الآثار المصرية القديمة، فضلاً عن الصور المطبوعة بطريقة الحفر التي نشرها القنصل بنوا ده ماييه وأترابه، هذا إلى حفائر تيقولي في قبلا هادريانوس قرب روما التي ابتعثت من الماضي البعيد تماثيل مصرية قديمة، وكذا تصاوير بومبي الجدارية النابضة بحفلات تقديس الربة إيزيس المصرية . هذه العوامل كلها أسهمت في خلق صورة مصر ذات الطراز الفرعوني الفريد . فمنذ عهد لويس الخامس عشر انبسطت تماثيل أبوالهول على أذرع المقاعد والسُرر وارتكز عليها رخام «الكُونسولات» ، مثلما غشّت رموز إيزيس المحفورة في البرونز رخام المدافئ ، كما انتصبت المسلات في الحدائق العامة إلى جوار الجواسق<sup>(٢٣)</sup> . غير أنه من الإنصاف أيضاً الاعتراف بأن كتاب «وصف مصر» قد استبدل بروى الماضي الغامضة وخيالاته المشوّمة وثائق أشدّ دقة سرعان ما استلهمتها العمارة

(٢٣) انظر « فنون عصر النهضة » : الرئيسانس والباروك والروكوكو . طرز الأثاث خلال القرن الثامن عشر ، لكاتب هذه السطور . الطبعة الثانية المكتملة .

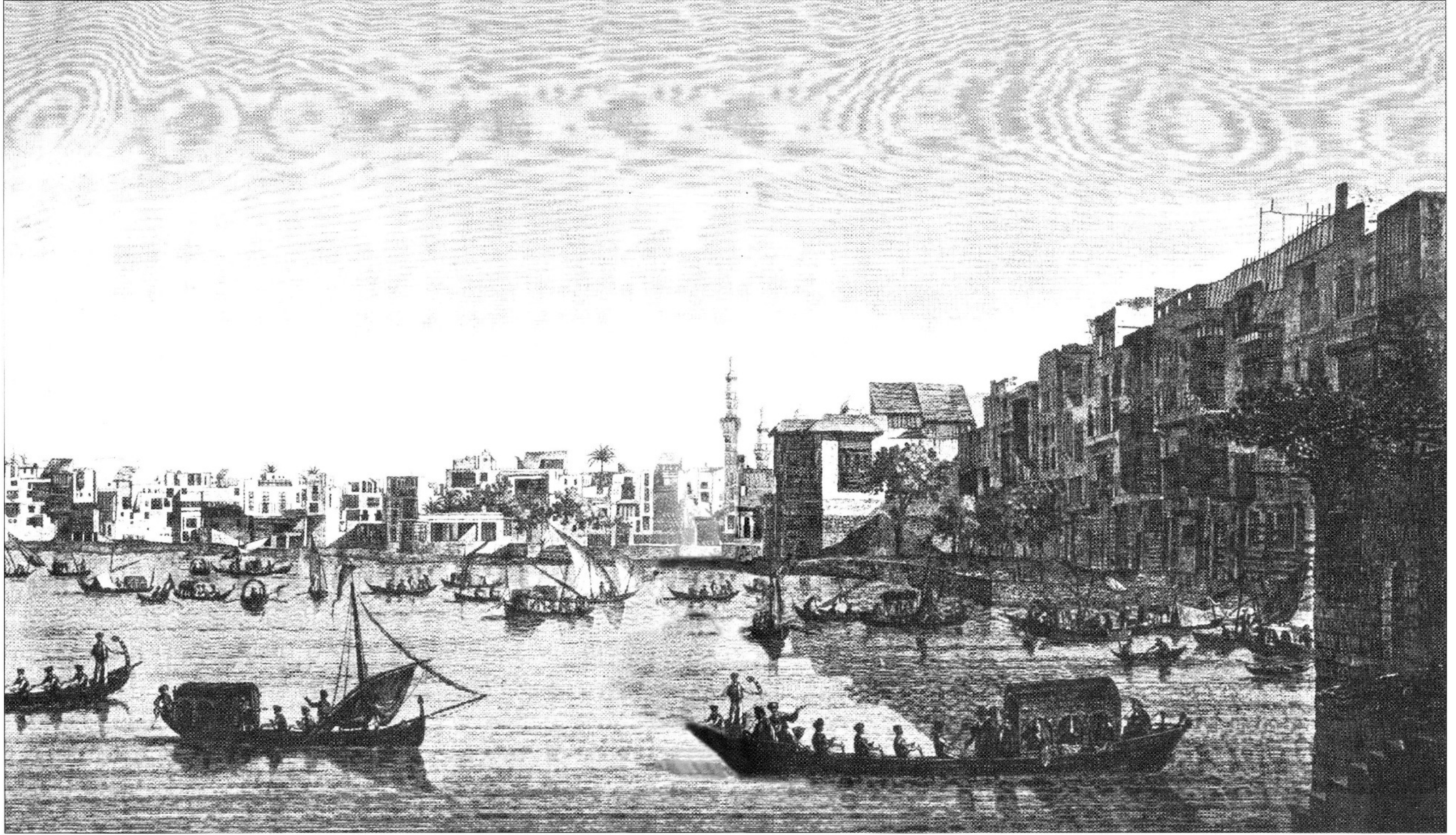
والنحت ، فظهرت بباريس نافورة وقد وقف بها - تحت نسر باسط جناحيه على غرار حورس - تمثال للفتى أنتينوس صفى الإمبراطور هادريانوس وهو يصبّ الماء من جرة بينما التصقت ذراعه بجسده في وضعة ساكنة جامدة ، وما أكثر واجهات المنازل التي جُمِلت واجهاتها بالصيغ الزخرفية المصرية وخاصة في شارع «القاهرة» الذي افتتح بباريس عام ١٧٩٩ .

كذلك صاحب اتجاه العودة نحو الكلاسيكية في مجال التصوير وقتذاك على يد المصور دافيد ومدرسته نزعة أخرى تتجه صوب الموضوعات الإكزوتية غير المألوفة والمجلوبة من البيئات الأجنبية تعنى بالتفاصيل والألوان المحلية ، فاختلطت في لوحات جرو عن معارك «أبي قير» (١٨٠٦) و«الأهرام» (١٨١٠) ولوحات چيروديه الكلاسيكية عن «ثورة القاهرة» ولوحة چيران «بوناپرت يعفو عن ثوار القاهرة» (١٨٠٨) (لوحة ٣٧ ملون) أزياء الوحدات العسكرية الفرنسية بسيوف المماليك المقوّسة والسروج العربية والجلابيب والعمائم ، وتجاورت وجوه الضباط والجنود الفرنسيين مع وجوه المماليك والفلاحين والنوبيين . وهكذا لم يعد مفكرو أوروبا ينظرون إلى الشرق المترع بالزخارف بوصفه مصدراً للمتعة والسلوي بل غدا في عيونهم عالماً نابضاً بالحياة يستهوي الدارسين والكُتّاب والفنانين مثلما بات طلبة الرحالة الرومانسيين<sup>(٢٤)</sup> .

على أن الأدب لم يتأثر بالحياة المصرية إلا بأخرة بعد أن تأثر بالفنون ، فلم يكن لمصر الفرعونية ولا لمصر الإسلامية دور إيحائي في هذا المجال في مبدأ الأمر . ولا جدال في أن الحملة الفرنسية على مصر قد استتفرت مجموعة من الدراسات الاستشراقية على جانب كبير من الأهمية ، غير أنه لم تكن لهذه الحركة ثمرات أدبية مباشرة، وكان لا معدى لمصر من أن تتلبّث حتى مجئ چيرار ده نرفال وجوستاف فلوبيير وتيوفيل جوتييه<sup>(٢٤)</sup> وغيرهم (لوحات من ٩٣ إلى ١٢٧) .







وكانت مدرسة الألسن تطلّ على البركة التي أن تحولت إلى فندق للإنجليز المارين بالقاهرة في طريقهم من الهند إلى إنجلترا عرف فيما بعد بفندق شيرد .. وفي منتصف القرن ١٩ أمر محمد علي بدم جزء كبير من البركة وإزالة الكيمان المجاورة لها لتقام المنتزهات» .  
على مبارك . الخطط التوفيقية

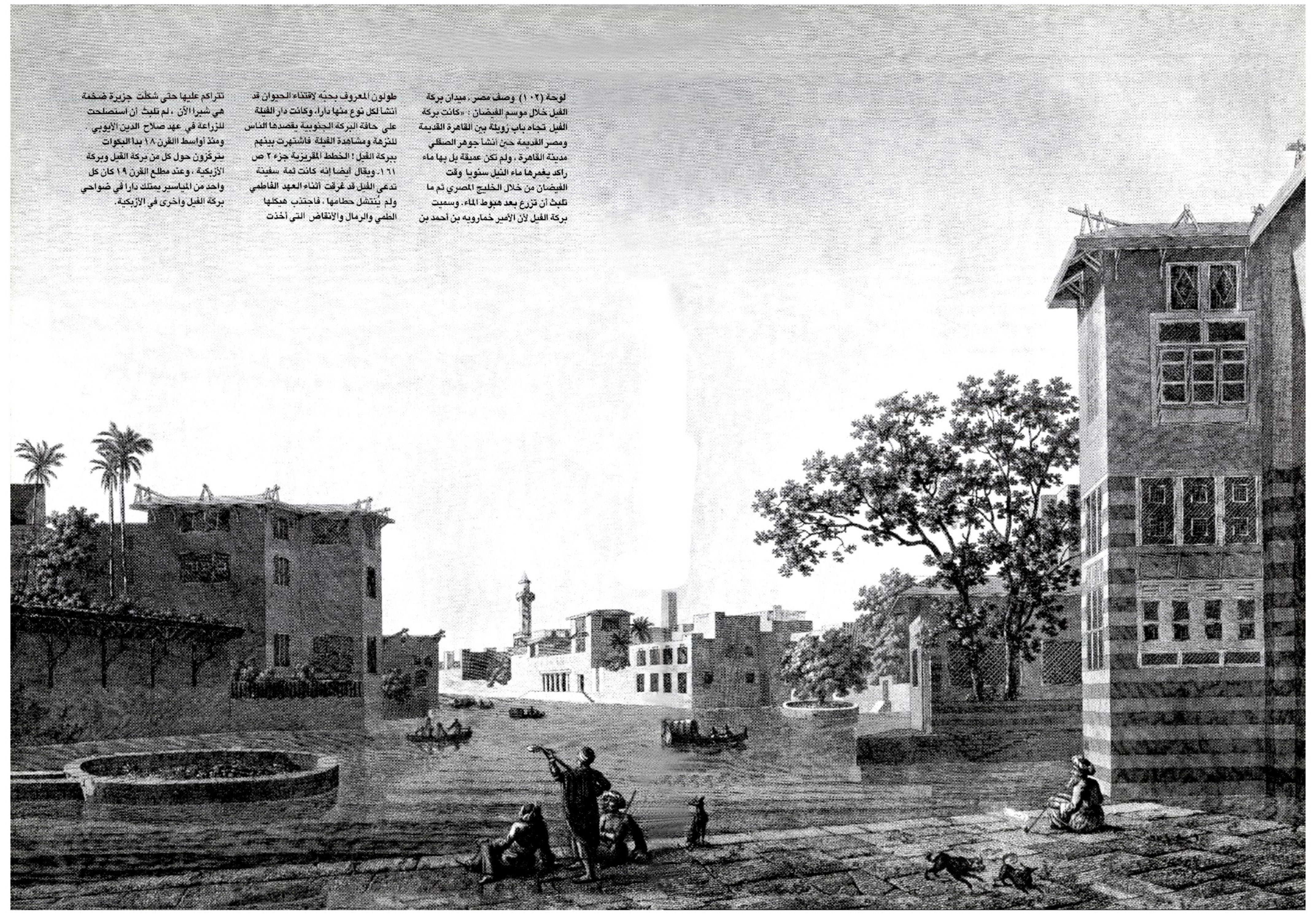
لوحة (١٠١) وصف مصر . بركة الأزبكية  
« وكان الفرنسيون قد اغتصبوا أثناء احتلالهم للقاهرة الكثير من قصور القاهرة وأقاموا فيها في سنة ١٨٠٠ مسرحاً للكوميديا ومطاعم وملاهي خاصة . وكان يشرف على بركة الأزبكية حيّ الأقباط ، وكانت دوره حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط السائد في أحياء القاهرة .



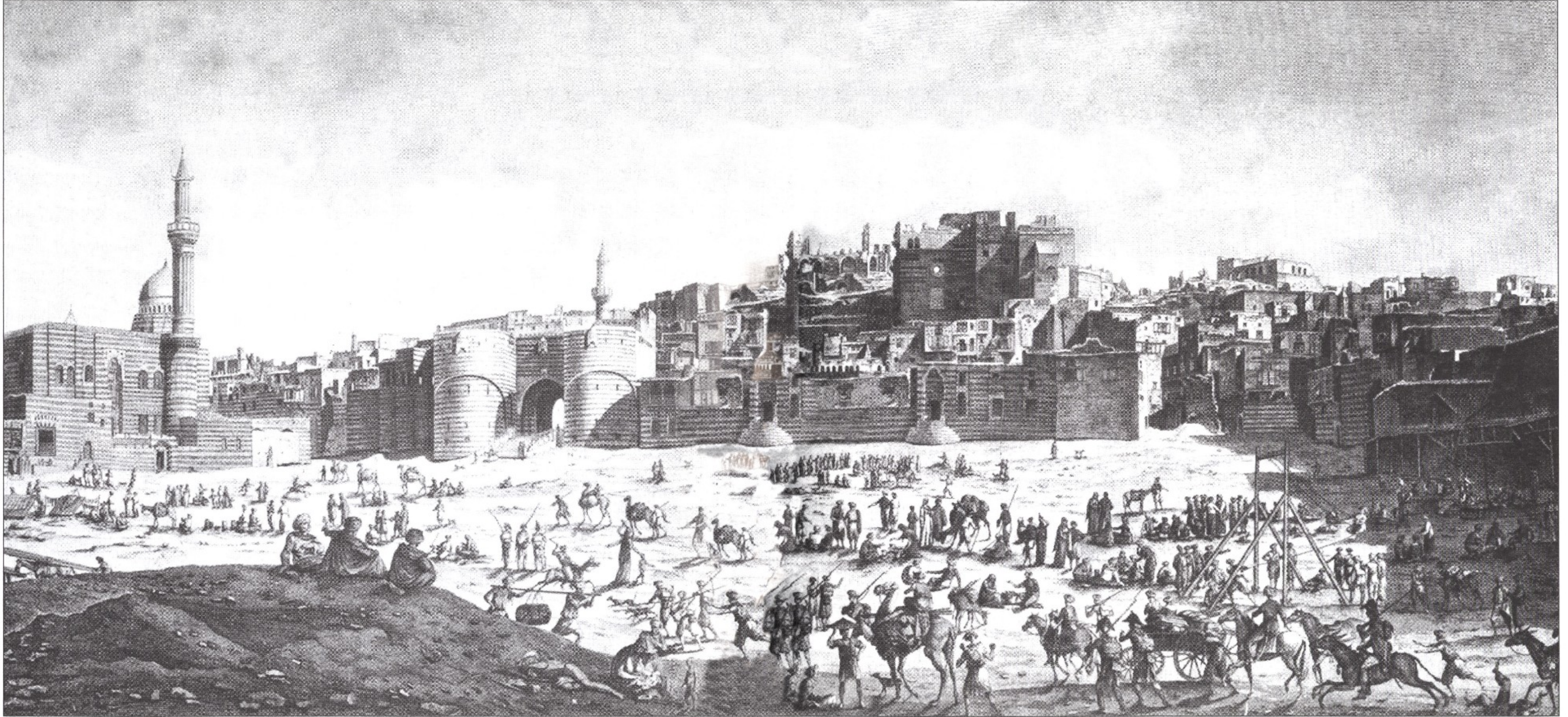
تتراكم عليها حتى شكلت جزيرة ضخمة هي شبرا الآن ، لم تلبث أن استصلحت للزراعة في عهد صلاح الدين الأيوبي . ومنذ أواسط القرن ١٨ بدأ البكوات يتركزون حول كل من بركة القيل وبركة الأزبكية ، وعند مطلع القرن ١٩ كان كل واحد من المياسير يمتلك دارا في ضواحي بركة القيل وأخرى في الأزبكية .

طولون المعروف بحبه لاقتناء الحيوان قد أنشأ لكل نوع منها دارا . وكانت دار الفيلة على حافة البركة الجنوبية يقصدها الناس للترفيه ومشاهدة الفيلة فاشتهرت بينهم ببركة القيل ! الخطط المقرية جزء ٢ ص ١٦١ . ويقال أيضا إنه كانت ثمة سفينة تدعى الفيل قد غرقت أثناء العهد الفاطمي ولم ينتشل حطامها ، فاجتذب هيكلا الطمي والرمال والانقاض التي أخذت

لوحة ( ١٠٢ ) وصف مصر . ميدان بركة القيل خلال موسم الفيضان : « كانت بركة القيل تجاه باب زويلة بين القاهرة القديمة ومصر القديمة حين أنشأ جوهر الصقلي مدينة القاهرة ، ولم تكن عميقة بل بها ماء راكد يغمرها ماء النيل سنويا وقت الفيضان من خلال الخليج المصري ثم ما تلبث أن تزرع بعد هبوط الماء . وسميت بركة القيل لأن الأمير خمارويه بن أحمد بن





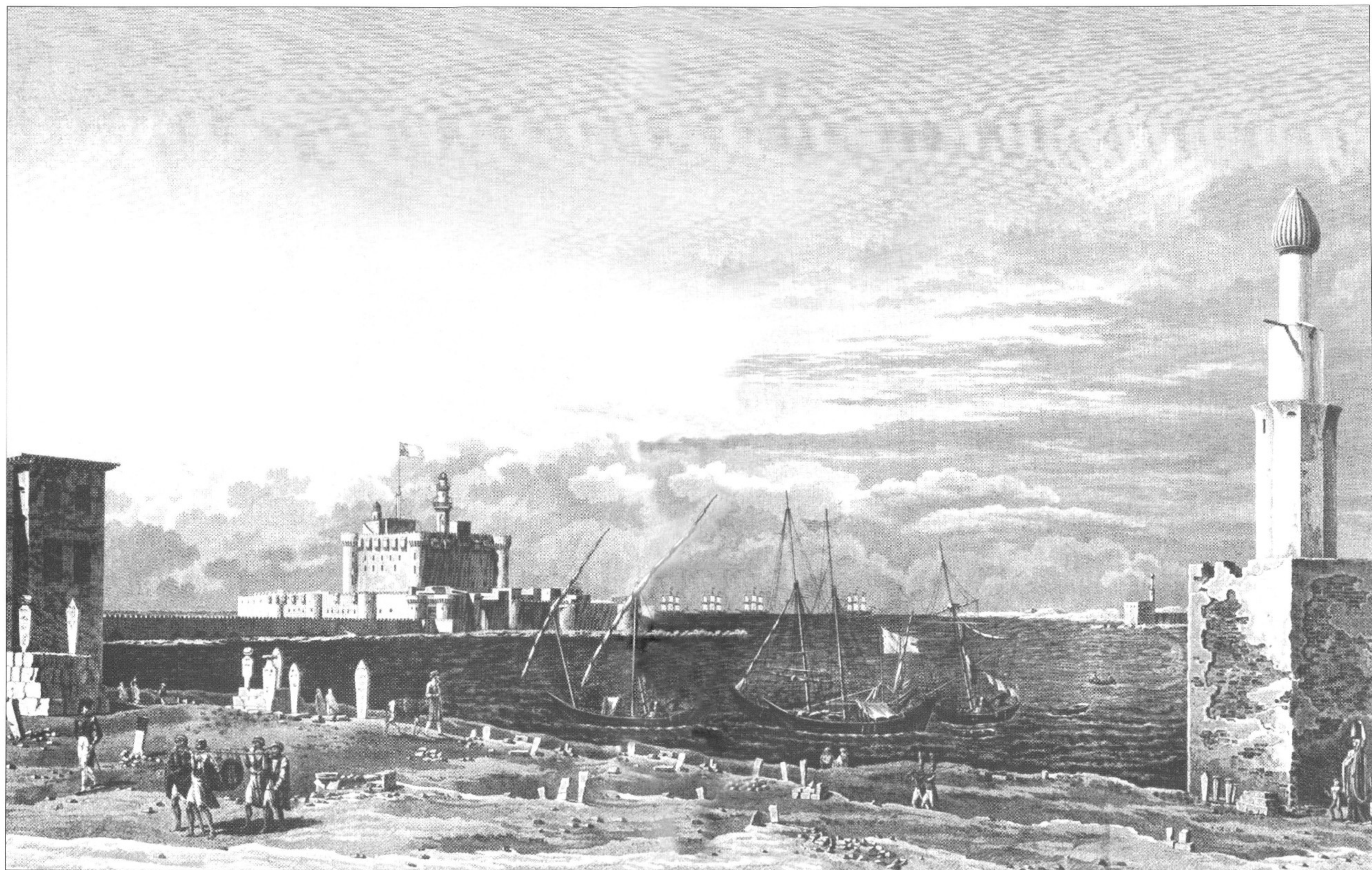


لوحة (١٠٣) وصف مصر . ميدان الرميطة والقلعة .

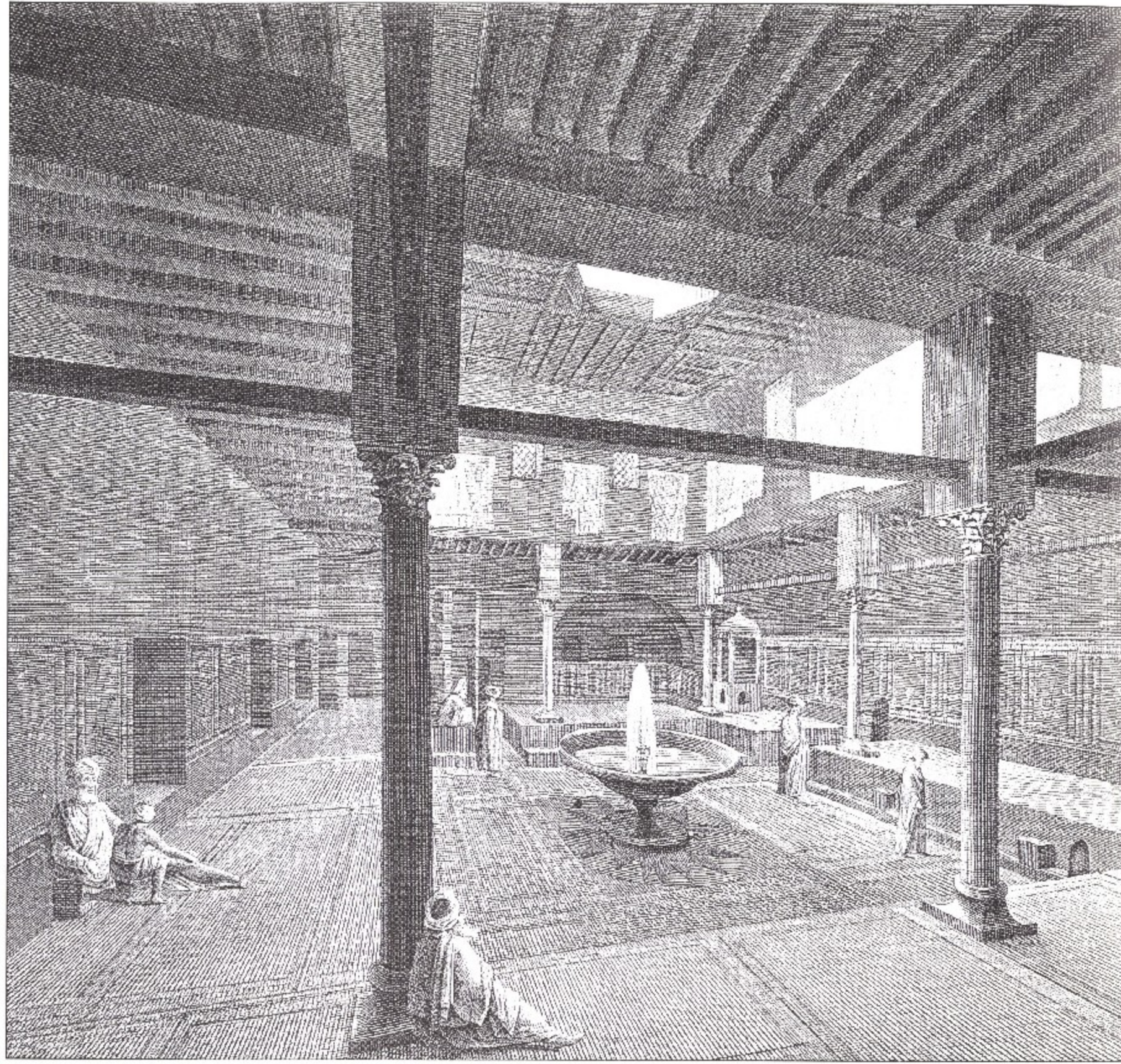
« وكما كان لأهل القاهرة أسواقهم كانت هناك أماكن لتجمع المشعوذين كالحواة ومروضي القرية أهمها ميدان الرميطة حيث يحتشد سماسرة الخيل وينزوي الحشاشون والمصارعون . ومع مضي الزمن تحول ما كان يحفه من مبان فاخرة إلى أكواخ وعشش وأحواش وأخصاص ، وأحاطت بالمساجد أبنية قذرة شوّهت ما كانت له من بهجة » . علي مبارك . الخطط التوفيقية

الصفحة التالية لوحة (١٠٤) وصف مصر .  
ميناء الإسكندرية الجديد تفصله الجبانة عن  
الميناء القديم ، وتبدو قلعة قايتباي شامخة .

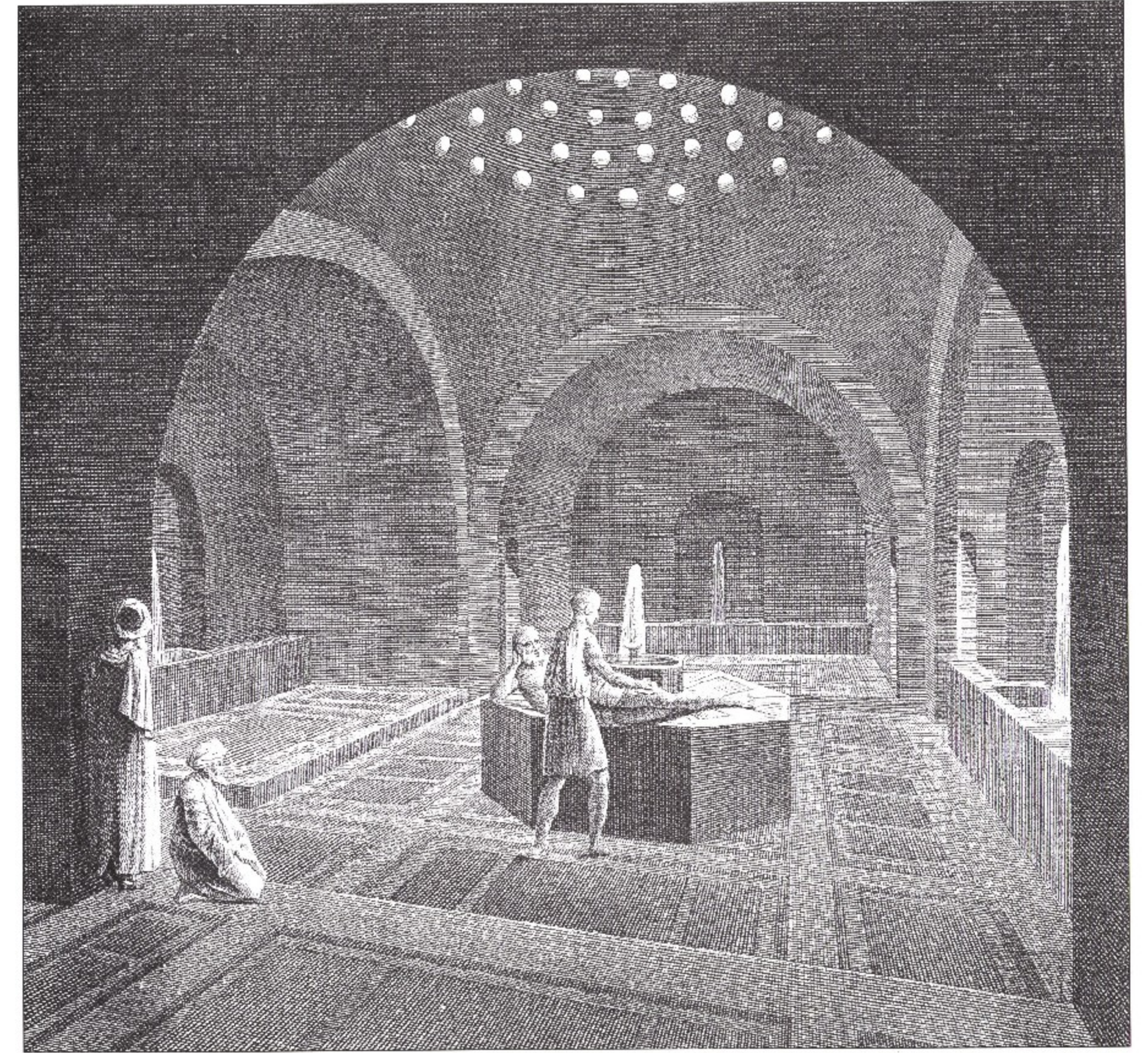








لوحة (١٠٦) وصف مصر . حمام عمومي [الوسطاني]



لوحة (١٠٥) وصف مصر . حمام عمومي [البراني]



لوحة (١٠٨) وصف مصر . زي امرأة . عامل نظافة . زي امرأة .

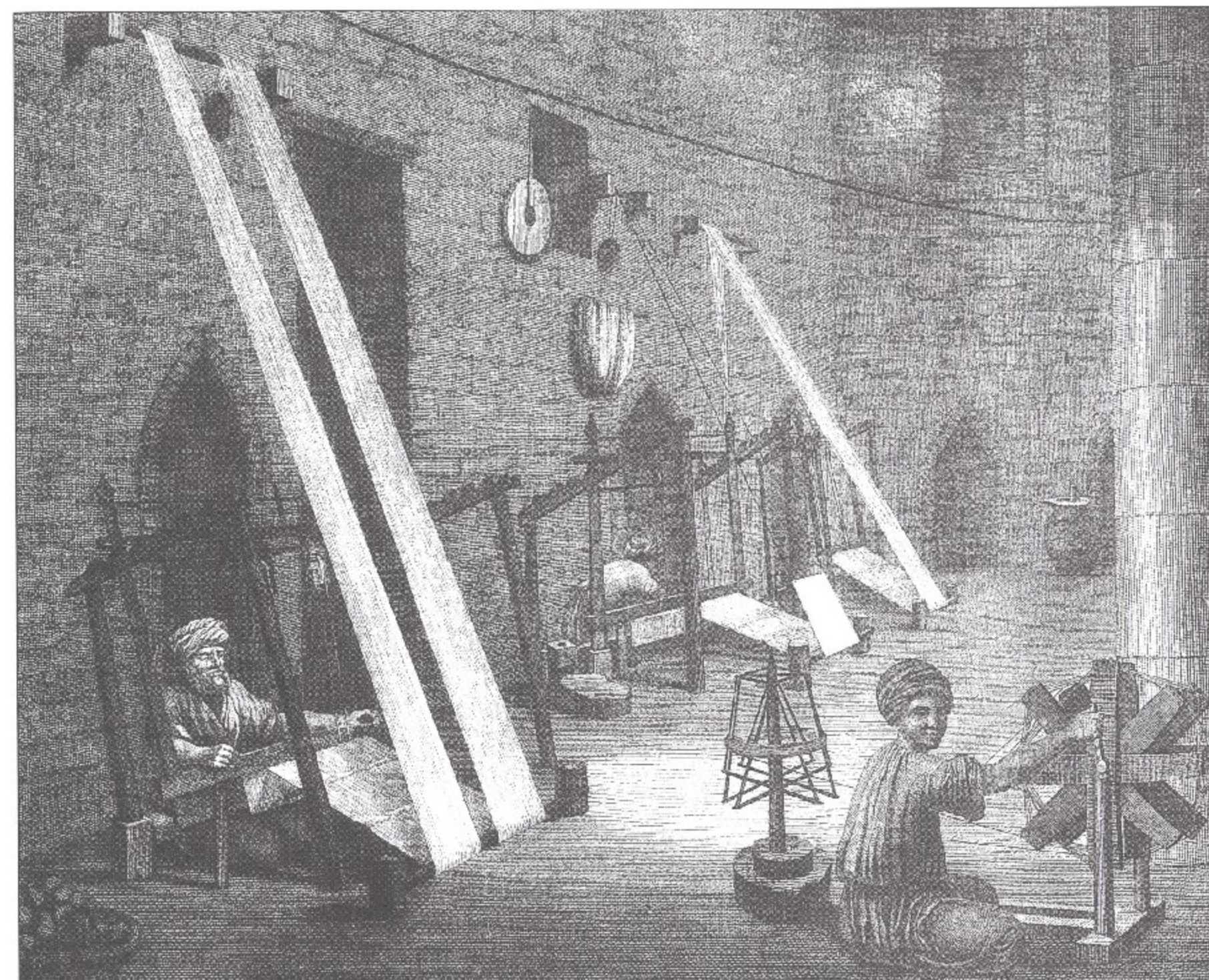


لوحة (١٠٧) وصف مصر . السقاء . المكاري ( سائس الحمير ) . السقاء .





لوحة (١١٠) وصف مصر. الفخراي.



لوحة (١٠٩) وصف مصر. مصنع نسيج.



لوحة (١١٤) وصف مصر. أحد البكوات.



لوحة (١١٢) وصف مصر. أحد البكوات.





لوحة (١١٥) وصف مصر. مراد بك

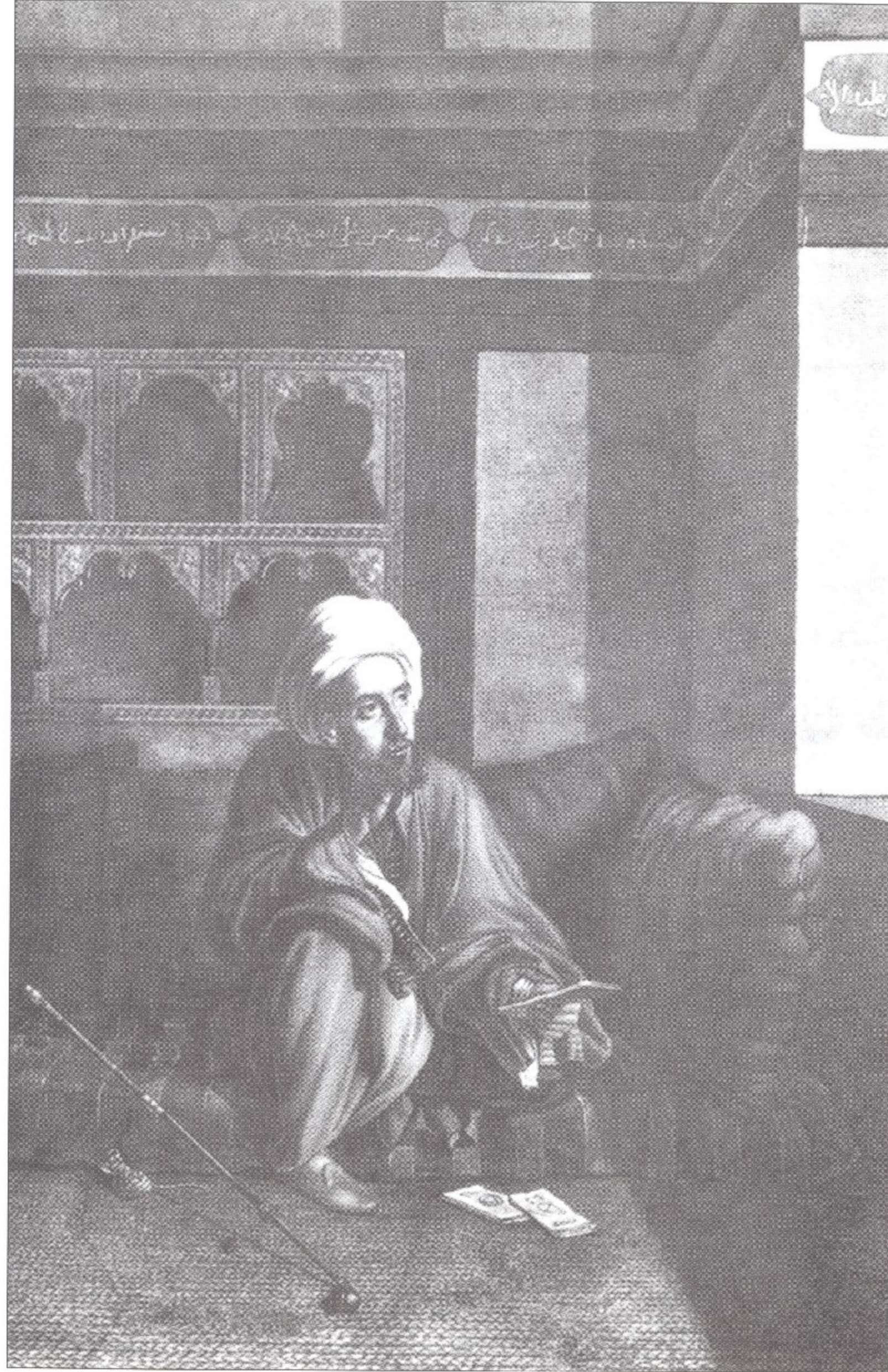


لوحة (١١٣) وصف مصر. الحلاق



لوحة (١١١) وصف مصر. مماليك





لوحة (١١٧) وصف مصر . الشاعر



لوحة (١١٦) وصف مصر . الفلكي





لوحة (١١٨) وصف مصر . عازف الربابة

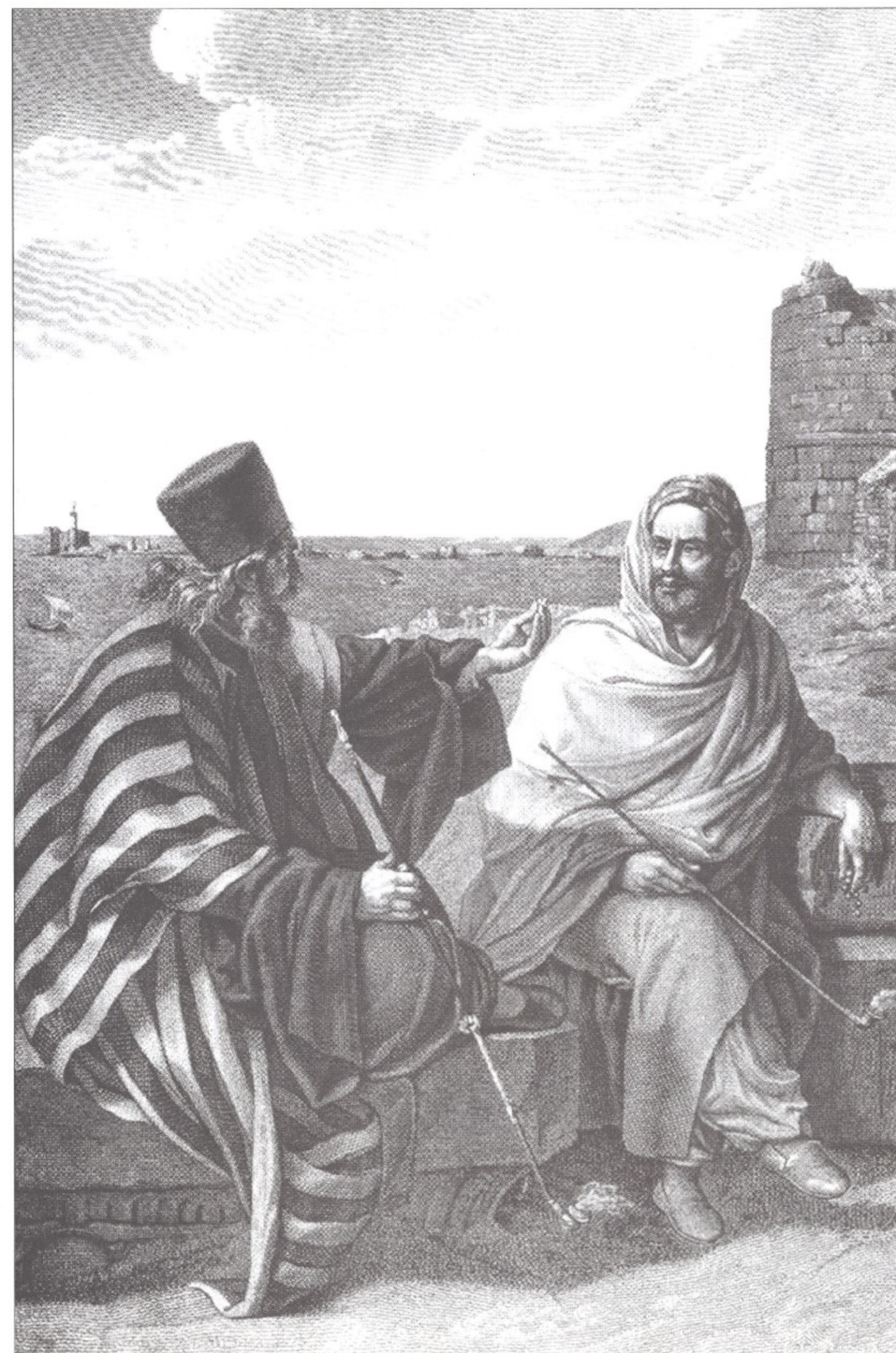


لوحة (١١٩) وصف مصر . نوتي من الإسكندرية.





لوحة (١٢١) وصف مصر . شيخ من الحبشة وآخر من إستانبول



لوحة (١٢٠) وصف مصر . راهب من دير سانت كاترين يحاور بدويًا.





لوحة (١٢٣) وصف مصر . الغوازي



لوحة (١٢٢) وصف مصر . مملوك.





لوحة (١٢٧) مسلة هليوبوليس



لوحة (١٢٥) وصف مصر . عالمة ترقص وتقرع الدف



لوحة (١٢٤) وصف مصر . العروس ليلة زفافها



لوحة (١٢٦) وصف مصر . راقصات الطريق العام .







لوحة (١٢٨) محفة نقل الجرحى فوق جمل.

صليبي  
في عباءة مُحدثة  
شاتوبريان





في أكتوبر عام ١٨٠٦ حلّ بمصر الكاتب الفرنسي الشهير فرانسوا رينيه ده شاتوبريان صاحب كتاب «العبقريّة المسيحية» الذي أصبح به في أعين معاصريه بطلاً من أبطال المسيحية ، فاعتزم الحج إلى البلاد المقدسة فترة تتخفّف فيها روحه من الضيق بنظام حكم نابليون بونابرت الاستبدادي وينعم فيها بحريته بعيداً عن فرنسا ، تدفعه رغبة ملحّة إلى الفوز بقلب معبودته ناتالي دي نواي ، وقد صوّرت له رومانسيته الجارفة أن هذه الرحلة إلى الشرق قد تأسر قلب معشوقته التي وعدته اللقاء في نهاية الرحلة بقصر اخمراء في غرناطة بوصفه فارس أحلامها الصليبي ، ولتجدّد بلقائه ذكرى استرداد المسيحيين لأرض الأندلس من أيدي المسلمين . وكان شاتوبريان نابض الذهن بفضول فكري يدفعه إلى الاغتراب الدائم الذي يحرره مما ينتابه من قلق ويعينه على إخراج كتاب جديد من إبداعاته بعد صمت قد طال ، فأقدم على رحلته التي ختمها بكتابه الذي أسماه «رحلة من باريس إلى القدس والعودة من القدس إلى باريس عبر اليونان ومصر وبلاد البربر وإسبانيا»<sup>(٢٥)</sup> (١٨١١) . وقد اختص بالحديث عن مصر أربعين صفحة من صفحاته الألف ولكنه لم يتحدث في تلك الصفحات الأربعين بشيء له قيمته عن الآثار المصرية متعلّلاً بأن رسوم فيثاق دينون ولوحات «المجمع العلمي المصري» تغنيه عن التعرض لآثار طيبة ومنف التي سبق أن ذكر عنها كل ما ينبغي قوله في كتابه «الشهداء أو انتصار الديانة المسيحية» (١٨٠٩) والتي جمع مادتها خلال رحلته إلى الشرق . وشاتوبريان لا شك كاتب شائق مبدع يعنى بالقالب أكثر مما يعنى بالمضمون حتى تعدّ كتاباته نموذجاً لجمال الأسلوب الرومانسي الذي يحيل أي حديث موضوعي إلى حديث وجداني يعبر عن صدى نفسه هو وكأنما لم تكن الأركيولوجية أو الإسلام تهمّنه بقدر تجديد أوتار قيثارته هو . ولعل هذا هو السر في أنه كان يجتزئ باللقاء نظرة عابرة على الآثار والأطلال بينما كان ينعم النظر الفاحص على النصوص ، ثم يشكّل من هذا وذاك رؤاه الخاصة التي يعيد فيها تشكيل الطبيعة وخلق عالم يرفّ بالحياة . وإذا كان من الممكن القول بأنه أول من حاول تصوير المواقع الشهيرة بألوان بيئتها الأصلية التي جاءت ناعمة متقنة أو ما سمّاه «اللون المحلي» يثري به روايته ويصف به الطبيعة والأماكن التي جرت فوقها الأحداث أو التي شهدت شهداء ، فقد كان مع ذلك كثير الحديث عن نفسه ، يجترّ ذاته في كل ما يكتب ، مدّعياً أنه لا يجول بهدف الكتابة بل بهدف جمع حصيلة من الصور الذهنية . على أن رحلة شاتوبريان إلى الشرق قد كشفت عن



غلوة في الاهتمام بكل ما هو عبري ويوناني بما يفوق اهتمامه بالإسلام المعاصر ، الذي أظهر في مبدأ الأمر أنه لا يكثر به ثم ما لبث أن أفصح عن ازدراؤه له وكأنه حجر عثرة يحاول جهده أن يتجنبه خلال رحلته . و الراجح أن أهداف رحلته الثلاثة : الدينية والأدبية والغرامية ، أي زيارته لقبر المسيح وجمع المادة التي سيصوغ منها كتابه « الشهداء » وغزو قلب فاتنته ناتالي قد صرفته عن الاهتمام بالإسلام .

ومما يشير الأسى أن أول لقاء بين هذا المسيحي المتعصب وبين الإسلام قد أصابه بالنفور ، فقد شاء القدر أن يتوجه إلى الشرق في الوقت الذي ألحق فيه الأتراك العثمانيون بالإسلام وصمة لا تمحى ، فما كاد يوطأ أرض اليونان حتى لمس وطأة الاحتلال العثماني وأثارته وحشيته في قمع الشعب اليوناني ، وما لبث أن أنشأ في هذه اللوحة الكابية أظفار رومانسيته . ولم يقنع بتسجيلها وفضحها بل أدانها وألقى على الإسلام تبعة تلك المآسي المفزعة واصفاً الإسلام بأنه جلاذ اليونان . وهنا يحق التساؤل : لو أن شاتوبريان قد بدأ رحلته في الشرق من مصر في يولية عام ١٨٠٦ كما فعل جيرانه نرفال من بعده ، أكان ذلك سيقبل من غلواء كراهيته للإسلام وحدة هجومه عليه ؟ لا شك أن الخطأ الجسيم الذي تردى فيه شاتوبريان هو تسرع في جعل أخطاء العثمانيين في مطلع القرن التاسع أخطاء المسلمين عامة في كل زمان ومكان (٢٦) .

ولقد تجاوز شاتوبريان جميع من تجنوا على الشرق أو تحاملوا عليه في كتاباتهم فزاد وسمي القرآن الكريم «كتاب محمد» ، وكانت هذه هي التسمية الشائعة للقرآن في أوروبا والفكرة السائدة عنه إلى أن غيرتها حصيلة المعارف الجديدة بعد جهود المستشرقين من أعضاء الجمعيات الآسيوية ومن أتيح لهم التعرف على البلاد الإسلامية عن قرب ، فضلا عن أن إسهام المستشرقين من المستشرقين أمثال سير وليام جونز (١٧٤٦ - ١٧٩٤) كان له أثره الكبير في أطراح هذا التعصب . على أن شاتوبريان قد رمى القرآن دون قراءته بخلوه من أي مبدأ حضاري أو أية قاعدة تسمو بالأخلاق أو تندد بالاستبداد أو تدعو إلى الحرية ، كما ادعى بأن الحروب الصليبية لم تكن عدوانا بل كانت رد فعل لوصول عمر [ابن الخطاب] إلى أوروبا ! ووصف المسلمين بأنهم : «يجهلون الحرية ويفتقرون إلى آداب المجتمع ، ويؤمنون بإله القوة ، وأنهم إذا لم يكبحهم غاز يبذر بينهم بذور العدالة الإلهية ينقلبون جنودا بلا قائد ومواطنين بلا مشرع وعائلة دون أب» .

والثابت أن شاتوبريان لم يقرأ القرآن ، وإذا كان قد قرأه فلا شك أنها قراءة سطحية عابرة . ولقد كان متاحا له قراءة ترجمة سافاري الممتعة لمعاني القرآن والتي ظهرت منذ عام ١٧٨٣ فضلا عن غيرها من التراجم الفرنسية والإنجليزية . وقد جانبه الصواب حين صور القرآن على أنه قصص لا سند له من الحقيقة ، كما لا نجد في كتاباته أية إشارة أمينة إلى النص القرآني ، وأغلب الظن أنه اكتفى بالاستماع إلى ما روي له عنه من تلفيقات غير صحيحة ، أو إلى روايات الرحالة الذين استعار من أحاديثهم الكثير في كتاباته . وعلي الرغم من ذلك كله نراه متأثرا كل التأثر بما نزل في القرآن الكريم عن عيسى ومريم من تبجيل وتوقير . وإذا كان شاتوبريان لم يبذل جهدا للنفذ إلى عمق النص القرآني فقد توسع في قراءة مراجع التاريخ الإسلامي حول الحروب الصليبية في

محاولة واضحة لكي يضفي عليها الشرعية كما قدمت . (٢٧) ولا يؤخذ على شاتوبريان جهله بعقيدة الإسلام بقدر ما يؤخذ عليه سوء نيته تجاهه ، فقد لام الإسلام قبل أن يزور أكثر بلاده ، وشجبه قبل أن يخبره ، وتحامل عليه بأحكامه الساخرة وتعميماته الباطلة التي حركت عليه كثرة من أصحاب الأقلام ممن تصدوا له في فرنسا عقب ظهور كتاب « الرحلة » يتناولونه بالنقد الحاد ويتهمون بالافتقار إلى الموضوعية ويأسفون لما هوى إليه أسلوب شاتوبريان المعرض من إسفاف وكراهية وحقد تؤججه روح انتقامية (٢٨) .

علي أننا نجد شاتوبريان يبدي مع ذلك اهتماما بالمنشآت المشيدة بالحجر التي أخذت مكان الصدارة في كتابه قبل المناظر الطبيعية ، وهي منشآت ذات طابع ديني كانت أدعى أن تكون مدخلا له لاستيعاب العقيدة الإسلامية وأن يقوده إعجابه بالفن الإسلامي إلى إنصاف الإسلام لكنه لم يفعل ، إذ كان اهتمامه بما شيده المسلمون يفوق اهتمامه بمن شيده . وعلي الرغم من أنه أمضى شهرا بمصر إلا أنه لم يحدثنا إلا لما ما عن طابعها الإسلامي ، فلم يذكر من عمارتها إلا جامع عمرو بن العاص متعجلا وهو يستطرد في الحديث عن قبة الصخرة ، وإن كان قد سجل انبهاره بجلال الآثار الفرعونية حين يقول : «أعترف أن أول نظرة ألقيتها على الأهرام قد حركت في نفسي الإعجاب بها ، لقد وقفت مترددا بين الحزن والبهجة وأنا أشهد أن أعظم أثر أبدعته أيدي الإنسان ليس غير مقبرة . غير أنني ما لبثت أن طردت عن ذهني فكرة أن هرم خوفو ليس إلا كومة من الأحجار والهيكل العظمية ، إذ سرعان ما أدركت أن الإنسان المصري لم يشيد مثل هذا الضريح مدفوعا بشعوره بالفناء والعدم بل مسوقا بغريزة خلوده . وتذكرت حكمة ديودور الصقلي التي تقول : إن أولئك القوم كانوا يدعون البيوت التي يحيون فيها مساكن عابرة في نفس الوقت الذي يسمون فيها مقابر الموتى بيوت الخلد التي لا يغادرونها إلى الأبد» .

وكانت المقارنة بين عظمة الماضي وضعة الحاضر من الموضوعات الأثيرة عند كتّاب الرحلات عن الشرق الأدنى عموما ومصر بالذات ، فلم ير شاتوبريان في مصر إلا « ذكريات بلاده العظيمة التي خلقتها فوق هذي السهول وحملتها إلى ضفاف النيل العبقريّة الفرنسية » . ثم يتساءل وهو يودع أرض مصر : «كيف أمكن لهذه الطغمة المنحلة من المسلمين أن يعيشوا على نفس الرقعة التي عاش فوقها من قبل قوم مختلفون تركوا في ذاكرة هيرودوت وديودور الصقلي أثرا لا يمحي ؟» . وفي ظني كما أسلفت أن مرد هذه المهاترة وتلك الغلظة في التعبير المتعاني عم شاهده في مصر هو التباس الأمر عليه إلى حد الخلط بين الإسلام وبين الفوضى القائمة التي أشاعها الاحتلال العثماني لقرون طويلة ، فعذر ضوخ المصريين للغزاة وتواكلهم أسلوب حياة نابع من تطبيقهم للإسلام الذي لم يكن هو نفسه بقراءة شيء عن أصوله في كتب جادة . ولو فعل لما أصدر هذا الحكم المجانب للصواب ، والذي لا يمكن أن يصدر إلا بدافع من تعصب أو تحامل .

(٢٧) المرجع السابق نفسه .

(٢٨) المرجع السابق نفسه



---

مُزِيحُ الظلمة عن  
غوامض الأسرار



شمپوليون  
١٧٩٠ - ١٨٣٢







تقدم جان فرانسوا شمبوليون وهو ابن سبعة عشر عاما فحسب إلى «جمعية الفنون والعلوم» بجريونيل عام ١٨٠٧ بأطروحتة الفذة عن الجغرافيا القبطية لمصر والتي ذهب فيها إلى أن اللغة القبطية هي لغة المصريين القدماء . وما كاد يبلغ الواحدة والعشرين حتى عين مدرسا بكلية الآداب في نفس المدينة، ونشر كتابه «مصر أيام الفراعنة» حين بلغ الثانية والثلاثين بعد أن توصل إلى حل رموز حجر رشيد. ومن الصدفة الغريبة أنه في الوقت الذي كان يقرأ فيه تحت قبة الأكاديمية الفرنسية في ١٧ سبتمبر ١٨٢٢ رسالته إلى الأستاذ داسييه سكرتير عام الأكاديمية الفرنسية عن الهير وغلificات، كانت تتهدى على صفحة نهر السين صنادل ضخمة أعدها المنقب «بلزوني» تحمل نموذجا دقيقا لمقبرة سيتي الأول التي اكتشفها عام ١٨١٧ واجتذب بفضلها شهرة كبيرة في فرنسا دعمها بإقدامه الجسور على اقتحام معبد أبي سمبل وهرم خفرع. وكان جسد بلزوني الضخم قد أهله لأن يستهل حياته لاعب سيرك وحامل أثقال مرموق، ثم اجتذبت الميكانيكا إلى أن تفرغ للاشتغال بشؤون الآثار، فعمل لحساب رحالة ومستكشفين من الأثرياء والنبلاء الإنجليز عفا الزمن على أسمائهم وبقي اسمه هو. وقد أدى طوله الفارع وقوته البدنية غير المألوفة إلى تسميته تارة شمشون الجبار وتارة مازد يادوا. وكان قد انكب طيلة سبعة وعشرين شهرا على إعداد نموذج المقبرة الطيبية التي أسند تنفيذها إلى فنانين قديرين صاغها في حجمها الطبيعي من واقع مستنسخاته لصورها ورسومها المتميزة بدقة وروعة فتنت عيون الآلاف الذين توافدوا على مشاهدتها في مدينة باريس بعد لندن.

وكان شمبوليون نفسه من بين من فتنتهم المقبرة كما فتنته الرموز الهير وغلificية التي ظل عاكفا بإصرار على فض أسرارها حتى نجح في قراءتها فملا وجدان العالم كله بحياة مصر القديمة على الرغم مما جرّ هذا الاكتشاف عليه من نقمة العلماء الذين نشؤوا على المعارف الكلاسيكية القديمة، والذين استنكروا ما يمكن أن تناله سمعة شعب «همجي» قديم - على حد قولهم - من تقدير نتيجة هذا الاكتشاف الذي أثار عليه بالمثل حفيظة كثيرين أخذوا يزعمون أنهم قد سبقوا شمبوليون إلى هذا الاكتشاف، ومن بينهم عالم الفيزياء والطبيب الإنجليزي توماس يونج الذي نشر في عام ١٨١٨ أربع صفحات مترجمة عن حجر رشيد في دقة شديدة تؤكد مطابقة النصّين الهير وغلificي والديموطيقي للنص اليوناني (٢٩). وهو لاشك جهد صادق لتمييز هذه الرموز القديمة يستحق التقدير والإشادة والتسجيل، غير أن هذا الجهد كان محاولة تجريبية تعتمد على الملاحظة والمقارنة

(٢٩) جاء في ملحق دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة ١٨١٩): «ومع أنه ليس من المحتمل أن تكون أية نتيجة من التي انتهى إليها توماس يونج قد أثرت على شمبوليون بأية حال، إلا أن إحصاء شمبوليون عن ذكر ما علمه مما توصل إليه العالم الإنجليزي قد أساء إلى سمعته. Supplement to The Encyclopaedia Britannica 4th edition 1819.



وتسندها عبقرية فذة دون أن يكون وراءها ذلك المنهج العلمي الراسخ الذي انتهجه شمشوليون . كذلك ظل عدد من علماء فرنسا على رأسهم جومار يحاربون الشاب العبقرى الذي أرقّ نجاحه المبكر لياليهم ، وزادت حدة هجومهم شراسة فرفضت أكاديمية الفنون الجميلة استقباله في ساحته على الرغم من نفوذ راعيه داسيه . وانتقلت الحرب إلى الصحافة التي مضت تنبش أسرار الماضي بحجة أن شمشوليون وشقيقه كانا من مشايخي نابليون بوناپرت ، وأخذ خصومه المقربون من لويس الثامن عشر وخاصة جومار يؤلّبونه عليه ، وذهبوا إلى حد التقليل من شأن صفة «المصري» التي كُتبت بها فكّنوا جومار «بالمصري الحقيقي» كما كنّوا توماس يوج «بالمصري بالحوار» ، غير أن ذلك كله لم يفتّ في عضد شمشوليون الذي ترك لشقيقه الأكبر مهمة الدفاع عنه وانبرى محاولا إثبات نظريته عن الرموز الهيروغليفية باكتشافات جديدة حتى نطقت أطلال الكرنك الخرساء وانطلقت تروي قصة عشرين قرنا من تاريخ مصر المجهول .

وكان شمشوليون على معرفة تامة بالإنجاز العظيم الذي قامت به لجنة العلوم والفنون بجيش بوناپرت ويدرك قيمته الأركيولوجية كما يعي بوضوح أكثر من غيره ما يدين به لكونه علماء عام ١٧٩٩ ، إلا أنه كان يؤمن أيضا أن له دورا يؤدّيه ويقدم به إضافة جديدة إلى عمل أولئك العلماء الأفاضل . فكتب عام ١٨٢٧ مذكّرة رفعها إلى الملك شارل العاشر يلتمس فيها أن تبعث به الحكومة الفرنسية إلى مصر ليحقق هذا العمل الذي كان يتوق إلى إنجازه توقه إلى رؤية مصر . وقد أشار في هذه المذكرة إلى : «أن أعضاء لجنة العلوم والفنون والرحالة الذين مضوا في إثرهم كانوا يعتقدون باستحالة الوصول إلى فض أسرار الرموز الهيروغليفية وهو ما حفزهم على عدم التدقيق في نسخ النقوش المسهبة والكتابات المقدسة المصاحبة للشخص المحفورة في لوحات النقش الغائر التاريخية ، بل إنهم أهملوا نسخ الكتابات مكتفين بتحديد المكان الذي تشغله إلى جانب المشاهد المصوّرة التي نقلوها في حين أن الاستنساخ الدقيق لهذه المناظر الرائعة بكل ما تحمله من نقوش الكتابة الهيروغليفية يحمل في طياته قيمة ثمينة بغير حدود . ذلك أن هذه المشاهد يكشف كل واحد منها سرّا آخر ، وهو ما يحقق الآمال العريضة التي تعقدها عليها علوم التاريخ» . وهكذا فصلّ شمشوليون في مذكرته للملك خطته وأهداف رحلته وحرصه على ضرورة استكمال المعارف الهندسية والدينية والفنية والصناعية التي جمعت عن مصر الفرعونية بسرعة وحسم ، وأهمية تسجيل تلك النقوش الهامة - التي يتهددها لصوص المقابر الذين يجهلون قدرها كما تترصدّها الفيضانات التي لا تكفّ عن التلاحق - ونقلها إلى أوروبا!

وكان شمشوليون قد وفق إلى شراء مجموعة الآثار المصرية التي عرضها للبيع هنري صولت القنصل الإنجليزي بمصر ، وتم نقلها إلى باريس وعرضها بمتحف اللوفر في ديسمبر ١٨٢٧ على الرغم مما أثاره جومار من احتجاج وضجيج . وكان هذا النجاح وراء تعيين شمشوليون أمينا للعاديات المصرية بمتحف اللوفر ، وهو المنصب الذي أتاح له أن يتوجه بعد ذلك إلى مصر ليحقق حلم حياته ، فاختر رئيسا للبعثة المتجهة إلى مصر والتي انضمت إليها بعثة إيطالية يرأسها المستشرق روسيليني ، ووصلت البعثتان إلى الإسكندرية في ١٨ أغسطس عام ١٨٢٨ .

وقد حاول دروفييتي القنصل الفرنسي في مصر عرقلة أعمال هذه البعثة وخاصة بعد وفاة منافسه هنري صولت القنصل البريطاني ، إذ كان يأمل أن يبقى في مصر سيّد الموقف بلا منازع

يتنبّ كيف يشاء ويهرّب غنائمه بجلء حريته ، غير أن محمد علي بسط حمايته على بعثة شمشوليون وأمر بمدّها بكل مساعدة تحتاجها في كل موقع تحلّ به ، كما طالب بترجمة نقوش مسئلة الإسكندرية .

وإذا كانت حماسة شمشوليون لآثار مصر القديمة قد أمسكت بتلابيبه فإن حياة المصريين المعاصرين قد اجتذبت بعض اهتمامه حتى إن رسائله الموجهة إلى شقيقه والتي نُشرت بعد عودته لم تخل من وصف مشاهد الحياة المصرية ، فقد كتب على سبيل المثال يصف احتفالات مولد النبي بالقاهرة قائلا : «احتشد ميدان الأريكية الذي تغطي مياه الفيضان منتصفه بالجماهير الملتفة حول المشعوذين والراقصات والمغنيات ، وانتصبت سرادقات بديعة رائعة يمارس فيها الناس شعائر الخفل . فكان هناك فريق يتلو وهو جالس آيات القرآن بصورة منتظمة ، كما كان هنالك ما يقرب من ثلاثمائة شخص مصطفين في صفوف متوازية يحركون بصفة مستمرة جذوعهم إلى الأمام وإلى الوراء مثل الدّمى المتحركة وهم يسبحون قائلين ، لا إله إلا الله . وعلي مبعده منهم يقف قرابة خمسمائة فرد في حلقة متراصة يتحركون وكأنما هم غائبون عن الكون المحيط بهم ، تعلو سواعدهم وتهبط مع إيقاع كلمة «الله» التي ينسون بها من أعماق صدورهم بصوت مكثود تغلّفه بحّة جعلتني أوقن أن هذه الأصوات التي لم أسمع مثلها من قبل تأتي من عالم سفلي عميق الأغوار . وإلى جوار هذه الطقوس الدينية يطوف الموسيقيون وبنات الهوى ، على حين تنشط في الساحة الأراجيح التي تدور بالشباب والأطفال . ويشكل هذا الخليط من الألعاب الدنيوية والعبادات الدينية فضلا عن غرابة أشكال القوم والتنوع الشديد في الأزياء مشهدا بالغ الغرابة لن أنساه قط» .

غير أن حياة المصريين المعاصرين لم تكن هدف مجيء البعثة إلى مصر التي بدأت رحلتها على مركبين لتصل أول ما تصل إلى بني حسن . ولم يكن في نية شمشوليون أن يطيل مكثه حين توقفت البعثة هناك ، إذ كان يعتقد أن جومار قد أوفى مقابرها حقها من الوصف فإذا هو يمكث بها أسبوعين بعد أن تبين له أن جومار لم يقدم عنها غير فكرة واهية برسومه الموحزة البعيدة عن الدقة وبعباراته الغامضة . ومن ثم فقد عكف شمشوليون على دراسة الرسوم الجدارية الشهيرة التي تسجل مشاهد الحياة اليومية والمناظر الريفية ، خلال «الدولة الوسطى» ، فكان أول من أظهر أهمية مقابر بني حسن بالمنيا في تاريخ فن العمارة ، إذ نشأت في أعماقه وهو يتأمل الأعمدة التي تصدر أروقة المقابر فكرة إطلاق اسم طراز «ما قبل الدّوري»<sup>(٣٠)</sup> عليها الذي اعتبره الأصل المصري للعمود الإغريقي الأول ، وهي النظرية التي كان عليه أن يدعمها بنماذج أعمدة معبد حتشپسوت بالدير البحري في طيبة . و الحق إن الكثير من ألفاظ علم المصريات التي يستخدمها الأثريون حتى اليوم هي من وضع شمشوليون الذي سُمّي عن جدارة مؤسس علم المصريات .

وقد بلغ من لهفته إلى رؤية معبد دندره الذي كثيرا ما حدّثه عنه فيثان دينون أنه حين أدركه ليلا لم يتلبّث إلى أن يطالعه الصباح بل أخذ يعدو في ضوء القمر ليكتشف تلك التحفة الهندسية الرائعة التي تغطيها نقوش منحوتة من طراز يعود إلى عهد الحكم البطلمي أو ما يدعى بعهد الانحلال السياسي . وعلي ضوء مصباح خافت إلى جانب ضوء القمر أخذ يتبين أسماء الأباطرة الرومان : تيبيريوس وكلاوديوس ونبيرون على جدران الهيكل إلى أن أعانته نقوش الخراطيش

(٣٠) Doeric order . يتكون العمود الدّوري من طيلات رخامية أسطوانية الشكل ، تتخللها خوابير تربط بين كل طيلة وأخرى ، وتُحت في سطح العمود الخارجي عشرون أخدودا طوليا من أسفل العمود حتى قمته ، تؤدي غرضا مزدوجا ، فهي تلقي ظلّالا على بدن العمود حسب اتجاهات الضوء المختلفة بما يوحى باستدارته ، كما تضفي طابعا جماليا بتوفير جملة من الخطوط الرشيقة المريحة للعين ، تقود نظر المشاهد إلى أعلي صوب منحوتات النضد [م . م . م . ث . ]



الملكية لـ «لوحات أبيدوس» والكتابات المسجلة على جدران قاعة الملوك بالكرنك على تحديد الترتيب الزمني لتتابع الملوك منذ عهد الملك مينا ، وكذا تلاحق الأحداث وتواريخ تشييد الآثار ، فاستطاع بذلك إزاحة الستار عن تاريخ ظل طويلا مغمورا في دياجير الماضي .

وكلما غاص صوب الجنوب تعاظمت سعادته بالفرصة الذهبية التي أتاحها له هذه البعثة ، وحين بلغ وادي حلفا كتب إلى داسييه قائلا : « كم أنا فخور بعد أن قطعت نهر النيل من مصبه إلى الشلال الثاني بأن أنهي إليك أنه ليس هناك ما يبرر إجراء أي تعديل في بحثنا الذي أعدناه عن حروف الهجاء الهيروغليفي . لقد تأكد لي سلامة ما وصلنا إليه ، فقد طبقتُ أبجديتنا بنجاح في كل موقع من مواقع الآثار المصرية من عهد الرومان والبطالمة ثم على نقوش المعابد والمقابر الفرعونية وهو الأهم . وبهذا تكون كافة الجهود التي بذلتها لتشجيع أبحاثي الهيروغليفية مشروعة وعادلة في وقت لم تكن فيه ظروفنا الدولية تسمح لنا بمثل هذه الحماسة » .

وعلي الرغم من أنه أخذ يعاني وهو يهبط النيل من صداع لم يفارقه ومن آلام مرض النقرس التي كانت تستدعي نقله محمولا ، ومن شظف العيش الذي كان يقسو عليه أحيانا فيتركه يقاسي ألم الجوع وحرارة الجو ، فإنه لم يتوقف عن الاستكشاف الأركيولوجي بدءا بمعبد أبي سمبل الذي عانى طويلا للنفاذ إلى قاعته الكبرى وسط مصاعب جمّة ، والذي مكث إلى جواره مع زملائه أسبوعين لنسخ النقوش الغائرة على جدران القاعة بمقاييس كبيرة وبألوانها الحقيقية . والحق إن شمويليون كان قديرا وبارعا في تشكيل جماعات تعمل بالتناوب احتملت مثله الجوع والعطش وأكبت على عملها في بطولة تدعو إلى الإعجاب ، فأخذت الرسوم تزداد وتتكدس حتى كتب إلى داسييه يقول : « إنه ليسعدني أن أضع تحت نظرك مصر القديمة كلها : ديانتها وتاريخها وفنونها وحرفها وعاداتها وأعرافها . وقد أنجزت الجانب الأكبر من رسومي بالألوان ، ولست أخفي مغايرتها التامة لرسوم صاحبنا جومار لأنها تستنسخ الطراز الحقيقي للأصول بدقة وأمانة » .

وإذا كان المجال هنا لا ينفصح لبسط إنجازات شمويليون في جولته داخل معابد النوبة ومصر العليا فإننا نستطيع التأكيد بأنه كان دائما يلقي ضوءا جديدا على كل أثر يزوره ويمعن النظر فيه ، كما كان يصوّب آراء من سبقوه ، ويحرص على التزام الدقة في تحديد التواريخ الزمنية ، ويصحّح ما تضمنته أحكام البعض من شظط أوقعته في أذواقهم الخاصة . وهو الذي أوصى بنقل إحدى مسئّلي الأقصر إلى فرنسا ، ووضع الخطة التي تم بها نقلها فيما بعد بواسطة بعض المهندسين والبنّائين الذين وضعوها فوق رمث يطفو على سطح النيل وتظل مياه الفيضان تدفعه صوب البحر حتى السفينة التي تحمل المسلة إلى فرنسا . وكان شمويليون يؤمن بأن وقوع عيون مواطنيه على أثر بمثل هذه العظمة كفيل بأن يثير نفورهم من الزخارف التافهة والزينات الرخيصة التي يطلقون عليها تجاوزاً اسم الآثار العامة في حين أنها لا تزيد في نظره عن زخارف لتزيين مخادع النوم ، فالمسلة في نظره جذيرة بأن يقف أمامها في خشوع الفنان والمهندسون العظماء الذين عاشوا يحاكون في دقة شديدة فنون الرومان المتدهورة في آخر عهدهم .

وقد اتخذ شمويليون خلال وجوده بالضفة الغربية كوخاً من اللبن كان يعيش فيه ببلدة القرنة أطلق عليه اسم «القصر» ، كما كان يعيش أحيانا أخرى في مقبرة رمسيس الرابع الحالية والمقامة بمدخل جبانة وادي الملوك . وكان مع ذلك سعيدا أن وجد مأوى «لقافلة حميره وعلمائه» كي يفرغ

لعمله على الرغم من دسائس القنصل دروشتي الذي لم يتوقف عن تأليب مساعديه عليه تارة وتعطيل بريده في الإسكندرية تارة أخرى ، وحث جومار على تحريض الملك على إيقاف صرف العشرة الآلاف فرنك اللازمة للإنفاق على الحفائر . وكانت إقامته الطويلة في وادي الملوك من ٢٣ مارس إلى ٨ يونيو قد أنهكت قواه ، ومع ذلك لم يكن يكفّ عن اللجوء إلى سراديب المقابر لينشد السكون المطلق وللإصغاء إلى أصوات الأسلاف ، وما أكثر ما عاجله الإغماء حتى يعثر عليه أفراد بعثته فيخرجوه إلى النور ونسمات الهواء . وقد كان بمسلكه هذا قدوة للعاملين من حوله ، يأتسون بشجاعته التي لا تبارى وبروحه المرحّة التي لا تخبو أبدا ، فقد أحال مقبرة رمسيس الرابع الحالية التي كان يسكن فيها خلال إقامته هناك حديقة للحيوانات ، إذ أسكن معه فيها غزالا وقطا من كردفان وبعض فهود صغيرة لم تكن تتردد في دغدغة أقدام النائمين بأسنانها الوليدة ، وإن كان يخصص فترة من سهرته في رفقة غزاله الأثير يداعبه ثم ينكبّ على مذكراته ورسومه لاستكمال واجبه اليومي ، فلم يكن ثمة شيء يشدّ انتباهه غير عمله .

ولقد تردّى شمويليون في بعض الأخطاء وهو ما كان أمرا متوقّعا في زمن كان علم التنقيب ما يزال في مهده ، كما كانت الوثائق المتفرقة ناقصة وغير كافية . فهو لم يميّز على سبيل المثال هويّة الملكة حتشيسوت فوق النقوش الغائرة بالدير البحري نتيجة التحويرات والطمس الذي كان تحتّمس الثالث قد أمر به ، كما لم يفتن كذلك إلى الطابع الديني والجنائزي لعمائر الضفة الغربية ، فاعتقد - كما اعتقد من سبقوه - أن الدير البحري ودير المدينة والرامسيوم والقرنة كانت قصورا وبيوتا سكنية لا معابد ، ولكنه صوّب اسم مقبرة أوزيما ندياس الذي أطلقتها لجنة «المجمع العلمي» وسماها باسمها الحقيقي وهو «الرامسيوم» وقدم وصفا تفصيليا لنقوشه التاريخية الغائرة . لقد بدّد شمويليون الغموض وأزاح الظلمات وأخرج من أعماق ظلمة الليل الذي امتد آلاف الأعوام وجوهاً جديدة وفراغة يستقلّون عجالاتهم الحربية ومواكب متنوعة وأسرى يهودا وسوريين ونوبيين مغلّين بالقيود ، وكهنة يرتدون جلود الفهود ويحملون القارب المقدس ، وكل طقوس مصر الفرعونية سلماً وحرباً ، وأضفى على النصوص نبض الحياة وجعلها تنطق من فوق جدران المعابد وحوائط السرايب الطويلة المحفورة في جوف الجبل فتروي لنا ملاحم شعرية تسجّل ذكرى الانتصار المصري على الحيثيين في معركة قادش ، وأغاني درس الغلال والحصاد ، ونقوش الشعائر ، ونصوص كتاب الموتى .

وغادرت البعثة الكرنك في الرابع من سبتمبر لتصل القاهرة في الخامس عشر منه حيث التقى شمويليون بأصدقائه وعلي رأسهم كلوت بك زميله في الدراسة بليسيه جرينوبل والذي كان في حالة فرع شديد بعد أن هدّد الباشا في نزوة طارئة بإغلاق مدرسة الطب بأبي زعل بعد إنشائها بستين وتحويلها إلى مصنع عصري لغزل الحرير . وتحت إلهام الطبيب كلوت بك تدخل شمويليون لدى إبراهيم باشا لإنقاذ مدرسة الطب من المصير الذي كان يهددها به ذلك القرار الطائش . وفي الإسكندرية استقبل محمد علي باشا شمويليون بترحاب وتلقّى منه بحثا موجزا عن تاريخ مصر ومذكرة عن طريقة الحفاظ على آثار البلاد أرفق بها قائمة كاملة بجميع الآثار والمباني التي كانت لا تزال قائمة في عام ١٨٢٩ - ١٨٣٠ .

وقد تميّزت جهود شمويليون عن جهود واضعي كتاب «وصف مصر» بأنه أضاف إلى علم





أَتَبَاع

سان سيمون

المصريات إقليما جديدا هو النوبة ، إذ كان أول من قام بدراسة جادة للمعابد المشيدة على ضفتي النيل بين الشلالين الأول والثاني ، فكان في امتداد الساحة الأركيولوجية صوب الجنوب بعض العزاء عن التخريب الذي لحق بالآثار المصرية في السنوات السابقة . وإن المرء ليمتليء أسى وعجبا حين يطالع المذكرة التي قدمها شموليون لمحمد علي عن السرعة الحافظة التي اختفت بها خلال عهده مجموعات معمارية ضخمة مثل أنتينوبوليس [ الشيخ عبادة ] وهرموبوليس [الأشمونين] وأنطاكي بوليس [ قا الكبير قرب سوهاج ] وكونترا لاطابوليس [ قرب إسنا ] . ولم يسجل شموليون التخريب الذي قام به الأهالي أنفسهم والمغامرون والمهندسون ومهربو التماثيل والمومياءات فحسب بل كذلك ماتم على أيدي المنقبين الجشعين غير الأكفاء ، كما طالب بوضع اللوائح لتقنين أعمال التنقيب وتنظيمها ، الأمر الذي تحقق على يد مارييت في عام ١٨٥٨ بعد إنشاء مصلحة الآثار المصرية .

وفي أول يناير عام ١٨٣٠ كتب شموليون إلى داسييه من ميناء طولون يقول : «ها هو ذا آمون رع يأذن لي بوداع ثراه المقدس ، وها هي ذي الإلهة حتحور تبارك رحلتي من الإسكندرية إلى شاطئ البروقانس» . ومع ذلك فقد حانت التفاتة إنسانية من شموليون إلى شعب مصر الذي شاهد عن قرب معاناته في ظل نظام حكم فرد مستبد ولم ينجح ذلك السيف الذهبي البديع الذي أهده إياه محمد علي في زحزحته عن معتقده في وضع مصر الذي حرك فيه الهلع والرثاء حتي كتب يقول : «ما إن ترامى إلى محمد علي أن المصريين القدماء كانوا يرمزون لبلادهم بالبقرة حتى انكب عليها يحلبها ويرهقها ويستنزف قواها آناء الليل وأطراف النهار . ولعل هذا المسلك منه لم يكن إلا ثمرة النصائح الغالية التي كان يسديها لمحمد علي القنصل دروغيي وجومار العظيم وغيرهما ممن لبسوا مسوح رعاة هذا الشعب المنكوب» .

وقد ظل شموليون بعد عودته إلى باريس مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصر القديمة ، فقد اختير على الرغم من دسائس خصومه أستاذا للتاريخ والأركيولوجية المصرية بالكوليج ده فرانس عام ١٨٣١ ، وبدأ يعد مؤلفه الشامخ «آثار مصر والنوبة»<sup>(٣١)</sup> ، غير أن شعلة الفكر المتوهجة في أعماقه كانت أقل رفقا بجسده الهش الذي لم يحتمل السهاد المتصل والهموم المتواكبة والجدل المحموم . فبعد هجير الصيف اللافح الذي قضاه في طيبة افترس رثيه شتاء باريس القارص فلم يستمتع طويلا بانتصاره . وبعد مرض قصير غامض قضى نحبه إثر نزيف في المخ في ٤ مارس ١٨٣٢ وهو ما يزال في الثانية والأربعين من عمره . على أن فريقا بارا من تلامذته وأعوانه تكاتفوا لإخراج مؤلفه العظيم ، فعاد رسامه نسطور لوت إلى مصر مرتين لاستكمال تسجيل بعض الآثار ، وعندما توفاه الله بدوره مبكرا حمل مارييت ابن أخيه الشعلة التي بقيت متقدة لم يخب لها أوار<sup>(٣٢)</sup> .

J.F. Champollion: (٣١)  
Les monuments de  
L'Egypte et de la Nubie  
d'après les Dessins  
inédits executé par  
l'auteur sur les lieux.  
Paris. Didot 1835-45.

J.M. Carré: Voya- (٣٢)  
geurs et Ecrivains  
Français en Egypte.





كان سان سيمون الذي وُلد عام ١٧٦٠ خلال عهد لويس الخامس عشر أول داعية في الغرب لإنشاء علم الاجتماع الحديث دون أن يعدّه الكثيرون عالماً يسعى وراء الحقيقة بل فنانياً يتلمّس الجمال وتستهوّه الشهرة، وشهد بعضهم أنه مع تطلّعه إلى تنظيم المجتمع الإنساني قد عجز عن تنظيم حياته الخاصة وأفكاره الشخصية. وكان سان سيمون يرى أن السياسة ينبغي أن تركز على الأخلاق، وأن رجال الصناعة هم وحدهم المتحلّون بالأخلاق الحميدة لأنهم يهدفون إلى الصالح الاجتماعي العام، ومن ثمّ وجب إسناد شؤون الحكم إليهم. كما رأى الدين اختراعاً من صنع الإنسان وأن العلم هو الدين الذي ينبغي أن تعتنقه البشرية عن بكرة أبيها في المستقبل، كما ينبغي أن يعمل أفراد المجتمع بأسره للارتقاء بالمستوى الأخلاقي والصحي للطبقة المحرومة. ويستذكر سان سيمون قصر تسجيل التاريخ على حياة الملوك، فالتاريخ الحقيقي في نظره هو تاريخ العلوم الذي لا يزال طفلاً في المهد في حين أن المعرفة والعلم هما الوسيلة الوحيدة للتقارب بين القلوب وإقامة الوحدة البشرية التي تحول دون نشوب الحروب بين الشعوب وفتك الإنسان بأخيه الإنسان، ومن ثمّ فلا حاجة إلى جنود مرتزقة لضمان الأمن وانتشار السلام. ويسخر سان سيمون من المندّدين بدعوته تلك خشية تعرض الوطن للغزو مدّلاً على وجهة نظره بأن فرنسا لم تتعرض للغزو مرة واحدة دون أن تكون جيوش المواطنين المدنيين الذين لم يحترفوا القتال هي التي ردّت العدو على أعقابهِ. وكذلك نادى بضرورة تغيير نظام الملكية الوراثية لإصلاح النظام الاجتماعي، وفرض سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وتحرير النساء شيئاً فشيئاً.



لوحة ١٢٩ - الأب أنفانتان  
زعيم السان سيمونيين

وفي اليوم التالي لوفاة سان سيمون في ١٩ مايو ١٨٢٥ تصدّى بارتلمي بروسبير أنفانتان لقيادة الحركة الفكرية التي غرس بذرتها سان سيمون وظل يرعاها قرابة خمسة وعشرين سنة تعرض خلالها للكثير من العنت والاضطهاد في سبيل تحقيق أهداف زعيمه الذي دعا «رسول الإنسانية» (لوحة ١٢٩ ملون). وقد اشترك عام ١٨٢٩ مع لفيف من الشبان النابهيّين المؤمنين بالحركة السان سيمونية بتعديل بعض مبادئ سان سيمون وتوضيحها ونسجوا منها مذهباً فكرياً عُرف باسم «السان سيمونية» نشره في كتاب بعنوان «عقيدة سان سيمون»<sup>(٣٣)</sup>. ومن يومها جرى اختيار أنفانتان أباً للأسرة السان سيمونية ومُرشداً لها، فقد كان يجمع إلى العلم بالاقتصاد العلم بالفلسفة والتصوّف، وكان له أكبر الفضل في تحويل ما كان اتجاهاً فكرياً فحسب إلى ما يقرب من المذهب العقائدي الذي يقوم على جملة من الشعائر المتطرفة والثياب الغريبة والعادات غير المألوفة التي أثارت حوله وحول أتباعه في البداية الكثير من الشكوك والسخرية. وقد بث أنفانتان في أعضاء الحركة روحاً صوفية روحانية فعكف هو وأتباعه على خدمة أنفسهم بأنفسهم بعد أن نادوا بإلغاء نظام الخدم. وأخذوا يشرّون الجماهير بعقيدتهم عن طريق الخطب والناشيد التي عرضتهم رغم بعدها عن أي اتجاه سياسي أو عدواني إلى أساليب شتى من مطاردة رجال الشرطة والجيش واضطهادهم، كما قدّموا

(٣٣) انظر محمد طلعت  
عيسى: أتباع سان سيمون.  
فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها  
في مصر ١٩٦٣



للمحاكمة بتهمة إفساد الأخلاق وهدم القيم . وبالرغم من تعرض هذه الجماعة للانقسام الذي أدى إلى اختفائها فيما بعد إلا أن ما أرسته من اتجاهات الإصلاح الاجتماعي بقيت تمارس تأثيراً كبيراً وبخاصة على الفكر الاشتراكي لسنوات طويلة . وكان الاضطهاد الذي لقيه أتباع سان سيمون هو الذي أشعل فيهم فكرة الهجرة . وبينما كان الأب أنفانتان يقضي فترة العقوبة المحكوم عليه بها في السجن انبثقت في ذهنه فكرة الرحيل إلى «الشرق» ، ذلك الشرق الغامض غموض الصحراء . وكان الشرق في نظره هو مصر الساحرة ، أرض فرعون وموسى التي يشقها النيل الخالد . ولم يكن الرحيل إلى الشرق يعني عند أنفانتان هروبا إلى معتزل بل كان نزوحا إلى موطن تسمو فيه الأخلاق بأكثر مما تسمو في الغرب ، بل كان يؤمن أن ربط الغرب بأخلاقيات الشرق هو سبيل البشرية إلى الوحدة والتماسك .

Ed. Driault: (٣٤)

La Renaissance de  
L'Egypte, Napoléon.  
1925.

ولقد سحرت مصر السان سيمونيين من خلال ماضيها العريق ومستقبلها الواعد ، فقد كانوا ينشدون التعاون الأخوي بين كافة الشعوب وبين سائر الطبقات الاجتماعية وذويان الأجناس في بعضها البعض . وكانت لهم سياسة تجاه الشعوب الإسلامية اتخذت شكل فلسفة إسلامية ، فقد استقرت في أعماقهم رؤية جريئة غربية تتمثل في «تلقيح» الجنس الأسمر الأنثوي العاطفي بالفضائل المذكورة العلمية للجنس الأبيض ! كما اتخذوا شعاراً لهم كلمة نابليون الماثورة «أنه عن طريق مصر وحدها يمكن أن تتلقى شعوب وسط إفريقيا النور والرفاهية» (٣٤) .

والحق إن هؤلاء السان سيمونيين المثاليين لم تكن لهم سياسة وفلسفة إسلامية فحسب بل وفلسفة لحوض البحر المتوسط جميعه ، إذ كانوا يعدّون شق قناة في برزخ السويس فرضاً واجب التنفيذ على أيديهم ، كما كانوا يؤمنون بأن انبثاق خط أزرق نحيل من المياه الزرقاء في برزخ السويس هو إشارة كبرى للسلام والحب والوئام بين القارات وهمزة الوصل بين البشر . وبهذا المعنى أكمل السان سيمونيون رسالة «المجمع العلمي المصري» دون أن يلقوا بالألمانية نابليون بشق القناة بوصفها هدفاً حربياً وتحدياً للإنجليز بل بوصفها شعلة في قمة منارة تنوهج لتضيء طريق المودة الإنسانية . وإذ كانوا سلالة فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماء حملة بوناپرت فإنهم قاموا من بعدهم وتحت راية فكرية مغايرة تماماً لراية أجدادهم بأخذ زمام الحملة الفرنسية الثانية التي اتخذت هذه المرة طابعاً إنسانياً وحضارياً خالصاً .

عقد الأب أنفانتان عزمه على التوجه إلى مصر مع أخلص مرديده لتحقيق هدف سان سيمون وهو شق قناة السويس أو على حد تعبير هنري فورنيل ألمع مهندسي المجموعة عندما انبرى لشرح برنامجهم : «لكي نعبّر الصحراء التي تفصل البحرين ، ولكي نستكمل الدراسات التي جرت خلال حملة مصر ، ومن ثم إحاطة العالم بأفضل الوسائل لربط السويس بالبحر المتوسط وبذلك تصبح الهند على صلة بأوروبا» . على أن الأب أنفانتان كان إلى جوار نظراته الإنسانية إلى الصناعة والاقتصاد ينظر إلى بلدان الشرق نظرة روحية ، فمضى يعبر عن هذه الآراء بأسلوب رومانسي محدداً رسالة أتباعه بأنها شق طريق عصري بين مصر العريقة ومملكة يهوذا صوب الهند والصين قائلا : «لنضع إحدى القدمين على النيل والأخرى على أورشليم . ولنمُدّ يداً اليمنى صوب مكة على حين تغطي ذراعنا اليسرى روما ، بينما مازلنا نتكى على باريس . السويس هي بؤرة حياتنا وجهادنا . هناك نتم العمل الذي يترقبه العالم والذي نثبت به عنفواننا» .



لوحة ١٣٠ - ماشيرو. زى  
فنان سان سيموني

وكان من بين السان سيمونيين الذين وفدوا إلى مصر منذ اللحظة الأولى - وعددهم خمسة وخمسون رجلاً يمثلون كافة المهن والحرف والفنون - جملة من الأدباء والصحفيين بطبيعة الحال ، فقد كان للنظرية السان سيمونية أثرها كذلك على تيار الشعر المعاصر لها والذي شد إليها سانت بيث ولامارتين ولوكونت دوليل ومكسيم دوكان ، غير أن الخلقاء كانوا يُجندون من بين التقنيين والمهندسين وعلماء الرياضة الذين شكّلوا الأغلبية الساحقة للفريق الجريء الذي غادر مارسيليا يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٣٣ وهم أشد ما يكونون حماسة وحيوية ، وقد ارتدوا الزي الرسمي الذي صمّمه الأب أنفانتان : بنطلون أبيض بلون الحب ، وصديري أحمر بلون العمل ، ودثار ضيق يُمنطق الخصر ذو أكمام فضفاضة ، وقميص أزرق بنفسجي ، وباقة شديدة الانفتاح ، وشعر مُرسل مع الريح يعلو رأساً مرفوعة تتحرك بحرية دون عائق ، وانجهموا نحو السفينة يتغنّون بنشيد سان سيمون وسط الجمهور الذي هزأ بهم حتى كاد يقذف بهم إلى البحر «لوحات ١٣٠ ، ١٣١ ، ١ ملون ، ٢ ملون ، ٣ ملون» . ومع ذلك رحلوا صوب الشرق يحملون حماسة صليبية مخالفة لروح أسلافهم القدامى وقد امتلأت قلوبهم آمالاً بغير حدود . على أن الرحيل إلى مصر لم يجر في سلام ، فحين تفرّق أتباع سان سيمون في أنحاء فرنسا لضمّ الأنصار استهدفوا حملات من السخرية والإيذاء حتى تهكّم عليهم أحد رجال الشرطة في تقريره قائلاً : «فلنتمنّ لهم رحلة طيبة إلى مصر ، وليُحطهم سان سيمون بالرعاية من الدهماء في تلك البلاد التي تستخدم عقوبة الخازوق» .



لوحة ١٣١ - نماذج من أزياء السان سيمونيين من تصميم الفنان ماشيرو





لوحة (١٣٢) لبنان ده بلفون.

Suzanne Voilquin: (٣٥)  
Journal d'une Saint -  
Simonienne en Egypte.  
1866



لوحة (١٣٣) الموسيقار  
فيليسيان دافيد . متحف البلدية  
بسان جرمان آن ليه .

يضيع هباء وقصد القاهرة على الفور في صحبة أفضل مهندسيه : شارل لامبير وهنري فورنيل . وما كانت أشد فرحتهم حين اكتشفوا أنه بينما كانت السلطة الصناعية في أوروبا تتصارع مع السلطة السياسية كان الأمر في مصر على خلاف ذلك ، إذ كان حاكم مصر محمد علي يملك في يده وحده التجارة والزراعة والمصانع والعلوم والفنون فضلا عن أن جيشه كان يحميه من الانتفاضات الثورية . كانت كلمة واحدة من الوالي تكفي كي يتوجه مئات الآلاف من الرجال لترويض التربة ، حتى لقد تم شق قناة المحمودية في أقل من شهر كما يقرر أنفانتان الذي لم يكن يعرف أو لعله لم يشأ أن يعرف ما سوف يقتضيه هذا العمل من تضحية بأرواح الكثير من المصريين . كذلك كانت مصر هي البقعة المثلى لتحقيق أهداف السان سيمونية المناهية بالغاء الملكية الوراثية لاسيما أن محمد علي بات يمتلك كافة الأراضي تاركا ريع الأرض فقط للمزارع طوال حياته . ولكن ما دامت الأمور تجري بمثل هذه السهولة في مصر فأية صعوبة يمكن أن تعترض شق قناة السويس ؟ ومن ثم فقد بدأت المناقشات النظرية

واستطلاع طبيعة الأرض وإعداد الخطط والرسوم ، إلا أن الباشا أثر البدء بقناطر النيل وتأجيل مشروع شق قناة السويس مما أصاب المهندس فورنيل بخيبة أمل شديدة انعكست على علاقته بالأب أنفانتان فعاد إلى فرنسا مقعماً بالمرارة ، كما عاد معه كذلك عدد من أفضل الفنيين في المجموعة السان سيمونية ، غير أن شارل لامبير المهندس البار والروح المتوثبة بين السان سيمونيين ظل على وفائه لرفقته . وإذا لم يكن في الإمكان تحقيق حلم السان سيمونيين كله فلا بأس من تنفيذ الشطر الثاني من هذا الحلم وهو تشييد القناطر التي أمر الباشا بتنفيذها فوراً . ومن ثم قدم أنفانتان ولامبير خدماتهما إلى الباشا فأسس مدرسة للمهندسين بالقناطر كي يُنشأ مهندسي المستقبل موصولين بالواقع ، وبمعاونة الكولونيل سيف أنشأ مدرسة للمشاة في دمياط ومدرسة للفرسان بالجيزة ومزرعة نموذجية بشبرا ومدرسة للبنات بالجيزة ، وكان محمد علي متردداً في إنشائها إلى أن رضخ لإلحاح أنفانتان وسوزان فوالكان التي سجلت فيما بعد ذكرياتها في كتاب بعنوان «يوميات سان سيمونية بمصر»<sup>(٣٥)</sup> يعدّ مرجعاً وافياً لنشاط أتباع سان سيمون خلال الفترة التي مكثتها المؤلف بمصر .

واستدعى أنفانتان ولامبير من فرنسا فريقاً آخر من المهندسين ، وبدأ العمل في القناطر يوم ١٢ مايو ١٨٣٤ . وقد عسكر السان سيمونيون في الموقع داخل خيام منصوبة بعد أن عدّلوا زيهيم ليقرب من الطابع الشرقي . يقول أنفانتان في إحدى رسائله : «إذا شئت أن تتعرف على صورتي فقد غدت لحيتي وشعري أقل طولاً وأصبح ردائي أحمر ذا أكماء مفتوحة وانفصل الجزء العلوي من معطفي عن تنويرته وبقيت أتمنطق بحزامي الجلدي الأسود القديم . أضف إلى ذلك برنسا أبيض من الصوف وحذاء أحمر دون كعب وشراب أصفر وسترة ملتصقة بالجسم أزراها من الخلف يعاون بعضنا البعض في شدّها وفكّها!» .

وأخذ أنفانتان في عمله تحدوه همّة متجددة ووزّع العمل على معاونيه وبدأت هيبة الأمل الأولى تتبدّد شيئاً فشيئاً ، ولم يكن المدير الفعلي للمشروع هو الأب أنفانتان بل لبنان ده بلفون الضابط السابق بالبحرية الفرنسية (لوحة ١٣٢) . وبدأ أن الحلم السان سيموني قد بدأ يأخذ طريقه إلى التنفيذ ، واحتفل السان سيمونيون احتفالاً صاخباً بهذه المناسبة ، ومضى أنفانتان يتباهى بأنه بعد فيضان النيل سيجد تحت إمرته أربعين ألف رجل . وسرعان ما وفد من فرنسا إلى جوار المهندسين رهطاً من الفنانين الذين وضعوا أنفسهم رهن إشارة الأب أنفانتان مثل المؤلف الموسيقي روجيه الذي

وضع النواة الأولى لفرقة موسيقية مكتملة بمدرسة المدفعية بطّره تحقيقاً لفكرة السان سيمونيين التي تؤكد أهمية دور الموسيقى في زيادة الإنتاج ، ومثل الموسيقار فيليسيان دافيد الذي نسج «الأحان الشرقية» من الأغاني الشعبية التي التقطها من حول ضفاف النيل (لوحة ١٣٣) . ومن بين الفنانين التشكيليين المنتمين إلى المدرسة الواقعية الشائعة وقتذاك جاء المثال أليك الذي نحت تمثالاً لمحمد علي ونادى بضرورة أن يغدو الفن اجتماعياً لا فردياً ، والمصور ماشيرو الذي بذل جهداً كبيراً لإنشاء المعاهد الفنية بمصر . وما يلبث أليك أن يموت بمصر وأن يعود فيليسيان دافيد إلى فرنسا إلا أن فيليب جوزيف ماشيرو يؤثر الإقامة بمصر ، وكان شخصية فريدة تستحق منا وقفة . فقد وفد إلى الإسكندرية له من العمر إثنا وثلاثون عاماً ممتلئاً حيوية خصب الخيال بوهيمي الشخصية غزير الشعر أشعث أغبر مستهترا لا يعترف بقواعد اللياقة ، ورسّاماً مبدعاً وموسيقياً بارعاً وممثلاً موهوباً وكاريكاتوريا لا يبارى ، وكان قد استمع إلى الأب أنفانتان يشتر بالسان سيمونية في فرنسا ، وأثارت هذه الدعوة مثاليته الكامنة وحماسته لهذه المبادئ فانخرط في سلك السان سيمونية . وما لبث أن أصبح النديم الفكه والطفل المدلل للجالية الفرنسية بالقاهرة ، فكان يقوم بالتمثيل على خشبة تياترو القاهرة بالموسكي وتمثل أمامه مدام بونوم الخردواتية الفاتنة التي ذكرها جيرار ده نرغال مراراً في كتابه «رحلة في الشرق» .

وقد أحبه سليمان باشا حباً جما وألحقه بالعمل في معيته ، فكان ماشيرو يرسم لوحات الريف حول طيبة مستفاداً من الرسوم المحفورة الواردة في كتاب «وصف مصر» في أي مكان فوق جدران قصر سليمان باشا أو في الأماكن ذات الطراز العربي (لوحة ١٣٤ ، ١٣٥) . والراجح أنه هو الشخصية التي قصدها شارل إدمون في روايته الشهيرة «زيفران كاظافان» حين رمز إليها بشخصية الرسّام المزخرف جندل كما سيتبين لنا بعد قليل . وكانت دار سليمان باشا المطلّة على النيل تصخب ليلاً بالغناء والموسيقى ، غير أن هذا الصخب لم يكن ليزعج الأب أنفانتان الذي جاء ليقيم في هذه الدار في الشتاء التالي ، إذ لا شك أنها كانت تتيح له قدراً من الراحة أكثر مما يتوفر له في خيمته عند القناطر . وفي أواخر عام ١٨٣٤ وفدت إلى مصر إرسالية من السان سيمونيات بصحبة سوزان فوالكان لم يطل مقام بعضهن في مصر (لوحة ١٣٦) . على أن السان سيمونيين ما لبثوا أن أدركوا الفتور الذي بدأ يظهره الرسميون وعلى رأسهم الباشا الوالي نفسه وقنصل فرنسا بعد أن غشت حياتهم التي كانوا يعيشونها بالقناطر بعض الفضائح ، وبخاصة أنه كان من بين إرسالية «الأخوات السان سيمونيات» بغياً من ليون كانت سريعة التنقل من خيمة إلى أخرى والتحوّل من ذراع إلى ذراع ، وهو المسلك الخلقي الذي أصاب أعضاء الجالية الفرنسية الوقورين بصدمة عنيفة ، فانبهروا ينتقدون في ضراوة ما أطلقوا عليهن «صبايا القناطر» ، فضلاً عن أن استنثار سليمان باشا بإحداهن قد أوغر صدورهم ودفعهم إلى التنديد بسيرته (لوحات ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠) .

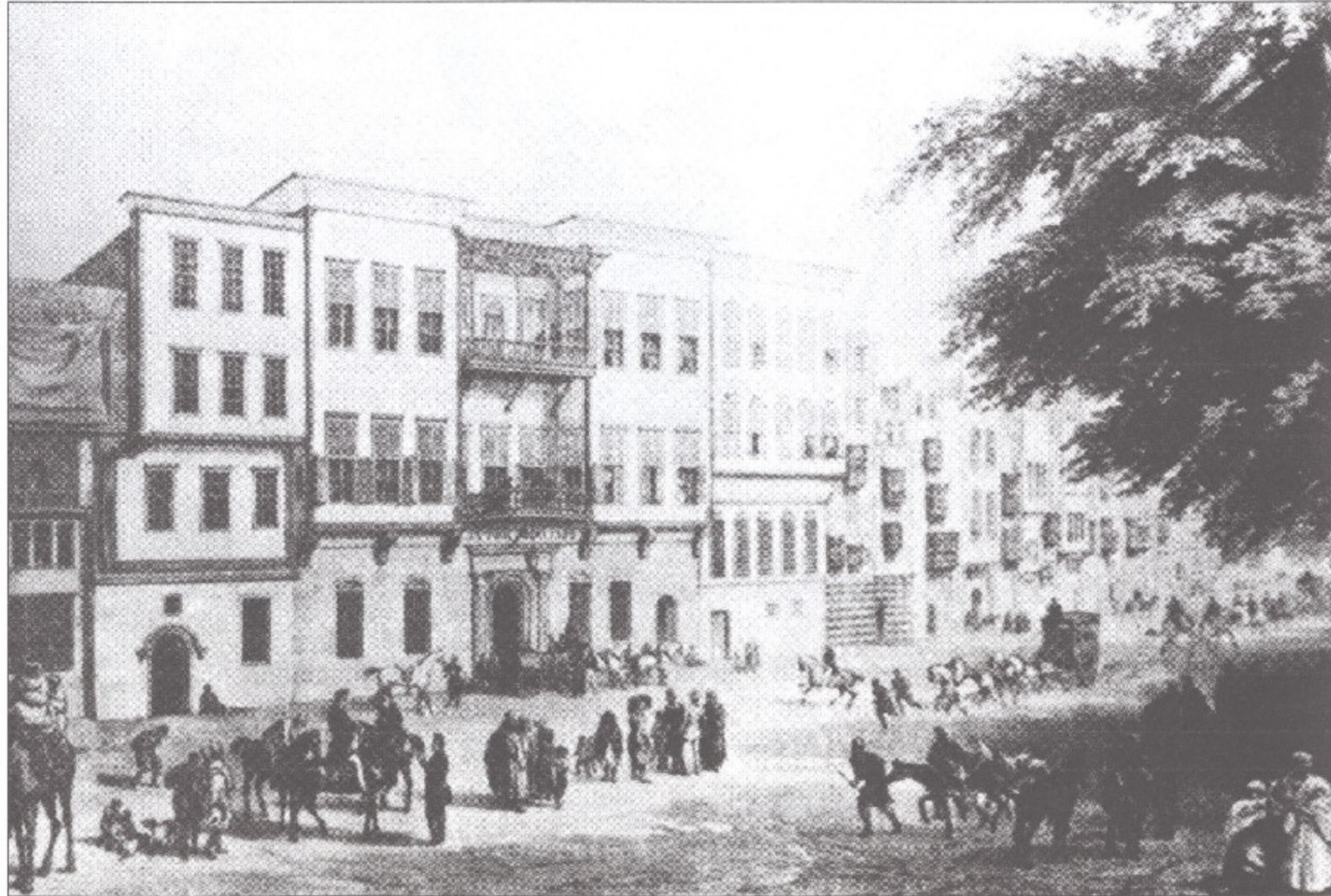
وقد أدّى ذلك كله إلى وضع المشروع السان سيموني في مأزق لم يتح له الخروج منه . وما زاد الطين بلة توقف العمل بمشروع القناطر وظهور وباء الطاعون بالقاهرة في شهر يناير سنة ١٨٣٥ حيث لقي الكثيرون من عمال القناطر حتفهم مما أضطر الأب أنفانتان إلى تسريح مساعديه فعاد منهم من عاد إلى فرنسا وبقي نفرٌ من غلاة المؤمنين بالسان سيمونية الذين أثروا الحرمان المادي والمعنوي مهما عانوا منها ، ولم يجدوا أمامهم وسيلة للعيش سوى قبول وظائف متواضعة في الإدارة المصرية (لوحة ١٤١) .

علي أن ماشيرو - الذي ظل على الدوام مرحاً رث الثياب بوهيمي السلوك حتى كان يُضرب المثل





لوحة (١٣٤) ماشيرو: فندق أورينتال بالقاهرة



لوحة (١٣٥) ماشيرو: فندق شيرد بالقاهرة.

في القاهرة بقذارته والمثال أليك - قبل أن يلقي ربه - قد قبلا وظيفة مدرس رسم لقاء سبعمائة قرش شهريا . وفضلا عن توزع نشاط السان سيمونيين فإن الطاعون فتك بعدد لا يستهان به منهم حتى غدا عام ١٨٣٥ هو عام الحداد ، فكتب لامبير قائلا : «لقد تداعت الأسرة وتساقط الوحل فوق رأس الأب أنفانتان وتخلّى عنه الكثير من الأتباع» . وقد توجه الأب أنفانتان بصحبة المهندس شارل لامبير فرارا من العدوى وسعيا وراء هدوء البال إلى الصعيد في نهاية شهر فبراير حيث مكث ما ينوف عن ستة شهور . وفي الأقصر التقى بطبقة الحكام المصريين الذين خلّفوا القاهرة خوفا من الوباء ، واستعاد علاقته الطيبة مع قنصل فرنسا العام وبدأ في تعلّم العربية منتظرا تحقيق الحلم الكبير الذي لم يتحقق ، ونال شعبية جارفة بين الفلاحين حتى دعوه «أبو الدنيا» . وكان يمكن أن يمد إقامته الرّحية لولا نضوب موارده المالية ويُبعده عن القاهرة التي كان يجد بها دائما المأوى والطعام في دار سليمان باشا أو عند أحد الأصدقاء . ومن ثم رجع إلى القاهرة ليجد على الرغم من المجاملات الظاهرية فتورا من السلطة والمجتمع الذي كان يرتاده ، كما أصبحت رعاية الباشا خاضعة لنزواته ، فضلا عن عودة عدد من الفرنسيين المشتغلين بالحكومة إلى فرنسا وانشغال سليمان باشا بالحرب ضد تركيا في سوريا ، فبدلا من أن يقيم بقصره الفاخر المطل على النيل كان عليه أن يقنع بالعيش في القاهرة القديمة في الدار الصغيرة التي يسكنها الموسيقي فيلسيان دافيد . وهكذا بدأت شجاعته تخونه وآماله تتبدّد ، ومن ثم ألقى على مصر مسؤوليّة فشله . ونجد في مذكراته عن هذه الفترة حكما قاسيا على محمد علي يتناقض مع تقديره الكبير له عند مجيئه إلى مصر ، هذا إلى ما حدث في صفوف بعض السان سيمونيين من تنكّر للمسيحية واعتناق للإسلام ، فأسلم ماشيرو وغيره آخذين بعادات الإسلام وتقاليده حتى سخر منهم محمد علي باشا قائلا : «إنه لأمر يثير الضحك حقا أن يأتي السان سيمونيون هنا لتبشير المسلمين فإذا بهم يعتنقون الإسلام» . وأصبح ماشيرو يدعى محمد أفندي الذي لم يلبث بعد عدة مغامرات غرامية أن اتخذ زوجة مصرية أنجب منها أربع بنات هن هانم وزهرة وحميدة وأسماء . وما أكثر ما كان ماشيرو المعوز دائما والجوعان أحيانا يقبل دعوات الأب أنفانتان وشارل لامبير لتناول الطعام ، ولكن ما إن يظهر لحم الخنزير والنبيد أمامه على المائدة حتى يؤنبه ضمير من أسلم حديثا ويحول بينه وبين تناوله .

لقد أوشكت إقامة الرسول السان السيموني أن تقارب النهاية ، فإن مشروع شق قناة السويس قد تأجل دون أمل كما أن العمل بمشروع القناطر قد توقّف . ولم يعثر «الأب» أنفانتان الذي كان للمرأة حظ كبير في أعماقه على «الأم» ، أي تلك المرأة المثالية التي تلهمه وتعينه برؤاها ، فقد كان السان سيمونيون يعتقدون أن الله إذا كان قد بشر بابنه المسيح فلا شك أنه سيبشر الإنسانية أيضا بابنته أي «المرأة» المنقذة الحقيقية للبشرية من خطاياها والموجهة السديدة نحو الأخلاق السّوية ، وأنه إذا كان الغرب قد أنجب «الأب» فلا بد وأن يكون الشرق قد أنجب «الأم» . غير أن التقارير السّرية للشرطة الفرنسية كانت تزعم بأن تلك «المرأة» هي رمز سرّي «للجمهورية» اتفق على الدعوة لها تحت ستار كلمة المرأة . وبدلا من الانتصارات التي كان يترقبها لم يجد حوله غير الحداد والمرض والبؤس وتشّت الأعوان وعودتهم إلى الوطن . لم يعد هناك أمل يرتجيه فركبه الهم واستولى عليه الحزن ، فضلا عن تشكّك معارفه في نواياه حتى صار يردّد أنهم لا يفهمونه على الإطلاق لأن آلامهم الذاتية قد أعمتهم عن رؤية آلام الإنسانية ، ويهذي بأنهم لم يفتنوا إلى أن الله قد بعثه هاديا لإنقاذ البشرية على نحو ما فعل من قبل مع عيسى ومحمد وموسى وسائر الأنبياء . وعندما أدرك أن لا فائدة تُرجى من مزيد من الكفاح ، هذا إلى تخلي بعض أصدقائه عنه





لوحة (١٣٧) المرأة المعبد . رسم بالقلم . مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس .



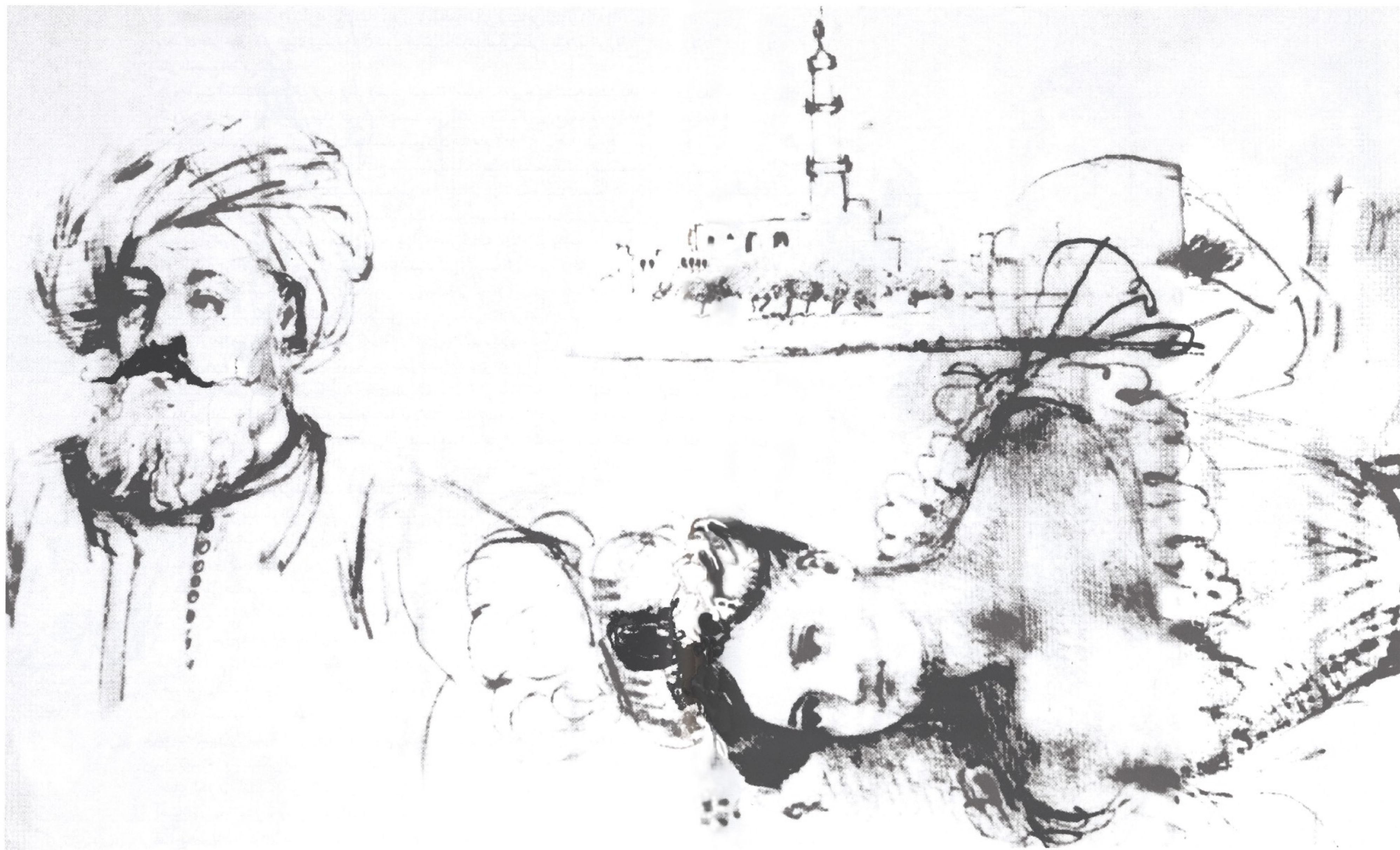
لوحة (١٣٦) سوزان فوالكان . صورة مطبوعة بطريقة الحفر على الحجر . مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس





لوحة (١٣٨) السان سيمونيات كارولين كارولين وجوديت جريجوار والطبيب ألفرد ديلون الذي كان مغرماً بسوزان  
فوالكان . رسم بالقلم . مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس .



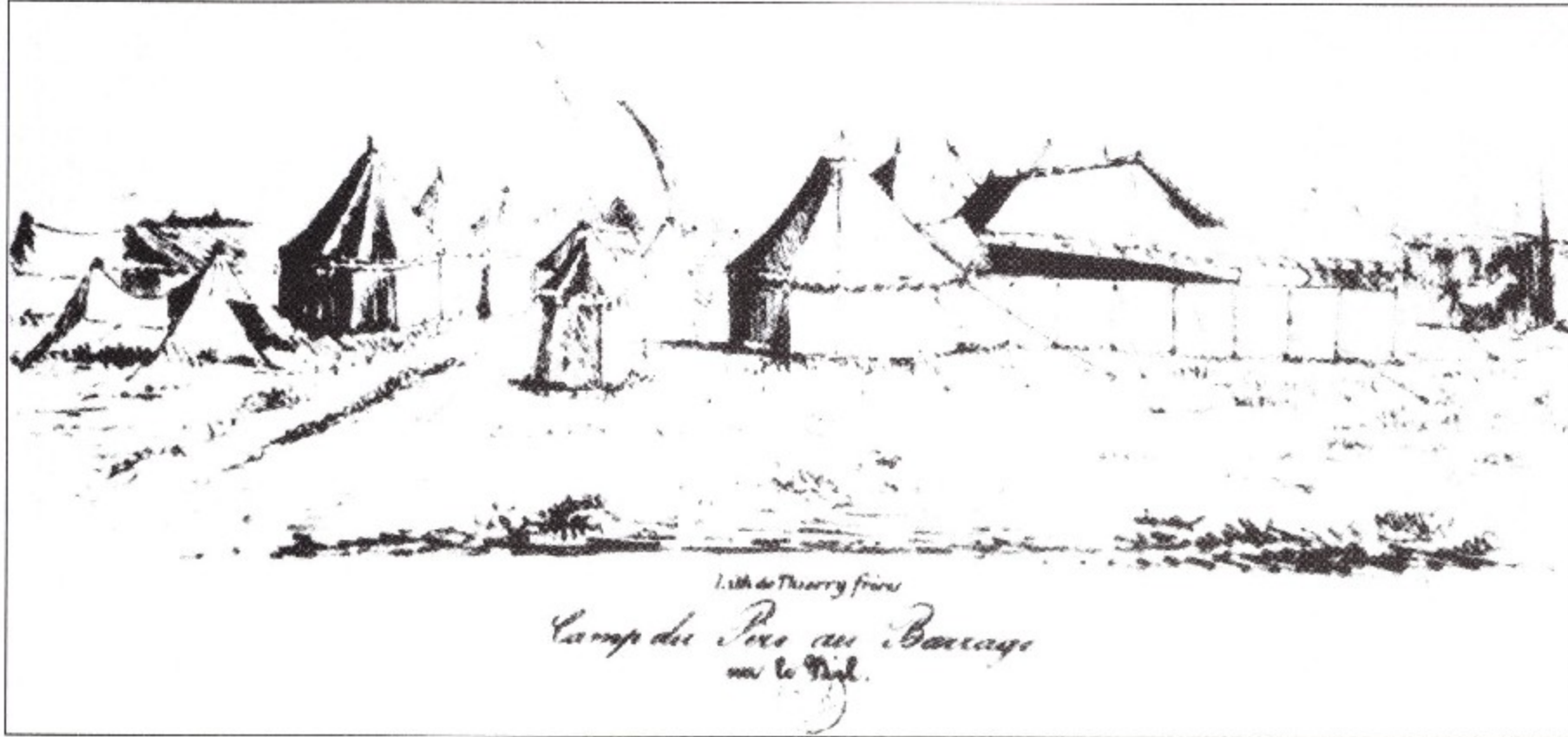


لوحة (١٣٩) ماشيرو . عجالة تخطيطية تضم شخصيات ومشاهد متفرقة : محمد علي باشا ، وإحدى السان  
سيمونيات ولعلها جوديت أو كارولين، ومثذنة ونخيل . رسم بالقلم . مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس .





لوحة (١٤٠) ماشيرو . سان سيمونية عملاقة إلى جوار الأهرام . رسم بالقلم . مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس .



لوحة (١٤١) معسكر الأب أنفانتان المطل على النيل بالقناطر الخيرية . مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس .

ممن انتقدوا حياته المتحررة وسلوكه مع النساء ، قرر الأب العودة إلى فرنسا في أكتوبر ١٨٣٦ . وبعد أن عاد اختفى ذكر سان سيمونية وإن كانت قد بقيت آثارها الفكرية تفيء بظلالها الوارفة على المجتمع الثقافي المصري .

وما لبث أنفانتان أن اكتشف في فردينان دلسيس الوسيلة العملية لتحقيق أمنيته المنشودة بشق قناة السويس نظرا لصلة الصداقة الوطيدة التي تربطه بسعيد والي مصر ، فسلم إليه في صيف عام ١٨٤٥ جميع الدراسات والوثائق التي توصل إليها سان سيمونيون منذ عام ١٨٣٣ حول هذا المشروع (لوحة ١٤٢) . وإذا كان دلسيس قد تنكر لأتباع سان سيمون وأنكر صلته بهم بعد أن تبني نظرياتهم فإن المستندات والرسائل المتبادلة بينه وبينهم فضلا عن مذكرات أنفانتان الشخصية تؤكد هذه الصلة . وكانت من جديد صدمة لأنفانتان بعد أن سلب دلسيس جهود عشر سنوات لسان سيمونيين وحول دورهم إلى مجرد مشاهدين غير مشاركين في التنفيذ ، الأمر الذي أسفر عن فقدان ركن أساسي من الأركان الاجتماعية للفلسفة سان سيمونية ، وهو سيادة الأخلاق وحظر استغلال الإنسان للإنسان ، فقد جاء تنفيذ مشروع دلسيس صورة بشعة في تاريخ الإنسانية عامة وتاريخ فرنسا خاصة ، فلم تكن مآسي السخرة والتعذيب التي لازمت شق القناة وأهدر فيها عرق ألوف المصريين ودماءهم يواكب فكرة الإنسانية العالمية التي نادى بها سان سيمون<sup>(٣٦)</sup> .

(٣٦) محمد طلعت عيسى :  
أتباع سان سيمون . ص ١١٥  
وما بعدها

وعلى الرغم من رحيل سان سيمونيين عن مصر فقد تزايد تأثير الثقافة الفرنسية بها ، ذلك أنه كان قد تم بناء على طلب الكولونيل سيث الذي نال رتبة الباشوية في عام ١٨٣٤ وغدا مفتشا عاما للمدارس المصرية قيام الأب أنفانتان بمساعدة شارل لامبير بإنشاء «المجلس الأعلى للتعليم العام» وتشكيل «اللجنة الاستشارية للعلوم والفنون» التي كانت همزة الوصل بين «المجمع العلمي» الذي أنشئ عام ١٧٩٩ «والمجمع العلمي المصري» الذي بعث من جديد فيما بعد ، كما انتشرت اللغة الفرنسية في جميع المدارس المهنية ، وذاعت الثقافة الفرنسية بين المصريين بفضل سان سيمونيين الذين كشفوا عن قدرات فذة في تعليم اللغة الفرنسية حتى شاع بين كبار المسؤولين القول بأنه من العبث إرسال بعثات إلى فرنسا بينما تحتشد مصر بأساتذة من سان سيمونيين يفوقون الأساتذة في فرنسا خبرة وكفاية .

هكذا بقي عدد من سان سيمونيين بالقاهرة يواصلون تدعيم الثقافة الفرنسية بين المصريين ، فنال شارل لامبير رتبة البكوية وأصبح مديرا لمدرسة الهندسة ببولاق وظل بمصر حتى عام ١٨٥٠ وأكمل هو وغيره مشروع قناطر الخيرية . ولم تكن مصر حين جعلت جنود جيشها النظامي تحت تصرف شركة قناة السويس لشق القناة إلا مطبقة لمبدأ سان سيمونيين المنادي بغلق الثكنات وإنهاء كل الحروب بين البشر مطالبين باستخدام المجندين في المشروعات السلمية الكبرى .

وثمة سان سيموني آخر هو الدكتور بيرون الذي أصبح مديرا لمدرسة الطب بأبي زعبل بعد كلوت بك ، وكان مستشرفا يجيد الفارسية ويلم بالشعر الإسلامي وبخاصة الحكايات التي تنال من الإسلام ، وكان يمكن أن ينال حقه من التقدير لو أنه عثر على الناشر الذي يقبل أن يطبع له أعماله الكبرى . أما سان سيمونيين الذين عادوا إلى فرنسا فإنهم سرعان ما نسوا فشلهم وقسوة إحساسهم بهذا الفشل ، وبالرغم من المشاق القاسية التي تعرضوا لها ظلوا أصدقاء أوفياء لمصر .

فوضع فيلسيان دافيد «الأحان الشرقية» كما قدمت وألف قصيده السيمفوني «الصحراء»

(١٨٤٤) فكان صدى لذكريات حجيجه لبلاد الشمس وحينئذ إلى إقامته بها .



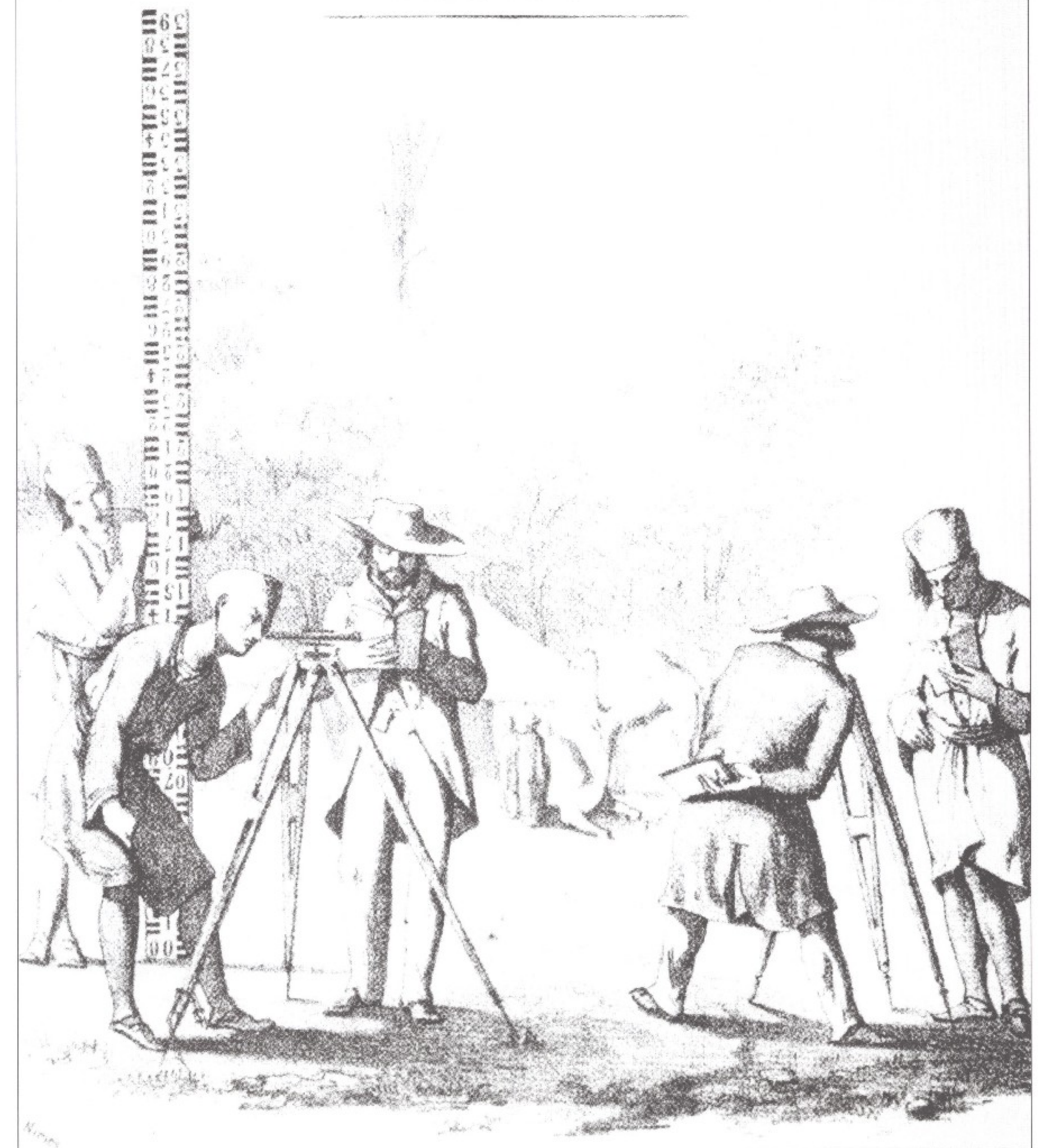
الريشة العاشقة  
للفن الإسلامي

پاسكال كوست وپريس داقن

١٧٥٠ - ١٧٨٠

# ISTHME DE SUEZ ET BASSE EGYPTÉ.

ÉTUDES DE 1847



لوحة ١٤٢ - السان سيمونتيون يمسحون طوبوغرافيا منطقة برزخ السويس عام ١٨٤٧.



Pascale Coste: (٣٧)  
Architecture Arabe ou  
monument du Caire.  
Didet 1837-39

E. Prisse d'Avennes: (٣٨)  
Histoire de l'art Egyptien,  
d'après les Temps les  
plus reculés jusqu'à la  
domination Romaine  
(160 planches). Paris.  
Bertrand 1868-79

E. Prisse d'Avennes: (٣٩)  
L' Art Arabe, d'après les  
monuments du Caire de-  
puis le septième siècle  
jusqu'à la fin du dix - hu-  
itième siècle. (1867 - 79)  
Paris. Morel 1869.

كانت مصر التي صبغها محمد علي بصبغة الحداثة والتي كان أمراؤها يرتدون الأزياء التركية، تتطلع بعين الإعجاب إلى الغرب بأزيائه وعاداته، وتنشد بصفة خاصة معونة فرنسا في إعادة تنظيم أجهزتها الإدارية وزراعة تربتها وتدريب جنودها، وهو ما حدا بمحمد علي إلى إحاطة نفسه بجمهرة من المهندسين الفرنسيين برز من بينهم مهندس على صلة وثيقة بحدشنا هو پاسكال كوست الذي أسهم إسهاما قيما خلال الأعوام العشرة التي قضاها بمصر حين وصل إليها عام ١٨١٧ ليؤسس فيها مصنعا للبارود والمفرقات و يشرف على تشييد العديد من المرافق العامة. ولقد سجل أروع اللوحات المصوّرة المطبوعة بطريقة الحفر وكذا العديد من الرسوم الملونة بأمانة شديدة ودقة متناهية في كتابه الفذ الكبير الحجم «العمارة الإسلامية أو آثار القاهرة ١٨٣٧-١٨٣٩»<sup>(٣٧)</sup> (لوحة ١٤٣) نعرض منها هنا اثنتين وعشرين لوحة ملونة (من ٤ إلى ٢٥). وعندما كان كلوت بك ناظر مدرسة الطب يعدّ كتابه «لمحة عامة عن مصر» الذي ظهر في عام ١٨٤٠ عهد إلى پاسكال كوست بإعداد فصل عن الفن الإسلامي فإذا هو يقدم لنا أدق تسجيل وأكمله عن العمارة الإسلامية، وكانت هذه الفترة حيّة بالاستشراق الفرنسي في كل من الأدب والتصوير. وقد أمد الله في عمر پاسكال كوست إلى أن بلغ التسعين عاما، قدم خلالها بالاشتراك مع أوجين فلاندا أن أربعة آلاف لوحة مرسومة من بينها كتابه المصوّر الشهير عن آثار فارس القديمة والإسلامية «رحلة في فارس».

ولعل إميل پريس دافن كان أكثر معاصريه الفرنسيين الذين درسوا مصر إسهاما في التعريف بها، فهو لم يقتصر على الكشف عن الآثار الفرعونية بل جاوزها بنفس القدر إلى الحضارة الإسلامية. ولا شك أنه صاحب تجربة فريدة إذ أتاح له الحظ أن يمضي سبعة عشر عاما من حياته في مصر. ولا يعدل جرأة اكتشافاته وتهوّر مغامراته إلا نفاذ بصره وحدة ملاحظته واتساع معارفه ورغبته العارمة في بلوغ الحقيقة. وقد أثرى الأركيولوجيا بمؤلفات قيمة كرّس لها سنوات عديدة من الجهد المتواصل، مضحيا في سبيلها بما كان له من ثروة بل وبما شغل من مناصب حتى استطاع أن يقدم أربعة عشر كتابا غير المقالات والأبحاث، يأتي على رأسها كتاباه «الآثار المصرية وتاريخ الفن المصري وفقا لآثارها منذ الزمن السحيق حتى السيادة الرومانية»<sup>(٣٨)</sup>، وكتابه الضخم «الفن العربي من واقع آثار مصر من القرن السابع إلى نهاية القرن الثامن عشر»<sup>(٣٩)</sup> (١٨٦٧-٨٧٩). الذي نعرض منه عشر لوحات أبيض وأسود (من ١٤٤-١٥٣)، وثمان لوحات ملونة (من ٢٦-٣٣) والذي يبلغ درجة من الأهمية تجعل من العسير على أي عالم أو فنان أن يستغني عنه. وتتضمن مآثره وإنجازاته ما هو جدير بالعرفان وما ينبغي أن يعيش معها اسمه متألقا إلى جانب أسماء شميليون ومارييت وماسبيرو في ذاكرة عشاق تاريخ الفنون.



پريس دافن





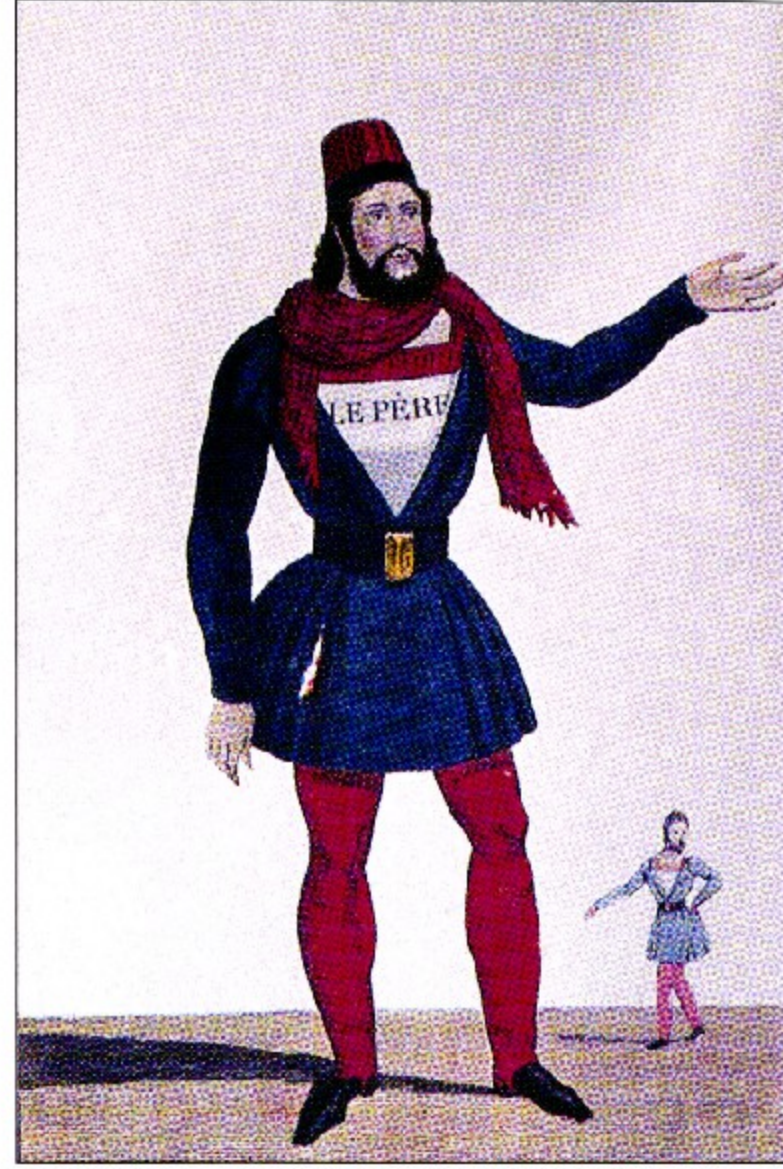
لوحة (١٤٣) پاسكال كوست : بين القصرين

جاء پريس دافن عام ١٨٢٩ ليعمل مهندسا مدنياً في خدمة إبراهيم باشا ثم أستاذاً للطبوغرافيا في مدرسة أركان الحرب بالخانقاه ومربياً لأولاد الباشا . غير أنه لشدة صلفه واعتداده بنفسه واستنكاره للتصرفات المستهجنة كثيراً ما اعترك مع رؤسائه في انفعال متهور بلغ أحياناً حدّ الاعتداء عليهم مما جرّ عليه سخطهم حتى أمكن للوقعة أن تنتهي إلى إثارة غضب الوالي عليه . وما لبث أن تحوّل المهندس إلى مستشرق وعالم مصريّات وعكف على تعلّم اللغة العربية ولهجاتها وتجويدّها وحلّ رموز الهيروغليفيات . وما إن لمس في نفسه اكتمال القدرة حتى استقال من منصبه عام ١٨٣٧ مفضلاً حريته كرحالة مكتشف واعتنق الإسلام وتسمّى باسم إدريس أفندي ، ولا أظنه إلا دجل لم ينطل على أحد على غرار الدجل الذي ركن إليه بوناپرت ومينو من قبل ، على أنه ارتدى زي الفلاحين وانطلق يؤدي رسالته في الصعيد والدلتا .

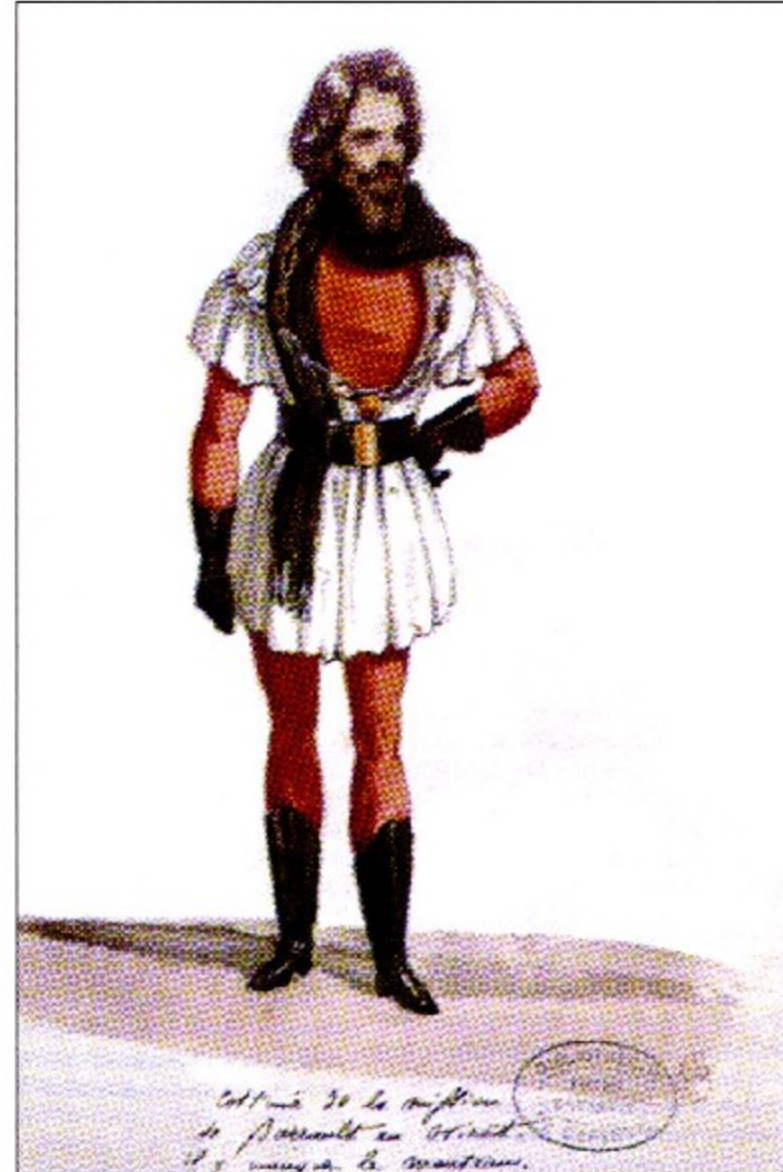
وحتى ظهور پريس دافن كان الفن الفرعوني في نظر المهتمين من الغربيين مجرد فن هندسي معماري مُشكّل من خطوط وكتل ذات أبعاد ومقاييس فحسب ، ثم جاءت رسوم شمبوليون وأعوانه برغم دقّتها جافة جامدة ، إلا أن هذا الفن ما لبث حين مسّه پريس دافن بريشته السحرية أن رفّ بالحياة النابضة ودفع الجاذبية المشبوبة ، فلقد كان علم الأركيولوجيا بعد كتاب «وصف مصر» وبعد شمبوليون في انتظار فنان عظيم يضفي عليه لمساته الرقيقة وحساسيته الجياشة ، وسرعان ما ظفر به في شخص إدريس أفندي . غير أن الجزع ما يلبث أن يصيبنا إذا ما صدقنا ما روي عنه من أنه حمل معه حين رحل عن مصر الكثير من العاديات المصرية المنهوبة من مقابر وادي الملوك وأطلال المعابد بطيبة ، فقبول في الأوساط الفنية الباريسية بالنقد الشديد لسلوكه هذا المسلك غير الجدير به .

أما ديننا نحن العرب نحو پريس دافن في مجال الأركيولوجيا الإسلامية فإنه يتجاوز ديننا نحوه في مجال الأركيولوجيا الفرعونية . ولقد وصل پريس دافن إلى مصر في نفس الوقت تقريباً الذي غادرها فيه پاسكال كوست ، ولعل هذه المصادفة ترمز إلى شيء ما ، فلقد فتح المهندس كوست أمام العالم أبواب المساجد على مصراعها بعد أن عاش بينها يكتشف ملامحها الأخاذة ويتغنّى بألوان زجاجها المعشّق وبجصّها المشغول وتكفّياتها من الصدف وبأبوابها من خشب الأرز المحلّاة بالتوريقات المتشابكة من العاج وببلاطاتها من الخزف المزجّج وبمصاحفها المذهبة المرقّنة . وإذا كنا من خلال رسوم پاسكال كوست الخطيّة الدقيقة ومصوراته الأنيقة ذات الألوان الزاهية نشهد عمارة الفاطميين والخلفاء والماليك في ذروة مجدها وجلالها ، ولكن في إطار من الجمال التجريدي ووحدة التصميم الموحي بالوحدانية وعبقريّة تنتهي ما من شك إلى اتجاه عقلاني ، إذ لا نلمس في صحبة پاسكال كوست إلا جوهر الأثر فحسب عارياً من غلالات الجمال المتخيّلة ، فإن پريس دافن ما يكاد يصل بفرشاته المثابرة ومجموعة ألوانه المتناغمة إلى أحد المواقع حتى تتوهج الحياة فيه ، وتنهض الحضارة من سباتها ويسبّح الماضي بنشيد من الألوان الرفافة ، يتنظم موكبه الخشب المحفور والنافورات وبلاطات الخزف المزجّج والفسيفساء والمطرزات والمنمنمات المصوّرة والأثاث والنحاسيات . ثم ها هو ذا البيت المصري بريشة پريس قد انخلع غموضه فإذا هو يدعونا مرحّباً بنا لدخوله . وعليّ حين كشف لنا كوست عن الكمال الهندسي للفن العربي ردّه إلينا پريس دافن إنسانياً نابضاً بالحياة سهل المنال ، وفي هذا يكمن ما يدين به الإسلام إلى الفنان الفرنسي الذي تسمّى باسم إدريس أفندي .

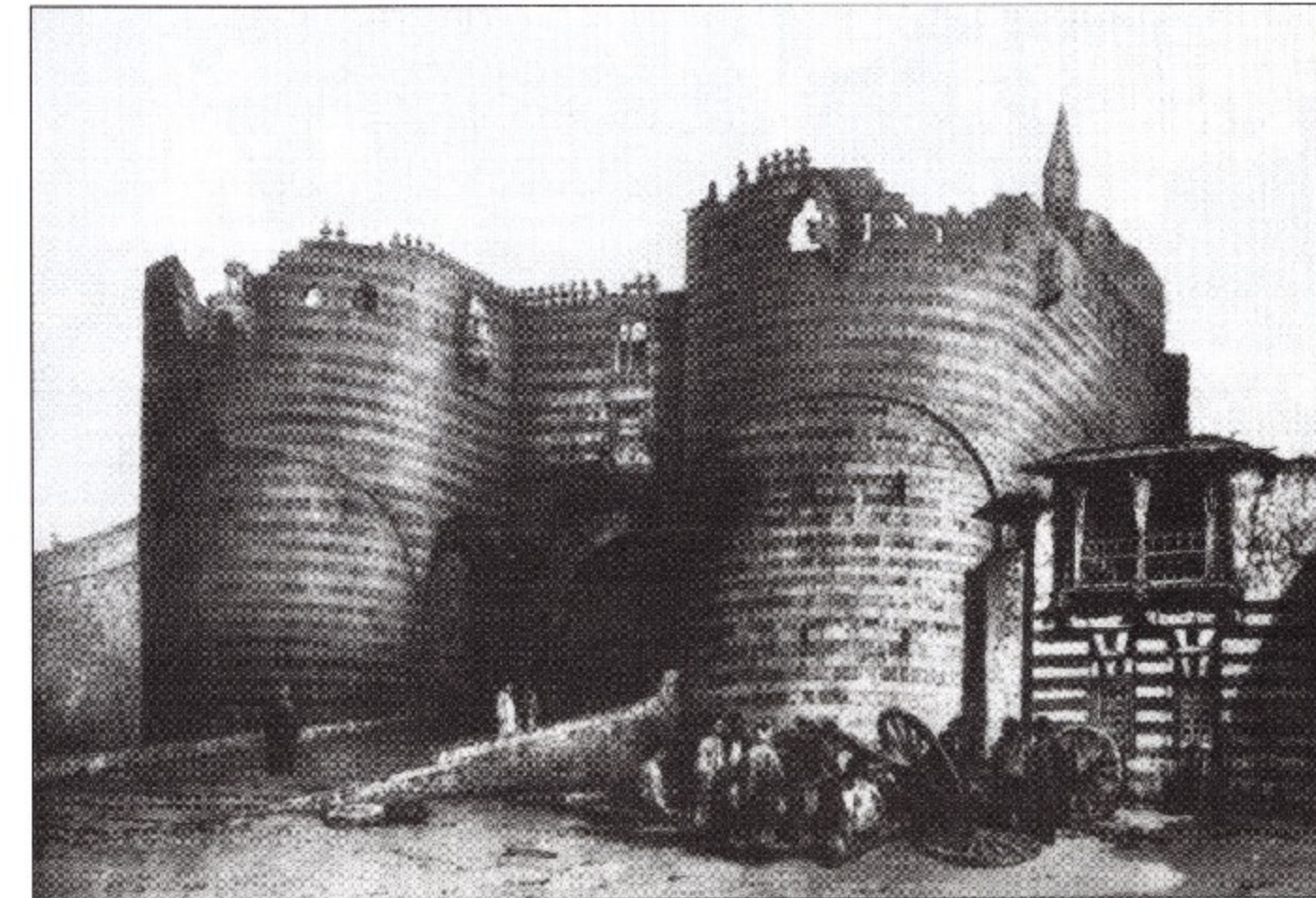
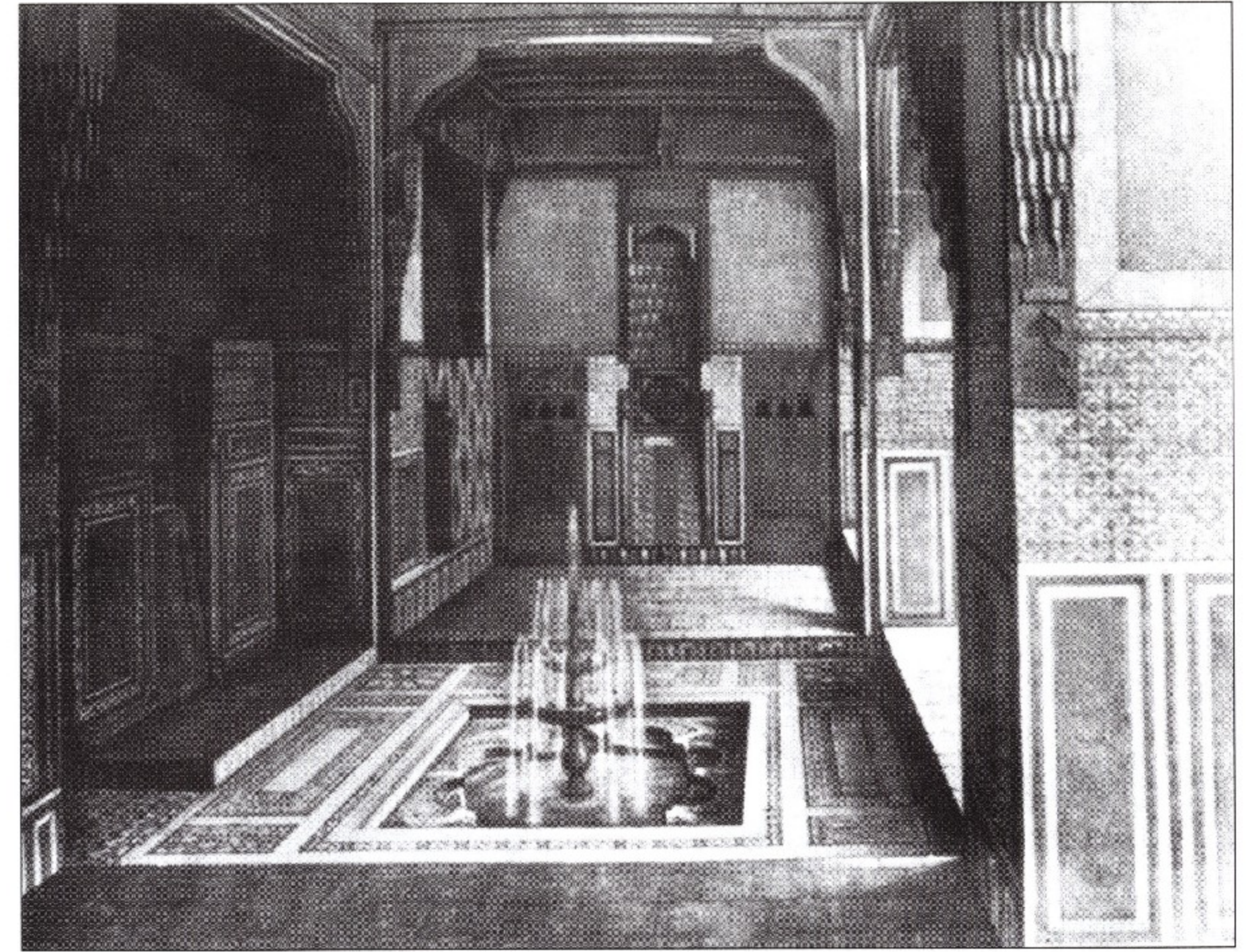




لوحة ١، أ، ب ملون: الأب الفانتان زعيم السان سيمونيين



لوحة ٢، أ، ب ملون: أزياء السان سيمونيين. تصميم ماشيرو. مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس. زِيَّ بعثة الشرق. زِيَّ الفنانين.



لوحة (١٤٤) باريس دافن .  
المنظرة ، وإن جرت العادة بنطقها  
بالضاد ، لا يخلو منها بيت من  
بيوت الأوساط والمياسير مكانا  
للقاء الرجال ومسارقات الليل  
الذي يقضونه في سرد السير أو  
تلاوة القرآن أو سماع الموسيقى  
والغناء . ويتواعد القوم على أن  
يُحضر كل واحد ما عنده من  
طعام ويتناولون عشاءهم  
مجتمعين . وكانت المنظرة هي  
المعهد الذي يتخرج فيه السُمار  
والآلاتية والمغنيين .

(١٤٥) باريس دافن: الباب  
الرئيس للقنطرة . باب العزب

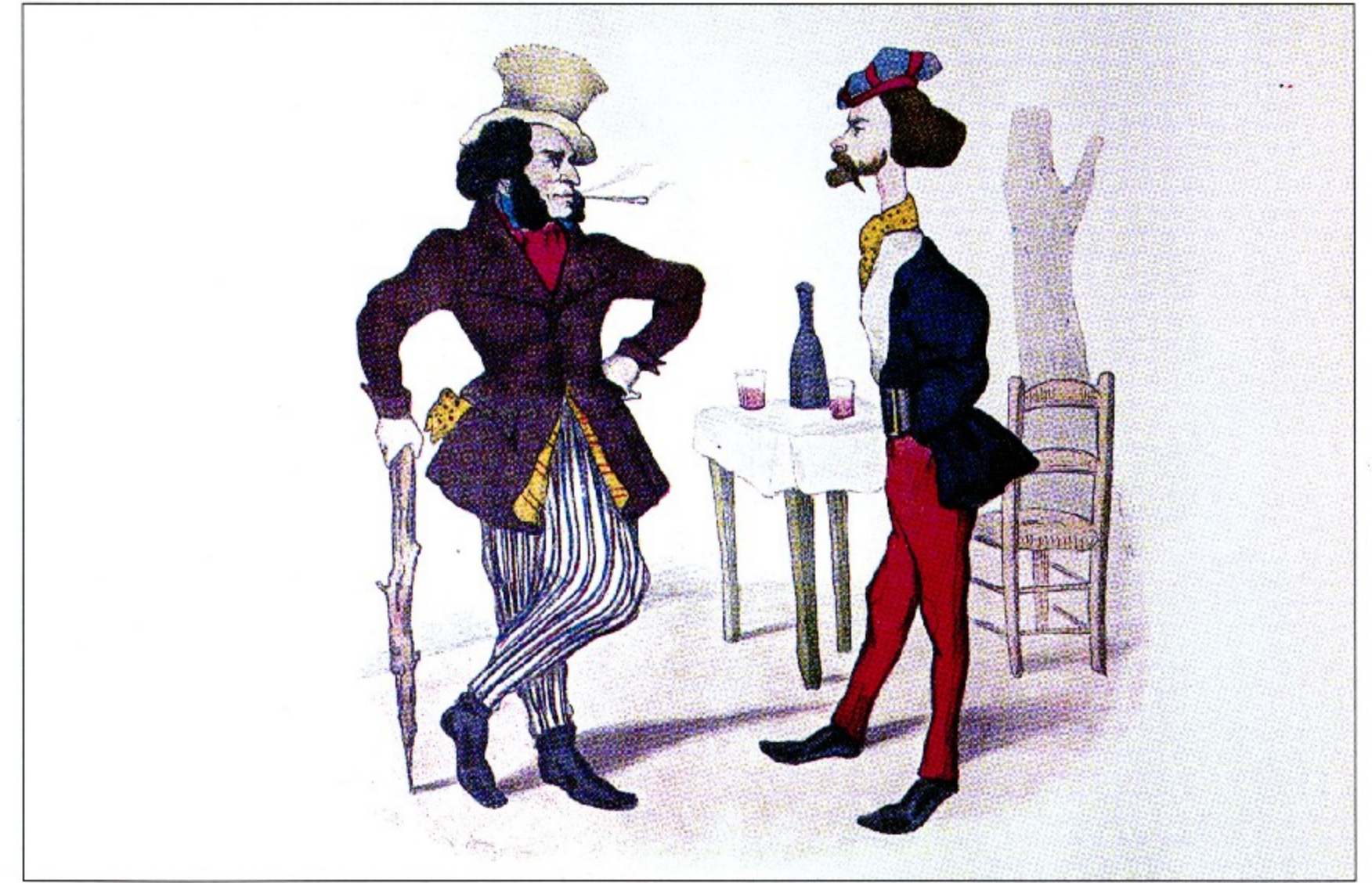




لوحة ٤ ملون: پاسكال كوست، مسجد عمرو



لوحة ٥ ملون: پاسكال كوست، صحن جامع بن طولون



لوحة ١٣ ملون: صديقي العزيز، سرّ على درّبي، ونح ساعتك ومنديك جانباً، ولتحدّ حذو السان سيمونين، فهذا أجدى وأربح.  
رسم كاريكاتوري يسخر من السان سيمونين. صحيفة لوشاريفاري ١٨٧٢.



لوحة ٣ ملون: المرأة المتحررة هي طلبتي.  
رسم كاريكاتوري يسخر من السان سيمونين. صحيفة لوشاريفاري ١٨٧٢.

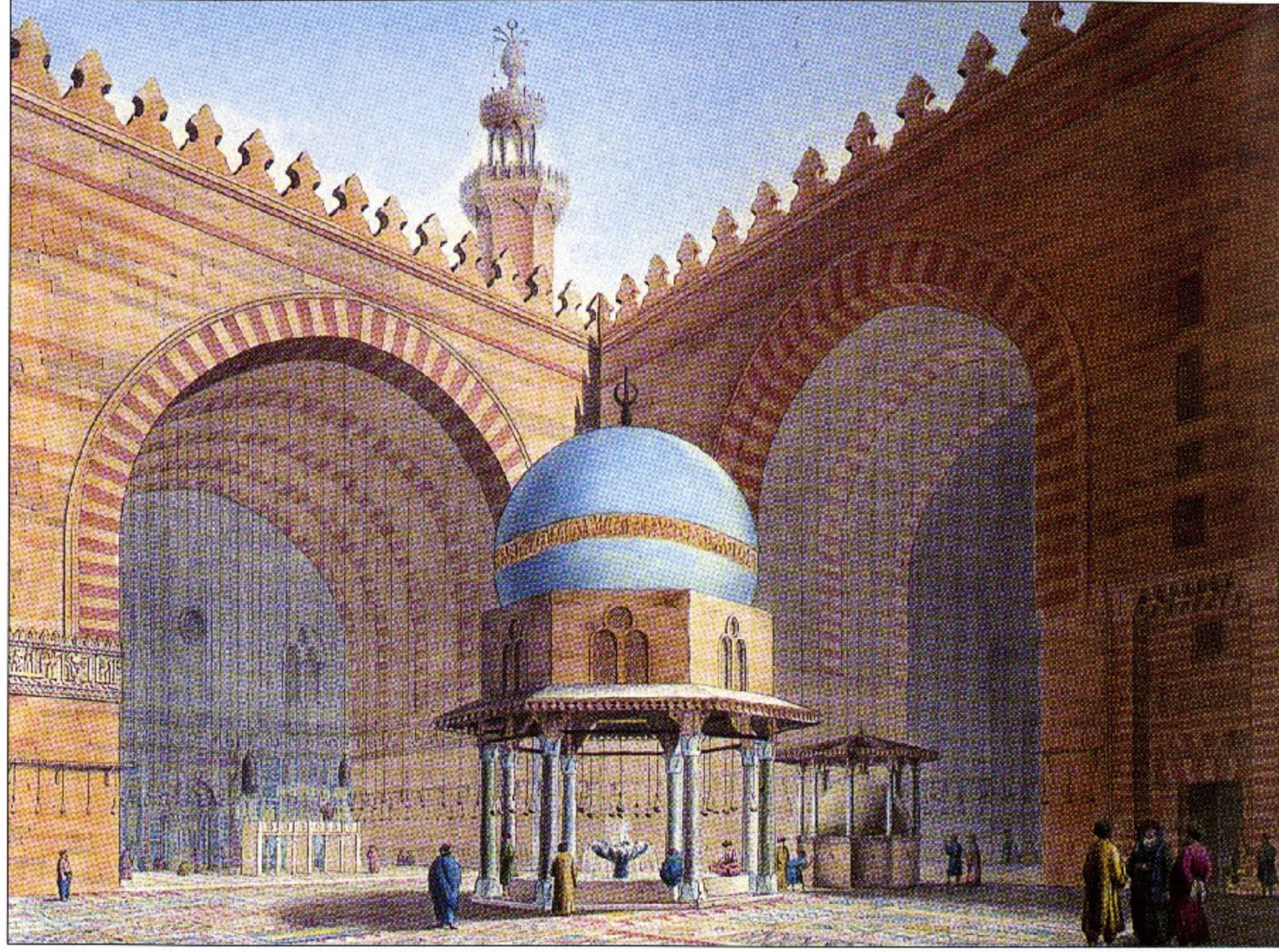




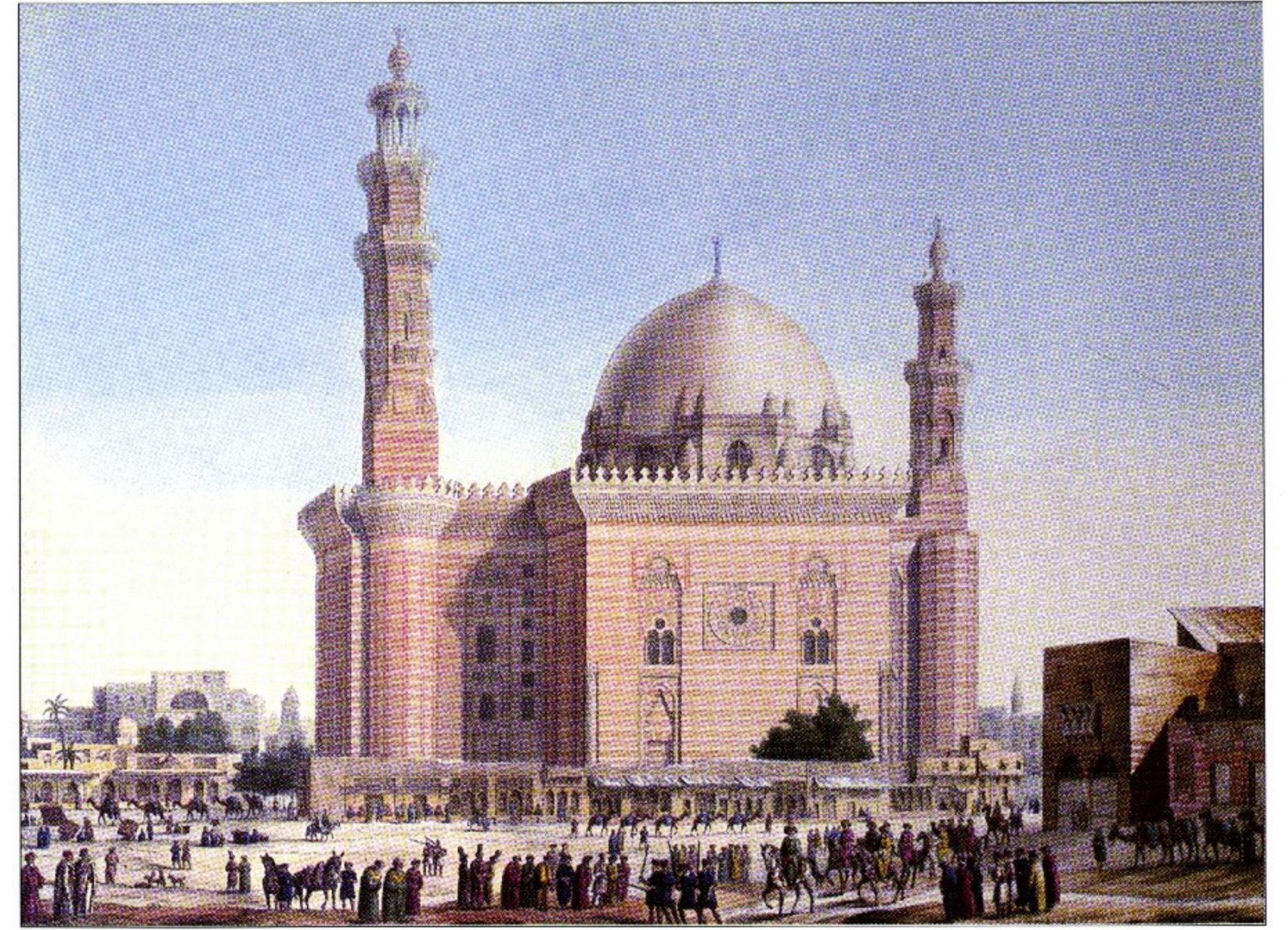
لوحة ٦ ملون: پاسكال كوست. إيوان القبلة بجامع برقوق.

لوحة ٩ ملون: پاسكال كوست.  
منظر خارجي لواجهة مجموعة قلاوون





لوحة ٧ ملون: پاسكال كوست. منظر داخلي لصحن جامع ومدرسة السلطان حسن



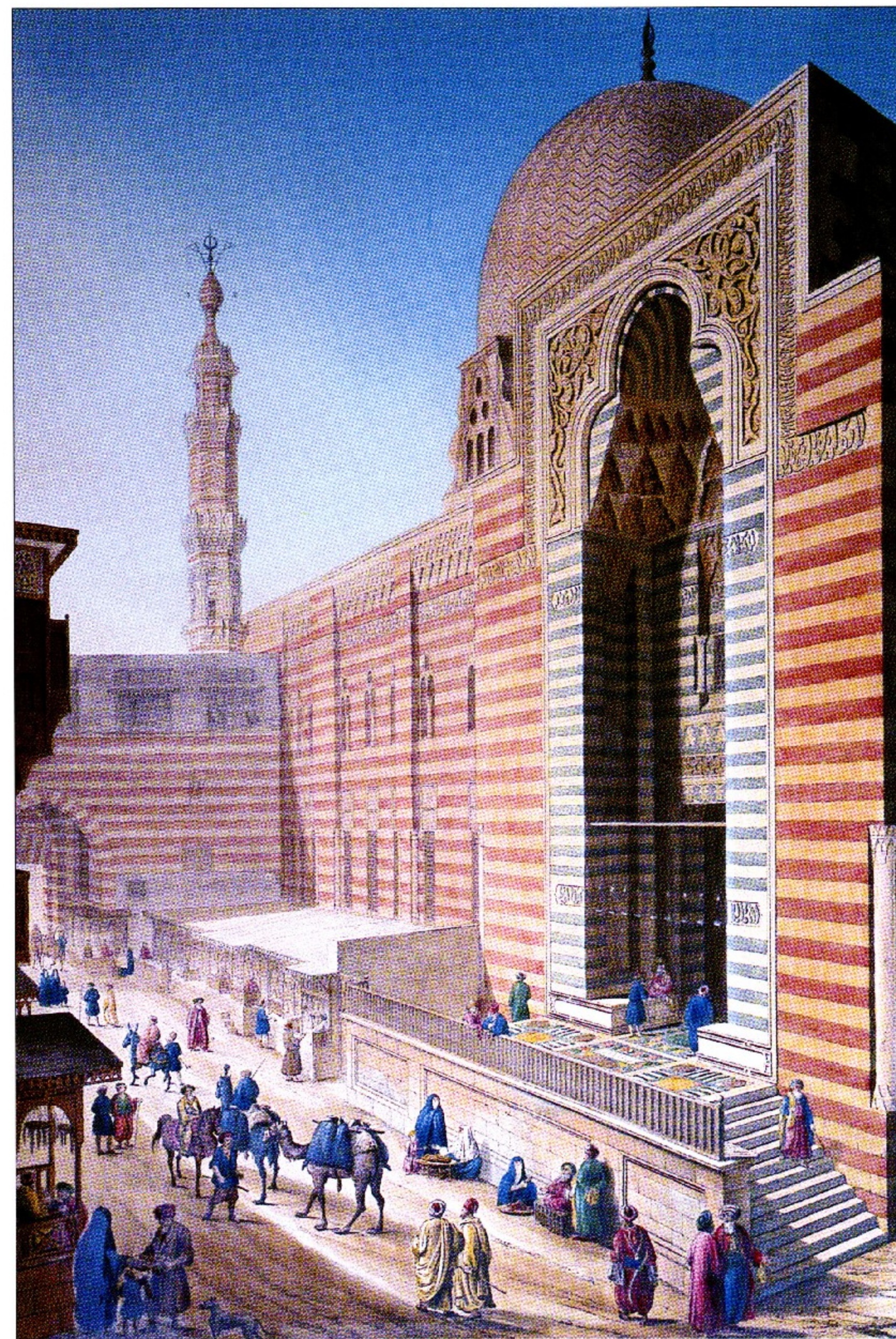
لوحة ٨ ملون: پاسكال كوست. منظر خارجي لجامع ومدرسة السلطان حسن

#### اللوحات التالية

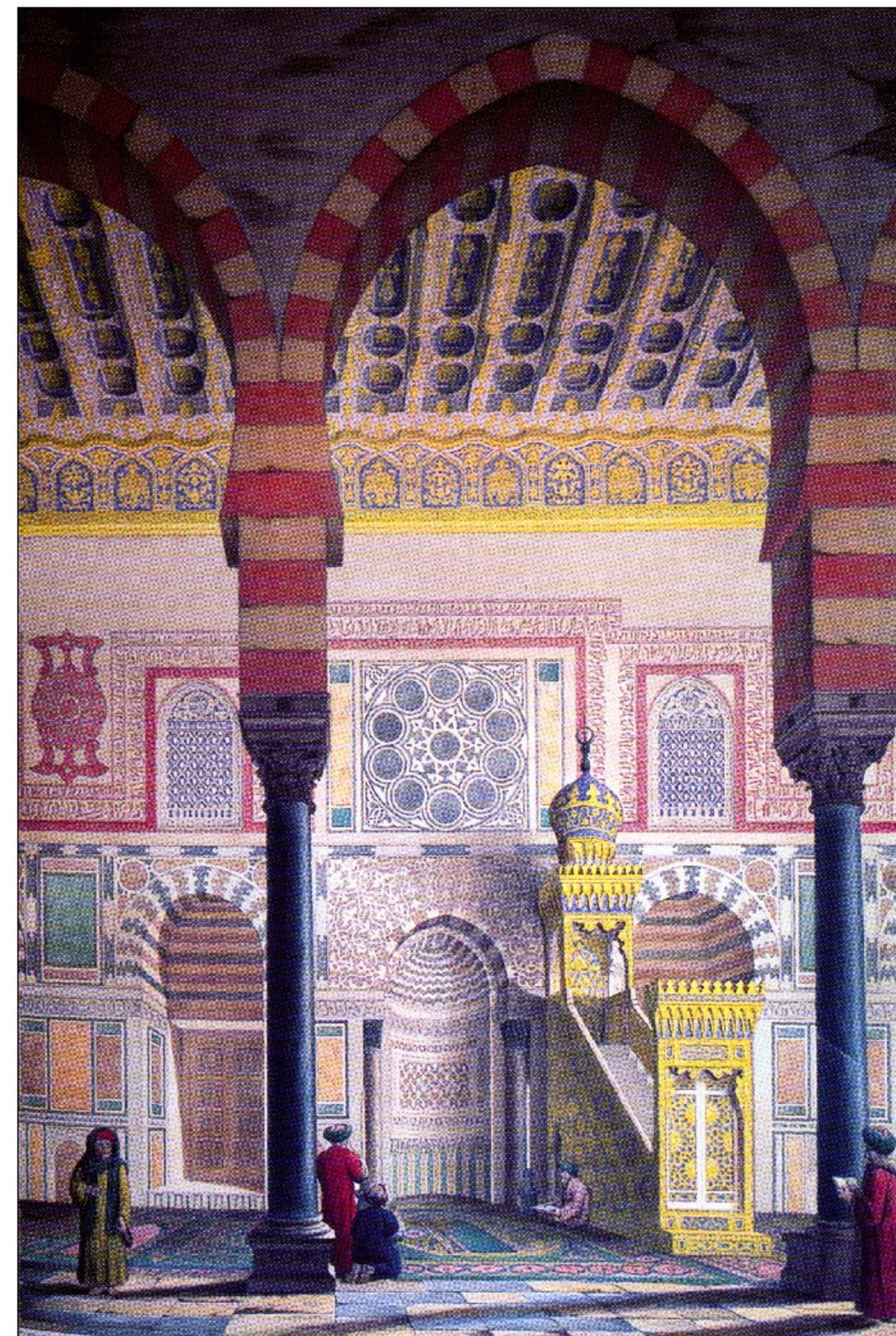
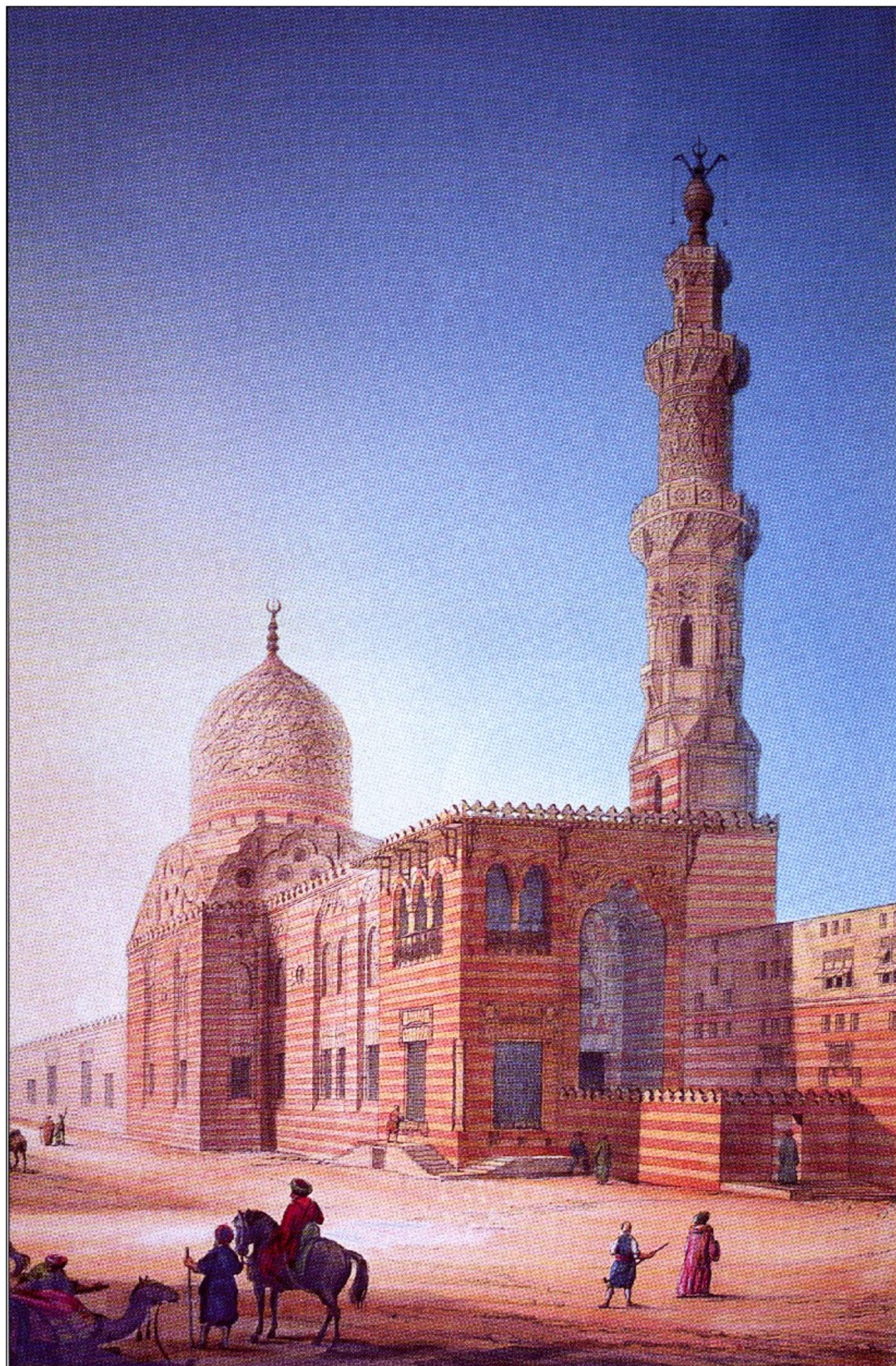
لوحة ١٠ ملون: پاسكال كوست  
واجهة جامع المؤيد المظلة على سوق السكرية

لوحة ١١ ملون: پاسكال كوست  
رواق القبلة بجامع المؤيد.





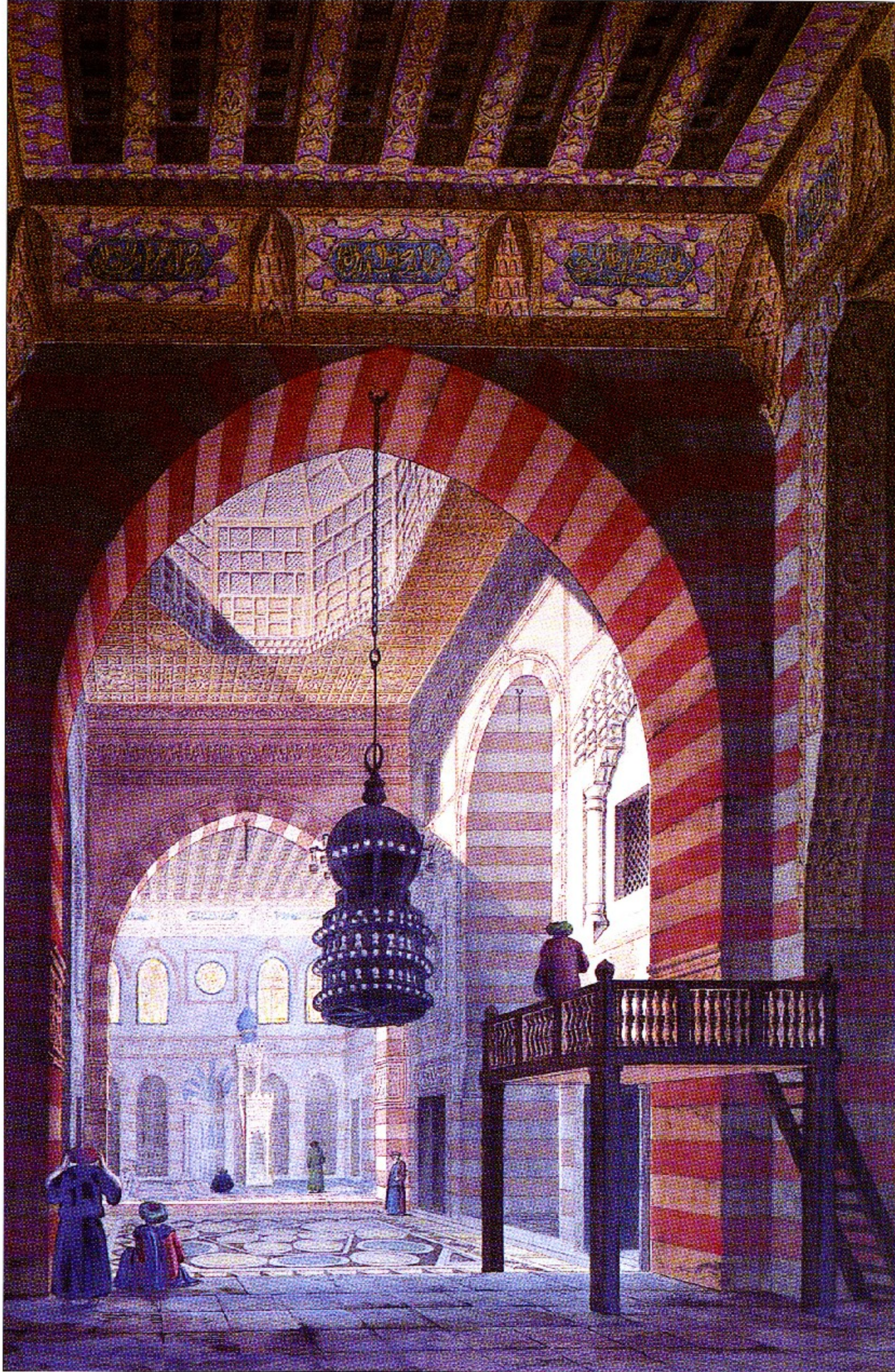




لوحة ١٢ ملون: پاسکال کوست  
محراب ومنبر جامع المؤید.

لوحة ١٣ ملون: پاسکال کوست  
منظر خارجي لجامع قايتباي.

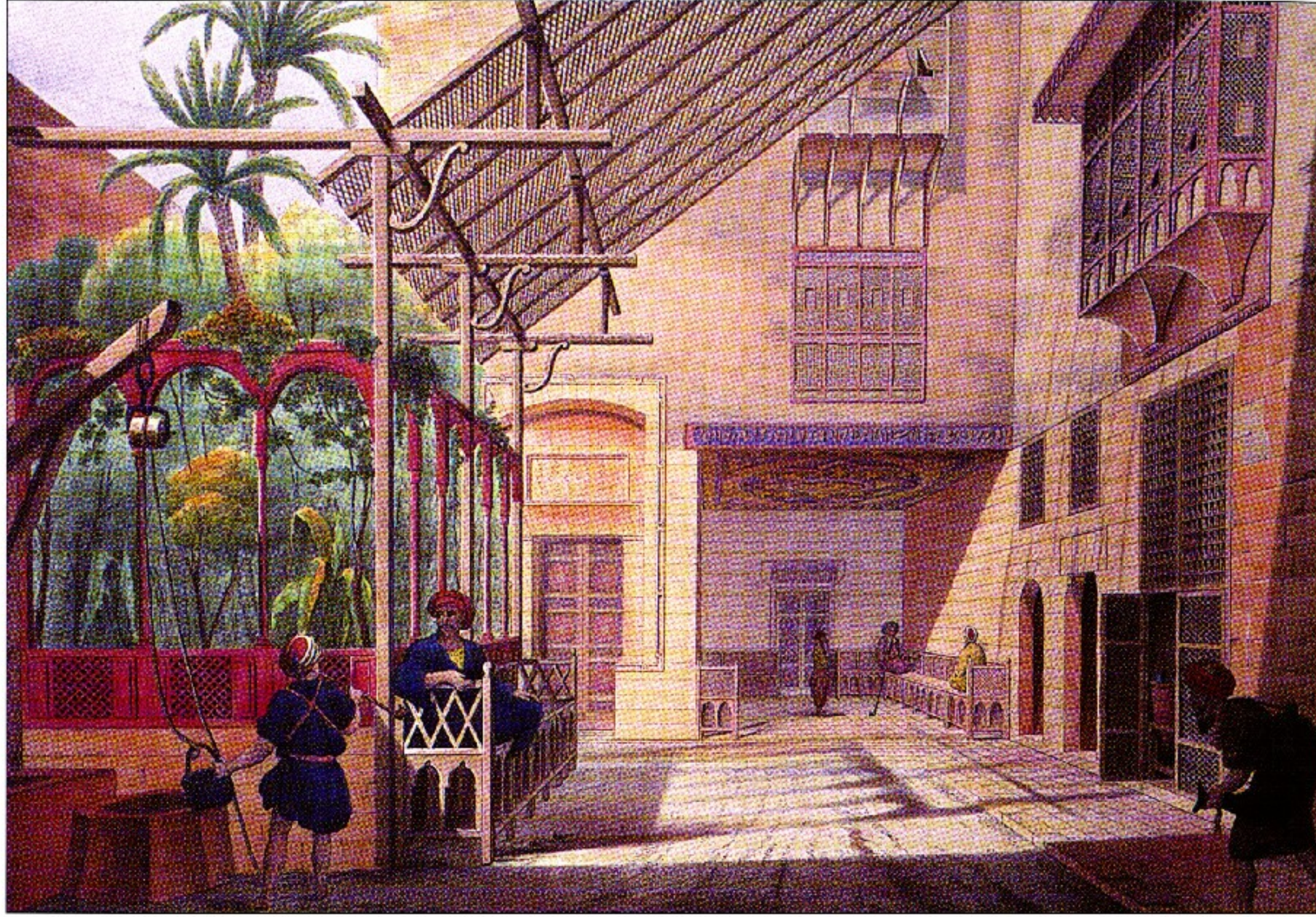




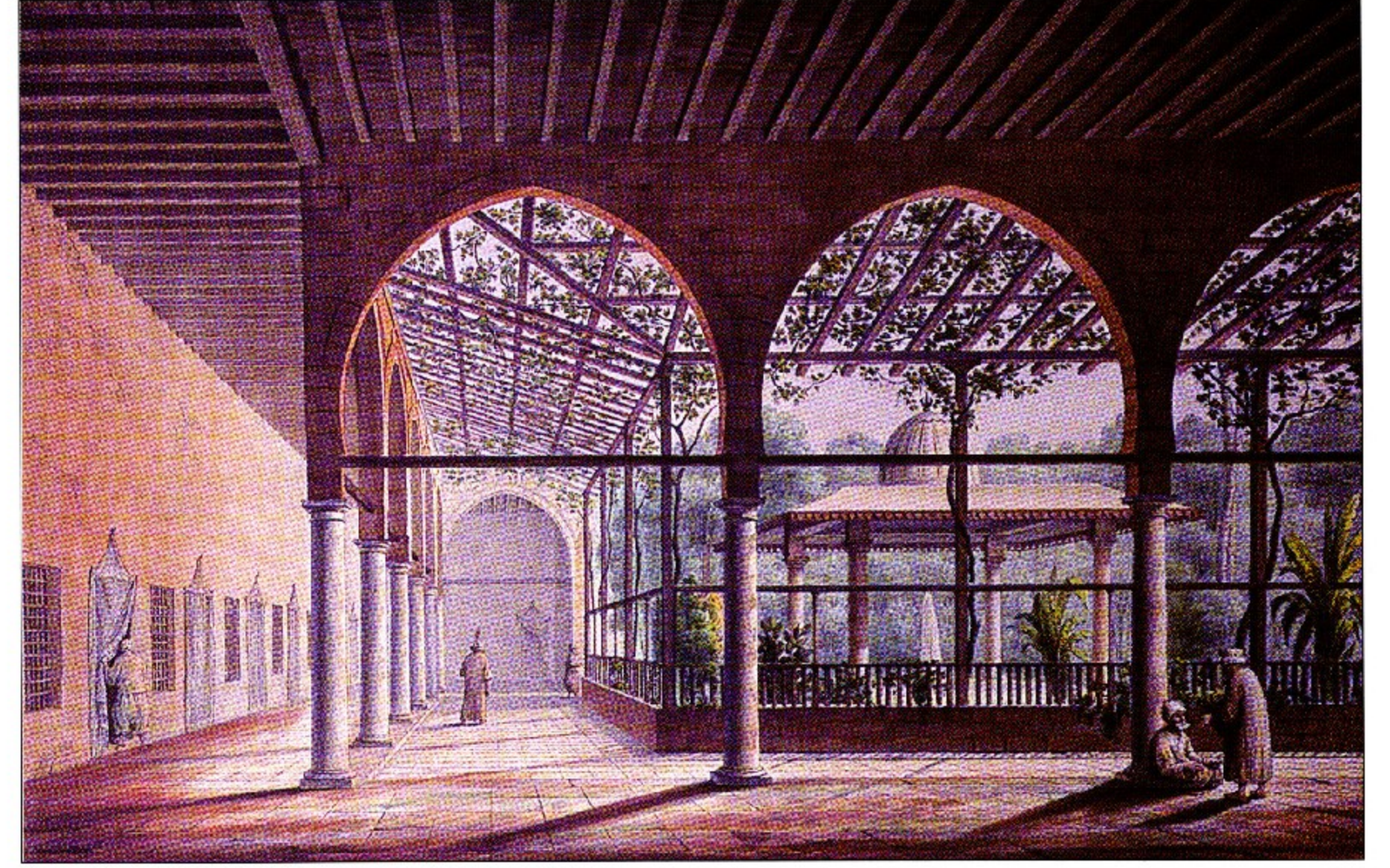
لوحة ١٥ ملون: پاسكال كوست. واجهة السبيل وتكية الدراويش المطلة على شارع الحبانة.

لوحة ١٤ ملون: پاسكال كوست  
منظر داخلي لمسجد قايتباي تظهر فيه الثريا النحاسية.



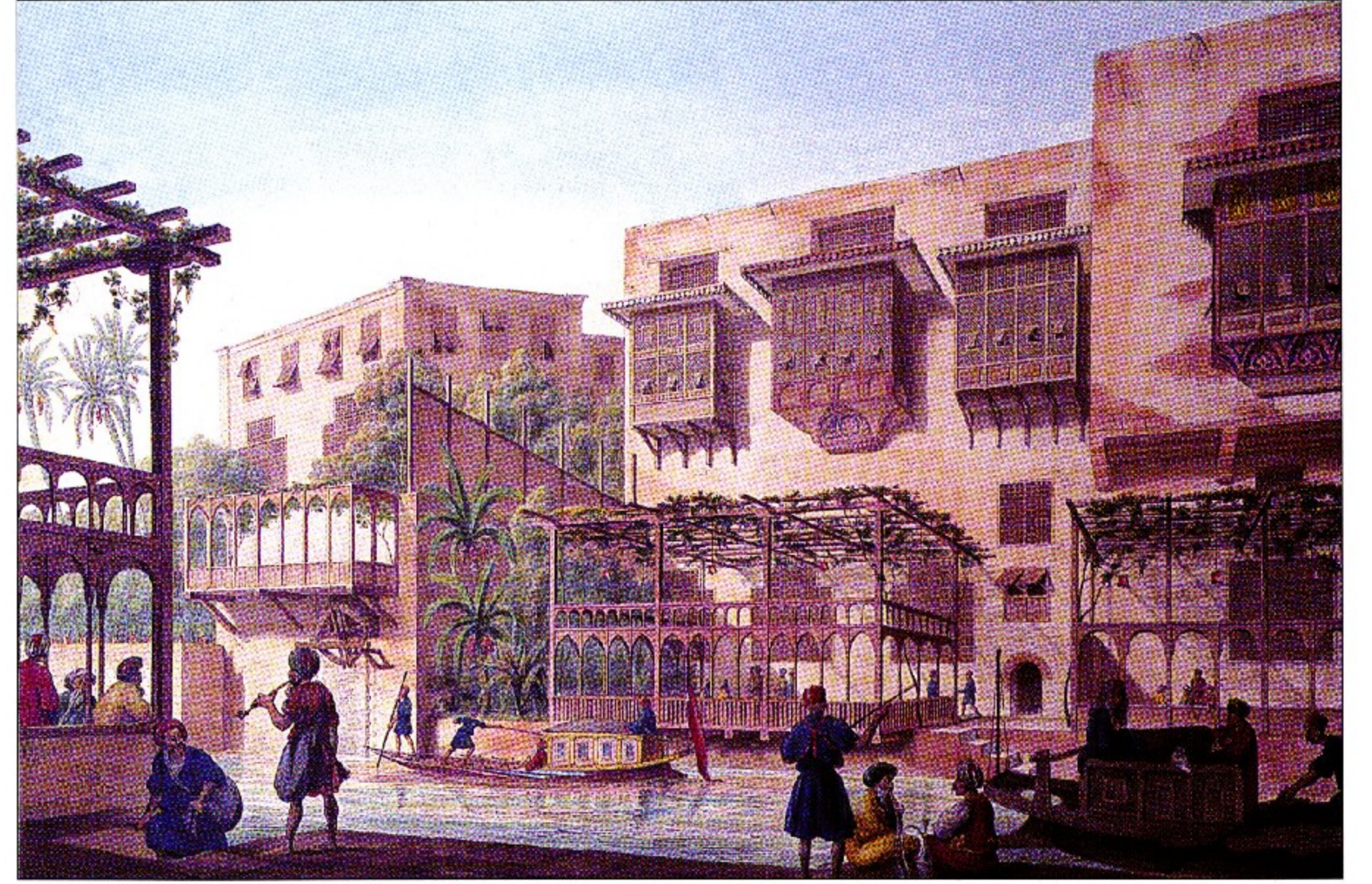
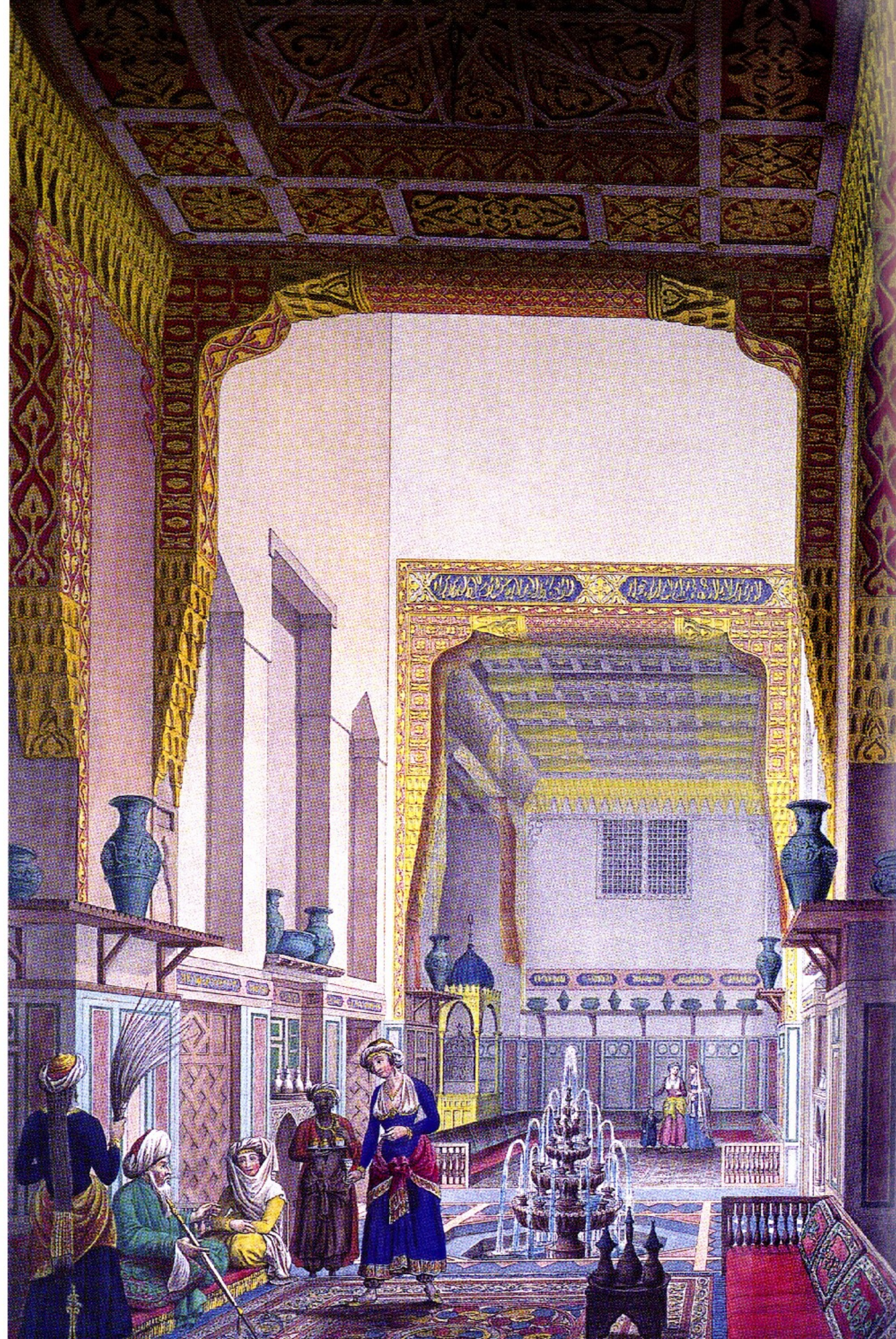


لوحة ١٧ ملون: پاسكال كوست. منظر لأحد الأبنية المطلة على الخليج المصري خارج باب الشعربة



لوحة ١٦ ملون: پاسكال كوست. منظر داخلي لتكية الدراويش

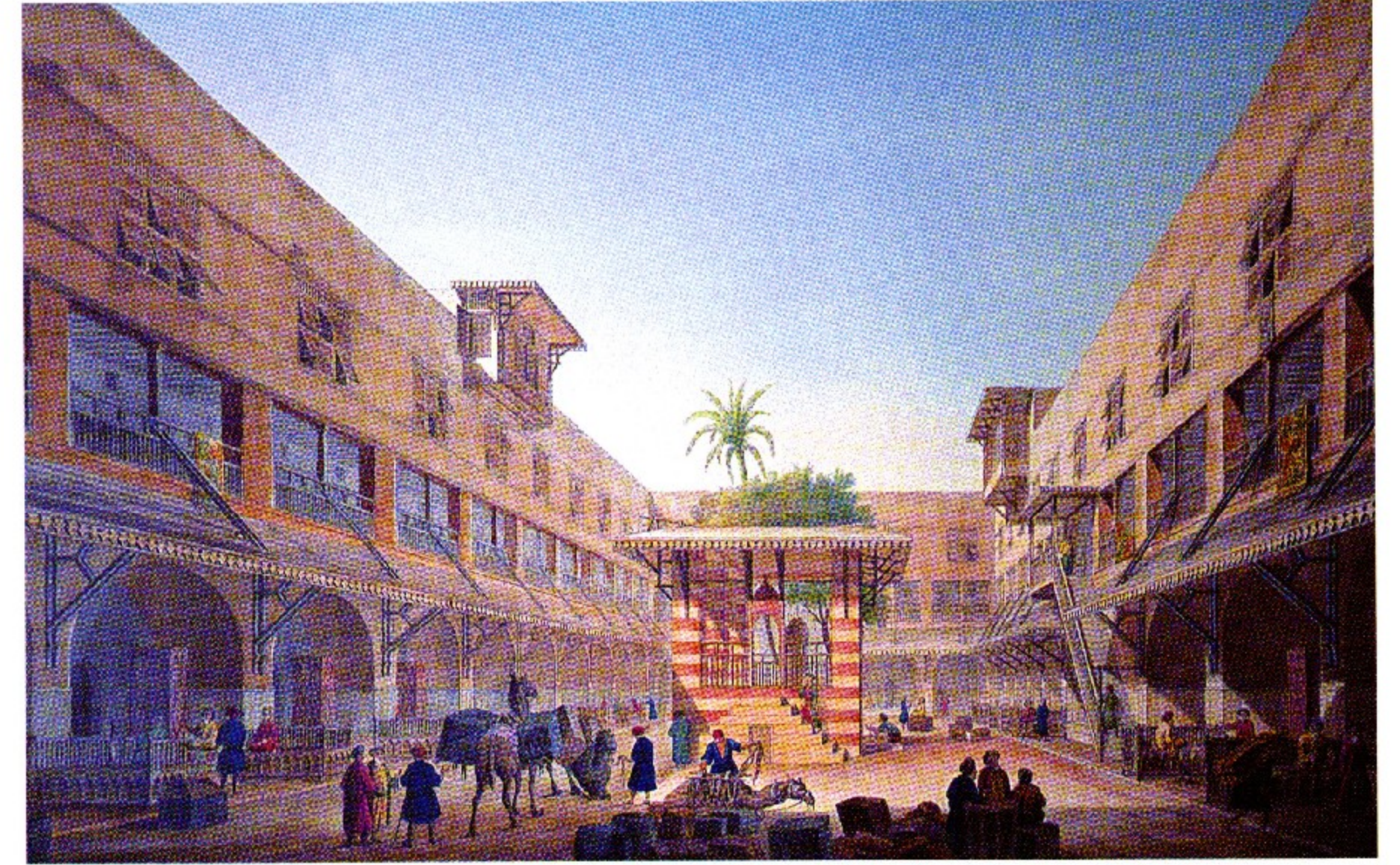




لوحة ١٨ ملون: پاسكال كوست. منظر الدور المطلة على ترعة الخليج المصري خارج باب الشعيرية

لوحة ١٩ ملون: پاسكال كوست. المقعد الصيفي المطل على صحن منزل بحى خشن قدم (من الممالك الجراكسة)





لوحة ٢٢ ملون: ياسكال كوست. منظر لوكالة ذو الفقار

#### اللوحة التالية

لوحة ٢٠ ملون: ياسكال كوست

منظر لمسجد الأمير جاكور وإبراهيم أغا بشارع الخوارية

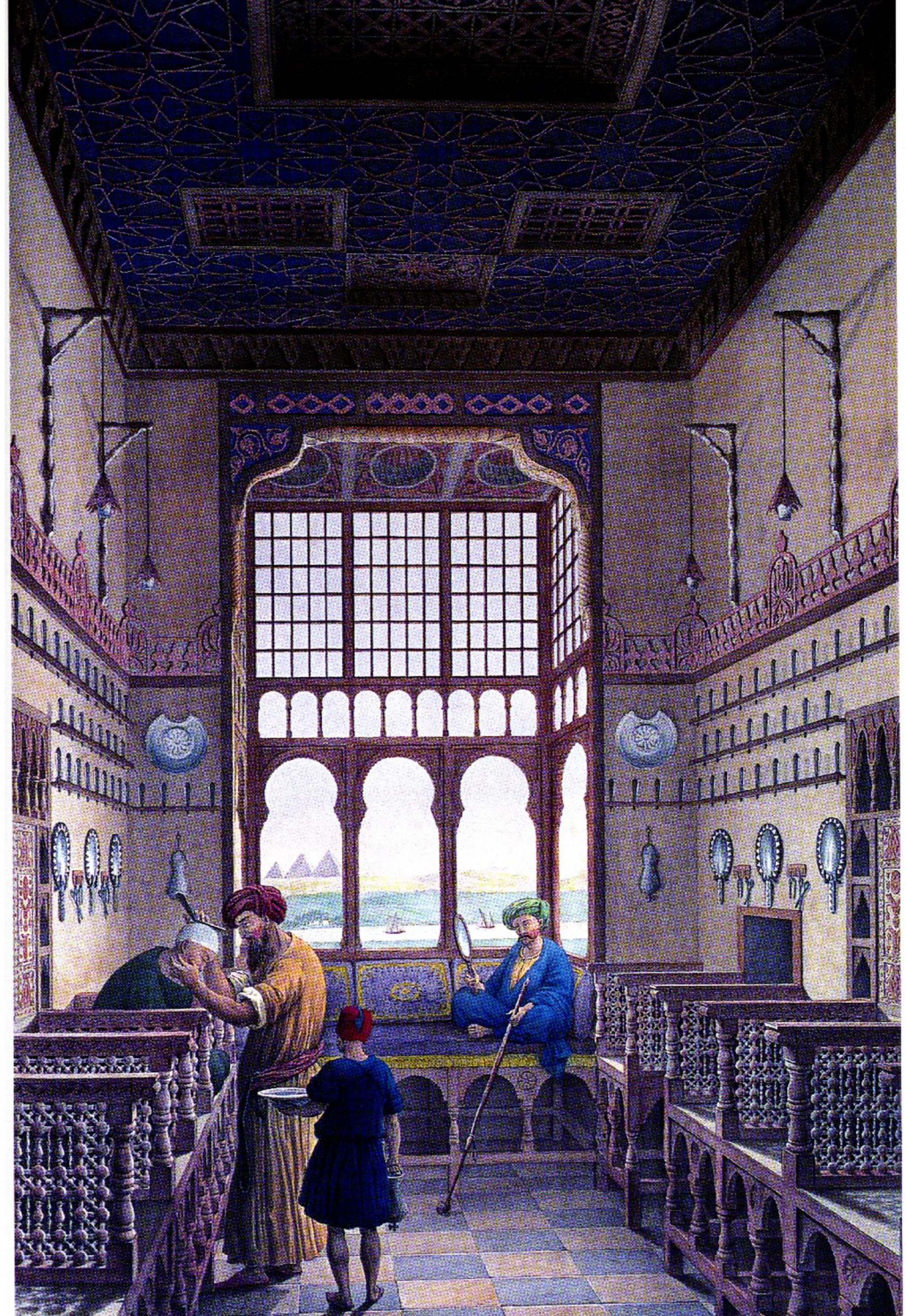
لوحة ٢١ ملون ص: ٢٢٨: ياسكال كوست

حانوت حلاق بالحيّ الأفرنجي بالقرب من القنطرة الجديدة

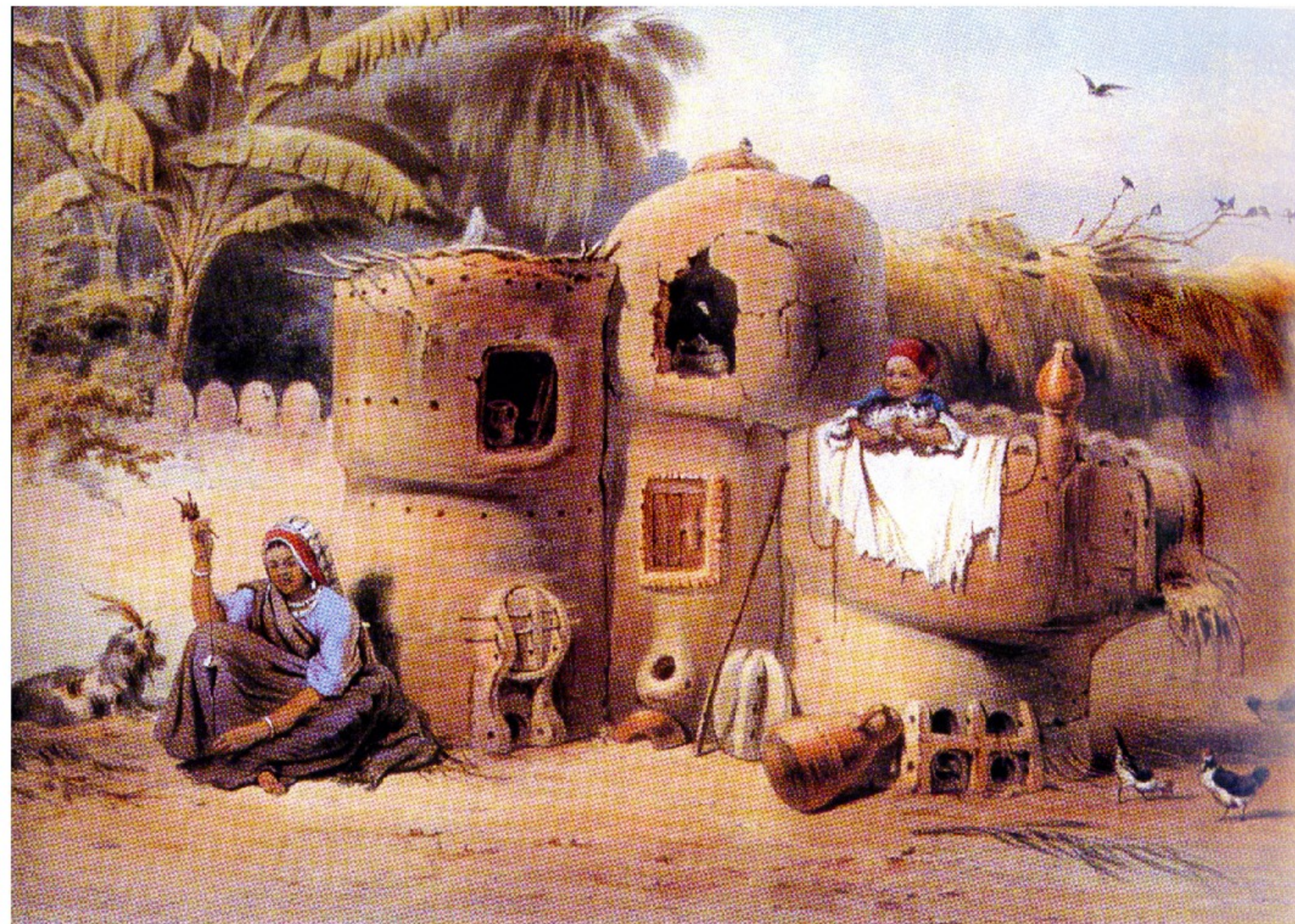




لوحة ٢٣ ملون. بريس دافن: فتاة مصرية خارجة من باب الحمام العمومي بعد استحمامها







لوحة ٢٥ ملون. بريس دافن: بيت فلاح مبنى من الطوب اللبن مغطى بالقش، يكشف عن حياة جذ متواضعة. وتبدو أمامه فلاحه جالسة تغزل وفق الأسلوب البدائي، وإلى جوارها معزة قابعة على الأرض. وفوق سطح البيت طفل يداعب قطة. كما تتدلى أوراق شجرة موز وأغذاق نخلة فوق سقف البيت تحميه بظلها من حرارة الجو، وتحط عليه يمامة. وثمة غصن يجثم فوق سرب من العصافير

اللوحة التالية

لوحة ٢٦ ملون: بريس دافن. مسجد البرديني.

منظر لإيوان القبلة. القرن ١٧

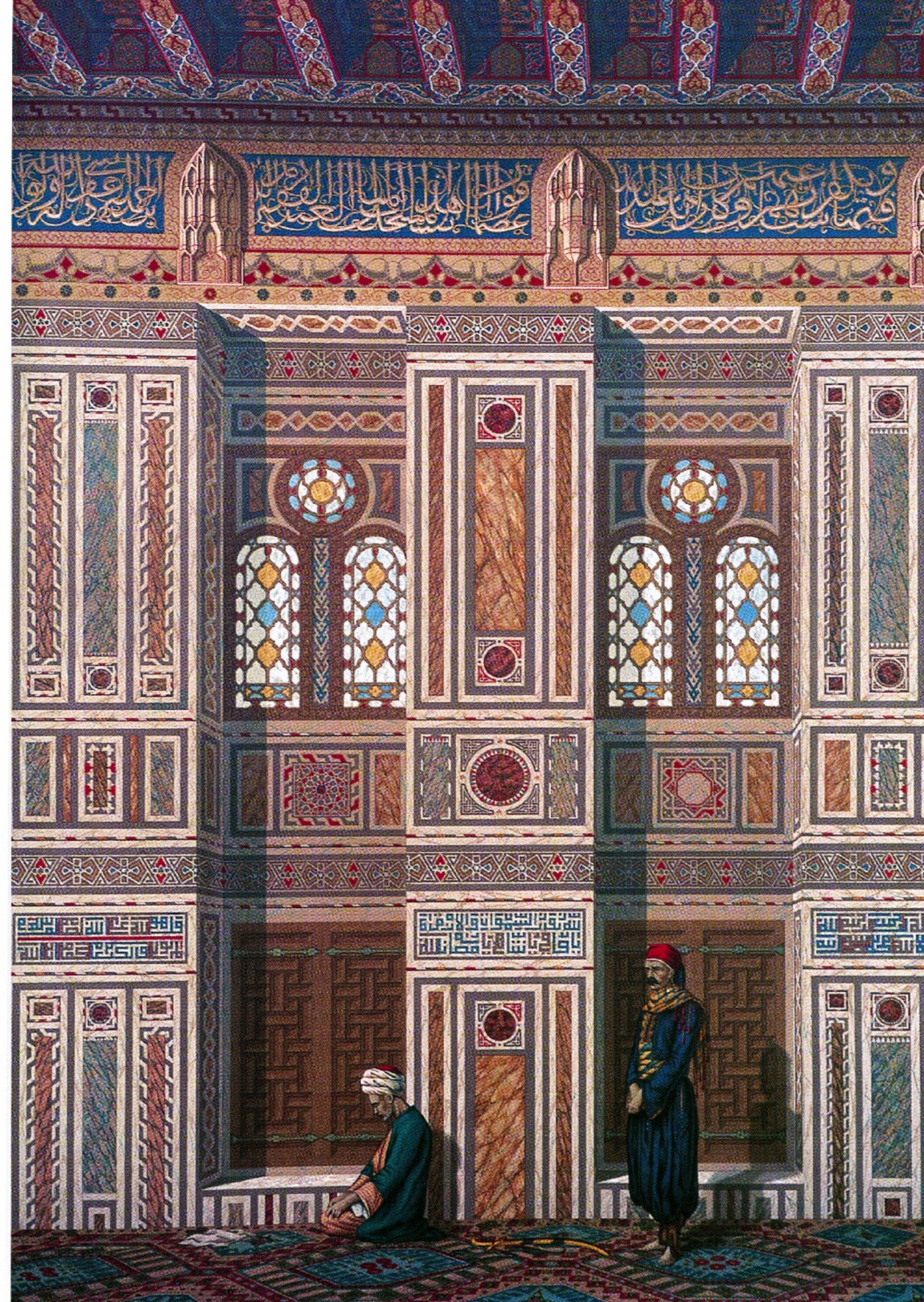
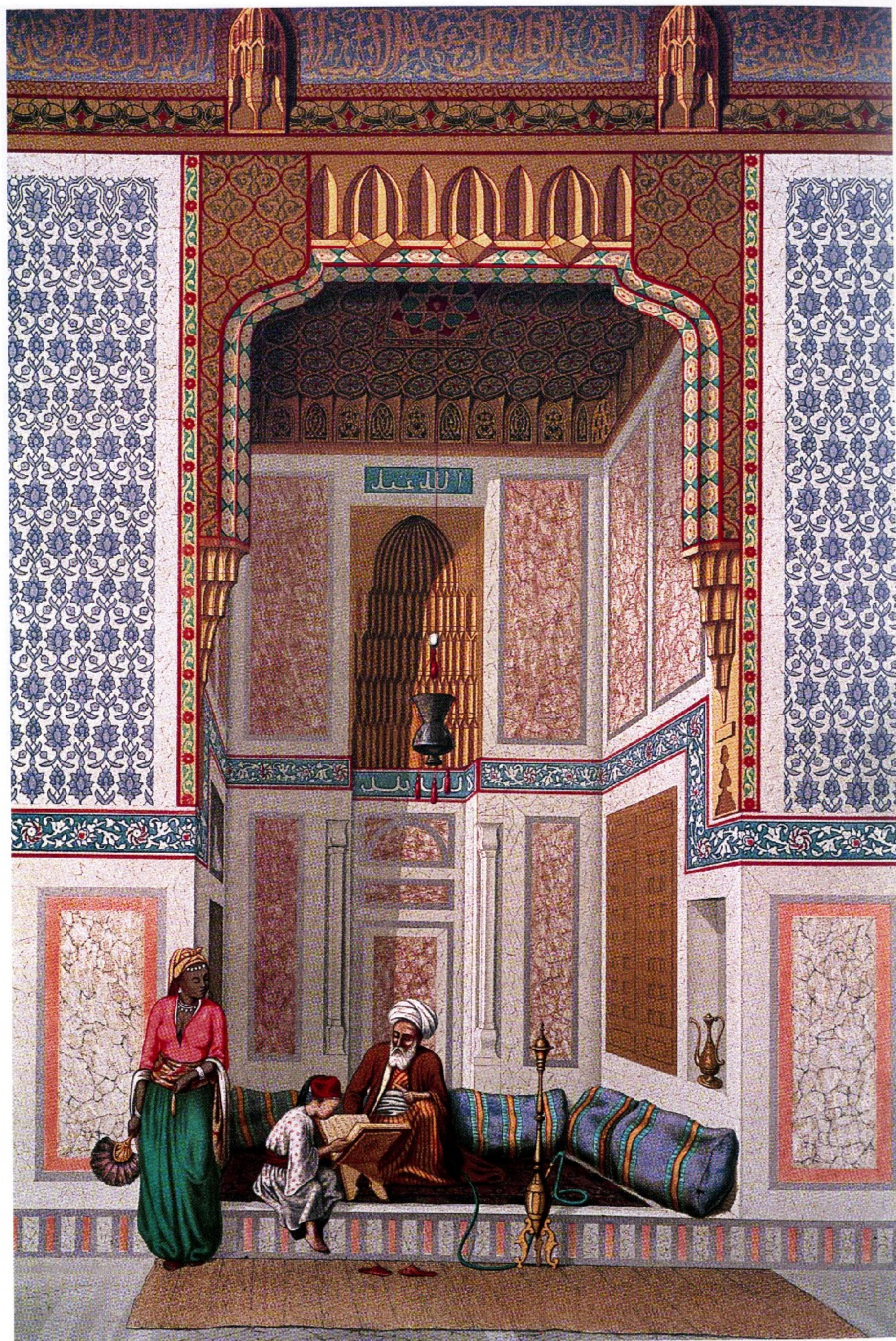
لوحة ٢٧ ملون: بريس دافن.

حسني أحمد البرديني في داره.

لوحة ٢٤ ملون. بريس دافن: فلاح مصري وزوجته. وعلى حين يستند الرجل إلى فأسه مستمتعا بتدخين غليونته، تحمل امرأته «مشئة» مليئة - فوق رأسها. ويرتدي كلاهما رداء مناسباً للطقس. وبينما لا تتزين المرأة بالوشم، تتحلى بأسورة حول معصمها وبخاتم في أصبع إحدى يديها. ويبدو رداء الرجل وكأنه رداء أحد الدراويش الجائلين أكثر منه رداء فلاح عامل، إذ يتكون من رقع من جلد الخراف ذى الفراء تكسو جسده من كتفيه إلى ركبتيه. وكلاهما حافي القدمين.











لوحة ٢٨ ملون. پريس داقن: سيده مصريه بجناح الحريم بلباس المرأة داخل المنزل

#### اللوحات التالية

لوحة ٢٩ ملون: پريس داقن

دار سيدي يوسف آدمي. جناح الاستقبال

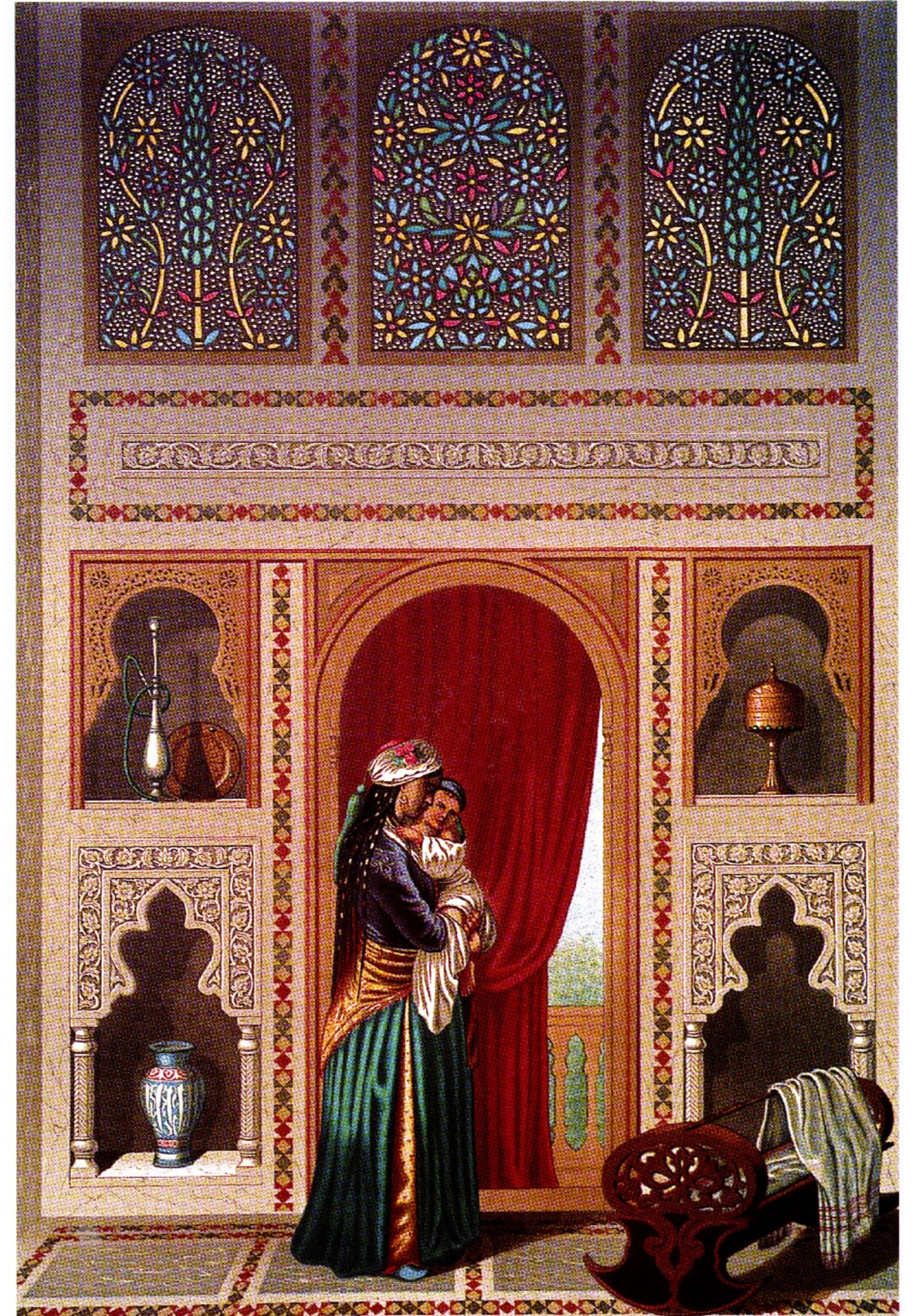
لوحة ٣٠ ملون: پريس داقن

دار سيدي يوسف آدمي. حجرة المرضعة

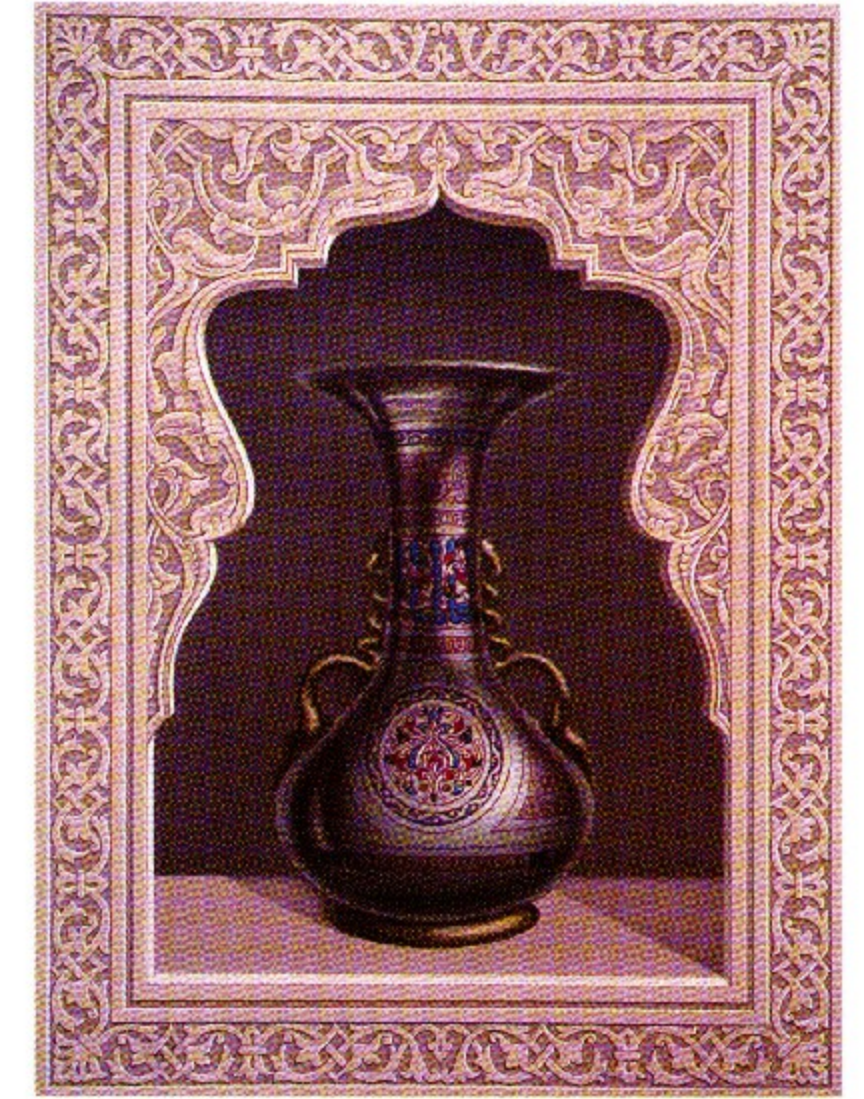
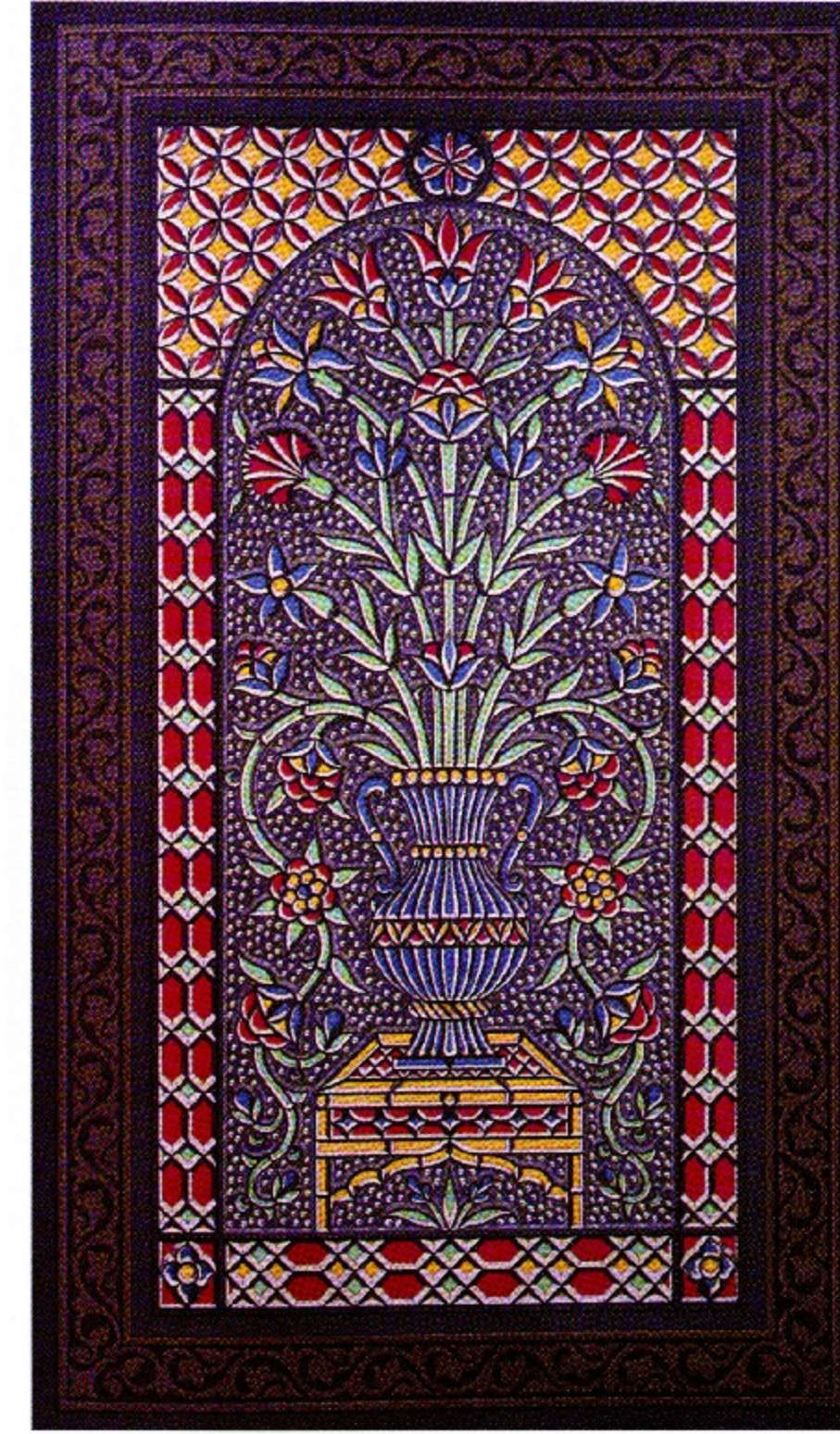
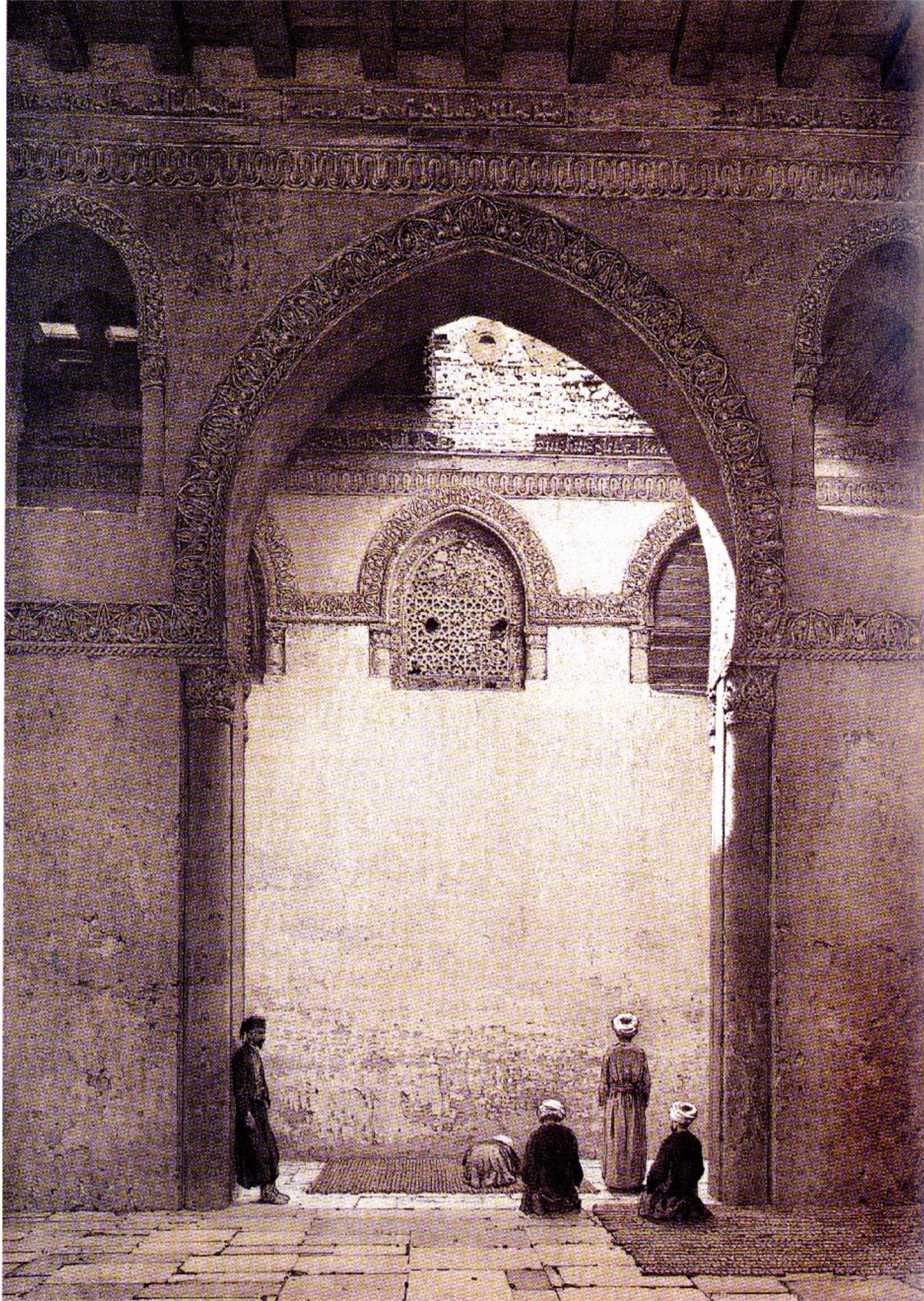




لوحة ٣١ ملون. پريس دافن : فرسُ نَجْد المَجَلِّي، الخَوَّار العَنَان، الأبييض اللون، تشوبُ رأسه بقعة سوداء تُغطيه حتى جبهته. مصدره إقليم نجد بالجزيرة العربية. ويبدو في كامل عُدَّته بلجامه وسيوره وسرجه الذي يعتلي جُلًّا أزرق مزخرفاً مُسدلاً على ظهر الفرس.





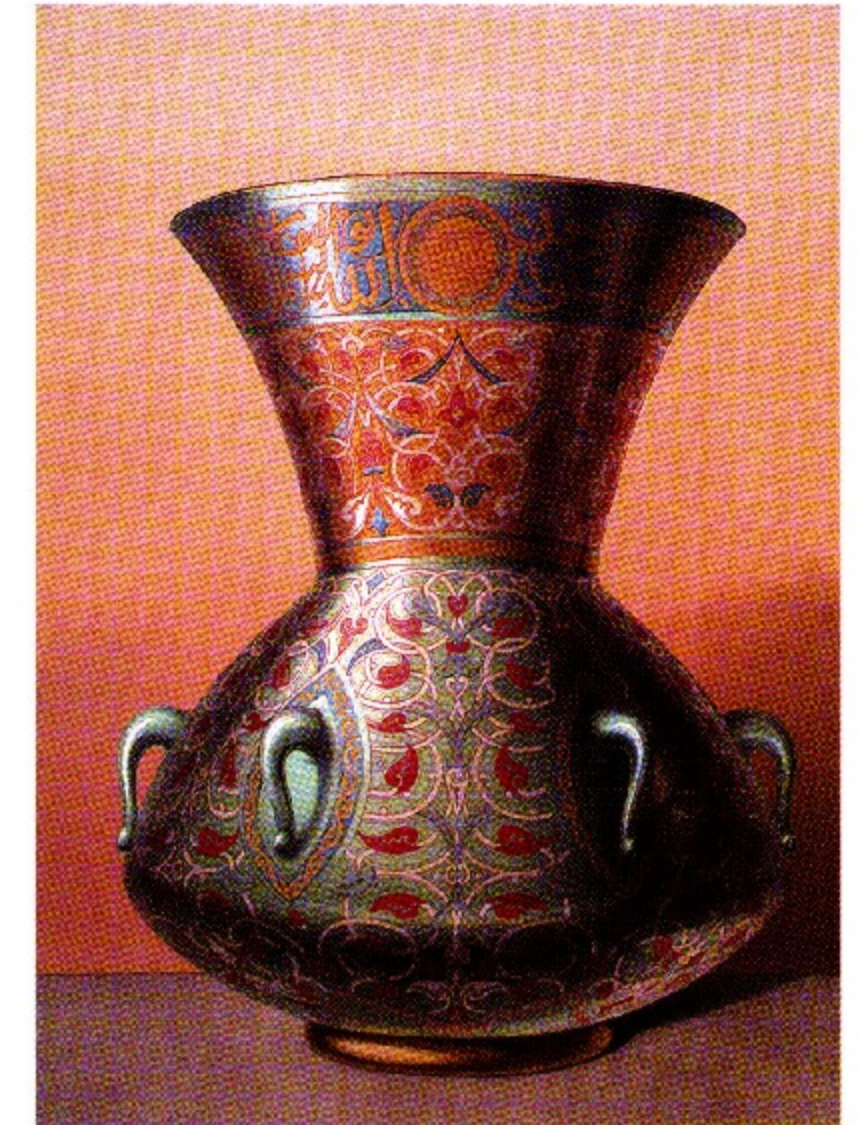


لوحة ٣٢ ملون: باريس دافن. مشكاة من الزجاج مزخرفة بالمينا والملونة والتذهيب بجامع السلطان برقوق. القرن ١٤.

لوحة ٣٣ ملون: باريس دافن. نافذة من الجص مزينة بزخارف مفرغة وزجاج معشق (شمسية أو قمرية) بجامع الأشرف برسباي. شاع المعز (بين القصرين). القرن ١٥.

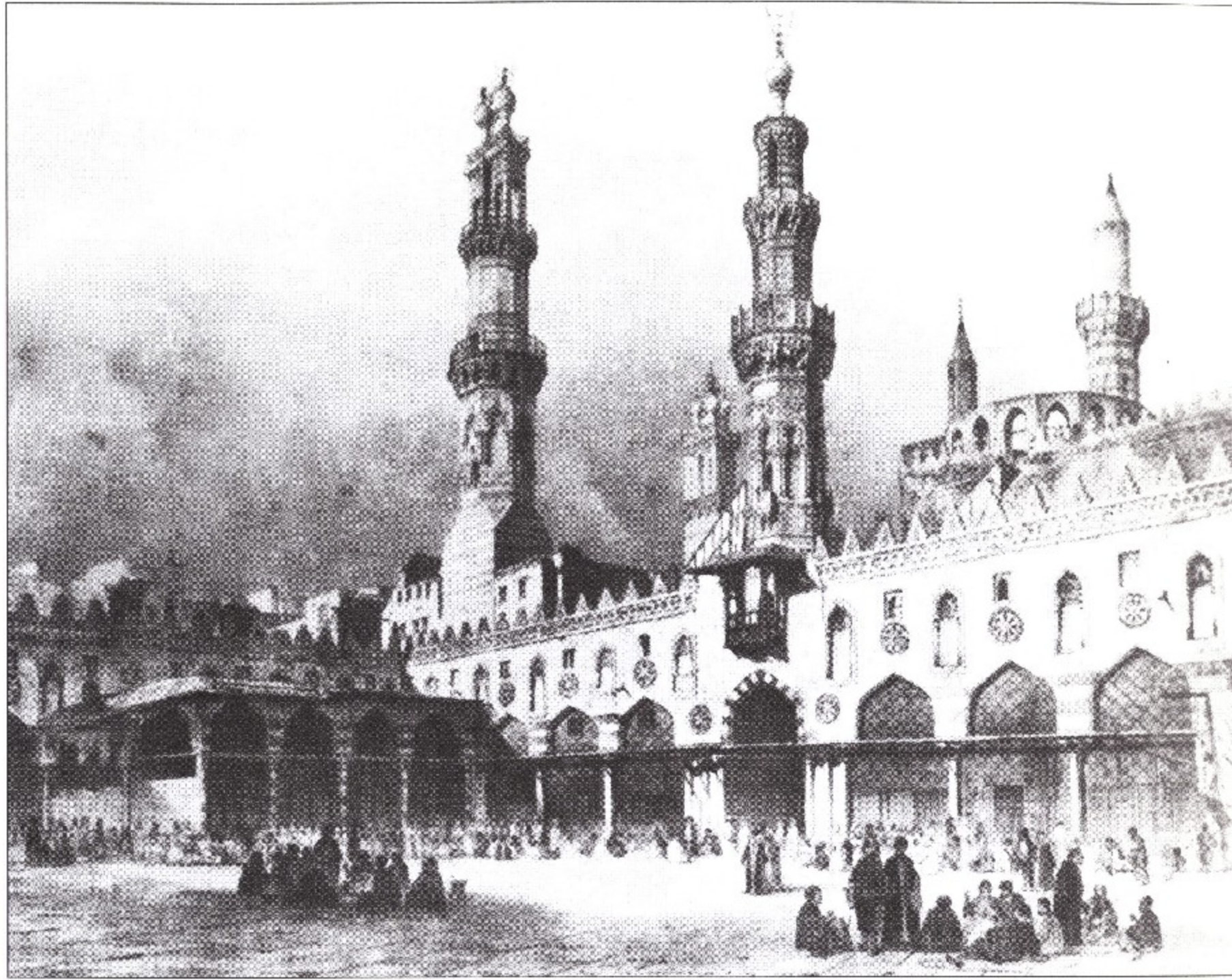
لوحة ٣٤ ملون: باريس دافن. مسجد أحمد بن طولون. ليتوجراف (طباعة بواسطة الحجر) ١٨٧٧. متحف داهش بنيويورك.

لوحة ٣٥ ملون: باريس دافن. حشوات أطر خشبية أرابيسكية الطراز، مجمعة بطريقة التعشيق. ليتوجراف (طباعة بواسطة الحجر) ١٨٧٧. متحف داهش بنيويورك.

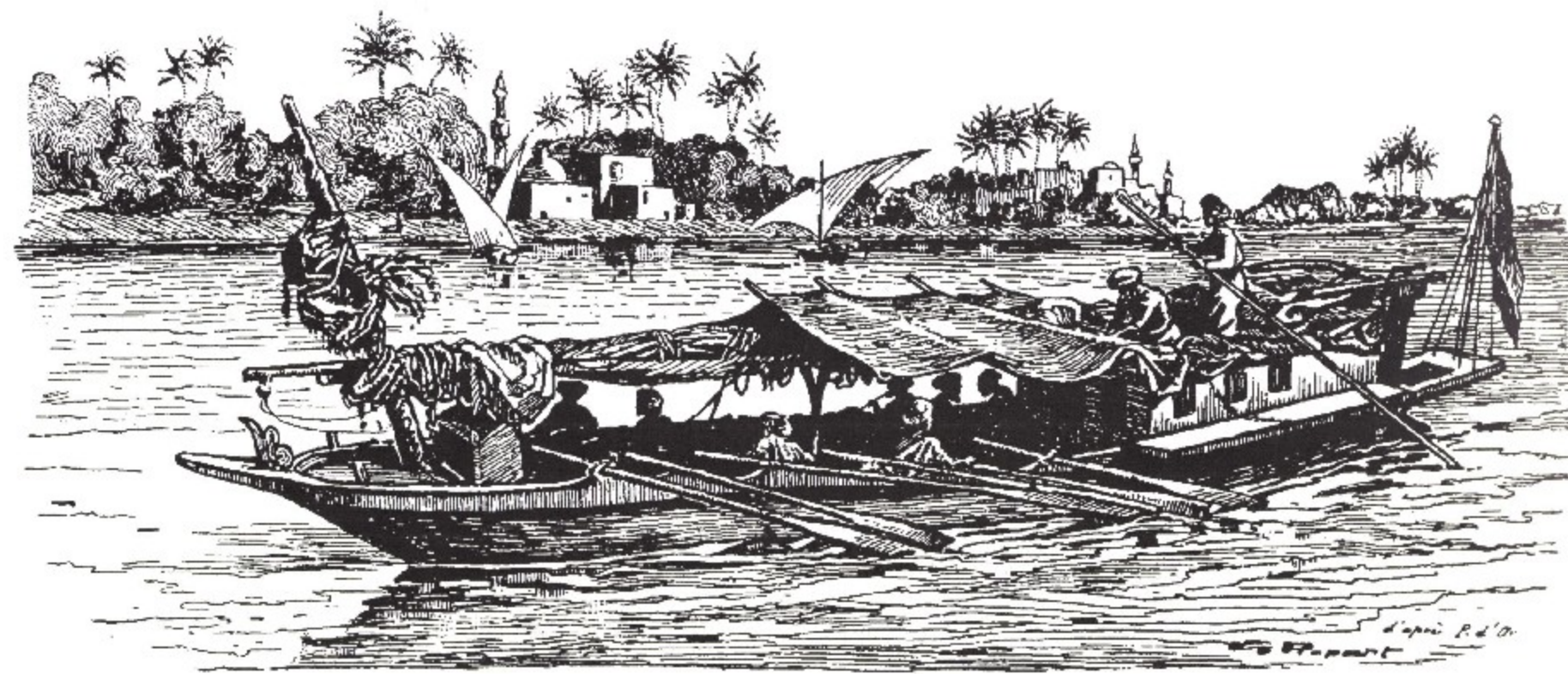


لوحة ٣٢ ب ملون: باريس دافن. زهرية من الزجاج المزخرف بالمينا الملونة. القرن ١٦.





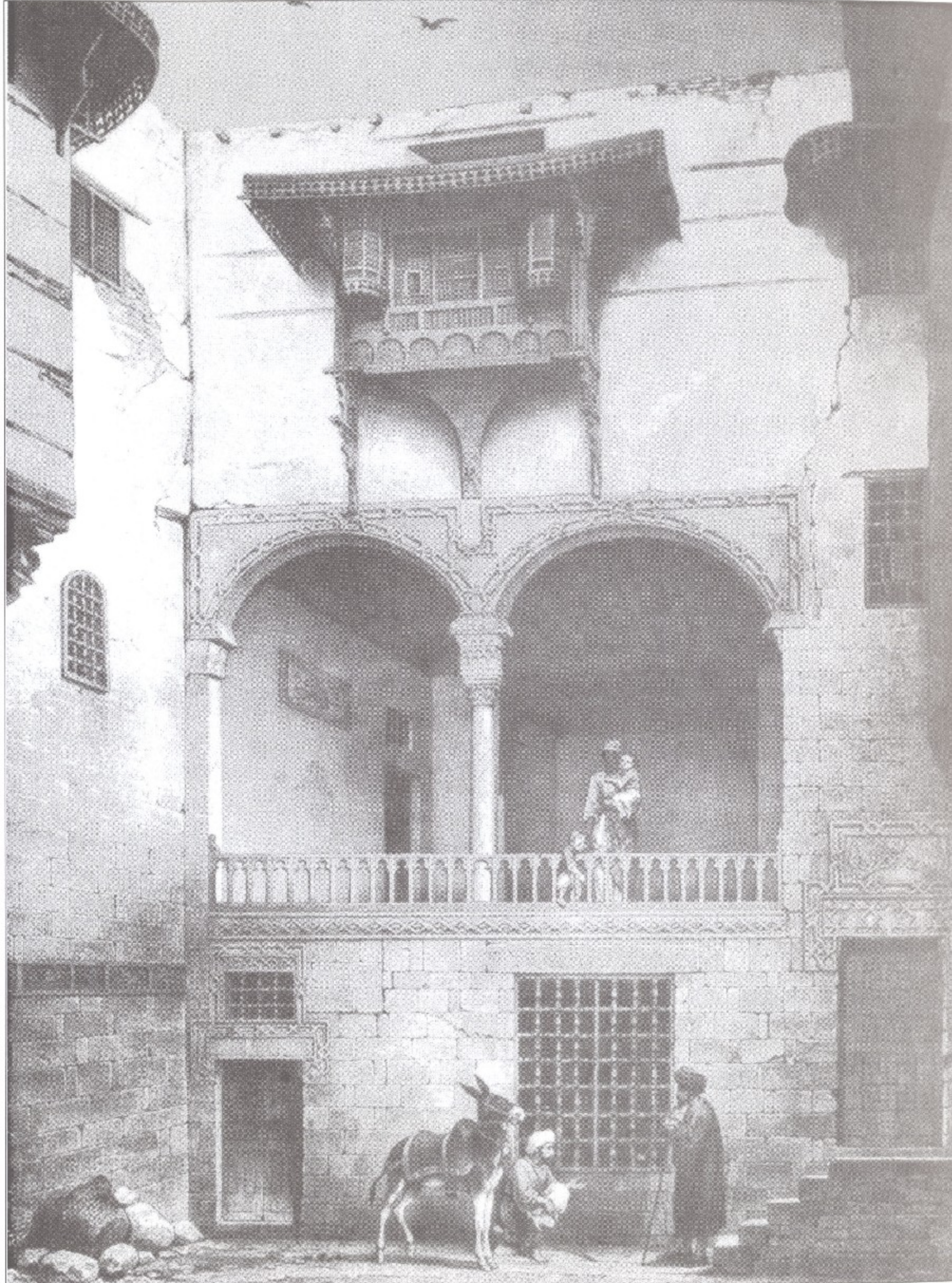
لوحة (١٤٦) بريس دافن : الجامع الأزهر



لوحة (١٤٧) بريس دافن . مركب بالنيل





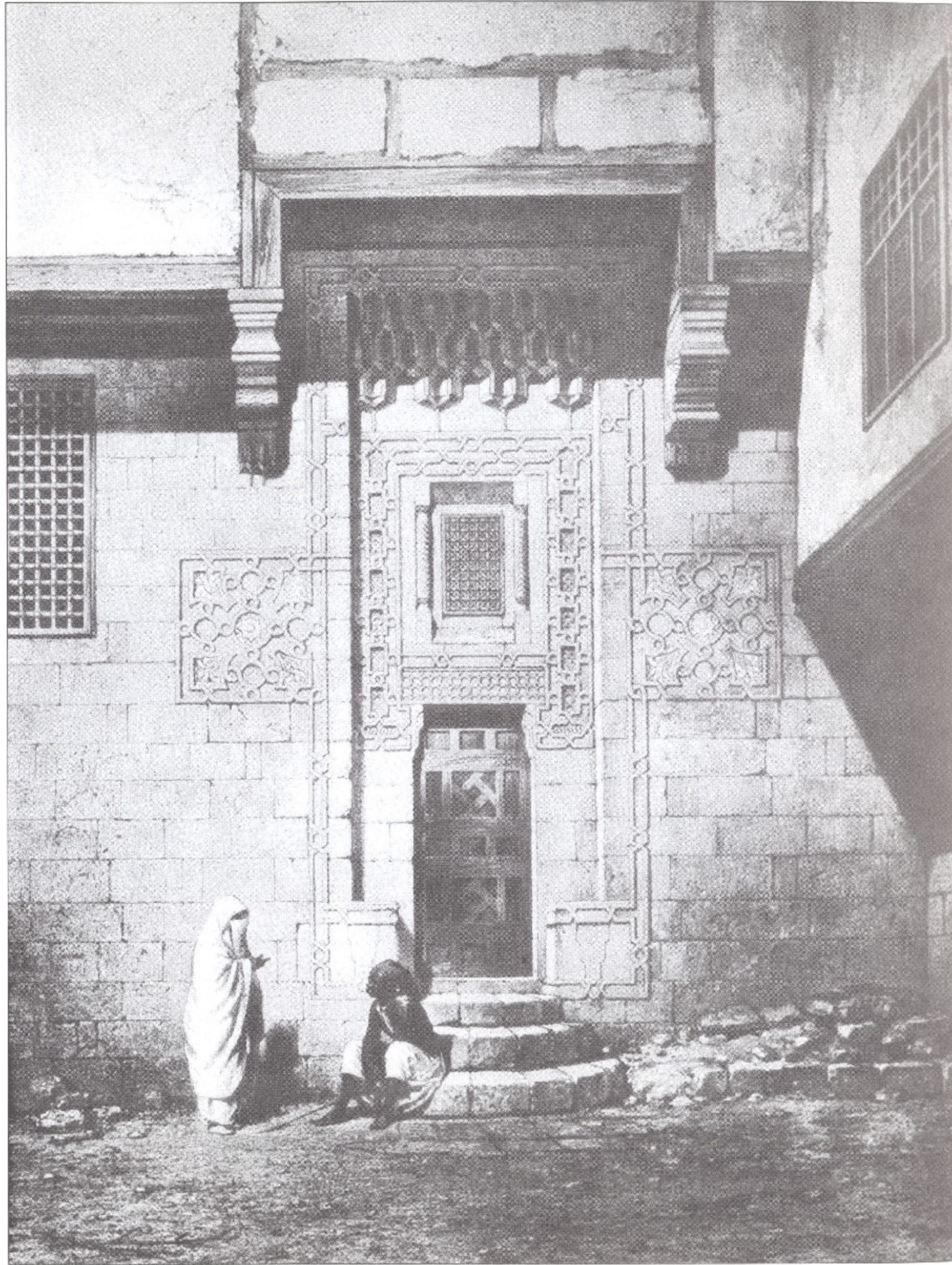


لوحة (١٤٩) پريس داقن : بيت شلبي ، الواجهة الداخلية المطلّة على الحوش

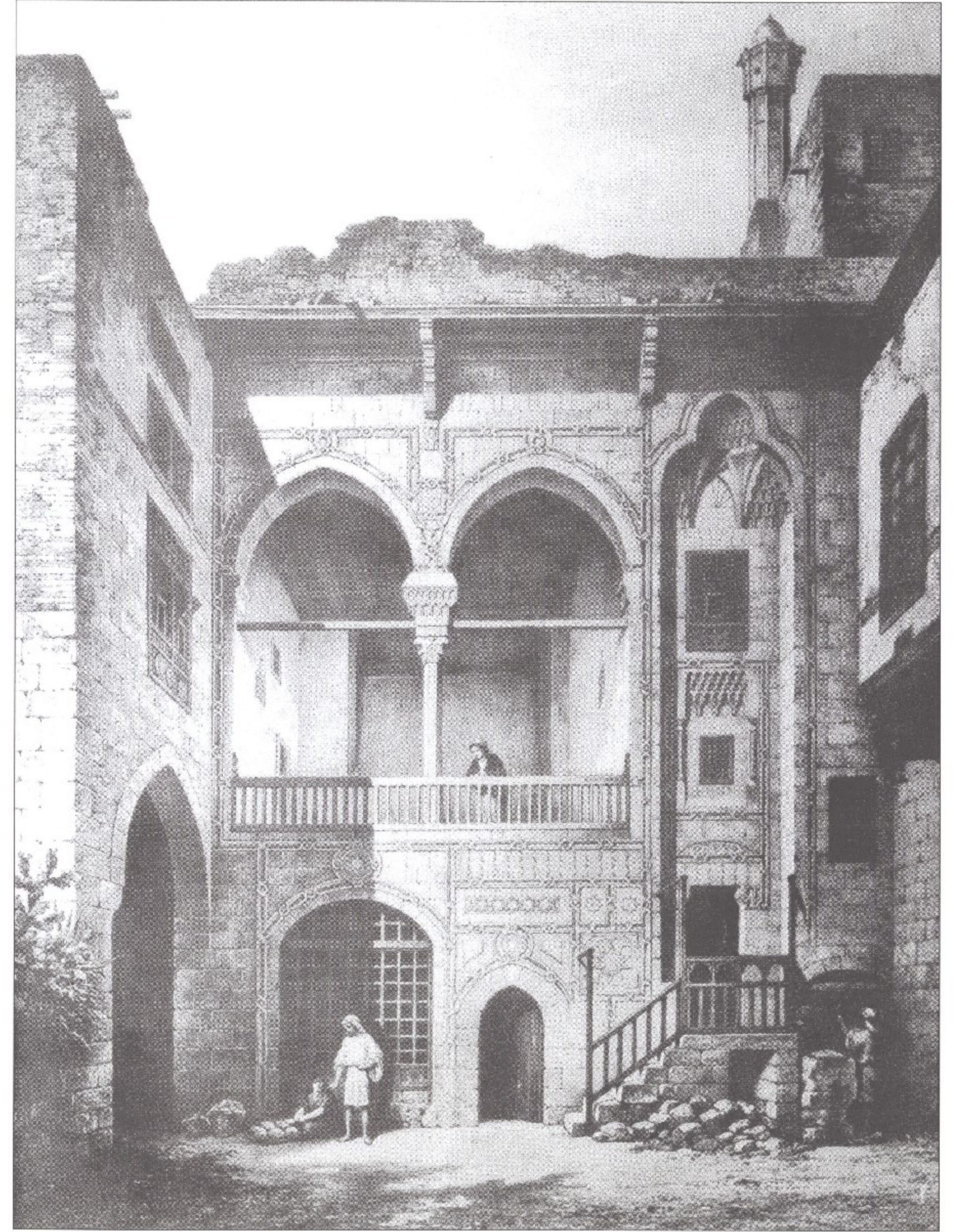


لوحة (١٤٨) پريس داقن : واجهة حمام عمومي



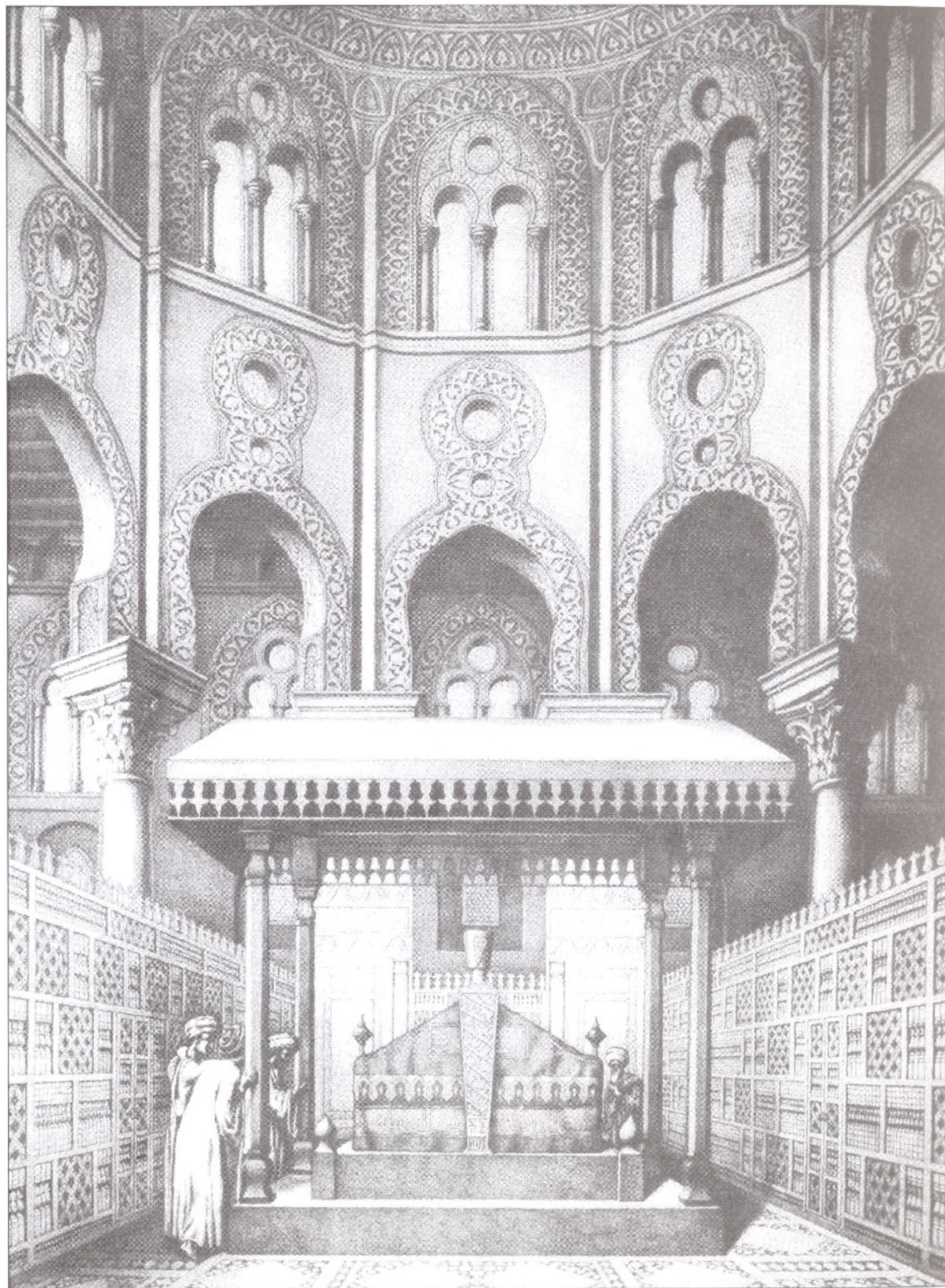


لوحة ( ١٥١ ) پريس دافن. مدخل حمام التلات .

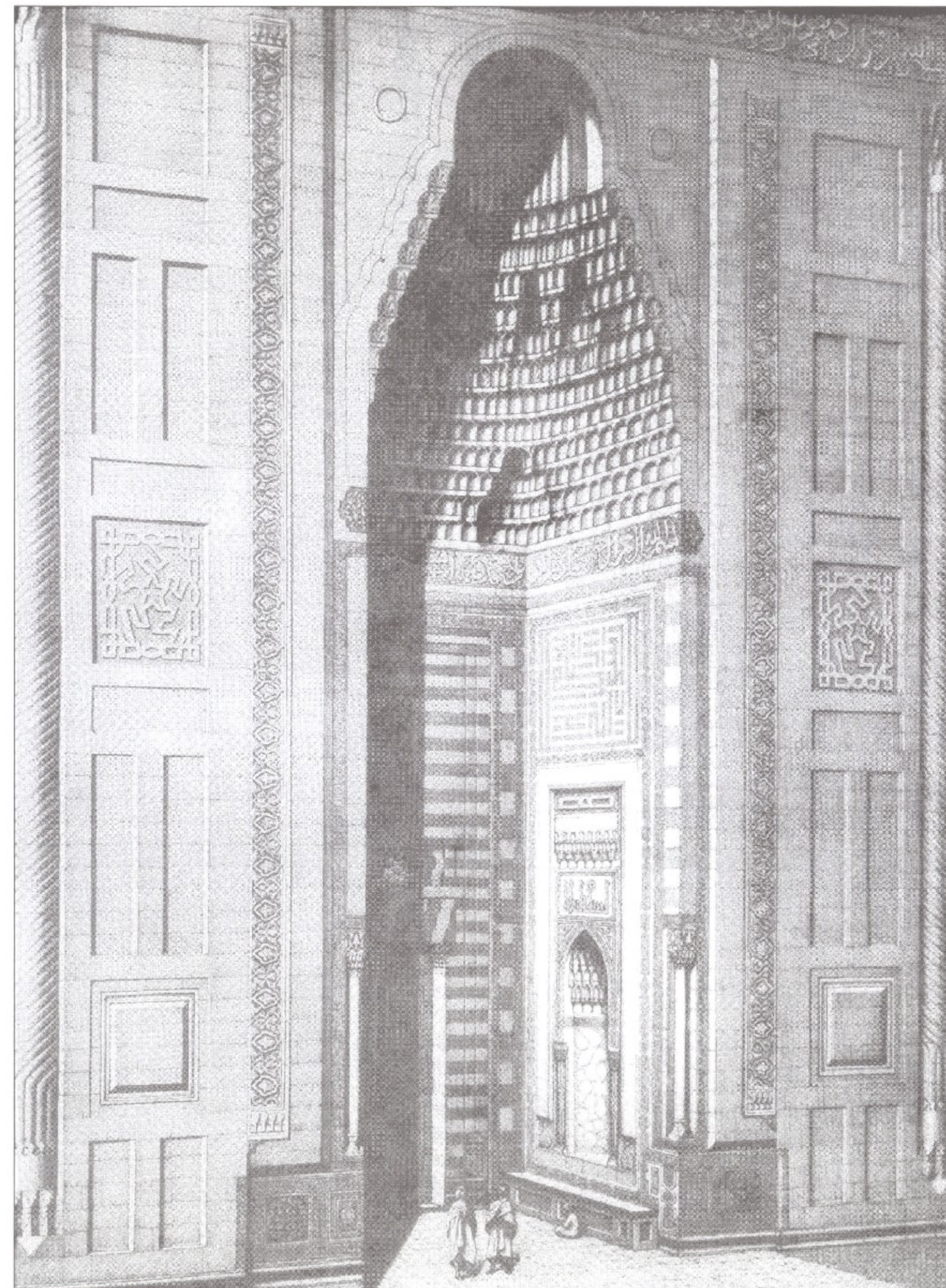


لوحة ( ١٥٠ ) پريس دافن : بيت شلبي . المقعد أو الإيوان المطلّ على الحوش





لوحة (١٥٣) پريس دافن. ضريح السلطان قلاوون .



لوحة (١٥٢) پريس دافن. مدخل جامع السلطان حسن

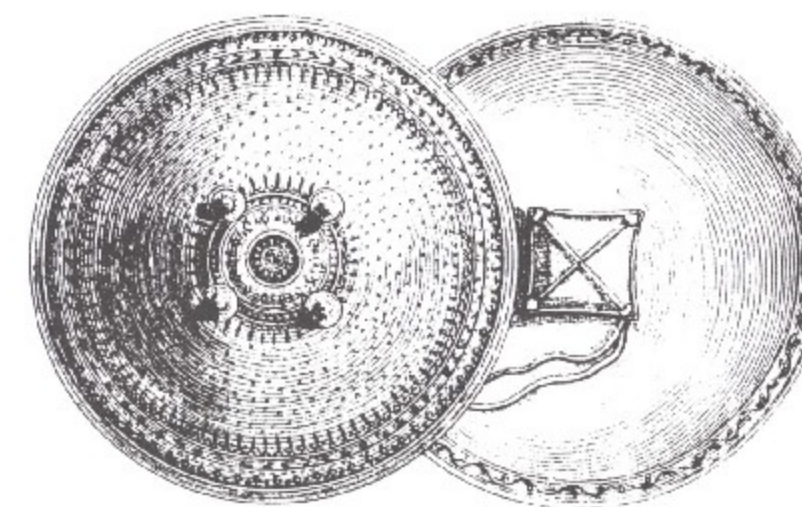


التوفيق بين الأديان  
والإنبهار بالإسلام



چیرارده نرقال

۱۸۵۵ - ۱۸۰۸







كان الشرق ميلاً على چيرار ده نرقال منذ صغره حواسه، يشوقه سحر الخط العربي الذي عكف على محاكاته دون فهم، وتأسره رؤى القاهرة بين ثنايا كتاب «ألف ليلة وليلة»، يودّ لو زارها في غير تلك الأحلام التي تملأ الكثير من لياليه. ويجتذبه حب النزوح إلى الشرق الذي تبدّى بأجلى صورته عند أصحاب النزعة الرومانسية. على أن چيرار ده نرقال قد اعترف في مراسلاته أن الخافز الحقيقي لرحلته إلى مصر هو البرهنة للمعجبين به ولحبيبه على أنه قد تخلص من الاضطراب النفسي الذي كان يعانيه بإقدامه على القيام بمشروع أخذ يحو من مخيلته ومخيّلة قرائه ذكرى مرضه الأليم، وأن يدلّل على شفائه بدليل حاسم، وقد تمخّض هذا المشروع عن سفره في رحلة مرهقة إلى بلاد الشرق الدافئة يتخفّف فيها من قيود حياته اليومية المملّة. وأغلب الظن أن حافزه الرئيسي للقيام بهذه الرحلة لم يكن لإقناع غيره بقدر ما هو لإقناع ذاته وتغيير مجرى حياته بما يجدّد مصادر إلهاماته ويُشحّذه بطاقة جسدية ومعنوية بعد ما شاع عنه مما كان يلمّ به من نوبات ينهض معها أثناء النوم فيسير في طرقات باريس شاردة شأن التائه في بلاد غريبة. وهكذا كانت رحلته من الضرورة بمكان ليخلّصَ إلى الشفاء الروحي، هذا إلى ما في تلك الرحلة من تحقيق لرغبته القديمة في الاغتراب ليعود كاتباً مرموقاً كما كان، مستمتعاً بفترة مثلى من الاستجمام تستغرق بضع سنوات. وقد أسفرت هذه الرحلة عن كتاب من أنفس الكتب الأدبية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، ذلك هو كتابه «رحلة في الشرق»<sup>(٤٠)</sup>.

Gérard de Nerval: (٤٠)

**Voyage en Egypte.**

Bibliothèque des éditions

Richelieu, Paris 1950.

(٤١) الرومانسية بصفة عامة

حالة نفسية أهم خصائصها

زيادة الحساسية وعدم القناعة

بما يملّيه العقل والحكمة

والإفراط في الاهتمام بالذات

وحدة الانفعالات والرغبة في

الهروب من الواقع الحاضر.

(د. مجدي وهبة. معجم

مصطلحات الأدب).

وهذا الكتاب مزيج من الثقافة الرفيعة والمغامرات الممتعة ومن الوصف الخلاب والأساطير القومية ومن العادات الشعبية والتقاليد الدينية. كل هذا في إطار قصصي جذاب وأسلوب ساخر شائق قد يشوبه الافتيات المرّ علينا حيناً كما يشوبه التصدّي للدفاع الحار عنا حيناً آخر، فشاعت في الكتاب شاعرية فيّاضة غابت معها الحقائق أحياناً. وإذا كانت مادة الكتاب تخالف الواقع في شيء فليس ذلك عن قصد من المؤلف، وإنما هي الضرورة الأسلوبية التي حملته على هذا النهج كي يضفي على الكتاب ويث في ثنايا الأسلوب ما يبعث فيه روح الدعابة الرقيقة ويجلّله ببهاء الفن ورونقه، فهو يسوق السخرية دون أن تحمل شراً ويمزح دون أن يقصد التجريح، ومع ذلك فلم يسلم هو نفسه ولا الشرقيون والغربيون على السواء من الوقوع ضحايا سحره. وهكذا تزوجت بين يديه الرومانسية<sup>(٤١)</sup> والواقعية وهو ما أسبغ على كتابه جاذبية عصيّة على التقليد تفجّرت معها لمسات القدرة الخلاقة والنفحات الذهنية الوقادة فمضى من بدايته إلى نهايته في نهج عاطفي أسر.



(٤٢) الكلاسيكية هي الأدب المتميز باتباع المعايير التقليدية كالأتزان والوحدة الفنية وتناسب الأجزاء والاعتدال والبساطة والنقار. (د. مجدي وهبة. معجم مصطلحات الأدب).

(٤٣) البرناسية مدرسة شعرية ظهرت في فرنسا في نهاية القرن ١٩ كرد فعل ضد المبالغة في إظهار العواطف الرومانسية وتميز بخلوها من العنصر الذاتي.

M.T. Hussein: le (٤٤) Romantisme Français et L'Islam. p. 276

وكان جيران من أشد الرومانسيين حماسة، ولكنه إلى جانب رومانسيته كان كلاسيكيا تقليديا<sup>(٤٢)</sup> بل ويكاد يكون پارتاسيا<sup>(٤٣)</sup> يكتب عواطفه ولا يبدئها كما يفعل الرومانسيون، ويعني بالأسلوب الرفيع فيختار من الكلمات ما رق ومن العبارات ما لطف ويصوغها في نسيج أدبي طريف يدفع القارئ دفعا إلى الشرود حيناً كما يهزه ضاحكا حيناً آخر. على أن المؤلف ينصح في ثانيا هذا النهج الفريد عن حنين جارف إلى حلم لا ينضب، فقد كان خياليا. وهو الذي عُرف بدقة الملاحظة- يتحلل من الواقعية بالهروب إلى المجهول في البلاد الغربية عليه، يلاحظ ويسجل ويصف هذا كله بأسلوب الكاتب الخالم وبريشة المصور الدقيق، وبمعزف الموسيقى المرفه، لا يفوت عينيه شيء من عالمه الجديد. وما من شك في أن موضوعيته قد جعلت منه رحالة مثاليا، إذ جردته بالفعل من أية نزعات قومية أو دينية ومن أي تعصب اجتماعي أو عنصري، فقدم الأمور في نزاهة وأمانة دون أن يتخذ من أحداث مفردة أحكاما عامة.

وقد ألغى جيران من خط سيره اليونان وفلسطين حيث تتجلى المسيحية أكثر من أي مكان آخر في الشرق الأوسط، وحصر رحلته في مصر ولبنان وتركيا حيث تسود معالم الإسلام وآثاره. وهكذا لم يكن اجتذاب الشرق له متسما بمسحة المسيحية التي تجلت في رحلة شاتوبريان، بل كان ذلك نابعا من حبه للاغتراب، فما كان جيران رومانسيا فرنسيا فحسب بل كان رومانسيا تشيع بالأدب الألماني وبفلسفته وأنهر بأدب جوته وشليجل، وهو ما هيأه روحانيا للانتقال إلى الشرق المسلم. وقد انعقدت نيته من مبدأ الأمر على أن يجعل كتابه واقعا صادقا، وليس أدل على ذلك من أن العنوان الذي وضعه جيران لكتابه قبل أن ينتهي إلى تسميته «رحلة في الشرق» كان «نساء القاهرة» و «نساء لبنان» وهو ما يكشف عن الطابع الإنساني لكتابه<sup>(٤٤)</sup>.

واستغرق جيران في نشر ذكرياته عن رحلته ست سنوات، وساقها في أقسام ثلاثة: أولها عن رحلته إلى سويسرا وألمانيا، وآخرها عن رحلته إلى الشام وتركيا، وثانيها عن مصر التي رسم لها مشاهد أخاذا لنساء القاهرة وجواربها وأعراف أهلها ومعالم أحيائها وأهراماتها. على أن كتابا من هذا الطراز كان يتطلب براعة الربط الدقيق بين وقائعه المتنثرة، وهو ما أطلق جيران لنفسه العنان في إعداداه فأبدع. وقد أخق بنهاية كتابه عدة ملاحق وصف فيها أخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم على غرار كتاب «المصريون المعاصرون: عاداتهم وتقاليدهم» لإدوارد لين، والمرجح أنه تأثر به تأثرا كبيرا في كتاباته.

ويختلف كتاب جيران ده نرقال «رحلة في الشرق» عن غيره من الكتب المعاصرة له في أمرين: أولهما أنه لم يصف غير القاهرة ولم يعرج إلا قليلا على الإسكندرية والدلتا. وثانيهما أنه كتاب معاصر لزمته، فهو مثل صديقه جوستاف فلووير لا ينجذب ذوقه إلى الموات أو إلى ما أمعن في الماضي السحيق، ولا ينسحب فضوله إلا إلى ما في المدن الحية من عادات وتقاليدهم، فلم يكثر كثيرا بحورس وإيزيس وأوزيريس على حين اجتذبه المساجد أكثر مما شدته المعابد والمقابر الفرعونية. ولم يقتصر اهتمام نرقال بالشرق على ما دونه في «رحلته في الشرق» بل سرى هذا الاهتمام في مؤلفاته الأخرى التي لم تكن عن الشرق من رسائل وروايات ومقالات. ولا يجوز لنا أن نركن كثيرا إلى خط سير رحلته الذي رسمه في كتابه، فهو لم يكن كتاب يوميات بقدر ما كان قصة ممتعة أعدت إعدادا بارعا في سياق منطقي شائق بعد عودته إلى فرنسا، وإن خلت من الترتيب الزمني المحدد، وأغفلت فيها التواريخ جميعا.

ولم يكن جيران ممن يعنون كثيرا بالمال، وحين ضج أبوه الذي كان طبيبا بجيش الإمبراطور بسفه ابنه وتبذيره أوصد بابه دونه. ولقد بدد جيران ميراثا صغيرا وقع في يده إذ أنفقه في شراء الكتب والهدايا والزهور والعاديات واللوحات الفنية، بجانب دأبه على الاختلاف إلى المسارح. ولكن كيف وقع على المال الذي أنفقه على رحلته؟ يقول البعض إن ثمة أسهما بقيت له عن أمه، ويقول البعض الآخر إنه كان قد كلف من قبل إحدى الصحف بأن يواليها بتحقيقاته، هذا إلى إيرامه عقدا مع إحدى دور النشر. على أن الثابت أنه لم يقم برحلته منفردا بل رافق أحد الشبان الموسرين المولعين بالشرق الذي أخذ على عاتقه تحمّل جانب من نفقات صديقه وهو جوزيف ده فونفريد الذي قال عنه جيران إنه أحد علماء الآثار المصرية وإن لم يرد اسمه في سجلات هذا العلم ولا نعرف له كتابا منشورا. والراجح أنه كان شابا ثريا يتطلع إلى الأماكن الإكزوتية بعد أن هزته اكتشافات شموليون وروائع الفنون الإسلامية أكثر منه عالما متخصصا في أحد فروع الدراسات الاستشراقية، فغادر مرسيليا في أول يناير ١٨٤٣ يرافقه جيران، وقد حمل ما خف من متاع بيته كما حمل معه أواني الطعام الفضية، على حين لم يأخذ جيران معه غير سرير مخيم وآلة تصوير ليلتقط بها صورا فوتوغرافية يزين بها كتابه ومعجما عربيا وكتابا في النحو وبضع كتيبات تعينه في المحادثات اليومية ونظارة زرقاء لوقاية عينيه من الغبار. وانكفا يدرس أصول اللغة وهو على ظهر السفينة التي أقلته إلى مصر، كما انبري يحاول اخديث بالعربية مع نفر من رفقاء الرحلة من المصريين تصادف وجودهم على نفس السفينة.

ولم يكن جيران رحالة متسكعا يقضي رحلته حسبا تقوده قدماء أو هواه بل كان مخبرا صحفيا من الطراز الأول. وحين وصل إلى ميناء الإسكندرية في ١٥ يناير أبحر إلى القاهرة في النيل حتى بلغ مرسى بولاق. ومنذ تلك اللحظة لم يعد في الإمكان تحديد تواريخ تنقلاته بسهولة، فأمضي بالقاهرة ثلاثة شهور مجتزا بزيارتها عن زيارة غيرها من مدن مصر العليا، إذ كان يرى أن المدن الحية حافلة بما هو جدير بالمشاهدة مثير للخيال بما تحوي من عادات وتقاليدهم غير مألوقة لا تجتمع لمدينة أخرى من المدن الأثرية القديمة التي باتت ركاما من الأطلال، فزار القسطنطينية والجزيرة وشبرا والأهرام وهليوبوليس. على أن أمسيته الأولى بالقاهرة خيبت ظنه وملأته بالحزن والضجر وثبطت همته فبات يسائل نفسه: «أهذه القاهرة ألف ليلة وليلة عاصمة الخلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك؟»<sup>(٤٥)</sup>، فقد أحس بالضياح وسط الطرقات المتنوية وبين الجماهير الرثة الثياب، وضاق بزحام الكلاب والنوق والحمر، وبتصاعد طبقات الغبار الكثيفة التي تحجب عنه السماء، وبزحف الناس عليه وسط المئات من القصور والمساجد والأحجار المتآكلة والأخشاب المهترئة. لقد خيل إليه أنه يخطو حالما في مدينة من المدن البائدة تعمرها أشباح لا حياة فيها، غير أنه لم يلبث أن تحرر من هذه الانطباعة بالخذلان والوحشة والحصار، وبدأ حلمه الدفين يتجلى في وضوح النهار. وانفتحت أمامه الآفاق حين وقع بصره على الطرقات المبرقشة بمختلف الألوان تمور بالحركة وتعج بالناس بأزيائهم العربية والتركية الغربية وكأنه يحث الخطى وسط حفل تنكري. وإذا بمشهد زفاف يبعث الحياة في كل ما يحيط به من جدران وأسوار وتصم الآذان موسيقاه والجلبة المصاحبة له، ويذهله موكب العرس المحفوف بالمشاعل يضم العروس المحجبة والمتوجة بإكليل عال من الكشمير الأحمر المرصع بالفصوص تخطو كالشبح تحت ظلة وتساندها جارتان. أي غموض يكمن خلف خمار المرأة التي لا يرى منها غير قرطين يتدليان من الأذنين وعينين دعجاوين ونظرة خاطفة؟ وما إن يخيم الظلام حتى تنشر العتمة أستارها ولا يبقى غير الضوء المنسرب من المقاهي المتنثرة على ضفة الخليج



السيدة . ولقد كان شديد الغيرة عليها لا يأمن أن يتركها وحدها بعد أن أحسّ بأنها كثيرة الإطلال من خلال المشربية على الضباط الأتراك الشبان الذين يجلسون في تراخ أمام البيت يدخنون أراجيلهم<sup>(٤٦)</sup> . وكان باله قد هدأ وعأوده حب القاهرة والقاهريين تروقه منهم كلمة «طيب» التي تردد على ألسنتهم مع كل مناسبة ، تلك الكلمة التي يحسّ السامع لها في نظره بالتفاؤل ، والخلقة بشعب يعدّه «أشد شعوب العالم وداعة ورقة» . وحين لاحظ أن القوم يردّدون كلمة «لا» بينما يرفعون أيديهم إلى جبينهم حين لا يعجبهم أمر ما دفع زينب إلى الأريكة ناهرا إياها عن الإطلال من الشباك قائلا تلك الكلمة المتداولة «لا» . ومنذ ذلك الحين عزم على استكمال دراسة العربية على أن يعلمها في الوقت نفسه الفرنسية . وبهذا أصبحت زينب بطلة قصة «رحلة في الشرق» ، تلك الرحلة التي تُعدّ فيها زينب في الفينة بعد الفينة المحور الرومانسي الذي تدور حوله الأحداث ، والتي من حولها تُحاك الدعابات الشائقة ، الأمر الذي يدل على الطابع المميز لأسلوب جيرار الذي ما يكاد يلتهم حتى ينطفئ فجأة ثم يعود ملتبها مرة أخرى فإذا به قد التوى ودقّ في مهارة لا نظير لها تُكسب القارئ متعة فريدة .

ويجرّنا جيرار في قصته إلى الاعتقاد بأن زينب كانت التجربة الحسيّة الأخيرة له ، وأنها زوّدت حياته بما زوّدت به جان دوّفال السمرء عاشقها الشاعر بودلير ، وأنه حاول أن ينسى وهو بين أحضانها ذكري عشيقته الأوربية الشقراء التي ضحّى من أجلها بهدوء باله وبكل ما يملك . على أن ثمة ما يردّنا إلى غير هذه الحقيقة حين نطالع في رسالة من رسائله إلى تيوفيل جوتييه قصة زينب ، فلقد قال في تلك الرسالة إنها كانت جارية عند ده فونفريد رفيق رحلته التقى بها في بيته فراحه حسننها وأخذ بها فجعل منها بطلة خيالية لقصته . ومن المرجح أن ده فونفريد قد نزل له عنها قبيل أن يختتم الرحلة ويغادر القاهرة إلى الشام . وسرعان ما انتهى الأمر بجيرار إلى أن يملأها ويبرم بها فخلص منها وأسلمها إلى صاحبة نُزل في بيروت .

وكان أهم ما اجتذب جيرار ده نرّقال هو مشاهد الطريق ومناظر المقاهي والحمامات العامة وسوق النخاسة وحفلات الختان والزفاف ومواكب الجنائز وألعاب الحواة والمشعوذين ومُلاعي الأفاعي والقروود وحفلات ذكر الدراويش ورقصات الغوازي أو رقصات الرجال من شواذ المختئين ، وهو ما نجد له وصفا رائعا في قوله : «ها هن العوالم اللاتي يتبدّين وسط غلالة من الغبار ودخان الطّباق . يشدّني أول ما يشدّني فيهن هذا البريق المنبعث من قلنسواتهن المذهبة التي تتوجّ صفائهن . وكان لضربات أعقابهن على الأرض ما يزيد في صلصلة الخلاخيل ورنين الأقراط المدلاة ، وتحكي أذرعتهن المرفوعة حركات هزّاتهن المترنحة كما كان لأردافهن في رجفاتهما ما يثير ويُمّتع . وبدت خصورهن عارية تحت الغشاء الرقيق بين الصديرية وذلك الحزام النفيس المتهدّل في تراخ وكأنه وشاح فينوس . ونكاد وسط هذا اللفّ والتحويم السريع نُميّز ملامح تلك الشخصيات الفاتنة المغربية التي تحرك بأصابعها صنجات نحاسية صغيرة وتهتز على إيقاع بدائي عنيف من الناي والطبل . ومن بين العوالم الثلاث استرعتني اثنتان مليحتان عليهما سيماء الشموخ ، لهما عيون عربية ساحرة يزيد بريق الكحل من لمعانها ووجنات مكتنزة رقّ خضابها ، غير أن وجه ثالثتهما بدا لي بلحية لم تُحفّ منذ أيام ثمانية . وكان هذا ما حفزني إلى أن أنعم النظر بعد انتهاء الرقص في ملامح الشخصيتين الأخريين ، وسرعان ما أيقنت أننا كنا بين أيدي عوالم من . . الذكور ! إيه أيتها الحياة الشرقية ما أغرب ما تفاجئتنا به ، فمنذ بضع سنين كانت العوالم يمرّحن بمدينة القاهرة في

الذي تعبّره على مسافات متباعدة قناطر مقوّسة ، أو الأضواء الخافتة لتلك المصابيح التي كان لا يجوس الإنسان ليلا إلا وهو يحمل إحداها فتتراقص على وفق خطّى حاملها الذي يبدو كالشبح . أية مشاهد رائعة تلهب مشاعر نرّقال وتنقلها من الشعور بخيبة الظن والحزن والضجر إلى الانبهار الذي لا ينقطع والخروج من إसार نفسه وتحقيق حلم حياته ، فما عليه إلا أن يفتح عينيه حتى تقعا على عالمه الأثير ، وليس ثمة انفصام بين ما يشاهده وما يدور في خياله بعد أن غدت التجربة حقيقة لا سرايا ، وبات الوهم واقعا ملموسا ، فمضى يستاف في نهم وشراة هذا الجو الساحر الذي يعبر عن مكنون ذاته . ولا يلبث أن يندمج في هذا الديكور الجديد فإذا هو بدوره جزء منه لا يتجزأ . فاتخذ النرّي الشرقي وارتي سرّوالا فضفاضا من القطن الأزرق وصديرية حمراء مطرزة بالقصب الفضّي اللون ، وتدرّ بعباة من وبر الجمل واعتمر بلاطئة [طاقية] بيضاء تحت الطربوش بعد أن قصد الحلاق الذي حفّ لحيته وأزال شعره المرجّل ولم يترك له غير خصلة وحيدة في قمة رأسه قال له البعض إنها لتيسّر على ملك الموت إمساكه بها ، على حين قال له بعض آخر إن المسلم الذي يعيش في ظل الحكم التركي يضع دوما في حسبانته أن رأسه سوف يُقطع يوما ما . وإذا جرت العادة وقتذاك على عرض الرؤوس المبتورة على الجماهير ، فإنه يؤثر حفاظا على كرامته أن يُرفع رأسه حينذاك من تلك الخصلة لا من أنفه أو فمه . وهنا يضيف نرّقال مداعبا أن الخبثاء من الحلاقين المسلمين كانوا يقصّون للمسيحيين شعرهم كله ولا يدعون لهم شرف الاحتفاظ بتلك الخصلة .

وكانت الأسر القاهرية لا تبيح أن يعيش أعزب بينها لاسيما إذا كان أوربيا فمقرّ الأعزب هو الوكالة ، ولهذا ألزمه شيخ الحارة التي كان يسكن فيها أن يضم إليه امرأة وأعطاه لذلك أسبوعا مهلة . ولجأ جيرار إلى أحد معارفه فقدّمه إلى أسرة قبطية ليخطب ابنتهم البالغة من العمر ستة عشر عاما . وقد تمخّس جيرار للزواج حماسا شديدا حين علم أن المهر يصل إلى خمسة آلاف فرنك [حوالي عشرون ألف قرش] غير أنه ما لبث أن ارتدّ على عقبيه حين عرف أن العريس في الشرق هو الذي عليه دفع المهر ، الأمر الذي أصبح به الزواج في نظره يكلفه ما لا طاقة له به . وإذا بمرّجمه عبد الله يُسرّ إليه أنه يستطيع أن يشتري بمثل هذا المبلغ حشدا من الجوّاري يملأ قصرا ، فتوجّه إلى سوق العبيد حيث الجوّاري الحبشيات والنوبيات تُعرض للبيع ، فيلقاه تاجر الرقيق الذي جمع بين بشرّ الأمراء وسماحتهم وعنف القراصنة الغلاظ القلوب ، والذي يجردّ الجوّاري أمامه من ثيابهن ويأمرهن بالنسير لاستعراض قوامهن وكثافة شعورهن التي كُنّ يلبّدنها بالزُبد الذي كان سرعان ما تذيبه أشعة الشمس فيسيل على أكتافهن وصدورهن المكشوفة بأكثر مما تسيل دموعهن على خدودهن ، ويفتح أفواههن لتفحص سلامة أسنانهن . غير أن جيرار لم يلبث أن سمع إحداهن تُطلق صرخة الفرع إذ أذهلها أن يكون الواقف أمامها أبيض الوجه أسود الكفّين ، فدفعته سذاجتها إلى المزيد من إثارتها بخلع القفاز من إحدي يديه ، فتوالى صيحاتها الفرعة متصوّرة أنه ينزع جلده ، متسائلة إن كان إنسا هو أم جنّا ! وقد حرص جيرار في كتابه على نقل تعبيرها بالعربية : «بسم الله . . إنت عفريت ولا شيطان ؟» .

وفي نهاية المطاف وقع اختياره على فتاة من جأوه تدعي زينب ، باهرة الجمال ، متينة البنيان ، جامدة الثديين ، رخصة الكفّين ، منتظمة الأسنان الناصعة البياض ، طويلة الشعر البنيّ القاتم ، تبرق عيناها اللوزيتان الدعجاوان ببريق مثير وقد اعتمرت بطربوش أحمر ، فاشترها على الفور وتعلّق بها تعلّقا شديدا . وكانت عنيدة متقلّبة الأطوار متسلّطة كسلى ، تابى عليه أن ينصرف عنها إلى الكتابة فاعتاد أن يقضي نهاره شبه خادما لها يستجيب لما تطلب وكأنّ الأمة قد غدت هي



(٤٧) قضي محمد علي بالآ  
تقارس العوالم والغوازي  
فنونهن إلا في أقاصي الصعيد  
بقنا وإسنا . وأثر المتزمتون  
رقصات الرجال من الشواذ  
المختئين ذوي الشعور المرسله  
الذين يحاكون بأذرعهم  
وخصورهم وأجسادهم ما تأتئنه  
العوالم والغوازي .

(٤٨) الجُلُّ هو ما يوضع على  
ظهر الدابة وينسدل على جانبيها  
تحت السرج لثَّصان به .

حرية تامة يبعثن الحياة في الأعياد والمناسبات العامة وينشرن المرح في المقاهي والملاهي ، أما اليوم  
فليس لهن أن يظهرن إلا في الدور أو في اخفلات الخاصة<sup>(٤٧)</sup> .

وكان الاحتفال بعودة المحمل النبوي الشريف من مكة هو أكثر المشاهد إثارة لجيرار ده نرفال يوم  
أن راح إلى باب الفتوح الذي غصّ بجماهير الناس ليشهد الموكب العظيم فأحسّ وكأنّ أما زاحفة  
تذوب في خضمّ شعب عريق تموج بهم يمينا أنداء المقطم وتصخب بهم شمالا جبانة الموتى المقفرة  
عادة ، كما حفلت بالنظارة قمم الأسوار المستنّة وأبراج صلاح الدين المخططة بشرائط صفراء  
وحمرء فيقول : « خيّل إلي أن الزمن يعود إلى الوراء وأني أرى مشهدا من المشاهد المعاصرة  
للحروب الصليبية . وانطلقت طلّائع فرسان الوالي بين الجماهير وعليهم دروعهم البرّاقة  
وخوذاتهم الوضّاء لتجعل من هذا الوهم حقيقة . وبعيدا فوق السهل حين يتحوّى الموكب نشهد  
ألوف الخيام الملوّنة حيث توقّف الحجاج للراحة من وعثاء الطريق . ولم يخل المشهد من الراقصين  
والمشدين في هذا العيد حيث يباري موسيقيو القاهرة نافخي الأبواق وقارعي طبول الموكب  
بضجيجهم ، فما كان أروع هذا الأوركسترا اللّجب المترّع فوق أسنمة الهجين . وما أظننا نرى قوما  
طالت لحاهم وانتفشت شعور رؤوسهم وبدوا أشدّ عنفا من المغاربة الذين شاعت بينهم كثرة من  
الأولياء والدراويش ، يشدون بصوت عال وحماس شديد أوراد الذكر والمديح الفياضة باسم  
الجلالة . ويحتشد الموكب بالبيارق ذات الألف لون والسّواري المقرونة بالرنوك والتروس . وهنا  
وهناك تري الأمراء والشيوخ في ثيابهم الباذخة فوق صهوات جيادهم وعليها الجلّول<sup>(٤٨)</sup> المزركشة  
المرصّعة بالقصب والأحجار الكريمة مما يضفي على هذا الموكب المائج كل ما نستطيع تخيّل من رونق  
وبهجة . وحين يقرب النهار من ثلثيه تنطلق المدافع من القلعة ويدويّ الهتاف ويهلّل المهللون  
وتصوّت الأبواق معلنة أن المحمل وعليه الكسوة الشريفة قد بلغ مشارف القاهرة . وسرعان ما  
يتقدّم الأولياء المجذوبون طائفة ذوي العمائم الخضراء من بالاديوم الإسلام [يحاول جيرار ده نرفال  
تقريب فكرة المحمل الغربية على أذهان الأوروبيين ذوي الثقافة الكلاسيكية بتشبيهاها بتمثال أثينه  
بالاس ربة الحكمة الذي كان يُطاف به في مواكب الإغريق الدينية] . ولم يلبث أن جاء في إثر  
الموكب جمال ستة أو سبعة زيّنت رؤوسها أجمل زينة وأكثر سرفاً وتوجّت بالريش ، وقد كست  
أجسادها البسّط النضرة فحجبت معالمها حتى ليخيّل إليك أنها حيوانات السمندل الخرافية أو تيّنات  
تمضي في لين وهودة تمتطيها جنّيات باهرات . وكانت الجمال الأولى لقارعي الطبول من الشباب  
ترتفع أذرعهم العارية لتهوي بعصيّهم المذهّبة وقد اقتعدوا سرّجاً تنبثق منها أعلام خفّاقة . ثم إذا  
شيخ قد علت به السنّ ذو حية بيضاء على رأسه إكليل من أوراق الشجر - لعله يرمز إلى الزمن -  
يجلس فوق هودج مذهب تحمله ناقة ، ثم إذا المحمل يطلّ في هودج على شكل الخيمة المربعة قد  
كُسي نقوشا مطرّزة وتدلّى من قمته ومن زواياه الأربع كرات فضية ضخمة . وبين الفينة والفينة  
يتلبّث المحمل فيخّر الناس ساجدين فوق التراب مسندين جباههم إلى أكفهم . وفي رفقة المحمل  
حرس من القوّاسين الذين يلقون عنتا شديدا في زحزحة الحجاج السود خاصة ، الذين تجاوزوا في  
ورعهم حماس سائر المسلمين ، يؤثرون أن تطأهم أقدام الجمال تبرّكا ، غير أن لسعات الخيزرانات  
المتلاحقة ما تلبث أن تهوي على أجسادهم لتعوضهم استشهادا من نوع آخر . وكان ثمة طائفة من  
الدراويش يخزّون وجناتهم بالأسياخ المدبّبة وهم يسرون والدماء تسيل منهم ، على حين كان ثمة  
آخرون يلتهمون الأفاعي حيّة ، وغيرهم يحشون أشداقهم بالفحم الملتهب . ولم نر للنساء في هذا  
الحشد إلا القليل من الإسهام ، فكنا نغزّ من بين الحجاج جوقات القيان المصاحبات للقافلة يغنين

جميعا من حلوقهن على وتيرة واحدة أناشيدهن الدينية دون أن يخشين الظهور سافرات الوجوه ،  
تلك الوجوه ذات الوشم الأزرق والأنوف المدلاة منها أقرط ثقيلة . . . » .

ويمضي الوصف دقيقا رقيقا يتموِّج في إيقاع مسهب منتظم مثل الموكب الذي لا يلبث أفراداه أن  
يتوزّعوا ما بين باب الفتوح وباب زويله على المساجد المكتنفة للطريق من جانبيه ليمضي في النهاية  
خلال الطريق الضيق الطويل الصاعد إلى القلعة التي لم يبق بها وقتذاك للأسف الشديد من أثر  
لقصر صلاح الدين غير ساحة مليئة بالأنقاض ، ذلك القصر القديم الذي وصفه رحالة القرنين  
السابع عشر والثامن عشر ببهوه المربّع ذي الاثنين والثلاثين عمودا من الجرانيت الوردي المنتزعة من  
معابد منف وهليوبوليس ، فقد هُدم عام ١٨٣٠ لكي يُشيّد مكانه مسجد محمد علي . وإذا لم تكن  
مأذن هذا المسجد الصاروخية النحيلة قد شُيّدت بعد ، بدا مبني المسجد القصير المفلطح في عينيّ  
جيرار ده نرفال أقرب ما يكون إلى قوقعة سلحفاة تركية الملامح رابضة فوق أفق المدينة المطرزة  
بآلاف القباب والمآذن .

ومن المرجّح ألا تكون فصول كتابه التي عقدها عن حياة «الحريم» نتيجة تجربته الشخصية بل  
هي خلاصة مطالعته ، ومن المرجح أيضا أن يكون قد اهتدى عن طريق وليام لين إلى الكتيب  
الذي ألفته شقيقته السيدة صوفيا پول تحت عنوان «إنجليزية في مصر»<sup>(٤٩)</sup> . والذي حاولت أن  
ترسم فيه صورة لحياة النساء المصريات .

An English Woman (٤٩)  
in Egypt.

وعلي نحو ما كان من جوته من تعاطف مع الإسلام كان موقف نرفال أيضا ، فقد حرص على  
أن يدحض في كثير من صفحات كتابه الافتراءات التي افتعلها كتاب القرن الثامن عشر عن الشرق  
ورمّوه فيها «بأنه منحلّ الأخلاق غارق في اللذات» ، وعن حريمه الذي وصموه بأنه بؤرة فسق  
وفجور حيث تسود نزوات الرجل واستبداده لتحقيق شهواته . كما أفاض في الحديث عن تصاعد  
الاتجاه نحو الإقلاص عن تعدد الزوجات في مصر ، وانبرى مدافعا عن كرامة المرأة المسلمة ،  
موضحا أن نظام الجوّاري لم يكن في مصر إلا لونا من تبنّي الإماء لحمايتهن ، وأنه عادة ما ينتهي  
بإحساس رب الدار بأبوته لهؤلاء الجوّاري . ثم هو يردّ في النهاية أسباب العمة التي غشت الشرق  
منذ قرون ثلاثة إلى غشم الحكم التركي ، بل إنه يرى أن سيادة العثمانيين على العالم الإسلامي قد  
خنقت العبقرية العربية التي ملأت العالم بالإنجازات الباهرة ، كما أنها أدّت في ظنّه إلى «فقدان  
ملائكة الإسلام لأجنحتها ، وإلي تبدّد سحر أساطير ألف ليلة وليلة» .

وقد أفاض كثيرون في موضوع تعدّد الزوجات في الشرق حتى كان من الشائع مقارنة علاقة  
الرجل الشرقي بنسائه بما يمارسه الغربي من علاقات جنسية غير شرعية . ومن الكتاب من كشف  
في وضوح - مثل الرحّالة كلوتس - عن أن عدد المسلمين المتزوجين بأكثر من امرأة يقل كثيرا عن  
عدد القساوسة المتخذين لهم عشيقات . ومنهم من وجد في إسدال الشرقيين ستارا من السرية على  
بيوتهم ميزة حقيقية ، حتى قال بيير لوتي : إن الشرقي وحده هو الذي يعرف ميزة أن يقرّ في داره ،  
لأنه اعتاد أن يُحكّم عليه أبوابه فلا يدع فرجة لعين تتسلّل من خلالها ، ولا يفتح لصديق أبواب  
حريمه ، الأمر الذي لم يُتّع معه لأوربي أن يكشف سرّ غموضه ، بل إن الشرقي نفسه يترك على  
باب داره كل ما قد يدنسها من أدران الطريق .



ولا شك أن من بين الكتاب الأوروبيين مَنْ عمل على تصحيح بعض الأفكار الخاطئة التي صاغها خيال البعض الآخر عن تعدّد الزوجات، مثل فكرة جمع الرجل الشرقي لنسائه في فراشه في وقت واحد. وهو ما تصدّى جيرانه نرقال لدحضه مؤكداً أن المسلم يروعه مثل هذا التصور، ذاهبا إلى أن هذه الفكرة الداعرة قد انبثقت من أذهان الأوروبيين وحدهم، وأنه ينبغي التمييز بين الشهوانية وبين مبدأ تعدّد الزوجات. كذلك ذهب فيكتور هيجو في «المشقيات»<sup>(٥٠)</sup> كما سبق أن أشرت إلى أن الحياة في الحريم لا تختلف في جوهرها وطقوسها عن الحياة في الأديرة، وذلك في قصيدته التي تحكي أسر بعض القراصنة لراهبة غدت محظية للسلطان في تركيا فإذا هي تسرّي عن نفسها وهي في عزلة الحريم بأن ما انتهت إليه لا يختلف شيئا عن حياة الدير. وفي علمي أن هؤلاء الرحالة والأدباء جميعا لم يجسّموا أنفسهم عناء الاختلاف إلى المجتمعات الإسلامية الحقّة، بل نراهم قنعوا بما تصبّدوه من أطراف هذا المجتمع فظلموا المرأة الشرقية وما التقوا إلا بغانية أو عاهر أو محظية أو محترفة. ولقد كان لهم في هذا عذرهم، إذ كان العرف يحول بينهم وبين الدخول إلى البيوت أو لقاء النساء اللاتي كن يُعددن حُرّمات.

وكان نرقال يعتقد أن الحجاب هو العلامة المميزة للمرأة المسلمة، لكنه إذ يقصد مسرح القاهرة لا يقع نظره على امرأة واحدة محجّبة أو سيدة محافظة بين رواد الحفل، فيعتريه ذهول لا يلبث أن يتعاضم خطّة الخروج من المسرح حين يشاهد كل أولئك السيدات المرتديات باذخ الثياب والمزادات بأجمل الحلّى وقد التفعن بحبرات من «التافتاه» السوداء وغطّين وجوههن ببراقع بيضاء واعتلين ظهور الحمير كأنتقى المسلمات ومضين إلى دورهن على ضوء المشاعل المرتفعة في أيدي السوّاس. وهنا تخالط روحه فكرة عابرة بأن ما شاهده ليس إلا لونا من الرياء.

وعقد نرقال فصلا شديدا الإمتاع عن نساء القاهرة، فلم يحدث قط أن بذل رحالة مثل اهتمامه بجمع هذا القدر الهائل من المعلومات التي جاءت عرضا متقنا لما حظيت به المرأة المسلمة من تقدير في جميع المجالات الاجتماعية والخلقية والدينية. ولم يفته أن يشير إلى أن المرأة لم تنل في الإنجيل أو في التلمود ما حظيت به المرأة المسلمة من مكانة في القرآن مستشهدا بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم ٢١]، كما سمح لها القرآن الكريم بارتياح المساجد، وقَدّم نماذج لفضليات النساء كآسيا زوجة فرعون ومريم أم عيسى ثم فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم التي رفعها المتصوّفة من عشاق أهل البيت إلى «سيدة نساء أهل الجنة»، ومنهم من جعل ذلك لخديجة رضي الله عنها.

ويتابع جيران إطرء المرأة المسلمة بقوله: «أن الأوان كي تتخلّى عن الفكرة الظالمة الشائعة بين الأوروبيين بأن الإسلام لا يؤمن بأن للمرأة روحا شأن الرجل، وبأن المسلمين يتوقون إلى ما وعدوا به من جنة تحتشد بالخور العين من الصبايا المتجدّات العذرية. بل لقد غالى فتصوّر أن الخور العين لسنّ إلا الزوجات وقد رُدّ إليهن صباهن وجمالهن». ويروي بالمناسبة طرفة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان «يمزح ولا يقول إلا حقا» أنه داعب ذات مرة امرأة مسنة بقوله: «لا تدخل الجنة عجز» فإذا المرأة تضطرب باكية، غير أن الرسول الكريم سرعان ما طيّب خاطرها مؤكدا لها أن كل الناس يُردّون إلى شبابهم عند دخولهم الجنة. وكان من الطبيعي أن ينال نرقال من مزاعم مونتيكيو التي أوردتها في كتابه «رسائل فارسية»، فهي في نظره أساس كل الآراء الخاطئة الشائعة في أوروبا عن حريم الشرق. ومع ذلك روى نرقال أن أحد شيوخ المسلمين بالقاهرة قد

همس إليه - على عكس ما كان يعتقد - بأن للآزواج المسلمين جناحا في دورهم مخصّص لإقامتهم يستضيفون فيه من يشاءون دون أن تطلع عليهن أعين الزوجات، ويستطرد قائلا: والحمد لله على ذلك، إذ يستطيع الزوج أن يدعو بين الفينة والفينة القيان اللاتي يغنين له ويرقصن بين يديه في جناحه. وهكذا يستاف في حياته نسّمات من جنة الفردوس الزاخرة بالخور العين اللاتي لم يمسهن إنس قبله ولا جان، واللاتي يتحولن إلى زوجات مخلدات للمؤمنين الصادقين.

وفي الفصل الخاص بأسرار الحريم ينبري جيران للدفاع عن التقاليد الاجتماعية الإسلامية، فيشرح موقف الإسلام من المرأة وشروط الزواج ونظمه حتى ينتهي إلى إطرء عدالة الإسلام وحكمة القرآن. ويناشد جيران قراءه الأوروبيين أن يطرحوا عنهم متع أجواء الحريم التي نقلها إليهم بعض الكتاب في صورة سحرية ويذكّرهم بأن بعض الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام سعيًا وراء المباهج الموعودة في الحريم قد خاب أملهم وما لبثوا أن ارتدّوا من جديد إلى العقيدة المسيحية التي لا تبيح تعدّد الزوجات. ويشيد نرقال بحق الزوجة المسلمة المقدس في أن تعيش مكرّمة بيت الزوجية داخل جناح خاص بها وبزائرتها.

ويتعاطف المؤلف مع الرّق في الإسلام ويعترف بأنه - أي المؤلف - أتى إلى الشرق وهو يبغض هذا النظام ويستنكره، ولكنه ما إن عاش في بيئة إسلامية بالقاهرة حتى أدرك أن الرقيق يحظون بحياة أكثر رغدا من حياة الفلاح، وأن الرق في الإسلام هو لون من التبنّي النابض بالود أكثر منه استعبادا قاسيا. وما أبعد الفارق بين ما يلقاه الرقيق في بلاد الإسلام وما يلقاه العبيد السود في ولايات الجنوب الأمريكية على أيدي المسيحيين البيض الذين يسومونهم الذل والهوان، بل إن الأرقاء في الإسلام لينعمون بالطمأنينة والاستقرار حيث يشكّلون جزءا من الأسرة يأكلون مما تأكل ويلبسون مما تلبس. ويروي جيران أنه حين أن أوان رحيله عرض على جاريته أن يمنحها الحرية على أن يعهد بها إلى سيدة من دينها. وما كانت أشدّ دهشته حين انفجرت فيه غاضبة مستنكفة أن تعمل خادمة! واقترحت عليه أن يبيعها لشيخ مسلم أو لأحد الباشوات مما يدفعه إلى التعليق قائلا: «ها هو ذا حدث فريد، أن توجد دولة يرفض الأرقاء فيها الحرية!». ويذهب نرقال إلى أنه إذا تحوّلت الجارية إلى محظية لسيدها فإنها تكون أسعد حالا من الزوجة الشرعية التي يمكن للزوج أن يطلقها في لحظة غضب على حين أنه من النادر أن يطرد السيد إحدى جواريه دون تدبير أمر معاشها، فإذا تخلّى عنها أعتقها ومنحها ما تستعين به على حياتها أو زوجها من شخص يثق فيه أو أهداها لأحد أصدقائه، فمن المشين لمسلم أن يبيع رقيقا له بعد أن يكون قد أمضى مدة طويلة في خدمته. وإذا اهتم نرقال بموضوع الرق الذي كان يؤرق ضميره اهتماما كبيرا فقد عاب على الإنجيل تجاهله لموضوع الرق على حين أن القرآن قد عاجله بشجاعة وإنسانية، وقد شهد بنفسه إقدام بعض أنظمة الحكم في الدول الإسلامية على إلغاء الرق بمباركة من علماء الدين.

وكان جيران يؤمن بأن الأديان كلها متشابهة متكاملة وأنها جميعها ضرورية للبشرية. وقد هيّأ إيمانه «بالتوفيق بين الأديان»<sup>(٥١)</sup> وبوحدة الوجود<sup>(٥٢)</sup> للتعاطف مع الإسلام، حتى أنه ذات ليلة وقد حلّ ضيفا على فيكتور هيجو عاتبه أحد رفاقه بأنه لا دين له، فرد عليه قائلا: «وكيف ذلك وقد شرح الله صدرى لسبعة عشر دينا على الأقل؟». وفي رسالة إلى أحد أصدقائه يقول: «لقد أحسست نفسي وثيا في اليونان ومسلما في مصر ومؤمنا بوحدة الوجود بين الدروز ومتعبدا لنكواب الكلدانيين المؤلهة وأنا وسط البحر».

#### (٥١) Eclecticism نزعة

مؤداها انتقاء الأفضل من بين المذاهب والأساليب والآراء الفلسفية أو الدينية أو الأدبية والفنية وكذا أعمال بعض كبار الأساتذة وضمّنها بعضها إلى بعض بعد تشكيلها تشكيلا جديدا في إطار موحد واخراج منها بمذهب جديد [م. م. م. ث]

#### (٥٢) Pantheism مذهب

وحدة الوجود (الله هو الكل). عند البراهمة هي ردّ كل شيء إلى الله. وعند العلميين تدل على ما في العالم من ثبوت وزوال وتغيّر وردّها إلى موجد واحد، فالموجودات ليست إلا أعراضا للجوهر الفدّ كما يقول الفيلسوف سبينوزا، وعند الرواقية والأفلاطونية الحديثة وبعض الفلاسفة المسيحيين تعني أن الله والطبيعة شيء واحد. وعند بعض مفكري الإسلام من فلاسفة ومتصوّفين وخاصة محيي الدين بن عربي والحلاج تعني تلك الروح الناطقة غير المخلوقة التي تتحد بروح المتصوّف المخلوقة، فإذا هو بهذا دليل حيّ ذاتي على وجود الله، فالموجودات ليست إلا تجليات لله أو أعراضا [م. م. م. ث].



وليست «التوفيقية» عند جيران مزيجا من الأنظمة الفكرية المعروفة بقدر ما هي محاولة جادة لجمع كل المعتقدات تحت لواء معتقد واحد أو لرد هذه المعتقدات المختلفة إلى مبدأ واحد أزلي أبدي. فهو لا يعترف بالحوار بين ديانات البشر المتعددة ويراها مترابطة يرتشف كل منها من ينبوع الآخر منذ أقدم أزمنة التاريخ، فلكل دين نصيبه من أسرار الله السرمدية، حتى بات لا يفرق بين المعتقدات الوثنية والمشرقة وبين الأديان الكبرى الموحدة، فقد مهدت إحداها للآخرى فحلت ديانات جديدة محل القديمة، وهو ما يمكن أن نعدّه من نرفال تصورا شاعريا للأديان أكثر منه دينيا أو علميا، إذ هو يعطي للإنسان دورا ذا أهمية كبرى قد يباري في رأيه دور الآلهة أو الإله الأوحده. وعندما وصل نرفال إلى مصر انبثقت في نفسه فكرة أن طقوس التلقين المصرية القديمة هي التي تولدت عنها اليهودية والمسيحية، وأن مصر هي أم كل المعارف والحضارات. ومن هنا أخذ نرفال يتوق إلى التقريب والتوفيق بين الحضارات والأديان، لا سيما أن مصر كانت مهد حضارة عريقة تراكمت عليها حضارات عدة. والإسلام في نظر جيران دين يتميز بالبساطة المطلقة والتجرد من الزخارف الطقوسية، وهو دين إيجابي وواقعي في أن معا لا تشغل فكرة الأسرار الخفية مكانا أساسيا فيه شأن غيره من الديانات باستثناء الغيبيات التي احتفظ الله بعلمه عنها. كذلك يرى أن التصوف واحد في سائر الأديان، وأنه حلقة الاتصال بالوثنية القديمة وبعنصر الفلق واللاعقلانية الذي ترعرع في ظلها، وكأنه كان يستشعر الحنين في وجدانه إلى تلك العقائد اللاعقلانية وإلي حالات الجذب والتجلي الروحانية التي بقيت بعد زوال تلك العقائد وظهر لها ممارسون في شتى الأديان السماوية. وهو الأمر الذي جرفه إلى الدراسة المتعاطفة لموضوع المجذوبين إلى الله في الطرق الصوفية الإسلامية دون أن يصل إلى معارف عميقة في هذا الصدد. وينحاز جيران كل الانحياز للمسلمين ولا يعترف لهم إلا بأقل العيوب التي لا يتوانى عن تبريرها، فهو يغتفر فكرة التواكل أو القدرية التي استنكرها شاتوبريان ويذهب إلى حد تسليمه بها بوصفه مسلما مثل بقية المسلمين. وهو يرى القدرية أكثر شيوعا في غير مصر من بلاد الإسلام، كما يرى أن مصر أكثر تسامحا من كل الدول الإسلامية الأخرى، لأن تسامحها نابع من عمق إيمان «مصر العريقة الكثيرة النسيان والتي وارت تحت ثراها الكثير من الأنبياء واحتفظت في تراثها الفكري بالعديد من الآلهة والأديان». ومن المؤكد أن جيران قد قرأ القرآن وإن لم يتعمقه، فما أكثر ما استشهد في نص كتابه ببعض آيات القرآن الكريم، وما أشار إلى بعض سوره التي أضمر لها إعجابا شديدا. ويمكن الزعم بأن جيران كان على معرفة باللغة العربية، وأنه على الأقل قد حاول تعلّمها، ولكنه لم يكن على دراية واسعة بها بدليل بعض أخطاء الهجاء التي نلّمسها في غصون نصّه أو في بعض الترجمات الخاطئة لمعاني الكلمات. وفي الحق إن جيران كان يتكلم العربية الدارجة غير الفصيحة ولكنه لم يرق قط إلى قمم اللغة الأدبية، وهو ما ميّزه عن شاتوبريان الذي لم يعرف من اللغة العربية إلا أقل الكلمات التي يردّها السائحون. ومع أن معرفته باللغة كانت سماعية في أغلبها إلا أنه يكفيه أنه حاول عبور حاجز اللغة كي يسبر غور الشعب الذي استضافه<sup>(٥٣)</sup>. ويعجب جيران بإنسانية المصريين وميلهم إلى الرحمة والرفقة حتى مع الطير والحيوان فيروي قصة ما أمر به عمرو بن العاص من ترك مخازن الغلال بلا أسقف حتى يحظي الطير بنصيبه من الطعام. كذلك أسرت نرفال رعاية المصريين لمرضى العقول، ويسوق مثلا قصة ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله حين وعدت إمام المسجد المجاور للمموريستان بتخصيص مبلغ كبير للعناية بالجناح المخصص لمرضى العقول وزيادة مساحته حتى يليق مأواهم بقدر الخليفة الفاطمي.

J.M.Carré: (٥٣)  
Voyageurs et écrivains  
Français en Egypte.

ويشيد نرفال بالوفاق بين المسلمين والأقباط في مصر، ويحكي أنه ذات ليلة كان يجول بشوارع القاهرة حتى بلغ حي الأزركية، وإذا به يشهد المقاهي على غير العادة مفتوحة محتشدة بالرواد والمساجد مضاءة والمآذن مرصعة بالأنوار والسرادات منصوبة ودوى أناشيد الذكر وأنغام النايات ودقات الدفوف تشقّ عنان السماء. غير أنه يلحظ أن عددا غفيرا من الأقباط يشهدون هذا الحفل الإسلامي، ويعرف أن من عادة المسلمين الترحيب بمشاركة الأقباط في الاحتفالات بمولد الدراويش والأولياء المدفونين بالمساجد حيث تختلط العمائم السوداء التي يعتمر بها الأقباط مع غيرها من عمائم المسلمين البيضاء، كما يعرف أيضا أن أثرياء الأقباط يتبرعون بالإنفاق على حفل المولد الذي يصفه نرفال لأن ضريح الولي يقع في حيهم.

وعلي الأساطير الشعبية والدينية التي استمع إليها نرفال، وعلي التفاصيل الواردة بكتب المؤرخين أضفى نرفال من خياله البارع ليطالعنا بقصة الحاكم بأمر الله في حبكة فنية تشيع في ثناياها شطحات الأوروبيين نحو الإسلام وهوس الحشاشين الذين أشرك نرفال معهم الخليفة المتأله في تعاويه على أنه «الكوثر طعام الخالدين». يسرد علينا القصة في سلاسة منذ تطلّع الحاكم بأمر الله إلى الألوهية حتى مقتله على يد شقيقته ست الملك التي كان قد عقد عزمه على الزواج منها حفاظا على نقاء الدماء الفاطمية الزكية، وحتى يسلم بأمانة إلى الأجيال القادمة السر الذي أودعه إياه أسلافه الطاهرون. وينتهي المؤلف إلى أن الحاكم لم يميت مقتولا وهو فوق حماره كما يقال بل تلقّنه شيخ مجهول الاسم فأنتهى به إلى الصحراء حيث حاك نظريته الإلهية، ومن ثم هاجر هو والمؤمنون به إلى لبنان حيث أنشؤوا النحلة الدرزية.

على هذا النحو يتشكّل أسلوب جيران ده نرفال وتتكشف مواهبه وفقا للموضوع الذي يطرقه، فيشدو تعبيرة تحت تأثير الضوء حين يتذكر حداثق جزيرة الروضة حيث: «تتناثر المنحوتات الناصعة البياض فوق الممرات المرصوفة بالفسيفساء أو تتجمع الخمائل المخضرة حيث تسدل أطراف أشجار الصنوبر وكأنها هي قباب متعاقبة أو سياج يلتف بالسماء تحطّ عليه اليمامات وكأنها أرواح تنن وسط الوحشة».

وتتجلى في أسلوبه أحيانا نغمة مذهلة ونقاء موسيقي شفاف مفعم بالحنين يمزج فيه بين الروحانية وبين متع الحياة الدنيا. فبينما هو يستقل مركبا لتتجه به إلى دمياط وكان الليل قد سجا وقرص الشمس قد توارى وراء رؤوس تلال الصحراء الغربية، إذا بالطبيعة تنفذ بغتة من ظل الغروب البنفسجي إلى ظلال الليل الضارب إلى الزرقة، ويصاحب نغم الناي والرباب غناء «يالليل يا عين»، ولا يلبث المستمعون أن يشتركوا بترديد المذهب ابتهاجا بليالي الأنس، مترنمين بالهوى والشروق ورفقه الأحباب منتشين بالمومضات النورانية المنبثقة من صفاء السماء، منخرطين في ذكر رسول المسلمين أحمد المصطفى بينما تردّد جوقة من الغلمان الأناشيد اللطيفة التي تفيض بالتسبيح بنعم الخالق الممتعة التي يسبغها على المؤمنين في الأرض أثناء مباهجهم الليلية. لم يعد أسلوب جيران هنا متقطعا منتفضا وإنما يتدفق تدفق سيل من ومضات النجوم واختلاجات النسيم جارفا معه الأمنيات الدفينة لقلب شفه الوجد وسمّت به الصوفية. على أن نرفال يلحظ في كل حفلات المصريين وشعائهم مزيجا من البهجة المقترنة بالشجن، وهو السمة التي صبغت حياة المصريين. في رأيه. منذ الزمن الغابر.

علي أننا نستطيع تبين واقعية أسلوب نرفال أيضا في وصفه لمشاهداته في الطريق الذي يشدّ انتباهه بكل ما ينبض فيه: «مياه الفسقيات الخضراء تعكس في وفاء حان الأزياء المتباينة الألوان التي



يتدثر بها المدخنون . . . واثريّات الزجاجية بمشكاواتها الزيتية المتنوعة الألوان التي يتألق جمالها حين يمسيّ شعاع ضوء النهار ، والنرجيلات البللورية التي تتدفّق منها ومضات النور ، والشراب العنبري المتأرجح في الفناجين الدقيقة التي يقوم عبيد سود بتوزيعها في أوعية دقيقة الزخارف على مقاهي خان الخليلي . . . والمرأة إذا لم تكن على حظ من جمال كانت أشدّ حرصا على تثبيت خمارها ، وهو ما يحقّ معه للعارفين بأمرها أن يحمّدوا لها هذا الصنيع ، على حين أن المرأة التي تملك حظا من جمال لا تعدم وسيلة في الكشف عن محاسنها حين تلمس انجذاب العيون إليها . . . واخبرة السوداء التي هي أقلّ سحرا من حجاب الفلاحات تجعل من المرأة لفافة لا شكل لها ، فإذا ما تخلّلتها الهواء غدت وكأنّها [بالونة] . . . وما أشبه المشربية في المنازل بالخمار الذي تسدله المرأة على وجهها . . . وما أقرب المدينة نفسها شبيها بنسائها ، فمن العسير أن تهتدي إلى أماكنها الظليلة وتنفذ إلى حياتها الداخلية الساحرة إلا بعد جهد جهيد . . . » .

وفي زيارة لهليوپوليس يتوقف وسط مساحات فسيحة شبيهة بالغابات المتحرّرة ذات صخور غريبة وكتل من الأسماك والقواقع المتخلّفة بعد انحسار مياه الطوفان الذي خلّف وراءه هذه الآثار . وكما يهزّه منظر جذوع النخيل المتجمّدة كالثلوج متناثرة على سطح الأرض في اتجاه واحد ، يأسره مشهد جذوع الأشجار الخشنة الملمس العتيقة وكأنّها السلاسل الفقرية لزواحف الماضي البدائية .

وكم أسفّ جيرار حين رأي ملامح الحضارة الأوروبية تغطي على القاهرة الماضي العريق ، وهالته القصور الجديدة لمحمد علي المشيّد على غرار الثكنات العسكرية ، تحوي أسمى تطلّعات البورجوازية الريفية الفرنسية ، كما ساءه تحوّل جزيرة الروضة على يد إبراهيم باشا إلى حديقة إنجليزية ذات بساط من العشب فسيح وجداول اصطناعية وجسور صينية ! . ويسخر من مسجد محمد علي فيقول : « ما أشبه ما زعموا من أن هذا المبنى سيكون مسجدا بما زعمنا نحن من قبل من أن مبنى المادلين<sup>(٥٤)</sup> كان كنيسة . وما أقرب مايشيّد المهندسون المصريون - الذين خلّوا شيئا من الإيمان - من مبان يدّعون أنها للعبادة وهي في الحقّ لشيء آخر » .

كذلك راع جيرار انتهاك الأركيولوجيين لحرمة المومياوات المصرية القديمة واعتبر من الكُفر الكشف عن مومياوات أولئك المصريين القدماء وتشريحها . وتساءل كيف يقف إيمان المصريين العريق العصى على القهر مكتوف الأيدي أمام فضول الأوروبيين الأحمق ؟ لأننا إذا كنا نحترم موتى الأمس القريب أفلا ينبغي احترام موتى الزمن الغابر ؟ وإذ يجيبه أحد الشيوخ على ذلك بأنهم كانوا كفرة يعبدون الأوثان يردّ عليه نرفال بأن لا ذنب لهم في ذلك ولا جريرة فلم يكن أي من عيسى أو محمد قد بُعث بعد .

وأخيرا فما من شك في أن دقّة الصورة التي رسمها جيرار لمصر هي التي جعلت فيكتور هيغو يقول : « لو أن جيرار ده نرفال لم يقصد مصر ولم يصوّر العادات المصرية بأسلوبه العلمي الساحر لتأقت نفسي إلى أن أقصدها . وإن أقصى ما أستطيع أن أثني به على كتابه هو أنه أغنانني عن أن أرحل إلى هناك » ، وهو قول حقّ إذ قد ألهمه ديوانه الشهير « المشرقيّات » .

(٥٤) كنيسة المادلين بباريس  
المشيّد فوق الطراز  
الكلاسيكي اليوناني .

أستاذ جامعي يواصل  
مهمّة شمپوليون

چان چاك أمپير





ولد جان چاك أمبير بليون في مطلع القرن التاسع عشر من عالم فيزياء فرنسي جليل هو أندريه ماري أمبير مكتشف ناموس قياس التيار الكهربائي والذي اتخذ اسمه «أمبير» اسما لوحدة التيار الكهربائي . وقد عرف في شبابه القلق ، ولم ينعم بالاستقرار النفسي فلم يُقبل على الدراسة المنتظمة ، وكان بطبعه متوتر الأعصاب شديد الحساسية والطموح يتشوّف إلى تحقيق إنجازات كبرى كأبيه المرموق ، غير أنه لم يملك تحديد أهدافه بوضوح فغشى شبابه الإحباط والأسى إلى أن اهتدى بعد ذلك إلى طريقه كما سيتبين لنا . وكانت «آلام قرتر» لجوته قد اجتذبتة هي و « ما نفرد » لبايرون وحركتا في نفسه الولع بالكتابة ، فوُفق إلى تأليف عدة تراجميات . . . ووقع وهو في سن العشرين في هوى مدام ركامييه الفاتنة التي كانت وقتذاك في الأربعين من عمرها عاشقة لشاتوبريان ، إلا أنه ما لبث أن تمالك مشاعره وأحال حبه العاصف شيئا فشيئا إلى صداقة نقية قانعا بأن يكون أحد زوّار قصرها المقرّين ، وما لبث أن استأثرت به الدراسة الجادة وشغلته آلاف الأسئلة الفلسفية واللغوية والأدبية التي داهمت فضوله ونهمه إلى المعرفة . وكان في دفينه نفسه شاعرا ، وكان هذا الشاعر يطفو بين الحين والحين إلى السطح دون إنذار ، فإذا به يقرض الشعر وسط محاولاته تجويد معلوماته في قواعد اللغات اللاتينية الأصل . وتعلم أمبير السنسكريتية ودفعه ذوقه الأدبي في بادئ الأمر صوب بلاد الشمال عام ١٨٢٧ حيث التقى بجوته في ألمانيا ثم قصد الدنمارك والسويد والنرويج كي يجمع الأساطير والأشعار الشعبية من منبعها . وعين عام ١٨٣٠ أستاذا بأكاديمية «الأتينية» في مرسيليا في الوقت الذي كان مشغولا فيه بالملاحم السكندنافية وقصيدة النبيلونج<sup>(٥٥)</sup> الشعبية ، ومضى يطرُق كل السبل للوقوف على أوجه الشبه بين ملاحم الشمال وأشعار هوميروس . وفي عام ١٨٣٣ عين أستاذا بالكونيج ده فرانس ، فإذا هو يقدم في محاضراته لونا جديدا من الدراسات الجامعية هو الأدب المقارن ، حتى عدّه الكثيرون الأب الحقيقي لهذا اللون الأدبي بل ومبتكر اسمه . وانتخب عام ١٨٤٢ عضوا بأكاديمية الوثائق حيث طرق أذنه ما يتندر به زملاؤه من اتهامات تشكك في صحة ما ينادي به شمپوليون من نظريات ، فحفزه ذلك إلى تحرّي الحقيقة ، وهكذا قرر أن يتوجّه إلى الأماكن التي زارها شمپوليون ليستوثق بنفسه منها ويتابع ما بدأه سلفه العظيم . وقد عشق أمبير مصر عشقا يخالطه الجذّ والنداب اللذان لا يتصف بهما سوى العالم البحّاث ، وقد بدأ ذلك العشق ذات صباح بينما كان يطالع كتاب قواعد اللغة المصرية لشمپوليون الذي أثار فيه شعورا جارفا مفاجئا بأن

(٥٥) قصيدة النبيلونج هي أهم المنجزات التي خلّفتها العصور الوسطى وأجمل أثر من آثار الفن الألماني القديم ، ويطلق عليها البعض «إلياذة الألمان» . وقد استمد منها الموسيقار ريتشارد فاغنر مسرحياته الموسيقية الأربع المعروفة باسم «خاتم النبيلونج» [م.م.م. ث.].



رسالته في الحياة تنتظره في مصر ، وما لبث أن غدا مُريداً للعالم الفذ شمبوليون وتلميذاً للپسيوس ، واستغرقته هذه الدراسة الجديدة فقرر الرحيل إلى مصر مشدوداً بحماسة تدفعه إلى التغلب على كل العراقيل التي تعترض سبيله . واستطاع أن يظفر من وزير التربية والتعليم الفرنسي بعثة إلى مصر اصطحب فيها الرسام الدكتور دوران مساعداً له ، وقصد لتوّه المعالم الأثرية حيث قضى الشهور الثلاثة الأولى وهو يحسّ وكأنه أشبه ما يكون بالثمل ، لما غمره من مشاعر فياضة وتحلّى له من معارف غزيرة ، فإذا هذه وتلك تدفعانه إلى فورة متصلة وحماسة دافقة .

كان جان چاك أمپير ليراليا لا يشترك مع چيرار ده نرقال في بوهيميّة المُسرفة ، والواقع أنه من الصعوبة بمكان تصنيفهما بين الأدباء فلا هما شاعران ولا هما روائيان ولا هما ناقدان ولا هما صحفيان ، ولكنهما كتبا الكثير في شتى الموضوعات ، وهي السّمة المميزة لذلك الجيل من الأدباء . على أنه كان كما قدمت مثل چيرار يسعي وراء النماذج والإلهامات الألمانية ، فعلى حين ترجم چيرار «فاوست» توجه أمپير إلى قايمار للقاء جوتّه . وكلاهما عمل على نشر الأدب الجرمانى وبثّ الأفكار الألمانية الرومانسية في فرنسا . غير أن عالم الشمال لم يستأثر بهما طويلاً إذ ما لبث الشرق الساحر أن اجتذبهما ، وتشاء الظروف أن يصلّاه في وقت واحد تقريباً . فعلى حين جاء نرقال إلى مصر في عام ١٨٤٣ جاء أمپير في عام ١٨٤٤ . وبمجرد عودتهما إلى فرنسا بعثا بانطباعاتهما إلى مجلة «العالمين» التي رحّبت بهما فنشرت «نساء القاهرة» و«مشاهد من الحياة المصرية» لنرقال و«رحلة إلى مصر والنوبة» لأمپير .

وفد أمپير على مصر وفي جعبته حبه الجرم للاطلاع وذكاءه الخارق وتطلّعات ذهنه الموسوعي وثقافته الواسعة ، فإذا بها لا توقف ذكريات الماضي المجيد فحسب بل وتحرك فيه الاهتمام بالحاضر والمستقبل أيضاً . لقد وجد فيها بلداً فريداً يختلف عن جميع بلاد الدنيا : «ففي تاريخ هذا البلد يحتشد جنباً إلى جنب الكتاب المقدس وهوميروس والفلسفة والعلوم واليونان وروما والمسيحية والهرطقة والرهبة والإسلام واخروب النصليية والثورة الفرنسية ، ويلتقي فيه زائره بكل ما هو سام جليل في الكون» . ثم إذا هو يؤكد أن مصر بلاد لا تُنسى ، ويتساءل : «أين يمكن أن يجد المرء مدينة مثل الإسكندرية أسسها الإسكندر ودافع عنها يوليوس قيصر واستولى عليها نابليون؟» .

ونحن نستشفّ في كتابته بين الحين والحين أسلوب الشاعر الذي كان يتغنّى بالنيل وطيبة ومنف وهو مستغرق في قراءة الرموز الهيروغليفية ، ولكنه يظل في المقام الأول مؤرخاً وعالم مصرّيات ، فيسرد علينا انطباعاته الشخصية بتلقائيتها ، ويروي لنا مشاهداته وإحساساته ، ولكنه يضيف إليها ما تعلّمه وما يَعْلَمه ، فقد كان على حدّ ما وصفه به سانت بيث أعظم الأدباء بين العلماء وأعظم العلماء بين الأدباء .

وكان أول انطباع له عن مصر المعاصرة أن : «نزهة الوافدين إليها تنحصر في التجوّل على ظهور الحمير والإبحار على المراكب والجوس خلال الأطلال» . ولم يتردد في الإفصاح عن انجذابه باضطرام الحياة والحركة والأنوان وضوضاء الطريق وصخب الباعة وصياح المكارية سائقي الحمير . ويدهش لرحمة الحياة في القاهرة مما يجعله يقول إن إنجازات بوناپرت العظيمة تعدّ أقل صعوبة من اختراقه شوارع القاهرة بعربة تجرّها ستة جياد . وكم شدّت هذه الصورة التي رأى عليها القاهرة حتى خيل إليه أنه يعيد قراءة ألف ليلة وليلة .

وقد حظي شأنه شأن الزوّار المرموقين باستقبال محمد علي باشا له في القلعة حتى إذا طلب إليه أن يجري تفتيشاً على مدرسة الهندسة التي كان يشرف عليها المهندس لامبير اعتذر عن تلبية ذلك الطلب بأن دراسته لا تؤهله للحكم على المسائل ذات الطبيعة الهندسية . وكان حكمه على محمد علي موضوعياً وقاسياً على نقيض ما وصفه به كلوت بك ، فعلى حين رأى فيه شيخاً ممتلئاً حيوية شديد الثقة بنفسه ، أخذ عليه عماديه في الاستبداد وفي قهر شعبه وإفقار الدولة واستغلالها لصالحه . ومع أنه ينصفه إلا أنه يشوّهه بنفس القدر ، فهو يعترف بقيمة مشروعاته وبالتطور الذي تم على يديه ولكنه يكشف عن مقدار النفع الذاتي الذي كان يعود عليه منها ، فيذهب إلى أن حرصه على تشييد المستشفيات كان وراء رغبته في تقليل خسائره من الجنود ، كما أن جهوده لتحسين الزراعة التي تعود على مصر بالفائدة كانت تخدم تطلّعاته الشخصية ، وأن محاولاته المتواصلة لنشر التعليم لم تكن تتجاوز نطاق التعليم الفني الأوّلي لتخريج مجرد «صبيان» ومن هنا كان أقرب إلى التلقين العمليّ الحرفيّ ، هذا إلى انحسار تعليم الآداب واللغات الحية حتى غدت مقصورة على دراسة القواعد اللغوية الجافة وأساليب البلاغة التي لا طائل وراءها . وقد كشف عن سخريته من هذا النهج التعليمي عبر قصة روى فيها أنه زار ذات يوم مدرسة الألسن التي كان الشيخ رفاعه النطهطاوي ناظراً لها ، وأنه طلب إلى تلميذ فيه دكنة أهالي الأقصر أن يطالع نصاً لچان چاك روسو يتناول : «نهم الإنسان الشرّ الغائص في أعماق الأرض ليستخرج منها كنوزاً تقوده نحو الشرّ والهلاك ، على حين أن الكنوز الحقّة موجودة على سطح الأرض» . وكان لا اختياره قراءة هذا النص معني خبيث . إذ كان محمد علي قد أوفد وقتذاك عدداً كبيراً من المهندسين إلى سيناء والسودان بأمل اكتشاف مناجم الذهب والزمرد . حتى إذا أنهى التلميذ قراءة النص طلب منه أن يدلي برأيه فيما ذهب إليه روسو ، فإذا بوجه التلميذ يكتسي بدھشة بالغة . وحاول أمپير طمأنة التلميذ فطرح سؤاله في صياغة أخرى قائلا : «أليس من الجرم أن نُثقل على الأرض كي تعطينا ما تدّخره من كنوز؟» . وإذا بالنصمت يرين على المكان برهة يتقلّص خلالها الوجه الأسمر ثم لا تنفج شفتاه بعد جهد جهيد إلا عن مصطلح موجز العبارة هو لفظة «هپوتپوز» Hypotypose [التي تعني الوصف البليغ المؤثر] ظناً منه أن أمپير كان يختبر معلوماته في علم البلاغة لا في المغزى الفلسفي لعبارة روسو . ولا ندري لمّ عاب أمپير على المدارس المصرية هذا المنهج ، وهو المنهج الذي كان وما يزال مطبّقاً بالفعل في كثير من المدارس الأوروبية وخاصة الدينية منها حيث ينصبّ الاهتمام على القواعد الجافة للغة وخاصة في الأدب غير الديني كنوع من المران على المهارات البلاغية .

كان الهدف الأساسي من رحلة أمپير كما قدّمت هو دراسة الآثار المصرية ليتعرف على عالمها المحجوب ، فراح يجوس بين المعابد والأطلال والمباني الجنائزية واكتشف فيها على حد تعبيره : «موسوعة عظيمة من الجمال وكأنها يومئذ بمقياس أوسع تنطوي على حياة المصريين القدماء مصورة أحسن تصوير» . وكان أمپير قد أعدّ نفسه لرحلته بعناية شديدة فطالع كل ما كتبه المؤلفون اليونان والرومان ، ومن ثم نجده لا يفتأ يردد أقوال هوميروس وديودور الصقلي وهيرودوت وسترابو وفلاسفة الإسكندرية ، كما قرأ كل ما كتبه من سبقه من الرحالة أمثال ده ماييه وقلوني وسافاري وقيشان دينون فضلاً عما سجله المؤرخون العرب أمثال الجبرتي وعبد اللطيف البغدادي . ولكنه عكف في المقام الأول على دراسة أبحاث علماء المصريين المحدثين وعلى رأسهم شمبوليون ثم



بلزوني وپريس دافن ولپسيوس وولكنسون الذي التقى به في أحد المواقع فانهال عليه بوابل من الأسئلة. ونجد شغفه بمصر القديمة يحيل وجهه بعيدا عن الإسكندرية التي لم يجد فيها ما يمثل مصر التي كان يهفو إليها، وإغاراها: «يونانية الفلسفة والأدب والأفكار والعلوم والعادات» بل إنه ما كاد يغادر الإسكندرية في طريقه إلى القاهرة حتى قال: «هناك... كنت ما أزال في اليونان، أما الآن فسأدخل مصر. وغدا سأرى الأهرام». ومنذ تلك اللحظة أخذت مناظر الطبيعة تتزاحم في مخيلته إلى جانب الأفكار العلمية فنجد الشاعر الغنائي في أمبير ينهض من سباته، ونجد إبحاره في النيل يلهمه صفحات ساحرة كان يمكن نسبتها إلى أعظم الأدباء مثل قوله: «ما إن انحدر الكوكب الكبير صوب الغرب حتى تحوّل لون السماء زعفرانيا موحيا برداء إلهة الفجر عند هوميروس. وخيل إلينا وقتئذ أن النهار يكاد يشرق من الشمال أو الجنوب، إذ كان لون القبة السماوية يضرب إلى الاخضرار، على حين كانت تكتسي في الشرق بألوان الزنبق لا يتسلل إلى أي بقعة منها لون الليل الحالِك. واقتربنا من النهر فإذا خريه يذكرنا بصخب البحر أو ضجيج شلال بعيد تخالطه ذبذبات تنبعث من بين سعفات النجيل حين تمسّها الريح. وإذا أسراب الطيور المائية تتقاطر على النيل محلقة فوق سطحه في دفقات تنحرف حيناً وتتوزّع حيناً آخر ذهاباً وإياباً وكأنها أمواج في كفّ إعصار يكسوها زغب أبيض. ويخيّل للمرء وهو يشاهدها عن بُعد أنه يشهد جلايد صخر متحركة. وبغثة... يرخي الليل سدوله ويُشيع الظلمة».

وما أكثر ما كان أمبير يستطيب الاضطجاع على غرار الشرقيين فوق الحشّيات الوثيرة مدخّنا الأرجيلة متجرّعا القهوة حتى إذا استثارته فتنة النيل تحوّل شيطان شعره إلى القريض ليقول: «في قارب سابح على وجه النيل أستلقي متطلّعا إلى النجوم، مُطلقا أشعاري تنساب مع نسيمات الليل التي تتأرجح في رقّة كلما رفرفت خلالها الأشرطة، بل أطلقها إلى الضفاف التي أتركها على الجانبين ونحو الموجات المتخلّفة عن قاربي. وفوق الرمال الومّدة تستلقي قطعان الجاموس السوداء الشعر أو تمضي متجاوزة بخطى الفيلة المتثاقلة بينا تقترب من أنشاطى بضع نساء، أطفالهن على المناكب وجرارهن فوق الهامات».

وإذ كان أمبير يكتب إلى القارئ الفرنسي فقد حرص على أن يخفّف عنه مشقّة السير في تيه أطلال طيبة فأخذ يصفها ويشبّها بمواقع معالم مدينة باريس. فجعل نهر النيل مكان نهر السين، ووضع على الضفة اليمنى مجموعتين من المعابد، فأحلّ الأقصر محل ميدان الكونكورد Concorde، والكرنك مكان ميدان «الإتوال» Etoile، وربط بينهما بطريق الكباش الذي أخذ مكان طريق الشانزليزيه Champs-Élysées. وثمة مجموعات ثلاث على الضفة اليسرى: فالقرنة تحتل المدرسة الحربية Ecole Militaire بباريس، والرامسيوم ينسبط على مساحة حديقة لوكسمبور، كما تقوم مدينة هابو على أرض حديقة النبات والحيوان.

وكان أمبير أول كاتب محترف يسجّل بقلمه ما في نقوش أخناتن بتل العمارنة من تجديد وابتكار في تصوير قرص الشمس «المعبود» بأسلوب غير مألوف حيث تأخذ أطراف الأشعة شكل الأيدي. وقد سجّل وقتها أن هذه الآثار تنفرد بمرونة لا تتحلّى بها الآثار المصرية الأخرى، وأنها متحرّرة من القيود الصارمة للأساليب التقليدية للفن المصري حيث يتجلّى التعبير بوضوح حتى يبلغ أحيانا حدّ الرسم الساخر «الكاريكاتير».

وقد ألزم أمبير نفسه بزيارة جميع الآثار، وبينما عكف هو على نسخ الكتابات التي لا حصر لها انكبّ زميله دوران على رسم النقوش الغائرة، وانبرى في كل موقع يحقق ويُتمّ ما بدأه شمبوليون وپريس دافن ونسطور لوت موضّحا ما التبس من النتائج التي توصّل إليها من سبقه من المتخصّصين، لا يوقفه حتى مرض الدوسنطاريا الذي هدّ قواه. وعلى الرغم من ذلك استمرّ يمتطي كل صباح أتانه مصطحبا زجاجة الدواء وحفنة من الأرز منتقلا من معبد إلى آخر ومن مقبرة إلى أخرى في حماسة وصمود لكي يتمّ الرسالة التي وهب نفسه لها، ولكن وطأة المرض ما لبثت أن اشتدت عليه فاضطر بعد مغادرة طيبة أن يلزم فراشه بالركب. وقد بذل زميله الدكتور دوران السّمح القلب - والذي شُغف بقسمات وجه زوجة الملك سنوسرت - قصارى جهده في علاجه دون جدوى، إذ لم يكن چان چاك أمبير مريضا مطيعا، بل إنه لم يعبأ بنصيحة طبيبه بالتزام الراحة التامة فتمردّ عليه وغادر المركب في أثناء رحلة العودة لزيارة كهوف تل العمارنة الغربية الشكل ومقابر بني حسن، وطلب إلى معاونيه أن يرفعوه فوق ظهر حمار برغم أن جسده كان مكسوا «باللّصقات» المخفّفة للآلام، كي يجتاز الوادي المترب الذي يفصل الكهوف عن النهر. وإذا هو يدفع ثمنا غاليا لهذا التهور الذي انطوى في الوقت نفسه على حماقة كبرى، إذ تفاقمت حالته الصحية وتضاعف عدد الأزمات التي باتت تتناوبه وافترسته الحمى وأحس بقواه تخور يوما بعد يوم، ومما زاد الطين بلّة أن الرياح الشمالية هبّت بعنف استحال معه على المركب التقدم صوب الشمال، وغرق المريض في بحر من اليأس والسأم والقلق على مصيره، ولم يبلغ مرسيليا إلا بعد أن أصاب الشلل ساقيه، فقُدّر له - كما يقول مؤرخوه - أن يصل إلى شاطئ وطنه ولكن دون أن تمسّه قدماه.

وقد استغرق شفاؤه من أوجاع رحلته المصرية عدة شهور قبل أن يستردّ قدرته على العمل في عام ١٨٤٦ حين انكبّ على نصوصه بالتنقيح النهائي كي يدفع بها إلى مجلة «العالمين»، ومع ذلك فهي لم تخرج إلى النور في كتاب قائم بذاته إلا بعد وفاته. وقد ظهر كتابه «رحلة إلى مصر والنوبة»<sup>(٥٦)</sup> زاحرا بالمعارف العلمية الجذابة في أسلوب بديع شديد التنوع تتخلله النوادر اللاذعة والأوصاف الشعرية التي تخفّف من وطأة الصرامة التاريخية والأركيولوجية. غير أن لفيفا من النقاد استخفوا بأمره، واعتبروه تارة مجرد هاو وتارة أخرى ذواق أو عالما أكاديميا أو كاتب صالونات، ونعتوه بتشتت الجهود في موضوعات متنوعة ومتباعدة. ويذهب چان ماري كاريه إلى أن أمبير لو شاء لاحتل مكانته عالما فذا للمصريات يلي في أهميته شمبوليون مباشرة ويتقدم مارييت، غير أن صحته المنهكة وتنوع نشاطه حالا بينه وبين الاضطلاع بهذا الدور، فقد قنع بأن يترك لمن خلفوه فرصة الغوص لملء أيديهم من نفائس الكنوز التي لم يكشف هو إلا عن بعض حقائقها وثرائها الباهر.



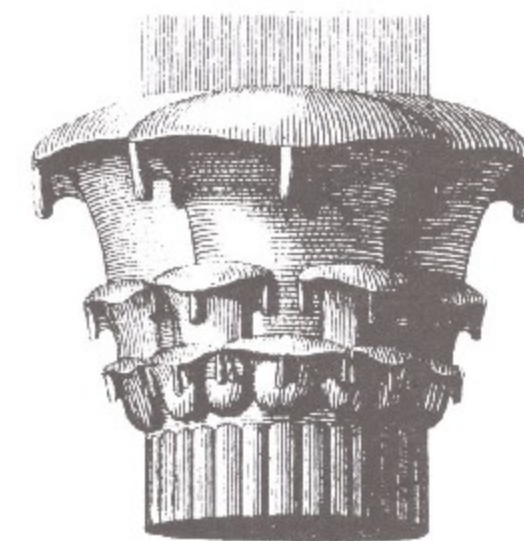
أديب مطبوع و أديب دارس



مكسيم دوكان



جوستاف فلوبير







بدأ جوستاف فلووير في خريف عام ١٨٤٩ رحلة طويلة إلى الشرق الأدنى وكان يومها شاباً في الثامنة والعشرين من عمره لا يعرفه غير زمرة قليلة من المحيطين به . هذا إلى أنه كان يجتذب إليه العيون بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة وقسمات وجهه المتسقة وعينييه النجلأوين وفمه الدقيق الشفتين الذي كم عاتيته النساء على حجبته إياه بشاربه الكثيف . وقد استجاب فلووير لإرادة أبيه الطبيب فترك مدينة روان بمقاطعة نورماندي التي وُلد فيها ونشأ إلى باريس ليدرس القانون ، غير أنه أصيب أثناء دراسته بنوبات متلاحقة من الصرع لم يجد لنفسه مندوحة معها من هجران دراساته القانونية والإخلاق في منزله الهادئ إلى كتابة الرسائل التي أولع بها مبكراً حتى باتت أدراج مكتبته زاخرة بالعديد من أوراقها ، هذا إلى بضع مخطوطات لقصص قصيرة وروايتين ، وانطباعات رحلة قام بها سيرا على الأقدام في مقاطعة بريتاني ، وقصة «تجربة القديس أنطوان» المفعمة بخيال إبداعى شارده والتي انتهت منها قبيل مغادرته فرنسا إلى مصر ، وهي قصة قديس معتزل في غار بالصحرى المصرية استهدف فيها لا لغواية رذائل الحياة والجسد فحسب بل للآراء الفكرية والروحية والعقلية المحرمة والمدارس الفلسفة الوثنية ولمبادئ الديانات غير المسيحية . وقد كان على فلووير حتى يتعرض بعمق لهذه المدارس والنظريات المختلفة أن يلجأ إلى دراساته القديمة للكلاسيكيات وللعقائد الهندية فعكف على القراءة المستفيضة فيها ، وإذا هو يغزل ذلك كله في خيط درامى تعبّر فيه كل عقيدة عن نفسها على لسان داعيتها حيث تزاومت على أخيلة القديس حشود من الرؤى لزنادقة وخطاة وعصاة وفلاسفة وآلهة ، ولم ينشر فلووير من هذه الرؤى كلها غير قصتين قصيرتين . وتكشف أعمال فلووير المبكرة عن مزاملته الوجدانية لكتاب في الرومانسية لهم فيها قدم راسخة ، فاقتدى بهم في الشوق إلى كل ما هو غريب ناء لا سيما بعد أن قرأ أشعار بايرون و«مشرقيات» فيكتور هيغو وحكايات ألف ليلة وليلة ، فاتّسمت أعمال شبابه بالتوق إلى الشرق حتى قال : «كم أرجو أن أهاجر نساء العالم جميعاً في لقاء أن أضم إلى صدري مومياء كليوباترة » ، وليس قوله هذا إلا نموذجاً لمدي إسرائفه في الإعراب عن عواطفه الاستشراقية إبان شبابه . ولعل نشأة فلووير في شمال فرنسا بمدينة روان حيث السماء قائمة لا شمس فيها كانت وراء تطلّعه دوماً إلى الشمس وإلى العالم القديم الذي أتاحت له معرفته باللاتينية واليونانية أن يكتشفه خلال مطالعته لهيودوت وغيره ممن كتبوا عن الأديان الشرقية . وقد ذهب مؤرخه المشهور جان برونو إلى : «أن حبه للشمس كان مفتاح إيمانه بوحدة الوجود ، وأن ذوقه المولع



بالقديم قد قاده إلى رؤية خاصة للشرق القديم، وأن اهتمامه بالأديان ونشأتها أفضى به إلى أن ينظر إلى الشرق نظرة بالغة العمق أتاحت له أن يذكره في تأملاته وكتابه ذكرًا جليًا يكشف عن أن الشرق الذي لفته لم يكن أحلامًا وأوهامًا وزخارف فحسب، وكذلك لم يكن مقصورا على التعرف على الخصائص المحلية وتبينها، بل غدا هذا كله شيئا لا يفصل عن وطنه فرنسا.

وفد فلوبيير على باريس ممثلة نفسه بفكر الرومانسيين متغنياً بعذاباتهم، وتعرف في بيت صديقه مكسيم دوكان على شخصيات رومانسية لم يلبث أن بات وثيق الصلة بها وبخاصة الشاعر بودلير والمثال پراييه إلى جانب نخبة من الشبان الأثرياء المزهوين بأزيائهم الرومانسية والمولاهين بحياتهم الصاخبة. كما أنه التقى ببعض المفكرين المعاصرين وبالشاعر لوي ماري ده كورمنان وأبيه الذي دفع بهذه الثلة دفعا نحو المسرح والأوبرا والموسيقى وأوحي لهم من خلال مطالعته الغزيرة بسحر الشرق الغامض.

ولم يكن الجسد الإنساني يحمل أسراراً بالنسبة لفلوبيير فهو ابن جراح شهير، يخالط الكثير من الأطباء ويتردد على غرفة التشريح في مستشفى أبيه. وكان قبل رحيله إلى مصر عاشقا لسيدة رائعة الحسن تهتم اهتماما شديدا بالأدب هي لويز كولين التي تكبره بإحدى عشر سنة، وكتب لها رسائل تفيض بالبلاغة الأدبية والصراحة الجنسية لم تُنح قراءتها إلا بعد أن باعها ابتعتها لأحد الناشرين. وقد شقي فلوبيير بمأس عديدة كانت أولاها الصرع، ثم وفاة والده الذي تبعته بعد قليل شقيقته الحبيبة كارولين ولم تكن قد نعمت بسعادتها الزوجية إلا فترة وجيزة وخلقت وراءها طفلة تدعى هي الأخرى كارولين تولي فلوبيير وأمه رعايتها في بيتهما الريفي العتيق المطل على نهر السين في كرواسيه بالقرب من روان، فأججت المآسي تشاؤمه حتى بات مقتنعا بأن الحياة كريهة، وأن الفن وحده هو نبع المواساة الدافق.

أما مكسيم دوكان فقد كان على ثراء يتيح له أن يفعل ما يحلو له، حتى إنه قام في العشرينيات من عمره برحلة إلى آسيا الصغرى وإيطاليا والجزائر، واستطاع في عام ١٨٤٨ وهو في سن السادسة والعشرين أن ينشر ذكرياته عن هذا الرحلة في كتابه «ذكريات أدبية»<sup>(٥٧)</sup> وأهداه إلى جوستاف فلوبيير الذي كتب إليه معترفاً أن يديه كانتا ترتجفان بهجة وهو يقلب صفحاته. وإلى مكسيم دوكان الأسمر النحيل الطموح الممتليء حيوية يرجع الفضل في قيام فلوبيير بمرافقته في رحلته الثانية نحو الشرق بعد ما كان فلوبيير قد اعتاد العزلة للتأمل والكتابة مما أضعف إلى حد ما شوقه الجارف إلى الشرق. غير أن مكسيم نجح بلباقته وكياسته في إقناع والده فلوبيير الشديدة التعلق بابنتها بالموافقة على رحلته وتزويده بما ينفقه في رحلته إلى أرض مصر الدافئة أملا في أن يشفيه الطقس الحاني من أسقامه، وخلف لها مكسيم خريطة بين عليها خط سيرهما حتى تستطيع متابعة أنباء الرحلة.

وعلى العكس من صديقيه مكسيم وچيرار لم ينشر فلوبيير شيئا مما كتبه عن مصر. وكان لابد لنا كي نتعرف على انطباعاته عن مصر أن نرجع إلى رسائله التي ظلت لفترة طويلة لا تعرف طريقها إلى المطبعة، والتي لم يكن هدفه من تحريرها أن تكون في متناول الجماهير، فهي لا تشكل عملا أدبيا مكتملا مثل كتاب «رحلة في الشرق» لچيرار ده نرقال، ولا موسوعة بارعة مثل كتاب «النيل»<sup>(٥٨)</sup> لمكسيم دوكان الذي أهداه إلى صديقه تيوفيل جوتييه، بل هي سلسلة من الخواطر

Souvenirs Littéraire. (٥٧)

M. Du Camps: **le Nil**, (٥٨)  
Egypte et Nubie. Paris  
1854. Michel lévy.

دونها بمفكرته ورسائل بعث بها إلى أمه وإلى صديقه الحميم الشاعر لوي بويه تتسم جميعا بالبساطة والتحرر والعذوبة والاقتضاب في التعبير عن انطباعاته التلقائية وتكشف عن أديب موهوب في ريعان شبابه يحظى بنصيب وافر من هبة الشاعرية الغنائية<sup>(٥٩)</sup>. ومن غريب المصادفات أن يفد هذا الكاتب المريض بالصرع إلى مصر في أعقاب كاتب مريض آخر سبقه بستة أعوام هو چيرار ده نرقال سعيا وراء التسرية عن النفس واسترداد العافية. ثم إننا نجد مصدرا آخر من مصادر التأريخ لرحلة فلوبيير إلى مصر ليس دون أهمية رسائله ومذكراته، وذلك في الفصول التي عقدها مكسيم دوكان في كتابه «ذكريات أدبية». على أن الموازنة بين انطباع كل منهما عن الرحلة إلى مصر ليس بالأمر اليسير، فلقد كان لكل منهما نهجه الخاص به الذي يباين نهج الآخر كما سيتبين لنا، وفي هذا المقام يقول چان برونو «إذا كان مكسيم قد دلّس الحقائق إلا أن ذلك لم يكن في الحق عن عمد».

وكان مكسيم إنسانا عمليا واقعيا واسع الخيلة فسعى إلى أن يكون هو وصديقه جوستاف فلوبيير مبعوثين رسميين للحكومة الفرنسية إلى مصر مزودين بتوصيات إلى ممثليها الدبلوماسيين تيسر لهما الطواف بأمان في أنحاء البلاد، فقصده مكسيم مصر موفدا من وزارة التربية والتعليم لتصوير الآثار فوتوغرافيا، بينما ذهب إليها فلوبيير موفدا من وزارة الزراعة والتجارة لجمع معلومات تفيد منها الغرفة التجارية الفرنسية، فوصلا الإسكندرية مع ارتقاء عباس باشا ولاية مصر. وفي رشيد شرع مكسيم في التقاط الصور الفوتوغرافية للأوابد المصرية، وكان التصوير الفوتوغرافي مايزال بدعة جديدة استهوت شغف مكسيم واستأثرت بكل اهتمامه خلال الرحلة، وقد استقبل الأديان أحسن استقبال في جميع الأوساط المصرية، وأضفى عليهما الكولونل سيث «سليمان باشا الفرنساوي» الكثير من الحذب والرعاية كما زودهما بالتوصيات إلى الولاة والمحافظين.

وسرعان ما حلق فلوبيير شعر رأسه أسوة بالمصريين وتزيّا بعباءة قطنية بيضاء ووضع على رأسه طربوشا أحمر فوق لاطئة بيضاء، على حين مضى مكسيم يدخن النرجيلة ويحرك بين أصابعه حبات مسبخته. وإذا كان المصريون يجدون مشقة في نطق الأسماء الأوربية كنوا فلوبيير بـ«أبي شنب»، فكتب إلى أمه يقول: «لك أن تخالي ما تخالين عن مدى سعادتي حين انتهى إلى أنهم عنوا بتلك الشعيرات من وجهي إلى حد استغلالها في نحت اسم جديد يطلقونه عليّ، بينما كنوا مكسيم بـ«أبي كتاف» لنحوه وضموره وبروز كتفيه». ومضيا في تجوالهما يجوسان كل مكان، فإذا لم يكن ثمة وقت للعودة ظهرا إلى الفندق تناولا غذاءهما في مطعم وطني مستخدمين أيديهما وتجشّا كما يفعل المصريون. وأرسل فلوبيير إلى أمه يستحثها على قراءة كتاب «المصريون المعاصرون: عاداتهم وتقاليدهم» لإدوارد لين كي يساعدها على استيعاب كنه البيئة التي يكتب لها عنها في رسائله من مصر.

وفي البداية كانت الطبيعة هي التي تجتذب فلوبيير بأكثر مما تجتذبه الدور والطرق والأزياء والطباع، إذ كان يجنح برومانسيته إلى الخيالات والأحلام حتى وقف مبهورا أمام النيل الذي: «ينبثق من كل قارب على سطحه شراعان بيضاوان كأنهما وشاح رقيق يلتف حول عنق حسناء يجعلان القارب يبدو مثل طائر الخطاف الطويل الجناحين المشقوق الذيل». ونحن نلمس

(٥٩) الكلام الذي يحاكي الشعر الغنائي من حيث التعبير عن العواطف وعن الانفعال بما يؤثر في النفس من أحداث. وكثيرا ما تنطوي هذه المحاكاة على التكلف والمغالاة.



هذا الاتجاه المتباعد عن الآثار القديمة والعاكف على رؤية الإنسان المعاصر والطبيعة المحيطة عند عدد متزايد من الكتاب والرحالة أحسوا أنهم عرفوا ما فيه الكفاية عن العالم القديم، حتى أن مؤرخا كبيرا هو جوزيف ميشو قد كتب ساخرا في كتابه «رسائل من الشرق» نقدا لكتابات الرحالة التي توحي بأن مصر قد خلت من السكان حتى باتوا لا يتحدثون عن البشر إلا حين يأتي ذكرهم منقوشا أو مصورا فوق حجر من الأحجار، وأنه لكي يثير إنسان التفاتهم فلا بد أن يكون قد مرّ على وفاته ثلاثة آلاف سنة، وألا يكون قد بقيت منه إلا مومياء! وقد أفصح ميشو في صراحة عن أن ألف جيل مضت بتراتها لا تصرفه عن التطلع إلى الجيل الحاضر الذي ينبغي هو أيضا أن يحتل مكانه من التاريخ، وأنه لو كان يملك المزيد من الوقت لما قصد طيبة ولا غيرها من الأماكن الحافلة بالآثار والأطلال بل كان يؤثر أن يقضي شهورا في قرية من قرى الدلتا. وكذلك فعل فلوبيير، فلم تشغله الآثار كثيرا بل أخذ يهتم بالإنسان المصري، وإن كان أكثر ما شده لدى المصريين ما لاحظته من مشاهد عجيبة أو قبيحة «جروتسكية»<sup>(٦٠)</sup> في حياتهم اليومية تبعث علي الضحك أو تثير الاستنكار، فراح يسجل انفعالاته أمام هذه المواقف بينما تتكالب على ذاكرته صور المشاهد الهزلية التي دأب المسرحيون الأوروبيون على أن يثيروا بها ضحكات النظارة، على حين يراها هو تحدث في الواقع المصري حقيقة لافتة للنظر لا خيالا من وضع كتاب المسرح: مثل مشهد جلد العبيد، والوقار المصطنع لتاجر الرقيق وهو يمارس مهنته المرذولة، وجسارة الباعة وهم يطفقون الكيل والميزان دون خشية لائم أو استنكار مستنكر. ومثل مشهد مهرج محمد علي الذي أعجبه امرأه في السوق فجذبها إلى أحد الحوانيت وأضجعها على طاولته ثم أتاها أمام الجمهور، وهنا يزعم فلوبيير أن صاحب الحانوت ظل على هدوئه يتابع تدخين أرجليته دون أن يلقي بالا لما يحدث أمامه. كما يذكر حدثا غريبا يصعب تصوّره وهو سير أحد المجاذيب عاريا في شوارع القاهرة إلا من غطاء لرأسه وآخر لعورته لا يكاد يأخذه البول حتى ينزع غطاء عورته، وهنا تُهرع النساء العقيمات نحوه يتبركن باندفاق بونه أملا في الإنجاب. وإني أشك كثيرا في صدق هذه الرواية، فأحداث التاريخ تؤكد ما عليه الشعب المصري من حياء وغيرة، فما يزال منظر الرجل وهو يقبل امرأة في الطريق مما يثير استياء العامة فإذا دماؤهم تغلي في عروقهم. وما أعتقد أنه حدث في تاريخ مصر أن تمهلت امرأة مسلمة أمام رجل عار في الطريق مهما قبل إنه من أولياء الله فما ذلك إلا افتراءات من خيال فلوبيير، إلى غير ذلك من الروايات الشاذة المقرّرة التي أغرم بحياتها ولم أجدني قادرا على تصديقها.

ومن هنا ذهب جان ماري كاريه إلى أن زيارة فلوبيير لمصر وهي جزء من الشرق الذي أيقظ أذهان الرومانسيين هي التي خلعت عنه ثوب الرومانسية وأيقظت فيه روح الأديب الواقعي، فإذا أكثر ما يشد انتباهه هو حياة الجماهير الكادحة بصخبها وضجيجها وانطلاقها إلى العمل وضربات العصا تهوي متلاحقة فوق ظهورهم: «وما أنت بمستطيع أن تدرك مدى سطوة النبوت في هذه البقعة من العالم. فكل من يملك فاخر الثياب له أن يقرع من ثيابه أهدام وسخة أو من يكاد أن يكون عاريا. وحين أقول أهداما وسخة أعني سروالا قصيرا مهلهلا، فالضربات تنهال على الجميع في سخاء بلا حدود على إيقاع الصرخات والصيحات التي تُضفي على هذا اللون المحلّي نفردة المتميّز». ونراه يرسم مشاهد الحياة في لباقة وفطنة، تكون مرة فاتنة مبهرة ومرة أخرى سافرة ساخرة، فيشبه خطوة الجمل الذي لم يمل قط النظر إليه بمشية الديك الرومي بينما يشبه هزة عنقه

(٦٠) Grotesque فن زخرفي فيه غلو في التشويه أو مجاوزة الحد فيما هو طبيعي أو فيما يخالف الواقع مما يخرج به إلى العبث المازح أو القبح المثير للسخرية والازدراء أو البشاعة المثيرة للهول والفرع أو الكاريكاتير الذي يحرك في النفس الفكاهة والتندر لسخفه وغبائه، وهو مع هذا على جانب كبير من الحكمة الفنية. ويطلق هذا المصطلح على كل ما هو شاذ غير طبيعي أو غير مألوف [م.م.م.ث.]

الرشيق باختيال البجعة بعنقها. ويعترف فلوبيير بأنه يلتقط نبذاته الساخرة من المشاهد الشعبية اللادعة ومن النكات النابية والنوادر المفحشة والمشاهد المقرّرة، كل هذا في التصاق شديد بالواقع لا تخالجه انعطافة نحو الخيال الرومانسي أو محاولة لتجميل صورة الواقع أو تخفيف حدة ضراوته أو تلطيف قسوة عباراته المستهجنة. لقد أخذ يجول في الطرقات ويرنو إلى الجالسين في المقاهي برؤوسهم الصلع متكئين على الآرائك يشدون أنفاس النرجيلات السامقة ويرشفون القهوة، وهو أمام هذه المشاهد أشبه ما يكون: «بالنائم الذي انتزع من غفوته وزج به وسط احتدام سيمفونية ليهوثن تكاد الآلات النحاسية تخرق طبلة أذنه على حين تُرعد الوترية من حوله، وترفر النايات زفرات ملتبهة فإذا هو أسير لهذه الجزئيات جميعا التي تملك عليه حواسه وتأخذ بناصيته، وما تلبث هذه الجزئيات أن تندمج اندماجا شاملا يسوده الانسجام والتناغم والتوحد».

لقد انقضت أيامه الأولى بمصر وكأنه في قبضة شيطان، تحاصره الألوان اللافتة وتبهره الألعاب النارية، وتشد عينيه إلى أعلى المآذن الجاثم عليها طير اللقلق الأبيض وشرفات البيوت التي استلقت وراءها الجوّاري المنهكات وأطلال الجدران وقد اخترقتها فروع أشجار الجميز، وتدوي في أذنيه صلصلة الأجراس المدلاة من أعناق الإبل، ويغار [صوت] العنز السود وهي تهول في الطريق، كما تزحم جماعات الباعة وجموع الخيل والحمير. وتعجبه حين يسجو الليل القناديل الزيتية في أيدي بعض المارة والمشاعل الضخمة المضيئة يمضي بها سواكس الدواب، والناس يصارع بعضهم بعضا في جدل وعراك، ويعلو في الجو صخبهم فيحس بالفاظهم العربية الغليظة وكأنها ضربات السياط. ويدهشه تعدد أزياء الشرق حيث يلمح القس اليوناني بلحيته المرسلّة المشعّعة ممتطيا بغلته، والأرناؤوطي بصديريه المطرّز، والقبطي بعمامته السوداء، والفارسي بمعطفه من الفراء، والبدويّ بوجهه البنيّ السُمرة يخبّ في عبائه البيضاء المنسدلة إلى أخمص قدميه، وكأنما يكتسي القوم بالألوان لا بالثياب! لقد أتى فلوبيير وفي ذهنه صورة عن الشعب المصري بأنه جاد غاية الجد فإذا هو يراه هنا مرحا كل المرح فنانا بالفطرة، حتى ليظن أن حفلات الزفاف والختان هي ذرائع يلتمسها الناس لإمتاع نفوسهم بالمرح والموسيقى حيث الزغاريد الحادة تنطلق بها حناجر النسوة المبرقعات وهن على ظهور الحمير منفرجة أذرعتهن عن أجسادهن وكأنهن البدور في اكتمالها متشحات بالسواد يتحركن على أربعة أرجل، وهو ما يحار المرء في فهم كنهه عندما يلمحه لأول وهله. ويكتشف بحسه المرهف أن السلطة في واد والشعب في واد آخر حين يري الناس ينعمون بحرية لا حدود لها، وإن لم يرغب عنه أن هذه الحرية تجري بها الألسنة في حياة الناس العامة ولا تستطيع الصحف أن تخطئها، فترى المهرّجين والمشعوذين والحواة في الطرقات والميادين العامة يهزأون بالسلطة على هواهم واصمينها بألفاظ بذئية جعلته يجري بخياله إلى الشاعر «بوالو» الذي كان يظن أنه لا توجد لغة تملك ألفاظ تتخطى حدود آداب اللياقة مثل اللغة اللاتينية، فيتصور أن بوالو لو سمع الألفاظ المفحشة التي يتبادلها المارة في طرقات القاهرة لأيقن بتفوق العربية على اللاتينية في هذا المضمار. كما يلفت انتباهه أن المرء في غير حاجة إلى ترجمان كي يفهم المصريين، فهم يكشفون عما يريدون من خلال إيماءات جليّة التعبير. على أن الدهشة والإعجاب تمسك بجميع جوارحه ساعة يقف فجر يوم فوق قمة الهرم فيقول: «إنني أتحدّى أي إنسان يمكنه أن يصوّر ما أراه ولو في عبارة موجزة، فكل ما يستطيعه المرء في مثل موقعي هذا هو أن يضمّ معطفه حول جسده ويطبّق فمه صامتا أمام هذه الروعة المذهلة... ذلك



هو كل ما يمكن قوله . ويدفعه هذا الانبهار إلى أن يكتب لأمه قائلا : «حقا إن الشرق يبدأ من القاهرة» .

غير أن قراءته لرواية هيرودوت بأن الهرم الأصغر - هرم منكاورع - قد شُيّد عن أمر غانية يونانية تدعى رودوبيس أنفقت عليه من الأموال التي كان يغدق بها عليها عشاقها جعلته يؤثر أن يطلق اسم رودوبيس على هذا الهرم . ولا شك أن تصديق فلوبيير لهذه الرواية الملققة يرجع إلى شهوانيته المعروفة وولعه المأثور بالعاهرات القدامى منهن والعصريات ، حتى إنه لم يحسّ الخجل من الاعتراف بهيامه هذا وهو يقول : «قد أكون شاذ الذوق ، ولكنني على أية حال أحبّ الدعارة لذاتها بغض النظر عما وراءها من متعة جسدية ، فما يكاد بصري يقع على عاهرة تخطر برائها القصير تحت ضوء المصباح والمطر يهطل حتى يخفق قلبي خفوقه لرؤية راهب في عباءته وقد شدّ وسطه بزّاره ، إذ أن ذلك يثير كوامن نفسي الدفينة . وهل هناك أغرب من المزيج الذي تتشكّل منه عناصر الدعارة وهي الشهوة والأسى وغيبة العواطف الإنسانية والسّعار الجسماني ورنين الذهب ، والتي ما يكاد المرء يتعمق في كنهها حتى يُصاب بدوار» .

وعلي نقیض وصف جیرار الملحمي لعودة المحمل الشريف يتبع فلوبيير أسلوبا يتسم بالواقعية الساخرة مبرزا ما افتقده المحمل من هيئته الأولى بعد أن أخذ موكبه يتحلّى ببعض المراسم الأوروبية : «يا للهلول ! إن الموسيقى تصدح «بالبولكا»»<sup>(٦١)</sup> وقائد الفرقة الموسيقية فوق جواده يختال بكرشه في سترة الرذنجوت الفرنسية وحذاء الفرسان الطويل العنق ، بينما يتكشف الموكب فجأة عن نوبار بك الأرمني وقد أخذ سمّت رواد الحي اللاتيني [بباريس] . ثم يتدفّق الباشوات الأتراك الذين يتجلّى اقتقارهم للذوق السليم من ارتدائهم الأزياء العسكرية الأوروبية . وينتهي الموكب بالضباط المغلوبين على أمرهم وقد دُسّت سيقانهم في سراويل ضيقة شدّت إليها أحذية غليظة !» .

وكتب فلوبيير يصف موكب عرس مرّ أمام فندق «أوريان» الذي يعيش فيه بالقاهرة قائلا : «الطبالون فوق ظهور الحمير ، والصّبية فوق صهوات الجياد مرتدين ثيابا باذخة ، والنساء محجّبات بخمّر سوداء يطلقن الزغاريد وإن تجلّت وجوههن من وراء الخمار الأسود الشبيه بقُرص الورق الرقيق الذي ينفذ منه لاعبو السيرك . وثمة جمَل غُشيّ كله بالدنانير المذهّبة ، ومصارعان عاريا جذعين يرتديان سرواليْن قصيرين من الجلد دَهَنًا جسديهما بالزيت يؤديان حركات غريبة ، ولاعبون يتبارزون بالعصي ، وراقص يدعي حسن البليسي ارتدي ثيابا نسائية مطرزة وأسدل شعره المصفور على منكبيه وزجّج حاجبيه بالكحل وألصق في ظهر سترته دنانير مذهّبة ، وشدّ حول وسطه حزاما من تمائم ذهبية مربّعة ، وراح يدق الصّاجات بينما يتحوّى تحوّى الموج ببطنه وفخذه ، ثم يختم عرضه بانحناءة وهو في سرواله المنتفش ، وتبدو العروس تحت ظلّة حريرية حمراء تحفّ بها امرأتان نجلأويّ العيون ، وهي محجّبة الوجه بخمار أحمر معتمرة بغطاء رأس مخروطي فتبدو كتمثال لُفّ بلفائف قد أثقلتها فلا تستطيع السير»<sup>(٦٢)</sup> .

(٦١) Polka رقصة اشتق اسمها من التشيكية Pulka بمعنى نصف خطوة ، ظهرت في بوهيميا في ثلاثينات القرن ١٨ ثم انتشرت في باريس ولندن في عام ١٨٤٠ م. م. م. ث. ]

(٦٢) Gustave Flaubert in Egypt. A sensibility on Tour. Translated and edited by Francis Steegmuller. Boston Little Brown Co. 1973

وفي زيارات فلوبيير ومكسيم إلى أفراد الجالية الأجنبية بالقاهرة التقيا بالعديد من الشخصيات البارزة وعلي الأخص أتباع سان سيمون من المهندسين الذين تدين لهم مصر كما قدمت بالكثير في تخطيط مشروعاتها العمرانية الكبرى وتأسيس معاهدها الفنية العسكرية المتخصصة . وكان بين الذين التقيا بهم أيضا شارل لامبير بك ذو النظرة الوادعة والمظهر الشرقي ، تُحرّك أصابعه حبات المسبحة وهو يدعو إلى نظرية الفن المقصود للمنفعة والفن الخالص للروحانية ، فينحاز مكسيم إلى مذهب لامبير بينما يظلّ فلوبيير على إيمانه برسالة الفن للفن<sup>(٦٣)</sup> غير مرتبط بوظيفة اجتماعية أو دينية . وقد أشار عليهما لامبير الذي لمس جدّيتهما بالتتلمذ على شاب مثقف هو خليل أفندي الذي درس الهندسة والقانون بباريس وصناعة نسج الحرير بليون ، لكنه عُيّن بعد عودته من فرنسا رئيسا لمجلدي مكتبة الأزهر ، فرفض المنصب البعيد كل البعد عن مؤهلاته وهو ما أوغر صدر الباشا عليه وشرّده ، فمضي يطوف على طوارات القاهرة بحثا عن عمل . وقد أخذ فلوبيير ومكسيم يتلقّيان على يديه دروسا يومية لمدة أربع ساعات لقاء ثلاث فرنكات في الساعة . وخرج مكسيم من هذه الدروس بمخطوطة كتاب من ثلاث وستين صفحة بيعت بالمزاد عام ١٩٣١ عن العادات الإسلامية وشؤون الولادة واختان والزواج والحج وشعائر الموت ، على حين اتجهت نيّة فلوبيير إلى استخدام فحوى هذه الدروس مادة لقصة شرقية لم يكتب لها الظهور .

وقد شدّ فلوبيير نغم موال من المواويل المصرية فيه ببطء الإيقاع ودقة الأداء ، فاندفق ينظم قصيدة على نمطه وما كان قد نظم الشعر عمره ، سخر فيها من شغف صديقه مكسيم بالتصوير الفوتوغرافي واختلق فيها قصة لفتاة قاهرية ثرية فتنها مكسيم بألة تصويره الغريبة وحاشيته التي التفت من حوله تأتمر بأمره ، وما كانت الفتاة تعرف شيئا عنه فحاولت أن تحدّس من يكون متممة :

«ما أقساه من خوف يُمسك بي خلف أسوار الحرم .

عن بُعد ، المُحكّ من فرجات المشريّة .

فتبدو لي حيناً وكأن رأسك تغلّله غلالة سوداء

قد انفصل عن عنقك ،

فيأخذني الذعر .

لكن ما أسرع ما تردّ إلى روحي ،

حين أراك وقد بُعثت ثانية للحياة ،

سامقا مثل النخلة ،

تغمس أصابعك في سائل لا أدري كنهه .

وما أكثر رؤيتي إياك تصرّ على أسنانك

وأنت تغدو برفقة تابعك إلى الخيمة .

فأتساءل من أنت ؟

من أي قبيلة ؟

وفي ظل أية خيمة وُلدت ؟

أنت يا مَنْ تجد طوع يدك خادماً يقرأ ويكتب .

(٦٣) الفن للفن هو شعار النزعة الجمالية التي سادت الأدب الفرنسي في أواسط القرن ١٩ والأدب الإنجليزي في أواخره . وتذهب إلى أن الاعتبارات الجمالية تسبق الاعتبارات الأخلاقية .



تتحرك وكأنك الرصاصة المنطلقة من البندقية،

أو السهم المقذوف من القوس،

أو الخدأة المتقضّة،

أو الغضبة الخاطفة في أعقاب الإهانة.

متأبطاً جرماً مربّعاً يغشيه غطاء أسود (٦٤).

Soad Abdel- Meguid: (٦٤)  
Aperçu Sur la vie et  
l'oeuvre de Maxime du  
Camp 1822- 1894. Rennes  
1951.

والحق إنهما كانا مختلفي المشارب، إذ كان مكسيم مجلداً مثابراً أتى إلى مصر معتزماً إنجاز عمل ضخم عنها يخلد به اسمه. وكان قد أحسن إعداد رحلته عن دراسة جادة وعن دراية واسعة بمكتشفات بلزوني ولپسيوس وشمپوليون وولكنسون وپريس داقن، يؤجج هذا كله ولعه بالتاريخ والآثار والحفائر والمعابد والأساطير العربية. اسمع إليه يحدث عن نفسه:

«وُلدتُ نشطاً ضامراً هاتماً بالترحال

قدمي كقدم البدوى صلبة عنيدة

وشعري كشعر الزنجي جعد قصير

لا تملك أشعة الشمس أن تنهك عيني مهما توهّجت.

أعشق الشرق والنور

والنسور الكواسر المحلّقة في السموات

أسعي إلى الأوطان العريقة

التي عشت فيها بروحي قبل أن يولد جسدي!

وعلي حين كان مكسيم على هذا النمط كان فلوبيير خيالياً جنسيا مغامراً ذا نزوات، مريضاً ينشد الاستشفاء والسلوان. وعلي الرغم من ذلك لم تخل رسائله من بعض التأمّلات الجادة في المجال السياسي، حتى لقد تنبأ في إحدى رسائله باحتلال إنجلترا لمصر حيث يقول: «يخيّل إلى أنه قد بات من المستحيل ألا تُقدّم إنجلترا على احتلال مصر بعد أن حشدت العديد من جنودها في عدن، ولو أنها حرّكت عدداً منهم إلى السويس لاندفعوا في ستراتهم اخمراء زحفاً على القاهرة في يسر وسهولة. واعتقد أننا سنفاجأ ذات صباح خلال أسبوعين بنبا احتلالهم لمصر. تذكر نبؤتي فإنني أتوقع مع أول بادرة اضطراب في أوروبا أن تحتل إنجلترا مصر كما تحتل روسيا القسطنطينية بينما يتهدّدنا نحن الاغتيال بين جبال سوريا. وليس في مصر قوة يمكن أن تصدّ جيشاً غازياً، حتى إن عشرة آلاف جندي أوروبي تكفي لاحتلال هذا البلد الذي سرعان ما سينقلب موظفوه الأوروبيون على الحكومة التي يكتّون لها الاحتقار، في حين أن المصريين الذين اعتادوا الصمت لن يحرّكوا ساكننا مهما اختلفت أسماء من يحكمونهم لأنهم يثقون أنهم لا يجنون شيئاً كما أنه ليس لديهم ما يخسرونه. ولم يكن عباس باشا فيما أرى وكما أحب أن أهمس لك به في أذنك إلا غيباً أبله وكأن به مساً، فهو أعجز ما يكون عن فهم أي شيء أو عمل أي شيء، ثم هو لا يكفّ عن هدم كل ما شيده محمد علي. وقد استشرى الفساد هنا وباتت الخسّة والجبن يدعوان إلى الغثيان، بل إن كثرة من الأوروبيين هنا قد باتت أشدّ شرقية من الشرقيين. وقد استرعى نظري أن أضرحه أسرة محمد

على كلها على ذوق سقيم هو خليط بين الذوق الشرقي والذوق الأوروبي، فنجد فيها ملامح من طراز الروكوكو<sup>(٦٥)</sup> ومن أسلوب الفنان كانوفا<sup>(٦٦)</sup>، وجاء طلاؤها وزخارفها على غمط يُشعر الرائي بأنها ملاء ليلية تضاء كما تضاء قاعات الرقص»<sup>(٦٧)</sup>.

وفي شهر فبراير استقل مكسيم وفلوبيير المركب الشراعية التي انطلقت بهما على أنغام الناي والدربكة إلى الصعيد. ويذكر مكسيم أن الرحلة كانت تفيض بهجة ومرحاً على عكس ما كان يشعر به فلوبيير. وبعد أن اتخذوا مرقديهما في القارب استسلما لنعاس أفضت البراغيث معه مضجعيهما، كما يقول فلوبيير. وبعد يومين من مسيرتهما هبّت رياح الخماسين فأخذت حبّات الرمال تندسّ بين أسنانهما وتعشّش في عيونهما وتغبّر وجهيهما إلى الحد الذي تعذّر معه تمييز ملامح أحدهما عن الآخر، وأخذت القوارب من حولهما تدور حول نفسها كما غدت الشمس قرصاً ملتهباً. على أن مكسيم قد رسم صورة أشدّ دقة حين قال «إن الغبار قد حجب أشعة الشمس فبدت كالقرص المغبر». وهكذا نلمس الفارق لا بين تلقائية التعبير لحظة المشاهدة وبين وصف المشهد بعد فترة من وقوعه فحسب، بل وكذلك بين عاطفتين مختلفتي الحساسية والطبع، فعلي حين كان فلوبيير أدبياً مطبوعاً كان مكسيم أدبياً دارساً، وبينما حساسية فلوبيير هي حساسية الروائي الذي يفيد من الرحلة كي يبعث في أسلوبه الحياة مستغلاً الأحداث التي تقع أثناء رحلته في روايته دون أن يسوقها في صورة سردية بحتة، كانت حساسية مكسيم حساسية المخبر الصحفي البارِع. فما يكاد يصل إلى قرية الشيخ عبادة [أتينوبوليس]- التي شيّدها هادريانوس بعد أن أغرق صفيّه أتينوس نفسه في النيل فنصبه الإمبراطور إلهاً على المدينة وحشدها بالمعابد التي تحرق البخور في ذكراه- حتى يروي لنا مكسيم أن هذه المدينة كانت ما تزال قائمة حتى عشرين سنة قبل وصوله عندما رأى إبراهيم باشا أن يقيم مصنعاً لتكرير السكر إلى جوار جزيرة الروضة فهدم المباني الرومانية الجميلة وشيّد من أحجارها مصنعاً الدميم. وهبطاً أسبوط ملتحق القوافل الوافدة من دارفور التي تصل منهكة إثر الرحلة الشاقة بسوقون العبيد الذين جفّت حلوقهم عطشاً، ويتوقفون أياماً في الحجر الصحي حيث يقوم النخاسون «الجلابة» بخصي الغلمان الزوج لإعدادهم للخدمة في مخادع الخريم.

وكان محمد علي قد أصدر فرماناً عام ١٨٣٤ بطرد العاهرات من العاصمة وتهجيرهن إلى إسنا وقنا وأسوان. وحين وصلا إلى إسنا خطر لهما زيارة كوتشوك هانم [الأميرة الصغيرة]، وهي التي اشتهرت في دنيا الأدب بعد أن روى فلوبيير قصتها في يومياته وفي رسالة له إلى صديقه لوي بوييه، كما رواها مكسيم في كتابه «النيل». وكانت كوتشوك هانم من السيدات المرموقات التي يتوق لرؤيتها الرخالة والسائحون الذين كانوا يسعون إليها لهفين. وهي سورية الأصل وافدة من دمشق، وكانت في مبدأ الأمر عشيقة عباس باشا حين كان محافظاً للقاهرة، حتى إذا اكتشف خيانتها له هجرها بعد أن أشبعها ضرباً بالسياط، وقيل إن سليمان باشا الفرنساوي قد آواها طرفه حيناً إذا صدّقنا ما جاء في قصة «زفيران كاظافان في مصر» لشارل إدمون، غير أن الشيء المؤكد أنها قد نُقيت إلى إسنا بعد أن تولّى عباس باشا حكم مصر. وكانت لياليها في دارها عامرة بالرقص والموسيقى مفتوحة الأبواب لمن يفد إليها من الزوّار الأوروبيين الذين لم ييخلوا عليها بالمال الوفير. ويروي فلوبيير لحظة وصولهما إلى دارها بعد أن قادتهما إليه وصيفتها «بمّبه» فوجداها في انتظارهما: «وبين يديها كبش قد طلى بالحناء الصفراء وعلي فمه كمّامة من المخمل الأسود يتبعها

(٦٥) Rococo اتجاه فني شاع في أوروبا خلال الفترة من حوالي ١٧٣٠ إلى حوالي ١٧٨٠ يتميز بالزخارف ذات الخطوط اللولبية المنحنية والمحاكية لأشكال القواقع أو الموحية بأشكال الكهوف والمغارات لاسيما في إنجاز الأثاث والزخرفة المنزلية الداخلية. وهو فن أرسنقراطي فيه إفراط في الشغف بالأناقة أسلوباً وموضوعاً [م.م.م.ث]

(٦٦) Canova أنطونيو كانوفا (١٧٥٧ - ١٨٢٢) مثّال إيطالي استدعاه نابليون بونابرت إلى باريس هو وغيره ليقم عدداً من المنحوتات والتماثيل، ليثبت أن الإمبراطورية الفرنسية تتسع للفنانين جميعاً من كل الأقطار كما كانت الحال في روما القديمة. ويعدّ كانوفاً أهم من عبّر عن الحركة الكلاسيكية المنحدثة Neo-classicism [م.م.م.ث]

(٦٧) J.M. Carré: **Voya-geurs et écrivains Français en Egypte.**



أُتي سارت كالكلب الأمين . وكانت خارجة لتوها من الحمام بنهدين بارزين ، وعلي رأسها طربوش قمته ذهبية مستمة تتوسطها زمردة خضراء . وتدلت خيوط زرّ طربوشها فوق منكبيها العريضين فإذا هي تبدو وكأنها مروحة . وانسدلت على جبينها خصائل من شعرها الأسود المفروق وسط رأسها بينما تدلت بعض صفائره على عنقها والبعض الآخر وراء ظهرها ، وقد ارتدت سروالا ورديا فضفاضا يغطي ساقها إلى قدميها . ويكاد المرء يستشفّ لون جذعها وراء هذا النسيج الشفاف البنفسجي الذي اتشحت به . وكانت تحمل في إحدى يديها باقة من الزهور الصناعية البيضاء ، ويزين أحد معصميهما صفان متداخلان من الأساور الذهبية ، كما تدلى من عنقها عقد من صفوف ثلاثة من الخرزات الذهبية الكبيرة ، وتحلّت أذنها بقرط على شكل قرص ذهبي تحيط بحافاته حبيبات من الذهب ، وقد وشمّت ذراعها الأيمن بوشم أزرق . استقبلتنا واقفة على أعلى الدرج في كبرياء الملكات لولا ما تفيض به من حنان دافق ، وبدت وسط زرقة السماء الصافية المحيطة بالشمس وقد مالت إلى الغروب مكتنزة ناهدة الثديين المكورين تكويرة تفاحتين ، بعينين سوداوين نجلاوين وحاجبين داكنين . وحين بلغنا الطابق الأول عطّرت أكفنا بماء الورد بينما كان فمها يفوح برائحة زكية . واستدّرتنا إلى اليسار عند نهاية الدرج لنلج حجرة مربعة مطلية بطلاء أبيض حيث وجدنا أريكتين ونافتين تطلّ إحدهما على الجبل والأخرى على المدينة . وكانت كوتشوك هانم امرأة فارعة الطول لطيفة القسمات ، أقل من المصريات سمرة ، كلما مالت يمينه أو يسرة بدت منها تثنّيات جسدها تتموّج تموّج التلال البرونزية . وحين سألتنا إن كنا نبغي الترويح عن أنفسنا بادر ماكس معربا عن بغيته في الترويح عن نفسه بالانفراد بها ، فهبطا إلى الطابق الأرضي صوب غرفة بها عنجريب تعلوه حشية ، ثم أخذت دوري بعده . . . وعندما حان موعد الرقص طلع علينا موسيقيان : طفل وشيخ يغطي عينه اليسرى بخرقه وأخذا يعزفان على ربابتين . والربابة نوع من الكمان المستدير القاعدة ذى ساق معدنية ترتكز على الركبة ، وهي ذات وترين من شعر الخيل غير أن عنقها طويل إذا قيس إلى سائرهما ، وليس ثمة ما هو أشدّ نشازا من نغمات هذه الآلة . وكان الموسيقيان لا يكفّان عن العزف إلا إذا نهزتهما كوتشوك هانم التي ما تلبث أن تشرع هي وزميلتها بمبه في رقص بدائي وقد دسّت ثدييهما العاريين بين طيّات صدرتيهما وشدّت وسطهما بحزام بنّي مقصّب تدلّي منه الشرابات . وكانت وهي ترقص تنهض واقفة على قدم واحدة ثم تبادل بها الأخرى في حركة بارعة ووثبة رشيقة ، ما تكاد تثبت قدم على الأرض حتى ترتفع الأخرى أمام الساق الأولى ، ولقد سبق لي أن شاهدت مثل هذه الرقصة مصوّرة على الأواني الإغريقية القديمة . وعلي أية حال فإن رقصهما كان دون رقص حسن البليسي الراقص المعروف في القاهرة ، وليس هذا بغريب فالمثل الدارج يقول إن رقص الجميلات كثيرا ما تنقصه الإجابة . أما ما أذهلني حقا فهو أنه ما كادت كوتشوك هانم تخلع ثيابها لأداء رقصتها حتى انبرى بعض الحاضرين يلقون طيّات عمامتي الموسيقيين حول عيونهم كي لا يقع بصرهما عليها عارية استمسكا بذيل الحياء الهارب من عالم لا مكان له فيه . وأخذت كوتشوك هانم الدربكة وأودعتها في حجرها لتضرب عليها بيديها ، وأقبل الجميع على العرق المقدّم إليهم منا يحسنونه . وسرعان ما هبت كوتشوك هانم ناهضة وخطفت طربوشي ووضعت فوق رأسها بعد أن أثار منظر رأسيها الخليقين ضحكاتها ، ثم انخرطت في رقصة «النحلة» المثيرة التي لم تبلغ منا موضع الإعجاب . ولقد قبلت كوتشوك هانم على مضض مبيتنا عندها إذ كانت تحسب حساب اللصوص الطامعين دائما فيما يملكه الأجانب . وكان ثمة حراس أو إن شئت فسمهم قوادين ، كانوا قد أسلموا أنفسهم

إلى النعاس على الرغم من عصا كوتشوك هانم التي كانت تتناوبهم بها ضربا . وقد أمضيت الليل معها فتناجينا كثيرا متضاغطين بالأيدي حين كانت تتعذر بيننا لغة الكلام . وكم حنوت عليها فدثرتها بمعطفي ساعة يتناوبها السعال . . وبعد أن أنهكتنا المتعة استلقت نائمة بين أحضانها وقد أسندت رأسها على ذراعي واشتكت أصابعها بأصابعي ، غير أنني لم أستسلم مثلها للنوم إلا بعد فترة طويلة شغلت فيها بالتطلع إلى هذا الوجه الصبوح وهو يغطّ في نومه والشخير يخرج مع أنفاسها في الفينة بعد الفينة . وكم راودني ما وقع لهؤلوفرنيش وهو بين أحضان جوديث في ليلته الأخيرة حين انتهزت فرصة نومه فحزّت عنقه لتقدّمها إلى قومها من بني إسرائيل . كان ليلتي حلم يقطعه عميقا طويلا شاقا بلا نهاية ، كنت خلاله أنعم النظر في جمالها الأنثوي وأستعيد صور رقصها وصوت غنائها الذي لم ألتقط منه لفظا ولا ظفرت له بمعنى حتى أخرجتني إلى الطريق حاجة لا تقاوم إلى التبول فقضيتها تحت زرقة سماء متألفة بالنجوم . وحين أشرق علينا الصباح ودّعتها وداعا تشوبه اللوعة . إن غرور الرجل لا يبلغ مداه حقا إلا إذا أحسنّ أن الفراق قد خلف وراءه أطيب الذكريات وأن شريكته لن تزال عالقة الذهن به تفكر فيه أكثر مما تفكر في غيره وأنه سيظل في وجدانها حيا «(٦٧)» .

ولا ريب أن كوتشوك هانم كانت «النموذج الأصلي» الذي شكّل فلوبيير على غرازه الشخوص النسائية الشرقية في رواياته مثل سالامبو وسالومي بشبقها العارم ورقتها الأسرة . فلقد أثارت المرأة الشرقية تأملات فلوبيير بنفسها الوداعة ووجدانها القانع ، وبما أتاحته له من أن يغرق في أحلامه وأوهامه وهو إلى جوارها مضطجع ، فهي في كنهها أنثى لا ينقطع عطاؤها وإن لم تفصح بالحديث عما في نفسها . ويجعل إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» من علاقة فلوبيير بكوتشوك هانم نموذجاً للعلاقة بين الغرب والشرق فيقول : «هي دائما علاقة القوي المسيطر بالضعيف المغلوب على أمره وفقاً للمفهوم السائد بين الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر ، وهي علاقة سيّد بمسود ليست ثمة مساواة بينهما ، فقد أشاع فلوبيير في أوروبا بعد لقائه بالغانية المصرية نموذجاً صارخاً لامرأة شرقية لم يتح لها التعبير عن مشاعرها أو الإفصاح عن شخصيتها أو التحدث عن ماضيها وحاضرها ، بل إن فلوبيير هو الذي تحدث عنها من موقع السيطرة والهيمنة بوصفه رجلاً أوروبياً ميسور الحال . ولم يكن مركز القوة الذي استمتع به فلوبيير إزاء كوتشوك هانم مجرد لحظات عابرة بل كان تعبيراً عن المفهوم الشائع في علاقة القوة النسبية بين الغرب والشرق ، وعن الأسلوب الذي يتناول به كلّ غربي كل ما هو شرقي» (٦٨) .

E. Said: Orientalism (٦٨)

أقلع فلوبيير ومكسيم برفقة ريح طيبة موائمة حتى بلغا وادي حلفا ، ومن هناك استهلاً زيارة معابد النوبة بالتوقف عند معبد أبو سمبل الذي غطّت الرمال مدخله ، فعكفا بمعاونة الملاحين على إزاحتها حتى كشفوا وجه تمثال رمسيس إلى أسفل ذقنه كي يستطيع مكسيم التقاط بعض الصور الفوتوغرافية ، ولم يتركا معبدًا إلا زاراه حتى بلغا أسوان ومنها واصلا رحلتيهما إلى إدفو التي سجل فلوبيير في يومياته : «أن معبدها كان مَبُولَةً عامة لسكان القرية جميعا» (٦٧) .

وفي إسنا التقى فلوبيير من جديد بكوتشوك هانم ، وروي أنه وجدها منهكة إثر مرض ألمّ بها ، وبالرغم من ذلك أدّت رقصتها أمامه . غير أن هذه الزيارة قد خلّفت في نفس فلوبيير «حزنا بلا حدود» وقد أدرك «أنه لن يراها مرة أخرى ، وشيئا فشيئا استتلاشى قسماتها من ذاكرته» . وكتب مكسيم في «ذكريات أدبية» معلقاً على زيارة طيبة أن فلوبيير قد وقف مذهولا أمام روعة



معابد الأقصر والكرنك والمقابر ذات التصاوير الجدارية ومعابد مدينة هابو والرامسيوم، غير أنه يعود فيسجل بمذكراته أن فلوبيير لم يكن يتدفق حماسة مثله، بل كان ساكنا منكفئا على نفسه تبدو له المعابد دائما متماثلة والمناظر مترافقة والمساجد متشابهة، وأنهما ما كادا يصلان إلى معبد فيه حتى أوى فلوبيير إلى ركن ظليل بأحد أبهاء المعبد لمطالعة إحدى الروايات. ثم لا يلبث مكسيم بعد ظهور رواية «سالامبو» لفلوبيير أن يبدي دهشته من قدرة الأخير على تسجيل تفاصيل انطباعات الرحلة التي كان يبدو عليه أنه يضيق بها، وبعد ذلك ظاهرة فريدة، فيصف فلوبيير بأنه «علي غرار بلزك، لا يرى شيئا ولكنه يتذكر كل شيء».

وفي هذا الاعتراف دليل على أن نوبات الاكتئاب التي كانت تصيب فلوبيير بين أونة وأخرى، وحينه الجارف إلى الوطن، وضيقه بقياس المعابد بشرط القياس، وبرمه بمحاولات التصوير الفوتوغرافي قد ضللت مكسيم. وفي الحق إن رسائل فلوبيير ويومياته لا تخلو من وصف لهذه الآثار وللطبيعة المصرية من حولها التي كان لا يعنيه منها إلا أن يثبت ما قرأ في خلدته عنها فيقول على سبيل المثال: «ينبسط السهل الفسيح خلف الأقصر في اتجاه الكرنك وكأنه المحيط، على حين يسطع «بيت فرنسا» [الذي أهده محمد علي لعلماء الآثار المصرية] بياضه تحت ضوء القمر مثل قمصاننا النوبية... هذا الضوء المنساب الذي ينفذ إلى أعماق الخليقة حيث نواة الكون. الطقس دافئ والسماء تتألق بالنجوم التي تبدو الليلة وكأنها أهلة أو حبات عقود من الماس تناثرت هنا وهناك. ألا ما أفقرها لغة تلك التي تشبه النجوم بالماس! ».

وحين يصف معبد الأقصر يقول: «ما أشبه فضلات الطير التي تلتخ المباني في مصر بالطحالب التي تغشي مباني أوروبا. فهذه وتلك مظهر لاحتجاج الطبيعة على ما يشيده الإنسان من مبان». وحين يعرض فلوبيير للمسئلة التي تقوم الآن في باريس وحيدة بينما كانت من قبل قائمة أمام البوابة اليمني للمعبد يقول: «ما أشده أسي ذلك الذي تعانیه المسلة وهي فريدة هنا في ميدان الكونكوردي نائية عن منبتها وموطنها، فكم تحن إلى نيلها. ثري ماذا يجول في خلدتها وهي تنظر إلى العربات تروح وتغدو بين يديها بدلا من تلك العجلات الفرعونية التي كانت تمضي تحت قدميها في الأزمان الغابرة بعد أن ظلت ثلاث آلاف من السنين تقوم إلى جوار زميلتها؟». ويعبر مكسيم عن نفس المعني في كتابه «النيل» بقوله: «وتبقي مسلة الأقصر وحيدة تحت الشمس الحارقة تتوق إلى أختها الغائبة».

وأغلب الظن أن مثل هذه التعقيبات هي التي أوحى لثيوفيل جوتيه أن ينظم قصيدة «الحنين بين مسلتين» التي سنعرض لها بعد قليل.

وخلال رحلة العودة التقط مكسيم معظم صور المعابد، فكان أول تسجيل فوتوغرافي للآثار المصرية قبل أن تزاح عنها الرمال فيما بعد خلال القرن التاسع عشر. ويعترف فلوبيير: «بأن تلك اللقطات تنتظم مجموعة من الصور المتخيرة، وقد استحق مكسيم على إعدادها وسام جوقة الشرف، ومن يدري، فلعله كان يمضي في هذا السبيل على نهج أقربائه إذ كان خاله زوجا لابنة شموليون». وعن الأقصر يروي مكسيم في كتابه «النيل» كيف يعلّق التجار الذين يطفقون الكيل والميزان من أذانهم فيحاولون بينا يثنون الوقوف على أطراف أصابع أقدامهم لتخفيف آلامهم المبرحة. ويؤمن مكسيم بجدوى هذه العقوبة فيما لو استعارها الغربيون من الشرقيين الذين تبدو أساليبهم أحيانا أشد حكمة من أساليب أهل أوروبا. ويسجل مكسيم تفاصيل هذه الواقعة حين يحكم

القاضي على تاجر بأن يُعرض على باب دكانه عبرة للجماهير، فيقوده شرطيان إلى مكانه من السوق، ويوقفانه فوق قلابي طوب وبعد أن يربط أحدى أذنيه في الجدار يسحبان القالبين من تحت قدميه ثم يجلسان إلى جواره يدخنان الترجيل حتى يحولاً بينه وبين أن يهب أحد لمساعدته. ويسوق مكسيم الحوار الذي كان كثيرا ما يدور بين الشرطي والمذنب حيث يفيض الشرطي في سب التاجر الذي يشكو للشرطي عذابه ويقسم له على براءته، ويستنجد بمروءته كي يخفف عنه ما يثقل عليه من ألم لم يعد يقوى على تحمله، ويتوسل إليه أن يضع ولو قالباً تحت قدميه. غير أن الشرطي يفصح عن سماته به ويتمنى لو تطول أذنه حتى تبلغ الأرض فتشهد يوم الحساب على غشه. وأخيرا يلجأ التاجر المعذب إلى رشوة يغري بها الحارس، لكن الحارس لا يلين قلبه بالقليل من القروش حتى إذا ما علا التاجر بما يوازي ما يطلب نهض الشرطي ليتسلم ما عرض عليه ويضع تحت قدمي التاجر القالبين ليخفف بذلك عنه بعض ما يكابد. ولكن ما إن يلمح الشرطي أحد البكوات أو الباشوات قادمين حتى يسرع بسحب القالبين، ويظل المسكين معلقاً حتى تختفي الشخصية ذات الشأن من أمامهما.

ويعتقد مكسيم أنه على الرغم من وحشية الجزاء إلا أنه عقاب جدير بالتطبيق على فرّاني فرنسا فأثّر أوقع من القوانين الفرنسية المطبقة. ثم يستطرد ليقول إنه لو قُدّر له أن يرأس شرطة باريس، لأمر بين أن وآخر بتطبيق هذه العقوبة دون مبالاة بصياح المحتجين. والغريب أن فرّاني باريس لم يكتفوا أبدا بنار هذا العقاب على يد مكسيم دوكان حين أصبحت شرطة باريس تأتمر بأوامره.

وكان مما رآه فلوبيير غريبا في الفن المصري تلك الصور الجدارية بمقابر الأشراف التي تسجل مشاهد الحياة اليومية في مجالات الزراعة والتجارة والموسيقى والرقص، على أنه نحا نحواً شاذاً في تفسيرها بما أضفاه من الغزل المكشوف على تصاوير المجتمع العائلي التي تصور في الحقيقة ما بين الرجال والنساء من ودّ وألفة وهم ملتفون حول موائد الطعام، فأسبغ على حركة الألسنة بالكلام وعلي المداعبات البريئة إحياءات جنسية بذينة نابعة من عشقة المنهوم للإباحية على العكس مما قصده الفنان المصري، ورمي عازفات القيثارات البريئات بشياهن الشفافة الجميلة بالفسق والخلاعة إشباعاً لنهمه الشخصي بالجنس، مؤمناً أن الصور الماجنة كانت سابقة في الظهور على العصر الذي عاش فيه بالآلاف السنين، حتى لقد ذكرته على حد قوله بتصاوير الفنان الفرنسي أشيل ديشريا عن بيوت الدعارة المنتشرة في باريس عام ١٨٢٩، وإذا هو يكتب إلى صديقه بويه معلقاً: «تحدوني هذه التصاوير إلى الاعتقاد بأنها تكاد تكون معاصرة لنا، وبأن [العازل المطاط] كان شائع الاستعمال حتى في عهد سيزوستريس [سنوسرت]!»، على حين لم تكن هؤلاء الفتيات اللاتي وصمهن بأنهن «بغايا» إلا مجموعات من الجوّاري والراقصات وحاملات القرايين. وقد وقع فلوبيير في هذا الخطأ الفادح لأنه لم يتعمق صور هؤلاء الفتيات فيدرسها دراسة دقيقة، كما أنه قد غاب عنه أن الإلهات كن يُصورن بدورهن في ثياب شفافة كان مقصوداً أن تكشف تفاصيل أجسادهن اللاتي كانت النظرة إليها تحمل معنى التقديس والتزويه. ولا شك في أنه قد شاهد الإلهة حتحور برداء شفاف يكشف عن أجزاء جسمها في المجموعة النحتية المعروفة باسم ثالث الملك منكاورع من الأسرة الرابعة، كما لا شك في أنه شاهد أيضاً عري عورة الإله «من» إله الإخصاب والإكثار مع مدى ما يحظى به من التبجيل والتقديس. وأغلب الظن أن فلوبيير لم يقع في هذا الخطأ عن نية حسنة بل كان يتبع سنته في رؤية الانحلال حيث لا يوجد وتجميع المشاهد الإباحية التي تثير الاستنكار، فإذا لم يجدها في الواقع اختلقها وأبدعها بخياله الرهيب. والأمر الشديد الغرابة هو أن البحث الدقيق لم يكشف حتى



اليوم عن وجود تلك الصورة التي وصفها فلوبيير تفصيلاً لصديقه، ونستطيع الجزم بأنه لا أثر لها في أية مقبرة فرعونية، وأن كل ما كتبه فلوبيير عنها ليست إلا أوهام فنان متيم بالعهر والعاهرات على حد اعترافه الشخصي كما قدمت، تخيلها بعينيهِ الزائعتين ثم خطها وهو في غيبوبة إثر سقوطه في دن من النيذ الردى، أو تعرضه لنوبة هلوسة بعد أن أفرط في شد أنفاس قاصمة من الدخان الأزرق.

وكم دهش فلوبيير حين رأى في سراديب تلك المقابر أسراً معها أطفالها العراة ودواجنهم، وقد اتخذ بعضهم من أخشاب التوابيت المنقوشة أبواباً لمأواهم. ومع أن فلوبيير قد خال أن معبد الكرنك ليس إلا مجموعة من الأعمدة والتماثيل لا نظام لها إلا أنه على هذا كان يعدّه أجمل المباني وأعظمها. ولقد حزن الحزن كله وهو يغادره، وكم ساءل نفسه عن مصدر هذا الحزن الذي أحسه. وحين نظر إلى السماء خيل إليه أن نجومها تزيد على نجوم فرنسا حجماً، وكتب لصديقه لوي بوييه قائلاً: «قضيت الليل عند أقدام تماثلي ممنون. ألا ما أجمل وجه ذلك الوغد العجوز الذي تكاثرت النقوش على جسده، فهذه النقوش وعليها فضلات الطير هما الدليل الوحيد على نبض هذه الأطلال بالحياة. فلا تنبت على أشد تلك الأحجار تأكلاً أية عشبة خضراء إذ أنها مهترئة لا تكاد تُمس حتى تنفتت متساقطة كما يحدث عند مس المومياء العتيقة فلا يبق لها أثر... وما أكثر ما تصادفك مسألة شاهقة مستقيمة تكسوها طبقة بيضاء من روث الصقور والحدآت يزداد سمكها كلما هبطت صوب القاعدة. وهي في تصوّري أثر فني لافت للنظر، بل إنني أكتشف له رمزية غريبة تشير إلى أن ربة الطبيعة قد غضبت على آثار مصر التي ترفض أحجارها مدّ الطحالب بالغذاء فسَلطت عليها الحدآت لتلطّخ بزبلها بعض مجدها القديم».

ولقد أمضي فلوبيير ومكسيم في رحلتهم من قنا إلى القصير والعودة أياماً تسعة صادفاً خلالها حراً لافحا وطقساً خماسينياً منهكاً، ونضب منهما الماء مما أثار برم فلوبيير فإذا هو يغاضب رفيق رحلته. على أن فلوبيير ما كاد يدرك ميناء القصير حتى رمى بنفسه إلى البحر من شدة القئظ وهو يقول: «ما أمتع ما أحسست به حين أصبحت في أحضان الماء فاسترخيت وكأني أرقد فوق آلاف النهود الزجاجية التي تدغدغ جسدي». واستغرقت رحلتهم إلى الصعيد ثلاثة أشهر كانت لمكسيم وليمة حافلة التقط لها العديد من الصور الفوتوغرافية، كما كتب فلوبيير إلى صديقه بوييه فيما بعد من استنبول يقول: «كم أتحرق شوقاً إلى العودة إلى مصر فأبحر في النيل إلى إسنا حتى ألتقي بكوتشوك هانم، فلأزلت أذكر الليلة التي قضيتها بين أحضانها، فهي من الليالي التي لا تُنسى، استمتعت بها حتى الثمالة».

غير أن الصديقين ما لبثا بعد رحلة الصعيد أن انفصمت عرى الرابطة بينهما، فكتب فلوبيير إلى لوييز كولييه بعد عودتهما إلى فرنسا معقّباً على كتاب «النيل» الذي كان مكسيم قد بدأ بنشره تباعاً في مجلته التي يصدرها «ريثوده پاري»: «بدأ صاحبنا ماكس نشر كتاب رحلته «النيل» على غرار «الراين» لفكتور هيجو. وما أشد عجبني لما ينطوي عليه من تفاهة صيغت بأسلوب فيه من السطحية ما يجعله أسوأ من روايته الأخيرة، فلقد اختفى المضمون في ثنايا سرده لتلك التفاصيل التي رآها والتي تصف الطبيعة التي شاهدها. وأنت يا من قرأت مذكراتي ستروك هذه الحقيقة. تُرى إلى أية هاوية انحدر مكسيم؟».

وكانت لوييز كولييه قد قرأت بالفعل مذكرات فلوبيير كما قرأت قصيدة نظمها لوي بوييه عن كوتشوك هانم استوحاها من رسالة فلوبيير إليه فصورها عند رحيل فلوبيير «حزينة حزن أرملة»، فكتبت بدورها غاضبة إلى فلوبيير معربة عن غيرتها من الغانية المصرية. وأجابها فلوبيير قائلاً: «لقد ألهمتنى يا ربة الفن. بما خلّفته مذكرات رحلتي في نفسك. بتأملات عجيبة تفصح عما يجيش في قلب الرجل والمرأة، وفي يقيني أنهما ليسا متشابهين مهما قبل في ذلك. أما عن كوتشوك هانم فليهدأ بالك ولتصوّب آرائك عن الشرق. فإني واثق أن العاطفة لم تجد سبيلها إلى قلبها، بل إنني أشك في أنها كانت صادقة أحس بالمتعة الجنسية، فلقد كانت تنظر إلينا نظرتها إلى الأجانب السذج الذين يجودون بسخاء. هذا كل ما أراه. أما ما سجّله بوييه في قصيدته عنها فهو ليس إلا شعراً فيه حظ من الإبداع ولا مكان فيه للحقيقة، فالمرأة الشرقية خالية القلب لا فرق عندها بين رجل وآخر، ولا هم لها إلا نرجيلة تدخنها وحمام تختلف إليه وكحل تكحل به عينيها وقهوة تحتسيها. أما عن إحساسها بالمتعة الجسدية فهذا أمر تافه بالنسبة إليها، وأكاد أعزو هذا إلى ختانها في سن مبكرة. أما ما تقولينه من أن انتشار البق في فراشها يهون من قدرها في نظرك، فعندي أنه أشد ما يجذبني إليها، فما أشد شعفي بأن أشم رائحة هذا البق مختلطة بما يفوح من جلدها من عطر الصندل. فإني اشتاق دوماً إلى أن أحس بعضاً من مرارة في كل شيء، فكم أحب أن أرى من يسخر مني مع انتصاري، وكم أحب أيضاً أن استشعر اليأس في غمرة حماسي. وإذا عدنا للحديث إلى كوتشوك هانم فإني أراني وإياك أكثر ما نكون تفكيراً فيها على حين أتي وإياك لا نخطر لها على بال. وما أكثر ما يسبح خيالنا حول جمالها على حين أن خيالها لا يذكر شيئاً عن ذلك السائح الفاتن الذي كان له الشرف في أن يعتلي أريكتها. إن من طبيعة الرحلات أن تضفي على الإنسان شيئاً من الدعة والتواضع، ولهذا كم يحس الرحالة بضالته في خضم هذا الكون الفسيح».

ونحن نتتأبنا الحيرة حين نطالع هذه الآراء ونضاهيها بانطباعاته عندما خلّف كوتشوك هانم فيقول: «إن غرور الرجل لا يبلغ مداه حقاً إلا إذا أحس أن الفراق قد خلّف وراءه أطيب الذكريات، وأن شريكته لا تزال عالقة الذهن به تفكر فيه أكثر مما تفكر في غيره، وأنه سيظل في وجدانها حياً». تُرى هل كتب فلوبيير هذه الكلمات المرأة وهو في مركبه في النيل عقب ليلته التي قضاه في إسنا أم كتبها بعد عام أو أكثر من وصوله إلى فرنسا حين أعاد تدوين مذكراته؟ فليس بين يومياته التي سجلها خلال رحلته النيلية ما يقفنا على هذا الانطباع بل نراه يقول: «ما أشرق علينا الصباح حتى ودعتها وداعاً تشوبه اللوعة». وهكذا يبين لنا أن ما أضافه فلوبيير إلى مذكراته بعد عودته إلى فرنسا استجابة لأسئلة لوييز كولييه المكشوفة في كبرياتها هو من الواقعية الحقّة، ولا غرو فقد كان فلوبيير وقتذاك قد قطع شوطاً كبيراً في قصته الواقعية «مدام بوقاري»، بعد أن خلّصته الرحلة إلى مصر من رومانسيته المبكرة ودفعت به نحو هذا الاتجاه، وإن لم تخلّصه اخلاص كله بدليل أن الصدى الرومانسي لرحلته إلى مصر ظل يتردد في سائر كتاباته اللاحقة. فمن المعروف أن فقرات من مذكرات فلوبيير في مصر لها وشائج قريية من مثيلاتها في الطبعة الأخيرة من روايته «تجربة القديس أنطون» (١٨٧٤)، حيث نستمع إلى ملكة سبأ وهي تغري القديس قائلة «لأرقصن لك رقصة النحلة». وفي روايته الفلسطينية «هيرودياس» يصف سالومي بأنها «ترقص رقص نوبيات الشلال، عيناها مطبقتان وجذعها يتأرجح وبطنها تموج ونهداها يهترآن على حين بقي وجهها جامداً لا انفعالات به وما توقفت قدماها عن الحركة»، وفي روايته القرطاجية «سالامبو» (١٨٦٢) نشهد الكثير من وصفه لمعابد طيبة.



علي أن إدوارد سعيد يذهب مذهبا آخر في تحليل كتابات فلوبيير عن الشرق فيعدها: «محاولات لتشكيل عالم خيالي بديل عن عالم الواقع الغربي، إذ يلجأ فلوبيير إلى الألوان الرائعة الفاتحة الجمال وإلى المناظر المثيرة في مقابل اللون الرمادي السائد في مشاهد الريف الفرنسي ومناظره الريفية المملة، ويتحدث عن كل ما هو غامض ساحر بدلا مما هو مألوف. ومن ثم كانت رواياته عن الشرق ثمرات مبتكرة لقراءاته المستفيضة في المصادر الغربية عن الديانات والحروب والشعائر والمجتمعات الشرقية أكثر مما هي مستقاة من الواقع الفعلي. كما تكشف كل رواياته حول الشرق عن نزعة نحو الهروب إلى أحلام اليقظة الجنسية حيث تتوق شخصياته إلى ما تفتقده في حياتها البورجوازية المملة القلقة من عناصر شرقية كالحریم والأميرات والجواري والراقصات والغلمان يحاول من خلالها الجمع بين فكرة الشرق وفكرة حرية الفسق والعربدة. فالشرق عنده وعند غيره مكان يستطيع المرء فيه إشباع شهواته حيث يعجز عن مثلها في أوروبا. ولا شك أنه كان ميالا إلى الوقوع على كل ما هو شاذ، وهذا ما تجلّى في جمعه بين المبالغة في البهيمية التي تصل إلى حد يثير الامتناع وبين الرهافة الفكرية المسرفة بالمثل، أي الجمع بين الأضداد، وهو الطابع الذي أخذ مع الزمن يمثل عنصرا جوهريا في قصص فلوبيير المحتشدة بالمناقضات ونماذج اللبس وازدواج المعاني»<sup>(٦٨)</sup>.

وإذا تأملنا النتيجة التي انتهى إليها كل من مكسيم دوكان وفلوبيير من رحلتيهما يمكن القول بأن مكسيم قد عاد إلى باريس ممتلئ الوفاض بالملاحظات والصور الفوتوغرافية التي سرعان ما أفاد منها، فنشر موسوعته الحافلة «مصر والنوبة وفلسطين وسوريا»<sup>(٦٩)</sup>: «رسوم فوتوغرافية التقطت سنوات ١٨٤٩، ١٨٥٠، ١٨٥١ مصحوبة بنص شارح ومبسوطة بمقدمة، وتضم مائة وخمسين لوحة فوتوغرافية»، وتعدّ أولي النماذج المبكرة للكتب التي تجمع بين الصورة الفوتوغرافية والكلمة المطبوعة. ونال دوكان بفضلها وسام جوقة الشرف. وقد لاقت هذه الصور الملتقطة في مصر نجاحا متقطع النظير، غير أن فلوبيير ما لبث أن تناول مقدمة دوكان بالنقد ذاهبا إلى: «أنه لا يكاد يحصي فيها ثلاث صفحات يمكن عدّها لمكسيم دوكان، فكلها منقولة عن شامبليون ولويسوس، كما أن الكتاب نفسه قد أعدّ في عجلة وأنفق على إخراجه في بذخ».

وحين يظفر مكسيم بوسام جوقة الشرف يجدها فلوبيير فرصة للسخرية منه والتهكم على مواهب مكسيم في الدعاية لنفسه فيقول: «أخيرا ظفر الفتى دوكان بوسام جوقة الشرف. لعمري إن هذا الحدث سيثلج صدره. ما أعجب الزمن الذي نعيش فيه الآن! نضع الأوسمة على صدور المصورين الفوتوغرافيين على حين نعاقب الشعراء بالنفي إلى الخارج [يقصد نفى فيكتور هيجو أيام نابليون الثالث]. إن كل ما يعنيه مكسيم هو بلوغ الشهرة بأي ثمن حتى دفعه طموحه إلى التعلق بأي شيء يستعين به للوصول إلى مراده، سواء كان هذا الشيء وساما أو امرأة أو فنا أو حذاء!».

هذا ما كان من أمر مكسيم. أما ما كان من أمر فلوبيير فقد انتهى به المطاف إلى أن يعكف على محراب الفن جاعلا هدفه الفن للفن، بعد أن اتخذ الرفيقان طريقين مختلفين، وكانت مصر لهما مفترق الطرق، فيها شاء القدر أن ينفصل أحدهما عن الآخر. ولقد سمعنا عن فلوبيير أنه في أخريات أيامه لم يكن يدور بخله شيء غير ذكرياته عن مصر، فكتب إلى كارولين ابنة شقيقته قبل موته ببضعة أيام في عام ١٨٨٠ يقول: «لقد تملكني وأنا في أيامي الأخيرة شوق عارم إلى أفاق فسيحة تطربني فيها ذؤابة نخلة تتأرجح تحت سماء صافية زرقاء، ويشجيني فيها طير يضرب بمنقاره على قمة مثذنة تستطيل في شموخ وكبرياء»<sup>(٦٧)</sup>.

Maxime du Camp: (٦٩)  
Egypte, Nubie et Syrie.  
Gide et Bandry. 1852.

## الحالم المفتون بمصر



## تيوفيل جوتييه





كان تيوفيل جوتييه صديقا لجيرارده نرفال وجوستاف فلوير ومكسيم دوكان كما كان مثلهم عاشقا لمصر . وقد بدأ حياته مصورا ثم ما لبث أن جذبته إليه الأدب صحفيا وناقدا وروائيا، يترك الرومانسية ويناصر مذهب الفن للفن مبشرا بالپارناسية ، وكان سحر الشرق يشده إليه بسطوع شمس وبريق أزيائه واختلاف أجناسه ، إذ كان شديد الولع بكل ما هو غريب تنتظمه بيئة نائية ، وكان حلمه أن يحيا على ضفاف البومفور أو على شاطئ النيل ، أما ما كان يربطه بباريس فهو انصرافه إلى النقد الفني والمسرحي . ولم يُنح له أن يرى مصر إلا قبل وفاته بثلاث سنوات، عام ١٨٦٩ حين دُعي ضمن من دُعوا لزيارتها مع الإمبراطورة أوجيني ، إذ كان مراسلا للجريدة الرسمية ، إليه وصف أحداث احتفالات افتتاح قناة السويس في البلد الذي طالما عاش فيه بفكره وخياله من خلال قراءاته لكتابات أصدقائه من الأدباء والأثريين والفنانين . و كان جوتييه قد زار الشرق قبل ذلك مرتين حين أوفده الملك لوي فيليب إلى الجزائر مرة ثم إلى تركيا مرة أخرى ، بل إنه رحل بعد ذلك إلى إسبانيا حيث شدته الأندلس إلى العالم الإسلامي .

كتب تيوفيل رسالة إلى جيرارده نرفال عام ١٨٤٣ يقول فيها : « ليس من الضروري أن ينتمي المرء إلى الوطن الذي به وُلد ، ومن ثم فعلينا أن نسعى دائما نحو وطننا الحقيقي الذي ننتمي إليه بأرواحنا عبر كل المعوقات . فلما رتين وألفرد ده فيني يتسلمان إلى الإنجليز المعاصرين ، وفيكتور هيجو هو أحد فرسان شارلمان أيام أمجاد إسبانيا العظمى إبان احتلالها للأراضي الباطنية ، وديكان [المصور] تشده أجواء تركيا الآسيوية ، وماريلا [المصور] عربي صميم ، ودلاكروا [المصور] مراكشي وأنت ألماني ، وأنا تركي من أترك مصر لا أترك القسطنطينية » . ولقد ظهر كتابه «الشرق»<sup>(٧٠)</sup> بعد وفاته حين جمع ناشره انطباعات رحلته المتأخرة إلى مصر وبعض مقالاته عن كتاب «النيل» لمكسيم دوكان . وفي هذا الكتاب نستجلي الصورة الأثيرية لمصر ، تلك الصورة التي ابتدعها جوتييه ونماها بمطالعته ورؤاه وأحلامه التي لازمته طويلا قبل أن يزور مصر فغاص في متاهات الماضي العريق حتى كتب يقول : «لقد خيل لي أنني عشت ردحا من الزمن في الشرق ، وأنني عندما كنت أرندي قفطانا وطربوشا خلال الحفلات التنكرية إنما كنت أعود إلى شابي الحقيقية . وما أكثر ما كنت أتعجب من نفسي حين لا أحسن فهم العربية فكنت أناجي ذاتي أنني لا بد قد أنسيته . وفي إسبانيا كان كل ما يتصل بالأندلسيين يشدني ، وكأنا أنا مُسلم من المسلمين أنحاز إلى صفهم ضد المسيحيين » .



وكانت مصر مصدر فيض غزير لإنتاج جوتيه الروائي سواء مصر الفرعونية أو الإسلامية ،  
تصوّر لنا ذلك رواياته مثل «أمسية كليوباترة» (١٨٣٨) التي أثر فيها اختيار الصيغة الرومانسية  
للقائد الروماني الذي انتهى به الأمر أن وقع في غرام كليوباترة فغدا بذلك أسيرا لمصر لا أسرا لها .  
وعلي الرغم من أن جوتيه قد قرأ رسائل شمبوليون التي كتبها عن مصر والنوبة ، كما تصفح  
لوحات كتاب «وصف مصر» إلا أن توثيقه الإيجبولوجي كان واهيا لا دقة فيه ويشيع فيه الخيال ،  
فضلا عن تردّيه في أخطاء تاريخية وهفوات سيكولوجية . فقد زعم أن كليوباترة لا تعرف  
العلامات الهير وغليفية على حين أنها كانت دون شك تتكلم لغة المصريين الدارجة ، هذا إلى أن  
بلوتارخوس قد ذكر أنها تجيد اللغات اليونانية والسورية والعبرية ، وقد صوّرها جوتيه كذلك  
مبغضة لمصر الفرعونية برمة بحياتها فيها ، وهذا لا يمت إلى الحقيقة بسبب . على أن أسلوبه جاء  
رومانسيا خالصا ثريا بألوانه في وصفه للطبيعة وسحر الإبحار في النيل وروعة غروب الشمس  
على ضفتيه . لم يكن جوتيه قد بلغ بعد الرّصانة والدقة فيما ذهب إليه من تأويلات فنية حين ألف  
هذه الرواية ، وكان عليه أن يحث الخطى طويلا قبل أن يصل إلى محراب الفن للفن وعقيدة  
البارناسيين الموضوعية .

وتتتمي قصته «قدم المومياء» (١٨٣٨ - ١٨٤٠) إلى الحقبة نفسها التي كتب فيها «أمسية  
كليوباترة» . وقد التقط فكرتها من رحلة فيثان دينون في مصر العليا والسفلى التي عثر فيها كما  
قدّمت على «قدم مومياء رقيقه لفتاة في مقتبل العمر لا شك أنها لأميرة صغيرة لم تحف قدماها من  
عناء السير ولم تحزّ فيها خيوط نعل خشن . . . وقد ظفرت من نظرتي إلى هذه القدم بما يتوق إليه  
رجل حين يظفر بامرأة ، ولقد خيل إليّ أنني قد بادلت الغرام خلصة فتاة فرعونية» . وما هو بالعسير  
علينا أن نكتشف أن جوتيه قد نهل الكثير مما كتبه دينون مع شيء من التعديل والإضافة وجزالة  
الأسلوب ورقة التصوير مثل قوله في وصف تلك القدم : «لم تطأ قدمها أرضا قط ، ولم تلمس  
إلا أرقّ الحصير من أعواد النيل وأملس السجاد من جلد النمر» .

وفي عام ١٨٥١ نشر جوتيه قصيدته «حنين بين مسلمتين» . ولا جدال أيضا أنه استوحى ما  
سبق أن سجّله صديقه فلوير في مذكراته ومكسيم دوكان في كتابه «النيل» عن مسلّتي الأقصر  
وباريس ، والقصيدة مترعة بالشوق الرومانسي والرغبة العارمة في الاغتراب . وبحساسيته المرفهة  
ونزعته الرومانسية الشفافة نسج أنشودتين حزنتين على لسانيّ نصيبين ثمينين من أشمخ الآثار  
المصرية ، أحدهما المسلة المصرية المقامة وسط ميدان الكونكورديا بباريس والأخرى شقيقتها التي ما  
تزال قائمة في العراء أمام مدخل معبد الأقصر . فتمضي المسلة الأولى تنن في مهجرها وهي توازن  
بين المناخ القارص لسماء باريس وبين الدفء الممتع المحرّك للعواطف في أحضان وادي النيل ،  
وتندب حظها السيئ الذي كان سببا في نقلها إلى هذا المناخ البارد الذي يفتقر إلى روحانية ذلك  
الفنان الذي سوّاها منذ خمسة آلاف سنة . فقد كانت تعيش مُحتفئ بها في بيئتها محاطة بأهلها  
وذويها وبمن يقدّسونها فإذا هي تنزع إلى طقس قارص بين قوم لا يباهون بها ، وينظر إليها المارة  
نظرة عابرة ، ويتطلعون إليها وكأنها من غرائب اليبثات النائية . وما فطنوا إلى قدرها حق قدرها  
إلا بعد سنين وسنين تزودوا فيها بالثقافة والمعرفة . وإغراقا في الشاعرية ينتهزها جوتيه فرصة  
أسية ليربط بين إقامة المسلة المنقّية في هذا الموضع وبين إقامة المقصلة التي أطاحت بعنق لويس  
السادس عشر في هذا الموضع نفسه من قبل ، ويتخيّلها تُفصح عن الظلم الذي لحقها بعد ماض

حافل بالأمجاد وقد أصبحت تحطّ عليها الآن في غربتها بغاث الطير وهي التي تعودت من قبل  
على ملمس أجنحة طيور إيبس الوردية والصقور الذهبية المخالب . وتمضي المسلة في حنينها إلى  
موطنها تتغنّى نادية منفاها شاكية ما تلقى من سوء المعاملة . وقد حاولت أن أنظم هاتين  
الأنشودتين نظما عربيا فيما يلي :

«كم يقسو علىّ الملل في هذا الميدان الموحش  
أنا المسلة المنتزعة من جذورها  
يرتعد جبينني الذي لوّحه الصدا  
وأخذ يتعاوزه الجليد والصقيع والرياح والمطر .

\*\*\*

وفي هذا الجو الذي لا تُشرق فيه الزرقة قط  
تشحب رأسي الضامرة المدبّبة  
التي صبغتها بالحمرة مواعد السماء النارية  
ويُثقلها الحنين الجارف للوطن

\*\*\*

ليتني أعود ثانية لبلادي  
وأنتصب من جديد إلى جانب شقيقتي الوردية اللون  
علي مقربة من تمثاليّ ممنون العملاقين  
الصارمى الوجه أمام بوابات الأقصر

\*\*\*

فأخترق قبة السماء الزرقاء  
بقمّي الهرمية القرمرية  
بينا أُلقي ظلّي على الرمال  
مسجّلة عليها خطّي الشمس .

\*\*\*

أي رمسيس  
لقد اقتلعوا الكتلة الشامخة  
التي انحنت الأبدية أمامها ذات يوم  
وكانها ليست غير نبتة تُجثث  
وأقاموا نُصبا يزدان به ميدان في باريس .  
وحارسا عملاقا من الجرانيت  
يشمخ بين كنيسة المادلين ، ذلك المعبد الكلاسيكي الزائف



ومبنى الجمعية الوطنية التشريعية

لنظل ساهرة غير ناسية مرتكبي هذه الجريمة الرهيبة في حقها .

\*\*\*

لقد ذبحوا سرّي العريق بمقصلة لويس السادس عشر

وبقيت هنا أثرا فاقد الدلالة

مجتنأ من أرض حفظت أسرارى

أخفتها خلف ستار النسيان نحا من خمسة آلاف من الأعوام .

\*\*\*

وطلعتي التي لم يكن يحطّ عليها فيما سلف غير طير إيبس الوردي

والصقور ذات الريش الأبيض والمخائب الذهبية

تلطّخها الآن بغاث الطير في غير اكتراث .

\*\*\*

ونهر السين الضامر المجرى

والذي تصبّ فيه فضلات الدُّور يدّس بقاذورات المدينة قدميّ

وكانتا من قبل في مواسم الفيضانات تُقبّلان نهر النيل إله جميع الأنهار .

\*\*\*

ذلك النيل العملاق ذو اللحية البيضاء

المعتمر بزهور اللوتس وقصبات الغاب

يصبّ من جرّته المائلة

التماسيح وكأنها صغار السمك .

\*\*\*

أواه . ما أقبح الهياكل العظمية بعد مائة عام

سيستحيل إليها يوما هذا الشعب المجنون الذي لا يقدر الأسلاف

والذي يرقد بعد موته دوغما أكفان

في توايت يُحكم غلقها بالمسامير .

\*\*\*

أيها الثرى المقدس ذو النقوش الهيرغليفية

يا من تُضمّر الأسرار الكهنوتية

حيث تشحذ آباء الهول مخالبها

علي قواعد التماثيل العملاقة .

\*\*\*

أيها الثرى المقدس

حيث تسمع رنين القبو الخالي تحت قدميك

وحيث يحتضن الباز عشّه

إني أبكيك يا مصرى الطاعنة في السنّ

أبكيك بدموع من حبات الجرانيت » .

\*\*\*

ثم يتحوّل جوتيه إلى مسلّة الأقصر فيُجري على لسانها صورا مما تلقّفته ذاكرته من رسائل

نرقال ومن مناقشاته مع مكسيم دوكان وفلوبير ، لكنها لا تتغنى كزميلتها بالحنين إلى الوطن

ودفع مناخه وثرأ ألوانه بل تناجي نفسها قائلة :

«علي باب هذا القصر الكبير المهجور

أسهر حارسا وحيدا

في العزلة الأبدية

أمام الهول الأكبر .

\*\*\*

وفي الأفق الذي لا تحدّه حدود

تنبسط الصحراء تحت الشمس المضيئة

عقيمة خرساء أبدا

وكانها تنزع عنها كفنها الذي علّته صُفرة الزمن .

\*\*\*

وثمة فوق الأرض الجرداء سماء

هي الأخرى صحراء تتشّح بالزرقة

لا تطفو فوقها غمامة واحدة

بل تنداح صافية صفاء لا هدأة فيه .

\*\*\*

ومياه النيل الساكنة سكون الموت

تكتسي بغشاء من رصاص يلمع

وأحيانا يتموّج سطحها بحركة فرس النهر السّارب

تحت ضوء نهار كامد يسقط كدفقة من رصاص .

\*\*\*

بيننا ترقد التماسيح الضارية

فوق رمال الجزر النارية



وقد التهبت جلودها أو كادت  
وانطلقت في نحيب محموم .

\*\*\*

وطائر إيبس قائم على ساقه النحيلة  
ساكنًا بلا حراك غارسا منقاره تحت إبطه  
كأنما يفكّ طلاسم الخاتم المقدس للإله تحوت  
المنقوش فوق أحد النُصب

\*\*\*

والضبع يقهقه وابن آوى يموء  
والباز الجائع يصيء  
محلّقًا في الجو وكأنه يرسم دوائر  
فيبدو كالشوّلة السوداء وسط السماء الصافية .

\*\*\*

وعلى هذه الأصوات الصادرة من العزلة  
تطغي ثأؤبات آباء الهول  
التي أنهكتها الوضعة الساكنة  
التي اتخذتها منذ آلاف السنين .

\*\*\*

أنت أيها الملل  
النابع من انعكاسات الرمل البيضاء  
ومن الشمس التي لا تكفّ عن البريق  
لا يشبهك ملل آخر لأنك أنت السأم الذي يغشى الشرق كله .

\*\*\*

فأنت الذي كنت تدفع الملوك في عليائهم  
حين يقعون مهزومين في قلاعهم  
فيصيحون قائلين : « الرحمة بنا » ،  
وأنت الذي تطغي على بثلك كله .

\*\*\*

وهنا لا تهبّ الريح أبدا  
كي تجفف عبّرة تساقط من السموات الجافة  
ويتكئ الزمن المنهك مضطجعا  
علي قصور شامخة صماء .

\*\*\*

ليس ثمة حدث ما يطرأ  
ليزعج وجه الأبدية الذي لا يتغير  
ففي هذا العالم الذي يتبدّل فيه كل شيء  
تبقى مصر متربّعة على عرش السكون .

\*\*\*

وحين يطوقني الملل بنوباته  
لا أجد من يصاحبني من العشاق والأصدقاء  
سوي الفلاحين والمومياءات  
المعاصرين لعهد رمسيس

\*\*\*

ولا يتطلّع بصري إلا إلى عمود متداع  
أو تمثال فقد ملامحه  
أو قوارب ضخمة ذات أشرعة بيضاء  
تهبط مع النيل أو تصعد معه .

\*\*\*

ليتني كنت إلى جوار شقيقتي  
المنتصبة في أحد ميادين باريس  
إذن لكان في قُربها مني  
إيناسٌ لروحي .

\*\*\*

ولالتقيت هناك بذلك الشعب النابض بالحياة  
العاكف على تأمل نقوشها  
متطلّعا إلى ما سُجّل عليها من كتابات سرّية  
لا يفسّرُها الفكر إلا من خلال الأحلام

\*\*\*

ولرأيت النافورات المتجاورة  
وهي تقذف على رخامها الجرائتي  
رذاذها المتغير الألوان  
فتغدو المسلة قرمزية وكأنها تستردّ صباها .

\*\*\*

لقد انحدرتُ من عروق أسوان الصخرية الوردية  
مثلما انحدرتُ أنا



إلا أنني ما زلت أنتصب في موقعي العتيق .

وبينا هي هناك تدبّ فيها الحياة بالثغرات المعجيين حولها ،  
إذا أنا هنا لا حياة لي .

\*\*\*

وإذ كان ذكر مصر الفرعونية وقتذاك يجري على كل لسان ، فلا تكفّ الصحف والمجلات عن الحديث عن الدراسات والأبحاث التي أسفرت عنها اكتشافات شمبوليون ، فضلا عن ظهور كتاب پريس دافن عن الآثار المصرية عام ١٨٤٧ وكذلك مؤلفات ولكنسون وروسيليني ولسيوس ونجاح حفائر مارييت في سقارة ، فقد هبّا ذلك كله مناخا ملائما يؤلف في ظله جوتيه قصة تاريخية تجري أحداثها في مصر القديمة . وقد ارتأى في نوفمبر عام ١٨٥٢ إثر عودته من رحله إلى إستنبول كتابة رواية فرعونية توراتية في آن معا يربط فيها بين مغامرة سفر الخروج وبين قصة تقع أحداثها في بلاط طيبة . وقد شجّع على كتابتها صديقه الروائي الشهير إرنست فيدو الذي كان قد فرغ من نشر مجلد ضخّم من كتابه الغزير بالمعارف المأخوذة عن العديد من المراجع والذي لم يتم منه سوى الجزء الخاص بالمصريين والأشوريين والهنود عن «تاريخ ممارسة الأعراف الجنائزية»<sup>(٧١)</sup> ، وقام پريس دافن برسم لوحاته ، فكان مرجعا أساسيا من مراجع علم المصريّات لجوتيه . ولكي يؤلف فيدو هذا الكتاب استكمل مجموعته من الرسوم المطبوعة بطريقة الحفر ومكتبته الأركيولوجية الزاخرة التي تضم إلى جوار هيرودوت وديودور كتاب وصف مصر ومؤلفات فيثان دينون وشمبوليون وولكنسون وبلزوني وروسيليني ولسيوس وپريس دافن وپاسالاكوا ومكسيم دوكان ، ووضع فيدو مكتبته العامرة لأمر جوتيه الذي أهدى هو الآخر قصة «الموميا» إلى صديقه اعترافا بفضلته قائلا : «علي إثر خطّك تحوّلت في المعابد والقصور والمقابر في مدينة الأحياء ومدينة الموتى . لقد أزحت من أمام عيني حجاب إيزيس الغامض وبعثت الحياة في حضارة عظيمة ولّت . التاريخ من لدنك والقصة من عندي ، ولم يكن عليّ إلا أن أجمع الجواهر الثمينة التي وضعها بين يدي بأسلوبني الذي كان أشبه بالملاط لقطع الفسيفساء» .

وقد لقيت هذه القصة هجوما لاذعا من بعض النقاد فاتهموا جوتيه بقصوره عن الخيال وأنه لم يعط جديدا من عنده إذ كان قصير النفس محدود الخيال . غير أن جوتيه لم يكن له أن يبتدع تاريخا جديدا ويزيّف الرّبط بين الأحداث ، فقصته الموميا لم تكن رواية بالمعني الحق أو محاولة لسرد سلسلة من المغامرات . ولقد تجلّت حنكة جوتيه وخياله في مقدّراته الفذة على بعث الحياة فيما بين يديه من وثائق وبتّ الحركة في الرسوم المطبوعة وإسباغ نهج عام على هذا كله بأسلوبه الفريد ، فرسم لمصر صورة ممتعة دون أن يهمل الدقّة الواجبة للوقائع التاريخية والأركيولوجية والطوبوغرافية ، وهو ما فعله أيضا جوستاف فلوبر في روايته القرطاجية «سالاامبو» . والحق إن جوتيه قد أمدنا بأوصاف رائعة للحياة المصرية تعدّ تفسيرات فنية من الطراز الأول قصد أن يبعد فيها كل البعد عن التخيّلات الرومانسية والاستطرادات الأدبية التي اتصف بها أسلوبه في مرحلته الأدبية المبكرة .

وليست الفصول الثمانية الأولى في جوهرها إلا تتابعا للوحات مرسومة وأوصاف دقيقة غزيرة تستعرض أمام عيوننا المظاهر الأساسية للحياة في مدينة طيبة بما فيها دار ثأوزيريس<sup>(٧٢)</sup> ابنة كبير

Ernst Feydeau: (٧١)  
Histoire des usages  
Funèbres et des Sépultures chez les peuples anciens.

Thaoser (٧٢) ثأوزيريس  
أي المنتسبة إلى أوزيريس ،  
وكان شمبوليون في كتابه  
«رسائل من مصر والنوبة قد  
ميّز على الباب الرئيس لإحدى  
مقابر وادي الملوك اسم ملكة  
تدعى ثأوزيريس .

الكهنة ، وعبور نهر النيل ، والصورة الجامعة لمدينة طيبة ، وقصر فرعون ، ودار پويري<sup>(٧٣)</sup> ، ومنزل القائد أحمس ، وموسم الحصاد . ويتوالى الوصف حتى منتصف الكتاب دون أن يتخلل ذلك حدث بل حتى دون أن نتبين الخطوط الأولى للرواية . ويقع فرعون في غرام ثأوزيريس التي تعشق هي الأخرى پويري اليهودي . ثم ما يلبث المؤلف أن يعجل في الفصول الستة التالية ويربط بين ما سبق وبين قصة خروج اليهود من مصر راجعا في ذلك إلى سفر الخروج في العهد القديم من الكتاب المقدس . وبذلك يضم التوراة إلى الصور الإيقونوغرافية التي استمد منها القسم الأول من القصة . غير أنه رأى أن النص الديني لا يُغني غناء اللوحات الفرعونية المرسومة وأنه أقل ثراء في التفاصيل المثيرة للخيال فيختتم القصة عجلا وتوه معالمها كما تاهت معالم فرعون حين ابتلعه اليم . والحق إن مشاهد الحياة الطيبية التي قدّمها جوتيه ليست إلا نظرات أدبية للأوصاف الأركيولوجية التي أخذها عن فيدو وپاسالاكوا<sup>(٧٤)</sup> وولكنسون ، أو هي في تعبير جوتيه نفسه «لوحات مرسومة بالقلم»

Passa lacqua (٧٤)

تكشف عن النقوش الغائرة والصور الجدارية المستنسخة التي وقع عليها بصره في مؤلفات شمبوليون وبلزوني وپريس دافن ، فالمؤلف يستلهم تارة نصا وتارة أخرى رسما ، وأحيانا كليهما معا ، وحين يكتشف تناقضا بين الاثنين يركن إلى الرسم وحده . والرواية في عمومها قصة تثير الخيال وتسجلّ صورا حيّة تصويرا دقيقا ، ولا تتركنا لحظة ننسى أن جوتيه قبل أن يكون كاتباً كان مصورا . يمتطي أجنحة الخيال ليمعن إلى ما هو أبعد مدّى من النص أو النقش المرسوم . ومع التزامه الدقة المتناهية في رسم تفاصيل لوحاته إلا أنه برع في إشاعة الأضواء بين جنباتها وإحاطتها بظلمة من الخيال لشاعر خلاق ، فليس ثمة حتى الآن من أمدنا برؤية خلاّبة تفوق رؤية تيوفيل جوتيه لوادي الملوك الذي لم تطّره قدماه . أما ما يعيونه عليه من تقيّده بما شاهده في صور المقابر والقصور ومناظر الحياة اليومية ، هذا الذي يعيونه عليه إن هو إلا اعتراف بما كان يتصف به من أمانة تاريخية ، وهو ما يزيد من القيمة الأركيولوجية لروايته .

ولكي يصل المغامرة الغرامية بسفر الخروج اختار أن يكون بطل روايته «پويري» عبرانيا من عصر موسى مما جعل بناء القصة وأهيا فبدا ما فيها من افتعال . . ففي الفصول الأخيرة يكون جوتيه قد انتهى من الاعتماد على وثائقه المصرية فيتجه إلى سفر الخروج ليعيد كتابته ويبني بناء دراميا ليس فيه ظل من النصوص الأدبية المترعة بالخيال الجذاب . وعلى أية حال ليس هذا مجال الحديث عن هذا القسم المعزول إلى التوراة ، وهو القسم الذي جاء واهي الرّبط بالأحداث الفرعونية إذ يفيض بعرض النصوص أكثر مما يسوق من أحداث درامية ، كما يُعوّز المشاهد المتلاحقة شيء من التنسيق . ومع ذلك فلقد بقي أثر قصة الموميا دون أن يذهب هباء مَثورا .

لقد جاءت قصة سفر الخروج التي أراد المؤلف أن يجعل منها عنصرا أساسيا مُقحمة عَجلة ، بينما جاء القسم الرصين من الرواية في الرحلة التاريخية عبر طيبة على كلا ضفتي النيل . فلم تكن قصة الغرام إلا ذريعة يتدرّع بها للعبور من ضفة إلى أخرى ، ذلك أن الفرعون حين أقبل في موكب النصر إلى قصره بمدينة هابو وفوجئ بنبأ اختفاء محبوبته ثأوزيريس هرع إلى ترك قصره وهجر جواربه واجتاز النيل من الغرب إلى الشرق ليعيش في قصر الكرنك في عزلة عن الناس . وقد نهج جوتيه هذا النهج ظانا أن معابد الكرنك والأقصر والقرنة ومدينة هابو كانت قصورا لسكنى الأسرة المالكة . ولعل الذي جرّه إلى ذلك هي الفكرة الخاطئة التي ساقها شمبوليون في كتابه «رسالة من مصر والنوبة» .



وعلي أية حال فالقارئ لقصة المومياء يلمس جهدا خارقا للمؤلف بذله بالتزامه الموضوعية والدقة التاريخية والكشف عن الوثائق الأركيولوجية المعاصرة له ، كما يلمس رصانة الأسلوب وتألقه . ومع ذلك فإن خيال المؤلف الذي برع في بعث الحياة في وثيقة من الوثائق أو بث الحركة في إفريز من النقش الغائر أو إضفاء الألوان على السماء والجبال ونهر النيل لم يبلغ الأعماق من نفوسنا . فعلى الرغم من جهده الجدير بالتقدير فإن جزءا من التاريخ ظل مبهما دونه . على أنه سرعان ما تتوارى هذه الهنات كلها عندما يلج جوتيه عالم الأساطير العربية ، فلقد تمازجت رومانسيته الكامنة في سر وسلاسة بالخيال الذي تفيض به الحكايات العربية وأحداث مصر الإسلامية كما سنرى . وكانت أولى أعماله المستوحاة من التاريخ العربي تتفق زمنا وروايته « قدم المومياء » ، وهي قصة « ألف ليلة وليلتان » التي ظهرت عام ١٨٥٧ على الرغم من أنه ألفها عام ١٨٤٢ .

وقد أطلق جان ماري كاريه العنان لخياله ليصف كيف مهد توفيل بخياله الوثأب الفرصة المؤاتية لتأليف هذه القصة قائلا : « يخيّل إلى أن توفيل قد أمضى الليلة التي سجّل فيها قصته «ألف ليلة وليلتان» في غيبوبة كالغيبوبة التي تغشي متعاطي الأفيون أو مدخن الحشيش ، وأنه كان قابعا في داره المتواضعة بباريس أمام موقد تتأرجح ناره فيضفي هذا كله على الجو غشاوة أخرى تمنع له في الاسترسال في تخيالاته الغيبية وهو يعث بأطراف أصابع قدميه المندسة في مركوبه المراكشي الفضفاض عبث المخدورين ، وقد استقر بصره مشدوها على اللوحة الجامعة التي أبدعها جملة من مشاهير المصورين المعاصرين يحكون فيها القاهرة بمشاهدها الأسيرة التي كم جذبت إليها توفيل واستحوذت عليه بحبها وشاقته بمعالمها . وإذا به - وهو على تلك الحال غارق في تأملاته وهو اجسه - يحسّ كأن طارقا يطرق بابه ، ويتخيل بين يديه عبدا حبشيا يقوم على خدمته . وتختلط عليه تسميته إياه فتحشد له أوهامه أسماء شتى أوروبية مرة وعربية أخرى فإذا هو يجمع بين هذه الأسماء كلها ويدعوه « أدولفو فرانيسكو برجيالا عبد الله بن محمود » ، كما يجمع له بين دينين فيجعله مسلما وهو يفتح الباب ، ويجعله نصرانيا حيناً آخر . ويسترسل توفيل في خياله فيتوهم أنه أمر خادمه بفتح الباب وأن خادمه قد وقف بين يديه يستأذن لفتاتين شريقتين فارعتين جميلتين قد أرسلتا ضفائر شعرهما على أكتافهما وغرقتا في أثواب مزركشة وتحلّتا بأجمل الحلى التي يزين بعضها العنق ، والتي يتدلّى بعضها على الصدر ، والتي تملأ المعصمين إلى المرفقين . وما إن وقع نظره عليهما حتى حسبهما عالمتين من عوالم القاهرة المغنيات الرافصات ، ولكن سرعان ما انعكس الخيال في رأس توفيل وأبى عليه إلا أن يعرفنا بهما على صورة أخرى استقرت في ذهنه من إحساسه بمطالعاته في قصص ألف ليلة وليلة ، فإذا هو يجعل أولى الفتاتين شهرزاد نفسها واثنيتهما شقيقتها دنيا زاد . ويأبى خيال توفيل إلا أن يعلّل لنا لم كان سعي شهرزاد وأختها إليه فيجري على لسان شهرزاد قولها : « جئت أنعي ما تورط فيه جالان [مترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية] مخدوعا إذ جعل السلطان شهريار يعفو عني بعد ما انتهت الليالي الألف بين يديه يستمع ويشبع نهمه . وفي الحق أن السلطان لم تنته بانتهاء الألف ليلة ملذاته وشهوته بل هو لا يزال شبقا إلى مزيد ، فهل لك ياتيو أن تُسعفني بقصة أمتع بها السلطان بعد أن جفّ نبع خيالي لأمد في حياتي وأجد فرصة أطول استسمحه فيها فيعفو عني ولا يأمر بشطر عنقي ؟ » .

في إثر مثل هذا الخيال استطاع توفيل أن يؤلف قصة « ألف ليلة وليلتان » كي تنجو شهر زاد برقيتها من بطش شهريار . فيحكي أن فتى يقال له محمد بن أحمد كان كل همه أن تقع غانية في حبه ويقع في حبها . ويأبى القدر إلا أن يحقق له أمنيته ، فإذا هو في جولة له إلى مسجد السلطان حسن يقع بصره على هودج فاخر قد أسدلت عليه الستائر وقد أخذ النسيم يلفحها مينة ويسرة حتى أراحها عن مكانها مما ترك له فرجة يلمح من خلالها فتاة رائعة الحسن قد استندت إلى وسائد منحرير المطرّز تبين فيها فتاة أحلامه المرجوة فغشيه من الهوى ما غشيه . وهذه الفرصة الأولى تتبعها فرصة ثانية فإذا هو وإياها يلتقيان في حانوت لعطار اسمه بدر الدين . وهنا يعلم أنها الأميرة عائشة ابنة الخليفة ويرى بعد ما بينها وبينه ، والهوى حين يباعد ما بين المحبتين على أي لون يكون هذا البعد يؤجج ونهما بغير حدود .

وفي ليلة من الليالي وبينما هو غارق في نظم شعره يلهمه إياه حبه وهواه إذا ليلى جارية الأميرة تدخل عليه فرعة هلعة ، ويسألها عن سرّ مجيئها أولا ثم عن سرّ فرعها ثانيا ، فتحكي له أن السلطان قد أمر بموتها جزاء لها على ما مهدت به لنور محل عشيقته السلطان لتخونه ، وها هم أولاء حرس السلطان يطاردونها ليقضوا فيها ما أمر السلطان به ، ويجدها محمد بن أحمد فرصة فيرحّب بها ويأويها إلى كنفه عارضا عليها حمايته وعونه .

ثم لا يلبث الحظ أن يتسم له فيهيئ له لقاء آخر بالأميرة عائشة في حانوت العطار بدر الدين ، وهنا يجروا على أن يحدثها ويتوسل إليها أن تلقاه ليلا بين المقابر . وتستجيب الأميرة لتوسلاته فتلقاه حيث أراد ، يقودها إلى ذلك المكان عبد زنجي أخرس . ويلقاها الفتى غير محجبة تكشف عن نضرة وجهها وتألّق جبينها وإشراق عينها ونهود ثدييها وجاذبية تفوق بها حوريات السماء الرابعة . ويتشجع محمد بن أحمد فيشير إلى قصيدته التي صاغها في هواها ، ثم يتلوها بين يديها دون أن يلقي بالا للجناحين النذير بدت فيهما المحبوبة فجأة وكأنها فراشة جميلة . وكان هذا مما أغضب الأميرة عليه وظلته مما يسىء إلى عزّها ، فانعطفت عنه تخاله شاعرا كالشعراء لا يعنيه غير شعره ، وانصرفت عنه في مهابة وجلال يشوبهما إحساس بخيبة أملها ، ولم يعد محمد بن أحمد يسمع بعد ذلك عنها شيئا . وبينما هو على هذا الحال يتحسّر ألما ويشكو همه كانت ليلى إلى جانبه تحاول الترفيه عنه مواسية إياه بأغانيها وموسيقاها . ويأسر الصنيع الفتى فإذا هو يطبع قبلة على جبينها عرفانا بجميلها . وذات ليلة بينا هو يعمن النظر في ليلى يكشف شبحا كبيرا بينها وبين عائشة ، وفيما هو في دهشته إذ يرى إشراقة تضيء وجه ليلى كما يرى جناحين نابتين على جانبيها وإذا هو بين يدي عائشة معشوقته التي ظل ينشدها ، وإذا هي تقول له : « إنني لست الأميرة عائشة ولا الجارية ليلى وإنما أنا بدر البدور أردت أن أخبرك ما عندك ، وها أنذا أراك تؤثر الجارية على الأميرة بعد ما بدا لك منها من وفاء وعطف ، وهذا ما كنت أتوقعه منك ، وهكذا سأكون ليلى وفاء للجميع ، والجنية المنشودة لك وحدك » .

وفي هذه القصة يقتحم جوتيه مجال الخيال المبدع وتتألق قدرته على إيناع كل زهور الشعر وأحلام الشرق ، فتتعانق رومانسيته مع سعف النخيل المعطر والتوريق المتشابك المعروف عن الزخارف العربية ، ويروح يسخر من نفسه التي يتهمها بالكسل فيقول : « لقد اتخذت منذ الصباح الباكر القرار الحاسم بالأفعل شيئا . ولا أريد أن يصرفني أحد عن تنفيذ هذه المهمة . . . » .



وأحيانا يخشى انصراف القراء عنه فيقول: «أي شهر زاد التعسة الخط ما أشبه سلطائك شهريار بجمهور قرائنا. ذلك أننا ما نكاد نتوقف عن السرية عنه حتى يتوق إلى دق أعناقنا إذا لم يهملنا وينسانا». ثم تزيد خشيتة فيقول: «لا إخال شهريار لو أنه ضاق بهذه القصة إلا وقد أمر بجز رقبة السلطانة المنكودة واستراح منها إلى الأبد».

وكم أبدع تيوفيل في وصف القاهرة الغارقة في ضوء القمر مستوحيا اللوحة المصورة التي يزين بها مسكنه المتواضع. والحق أنه كان يتقن رسم الصور الجذابة التي يسعفه بها إبداعه والتي نحس فيها تألفه مع الطابع الشرقي للقصة وهو يتحدث عن: «... نسمة الليل الرطبة، وتوهج السماء بألئ يفوق لآلاء رداء الجنّة، والقمر الفضي يطل كسلطان عاشق في وجهه شحوب المحبين يتطلع عبر سياج مقصورته».

ولم تلبث قصة «ألف ليلة وليلة» أن تحولت في العام التالي لظهورها إلى باليه «الجنّة» (١٨٤٣) الذي اضطرته حبيته الكوريوجرافية<sup>(٧٥)</sup> إلى إغفاله الكثير من التفاصيل الرائعة في القصة المكتوبة. وقد أرسل تيوفيل إلى جيرانه نرفال بعد أسبوع من عرضها تحليلاً يشرح فيه جوهر فكرته قائلاً: إن الأرض الرمزية التي يمثلها أحمد تمدّ ذراعيها نحو السماء التي تنظر إليه في حنان بعيني الجنّة اللازورديتين، وكأنا تضيق المادة بثقل قيودها وشوهة أشكالها متولعة إلى المثالي، إلى اللامحدود، إلى الخلود، على حين تغرق الروح على النقيض في حزنها المجرد تشوّف إلى الأحاسيس والعواطف بل تتوق إلى معاناة العذاب والألم وتشتد حاجتها إلى البذل بعد أن برمت بغياب الجسد:

«وسط جدران الجنة يعيش الملل على الدوام،

حيث الألم فادح واللذة محدودة

فلم يتخيل دانتلي أليجييري شيئاً داخل الجنة

سوي ملائكة شامخة بيضاء متلعة بهالات صفراء،

بينما أحال المسلمون السماء قصراً منيقاً،

غير أنه ينبغي أن تكون شرقي الروح حتى تنجز هذا العمل الفذ.

إن جنّتنا في علباء سمائها تتأوه من الملل رغم جمال الفردوس

فما أتعس من قيل نهم إن سعادتهم بلا نهاية.

كم تمّت هذه الجنّة لو تدوّقت متعنا ومارست عشقنا،

فتغدو امرأة وتعاني عذاب البشر الفاني.

ألا ما أطول عمر الخلود.

ولكن كيف تمضي دهوره إذا لم تُشغلها بالحب؟

وهكذا أحبّت ليلى أحمد،

فمن ذا الذي يلومها؟»

Choreography (٧٥)  
اصطلاح استخدم في القرن  
١٨ للتعبير عن فن تدوين  
الرقصات. وينسحب هذا  
الوصف الآن على المعنى  
الشامل لأنواع الرقص والباليه  
تصميماً وإخراجاً وأداءً  
(م.م.ث)

إن جوهر هذه القصيدة هو أن أحمد والجنّة النذير يرمزان إلى المادة والروح وإلى الرغبة والحب يلتقيان في نشوة الحلم، ذلك أن الأرض هي حلم السماء كما أن السماء هي حلم الأرض.

وما يلبث الموسيقار إرنست ريبر أن يلجأ عام ١٨٥٠ إلى تيوفيل كي يستعين بخياله على التقاط شخصيات شرقية الطابع تتواءم مع مناخ «سيمفونيته الوصفية»، فيستعيرها تيوفيل من مشاهد باليه «الجنّة» ويطلق عليها اسم «سلام».

وجوتيه هو أيضاً الأديب الفنان الذي كان سنداً للتنتاج الفني كله في وقته، يتلهّف إلى كل لوحة تُرسم عن الشرق، فما تكاد تُعرض لوحة حتى ينكبّ عليها دارساً ناقداً محلّلاً. ولا شك أن إليه يرجع الفضل في تشجيع الكثيرين من الفنانين الذين كان يحتضنهم بروحه الصافية وتعاطفه العميق كما سيتبين لنا بعد.

على أن قدر جوتيه قد حرمه الحركة حين زار القاهرة إثر حادث أحرق شدّ ذراعه إلى جبهة لفترة طويلة بدت معها رحلته وكأنما آلت إلى الإخفاق. أية خيبة أمل أن يصل مصر التي عكف طويلاً على دراستها في الكتب والصور واللوحات المطبوعة والرسوم الفنية والتي تآقت نفسه إلى اكتشافها بكل جوارحه حتى يفيض بقلمه الظامي إلى وصفها، فإذا به لا يستطيع بعد وصوله إليها إلا أن يستعيد بخياله صور القاهرة التي طالما طالعها في شبابه وهو بعيد عنها، ذلك أنه لا يرى من القاهرة التي يقيم فيها إلا ركناً صغيرة تتيح له شرفة فندق شپرد المطلّة على ميدان حديقة الأربكية التي قام بتخطيطها مهندس حدائق فرنسي على غرار حدائق مونصو بباريس.

ويمعن القدر في سخريته فإذا هو يضطر إلى التخلف عن رحلة الصعيد ويكتب إلى ابنته إستيل قائلاً: «الليلة استقلّ زملائي الفنانون جيروم وتورنمين وبرشير وغيرهم الباخرة النيلية إلى الصعيد. ولكم تمّنت اصطحابهم غير أنه كان على أن أحرم نفسي متعة التنقل على ظهور الخيل والحمير والجمال لزيارة الآثار التي تبعد أحياناً عن ضفاف النيل، إذ رأيت من الحكمة أن أركن إلى الخلود حتى يبرأ ذراعي. ولقد زرت بالأمس بولاق مرفأ القاهرة على النيل وشاهدت القصر الذي أعدّ لسكنى الإمبراطورة أوجيني [سراي لطف الله] التي ستصل اليوم والذي لم يجتذبني ذوقه برغم ما أنفق عليه من بذخ جنوني».

ومن شرفة فندق شپرد تطلّع تيوفيل إلى مسيرة الحمير التي كانت تمثل له أكثر الدواب جاذبية ومودة وإثارة لحنانه فيقول: «يشاع أن بالقاهرة ما لا يقل عن ثمانين ألف حمار. وأقصد أنهم ثمانين ألف حمار لا ثمانين ألف نسمة. [يستغل الكاتب هنا التقارب الهجائي بين لفظي Ames وAnes] وهي مطايا بالغة الرقة في طواعيتها مرح غريب لا تعرفه حمير فرنسا الجهممة التي يساء تغذيتها ومعاملتها. وأغلب الظن أن حمير مصر لم تبلغها الأسطورة التي يسخر فيها هوميروس من أچاكس بتشبيهه بالحمار، غير أنها دون شك ما تزال تذكر أن أحد أسلافها قد حمل على ظهره مريم العذراء أم عيسى تحت شجرة الجميز بالمطرية». وكم أطال النظر من الشرفة إلى: «الفلاحات وهن ذاهبات آتيات بأثوابهن الطويلة الزرقاء، زيهن الوحيد الذي يتأرجح حول أجسادهن الرشيقة وكأنه زي أسطوري استبقينه من أزمان غابرة».

ولم تفت جوتيه أدق الملاحظات، ففي الفصل الأخير من كتابه الذي أسماه «مشاهد من شرفة فندق شپرد» لم تقتصر انطباعاته على ما يشاهده من شرفته بل تعدّتها إلى سائر مظاهر



وأجسامهم الفارعة وستراتهم المخملية المطرزة بالقصب ، تتطاير أكمامها وهم يعدون أمام مركبات الخيل الإنجليزية والنمسوية الفاخرة التي يترع في مقاصيرها الباشوات الأتراك جامعين بين الطربوش الأحمر والردنجات الأسود . كما وصف جماعات البدو المتوثبين في عباءاتهم الصوفية الرمادية متداخلة بين جنود الأرناؤوط بتنوراتهم القصيرة وشواربهم الكثة وستراتهم الحمراء التي تتدلى من أحزمتها الخناجر مثلما نرى في لوحات المصور جيروم . . . وهناك أيضا النوبيون مقتولوا العضلات يتبعهم الأحباش الجعدو الشعر المعتمرين بعمامات زرقاء . على أن صورة مصر الخالدة يسكونها الوادع المسالم هي التي تغطي على هذه الشراذم المائجة المتعددة الأصول العرقية .

ولم يستطع تيوفيل جوتييه بعد عودته إلى بلاده أن يكف عن التفكير في ألوان الجمال الأنثوي الذي يعمر به الشرق والذي لا يتصور أن عينا بشرية قد ارتوت منه ، ويأسف على النساء الشرقيات اللاتي لا تملك تماثيل المرمر ولا اللوحات الزيتية أن تحاكي سحرهن ، ومع ذلك يميز دون أن يجدن الفنان الذي يخلدهن في لوحات أو تماثيل تبقي تراثا يثير إعجاب العصور القادمة . ومما يدعو إلى الأسف أن تيوفيل جوتييه الذي خصّ الجزء الأكبر من جهوده الأدبية والفنية لتعريف بالشرق قد وافته المنية قبل أن يظهر كتابه الذي سجل فيه انطباعاته عن مصر ، فلم يتح لكتابه أن يرى النور إلا بعد وفاته . على أن جنوح جوتييه إلى الخيال في حديثه عن الشرق هو الذي جعل كتاباته تتميز بذلك المذاق الفريد جاذبية وإنسانية ، هذا إلى أن لمساته التي استقاها من واقع الحياة المصرية قد أثرت لوحاته بأكثر الألوان حنانا ورقة . ولقد كان هو نفسه أول من يسعد بإبداعاته المتشحة بغلالات من الضبابية ، إذ كانت تلك وسيلته المثلى في الفرار من أعباء مهنته الصحفية المرهقة التي كانت مورد رزقه الوحيد ، فلقد ضاقت موارده عن أن تفي بنفقات القطار والباخرة ليقوم برحلته المنشودة إلى الشرق على حسابه الخاص فقنع بالطواف حول العالم بخياله الخصب داخل جدران حجراته المحدودة . وإذا لم ير البعض أن ما كتبه من مقالات وقصص وروايات وبالبيات أعمالا شامخة فإنها والحق يقال رؤى عجلة تفيض بالومضات الخانية ثم هي استحثات شجى لكل من تحدّث نفسه بالرحلة إلى الشرق .



مُصنّف الشعوب

الكونت جوبينو





وصل الكونت جوبينو إلى ميناء السويس عام ١٨٥٥ وهو في طريقة إلى مقر منصبه الدبلوماسي في طهران ، وأفرد الفصلين الأولين من كتابه «ثلاث سنوات في آسيا»<sup>(٧٦)</sup> لانتطباعاته خلال زيارته القصيرة لمصر . ولم يكن لهذا الرحالة العالم الفيلسوف العزيز المعارف اللغوية والشرقية منها على وجه الخصوص أن يتوقف عند المظاهر السطحية للأشياء وهو الذي كان قد فرغ لتوه من كتابه «دراسة في التفاوت بين الأجناس البشرية» . لا عجب إذن أن يكون مشدودا إلى الموضوعات الإثنوجرافية والتاريخية ، وسرعان ما تُحلّق به روحه الّهفة فوق مشاهد الدلتا حيث : «الجو صحو ومُدّ ، وباقات النخيل تتناوح تحت ضوء شمس الأصيل الغاربة . . . والكآبة الخائقة ، والجلال المهيب ، وخفقات المشاعر أمام تدفق النيل وفي أحضان مصر . . . وبين ثنايا ما تنطوي عليه من تاريخ شامخ مذهل لا نعرف منه إلا النذر اليسير» .

ولا يكاد يخفى علينا منحاه في الاختيار ، فهو يؤثر العرب والفرس والآسيويين على الإفريقيين الذين يعدّهم في مرتبة أدنى ، وإن قسا لسبب لا ندرية على أقباط مصر . وتتوهج حماسة جوبينو في تقرّظ جمال المساجد ، وذلك في فترة كانت مصر الفرعونية فيها بعد اكتشافات ليسيوس ومارييت تكاد تحجب مصر الإسلامية عن نظر الرحالة الأجانب ، بيد أنه ينصح : « ألا يُغأى في تأملها أو التّنعّم في فحص تفاصيلها ، كما يحسن أن تُشاهد عن بُعد إذا شئنا أن نستشف جوانب الجمال والكمال في إبداعات الفن الإسلامي . » !

وحين يطل جوبينو على مدينة القاهرة من فوق قلعتها الشامخة ليلقي عليها نظرة فاحصة يقول : «ينفسح تحت أقدامنا ميدان عريض تتصدّره مدرسة السلطان حسن ، تمتد من ورائها عن يمين وعن يسار المدينة نفسها ، تزرعها آلاف الشوارع التي تتوسطها بقع الميادين ، وتتجاور فيها المساجد والمباني العالية الضخمة ، وتوزّع فيها مئات الحدائق ذات الأشجار الكثيفة الظلال . وقد لا تكون القاهرة مدينة تعجّ بأماكن اللهو والمرح أو تبهر المرء بتمائل تخطيط عمائرها ، ومع ذلك فهي مدينة كبيرة فسيحة ، عميقة الأثر بطابعها المتفرّد ، نابضة بالدفء والحياة ، مفعمة بمواطن الجمال . وقد تكون هناك مدائن أخرى أقرب إلى مفهوم الجمال المعماري من القاهرة ، فلسنا نجد هنا تصميمًا يمضي في خط مستقيم ، ولكن لعل هذا التخطيط نفسه المتميّز بالتحرّر من قيود التماثل هو سرّ جمال المدينة الهادئ في غير سرف ، النبيل في غير ادعاء . على أن القاهرة التي



نراها اليوم ليست تلك القاهرة ابنة العصور العتيقة ، ذلك أن عصورا متعاقبة أضافت إليها الكثير من الأبنية والآثار فاكتملت عبر فترات متباعدة . لكنها على امتداد تاريخها لم تخل قط من معانقة الإيمان والفكر والجسارة والثراء والطاقة المبدعة الخلاقة . » .

وكانت ذكرى الممالك في ذهنه تطفئ على ما عداها : « فقد حققوا الكثير وشيدوا آثارا راسخة بديعة لا حصر لها . فعالم التوزيع المتشابك [ الأرابيسك ] الذي يغشّي في جلال مباني آسيا كلها لم ينافسهم فيه غير الهنود ، فكلاهما عرف كيف ينحت الرخام والحجر على حين اكتفى مسلمو غرناطة وطليلة والفرس والأشوريون بالخص المشغول . لقد استطاع عبيد الأمس مع بساطة نشاطهم أن ينقلبوا قادة بعد أن امتشقوا السيوف وباتوا لا تراود عقولهم إلا فكرة واحدة هي أن تتضاءل جميع المنجزات الإسلامية في أنحاء العالم أمام ما يشيدونه هم من منجزات باستثناء الهند [بطبيعة الحال] . وبالرغم من تنافسهم الدامي لم يغفلوا في غمرة تطاحنهم عن مواصلة إقامة منشآتهم الخصبية . هكذا قام البناء الشامخ لمسجد السلطان حسن الذي شيده خلال فترة مطالبته بالعرش الخالي متحدّيا غريمه القديم منشئ قلعة الجبل [ صلاح الدين ] فلم يجد مشقة في أن ينشئ تحفته المعمارية حصنا على هيئة مسجد لا يقل مناعة عن القلعة المواجهة له » .

ولا يلبث أن يطوف بطرقات القاهرة الضيقة جاهدا في « تصنيف » أنماط البشر التي يصادفها وفي التمييز بين الملامح الأساسية للأجناس التي تتدافع وتتلاقى أمامه : « الفلاحون الذين تجري في شرايينهم دماء الزنج والعرب ، والبدو الرحّل قطاع الطرق ، والجنود الأتراك المغامرون الوافدون من البوسنة وألبانيا الذين لم يتعاطف معهم المصريون لتطاؤلهم وقحتهم في السلوك والمعاملة » . كان شغله الشاغل وهو يجوب الطرقات التطلّع إلى مختلف السّحن المتزاحمة من مختلف الجنسيات الوافدة والمقيمة كي يسجّل الفروق الدقيقة في الملامح والألوان ، وكانت أمنيته لو توافر له الوقت أن يختلط بالمواطنين الأصليين لينفذ إلى أعماق الحقائق .

وقبل أن يبحر من ميناء السويس إلى الخليج الفارسي متجها إلى الهضبة الإيرانية مهد الجنس الآري الذي هو في رأيه قد أخصب الأجناس الأدنى مرتبة فخلق الحضارة التي تنعم بها ، نراه بالرغم من عدم إحساسه ندما على أنه لم يتعرّف الحضارة المصرية الفرعونية يقصد أبا لهول وأهرام الجيزة ليحييها تحيته الأخيرة . وما كان لنا أن نطلب إليه فوق هذا ، وهو الذي لم تقع عيناه على ما كتبه مارييت عن عظمة الآثار الفرعونية .

الفيلسوف

المتشبه بهيلينيته

إرنست رينان





جاء إرنست رينان مصر مرتين : الأولي في عام ١٨٦١ وكان في طريقه إلى بلاد الشام إلا أنه لم يمكث بها إلا أياما قلائل في مدينة الإسكندرية ، وفي الثانية عام ١٨٦٤ جاس أنحاء البلاد من شمالها إلى جنوبها ودون انطباعاته في مقال مشهور نشر بمجلة «العالمين» بباريس يوم أول أبريل عام ١٨٦٥<sup>(٧٧)</sup>.

E. Renan: (٧٧)  
L'Ancienne Egypte.  
Revue de deux mondes.  
1865.

وعلي أية حال فلقد كانت رحلته الثانية أكثر أهمية إذ شاهد فيها الكثير من المناظر الطبيعية ، وخاصة أثناء رحلته إلى أسوان على الباخرة النيلية ضيفا على مارييت باشا عالم الآثار الفرنسي الذي كان مشغولا وقتذاك بحفائره في معبد أبيدوس ( لوحة ١٥٤ ). والحق إن رينان لم يكن يقصد زيارة مصر وحدها بل كان في طريقه إلى دمشق وأنطاكية وسلوقية وأثينا متتبعا آثار بولس الرسول في رحلته التبشيرية بهدف وضع المجلد الثالث من كتابه عن تاريخ «أصول المسيحية» . ولم يبق في الإسكندرية إلا يوما واحداً حيث وصفها في خطاب لأحد أصدقائه بأنها : لم تزل كما رآها منذ ثلاث سنين ، دميمة قدره نايبة . كما وصف أهلها بالغلظة والتطرف اللذين ينبوان عن الذوق . ومن الغريب أنه كتب ذلك على الرغم من الحفاوة التي قدمها له التاجر الفرنسي السكندري الثري براقيه ، وهو الذي جعل منه ألفونس دوديه نموذجاً لشخصية رئيسة في روايته «الثري المحدث»<sup>(٧٨)</sup> عن واحد من حديثي النعمة الذين عادوا إلى وطنهم فرنسا بعد أن جمعوا الثروات الضخمة في الشرق .

وعند وصول رينان إلى القاهرة وجد مارييت في انتظاره وعندها غير رأيه ، لا سيما بعد أن مثل بين يدي الخديوي إسماعيل الذي ترك في نفسه أثرا طيبا فوصفه في خطاب إلى أحد أصدقائه بأنه «رجل هادئ لطيف المعشر جم الأدب يفيض بالنوايا الصالحة . ولكن كم أنا مشفق عليه مما سيتحمله من أعباء إزاء حالة بلاده الاجتماعية المتدهورة !» . وانتقل بعد ذلك إلى زيارة الآثار المصرية في الجيزة وسقارة كما زار متحف الآثار ببولاق بصحبة مارييت ( لوحة ١٥٥ ). ويأذن من الخديو وبرفقة مارييت قصد صعيد مصر على ظهر باخرة خديوية واستغرقت رحلته أسابيع ثلاثة . على أن الانطباع العام الذي ارتسم في ذهنه هو تلك المناظر البرية الرملية الجافية وتلك الحضرة التي تغمرها الأتربة ، ولم يكن معجبا إلا بالسماء والنيل



لوحة (١٥٤) مارييت باشا





لوحة (١٥٥)  
متحف الآثار ببولاق

والآفاق المترامية ، وكان أشدّ المعابد المصرية أثراً في نفسه هو معبد فيله . ويتضح من مقاله الشهير أن زيارته لأثار مصر القديمة بالأقصر وأسوان لم تثر في نفسه ما أثارتها آثار اليونان ، بل إن شغفه بالحضارة اليونانية والفن اليوناني قد نما وهو يتأمل الآثار المصرية . فلقد عدّ الفن المصري نقطة انطلاق صوب المعجزة الإغريقية ، مع اعترافه بأنه فن جدير بالتحليل والدراسة لا لذاته وإنما لما قدّم من عناصر جمالية ومعمارية مهدت للفن الإغريقي . وخلاصة ما رأى في مصر القديمة أنها حضارة قيّدها الاستبداد الديني والسياسي . غير أنه يبدو أنه في حكمه هذا كان متأثراً بما كشفت عنه الحفائر وقتذاك التي لم تكن قد تجاوزت في ذلك الوقت غير الدولة القديمة ، فلم يتهيأ له الاطلاع على ما كشفت عنه الحفائر التي جاءت بعد في المرحلة المصرية اللاحقة من اتجاهات ميتافيزيقية ونزعات تصوّفية . وقد حمل رينان بعض الإعجاب بالتصاوير الجدارية في سقاره ، إلا أن أكثر ما شاهده قد أثار في نفسه لونا من الملل . هذا إذا استثينا فن النحت المصري في الدولة القديمة وخاصة تمثال شيخ البلد الذي وصفه وصفا مسهباً في مقاله بمجلة «العالمين» . ولم يتعرض رينان قط لفن عصر أخناتن ولا لروائع أبيدوس مع أن صديقه مارييت كان يُجري حفائره هناك . ومع ذلك فإنه بنظراته المتأملّة في أبي الهول والأهرام قد أخذ يردّ في نفس المقال دعوة الوحداتية اليهودية إلى أصول مصرية . ويختتم ما كتبه عن مصر بأن أبشع من أساؤوا إلى آثار الحضارة المصرية ليسوا هم اللصوص أو الرحالة الجشعون أو المغرمون باقتناء العاديات بل كانوا حكام الأتراك غير المباليين الذين حاولوا منذ عهد محمد علي أن يطبعوا مصر بطابع الحضارة الحديثة ناسين ماضي مصر الزاخر بالآثار الشامخة متجاهلين سوابقها العريقة في سبيل الحاضر المجلوب والمستقبل المرتقب .

مفكر تشغله  
قضية الفلاح  
إدموند أبو



Edmond About: **Ah-** (٧٩)  
**med Le Fellah.** Revue de  
deux mondes. 1869.  
**Le Fellah (Souvenirs**  
**d'Egypte).** Hachette 1905.

ترك لنا إدموند أبو عضو الأكاديمية الفرنسية بعد رحلته إلى مصر رواية «الفلاح» التي نشرت في مجلة «العالمين» باسم «الفلاح أحمد» (فبراير- أبريل ١٨٦٩) (٧٩). وهذه الرواية ليست أفضل أعمال أبو وليست كذلك رواية متميزة كما لم تكن ذائعة الشهرة ، ولكن ما فيها من أهمية يرجع إلى أنها تزودنا بدراسة وافية عن عادات المصريين وبيئاتهم ، وتعرض صورة شاملة لمصر تحت حكم إسماعيل أضفى عليها المؤلف من براعته ومرونته وبهلوانيته ما جعلها شائقة جذابة . فكانت تتخللها لمحات من ذكائه وعلمه الواسع وقدرته الفذة على بث الظلال والأضواء في لوحاته الجامعة . وكان إدموند أبو قصاصا ذا خبرة واسعة بالزراعة وحنكة بشؤون الاقتصاد ، وكذا كان عالما وصحفيا ورحالة وفنانا يحيط بعلمه بكل شيء ، وينفذ بصره إلى كل شيء ، وينتهي إلى سمعه كل شيء . وكان هذا الكاتب المتخصص بالعلوم الإنسانية واخضارة اليونانية يشعر في أعماق نفسه أنه رجل مال ومزارع كفء ، مقتنعا كل الاقتناع بأنه تارك الأدب يوما إلى التجارة ، فلقد كتب في التجارة كما كتب في الأدب . ولذلك كان على كفاية لأن يصوغ رواية «الفلاح» التي هي في آن واحد رواية ثقافية ورواية اجتماعية ورواية خاصة بعالم المان ورواية ذات قضية يدافع فيها مؤلفها عن وجهة نظر خاصة ، وهي كلها عناصر تكشف عن حرصه على أن يكتب لروايته النجاح .

وقد اختارت الحكومة الفرنسية إدموند أبو مبعوثا لها إلى مصر كي ينهي إليها ليس فقط ما وصل إليه مشروع دلسبس في قناة السويس ، والنظر في شؤون الزراعة بمصر تنمية وثناء ، بل كذلك ما يتصل بالإصلاح القضائي ، إذ كان سعيد باشا قد طلب إلى الدول العظمى من قبل إلغاء نظام المحاكم القنصلية وإنشاء محاكم مختلطة بدلا عنها . ولما كانت الحكومة الفرنسية تخشى ضياع مصاخيرها وامتيازاتها الرأسمالية إذا وافقت على المشروع المقدم من الخديو رأت أن توفد إلى مصر مبعوثا موثوقا به يرجع إليها بتقرير واف عن مجريات الأمور . وقد حرصت مصر على أن تضم هذا المبعوث إلى جانبها ، وكان إسماعيل باشا قد تلقى رسالة من وزير خارجيته نوبار باشا الذي كان يفوض الفرنسيين في باريس تحمل نبأ مقدم المبعوث الفرنسي ، ويوصي فيها نوبار بضرورة استقباله استقبالا خاصا والاحتفاء به احتفاء شديدا ، فأحاطه إسماعيل منذ أن وطئت قدماه أرض مصر بكل مظاهر الرعاية والعناية وخصه بمركب حربي ينقله إلى حيث يشاء كما جعل له حرسا خاصا به .



ولم يقف إسماعيل عند هذه وتلك بل بذل له مالا كثيرا بلغ خمسة وعشرين ألف فرنك اشترى به منه كتابه «الفلاح» الذي لم يكن قد أعدّه بعد . ولقد مكّنت هذه المجاملات إسماعيل أن يستميل إليه هذا المبعوث الذي يسّر له الأمور في مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية ، وهذه لا شك كان لها أثرها الخاص في كتاب «الفلاح» ، حتى إن أبو قد كتب إلى صديقه الفنان چيروم يقول إنه عرف مصر حق المعرفة وأصبح قادرا على وصفها من أقصاها إلى أدناها في دقة فائقة غير أن سخاء إسماعيل نحوه قد ألجمه عن أن يذكر ما يسوء ! .

وقد أمضى إدموند أبو بمصر سبعين يوما ، فلقد نزل الإسكندرية في ٤ يناير عام ١٨٦٨ وقضى بها يومين قبل أن يغادرها إلى القاهرة التي قضى بها هي الأخرى يومين ثم أخذ في زيارة أنحاء الدلتا . وفي يوم ١١ يناير صعد المركب الحربي الذي خصّه به إسماعيل ليبحر إلى مصر العليا . واستغرقت هذه الرحلة التي كان فيها بصحبة أركل بك ابن أخت نوبار وعالم الآثار مارييت باشا أسابيع أربعة عاد بعدها إلى القاهرة ليمكث بها ثمانية أيام قصد بعدها الإسماعيلية وظل بها إلى نهاية الشهر .

وتضم قصة أحمد الفلاح مدخلا في أربعين صفحة تقع جميع أحداثه في فرنسا ، يليه وصف لرحلة المؤلف إلى مصر . ويذكر لنا أبو أنه في يوم من أيام الشتاء كان يمارس الصيد في غابة قرب قصر من قصور أصدقائه فلقي الفتى بطل القصة وهو يُهشّم الجليد المغشّي لبركة من البرك كي يتوضأ بدوّه . وإذا ذلك الفتى يتقدم منه ويقدم بطاقته التي تحمل اسمه : «أحمد إبراهيم الفلاح» . البعثة المصرية . ويروي أحمد وهم يتناولون العشاء في زهو وشجاعة نشأته في وادي النيل وتلك الحياة النعسة التي كان يعيشها ذوه في قريته . وينفضّ شمل جميع المدعوين ، وإذا بالمؤلف بعد يقرأ في صحيفة من الصحف أن رفيقه المصري في الصيد قد جرح جرحا خطيرا في مرسيليا وهو يبارز خصما له كان قد سبّ سعيد باشا . وتقرأ أعوام سبعة وإذا بإدموند أبو في أرض الفراغة بعد أن شهد الجناح المصري بمعرض باريس الدولي عام ١٨٦٧ فشده إلى تلك الزيارة ، هذا إلى أن الحكومة الفرنسية قد وكلت إليه أن يعدّ لها بحثا عن الشؤون الزراعية بمصر . وفي الباخرة التي أقلته إلى مصر يلتقي بفتاة إنجليزية جميلة هي الأنسة جريس في رفقة أسرته . وحين وصل إلى الإسكندرية ونزل بأحد فنادقها وجد نفسه بين نفر من المغامرين الأوروبيين المقيمين بها الذين أخذوا يتجادلون أمامه جدلا حادا ، وفجأة يرى بين يديه صديقه أحمد الفلاح وقد غدا من الأثرياء يملك الكثير . وحين جلس الفلاح إليه أخذ يقصّ عليه ما لقيه بعد أن جرح في المباراة بمرسيليا وغادرها إلى مصر ، وما كان من سعيد باشا من تقدير له جزاء ما سلف منه في حقه فأقطعه ما يملكه الآن من مزارع كما منحه خمسين ألف فرنك ، ولكنه للأسف لم يجد حين نزل قريته غير منزل خاو تركه له أبوه بعد أن لقي حتفه أثناء غيبته في سخرة شق قناة السويس التي أضنت الفلاحين وزهقت معها أرواحهم . ويصل أبو ما بين الفتى الشاب وبين رفقاء رحلته من الأوروبيين ، وإذا بأحمد يقع في غرام تلك الإنجليزية الفاتنة التي كانت تصحب أبو في رحلته ، ويوجه أحمد إلى جميع رفقاء أبو ومن بينهم تلك الفتاة دعوة يشهدون فيها القاهرة القديمة وخان الخليلي والقلعة ورقص العوالم ومباهج شهر رمضان .

ولقد حاول خلال الدعوة جاهدا أن يتقرب إلى الفتاة غير أن محاولاته ذهبت عبثا ، فلم يثن عن عزمه ودعاهم مرة أخرى إلى قضاء أيام في مزرعته بالمنصورة ، وكانت تلك فرصة للمؤلف أن يشاهد

فيها أساليب الزراعة في الدلتا على الطبيعة مما أتاح له أن يعرض آراءه في تطويرها بإسهاب وقدرة فائقة . على أن الغادة البريطانية لم تأبه بمحاولات أحمد الملحة وانفضّ شمل المدعوين في المنصورة على أن يلتقوا مرة أخرى في قنا حيث كان لأحمد هناك مزرعة ثانية . ويبحر إدموند أبو في الباخرة التي هيأها له الخديو لتنقلاته على حين أبهرت الفتاة وأسرتها على ذهبية كانت ملكا لأحمد الفلاح . ويزور أبو الأقصر وإسنا وأسوان ومعه بعض أمراء البيت المالكة في صحبة مرشد خبير هو مارييت باشا . ثم عاد أبو إلى القاهرة مارا بسقارة وقضى بها ما قضى بعد هذا وإذا هو يُرى في حفل راقص بيت من بيوت الفرنسيين في الإسماعيلية . وكان أحمد في رفقة تلك الفتاة الإنجليزية وقد لانت آخر الأمر وأخذت تبادل غراما بغرام ، غير أن ما كانت تحسه من خلاف بينها وبين أحمد جنسا ودنيا لم يلبث أن بلبل خاطرها وأقصّ مضجعها وباتت فريسة صراع حاد بين العاطفة والعقل ، وإذا عقلها يغلب في النهاية عاطفتها ولا تجد خلاصها من هذا الغرام الطارئ غير أن تفلت وتهجر مصر إلى وطنها . وما إن علم أحمد الفلاح ذلك حتى أقسم بقبر أبيه ليعودنّ بها أو ليموتنّ دون ذلك . وإذا هي واليخت على وشك الإقلاع من بورسعيد ترى أحمد قد قذف بنفسه إلى البحر سابحا حتى وصل إليها ، وما إن تلاقيا حتى أقنعا بالعودة .

هذه هي رواية الفلاح التي تُعزّزها الأحداث ولا تشيع فيها الحركة ، وما ذكر بها من أحداث نحسّ فيها الملل لما تعرّض له من أمور سياسية واقتصادية وزراعية مسهبة . وما تبدأ القصة أن تكون مثيرة إلا حين ينفذ المؤلف يده من العاشقين ويأخذ في سرد أحداث رحلته إلى مصر العليا . ونستطيع أن نقول في إجمال إن القصة جاءت غير متوازنة ، فصفحاتها تبلغ العشرين بعد الثلاثمائة قدّم لها بأربعين صفحة ، وخصّ مائة صفحة بالحديث عن الرحلة ، جعل ما يربو على مائة وخمسين صفحة للحديث عن شؤون الزراعة مما يجعل القارئ يحسّ بركود القصة في ثلثيها الأولين . وثمة إلى جانب فقر القصة الرومانسي هنات سيكولوجية كثيرة . فإذا كانت رواية الفلاح تُعزّزها الأحداث فهي إلى ذلك تُعزّزها الشخصيات ، فشخصية أحمد الفلاح اقتباسية ثم هي فوق ذلك مسوقة في بساطة مفرطة ، وفي مثالية تتفق وأهداف المؤلف أكثر مما تتفق مع الحياة والواقع . هي شخصية لطالب نابه في البعثة التعليمية إلى باريس يعود إلى بلاده مزودا بكل الفضائل والقدرات والرغبة في التجديد . وهي شخصية مزارع من الطراز الأول ونموذج للفروسية النبيلة والوفاء والركة والولاء ، ثم هي كذلك نموذج للتفوق الفكري والمعنوي ، كما أنها برهان على تحرّر والي مصر الذي أتاح للصفوة من المصريين الاتصال بأسباب الحضارة الغربية . غير أننا نحسّ أن هذه الشخصية لا تمتّ إلى صفات الفلاح بسبب غير ما فيها من تقوى وتوقير للشعائر الإسلامية واستقامة خلقية والحفاظ على تقاليد البيئة من كرم وحب للعمل ، وأنها لا تمثل الشخصية المصرية في قليل ولا كثير ، وإنما هي لفلاح مصري أسبغ عليه المؤلف ما يهون ما طبع عليه الإنسان من نقائص بشرية . أما فئاته الإنجليزية فقلّ أن نجد مثلا إلا فيما تقصّه علينا الروايات العاطفية فليس لها من أثر في الحياة الواقعية ، فهي شديدة الوقار وذات قلب نبيل ترفض مبادؤها المساومة .

تُرى ما وراء هذه القصة من شأن؟

ما من شك في أن شأنها يكمن وراء تلك العادات والمظاهر في الحياة المصرية التي استدعاها المؤلف لتثير الخيال من ناحية ، ووراء الأهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حشى بها



القصة من ناحية أخرى لتستقيم وتغدو قصة اجتماعية وقصة ذات قضية لها قيمة تاريخية ، ولا شك أننا نجانب الصواب إذا نحن استخفنا بها ، فقد أمضى إدموند أبو شهرين في مصر لم يضيعة عبثاً إذ رأى وسمع ولاحظ وحلّل ورسم . وما من شك في أنه لم يلق بالآ إلى قواعد الفن الأدبي ، فمن آخره متراخ في قصته وشخصياتها مفتعلة ، ولكنه على أية حال كشف فيها عن استيعابه الشامل للعلاقات بين مصر وأوروبا لا سيما فيما يتصل بإصلاح المحاكم القنصلية والمشكلة الزراعية وشق قناة السويس كما كشف عن رؤيته الجامعة للعادات والتقاليد المصرية في منتصف القرن التاسع عشر . وكانت العلاقات بين مصر وأوروبا محل مناقشة بين المؤلف وأحمد الفلاح الذي قام فيها محامياً عن مصر على حين كان إدموند أبو محامياً عن أوروبا ، وينتهي الاثنان إلى اتفاق على التعاون بينهما ، وقد استوعبت المناقشة ما يربو على نصف القصة .

وينطلق إدموند أبو مبرراً السخرة التي يستخدمها الخديوي لحفر الترع والقنوات بما ساقه على لسان أحمد الفلاح ، الذي يذهب إلى أن ريح الغرب هي التي تسقط الأمطار على حقول أوروبا فلا يعاني أهلها من ضراوة العمل اليدوي الذي يدفع إليه الناس دفعا في مصر حيث لا يهطل المطر من السماء إلا مرتين أو ثلاث خلال السنة ، وهو ما يدعو الخديوي إلى احتلال مكان الريح في توزيع مياه النيل عن طريق تنظيم عمل الرجال الذين يجنون أن مصلحتهم في أن تكون أيديهم رهن إشارته !

ونرى أبو فيما يتصل بالمحاكم القنصلية يسوق على لسان مغامر من المغامرين الفرنسيين القاطنين في الإسكندرية الحديث التالي : «لست أدري لم يهاجر اليهود من مصر إلى أقصى المعمورة سعيا وراء أرض أخرى للميعاد فإن الإسكندرية هي أرض النعيم ، وإنني لأكاد أحس وأنا هنا أنني في موطني ، فإن ما حققته من كسب خلال أزمة القطن يفوق أي خيال ، فحسبك أن تكون بمصر كي تريح المئات والألوف دون أن تدفع درهما واحدا ضريبة ، فالغازمون بأداء الضرائب هم الفلاحون وحدهم . أما القناصل فهم طغاة صغار تجاوز سيطرتهم على رعاياهم الحد ، يحابون من يشاؤون من أصحاب النفوذ ولا يابهون بالبسطاء . فإذا فات أحد القناصل القطار ، فعلى القطار أن يعود القهقري مرغماً ساعياً إليه» .

وحين تسأل الآنسة جريس المؤلف عما إذا كان القناصل يلتزمون بمواعيد محددة يجيئها : «قد تكون لهم مواعيد ولكن ليس ثمة قانون ضابط ، فأقدار القناصل لا تُمس ولا يُنال منهم ، فهم آلهة بيدهم حركة الشمس» . وهنا ينبري أحمد ليقول : «علي الرغم من المعاهدات الدبلوماسية والقانون يساء استخدامه ، فكل أوروبي يظاً مصر يعدّ سيّدا بلا منازع يجلب معه قوانين بلاده لا ليعمل بها بل ليتخذها ذريعة في خرق قوانيننا ، فهو لا يعترف بالحكومة أو السلطة أو القضاء المصري ، ولا ولاية لأحد عليه غير قنصله . فإذا وقع نزاع بينه وبين أحد مواطنيه أو بينه وبين مواطن مصري فيلجئ قنصله مردّ الحكم في تلك الخصومة لا إلى القضاء المصري» .

ويتعجّب أبو فيسأل الفلاح : «كيف ترجو من أوروبا وهي التي تقرّ هذه المظالم أن تكون في عونكم ، وكيف لمصر وهي ذات التاريخ المجيد الذي يضرب في الماضي عشرة آلاف سنة أن تطلب العون من أوروبا ؟ وكيف يرجو المصريون منا نحن العصابة المقيمة بينهم العون ؟» .

ويجيبه الفلاح : «علي حين يلحق بأرضنا من أوروبا رجل واحد نزيه يجيء في إثره عشرون قرصانا ، غير أننا في هذا العصر العلمي الصناعي الاقتصادي لا نقوى على أن نعيش في عزلة عن الحضارة الأوروبية فلا غنى لنا عنكم . ولقد وهبتنا السماء أميراً فطنا يقبل راضياً أن ينزل عما بيده من سلطة إلى القضاء المختلط» .

وهنا نجد المؤلف نفسه يؤيد اقتراح الخديوي بإنشاء المحاكم المختلطة وكأن المبعوث الفرنسي يلجئ رغبة الخديوي ويخدم مصر وفرنسا في آن معا .

علي أن موضوع التطوير الزراعي ينال حظاً أكبر من اهتمام المؤلف فنراه وكأنه هنا في بيئته وهو يبيّن كيف ينهض بالزراعة في البلاد ، بل نراه يخوض كذلك في شؤون الثروة السمكية فيقترح إنشاء مزارع لتربية المحار في بحيرة التمساح ولتربية الأسماك في بحيرة مريوط وتجفيف بحيرة المنزلة لزراعة الأرز . ومن قبل إدموند أبو كان جوستاف فلوبيير قد أنيط به أن ينظر في شؤون الزراعة بمصر أيضاً كما أسلفنا ، غير أن أبو كان أكثر جدية من فلوبيير إذ كان هذا التكليف من صميم اهتماماته .

وكان لا بد له من أن يكون متفائلاً عند النظر في مسألة قناة السويس إذ كان فردينان دلسيس وقتها قد تغلب على العقبات الفنية والمالية والسياسية التي اعترضته منذ أن نال امتياز شق قناة السويس عام ١٨٥٤ . وعندما توقف العمل بنظام السخرة في عام ١٨٦٤ جند خمسة عشر ألف عامل أجنبي من فرنسا وبيدمونت وكالابريا والنمسا ودالماسيا والجزر اليونانية والجزائر وسوريا ، ولجأ إلى استخدام الآلات فأحضر الكاسحات والجرافات والرافعات وأنشأ «ورش» الإصلاح ، وانتقل فجأة كما يقول أناتول فرانس من عصر الفراعنة إلى العصر الحديث .

ولم يضم الكتاب إلا أقل القليل من أوصاف المناظر التي ألهمت الرحالة السابقين عليه صفحات شاعرية ، فهو في وصفه يسوق ملاحظات جامدة مقتضبة ، ولم تحظ الشاعرية بالعبور في أفق روايته حتى إننا لا نلتقي فيها بتلك التناغمات الجميلة أو ذلك الجرس العذب الذي ألفناه في كتابات جيرارده نرغال أو لوتي ، فأسلوبه وإن كان رشيقياً جليلاً إلا أنه سريع موجز شأن كتاب القرن الثامن عشر . ولا يفلح المؤلف في بعث الحياة فيما يصفه من مشاهد ، فإذا وصف بيتاً مصرياً وصفه على نحو منهجي دقيق ولكنه لا يلتفت إلى ما فيه من سحر ولا يكشف لنا عما يحيطه من غموض . ويغلب على ظن من يقرأ وصفه لنادي الملوك أن عظمة منشأته لم تهج مشاعره ولم تلهب خياله .

وعلي العكس من فلوبيير الذي تختفي شخصيته الاختفاء كله في رواياته نرى أبو يجد متعة كبرى في إقحام شخصيته في ثانيا ما يقصّ ، إذ كان يرى أن بروز شخصية المؤلف تجعله حراً كل الحرية فيما يروي . ولا يصح أن ننسى أن نشأته الكلاسيكية طالباً بالمدرسة الفرنسية في أثينا جعلته لا يميل كثيراً إلى الفن الفرعوني فيقول : «إن كل فنون مصر منذ عهد موسى إلى العصر البطلمي وكذا العمارة والنحت والتصوير تبدو لعيوننا جامدة صامدة تشدها التقاليد المتعارف عليها التي لم يستطع الفنان أن يحيد عنها فلم يجد وهو في إسارها مجالاً للابتكار . ونحن إذا سحقتنا جميع المنجزات المصرية القديمة عامة وحوّلناها من جديد إلى منجزات أخرى لم نجد بين أيدينا ما يعادل



إنجازا إغريقيا واحدا مثل معبد ثيسوس أو تمثال فينوس من ميلوس». ولكنه مع ذلك يخطّ بضع سطور عن فيله وإدفو ولا يخطّ كلمة واحدة عن الكرنك الذي زاره برفقة مارييت باشا، ولا يستثني من ذلك كله إلا مقابر بني حسن التي: «تعبّر عن رقة الحياة الريفية بعدوبة وحيوية ومرح وبهجة فليس بها أية إشارة إلى سلطان الملوك أو استبداد الكهنة الطاعني في وادي الملوك حيث يبلغ سلطان الفراعنة القمة فلا نعجب فيما نراه هناك من شطط في استخدام الأيدي العاملة لشعب يعيش في أكواخ من الطين. وما أشدّ ثورتنا بين أيدي تلك الحشود الغفيرة من البشر التي ضحّت بالحياة الدنيا وهي الحياة الحقّة ابتغاء حلم بعالم آخر وخلود وهمي». ويبين لنا من عبارة أبو الأخيرة مدي إلخاده وما يضمّر من عداوة للمسيحية، ثم هو لا يتردد لحظة واحدة وهو يناقش الأديان المقارنة في أن ينحاز لأحمد المسلم ضد الكاثوليك الفرنسيين، فيقول على لسان أحمد الفلاح: «ما أشبه الصلاة عندنا بما تقوم به النساء من نسج وتطريز. ثم ما أشبه البرّ عندنا بضرب من ضروب المباهاة أو لتفادي ثورة الفقراء على الأغنياء، كما أن التبشير لون من ألوان المخادعة. وإن تحريك مسلم لأصبعه مرة واحدة وهو يسبح يفصح عن أن ما في قلبه من إيمان يُربى على ما تكنه قلوب حشد كبير من الكاثوليك».



ناقد يجتذب الملايين  
إلى تذوّق الفن الإسلامي  
**شارل بلان**



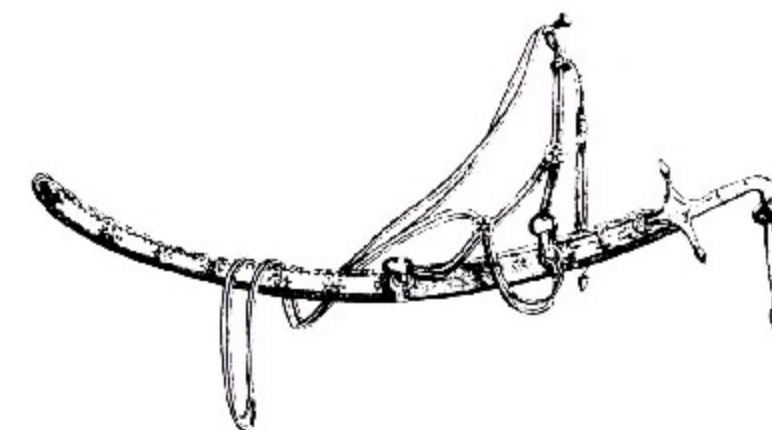


ظفر الفن الإسلامي على ضفاف النيل من خلال شارل بلان باهتمام حركة النقد الفني الفرنسية، فمؤلفات پاسكال كوست وپريس دافن الكبيرة الحجم الباهظة الثمن لم تكن معروفة لغير المتخصصين، ويعود إلى شارل بلان الفضل في تعريف غير المتخصصين بهذه الأعمال في كتاب ذائع يوازن فيه في حذق ولباقة بين أوابد المصريين القدماء وأوابد الإسلام، «فعلى حين يؤثر الأوائل تكرار نفس الصيغة يفضل العرب التنوع». ثم يفسر أصول الزخارف الإسلامية وتطورها قائلا: «... لما كان حفر تناول الكائنات الحية في الفنون الإسلامية يُخمد همّة الفنان ويحدّد وسائل تزيين أسطحه فقد وجد نفسه مسوقا إلى الاتجاه نحو التجميع الذي هو السمة الغالبة في فنه...». كذلك يعود الفضل أيضا إلى شارل بلان في التعريف بقيمة المؤرخ بورجوان حين تناول كتابه «الفنون العربية» بالثناء والتقريظ قائلا: «أثبت لنا السيد بورجوان في كتابه أن الغموض الذي يتراءى لمن يشاهد التوريق المتشابك [الأرابيسك] من خلال المربعات المنحرفة المتناثرة والمثلثات المتقاطعة والمضلّعات المترابطة والأسطوانات المتناوبة ليس إلا غموضا ظاهريا، إذ ثبت على وجه اليقين أن ثمة نهجا غاية في البساطة يسري خلال هذه المتاهة المحيرة في تلك الأشكال المجردة، وأنا بتنا نستطيع العثور على الخيط الهادي وسطها». ولقد ظل كتابه «رحلة إلى مصر العليا. ملاحظات حول الفنون المصرية والعربية»<sup>(٨٠)</sup> الذي ألفه بعد زيارته لمصر عام ١٨٦٩ نبعا لا ينضب للانطباعات المباشرة ومنتجعا للدراسين والباحثين حتى يومنا هذا.

Charles Blanc: (٨٠)  
Voyages de la Haute  
Egypte. Observations sur  
les Arts Egyptien et  
Arabe.



أديب أفّاق  
شارل إدمون







ومن بين شردمة النفعيين الذين زحفوا على مصر ينفرد الانتهازي الجاحد شارل إدمون بتأليف كتاب يتناول فيه قصة حياة شخصية جليلة كان لها فضل حقيقي في تنظيم وتدريب الجيش المصري وإحراز انتصارات حاسمة أعلنت من شأن مصر في التاريخ المعاصر في ميادين القتال بسوريا وشبه جزيرة المورة ، وأعني به الكولونيل سيف ، وإن تناولها بقدر كبير من التشويه الظالم له . وتكمن المفارقة في أن هذا الضابط الشجاع الكريم كان قد أشفق على شارل إدمون واستضافه بحفاوة وثقة لم يكن للأسف أهلاً لهما . وكان شارل إدمون مهاجراً بولندياً قد غير اسمه الأصلي « تشاوكيه » بعد هروبه من تهمة سياسية طارده في بلاده فلجأ إلى باريس حيث عمل بالصحافة الثورية حتى اضطر إلى مغادرة فرنسا مطارداً من رجال المال والسياسة ومن الشرطة وفر إلى مصر آملاً في أن يعيش حياة المغامرة التي شدته إليها قراءته لرحلة جيرانده نرغال ، وأن يجمع الأموال الطائلة مثل غيره من الوسطاء الأجانب . وعند وصوله إلى الإسكندرية طرق أبواباً عدة ، غير أن أحداً لم يُعَرِّه اهتماماً تشككاً في شخصيته المريبة ولتعجّله الإثراء ، فانتقل إلى القاهرة وساقه حفظه إلى التعرف إلى الكولونيل سيف أو سليمان باشا الفرنساوي . وكانت مصر وقتذاك تحت حكم عباس باشا العبوس ابن طوسون وقد آلى على نفسه أن يهدم كل ما بناه جدّه محمد علي ، ففصل الموظفين الأوروبيين وسرّح الجيش وألغى المدارس وأغلق المستشفيات وفرض لبس الطربوش حتى غدا ارتداء الزي الغربي أمراً محفوفاً بالخطر ، وشاع نظام السخرة وساد السوط في إسكات صوت من لا يفوز برضاء عباس ، بينما غدت لمن يحظون بثقته سلطات بغير حدود . ولم يكن سليمان باشا بطبيعة الحال في مثل هذا المناخ الشاذ يحظى بكل الرضاء وإن كان محاطاً بالاحترام والإجلال لماضيه الحافل بالمآثر والآخر بالنزاهة . وكان يقطن ضيعة فسيحة على النيل بمصر القديمة<sup>(٨١)</sup> يعيش فيها بأسلوب مزج بين جنديته الأصلية وطبعه المرح ولسانه اللاذع ونزعته البورجوازية الفرنسية التي تلح عليه عند بلوغ سن الاعتزال أن يلوذ بالطبيعة وينشغل بشيء من الزراعة وتربية المواشي لا سعياً وراء مزيد من المال الذي كان موفوراً لديه وإنما لحرصه على الاستمتاع بما اعتاده من غذاء شهى سائغ يستملحه ويستمسك به كل فرنسي أصيل . وقد مال بعد أن ولي أكبر المناصب - كما قدمت - إلى أن يعتنق الإسلام حتى لا تحول ديانتها الأولى وهي المسيحية بين أن يحضر احتفالات الرسمية الإسلامية ، ولكي يكون مصرياً حقاً يدين بما يدين به عامة المصريين . وقد حفل بهو قصره بالعديد من الجوارى ، وما أكثر ما كان يبدلهن في الفترة بعد

(٨١) هدم قصر سليمان باشا الفرنساوي المطلق على النيل بمصر القديمة ، وتحل محله الآن إحدى المدارس ، غير أن ضريحه هو وزوجته ما يزالان قائمين .



الفترة . فكان يقضي نهاره مستسلما للنوم حتى يستعيد قواه التي أنهكتها سهراته البيضاء في مضغ أشهى الأطعمة وعبّ أجود الأنبذة وما يتلو ذلك من جهود ليلية مضية بين أحضان إمامه .

وكان شارل إدمون من المحظوظين الذين يشاركون في بداية هذه السهرات بعد أن أنعم سليمان باشا عليه بوظيفة شرفية في قصره أتاح له أن يسمع من نساء الحريم قصصا يخالف ذلك القصص الذي اعتاد سليمان باشا أن يرويّه في زهو وخيلاء وهو يتناول إفطاره . ومع مرور الأيام زاد عطف سليمان باشا على هذا الأفاق الذي يحيا بلا مورد ، فبدأ يصطحبه في تنقلاته غير الرسمية ويروح له ببعض ما يضيق به ويُسرّ له بحنيته إلى فرنسا وتعلّقه بأرض مصر وأهلها ورحابة الإسلام . وحينذاك طرأ بخاطر شارل إدمون أن يقنع سليمان باشا بأن يملّي عليه مذكراته خشية أن يضيق بطول ضيافته فيطرده . وعلي الرغم من تردد سليمان باشا حرصا على عدم البوح بما يختزنه من أسرار عن أسرة محمد علي وعن أغلب رجاء الدولة خلال فترة تجاوزت الأربعين عاما، إلا أنه أذعن في النهاية وقرر أن يقضي معه في الصباح فترة يُملّي فيها خواطره وملاحظاته عن الكثير من العادات والتقاليد المصرية وذاكرات المعارك وأبناء أفراد الجالية الفرنسية ، وإن ضاق بعد فترة وجيزة بهذه المهمة الثقيلة وملّ هذه الجلسات . غير أن ما حكاه كان بداية لأحداث القصة التي كتبها شارل إدمون بعنوان «زفيران كاظافان»<sup>(٨٢)</sup>، تلك الشخصية القميئة التي حاك حولها وقائع هزلية قصد كاتبها أن يسرّي بها عن قرائه الفرنسيين المتلهّفين للتعرف على أسرار حياة مواطنيهم من الأبطال المغترّين على ضفاف النيل . وكان شارل إدمون قد زيّف شخصية سليمان باشا على أنه أحد المماليك الذين التحقوا بجيش نابليون وحارب معه حتى موسكو إلى أن تولّى قيادة جيش مصر في عهد أسرة محمد علي ، ولم ينشر قصته التي كتبها في عام ١٨٥٠ إلا بعد مرور ثلاثين عاما على تأليفها خشية تأليب الشخصيات التي تعرّض لها عليه . وإذا كان هناك اليوم من يذكر شارل إدمون في عالم الأدب بسوء جحوده لسليمان باشا الفرنسي وتكرّره له ، فهذا لأن الحكم على الكاتب بعد وفاته قد يخالف الحكم عليه في حياته ، إذ يملك النقاد في الحكم عليه بعد موته حرية أوسع وتجمع لديهم من المعلومات ما لم يجتمع لهم من قبل<sup>(٨٣)</sup> .

Charles Edmond: (٨٢)  
Zephyrin Cazavan en  
Egypte. 1880

E.Gouin: (٨٣)  
L'Egypte au XIX Siècle.  
Histoire Militaire,  
Politique, Anecdote et  
pittoresque de Mehemet  
Ali, Ibrahim Pacha,  
Soliman Pacha (colonel  
Sève ). Paris 1846 - 1908.  
Marguerite Lichten Berger:  
Ecrivains Français en  
Egypte Contemporaine  
(de 1870 à nos jours.)  
Paris. Ernest Leroux 1934.

عملاق يلهو  
على أرض مصر

إدوار شوريه





كانت ثمرة الرحلة القصيرة التي قام بها إلى مصر الأديب الذائع الصيت «إدوار شوريه» كتاباً نابضاً بروح مؤلفه المرححة هو «محارب الشرق»<sup>(٨٢)</sup> الذي وصف فيه القاهرة بقوله :  
«لقد فقدت أبراج الحمام الاستوائية سحرها الشرقي وباتت غريبة الملامح وتهيأت لاجتذاب السائحين كي يستغلّهم التراجمة المرتدون ثياب الباشوات المخملية المطرزة بالقصب . وفي نفس الوقت الذي تفتح فيه علينا شردمة من الحمارمة ممتطين دوابهم بوجوههم الباسمة اللّحوحة نشعر بمن يجذب أقدامنا ليمسح أحذيتنا قسراً» . ومع ذلك فإنه لا ينفر من هؤلاء ولا من أولئك بل كان يحسّ بانجذاب غريب نحوهم ، ولا يلبث أن يداعبهم ويمرح بينهم جذلاً في براءة الأطفال (لوحة ١٥٦) .

ويخلبه حيّ الموسكي بعبقريّة تجاره الذين رأى أن فلسفتهم هي «أن أسلوب التجارة هو الدعة والتأمل ، وهي إلى هذا مغامرة تخالطها الحنكة والمفاجأة هدفها اعتصار العملاء بقدر المستطاع» . ومع هذا فإنه لم يضق بمسلكهم بل وجد أنهم على هذا يستحقون تقدير جهودهم حق قدره واعترافا بمهارتهم وبما كانوا يضيفونه من وهْم شرقي لذيذ في روعه وروع بني وطنه . وإذا كانت هذه الصور تتفق وطبعه الميال إلى الخيال فقد كان يغدق المال على الجميع بلا حساب عرفانا باللحظات التي يسعد فيها إلى جوارهم .

وعلى حين ذهب الفيلسوف المستشرق إرنست رينان إلى أن المصريين مجردون من الشاعرية والقدرة على الخلق بل ومن التقوى والوعى الميتافيزيقي لأنهم شعب سطحي النظرة مغلق الفكر فقير الحال محافظ جاهل ببلاده ، رأي شوريه في سماء مصر وفي منف وطيبة وفي الهرم الأكبر وإيزيس المقدسة وأبي الهول الخالد وفي النور الساطع وجلال الصحراء رموزاً حيّة «للروح الخالدة» وشعور المصريين الذي لا يتبدّل في صلابة حضارتهم ، فمصر هي الجذّة الوفور لتوحيد الإله والوحدانية اليهودية وتعدّد الآلهة الإغريق .



عاشق مصر وأشارها



پيرلوتي



لوحة (١٥٦) لحظة امتطاء الحمير أمام الفندق





ويقدم لنا بيير لوتي الأديب الفرنسي الكبير وأحد أساطين أدب الرحلات وعضو الأكاديمية الفرنسية كتابه الخالد « موت فيله »<sup>(٨٥)</sup> بعد رحلة قام بها إلى مصر عام ١٩٠٧ طاف خلالها ببلدانها المختلفة ، واستطاع أن يلمح بعينه الثاقبة الطابع الفرعوني والمسيحي والإسلامي لمصر ويتذوقه ، ذلك الطابع الذي يجعلها فريدة بين أمم العالم ، لها نكهتها الخاصة وشخصيتها المميزة . وقد أهدى كتابه هذا «لذكرى صديقه النبيل مصطفى كامل باشا الذي قضى نحبه عام ١٩٠٨ وهو يؤدي واجبه العظيم نحو بعث العزة الوطنية والإسلام في مصر» .

لقد أدرك لوتي بحسه المرفه ما تنطوي عليه أعماق الإنسان المصري من الإذعان للحكام والصبر على الشدائد والتعلق بالأرض وكرم الضيافة ، ثم عدم مبالاته بما حوله الذي يبدو وكأنه لون من الاسترخاء بعد هذا الجهد الطويل ، ويهيم الكاتب بتراث مصر ويقدّس ما لها في ذلك حتى إنه ليفزع من طغيان مظاهر المدنية التي تغزو البلاد فيناشد المثقفين من المصريين ليتصدوا لسلبات الزحف الأوروبي حتى لا يطغى على طابع مصر ، ويستنكر ما أتاه الإنجليز في مصر مدة عشرين عاما غيروا خلالها معالمها ، فشوهوا - في رأيه - قداسة المعابد والأطلال وأخرسوا شلالها وأغرقوا معابد فيله المقامة على ربوة عالية بإقامتهم لخزان أسوان . واتخذ الكاتب من غرق جزيرة فيله لؤلؤة مصر وإحدى عجائب الدنيا رمزا لموت مصر القديمة وإيدانا بنهاية هذه الأمة التي خلقت أول حضارة في العالم وأروعها ، بعد أن شاء الإنجليز أن يجعلوا من مصر مزرعة للقطن ومنتدى لأثرياء العالم الفارغين ، وكأنما شاء لوتي عن غير قصد أن تبقى مصر متحفا للتاريخ وأن تجمد الإنشاءات الضرورية لحياة الشعب ورفاهيته . والكتاب بعد ذلك لا يحوي تحليلا علميا أو اجتماعيا بل هو مجرد انطباعات أديب لمّا يحلّك أن يرسم بقلمه مختلف الألوان في بهجة تجذب القلوب وتشدّ العقول .

وفي القاهرة عاش لوتي حاضرا مصر وماضيها القريب قبل أن يوغل في تاريخها القديم . صافحت عيناه الجامع الأزهر الذي كان مركز الثقيف الأول في البلاد وروضة العلم والدين معا : «فناء فسيح غير مسقوف ، ثم سور خشبي رائع التركيب يحجز الطلاب في جُباتهم وعمائمهم ملتفين حول الأعمدة أمام شيوخ أجلاء يدرّسون لهم علوم القرآن والرياضة التي هي من اختراع العرب ، يتخرجون بعدها علماء أفذاذا ، ولكنهم للأسف متخلفون عن عصرهم إذ لم تتغير كتبهم منذ العصر الفاطمي تقريبا ، يعيشون على أموال الأوقاف ويتعاونون معا في كنس المسجد



بسعف النخيل ، يتخطف الطير عيشهم ويحركون القلوب بترتيلهم القرآن في هذه الأيام التي بدأ يختفي فيها الإيمان من قلوب الناس جميعا . لقد أغفت بلاد الشرق بعد مجد الإسلام الأول وتلك طبيعة الشعوب ، غير أن نداء الصحو يعلو اليوم مؤذنا ببعث جديد .

وفوق الربوة على مقربة من الأحياء الوطنية يشهد قلعة محمد علي ومسجده الذي يبدو وكأنه لفحة تركية ، حيث الرخام أبيض مجزّع والأسطة حمراء والعقود مذهبة بينما يرقد محمد علي في ضريحه بطلا أسطوريا تتعاقب فوقه سعفتان من النخيل . وفي هذا المكان يتخذ الإنجليز معسكرهم حيث يطلون من شرفة أمام المسجد على القاهرة بخضرتها ورمالها ومآذنها ونخيلها المتأرجح في الهواء وأهراماتها الخالدة ، على حين تشمخ على بُعد مداخن مصانع جديدة قرب الخط الفضائي الذي يخطه النيل ، ينتشر دخانها وكأنه سيحجب بكثافته كل ما للماضي القديم من جمال . وفي أسفل القلعة : « غضي وسط المصاييح الخافنة المعلقة على اخوانيت وزحمة الدور وتكاثف المشربيات كما نرطم ببرك النوح المتخلقة عن مياه الأمطار التي بدأت تتساقط بعد ري مصر آليا . والأهالي يخوضون في الأوحال المفعمة بالجرائيم مشمرين عن سيقانهم في استسلام غريب شبيه بتجاهل الغزاة الإنجليز لهذه المشاكل الجديدة التي خلقوها للسكان» . ويلاحظ بيير لوتي وهو في حي «مصر القديمة» كيف تتلاصق بيوت الأقباط وتُحط على أبوابها الصلبان ، وتحتضن وسطها فوق أطلال قلعة رومانية كنيسة القديس سرجيوس بسيطة بساطة المسيحية البدائية ، وكيف تزخر يوم عيد القيامة بالرجال والنساء والأطفال إذ كانت معبد الأقباط وملأهم ، يشيع في جنباتها بخور العرب وتخيم فيها الظلمة رغم شمس الصيف الواجحة التي تلهب الأرض خارج الكنيسة . ويستبين لوتي من هذا كيف وجدت المسيحية التي تبشر بالبعث أرضا طيبة بين المصريين الذين اعتادوا أن يعدّوا العدة لنموت منذ الزمن الغابر .

وعلى حدود القاهرة المشعة بالأضواء الكهربائية تُصييه الدهشة أمام مدينة غريبة طرقاتها رملية رخوة بلا عابرين وبيوتها موصدة بلا إضاءة ولا حركة فيها : «هي أفنية مسورة تخضر فيها حدائق صغيرة وينتصب في كل منها شاهدان رخاميان فوق بناء مكعب يتسع للإنسان» . ويدرك أنها جبانة القاهرة : «بيوت خامدة يرقد فيها الموتى ، قد يطل من بعض نوافذها ضوء شموع أو تتردد فيها آيات مرتلة من القرآن ، يحتشد فيها أقارب الموتى أيام الأعياد . وتردح هذه البيوت وتتكاثر لتكون سداً منيعاً أمام زحف مباني القاهرة التي أصبحت لا بد لها من أن تمتد بضواحيها الجديدة صوب غربي النيل . وسط هذه المدينة أطلال مدافن ممالك القرنين الرابع عشر والخامس عشر الذين يرقدون تحت قبابها ، متروكة للزمن الذي إليه حسابهم لا تجد لها من زائر» . غير أن المفاجأة تصدمه ساعة تُسلمه العربّة التي يستقلها إلى مدينة أخرى شبيهة بمدن الريشيرا بشرّيات كهربائها وعلبها الليلية ومشروباتها الروحية وبنات هواها ويتساءل في فرع : أو تكون هذه القاهرة المستقبل؟ ذلك أنه يخشى ألا يلتفت المصريون إلى أن لهم تراثاً إن لم يتشبّثوا به تلاشت إحدى مدن التاريخ الرائعة في زحام المدن الحديثة التافهة وتحولت مصر - كما أراد الإنجليز - إلى سوق للقطن ومنتدى لأثرياء العالم الفارغين .

وفي أرجاء المدينة تتوالى وتتكاثف [ ثلاثمائة ] مسجد بمآذنها وشرفاتها وأوكار الطير بها وجدرانها العالية المزينة بالزخارف يخيم عليها الصمت الذي تقطعه زفرقة الطيور وهممة

الصلوات ، كما تنتشر بها الحدائق والأضرحة . ومن حولها الأهالي البسطاء يتأملون السقوف المذهبة ونوافذ الزجاج الملون المعشق والمحاريب المنكسوة بالرخام الرائع المتعدّد الألوان . وتقوم أعمدة بعض المساجد المتخذة من آثار فرعونية أو قبطية شاهدة بعظمة تاريخ الوادي ، وتضم الأضرحة رفات شهيد أو وليّ أو سلطان أو محارب ومن فوقها قباب قائمة يعيش فيها الطير . لقد امتدت يد الإصلاح إلى المساجد لتبقى شاهداً على روعة الحياة العربية القديمة في مصر ، تبقى شاهداً إذا ما تغيّرت القاهرة من هذه الحال إلى حال أخرى» .

وتهزّ أهرامات الجيزة وأبوالهول ذات ليلة فيشدو متغيّين :

«ليلة صافية رهيبة الشفافية تومض بألوان لا ينبض بها مناخنا ، تغشي موقعا سحريا يكتنفه الغموض ، يتوهج القمر فيها بلونه الفضي فيحرك فينا الانبهار ويضيء عالماً لم يعد من عالمنا ، بعيد الشبه عن كل ما وقعت عليه عيوننا من قبل ، عالماً يتخذ نمطا واحداً في ورديته تحت وميض نجوم منتصف الليل ، تنتصب فيه رموز عملاقة كالأطياف ، أترأها هضبة انبثقت أمامنا من بين الرمال ، أم تراها موجة عارمة أحالها الزمن سحابة وردية فسيحة دفع بها لتستقر ساكنة في هذا المكان إلى الأبد وقد توسّطها شبح آدمي جبار وردى اللون هو الآخر ، ولكنها وردية خاصة عصية تتراءى وتتوارى؟ أي روعة هذه ! أترأها روعة متخيّلة هي انعكاسات إشعاعات يوجّهها القمر إلى وجه أبي الهول من عاكسات ضوء خفية تكشف بهاء؟ ومن وراء هذا الوجه الرهيب وفوق قمم الكتبان الرملية غير المحدودة تنبثق صوب السماء ثلاث علامات وردية مذهلة منتظمة الخطوط الهندسية ولكنها تبدو عن بُعد ضخمة تثير الرهبة حتى توهمناها ذاتها مضيفة ، إذ تجلّى ورديتها شاحبة وسط زرقة الفراغ المحشود بالنجوم . . . على أن استحالة مثل هذا الإشعاع الذاتي يزيدها هيبة ويضفي عليها مزيداً من جلال» .

ويجول لوتي في متحف الآثار المصرية حيث تمتدّ التماثيل والمومياءات أو تقف في ردهاته الفسيحة تعلو شفاهاها المكتنزة بالسّمات ويشعّ من عيونها المحملقة البريق . وقد علّقت على الجدران خراطيم إطفاء الحريق مطوية لامعة الأطراف تقف مترصدة أية شرارة تهدّد بحرق غالي الثياب ونفيس الحلي : « هو بالنهار بيت الجميع وبالليل قصر المخاوف والأشباح . وأقف أنا بالليل ذاهلاً وسط جثث الملوك ، بين إحدى الملكات وعند قدميها وليدها الميت باقياً ما بقيت بعد أن نُقلا من مدفن إلى آخر خوفاً عليهما من نصوص المقابر ، وبين رمسيس الثاني عملاق التاريخ وأفراد أسرته ، أتأمل نظراتهم الغريبة وبسماتهم الغامضة وأتساءل أية أفكار يتبادلونها بالليل حين يخلّهم في وحدتهم الزائرون» . ثم يتجه لوتي إلى صعيد مصر ويتأمل في رحلته النيل العظيم الذي شقته الأمطار المنهمرة على أواسط أفريقيا طريقاً لها تسلكه إلى البحر المتوسط وكيف صنع على جانبيه شريطين خضراوين يصطخبان بالنبت والخصب تحت سماء مشرقة لا يحجبها ضباب ، وصادف الفكر الإنساني هنا منبته ، وازدهر وسط هذا الشعب الذي سبق الشعوب وابتدع فكرة الألوهية واللاهائية والخلود . واليوم يبدو النيل وكأنه يريد أن يُبقي كل شيء على ما هو عليه ، غير أن الغزاة الجدد جادون في تغيير معالم الوادي . إنهم يخنقون النيل بالسدود يستذلّونه من أجل إنبات الأراضي القاحلة ، وينمحي في خضم ضجيجهم ودخان بواجرهم هدوءه وسحره ، وتفقد رحلات البواخر النيلية عبرة روعتها في فصل الشتاء ، هذه الرحلة الغريبة التي تلاحق المسافر فيها أشباح



الأهرام عدة أيام : أهرام الجيزة ودهشور وسقاره إلى أن تختفي معالم كل شيء وسط الماء وخضرة الأرض ، ولا يعود المرء يدرك مرور الأيام إلا مع اختفاء الشمس وظهورها . الفلاحون على الشاطئ هم هم ، والنساء يملأن الجرار أنفسها ، والقطعان تروي ظمأها والمواشي تستحم على هواها ، والسواقي والشواذيف تتعاقب على الصورة نفسها التي كانت لها أيام الفراعنة ، تذهب بيهاؤها بعض مداخن آلات الري الحديثة . ووراء الخضرة تقوم وسط الرمال أطلال المصريين القدماء وإعلانات دعاية شركة كوك السياحية تحجب وراءها جمال النخيل ، ودخان قطار يلتهث بين الدلتا وأسوان بعناد المحتلين الأوروبيين ، والصخور الصفراء تحتضن الوادي من جانبيه ممتدة حتى النوبة التي تبدأ عندها صخور الجرانيت المعتمة . وكلما ارتقينا نحو الجنوب زاد الإشراق وتوهجت الحرارة وطالعتنا وجوه أشد سُمرة . مسكين ذلك النيل الذي شهد عبر آلاف السنين مواكب الآلهة والملوك تجثم عليه اليوم بواخر شركة كوك ، وتعتصر كل قطرة من قطراته لئنب أقطانا إنجليزية . تلك هي هزيمة النيل !»

ويجوس لوتي محزوناً خلال مدينة أبيدوس حيث ضريح أوزيريس إله العالم الآخر الذي تسابق الناس في الماضي ليدفنوا موتاهم قريباً منه . غير أن هذه المدينة الكبيرة تحولت إلى أطلال لم يبق قائماً وسطها غير معبد سيدي ورمسيس الثاني المهيئين إلى الإله أوزيريس تحف بهما أطلال مقابر الدولتين القديمة والوسطى . وكما تترام الرمال فوق كل حجر في الصحراء لتغطي بهم من ذراتها تراكت فوق معبد رمسيس ، فلم يبق شاخصاً من فوق الأرض غير أمتار أربعة ماتزال نقوشها بيّنة وجدرانها جليّة . وتتناثر في معبد سيدي الردهات الفسيحة والمقصورات الصغيرة ، وتحمل أعمدته سقفاً سماوي الزرقة تنتشر فيه نجوم أشبه بسماء مصر ونجومها . لقد تصدّع السقف بمرور الأيام وبقيت تماثيل أوزيريس وإيزيس وحورس وكأنها نُحِتت بالأسس القريب تكشف عن موهبة مثاليها وإن ظلوا يرسمون العيون والسيقان والأقدام مجانبّة ، فقد كان على الإنسانية أن تسلك عمراً طويلاً لتبلغ ذروة الكمال الفني . ويحيط النصمت وأجلال معبد سيدي إلا ساعة الغداء حيث تُبسّط الموائد فيتخلّقها السائحون الإنجليز ليشوّها بأحاديثهم وضجيجهم جلال المكان .

ويقف لوتي أمام شعب مصر وقفة إعجاب وتعجب ويتساءل :

«أي جنس ذلك الذي أنبته النيل على شاطئيه ؟ عضلات أفرادها كأنها المعدن لا تنال منه الحركة ، وأجسادهم تتحدّى الريح . عيونهم مستطيلة وحواجبهم كثيفة ومناكبهم عريضة وخصورهم نحيلة ، إذا جمعهم عمل واحد استعانوا عليه بالغناء الرتيب . تلك عاداتهم منذ عهد الفراعنة . وإذا ما نظرت إلى الحقول وجدت صفوفاً ممتدة من رجال سُمر يجذبون الشواذيف ، ونساء يتشرن على الشاطئ حاملات جرائهن على رؤوسهن فارغة أو مملوءة ، فالنيل وحده مصدر الحياة في أرض لا تتساقط عليها الأمطار إلا في القليل ، ثم يعدن في مواكب يخطرون في رشاقة وخيلاء . وترى الأرض وقد امتلأت بأبناء الفلاحين يتجولون حفاة أنصاف عراة ، يحطّ الذباب على عيونهم ولا يجد منهم يدا تمتد لذّبه بعيداً عنها .»

ويستحضر لوتي في ذهنه الوجود الإنجليزي الكثيف في مصر فيناجي نفسه : ترى كيف بات المصريون على هذا الإذعان وهم الذين شهد لهم الماضي بأعظم الجهود ، يوم كان العالم كله مازال يحبو على التراب ؟ لعله الإرهاق بعد العمل الشاق ، أو لعلها غفوة طال عليها الأمد . لقد

عاشوا بالأسس في رفقة الملوك وسط المجد والخلود ، واليوم تشاركهم بهائمهم في بيوت لها لون التراب الذي هو لون ثيابهم . ويتمنى لوتي في أعماقه لهذا الشعب الكريم المضيف الصبور العاشق لأرضه أن يستيقظ . ذلك أنه ينتظر من هذا الشعب أن يطالع العالم بمعجزات جديدة يوم يُكتب له البعث من جديد .

«ها هي ذي طيبة مصدر النور الذي غمر الأرض كلها والتي شهدت المجد منذ أربعة آلاف عام ، وألهمت العالم الفن والدين والجمال ، تثير الإعجاب ببهو الأعمدة المقام باسم الإله آمون سيّد الحياة والخلود . لقد كانت الآلهة المعبودة في مصر تتغير بتطور الفكر الإنساني ماضية بمصر إلى التوحيد . ومنذ بنى سيدي الأول والرعامة معابد الكرنك واصل من أتى بعدهم . حتى الغزاة المحتلون . متابعة البناء حول أخذ المعابد ، إلى أن جاء المسيحيون ثم المسلمون فعدّوا طيبة موطن الآلهة الباطلة وأخذوا في هدمها . وبعد خمسمائة عام من بدء هذا العمل الغريب تحولت طيبة إلى كبرى مناطق الأطلال في العالم ، ولم يُنقذ من آثارها إلا ما أخفته لنا تحت طياتها الرمال . واليوم يبدأ الغرب في إيقاظها من جديد ، هذا الغرب الذي أنكر كل شيء وانخذل أمام لغز الموت ، ينحني احتراماً لأطلال طيبة يستخرج كنوزها ويحفظ ما بقي من آثارها من الضياع» .

وأمام أطلال طيبة المترامية يحس لوتي بضالته ، وبأن النور أمامه وإن لم يخمد فقد استحال ضوءاً أزرق باهتا وكأنه قد غشيت عيناه بزجاج أزرق يرى من خلاله كل هذه الغرائب : بحيرة أوزيريس [يقصد آمون] وماءها الراكذ يغطي الكنوز الثمينة التي خُبِت منذ قرون أيام غزو الفرس والنوبيين ، وقاعة احتفالات تحتضن الشمس الثالث الفسيحة بالكرنك تعشش فيها الغربان التي لا تكف عن النعيق ، والمسلات القائمة أو الرافدة كأعواد اللوتس ، وأعمدة معبد آمون العديدة المنحوتة رؤوسها على هيئة زهرات لم تفتّح بعد ، يصطف ستون منها عن يمين وستون عن شمال . والقمر المتسلل يسكب شعاعه على الآلهة التي يحدّق بعضها في بعض ، صامتة رغم تشوقهم إلى الحديث ، أصابعهم مرفوعة ورؤوسهم تحيط بها الهالات . وتبدو أطلال طيبة بالليل وكأنها مسترخية في التفكير تسترجع ماضيها البعيد . أما في الصباح فتبدو أطلال طيبة التي تلهبها الشمس ممدّدة على الضفة الشرقية من النيل كهيكل عظمي لبهيمه ضخمة ماتت منذ آلاف السنين ، لم ينجح الزمن في الإتيان عليها تماماً . الأعمدة الجبارة التي تحمل فوقها السقف تتحدث عن هذا الجهد الجبار لشعب حديدي العضلات أمضى القرون في بناء هذه المعجزات . ألوان تيجان الأعمدة الزرقاء والخضراء والصفراء ما زالت تتألق وتشرق بها أوراق الزهور ، وبعض الأعمدة قد تصدّع يغطي الأسمنت صدوعها . ورجال يحفرون ليزيلوا الرمال التي تكدست ارتفاعاً إلى ستة أمتار . إنها مساحات شاسعة من المحال أن تعاد إلى ما كانت عليه مبانٍ وعمارة مهمما سُحرت في سبيل ذلك جماعات العمال والعديد من الآلات .

وتحس الاختناق وسط الأعمدة الضخمة التي يأخذ بعضها بخناق بعض لتسند السقف الصخري ، ويتجه الممر الرئيسي بمعبد آمون إلى الشمال الغربي بحيث تدخله الشمس ساعة الغروب مرة واحدة كل عام ، فيضئ الممر كله ساعتها وتعزف الموسيقى تمجيداً لإله طيبة العظيم . أية بداية للفكر الإنساني صنعها شعب لم يكن يفكر إلا في الخلود . إنها بداية إنسانية أخرى غير هذه التي أغرقت نفسها اليوم في اليأس والكحوليات والمتفجرات .



وعلي الضفة الغربية للنيل ، وفي ظل جبال ليبيا الوردية اللون تقبع مدافن ملوك طيبة .  
فلنودّع تمثالي ممنون وحقول الحنطة التي تحوطهما ثم التلال المليئة بالمغارات والكهوف الغربية التي  
يجوس البدو خلالها بحثا عن المومياوات ، ولننفض داخل الجبل عبر ممر مرهق لنجد أنفسنا في  
وادي الملوك ، وتصبح جبال هضبة ليبيا التي كانت جميلة عن بُعد وكأنها قبر هائل مخيف . ونقرأ  
على الفتحات المربعة المنحوتة في صخرة ضخمة أسماء المومياوات : رمسيس الخامس ، سيتي  
الأول ، تحتمس الثالث ، رمسيس الثالث ، غير أن هذه المومياوات نُقلت إلى متحف القاهرة عدا  
أمنحتب الذي تُرك في أعماق الأرض والتي أقيمت محطة توليد كهرباء لتضئ طريقه ومخدعه  
من الثامنة صباحاً إلى منتصف نهار الساكنين فوق سطح الأرض . الدّرج مرهق والمنحدر الهاوي  
يكاد يكفؤنا على وجوهنا فنهيض عدّوا ، والسراديب متاهة مضلّة بالمتاريس التي تسدّ آبار الدفن .  
ونتلفّت لتذهلنا النقوش على الجانبيين بتميّز ألوانها ، وإذا بنا أخيراً في المقبرة التي يرتفع سقفها  
الأزرق المحتشد بالنجوم فوق ستة أعمدة . ثم أمنحتب<sup>(٨٦)</sup> في خلوته مغمض العينين ، وجهه  
عابس تأكل بعضه ، وجسده نصف عار وسط بقايا أغطية مهترئة ، وعلي قسماته شبه استجداء بأن  
نتركه وحده وادعاً في مخدعه الغائر في الأعماق . فلنأخذ في الصعود ثانية لنخلّفه في عزّته  
ينشد الخلوة والهدوء .

(٨٦) نُقلت مومياة أمنحتب  
الأول وأمنحتب الثالث فيما  
بعد إلى المتحف المصري  
بالقاهرة ، ولم تبق بوادي  
الملوك سوى مومياة توت عنخ  
أمون .

ثمانية أعوام وقطار حديدي حوّلت أسوان إلى مدينة حديثة ترحب فنادقها الأنيقة بالسائحين  
الوافدين لرؤية الآثار . اختفي شلال أسوان ليحلّ محله خزان ضخّم ذو طراز إنجليزي يحتجز  
مياه النيل ليروي بها أراضي الدلتا الطامئة ، وأطلق اسم الشلال [ كتركت ] على فندق ذي  
خمس مائة حجرة .

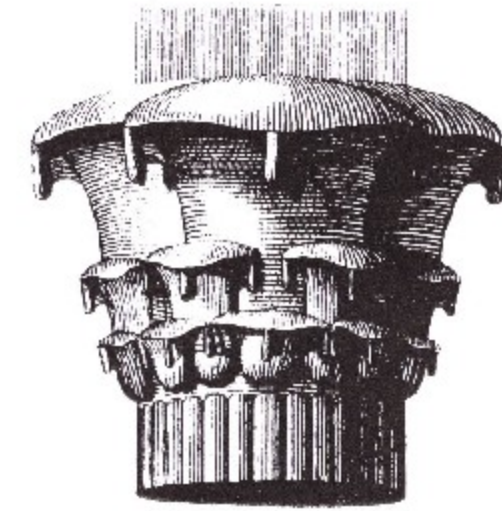
وتعترض النيل أمام أسوان صخور جرانيتية ناتئة تتأوّد مياهه بينها وتحيلها إلى جزر مخضرة  
ساحرة . فلنأخذ قارباً من مدينة الشلال التي تنضح ملاحها الأوربية الطابع برائحة الكحول ، لنجد  
أنفسنا وسط بحيرة يحتضنها الخزان والجبال الصاعدة كأنها مدرجات رهيبة تحاصر البحيرة . وتبرز  
من جزيرة فيله الغريقة قمّتها التي يترّع عليها معبد إيزيس وذلك الجرسق الرخامي الرهيب الذي  
يبدو لنا وكأنه مرفأ حزين . وفي القاعة الكبرى غير المسقوفة التي تنصّدر المعبد يسود الظلام بين  
تماثيل الملوك الجرانيتية فنُرسی قاربنا إلى جدار من الجدران متلبّثين انتظاراً لإطلالة القمر حين يرتفع  
إلى المستوى الذي يرسل منه ضياءه علينا فتتجلّى لنا الرؤية . وترهص بقدوم القمر سحابة وردية  
فوق قمة البوابة ما تلبث أن تتخذ شكل مثلث مضيء يبيّن الجوانب يتسع شيئاً فشيئاً حتى يعمّ  
الجدران العريضة ثم يأخذ في النهوض إلى قاعدة المعبد كاشفاً جزءاً فجزءاً عن الرهبة التي تسود  
النقوش الغائرة وتلفّ الآلهة والإلهات وتغشي الحروف النهر وغليقية ، وجموع الشخوص الذين  
يتهايمسون بالإشارة . لم نعد وحدنا ، إذ لا يلبث بصيص القمر أن يكشف لنا عن عالم من الأشباح  
حولنا . أشباح متراوحة الأحجام كان يسترها الظلام وكأنهم يتبادلون الحديث بينهم كالبيكّم حتى  
يقطعوا السكون المخيم ، يعبرون عن حوارهم بأياديهم المشيرة وأصابعهم المنصوبة . وهنا تتجلّى  
إيزيس العملاقة المنحوتة على يسار المدخل مطرقة رأسها الدقيق الذي يعلوه طائر ومن فوقه قرص  
الشمس . وحين تتدلّى هالة الضوء تكشف عن صدرها ثم ذراعها الذي يرتفع ليعبر عن حركة  
غامضة تُعرب عن أمر مجهول ، ثم عن عري جذعها النحيل وردفيها الملفوفين بمشدّ . ها هي ذي  
الإلهة تبرز من الظلام كاملة ، ولكن يبدو أنها قد عرتها دهشة مشوبة بالقلق حين رأت بين قدميها

بدلاً من بلاطات الرخام التي تعرفها منذ ألفي عام صورتها منعكسة على صفحة الماء تطول وتطول  
حتى يتلعها الماء .

وفي سكون الليل الذي يغمر هذا المعبد المعزول وسط البحيرة تُفاجأ بهدير جنازري يزمرجر ،  
فثمة رواسي تنهار وصخور جلييلة تنفتّت وتساقط مخلّقة على سطح الماء ألوف التجاعيد الدائرية  
المتحدة المركز تتشكل ثم ما تلبث أن تبدّل أشكالها متلاحقة دون أن تكفّ عن تعكير سطح هذه  
المرآة المحصورة بين كتل الجرانيت الضخمة بينما إيزيس تتأمل في أسى صورتها تتبدّد ثم تنمحي .  
ما أعماق الشجن الذي ينبض في هذه الكلمات الصادقة المخلصة من كاتب يعرف لهذا التراث  
حق قدره ، ولكن ما أبعد هذه الصورة الرقّافة عن الوضع اليوم . لقد تم إنقاذ معابد فيله التي  
شهدها پير لوتي وكان يظنها على وشك أن تُسلم أنفاسها الأخيرة ، والماء يعلو رويداً رويداً لبيتلغ  
كل يوم مزيداً من رقعتها . غير أن حكومة ثورة ٢٣ يوليو التي أقامت السد العالي لم تشأ لهذا  
الجزء من حضارة الوطن أن يندثر أو أن يطويه الماء في جوفه على الرغم مما كانت تُشغل به من  
هموم المصريين . ولم يكد جسد السد العالي يكتمل حتى هُرعت نفس الأيدي وبنفس الحماسة  
متأخية مع ألوف الأيدي النبيلة المتضامنة والوافدة من شتى أنحاء العالم إلى إنقاذ هذه الجزيرة وما  
عليها من معابد وآثار لتعصمها من ابتلاع الماء لها ، ثم لتسحب المياه من تحت قدمي إيزيس  
ولتصعد بالإلهة بعد ذلك إلى قمة جزيرة إيجيلى المجاورة كي ترفرف من جديد راية من رايات  
الحضارة الإنسانية خالدة .

ليت پير لوتي يُبعث من موته ليشهد بعينه كيف بُعثت إلى الحياة معابد فيله ، وإذن لأضاف  
لكتابه خاتمة بعنوان «بعث فيله» ، فلم تكن اللحظة التي شاهدها لوتي هي لحظة «موت فيله» بل  
كانت لحظة التأهب للعودة إلى الحياة من جديد .





## الفصل الثانى



## الفصل الثاني

### الرحالة الإنجليز

لفتت الحملة الفرنسية أنظار العالم كله إلى مصر عام ١٧٩٨ فأثارت الاهتمام بالشرق الذي تجلّى في حركة الاستشراق النشطة وما صاحبها من العكوف على ترجمة المؤلفات الشرقية وزيادة عدد كتب الرحلات . ولم يلبث الشرق أن استحال إلى هدف مقصود لذاته تدور حوله الدراسات بمنهج عقلاني بعيد عن الخيال . وكان هذا هو وضع مصر، إذ لم يعد إشباع الفضول والشغف بكل ما هو غريب هو الذي يلفت انتباه الإنجليز إلى مصر بعد ظهور أهمية موقعها الإستراتيجي حتى نادى بعض الإنجليز بضرورة احتلالها، وعكف البعض الآخر على الكتابة عنها لإشباع فضول الرأي العام الذي بات مولعاً بكل ما يتعلق بمصر من تصاوير وكتب رحلات ومقالات وقصائد ورسوم كاريكاتورية وكتب فرنسية مترجمة إلى الإنجليزية وأخبار انتصار الإنجليز على الفرنسيين في موقعة النيل . وهكذا بدأت مصر بصفة عامة تحظى بنظرة جديدة عمادها الواقعية . وقد دفعت هذه النظرة العملية التي فجرتها الحملة الفرنسية الإنجليز إلى إقامة الاتصال المباشر بينهم وبين مصر التي لم تقتصر أهميتها على أنها كانت مسرحاً لأحداث تاريخية ورد بعضها في الكتاب المقدس وبعضها الآخر في كتب التاريخ القديم ، بل لما تضمته كذلك من عادات كشف عنها علماء الحملة الفرنسية، فقد انفسح مجال غير محدود أمام نزع هذه الآثار وجمع الفرنسيون منها جملة كبيرة خلال سنوات الاحتلال الثلاث ، غير أن معظم هذه الآثار قد وقع في أيدي الإنجليز بعد هزيمة الفرنسيين عام ١٨٠١ حين وصل إلى مصر دبلوماسي في الرابعة والعشرين من عمره هو وليام هاملتون وكان سكرتيراً للورد إلجين سفير بريطانيا في إستنبول . وكان أول عمل اضطلع به عند وصوله هو المطالبة بحجر رشيد الذي كان الفرنسيون على وشك الإفلات به مخالفين نصوص الاتفاق، فاستولوا على سفينة كانت تتأهب للإقلاع خلصة فإذا هي تضم ثروة من الآثار من بينها حجر رشيد الشهير . وكان لنجاح هاملتون في مهمته أثره في أن عهد السفير إلى سكرتيره في العام التالي بالإشراف على انتهاب منحوتات البارثينون الخالدة وتهريبها من أثينا إلى لندن!

وكانت موقعة النيل التي انتصر فيها الإنجليز على الفرنسيين لتأمين الطريق إلى الهند عبر مصر قد أخذت بعقول الرأي العام البريطاني وملأته تيهاً بامبراطوريته التي لا تغيب عنها الشمس، ووجهت نظره إلى أهمية مصر بوصفها موطئ قدم في الطريق إلى الهند درة التاج البريطاني . ولم





تكن هذه أول مرة يسمع فيها الشعب البريطاني عن مصر ، فقد بدأ تسليق الشاعر الرحالة جورج سانديز (١٥٧٨-١٦٤٤) هرم الجيزة عام ١٦١١ وعرض ألوانا من تقاليد أهلها وعاداتهم وتاريخهم ضمن كتابه ذي الأجزاء الأربعة عن رحلته إلى تركيا وفلسطين ومصر وإيطاليا ، كما رسم شكسبير من قبل صورة رائعة لمصر ومليكتها كليوباترة وخاض في وصف آلهتها متأثرا بقراءاته لبلوتارخوس وميلتون .

وخلال القرن الثامن عشر زار مصر لفيث من العلماء والرواد الأركيولوجيين ونفر من الشبان المغامرين الذين مدّوا «جولتهم الكبرى» كي تشمل معبد بعلبك وأطلال طيبة . وكان العُرف قد جرى في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر مع شباب الأسر النبيلة والموسرة أن يوفدهم أهلهم لمدة سنة في رحلة بين ربوع أوروبا يطلقون عليها «الجولة الكبرى» Grand Tour برفقة قسيس يلقّتهم تعاليم الكنيسة الإنجليكانية أينما ذهبوا ويحميهم من الوقوع في براثن العقيدة الكاثوليكية . وكانت «الجولة الكبرى» تبدأ بأوستند في بلجيكا ولاهاي بهولندا ثم الإمارات الألمانية والبروتستانتية وتنتهي في جنيف أو لوزان بسويسرا لتعلم الفرنسية . وفي منتصف القرن الثامن عشر اتسعت رقعة «الجولة الكبرى» لأسباب طبقية لتشمل كاليه وباريس للاختلاف إلى صالونات الطبقة الأرستقراطية ولتعلم آداب الحديث والذياقة وأصول اللغة الفرنسية ، وكانت عين القسيس لا تغفل عن رعاية الشبان الذين في رفقته أينما حلّوا خوفاً من أن يعتنق أحدهم الكاثوليكية أو أن يتردّى في رذيلة . وفي أواخر القرن الثامن عشر امتدّت «الجولة الكبرى» مع ظهور الاضطرابات في أوروبا ونشوب الثورة الفرنسية وباتت تشمل الإمارات الإيطالية حتى مملكة نابلي . وأصبح من بين أهداف «الجولة الكبرى» تعليم الشبان الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة «الكلاسيكيات» في مواطنها الأصلية برعاية القس الذي كان يصطحب معه عادة مكتبة تضم مؤلفات الشعراء اللاتين الكبار أمثال فرجيل وهوراس وأوفيد ، وخلال تلك الجولة كان الشبان يقتنون من الآثار القديمة تحفاً تذكارية . وبعد وصول «الجولة الكبرى» إلى شواطئ البحر المتوسط ازداد شغف شباب الإنجليز لرؤية آفاق أشد اتساعاً فامتدت إلى بلاد اليونان مع بدء الحركة الرومانسية بأوروبا في أواخر القرن الثامن عشر ومطالع التاسع عشر . وفي اليونان كان اللقاء بين الشبان الإنجليز -الذين كانوا لا يتجوّلون إلّا في حراسة الفرسان المدجّجين بالسلاح- وبين مسلمي الأتراك ، وكان هذا اللقاء هو الأول من نوعه مع المسلمين منذ الحروب الصليبية . وقد تأثر الخيال الإنجليزى بوصول «الجولة الكبرى» إلى تلك الأقاليم الجديدة حتى لقد استوطن إيطاليا الشعراء الإنجليز الرومانسيون من أمثال بايرون وشيلي وكيثس واستقروا فيها . ثم مالبت «الجولة الكبرى» أن امتدت إلى الأناضول وشواطئ البحر المتوسط الشرقية وجزر اليونان وسوريا وفلسطين وسيناء ومصر .

وكان الفرنسيون قد بدؤوا منذ نهاية القرن السابع عشر أبحاثهم الأثرية الهامة في مصر ، وتبعهم بوكوك الإنجليزى (١٧٣٧) والقس توماس شو (١٧٣٨) ونوردن الدثركي (١٧٣٧) . وقد أثير جدل كثير حول بعض المسائل التاريخية خلال القرن الثامن عشر ومن بينها الموقع الدقيق لمدينة منف إلى أن قطع الرحالة الفرنسي سافاري الشك باليقين . حتى إذا جاء العلماء الفرنسيون المصاحبون لحملة نابليون وبدؤوا رصد حضارة مصر وفق منهج علمي مرسوم في دقة وبراعة لم تمنعهم عزلتهم التي فرضت عليهم بعد تحطيم أسطولهم من أن يتابعوا عملهم الدؤوب بأن يجعلوا

من وحشة تلك العزلة حافزا يؤجج مثابرتهم حتى سجلوا خلال أسوار هذا الحصار أمجادا علمية جذبت أنظار أوروبا إلى الحضارة المصرية .

وقد تجلّى نشاط «الجمعية المصرية» التي كانت أول مظهر من مظاهر اهتمام إنجلترا بمصر في هواية الفنّون التي غلبت على أعضائها في دراساتهم عن مصر . وباستثناء نوردن قصد الجميع مصر على نفقتهم دون أن يلزموا بعرض ثمار رحلاتهم أمام أية هيئة علمية . على أن مصر قد شهدت خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وصول فئة جديدة من الرحالة تمولّهم جمعيات علمية أو شركات كبرى كي يضعوا بين أيديها ما تُسفر عنه دراساتهم . وأوفدت «هيئة تنمية كشف مجاهل أفريقيا» التي أسست عام ١٨٧٧ عددا من المكتشفين المدربين مرّوا جميعا بمصر ، كما أرسلت شركة الهند الشرقية غيرهم لاكتشاف الطريق البرّي إلى الهند . وكان هناك غيرهم من الرحالة المبشرين الذين تمولّهم جمعيات الكتاب المقدس الإنجليزية ، غير أن عدد هؤلاء الرحالة إلى عدد أولئك الذين زحفوا على مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها كان قليلا .

وشاعت الزخارف المصرية في العديد من الدور والقصور بالريف الإنجليزى دون الاقتصار على الاقتباس من رسوم فيثان دينون التي صدرت طبعها الأولى وقتذاك ، فشيد توماس هوب Thomas Hope في قلب لندن فيما بين عامي ١٧٩٩ ، ١٨٠٤ قاعته الشرقية التي تعدّ أشهر إنجازاته بعد خروج الجيش الفرنسي من مصر وبعد صدور كتاب فيثان دينون ، لتضمّن من الصور والرسوم والتحف ما يفوق غيرها من جميع الإنجازات المعاصرة المعبرة عن هوس التعلّق بالمصريّات آنذاك .

كانت الرحلة إلى الشرق تعدّ في مطلع القرن التاسع عشر مغامرة بطولية تقتضي المهارة والجدد والقدرة على الاحتمال والتكيّف مع الظروف وسعة الخيلة وحسن التدبير وسرعة البديهة ، وكلها صفات تتوافر في الشباب . ومن هنا كان معظم الرحالة من الشباب ، المولع بالمخاطرة وركوب الخيل ، حاملا بنديقتيه التي لا تفارقه سواء وهو في مضرب الخيام بالصحراء أو وهو في قاربه فوق صفحة النيل يستخدمها للتسلية أو للصيد . ثم ما لبثت وسائل المواصلات أن تقدمت مع مرور الأيام خلال القرن ، وانتهى عهد ما كان الفرنسيون يدعونه «العهد البطولي للرحلات إلى الشرق» ليبدأ عهد السياحة والتجوال ، فإذا الرحلة تغدو سهلة ميسورة ، وإذا المسافر يستقلّ السفينة من إنجلترا إلى الإسكندرية رأساً متجنّباً متاعب الحَجْر الصحيّ إذا وقع اختياره على الطريق البرّي عبر القارة الأوروبية ، وإذا وسائل الراحة تتوافر في فنادق أوروبية الطابع ، فضلا عن تجهيز «ذهبيّات النيل» بحيث تصبح سفنًا فاخرة بالغة الترف .

ومن هنا كان الإغراء بأن يتابع السائح رحلته الصيفية الأوروبية بتمضية الشتاء في مصر التماساً لندفء ونفقات الفنادق الزهيدة أو جرياً وراء المشاهد الجذابة الجديدة بالتصوير . وهكذا أضيف الشرق الأدنى منذ عام ١٨٦٠ إلى «الجولة الكبرى» بالنسبة للفرانكانيين الذين كان بعضهم يقنع برحلة واحدة يعود بعدها إلى وطنه لعرض ما رسمه من موضوعات شرقية ثم يرتدّ إلى تصوير الموضوعات المحليّة . أما البعض الآخر فكان يعود إلى الشرق مرة إثر المرة ليستقر به فترات طويلة بعد أن عشق الشرق وأهله ، وتعلّم نفرٌ منهم اللغة العربية أو لهجات البربر ، كما أجادت قلة منهم اللغة التركية . بل لقد قام البعض بشراء دور بفلسطين وشمال إفريقيا أنفقوا عليها من دخل



لوحاتهم التي يرسلونها إلى باريس ولندن ونيويورك وبوسطن حيث يعيش عملاؤهم .

أما الفئة الأولى من الرحالة الفنانين فهم «المصورون الوصفيون» (التوضيحيون)

Illustrators، ولم يكن أغلبهم مصورين محترفين بالمعنى المتداول بقدر ما كانوا رسّامين طوبوغرافيين محترفين يعملون في خدمة دور النشر والطباعة . ومع مطلع القرن ظهر الرسّامون الرسميون والمرافقون للبعثات العلمية لتسجيل نشاطاتها وما يُستخرج من حفائرها، أو يستأجرهم الرحالة الأثرياء الحريصون على الاحتفاظ بذكريات رحلاتهم مسجلة - فلم يكن التصوير الفوتوغرافي قد عُرف بعد - أو لتزويد ذكرياتهم المنشورة في كتبهم بالصور التوضيحية .

فنجند لورد فالنتيا - على سبيل المثال - يصطحب معه هنري صولت في مستهل القرن باعتباره مصوره الرسمي أثناء زيارته الرسمية للحبشة ، مستخدما رسومه لتوضيح ما اشتمل عليه تقرير رحلته . كذلك ارتحل المصوران وليام بارتليت وتوماس ألوم إلى مصر وفلسطين لتزويد أحد كبار الناشرين في لندن بالصور الإيضاحية المطبوعة بطريقة الحفر على الأسطح المعدنية اللازمة لما ينشره من كتب عن مصر وفلسطين وتركيا . كما ظهرت أيضا طبقة المراسلين الحربيين المصورين المصاحبين للحملات الحربية لتسجيل أحداثها ووقائعها مثلما حدث في حرب القرم .

وقد أعدّ الأستاذ جيرالد أكرمان<sup>(٨٧)</sup> بأخرة إحصائية حول ٢٨٨ فنان إنجليزي عملوا كمصورين ووصفيين ، أعني فنانين ارتحلوا لاستغلال مواهبهم التصويرية تجاريا في مجال النشر ، كان من بينهم ١٠٪ رسّامين ماجورين ، و ١٠٪ مصورين للكتب والمجلات الدورية ، و ٥٠٪ مراسلين حربيين ، و ٦٠٪ ألّفوا كتباً تضم تصاويرهم ، على حين كان ٢٠٪ من بين هؤلاء الفنانين الاستشراقيين مصورين ووصفيين . ولا يجوز إغفال الفنانين المتدينين الذين كانوا يسعون إلى تصوير مشاهد الكتاب المقدس وكانت نسبتهم ١١٪ ، وكانوا إما طوبوغرافيين يسجلون المواقع التاريخية في فلسطين وما حولها لعرضها للبيع بعد تحويلها إلى صور مطبوعة بطريقة الحفر على الحجر أو على الأسطح المعدنية ، وإما كانوا مصورين حرفيين يطمحون في تصوير المباني التاريخية والأماكن المذكورة في الكتاب المقدس والأزياء المحلية ، إذ كانوا يعتقدون خطأ أنه لم يطرأ أي تغيير في مصر وفلسطين وسوريا منذ مولد المسيح . كما غالّى بعض المصورين البريطانيين فعكفوا على استحداث إيقونوغرافية دينية «مطهرة» من البدع الكاثوليكية ، اشتهر من بينهم دافيد ويلكي David Wilkie الذي انبرى يؤدي في مجال التصوير ما يؤدّيه رجال اللاهوت البروتستانت لتخليص عقيدتهم من الشوائب الكاثوليكية ، وحاكاه في نفس الاتجاه المصور المشهور وليام هنّت . وكان من المتوقع أن يكون هذا الفريق من المصورين أشد المصورين خصومة للإسلام باعتبارهم شديدي التدين ، غير أن رسائلهم وكتبهم خلت من التعصّب إلا في القليل النادر الذي لا يقارن بالسقاهات التي نشرها الرحالة البروتستانت من رجال الدين ، في حين انصرف أشد أنواع التعصّب ضد السامية التي يمثّلها اليهود الذين اختلطوا بهم .

وثمة سبب آخر لا علاقة له بالنفن لزيارة الشرق هو اعتدال المناخ ، فقد كان دفء الشتاء وجفافه فرجا لمرضى الصدر والتهاب المفاصل ، إذ كان طقس الشتاء في أوروبا بالغ القسوة ، فضلا عن حاجة المصورين إلى ضوء الشمس لرسم مشاهدهم .

Ackerman, Gerald: (٨٧) Picturing the Middle East. A Hundred years of European Orientalism. ASymposium. Dahesh Museum. New York 1996.

وأخيرا كان هناك مبعوثو الحكومات من عتاة المستعمرين الإمبرياليين ، كالدبلوماسيين ورجال الإدارة وضباط الجيش . وقليل من بين هؤلاء كانوا مصورين فضلا عن بعض زوجات الدبلوماسيين أو ضباط الجيش .

وما من شك في أن تصوّر الغرب للشرق باعتباره مرتع الفسق والفجور كان أحد أسباب جذب الرحالة والفنانين إلى المنطقة . وبرغم ندرة النصوص التي استفاضت في هذا الموضوع في كتابات الرحالة الإنجليز التي اتّسمت إلى حد ما بالتحقّظ ، نرى أن الرحالة الفرنسيين الذين اشتهر عنهم الصراحة وعشق أجواء المرح لم يلتزموا هذا التحقّظ ، على الوجه الذي لمسناه عند مطالعة ذكريات الأديبين جوستاف فلوبيير وچيراز ده نرفال عن رحلتيهما إلى مصر . ومن هنا اتّسمت لوحات الفنانين الإنجليز المصورة التي تتناول مشاهد الحريم في أغلب الأحيان بنفس التحقّظ ، وإذا چون فردريك لويس يُقدّم نساء الحريم الشرقي كاسيات تماما ، متجنّبا الوضعيات المثيرة التي دأب المصورون الفرنسيون على تضمينها لوحاتهم . وجدير بالذكر أن عدداً من الفنانين الأوروبيين قد استهوتهم طبيعة المواطنين وأسلوب حياتهم فتشبه بهم ، مثل چون فردريك لويس الذي قضى بالشرق الأدنى أربعة عشر عاما لم تطأ قدمه فيها موطنه ، أمضى منها عشر سنوات بالقاهرة يحيا حياة مترفها .

وكشف البروفسور أكرمان في إحصائيته عن أن ٥١٪ من الفنانين الإنجليز كانوا مصورين استشراقيين بمعنى الكلمة ، وأن ٣٣٪ جاؤوا إلى الشرق الأدنى سعياً وراء المشاهد الجذابة الجديدة بالتصوير ، وأن ٢٠٪ منهم عكفوا على هذا اللون من التصوير جرياً وراء الكسب المادي بما في ذلك كتاب الرحلات ومصوريتهم ، وأن ١١٪ منهم كانوا يسعون وراء تصوير المشاهد التوراتية ، وأن ١٠٪ منهم جاءوا التماساً لجو الشتاء الدافئ ، وأن ٤٪ منهم كن زوجات لموظفين حكوميين . ومن هنا اعتبر أن «المستشرق الأمثل» هو مَنْ قام بالعديد من الرحلات إلى الشرق ، أو أقام فترة طويلة في أحد أقطاره ، أو تعلّم لغة أو لهجة محلية ، أو اتخذ أحد الأمصار الشرقية محلاً لإقامته ، أو أقدم على المغامرة بالعيش بين قبائل البدو . واستخلص من دراسته أن ١٨٪ من بينهم قاموا بعدة رحلات ، و ٣٧٪ أقاموا بالشرق الأدنى فترات ممتدة ، و ١٦٪ تعلموا لغة أو لهجة محلية ، و ٢٩٪ كانوا مغامرين ، و ٧٪ أقاموا مع البدو . كما أسفرت دراسته عن أن ٢٠٪ - قرابة نصف عدد الاستشراقيين المحترفين - كانوا فنانين جادين أدوا رسالتهم بشغف وإخلاص ، وزاروا المواقع التي صوروها ، وقضوا فترات ممتدة في بعض الأقاليم ، وخاطروا بولوج الصحراء وشبه جزيرة سيناء وشرقي الأناضول والبتراء والواحات الواقعة إلى الجنوب من بسكرا بالجزائر ، ولقنوا لغة أهل البلاد المحلية ، وناقشوا الأهالي وارتبطوا معهم بعلاقات ودية ، كما تكشف مثابرتهم ودأبهم عن حماسهم في التعرف على حقيقة البلاد التي زاروها والوقوف على ثقافتهم .





الدبلوماسي المتسربل  
بالعجرفة البريطانية

**وليام هاملتون**





نشر هاملتون كتابه «مصريّات» [إيجيبتياكا]<sup>(٨٨)</sup> ١٨٠٩ بعد ثماني سنوات من زيارته لمصر فكان لفترة من الزمن الوثيقة البريطانية التي يُعوّل عليها عن مصر وآثارها ، ومن هنا اقتبس منه الكثير من الرّحالة الذين جاؤوا في أعقابه . وكان القصد من كتابه أن يسدّ به الثغرات التي خلّفها أعمال بوكوك ونوردن وفولني وفيتان دينون ، ولم يكن الكتاب على الرغم من تلك الجهود التي بذلت كتاب رحلات بالمعنى المتداول بل كان أشبه ما يكون بخزانة للحقائق ، إذ اختفت انفعالات المؤلّف من المشهد فلا نكاد نرى مثلما نرى عادة في كتب الرّحالة ما يدل على تأثره بالحياة من حوله صحّة ومرضاً أو شدة ورخاء أو انبهاراً وبرماً . وإذ كان معنياً بأن يكون كتابه غاية في الدقة والوضوح أثر أن يكتب كتابه هذا بأسلوب اليوميات وإن كان قد قدّم في مطلع كتابه عجالة عن المسالك التي سلكها خلال رحلته ، ثم نسج ملاحظاته في فصول لوفق الموضوع دون أن يتبع تسلسل الأحداث ، فلم يقصد وصف مصر بل قصد إلى نقل معلومات عن مصر بصفة عامة وعن آثارها بصفة خاصة ، حاصراً جهده في استكمال أو تصحيح ملاحظات من سبقوه دون أن يعير الحياة المصرية أي اهتمام متجاوزاً إياها باعتبارها معلومات غير ذات جدوى للقارئ . فنجد وصفه للقاهرة واقعيًا بعيداً عن كل خيال مهما رفرت أمامه أجنحة أساطير ألف ليلة وليلة ، ولا يكاد القارئ يطالع شيئاً عن أفق القاهرة المحتشد بالمآذن والذي ألهب خيال الكثير من الأوروبيين ، وكل ما سجّله عنها هو مساحتها وحدودها واستحكاماتها : « فالشوارع طويلة متعرجة ضيقة حتى لا يستطيع فارس أن يتقبلاً في أي منها إلا بمشقة » . والواقع أنه كان أشدّ اهتماماً بالقلعة وبالتحصينات التي شيدها الفرنسيون وبالموقف السياسي بين الإنجليز والأتراك والبكوات والمماليك ، ولم يلتفت إلى الوجود الإنساني إلا حين عرض لقبائل البشارية التي لم يسبق لأحد قبله وصفها . ومع ذلك فإن وصفه لمظهرهم وعاداتهم جاء مفككاً غير موصول ، بدليل ما أورده عنهم من تفاصيل عشوائية لا رابط بينها ، وقارنهم في النهاية بالفلاحين المصريين الذين قسا عليهم قسوة بالغة بالرغم من أنه لم يُنحَ لنفسه الفرصة كي يتعمق في دراسة طبائع أي منهما ، فيزعم أن « البشارية أكثر سداجة وأشدّ عنفاً وأمضى ذكاء من الفلاحين المصريين » ، والغريب مع ذلك أنه عدّ الاثنين من الهمج المتوحّشين . وإحقق أن وصفه للمصريين - كما تذهب د . فاطمة موسى في دراستها الشائقة لهاملتون - ريفيين كانوا أم حضريين لم يأت بأسوأ مما ورد على لسان من سبقوه من الرّحالة ، فهو لم ير فيهم تلك الروح الشرقية الحاملة التي تتطلع من وراء شرفات قصور «ألف ليلة وليلة» ، ولا بسالة الهمج من البرابرة الذين يركضون بخيلهم هنا وهناك

Moussa, Fatma: (٨٨)  
W.R. Hamilton  
“Aegyptiaca.  
An Evaluation”, 1954



في البیداء ، حتى لقد فاته أن يحصي لهم شيئاً يستحق الذكر ، وعندهم نكرات فحسب . وحينما عدّد هاملتون القوى السياسية التي ينبغي حسابها بمصر بعد جلاء الفرنسيين حدّدتها بالأتراك والإنجليز والمماليك ولم يتجه خياله إلى أن المصريين يمكن أن يشكلوا قوة عسكرية مناوئة . ولم يكن راضياً عن خلف حكومته لوعدها للبكرات المماليك بمناصرتهم ضد الحكومة التركية ، لا إعجاباً بالمماليك الذين لم يغيب عن ناظره تعنتهم في معاملة الأهالي المصريين وإنما حرصاً على مصالح بلاده الإستراتيجية .

والواقع أنه عندما التفت نحو الفلاح المصري نظر إليه نظرة الطبقة الوسطى الإنجليزية المحدثّة التي جمعت في الهند ثروات طائلة وباتت تتطلع إلى المزيد منها في الشرق الأدنى . كما جري فكره كذلك إلى أسباب تفكك الإمبراطورية العثمانية وهو يحلم أن تقوم مقامها إمبراطورية جديدة ، وهو ما جعله يبادر إلى لفت أنظار مواطنيه إلى أهمية الموارد الاقتصادية التي لا حد لها في مصر حتى بعد أن اغترف منها البطالة ما ملؤوا به خزائنتهم . وكان هاملتون يحلم في مطلع القرن التاسع عشر بقيام إمبراطورية إنجليزية على النهج الروماني في مصر ، فأفرد فصلاً من ثلاثين صفحة في كتابه يسرد فيه تاريخ الحكم الروماني في مصر ويعدّد مثالبه . ويأخذ تعقيبه النهائي شكل التحريض حين يقول : « وهل يمكن أن تنتج نفس الشمس ونفس البيئة إلا ذات الثمار من ذات التربة ؟ » . ومن المؤكد أنه نظر إلى الشعب المصري على أنه نفس الشعب المستكين الراضي بالخنوع لحكم أي غاز جديد .

والى نظرة أمثال هؤلاء الرحالة الإنجليز التي تشوبها الرغبة في استغلال المصريين وثرواتهم خلال هذا القرن ، نجد ازدراءهم للمصريين المعاصرين آنذاك ، فلقد كانوا يضاهاون دائماً بين ما كان عليه المصريون الأول من عظمة وبين ما انحدر إليه السلف من بؤس وتخلف ، وهو ما يتجلّى خلال صفحات الكتاب كله .

ومن الطريف أنه وقف مثل غيره أمام النقوش المصرية القديمة وقفة دفعته إلى الحزر والتخمين محاولاً استكناه أسرارها غير أنه أخفق كما أخفق من قبله ومن بعده حتى حلت أسرار الرموز الهيروغليفية . وبالرغم من محاولاته الجادة لتسجيل المقاييس وموازنة الخرائط القديمة بالجديدة وترجمته الدقيقة لبعض النصوص اليونانية التي وقعت له لم يستطع تقدير آثارنا المصرية حق قدرها بوصفها إبداعات فنية ، إذ لم تكن قدراته على التذوق الجمالي تؤهله لاستيعاب صيغة التنوع من خلال وحدة الأسلوب ، ذلك أن ثقافته الكلاسيكية قد حالت بينه وبين أن يدرك كل أسرارها الجمالية ، كما حال تعصّب الديني ضد المسلمين وجهله بلغتهم بينه وبين أية مشاركة وجدانية مع المصريين . ولعل عيب كتابه هذا هو عيب عصره ، فلقد كان اهتمام الإنجليز في الربع الأول من القرن التاسع عشر مركّزاً لا على مصر المعاصرة بقدر ما كان مركّزاً على مصر القديمة ، ولم يتجه إلى المصريين المعاصرين إلا خلال العقد الثالث من هذا القرن على أيدي إدوارد لين وبوركهارت .

وما لبثت مصر أن غدت ميداناً لأشهر الكشوف وأهم ساحة لتطور علم التنقيب والحفائر المعني بالحرص على سلامة الآثار التي يستخرجها ثم الحفاظ عليها . غير أنه لم يكن هناك حد لجشع الممولّين ، ولولا القدر الكبير من الآثار الذي بلغ بعضه ضخامة هائلة لتحوّلت المناطق الأثرية إلى خرائب وأطلال . وقد انضاف إلى رعاة الفنون الموسرين في القرن الثامن عشر أمناء

المتاحف المغالون في جشعهم الشخصي خلال القرن التاسع عشر فتهالكوا على تكديس الآثار المصرية في كل من المتحف البريطاني ومتحف اللوفر ومتحف برلين . وكانت هذه الآثار من الكثرة بحيث اقتضت إنشاء متحف يختص بها في لندن ، فأنشئت القاعة المصرية عام ١٨١٢ في حين كان المتحف البريطاني يغص بمجموعة الآثار التي حملها إليه الثّراء والرحالة والمغامرون . وبتدفق هذه العجائب تزايد شغف الرأي العام وتعلّق به ، وظهرت الكتب التي تتناول الأزياء المصرية القديمة والأساطير الفرعونية والعمارة الإسلامية وغير ذلك من مظاهر الحياة المصرية بأعداد هائلة ، كما أخذت صور ورسوم أبي الهول وطيبة ومفيس وفيله والأهرام والحياة اليومية في القاهرة تصبح مشهداً مألوفاً في أكاديمية الفنون بلندن حتى استثارت هذه الظاهرة الناقد الفني الشهير جون راسكين فعقب عليها بقوله : « ألم يثن الأوان بعد للخروج من أسر مصر والتعرّف على مخلوقات أخرى غير العرب وجمّالهم ؟ » .

على أن هذا التأثير المصري قد نفذ كذلك إلى ميدان الشعر حين أوحى رأس تمثال رمسيس الثاني إلى الشاعر شيلي بوضع قصيدته المشهورة المعروفة باسم أوزيماندياس<sup>(٨٩)</sup> عام ١٨١٨ التي يقول فيها ما ترجمته :

حدثني رحالة وافدٌ من أرض ذات حضارة عريقة ،

أن في صحرائها تنتصب ساقا تمثال ضخمتان ،

قُدّتا من حجر ولا تحملان جذعا .

وعلى مقربة منهما غاص في الرمال جزء من رأس مهشّم ،

ثبّئ جبهته الجهمّة وشفته المتغصّنتان وتعالیه الأمر في جمود ،

عن قُدرة النَّاحت في سبّ غور العواطف وتجسيدها ،

فظلّت عبر الدهر ينسب بها الحجر الخامد ،

بعد أن توارت اليد التي صاغتها ،

وانطوى الوجدان الذي بثّ فيها النبضات .

وعلى قاعدة التمثال نقشٌ هذا نصّه :

[ أنا أوزيماندياس ملك الملوك .

نظرة إلى ما خلّفتُ أيها المتعالون

كفيلة بأن تجعلكم تطأطئون الرؤوس

قانتين عن أن تبلغوا مداها ]

ليس ثمة شيء في الجوار ،

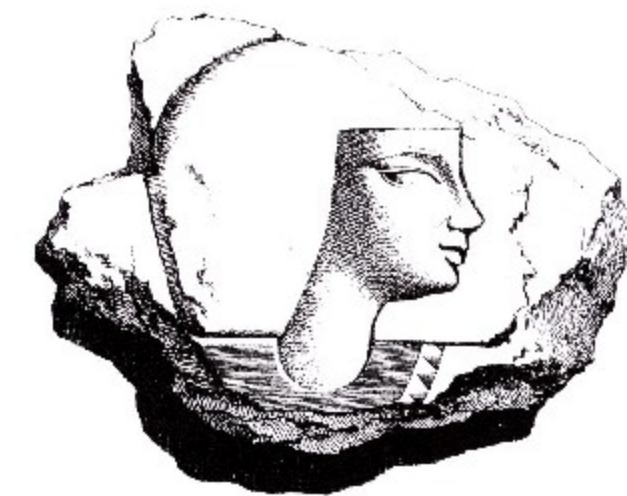
وما هي إلا رمال جرداء منبسطة مستوحشة

حول التمثال المتداعي الجبار

مترامية إلى بعيد . . . . . بغير حدود . »

(٨٩) أطلق علماء المجمع العلمي المرافق لحملة نابليون على مصر اسم أوزيماندياس خطأ على معبد الرامسيوم .





شمشون الحفائر

بلزوني

قنصل وتاجر

هنري صولت





لقد أصبحت مصر قبلة الرحالة الإنجليز حتى فاق عدد زوارها خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر عدد من زاروها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وذلك لسببين : أولهما انتهاء حروب نابليون التي حجرت الرحالة الإنجليز خلال العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر عن الوصول إلى سواحل البحر المتوسط . وثانيهما استقرار الظروف السياسية في مصر بعد اعتلاء محمد علي عرشها مما أحسن معه الرحالة بالأمن ومودة الجماهير وهو ما كان يُفتقد في عهد المماليك ، حتى كتب أحد الرحالة في عام ١٨١٧ : «يستطيع السائح أن يمضي حاملا نقوده معه من أدنى البلاد إلى أقصاها دون أن يتصدى له لص يستولي على ما معه قهرا ، كما اختفت جريمة القتل ولم يعد لها أثر» .

وقد جاء فيما كتبه سير فردريك هنيكر في كتابه «ملاحظات خلال رحلة إلى مصر»<sup>(٩٠)</sup> في عام ١٨١٩ أن طيبة بأكملها قد غدت ممتلكات خاصة للقنصلين البريطاني والفرنسي ، ففي عام ١٨٠٦ زار هنري صولت<sup>(٩١)</sup> مصر ورسم عدة تخطيطات مبدئية للقاهرة ثم ما لبث أن سعى كي يظفر بتعيينه قنصلا بمصر مؤملا أن يوفق في الحصول على كمية من الآثار لحساب أحد أغنياء الإنجليز طمعا في مزيد من الثراء ، وظل يمارس هوايته حتى وفاته عام ١٨٢٧ بعد أن استولى عليه هيام رومانسي بمصر وأثارها . وقد استخدم صولت لتنفيذ مخططاته المغامر الإيطالي چوفاني بلزوني الذي كان قد وصل إلى مصر عام ١٨١٥ بغية بيع آلة رافعة لنقل مياه النيل ، غير أن مشروعه أخفق فأنقذه الرحالة السويسري چون لويس بوركهارت بأن أوصى به هنري صولت خيرا . وفي غضون سنوات ثلاث استطاع بلزوني فتح المنفذ إلى معبد أبو سمبل الذي اكتشف بوركهارت وجوده قبل ذلك بضع سنين . كما أزاح الرمال عن مدخل الهرم الأوسط بالجيزة وكشف مقبرة سيتي الأول في وادي الملوك ببطية . وكانت متاعب بلزوني الكبرى أثناء حفائره تنحصر في تعامله مع اليد العاملة . وإذ كان ذا قوة جسدية خارقة للعادة جعلته يُلقب بشمشون الجبار ومارد بادوا كما قدّمت فإنه حين احتدم الخلاف بينه وبين العمال النوبيين في أبي سمبل لم يتردد في الاستغناء عن خدماتهم جميعا وعكف بمساعدة زميلين من الإنجليز له على الحفر بأيديهم حتى كشف عن مدخل المعبد . وكانت شخصية بلزوني مزيجا من الغرور والجهل والطموح إلى الشهرة ، وهو ما انتهى أخيرا إلى فصم العلاقة بينه وبين هنري صولت ، كما كانت أساليبه في التنقيب متهورة غير علمية ، ولعله قد دمر من التحف أكثر مما اكتشف ، وفي الحق إنه بالرغم من ولعه بهذه الآثار لم يكن يضمن لها أو لمشيدتها احتراما كبيرا ، حتى قال وهو يصف كيف شق

Fredrick Henniker (٩٠)

Notes during a visit to Egypt, Nubia, the Oasis, mount Sinai and Jerusalem. 1823.

Henry Salt: Twenty (٩١)

four views in st. Helena, the Cape, India, Ceylon, the red Sea, Abyssinia and Egypt. 1809.





بلزوني

طريقه خلال إحدى المقابر أنه كي يستعيد أنفاسه كان يجلس فوق أكوام من المومياوات فتتداعى من تحته مثل العلب الكرتونية التي تُحفظ فيها القبّعات ، وإذا افتقد الوقود لم يتورّع عن إيقاد النار في عظام المومياوات ومخلفاتها للإضاءة أو لطهي الطعام . ومع ذلك فإن المجموعة الرفيعة من الآثار المصرية التي يزهو بها المتحف البريطاني يرجع الفضل في جمعها إلى كل من بلزوني وهنري صولت .

رائد الأركيولوجيين الإنجليز

**ولكنسون**





ولم يلبث نهم جامعي الآثار أن اختفى بظهور متخصصي علم المصريّات ، وكان أحد كبار هؤلاء الأركيولوجيين هو جون جاردنر ولكنسون الذي وصل إلى مصر عام ١٨٢١ فأمضي إثني عشر عاما بالقاهرة وشتى مناطق البلاد ، وبعد وصوله بعام استطاع شمبوليون الفرنسي فك رموز الكتابة الهيروغليفية على حجر رشيد مما أعطى دفعة قوية لعلم المصريّات ووضع نهاية لمرحلة نهب الآثار ونزحها . وقد أدّت خبرة ولكنسون في التنقيب إلى الكشف عن عدد من أجمل مقابر طيبة ارتفعت باسمه إلى رأس قائمة الرواد الأركيولوجيين الذين كان من بينهم الثري الأسكتلندي روبرت هاي ممول الكثير من هذه الحفائر والذي قضى أكثر من شتاء بين عامي ١٨٢٨ ، ١٨٣٦ في إحدى مقابر طيبة ينقب دون كلل عن المزيد من المقابر ، عاكفاً على إعداد الرسوم وتصنيف المقتنيات في سجلات وصفية ، بعد أن استخدم عددا من الرسّامين المحترفين والفنانين لتنفيذ مشروعاته الطموحة . وفي عام ١٨٣٤ نشر ولكنسون كتابه «طوبوغرافية طيبة والمسح العام للقطر المصري» ، وكان أول تنقيح لما ورد في كتاب علماء الحملة الفرنسية الشهير « وصف مصر » من هنات ، وإن كان قد استهدف به أيضا أن يكون دليلا في أيدي السائحين الإنجليز الذين باتوا يقصدون مصر بأعداد متزايدة . وبعد سنوات ثلاث نشر كتابه الخالد « المصريون القدماء . عاداتهم وتقاليدهم »<sup>(٩٢)</sup> ، وكانت معظم الرسوم في كتاب ولكنسون من إنجاز بونومي الذي اشتهر بوصفه أبرع رسّامي الهيروغليفيات . وهكذا غدا كل من ولكنسون وبونومي أهم ناشري علم « المصريّات » الجديد [إيجيبتولوجي] .





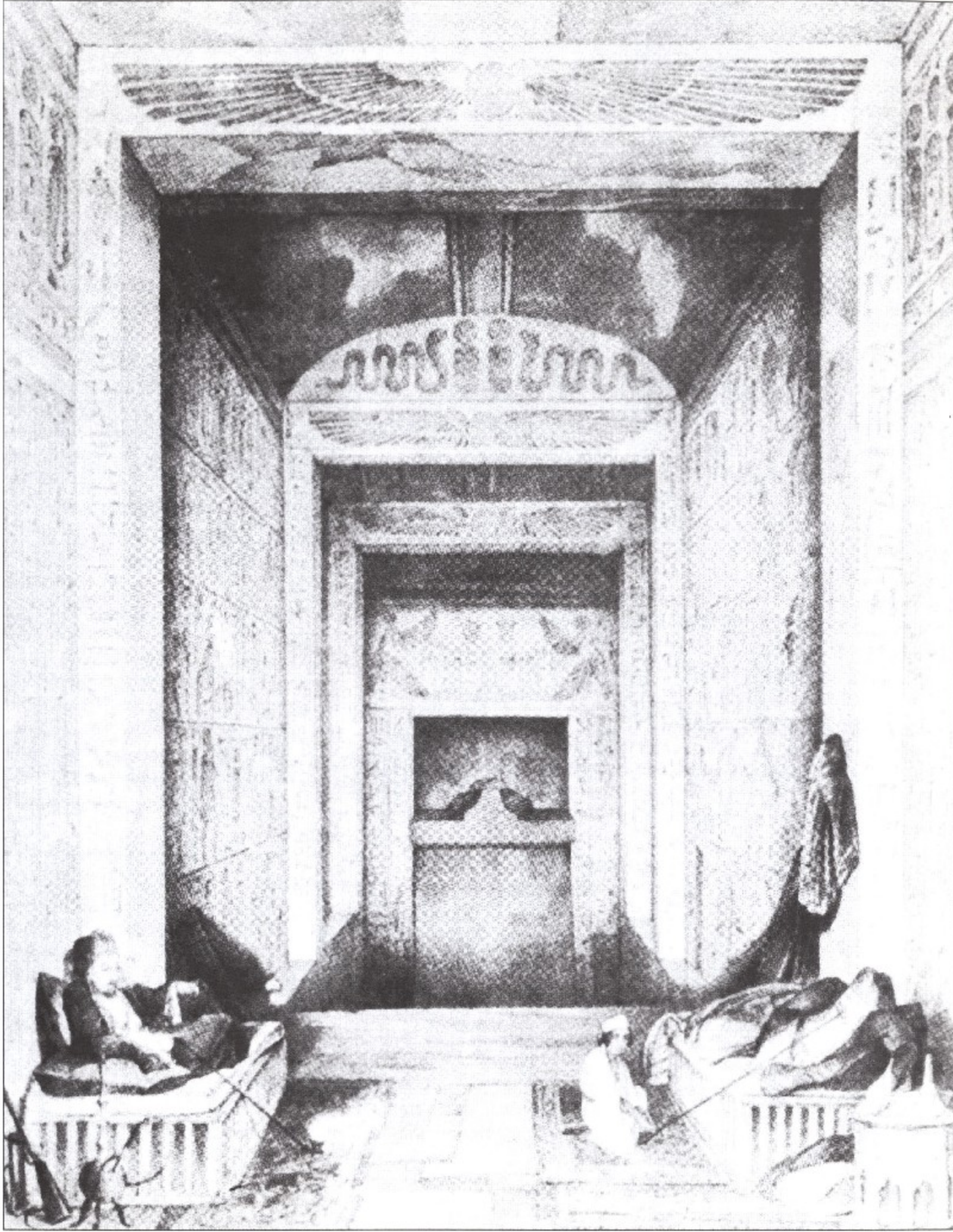
حياة نابضة  
تحت سقف مقبرة  
**روبرت هاي**



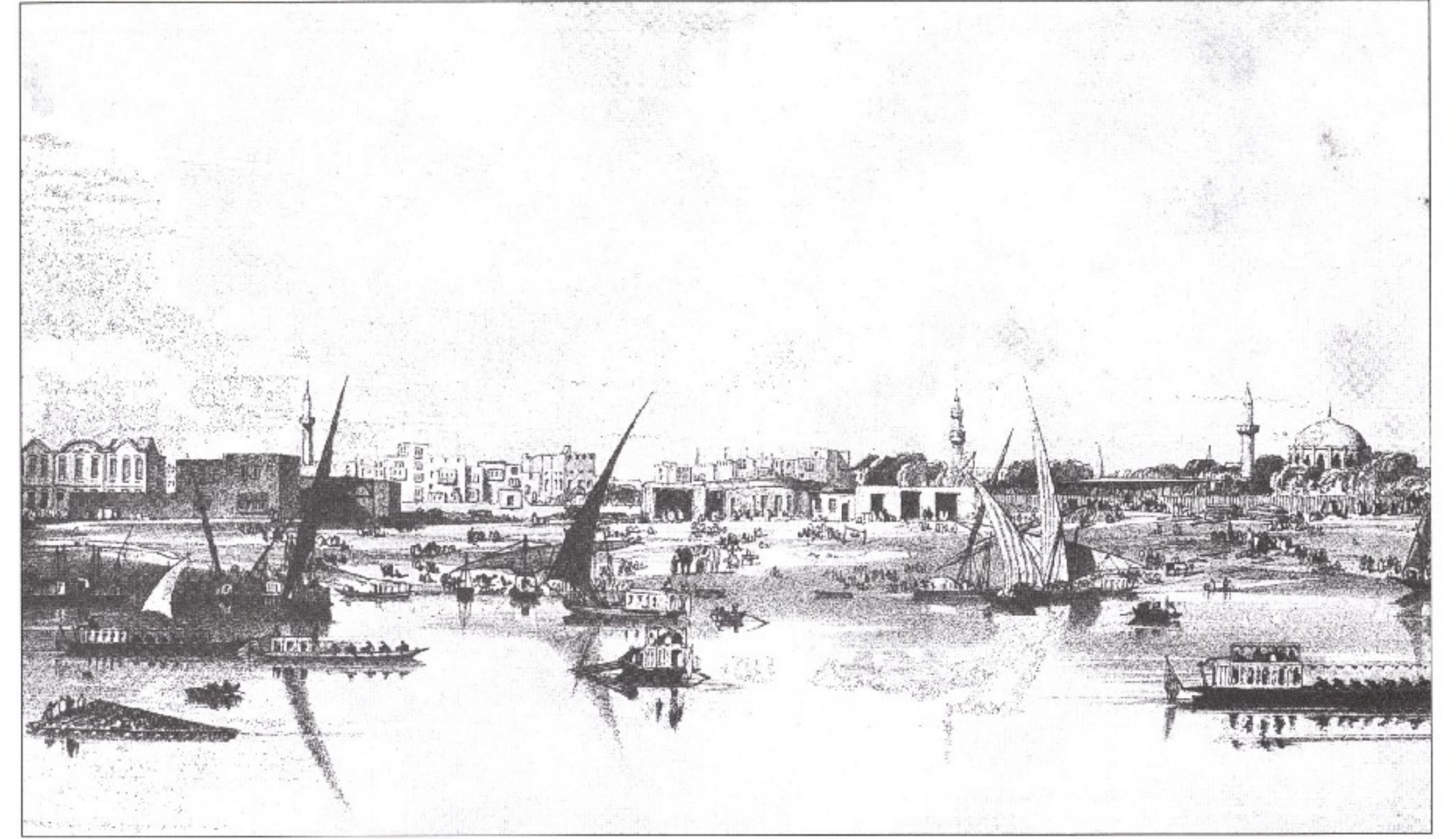
وفيما بين عامي ١٨٠٠، ١٨٢٠ ظهر ما ينوف عن خمسة وثلاثين كتاب رحلات إلى مصر يتناول معظمها الآثار المصرية القديمة التي تستهوي بغموضها وبقدم تاريخها الروح الرومانسية في الرحالة . وما يكاد عام ١٨٢٠ ينصرم حتى نلاحظ تغييراً واضحاً يطرأ على الرحالة، فبالرغم من أن عدداً متزايداً منهم بدأ يتدقق على مصر لمشاهدة الآثار فإن أحداً منهم لم يعد يعتقد أن من واجبه الكتابة الوصفية لها . ولعل مرد ذلك إلى أن كتباً عديدة قد ظهرت عن هذه الآثار ، وإلى أن نواحي أخرى من حياة المصريين قد بدأت تجذب إليها الأنظار . فضلاً عن أن الاهتمام بالآثار قد أخذ شكل الدراسة الجادة التي تُعنى بالتعمق أكثر مما تعنى بالتوسّع ، حتى أصبح ذلك امتيازاً لفئة خاصة من أصحاب المواهب والقدرات ذات الأهلية لتفسيرها لا لوصفها ، وخاصة بعد أن نجح شمبوليون في تصنيف حروف الأبجدية المصرية . فقد أخذ هؤلاء المتخصصون يقصدون مصر لا بدافع الفضول لمشاهدة آثارها مثل غيرهم من الرحالة ، ولا بدافع التنقيب ، ولكن لحل رموزها وتفسيرها وفهم كنهها . وكانوا في أغلب الأحوال فنانين ورسامين يجيئون لفترة محددة ينقلون فيها الأشكال والشخص المصورة فوق هذه الآثار ويسجلونها غير متعجلين في نشر ما توصّلوا إليه كالرحالة السابقين الذين كانوا على حد قول أحد كتّاب ذلك العصر يجيئون متجوّلين فيها ليجمعوا من تلك الجولات كتاباً . وفي الحق إن قلة ضئيلة من بين هؤلاء الفنانين الجادين هي التي نشرت كتباً ، فأدّوا بذلك رسالةً مجيدة بتسجيلهم تفاصيل دقيقة عن آثار لم تلبث أن عدا عليها الزمن ولم يبق ما يذكرنا بها إلا تلك الصفحات التي سجلوها . وكان من أبرز هذه الشخصيات - كما قدمت - روبرت هاي الذي شكّل البعثة المصرية التي عملت ما بين عامي ١٨٢٨ ، ١٨٣٦ . وقد احتضن هاي ورفاقه أسلوب الحياة الشرقية ، فأرسلوا لحاهم وتعلموا اللغة العربية أو أتقنوا ما يعرفونه منها ، وكان لأغلبهم دار في طيبة وأخرى في القاهرة حيث يقيمون المآدب وحفلات الموسيقى الشرقية لأصدقائهم المصريين والشوام . وكانوا يؤثرون السكنى في الأحياء الشعبية من القاهرة حيث يختلطون بسكانها حتى ظنهم الأهالي أتراكاً . واتخذ هاي إحدى مقابر طيبة لنفسه ولزوجته وأعضاء بعثته مستقراً فأعدّها برفوف تصطف عليها الكتب والمعاجم وزودّها بالأرائك والترجيلات . وكان يستضيف بها زوّاره يناقش معهم حول المائدة العديد من موضوعات العصر ويشربون







لوحة (١٥٨) مقبرة رمسيس التاسع من الداخل حيث عاش شموليون عام ١٨٢٩ .  
ويبدو في اللوحة المصور أوين جونز ومساعدته يدخنان النرجيلة.  
من رسم أوين جونز عن كتاب «مشاهد النيل» (١٨٤٤).

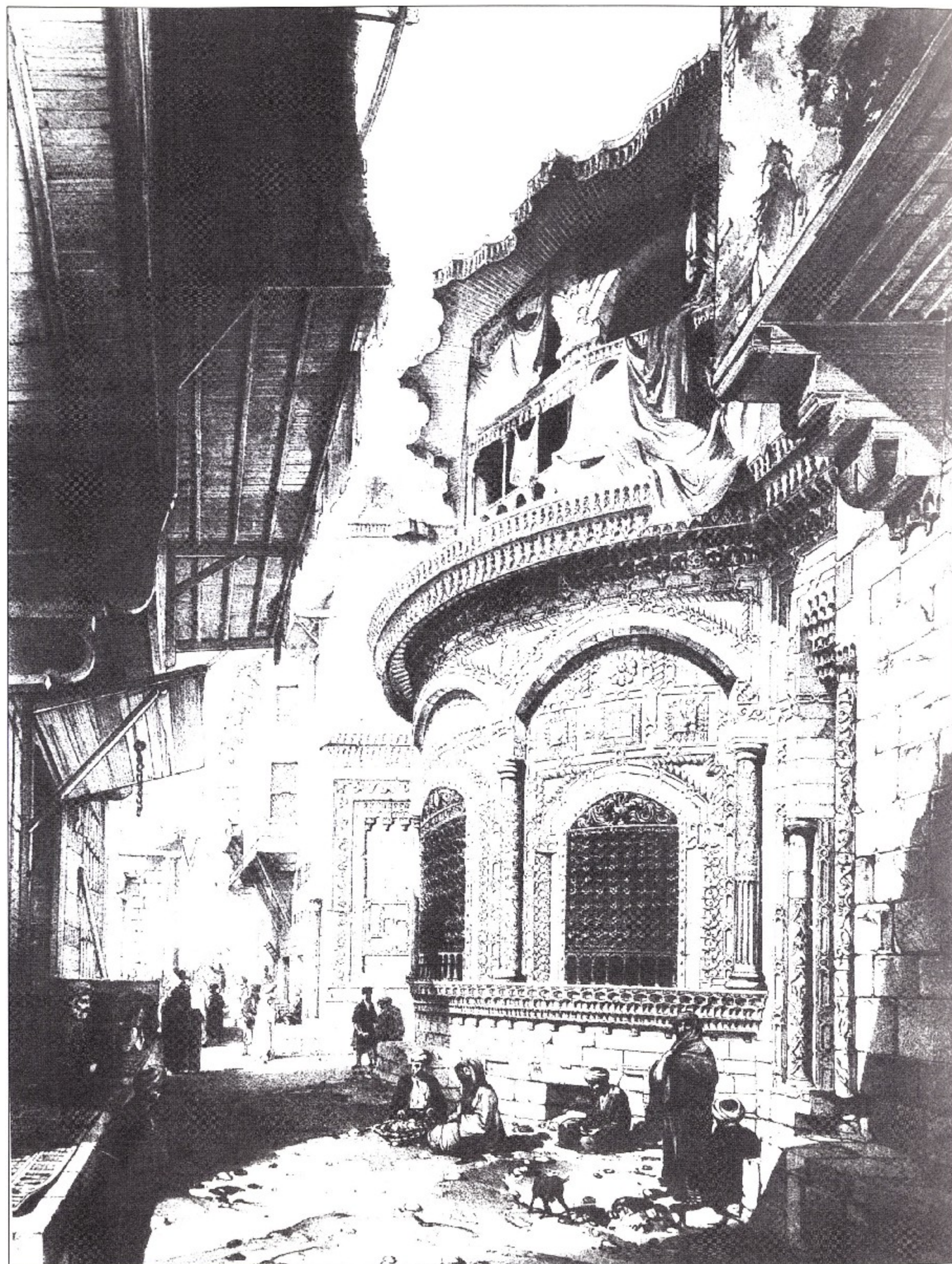


لوحة (١٥٩) روبرت هاي . كتاب صور وصفية للقاهرة . بولاق

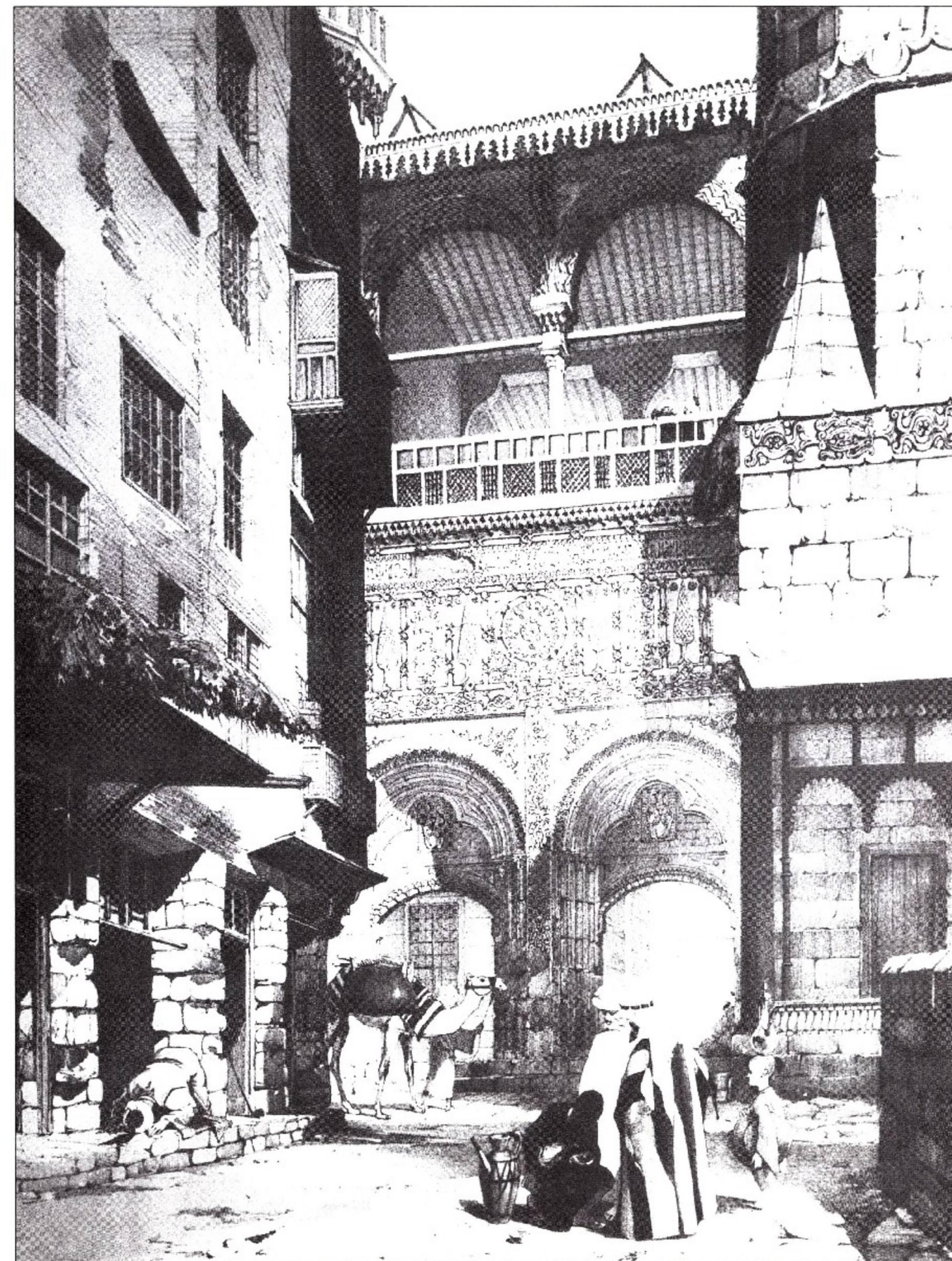
فاخر أنبذة فرنسا وماديرا حتى قال أحد زواره من الرحالة : « ما علمت فيما مضى أن مقابر الموتى تشهد مثل هذه الجلسات المرحية الصاخبة » . وإذا استثنينا كتاب هاي « صور وصفية للقاهرة »<sup>(٩٣)</sup> الذي نعرض منه سبعة عشر لوحة ( من ١٥٩ - ١٧٦ ) فإن معظم النشاط الذي استغرق منه هو ورفاقه زهاء عشرة أعوام لم يقدر له أن يُنشر . ويصف الرحالة جيمس سين جون الجالية البريطانية التي حلّ بينها ضيفا في طيبة قائلا : التقيت في إحدى المقابر الفرعونية بالسيد هاي وأسرته المعروفين لكل الرحالة الأوروبيين في مصر بأدبهم الجهم ولطفهم ، على حين كان السيد بونومي يقطن في مقبرة مجاورة حيث عاش لبضع سنين . . . . لقد كانت طيبة طوال مدة إقامتي بمثابة مستعمرة إنجليزية أكثر منها مدينة قديمة مهجورة . . . . »

Robert Hay: (٩٣)  
Illustrations of Cairo 1840.  
وجميعها محفوظة بالمتحف  
البريطاني





لوحة (١٦٢) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة . سبيل البدوية



لوحة ( ١٦١ ) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة .  
مدخل الجامع الأزهر ، باب الصعايدة .





لوحة (١٦٠) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة.

« إن من لم يشاهد القاهرة لم يعرف عظمة الإسلام ، فهي حاضرة العالم  
 وجنة الدنيا ومهد التمدن وباب الإسلام وعرش السلطنة . هي مدينة  
 تضيء عليها قلاعها الحصينة وحصونها الشامخة جمالا فريدا وتزينها  
 خانقاوات المتصوفة وتكايا الدراويش والمدارس التي تتألق فيها أقمار  
 العلوم ونجومها»

ابن خلدون





لوحة (١٦٤) روبرت هاي. صور وصفية للقاهرة. شارع بالقاهرة بجوار باب الخلق



لوحة (١٦٣) روبرت هاي. صور وصفية للقاهرة. مسجد السلطان برقوق





لوحة (١٦٦) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة ،بركة الفيل



لوحة (١٦٥) روبرت هاي .  
صور وصفية للقاهرة ، الجمالية وجامع البيرسية





لوحة (١٦٨) روبرت هاي . صورة وصفية للقاهرة . خان الخليلي



لوحة (١٦٧) روبرت هاي . صورة وصفية للقاهرة . خان الخليلي





لوحة (١٧٠) روبرت هاي : صور وصفية للقاهرة .باب زويلة



لوحة (١٦٩) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة . سبيل طوسون باشا « أم عباس »

« لم تكن كل كميات المياه المستمدة من النيل تباع مباشرة إلى أهالي القاهرة إذ كان جزء كبير منها يوضع في أسبلة المدينة حيث يستطيع الفقراء العاجزين عن شراء المياه من السقاكين الحصول على حاجتهم منها دون مقابل . وفي عام ١٨٠٦ كانت القاهرة تضم حوالي ثلاثمائة سبيل شيدها الأمراء والموسرون باعتبارها منشآت خيرية . ويزدان السبيل عادة بالزخارف البديعة ويضم طابقين على الأقل أعلاهما كتاب للصبية ، والسفلي عبارة عن حوض تحت الأرض يفرغ فيه السقاؤون قربهم التي ينقلونها على ظهور الجمال .



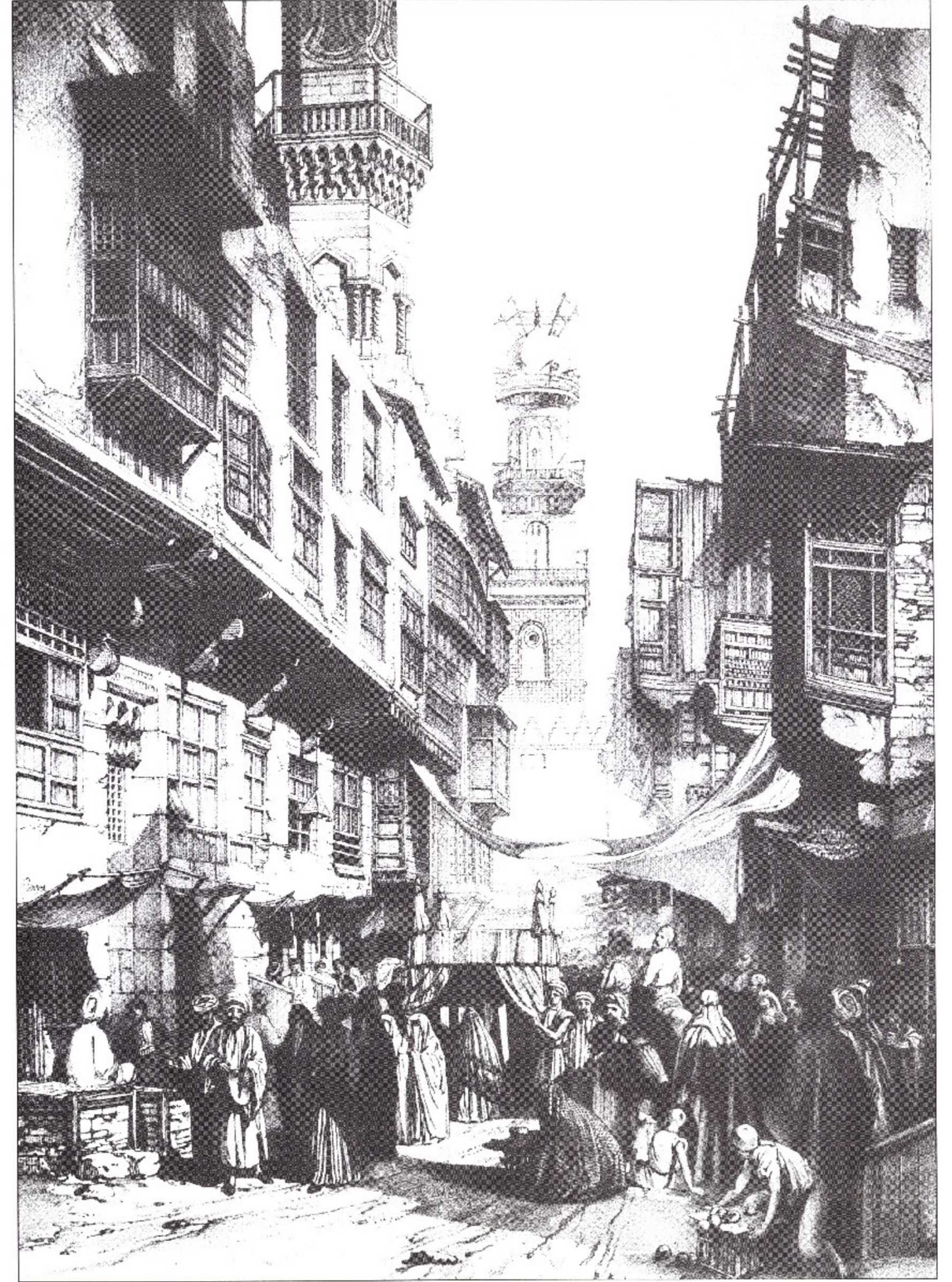


لوحة (١٧٣) روبرت هاي . صور  
وصفية للقاهرة . مسجد الجيوشي  
فوق جبل المقطم .



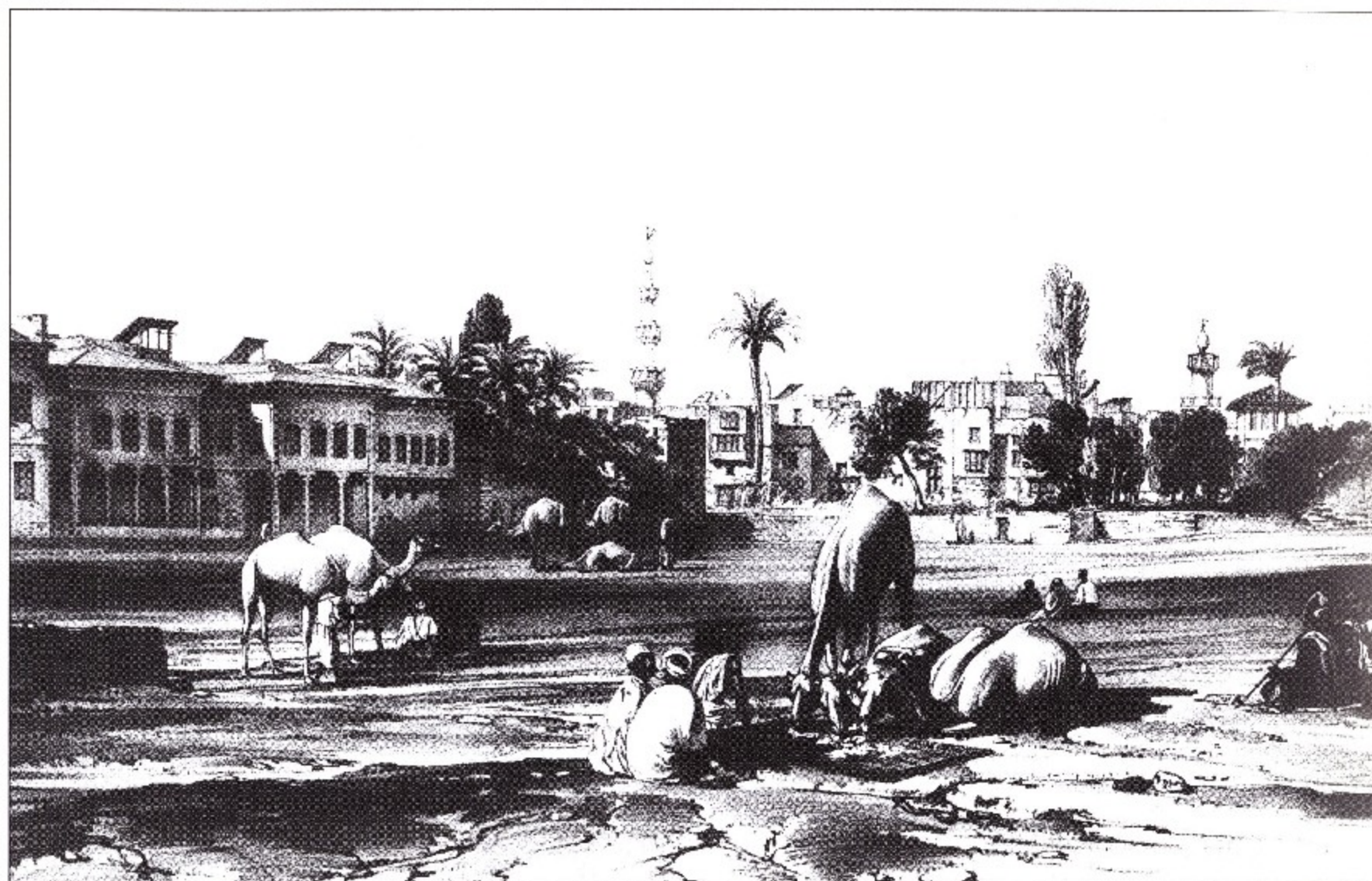


لوحة (١٧٢) روبرت هاي : صور وصفية للقاهرة . منمنمة الحاكم بأمر الله .

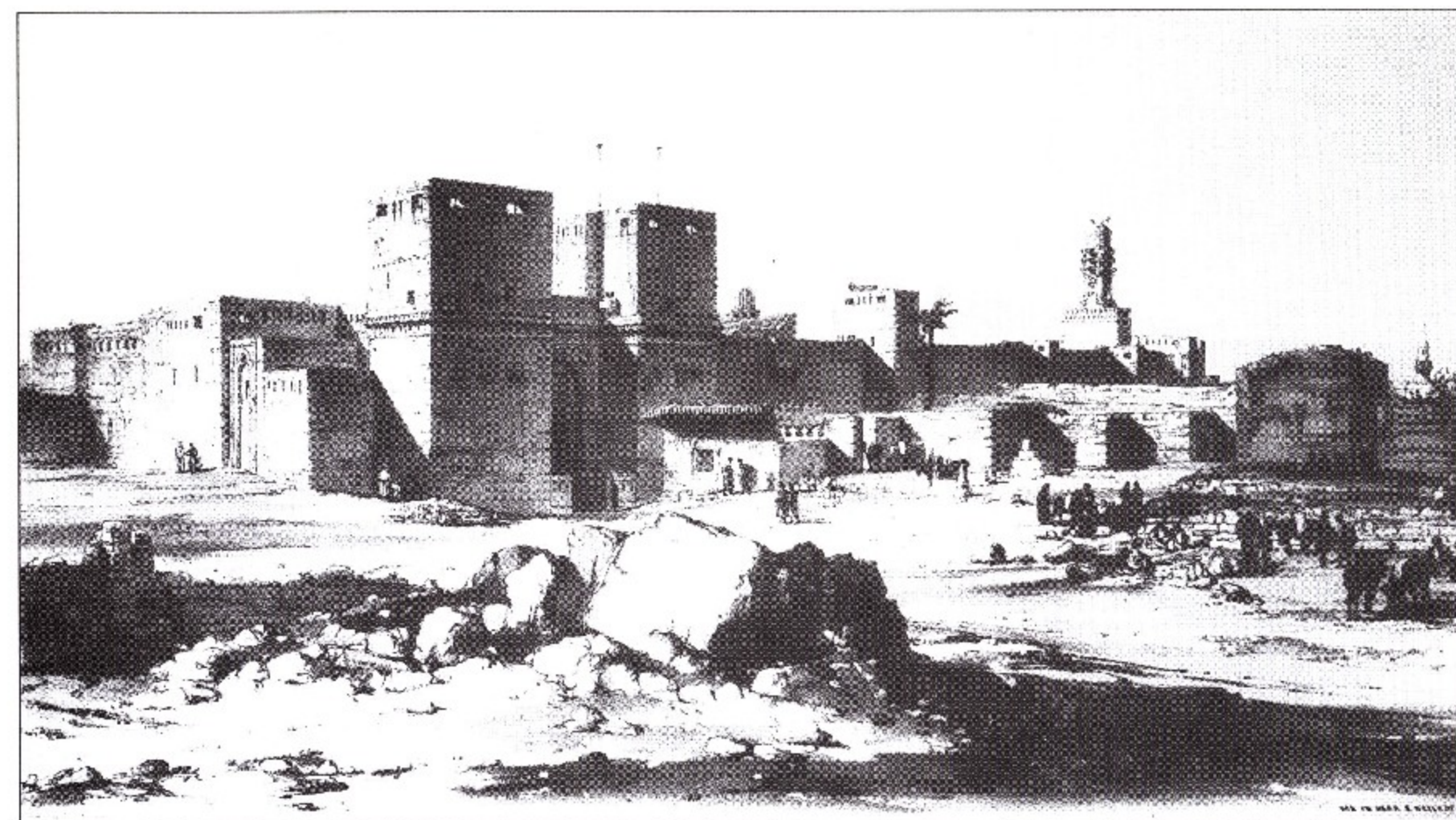


لوحة (١٧١) روبرت هاي : صور وصفية للقاهرة . بين القصرين ، وتبدو في اللوحة منمنمة السلطان قلاوون .

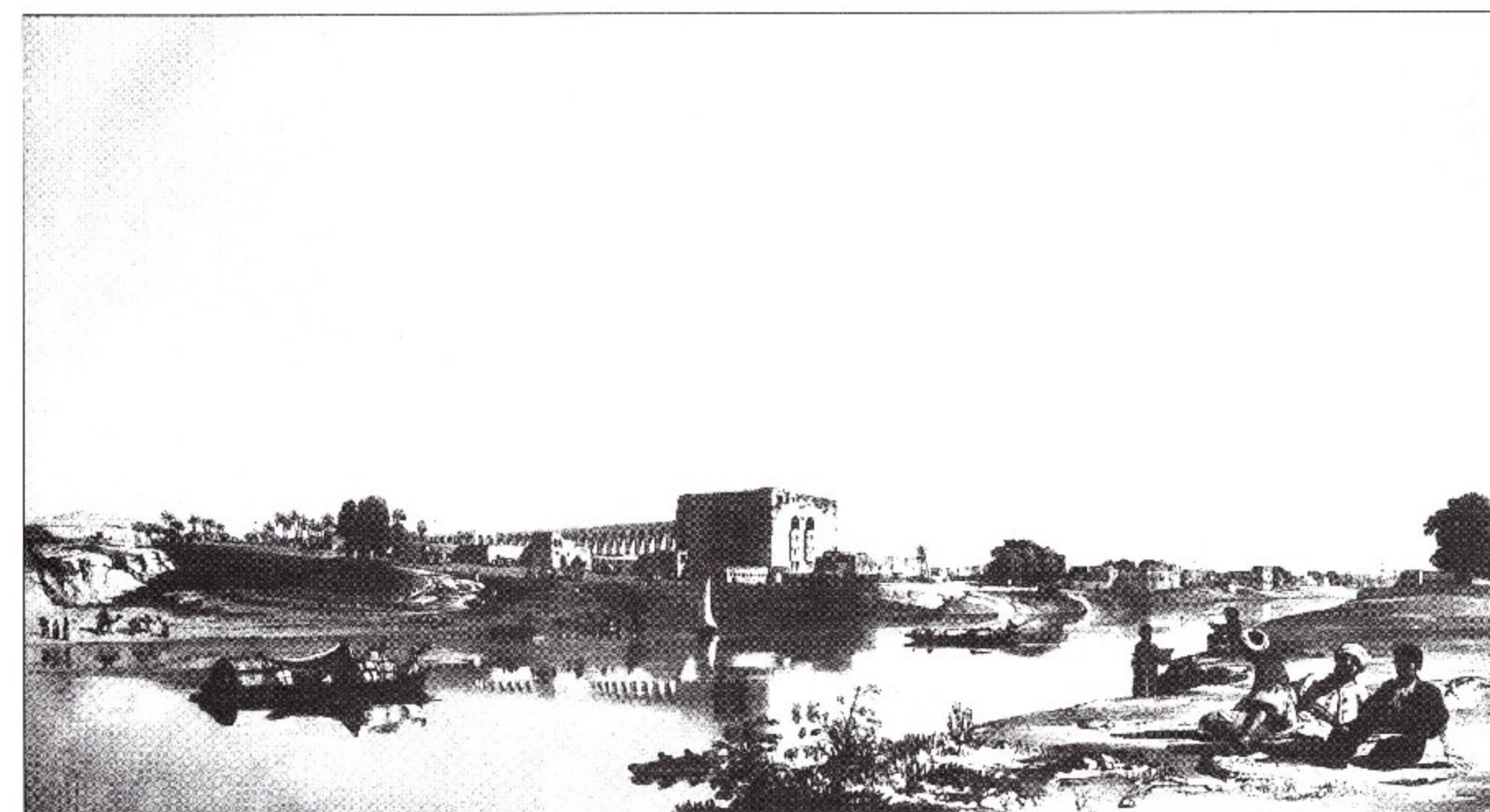




لوحة (١٧٦) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة . قصر شريف بك.

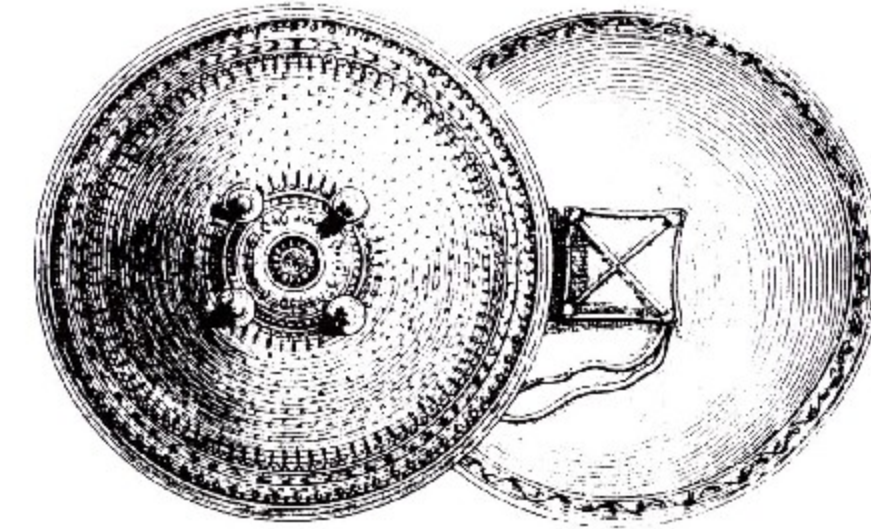


لوحة (١٧٤) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة . باب النصر وسور القاهرة .



لوحة (١٧٥) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة . سور المياه بالقاهرة وجانب من مصر العتيقة وجزيرة الروضة .





الجراح

مادين

وسمه الزعاف





تسجل نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر نقطة تحول في اتجاهات الرحالة الإنجليز والكتاب الذين أولعوا بدراسة آثار مصر حين اجتذبت اهتمامهم المناظر الطبيعية المصرية ومشاهد القاهرة وطباع المصريين وعاداتهم، فنرى سير فردريك هنيكر يقول في عام ١٨١٩ إن اهتمامه بات ينصبّ على الطبيعة أكثر مما ينصبّ على الأعمال الفنية . وفي عام ١٨٣٠ كتب سين جون<sup>(٩٤)</sup> : «لم أعد أشدّ الرحال جريا وراء البحث عن الآثار، فلا الأهرام ولا المعابد أو أي شيء آخر يمكن أن يصرف انتباهي عن أحوال الناس الذين أعيش بينهم» .

James Augustus St. (٩٤)  
John: **Egypt and  
Mohammad Ali, or  
travels in the Valley of  
the Nile. London 1834.**

James Webster: (٩٥)  
**Travels through Crimea  
and Egypt (1825 - 28)**

وهكذا شغلت المناظر الخلوية المصرية الرحالة فأخذوا يتفحصونها ويصفونها بدقة وتفصيل، مثل ضفاف النيل وجني محصول القطن وقرى الصعيد التي تغرقها المياه خلال موسم الفيضان وبزوغ القمر في الصحراء وشروق الشمس وغروبها، كما انتقل اهتمام الرحالة بعد عام ١٨٢٠ إلى الإنسان المصري حتى قال جيمس وبستر<sup>(٩٥)</sup> الذي زار مصر عام ١٨٢٨ : «إذا كانت ثمة بلاد قد أسرتني أكثر من غيرها فإنها بدون تردّد مصر . ففيها التقيت بمجتمع يختلف كل الاختلاف عن مجتمعنا وبحكومة وعقيدة وطباع تتباين معنا كل التباين» . غير أن معظم كتاباتهم كانت مع ذلك تنطوي على سمّ معسول كما جاء في رسالة للدكتور مادين الجراح الإنجليزي الذي عاش في مصر بين عامي ١٨٢٤ ، ١٨٢٧ يقول فيه : «أرى أنه من غير اللائق أن نصدم مشاعر سيداتنا المسيحيات فنصف لهن النساء المصريات، بل قد يكون من مجافاة الذوق أن نمدح جمالهن، ومع ذلك لا أملك إلا أن أفصح عن أنهن بالرغم مما على وجوههن من أصباغ ومما على أذقانهن من وشم أزرق ومما على أكفهن من صُفرة الحناء ومما على حواجبهن من سواد الكحل، فثمة كثرة منهن يتمتعن بجمال فائق لا يبارى . غفر الله لي هذا القول فقد يكون ذوقي الخاص هو الذي يرجع إليه هذا الشطط» .

R. Madden: **Travels (٩٦)  
in Turkey, Egypt and  
Palestine in 1824 - 27.**

ويصف مادين مدينة القاهرة في كتابه «رحلات في تركيا ومصر والنوبة وفلسطين»<sup>(٩٦)</sup> قائلا : «هي مدينة تضم ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة ليس بها شارع واحد تراح العين لرؤيته، بل إن مساجدها التي تتفوق في نظري بروعتها على مساجد إستنبول مندرجة في أزقة مغلقة ودروب موحلة . ولا يكاد يبلغ عرض الشوارع الرئيسة أكثر من أربعة أمتار وقد أظلمتها الحُصُر التي تعلوها لتحميها من أشعة الشمس، وتراكمت فيها الخضر العظنة وفضلات الذبائح المضرجة بالدماء معروضة على أبواب الحوانيت . وإن أول ما يصدم الزائر الأجنبي في القاهرة هو ما يتبدّى على



الأهالي من يؤس مشير للثراء ومن أبته مظهرية تغلف الأثران . ويأتي بعد ذلك تعدد الأزياء المتنافرة، كما يسترعي الانتباه رؤية الرؤوس صلعاء تستطيل تحتها شعور اللحي، وارتداء الرجال التنورات على حين ترتدي النساء السراويل الحريرية أو القطنية . وبدلاً من القبعة التي يعتمر بها الأوروبيون يلف الرجال هنا رؤوسهم بأوشحة من المسلمين، كما لا يرتدي الرجال المعاطف بل يسدلون العباءات على أكتافهم . وتشغل السجادة مكان السرير، والطاس الخشبية مكان الطبق والصينية المعدنية مكان مفرش المائدة، وتقوم أصابع اليدين بوظيفة الملاعق والشوك، ويحيي الرجل نظيره دون انحناء ويفترش الأرض دون حاجة إلى مقعد . وقد يلتزم الصمت دون أن يكون هناك ما يشغل فكره، كما قد يتخذ سميت الوقار دون أن تكون وراء ذلك حكمة، وإياك أن تجامله بالسؤال عن صحة زوجته فقد تفقد بهذا السؤال عنقك، واحذر كذلك أن تشيد بجمال أبنائه حتى لا يتطرق إلى ذهنه أن لك عين الحاسدين الحاقدين . ويكاد اسم الرسول يتردد على كل لسان دون أن تكون خشية الله نابضة إلا في قلوب القلة . ويحدثنا مادين أيضاً عن زيارته لمستشفى الأمراض العقلية التي «يعتمد مرضاها في غذائهم اليومي على الصدقات المباشرة، فإذا تضاعل الإحساس بالإحسان يوماً مات بعضهم جوعاً» .



قمتان للتعصب

ولسون وريتشاردسون





الرحالة الإنجليزي ينظر إلى الشعوب الأخرى متعاليا، يحذر أن يقرب من أهلها مخافة أن يناله من هذا القرب سوء أو أن يلحقه ما يلوته . وإذا عرض لوصف المواقف الشرقية وصفها في سخرية لأذعة وتهكم فاضح ، كما فعل الرحالة ولسون<sup>(٩٧)</sup> (١٨٢٣) حين وصف موكب زفاف صادفه بالقاهرة قائلا : «تُرفّ العروس سائرة على قدميها تحت مظلة مرتفعة على أربعة عيdan، محجبة الوجه مزدانة بحليّ فجّة الذوق ، وتسدل عليها عباءة تضفي عليها هيبة منقوصة . وتسير عن يمينها وشمالها امرأتان بديتتان ، ويتقدمها وتأتي وراءها فرقتان من الموسيقيين الذين يتنافسون في عزف ناشز ويرتدون أثوابا غريبة ، كما يضم الموكب خليطا عجيبا من النماذج البشرية . وليس في تصوّري أنه يمكن أن نجد منظرا أشد مدعاة للضحك والسخرية من هذا المنظر حتى لو كان ذلك حفل مولد القديس بارثولوميو في لندن» .

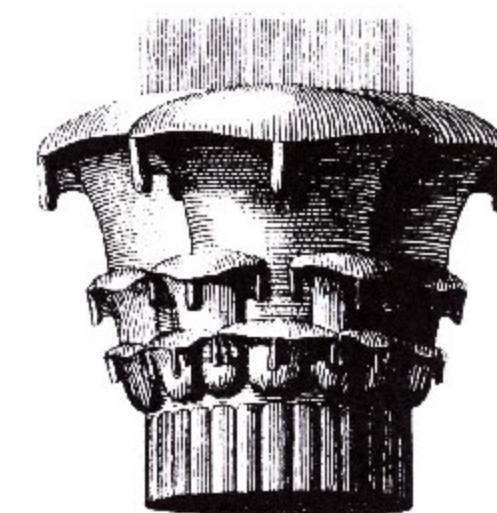
W. R. Wilson: (٩٧)  
Travels in Egypt and the  
Holy Land. London.  
1823.

ويقدم ريتشاردسون<sup>(٩٨)</sup> (١٨٢٢) صورة لفساد خلقي يدعي وجوده خلف الأحجية التي تستر بها النسوة فتثير في النفس شيئا من السخرية وذلك خلال وصفه لموكب من السيدات قائلا : «حين تخرج سيدات كبريات الأمر تغطي الواحدة منهن من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بثوب من الحرير الأسود وبخمار أسود منسدل هو أيضا حتى القدمين ، تبدو البديئة منهن كالزكية المحشوة أو الهرم المتجول . وهو ما يدفع إلى تحريك الخوف في نفس من يراها ممتطية دابة من أن تهوي من فوق ظهرها أو أن تنفق الدابة . ولو أنا تصوّرنا نعشا قائما فوق ظهر بغل أو حمار ثم غطيّناه بثوب أسود لما كان أكثر إحياء بجو الجنازة من موكب هؤلاء النسوة وهن يجسّن خلال شوارع القاهرة . . . . إن غيرة الرجال في الشرق على نسائهم مما يثير في نفوسنا الامتعاض والاشمئزاز ، فما أقساهم عندما يلزمون هؤلاء الحسنات حين ينتقلن من مكان إلى مكان بالتسربل بالعباءات وبإسدال الحجاب الذي جعل منهن أشبه ما يكن بالسجينات في غياب الظلمات ، فلقد كانوا يعدّون خروج إحداهن سافرة في وضوح النهار جريمة لا تغتفر» .

R. Richardson: (٩٨)  
Travels along the Mediterranean and parts adjacent, during the Years  
1816-18

على أن بعض الرحالة الإنجليزي لا يتوقفون عند اعتبار النساء المصريات ضحايا من دعوهم طغاة الشرق من الرجال بل لقد ذهبوا أيضا إلى وصفهن بالخلاعة والمجون ، ذلك أنهم لم يروا في الحجاب إلا وسيلة تستر به النساء فسادهن وانغماسهن في الرذيلة . وليس من العصى على القارئ المنصف أن يكتشف ما في حديث مثل هؤلاء الرحالة من تناقض وتحامل لا يصدر عن سلامة طوية ، فرجال الشرق في نظرهم وحوش لحرصهم على التمسك بأهداب الفضيلة ، والنساء المحجبات مستترات على تهتك لا ندري من أين استشفه أولئك الغرباء عن الشرق وعاداته!





الورع المبدع

البارون كيرزون



كان من أبرز مَنْ عبّر عن الاهتمام بالجانب الإنساني في الساحة المصرية بعد عام ١٨٢٠ من بين الرحالة الإنجليز اثنان هما روبرت كيرزون وإدوارد وليام لين اللذان تصادف وجودهما بمصر في نفس الوقت ، غير أنه كان لكل واحد منهما أسلوبه الخاص الذي يختلف عن أسلوب الآخر . وكان البارون روبرت كيرزون قد زار مصر وفلسطين عام ١٨٣٣ سعياً وراء مخطوطات أثرية في مكتبات الأديرة القديمة ، وأسفرت رحلته عن كتاب شائق ظهر في لندن عام ١٨٤٩ بعنوان «زيارات لأديرة الشرق الأدنى»<sup>(٩٩)</sup> فلقني نجاحاً منقطع النظير حتى أعيد طبعه ماينوف عن عشر مرات لغاية عام ١٨٩٧ . وهو لم يكتب كتابه كرحالة يسجل ملاحظاته بدقة لكل موقع زاره أو يحاول استنباط مغزى أخلاقي من خلال ملاحظاته لعادات الناس ، كما لم يزعم أنه يزود القراء بالمزيد من المعارف ، بل كتبه كفنّان كانت تجربته في مصر هدفاً في حد ذاتها دفعته إلى الإبداع الأدبي . وقد استطاع من خلال المواقف المختلفة التي يرسمها بقلمه للأماكن والأهالي والعديد من النوادر وخرافات الناس التي يحكيها والتجارب الشخصية المتعددة التي عاشها ، أن يشكّل صورة جذابة لمصر حاول بحماس شديد التقاط ألوانها وضلالها المتباينة . انظر إليه يصف لحظة الأذان للصلاة في القاهرة : « . . . تسري ترنيمة المؤذنين من منارات القاهرة الألف خلال الأجواء الصافية الساكنة فتبثّ الخشبة في القلوب ، وتُسلمني تهليلاتهم التي تتسامى فوق المدينة إلى فيض من النور . . . يرتفع في البداية صوت مؤذن أو اثنين خافتا من بُعد ، يتبعهما ثالث على مقربة منك ، ثم إذا بالنداء يتردد من منارات مساجد أخرى . وفي النهاية من طرف المدينة إلى طرفها الآخر تنوالى الترنيمات البديعة الإيقاع على الأذان تدعو المؤمنين إلى الصلاة . ولهنيئة يخيل إليك أن ثمة جوقة من المرتّمين تشدو في الأثير وكأنها الأرواح يناشد بعضها بعضاً الدعوة إلى عبادة خالق الكون . وسرعان ما يخفت الصوت رويداً رويداً وتمتد لحظة سكون يتلوها صخب المدينة وضجيجها . إن صيحة الإنسان يدعو أخاه الإنسان إلى الصلاة تبدو لي أكثر اتساقاً وأشد انسجاماً مع الشعور الديني من قرع النواقيس الأوروبية ورنينها » .





اكتشاف الواقع  
بالصدق الفني

إدوارد لين



Edward Lane: **An** (١٠٠)  
**Account of the Manners  
 and Customs of the Mod-  
 ern Egyptians.**  
 Written in Egypt during  
 the years 1833 - 35.  
 With 65 illustrations and  
 27 full Page engravings.  
 Alexander Gardner. Lon-  
 don 1896.

سلك إدوارد لين في وصفه للمجتمع المصري مسلكتا مختلفا كل الاختلاف عن مسلك كيرزون، إذ زودنا بصورة مستمدة من الحس لا من الخيال، غزيرة بالتفاصيل غير مشوبة بالتلوين حتى قيل فيها إنها أمثل صورة لحياة قوم كتبت حتى اليوم، فلقد أشبعت رغبة عامة لم يجارها فيها كتاب آخر. وفي الحق إنها كانت ذروة اتجاه يهدف إلى تصوير الحياة المصرية المعاصرة حينما كانت مصرية قلبا وقالبًا. فإن كتاب «المصريون المعاصرون. عاداتهم وتقاليدهم»<sup>(١٠٠)</sup> لم يترك لغيره شيئا يقال، علق عليه دافيد إركرت: «بأنه كتاب يُسهم بدرجة كبيرة في تحسين مركزنا في الشرق، إذ لا يستطيع رحالة من بيننا أن يتوجه إلى مصر - بعد صدور هذا الكتاب - دون أن يكون على إلمام تام بمجتمع له دستورته الواضح المعالم لعادات والأخلاق وآداب اللياقة». على أنه بالرغم من تفاؤل إركرت بصدور هذا الكتاب إلا أن الدبلوماسيين والموظفين الإداريين الإنجليز الذين وفدوا على مصر لمعالجة الشؤون المصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يحفلوا كثيرا بتلك الأعراف المصرية التي عني لين بتسجيلها (لوحة ١٧٧).

ولقد قصد لين مصر لأول مرة عام ١٨٢٥ واستأجر بيتا بعيدا عن الحي الأوربي وتسمى باسم منصور أفندي، ولم يقصر بحثه على الأدب المصري فحسب بل على كل مظاهر الحياة في مصر إبان عصره، ولذلك أثر ألا يختلط إلا قليلا بغير المسلمين من سكان القاهرة. وإذ لم تكن الحياة وقتذاك تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه القاهرة العصور الوسطى فقد غدت رؤية لين الرائعة النفاضة خير تعليق على ما رواه المؤرخون العرب أنفسهم خلال العصور الوسطى أو ما دونه الرحالة من معاصريه. وحين عاد لين إلى إنجلترا عام ١٨٢٨ كان قد انتهى من دراسته الأولية المعنونة «وصف مصر» غير أنه لم يتمكن من نشرها إذ لم يستجب الناشر لنشرها لارتفاع تكاليفها نظرا لكثرة عدد الرسوم التي تضمنتها. وبقي لين يواصل دراساته عن مصر حتى عام ١٨٣٣ ليكمل كتابه الجديد «المصريون المعاصرون. عاداتهم وتقاليدهم» الذي تجمست له «جمعية نشر المعارف المفيدة» بإنجلترا في عام ١٨٣٦ وتعهدت بنشره على أن يكون مجلدا مصاحبا لكتاب جون جاردنر ولكنسون المسمى «المصريون القدماء. عاداتهم وتقاليدهم». وقد تناول لين في كتابه هذا عددا لا يحصى من الموضوعات: كالعقيدة الإسلامية ونظام الحكم وجهاز الدولة الإداري والحياة المنزلية والمعتقدات الخرافية وأمور السحر والصناعة ووسائل الترفيه وفن القصص والملاحم وعادات الزفاف والختان والمآتم والجنائزات، كما عقد فصلا مستقلا عن زينة المرأة المصرية وآخر عن أزياء الرجال، وثمة تشابه ملحوظ بين النموذج الذي احتذاه لين في ترتيب مادته وتبويبها وبين البحث المنشور في كتابه «وصف مصر» عن عادات المصريين. موجز القول أنه قدّم في كتابه تفسيرًا جادا لنظم المجتمع الإسلامي الذي يشكل بالنسبة للأوروبيين خلفية تلك القصص الخيالية التي يطالعونها في كتب الشرق مثل «ألف ليلة وليلة»، وكان لين قد قام بترجمتها ترجمة جديدة.



لوحة (١٧٧) تمثال لإدوارد لين من إنجاز شقيقه.



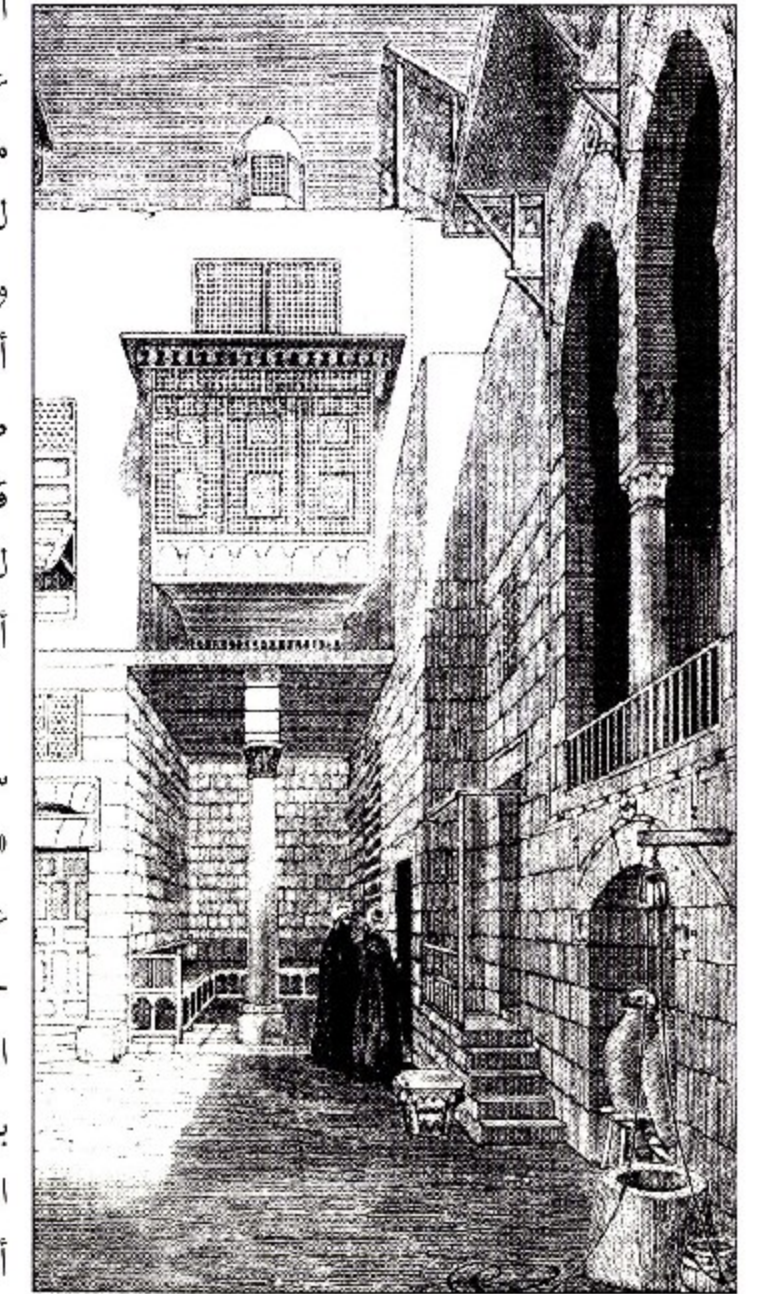
(١٠١) الكاميرا الوسيدي (أي حجرة الضوء) هي آلة تعكس بواسطة عدسة مشطورة أشعة الضوء الصادرة عن شيء ما وتسقط له صورة على صفحة فيمكن الرسم من فوقها بالقلم الرصاص.

Luigi Mayer. Views (١٠٢) in Egypt. London 1804.

ويقع كتاب «المصريون المعاصرون» لإدوارد لين في ثماني مجلدات تشتمل خمس منها فحسب على رسوم وصفية [إيضاحية]. وقد نُفذت هذه الرسوم كما شرح لين في صدر الكتاب بمساعدة آلة الكاميرا المضئية<sup>(١٠١)</sup> التي أعانته على ضبط ما يرسمه. وتمتاز هذه الصور بالوضوح ودقة الخطوط والتفاصيل، كما أنها تسجل تأثير الضوء والظل ودرجات إشعاعات ضوء الشمس تعرض منها تسعة وعشرين رسما (١٧٨ - ٢٠٦). وقليلة هي الكتب التي تكاد لا تشتمل إلا على رسوم فحسب والتي ظهرت في العقود السابقة على كتاب لين مثل كتاب «مناظر في مصر» من رسم لويجي ماير<sup>(١٠٢)</sup> الذي تعرض منه أيضا لوحات متعددة في الجزء الثاني، ويشتمل على مناظر للقاهرة والإسكندرية وبعض القرى المجاورة، وكذلك كتاب «مناظر في جزيرة سانت هيلانة ومصر» الذي لم تظهر به لمصر سوى بضع لوحات قليلة، فضلا عن كتاب بلزوني «لوحات مصورة لأعمال التنقيب» الذي ضم لوحات عن الآثار التي اضطلع بها بلزوني وحده. وهكذا يكون لين قد خطط مشروعه ليكون مختلفا عن أعمال من سبقه في هذا المضمار من حيث شمول صورته واشتمال كتابه على أوصاف دقيقة لها. ولا يزال المتحف البريطاني يحتفظ بأصول كتاب «وصف مصر» لإدوارد لين الذي لم يكتب له أن يُنشر والذي يعتبره الأركيولوجيون من أهم السجلات التي يرجعون إليها لما احتواه من تفاصيل عن آثار ضاعت معالمها أو أصابها العطب والبلى، كما أنه لم يقتصر على الآثار الفرعونية وحدها بل اشتمل أيضا على وصف للقاهرة وسكانها.

ولقد اندمج لين خلال زيارته الأولى في الحياة المصرية بعاداتها وتقاليدها ليصبح واحدا من أهلها وبهذا استطاع أن يشارك في مختلف الأنشطة المصرية والإسلامية، وبلغ من اكتسابه السلوك الإسلامي المصري أثناء زيارته الأولى أنه لم يعد يملك استئناف عاداته الأولى عند عودته إلى إنجلترا، الأمر الذي دفع أغلب أصدقائه إلى مخاطبته باسمه العربي المكتسب بدلا من اسمه الإنجليزي. وعند عودته للمرة الثانية إلى القاهرة استأجر مدرسين للغة العربية والعقيدة الإسلامية والشريعة، وكتب إلى صديقه روبرت هاي قائلا: «لا أنوي هذه المرة أن أكون تركيا [أي أجنبيا] إلى الحد الذي كنته في الزيارة الأولى. فأنا أتناول طعامي الآن دون الشوكة والسكين وأترك حذائي على مبعدة من الخصير قبل الجلوس». وتلفتنا السيدة ليلى أحمد في دراستها المستفيضة لإدوارد لين إلى أنه قد استعمل كلمة تركي بنفس المعنى الذي كان يستعمله المصري أي الأجنبي.

ولقد استغرقت هذه الدراسة كل وجدان لين حتى بدأ أثرها يظهر على سلوكه هو، فقد كتب حفيد شقيقته ستانلي لين پول في كتابه عن حياة لين: «على الرغم من أن لين قد أخلص إلى آخر لحظة من حياته للعقيدة التي نشأ عليها منذ طفولته فمما لا شك فيه أن فهمه لأسلوب التفكير العربي قد حوَّله عن رأيه فيما هو عرضي من عقيدته المسيحية، غير أن إيمانه بأصول العقيدة المسيحية البروتستانتية الإنجيلية لم يتغير تغيرا جذريا. وكذلك الأمر بالنسبة لسلوكه الإنجليزي إذ لا معدى عن أن يكون قد تأثر إلى حد ما ببيئته الجديدة، ولو أنه لم يسلك مسالك الناس الذين عاش بينهم لما استطاع سبر أغوارهم والكشف عن طبيعتهم». ويضيف قائلا إن لين قد استطاع تحقيق



ذلك في يسر بعد أن رأى أنه يُركي إيمانه الدفين بالمسيحية بتلك الصلاة التي يؤديها بالمساجد الإسلامية. ولقد كفَّ لين عن تناول النبيذ ولحم الخنزير لأن في طبعه النفور منهما، كما بقي بعد مغادرته مصر لا يبدأ عمل اليوم إلا وهو ينطق بالبسملة. ولا شك أن ما قام به لين كان عملا جبارا يتطلب من الكاتب قدرة فذة على تحرير نفسه من الأفكار المسبقة وذهنا مؤهلا للتمييز بين الشكل والجوهر في موضوعات مفرطة التعقيد، ثم القدرة على التعبير عن ذلك كله بحيث يصوره تصويرا دقيقا في نفس الوقت الذي ينقل فيه إلى القارئ رؤية جديدة لحقائق مختلفة الأبعاد، وإن كان بين الفينة والفينة يدس بعض التفاصيل الغريبة المتسمة بالعنف والقسوة مثل بقر أحد الدراويش لبطنه عارضا أحشائه على صينية متصدرا موكب زفاف السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إعرابا عن ولائه واحتفاء بعمره، ومثل المبالغات الجنسية وليدة إيمانه بأن حرارة الجو خلال موسم الصيف تؤجج طاقة المصريين الجنسية فتدفعهم إلى الإفراط في إشباع شهواتهم والنهل العارم من الملذات الحسية.

كتب لين يصف طرق القاهرة ومساكنها ودكاكينها:

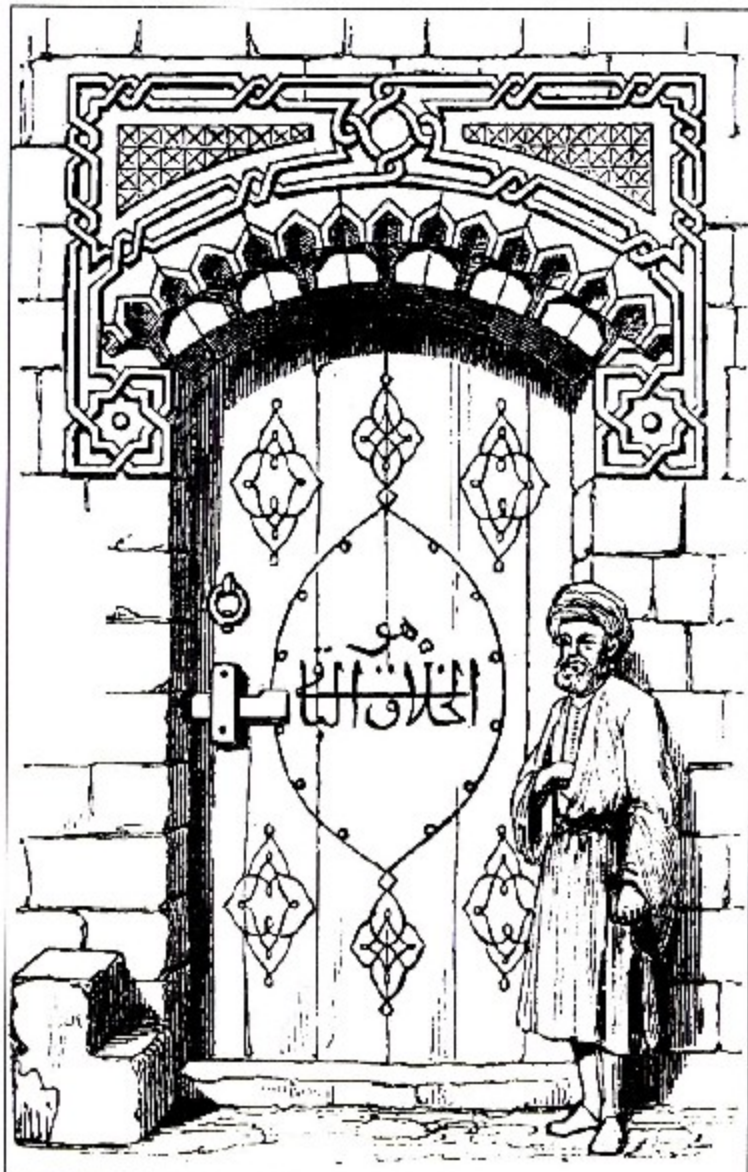
«تحتل القاهرة حوالي خمسة كيلومترات مربعة، ويبلغ تعداد سكانها حوالي مائتين وأربعين ألفا من مجموع عدد سكان مصر البالغ مليونين ونصفا، يحيط بها سور تُغلق أبوابه مساء وتسيطر عليه قلعة تربض فوق تل مرتفع. وقد يبدو للسائح الذي يراها للوهلة الأولى أن القاهرة مدينة مزدحمة، غير أن هذه النظرة ما تلبث أن تتغير عندما يُطلَّ عليها من فوق أحد المنازل إحدى المآذن. وطرقات القاهرة ضيقة متعرجة غير مرصوفة يُطلق على الرئيسة منها اسم الشارع وعلى فروعها الدرب والعطفة والحارة<sup>(١٠٣)</sup>. وتكتنف الشوارع العامة صفوف من الدكاكين على كلا الجانبين تعلوها مساكن غير متصلة بها ونادرا ما يحتلها مستأجرو الدكاكين. وأكثر ما تكون المنازل متلاصقة في تجمعات كبيرة تحوطها الجدران ويلجأها الناس من خلال بوابة تؤدي إلى مجاز

تتفرع منه الحارات للوصول إلى دور السكنى. ومع أن معظم الدروب هي طرق عامة إلا أنها تتبدى وتنتهي ببوابة خشبية يقوم عليها حارس بعد إغلاقها ليلا، وتتفرع من الحارات عطفات ضيقة تحرسها ليلا بوابة مغلقة.

وتتألف دور السكنى عامة من طابقين أو ثلاثة، ويكاد كل منزل يشتمل على صحن غير مرصوف يدعى اخوش، يصل الوافد إليه من خلال دهليز ينحني مرة أو مرتين حتى لا يقع بصر المارة في الطريق على ساكني الدار. وتمتد في هذا الدهليز بالقرب من الباب مصطبة من الحجر على امتداد الجدار الجانبى لاستخدام الخدم والحراس. وبالحوش الذي يُرسَّ خلال فصل الصيف بالمياه لترطيب الجو بشر يتسم مذاق مائه الذي يتسرب إليه خلال التربة من نهر النيل ببعض الملوحة. وعلى مقربة من البئر ينتصب زيران في جانب ظليل يرطب ماء النيل الذي يحمله إليهما السقاء. ففي خلال موسم الفيضان بعد فتح ترعة الخليج التي تخترق العاصمة يغترف السقاؤون مياههم من الترعة على حين يغترفونها من النيل في غير هذا الموسم، ويحملونها في قارب جلدية فوق ظهور أحمر الجمال. وحين تكون المسافة قصيرة يحمل السقاؤون الماء في قارب صغيرة ويمضون بها

(١٠٣) يذهب عبدالرحمن زكي إلى أن المقصود بالحارة زمن الفاطميين لم يكن الطريق الذي يرفيه الناس بين المساكن كما هو متعارف عليه اليوم، بل قسم من مجموع مباني المدينة تخترقها الشوارع والأزقة والدروب، وتضم المساجد والمدارس والأسواق والحمامات وغيرها.

لوحة (١٧٩) لين: باب أحد المنازل







لوحة (١٨١) لين : حول مائدة العشاء



لوحة (١٨٠) لين : غسل الأيدي قبل تناول الطعام وبعد





لوحة (١٨٢) لين : الكاتب العمومي

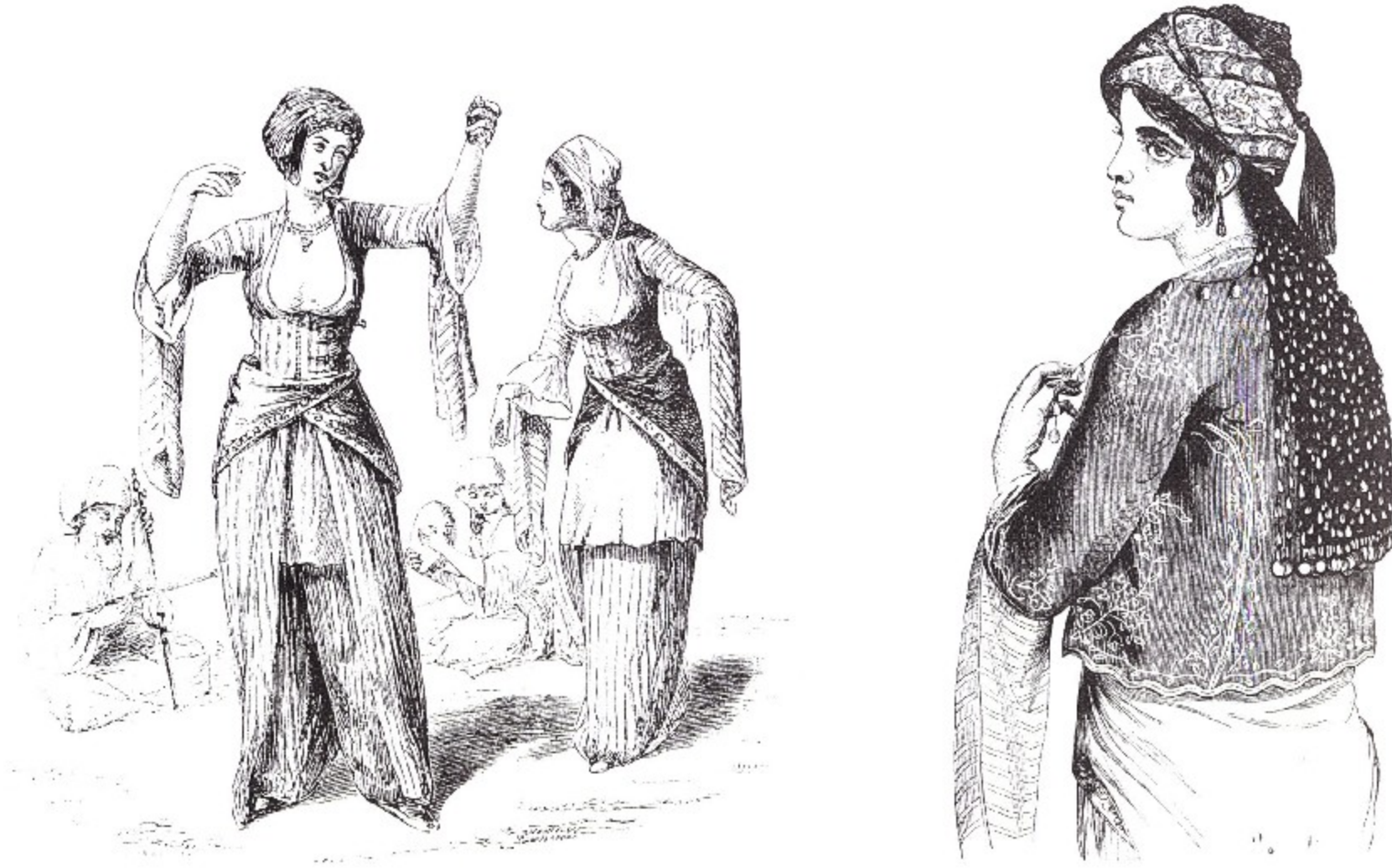


لوحة (١٨٣) لين : عاملة





لوحة (١٨٤) لين : الحريم في خلوتهن .



لوحة (١٨٦) لين : الغوازي



لوحة (١٨٥) لين : سيدة تعتمر بـ «القرص»  
وتزيّن شعرها بالصفّة

منادين «يعوّض الله» . وثمة أبواب عدة تصل الحوش بحجرات السكنى أحدها باب الحريم ، وهو باب الدّرج المؤدي إلى الغرف المخصصة للنساء والأولاد ورب الدار .

وتشيّد جدران الطابق الأرضي من الآجر المكسو بالحجر المنحوت ، على حين كانت الطوابق العلوية تُبنى بالآجر وتُطلى بالجنّص ، واستخدمت العروق الخشبية كشدّادات لربط المباني . وما أكثر ما كانت الطوابق الأولى وما يعلوها تبرز إلى الخارج مستندة إلى كوابيل من الحجر تحمل عروقا خشبية تمتد إلى مسافات بعيدة داخل الجدران لكي تحمل ثقل الجدران المعلقة والتي تنوء الكوابيل الحجرية وحدها بحملها ، وكان الغرض منها فضلا عن زيادة مسطح الحجرات وتنظيم أشكالها زيادة ما تضيفه من الظل على الشارع .

ولعل أول العناصر التي تسترعي انتباهنا في دور السكنى هي الصحن أو الحوش الذي استخدم في تكييف حرارة الجو ، ذلك أن الهواء البارد يهبط إلى أدنى مستوى ليلاً ثم ما يلبث أن يتسرّب إلى الحجرات فيلطّف حرارتها ويظل محصوراً بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من النهار كأنه خزّان للترطيب . ويحيط بالصحن إيوانان للاستقبال أحدهما شمالي والآخر جنوبي لتفادي أشعة الشمس على مدار النهار . ويسبق كلا من الإيوانين «مقعد» أي شُرْفَة تفتح على الصحن ، فيسكن أهل البيت داخل الإيوان وقت النّيلولة ثم ينسلّون إلى المقعد ساعة تنحسر الشمس ، وينطلقون إلى الصحن إذا سجا الليل وأطل القمر . وعادة يرتفع المقعد المفتوح عن مستوى الطابق الأرضي ثلاثة أمتار ، وقد يزدان بعقدين أو أكثر ويتصدّره سياج منخفض . وتسمّى هذه الشرفة المفتوحة أحيانا «التختبوش» إذا ما تراجعت بعض الشئ داخل المبنى وانتصبت بها أعمدة تحمل السقف . وتنتشر الأرائك [الدّكك] الخشبية بمحاذاة جدرانها الثلاثة . ولا يكاد يخلو صحن الدار من نافورة [فسقية] أو حوض تنعكس على مياهه صفحة السماء .

ويضم الطابق الأرضي عادة المندرة [المنظرة] التي هي جناح استقبال للرجال ، تفتح بها نوافذ خشبية واسعة ذات قضبان رأسية وأفقية . وتشتمل المندرة أو القاعة على الإيوان والدرقاغة [ولعلها تحريف لكلمة دركاة الفارسية] . والدرقاغة هي بهو الدخول إلى الإيوان ، وهي صحن مسقوف تغطى أرضها بالفسيفساء الرخامية منتظمة في زخاف هندسية بديعة ، وتتوسطها فسقية تسيل مياهها إلى حوض ضحل صغير مغشّى بالرخام الملون . وتنسكب مياه الفسقية من الحوض فتندفع منه بعيداً عبر قنوات ضيقة . وينخفض مستوى أرضية الدرقاغة بمقدار درج واحد عن مستوى أرضية الإيوان . ويحدّد هذا الدّرج المكان الذي يتعيّن فيه على الزائر أن يخلع نعليه قبل أن تطأ قدماه فاخر السجاد والبُسْط التي تكسو أرض الإيوان . ويرتفع سقف الدرقاغة عن باقي سقف المنزل بمنور من الخشب يحاكي قبة السماء ، فيحسّ الجالس وهو يتأمل صفحة ماء النافورة ويتطلع إلى أعلى وكأنه بين أحضان الطبيعة .

ويمتد في مواجهة الباب عادة وفي نهاية الدرقاغة رفّ رخامي أو حجري يدعى «الصّفة» يستند إلى عقدين أو أكثر بارتفاع متر تصطف تحته أدوات الاستعمال اليومي كقناني العطور والطنست والإبريق اللذين يستخدمان للوضوء ولغسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده ، على حين تصطف فوق الصّفة دوارق المياه وفناجين القهوة .

وتنبسط فوق أرضية الإيوان حشّية قطّنية بعرض متر ، بينما تستند على الحائط الوسائد التي يتساوى طولها مع طول الحشّية ويبلغ ارتفاعها نصف متر ، وتُكسّى جميعاً بالقماش القطّني

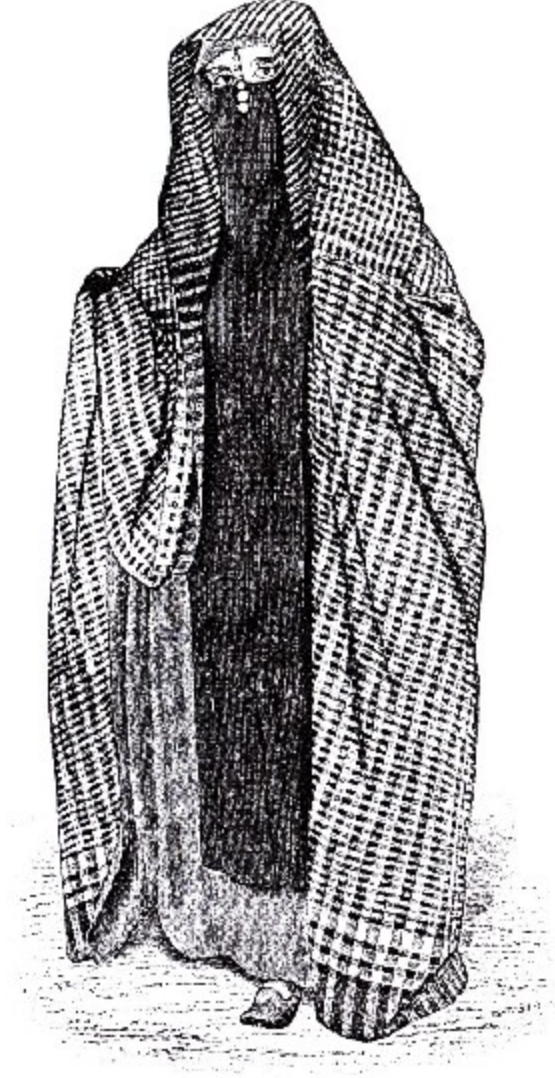




لوحة (١٩٢) لين: زِي الطبقة الدنيا



لوحة (١٩١) لين: زِي مياسير القاهرة



لوحة (١٨٨) لين: سيدة ترتدي الملاءة والبرقع



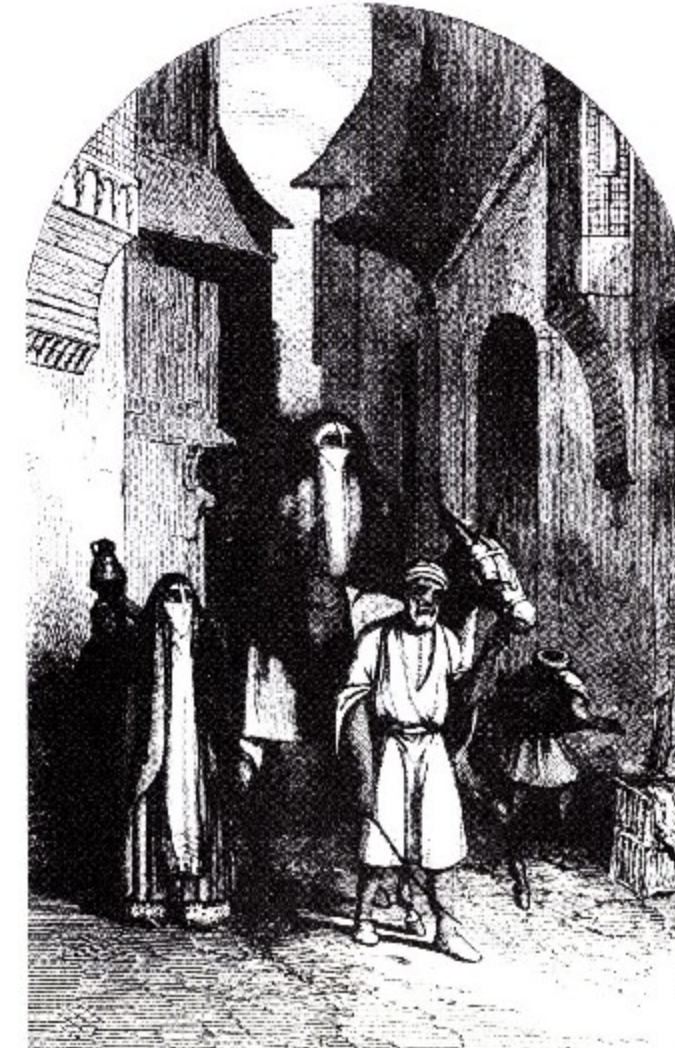
لوحة (١٨٧) لين: سيدة ترتدي ثياب المنزل



لوحة (١٩٤) لين: الرفاعي مدرّب الأفاعي



لوحة (١٩٣) لين: عازف الربابة



لوحة (١٩٠) لين: سيدة قاهرية تمتطي الحمار

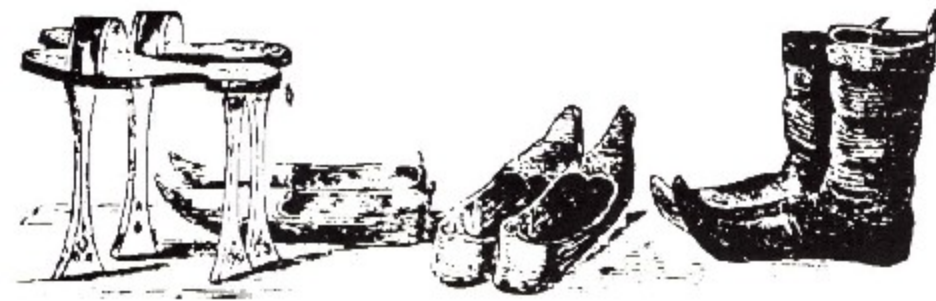


لوحة (١٨٩) لين: التزييرة والبرقع زِي النساء عند امتطاء الحمير





لوحة (١٩٥) لين : حفل الدوسة



لوحة (١٩٦) لين : الحذاء والخفّ والقباقيب

المطبوع أو الشيت . وأحياناً تعلق الحشية سريراً من جريد النخل «العنجريب» أو مصطبة حجرية لا يتجاوز ارتفاعها ربع متر تدعى «السدة» وهي كلمة فارسية الأصل أيضاً .

وتتضمن الحوائط بضعة صوانات ضحلة العمق ، ويتخذ سقف الإيوان غالباً من ألواح الخشب والعروق المحفورة الملونة أو المذهبة التي يبعد الواحد منها عن الآخر بمقدار ربع متر . وينال سقف الدرقاعة في بيوت الأثرياء مزيداً من العناية في زخرفته ، إذ تستخدم قطع دقيقة من الخشب تلصق بألواح مكونة صيغاً زخرفية تعرف بالرقش أو التوريق المشابك [أرييسك] تتابع فيها الدوائر والمربعات والمعينات والنجوم والأطباق النجمية متداخلة بعضها ببعض عن طريق التشبيك .

وخلال هذا الإطار التجريدي تنطلق الحياة متدفقة عبر الخطوط فتؤلف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد مفترقة مرةً ومجمعة مرّات وكأن هناك روحاً هائمة هي التي تمزج تلك التكوينات وتباعد بينها ثم تجمعها من جديد<sup>(١٠٤)</sup> . وقد يصل ارتفاع حجرات الدار إلى خمسة أمتار إلا أن المندرة بما تشمل من إيوان ودرقاعة هي أكثر الحجرات ارتفاعاً واتساعاً وأعلىها قدراً .

والمشربية حلّ موفق للتغلب على مشكلات التهوية والإطلال على الخارج وتخفيف حدة الضوء وحجب أشعة الشمس دون إخلال بوظيفتها في حجب السكان عن عيون المارة ، فهي تملأ فتحة النافذة بمخمل من الخشب الدقيق في شكل برايق مستديرة المقطع يتوزع الضوء والظل على أبدانها في تدرج رفيف ، فيرى المشاهد المنظر المقابل من خلال لوحة زخرفية كاملة . وغالباً ما تبرز الشبائيك المكسوة بالمشربيات على كلا جانبي الطريق حتى لتكاد تلتقي ، وهو ما يلطف الطقس في الطرقات تحتها خلال موسم الصيف ، غير أن قربها من بعضها كان يساعد على سرعة اندلاع النيران إذا ما نشب حريق في أحد الدور ، وهو ما دفع بالسلطات إلى تحريم هذا البروز . وكان السكان يصفون القل على حافة المشربية لتبريد مياهها ، ومن هنا اشتق اسم المشربية .

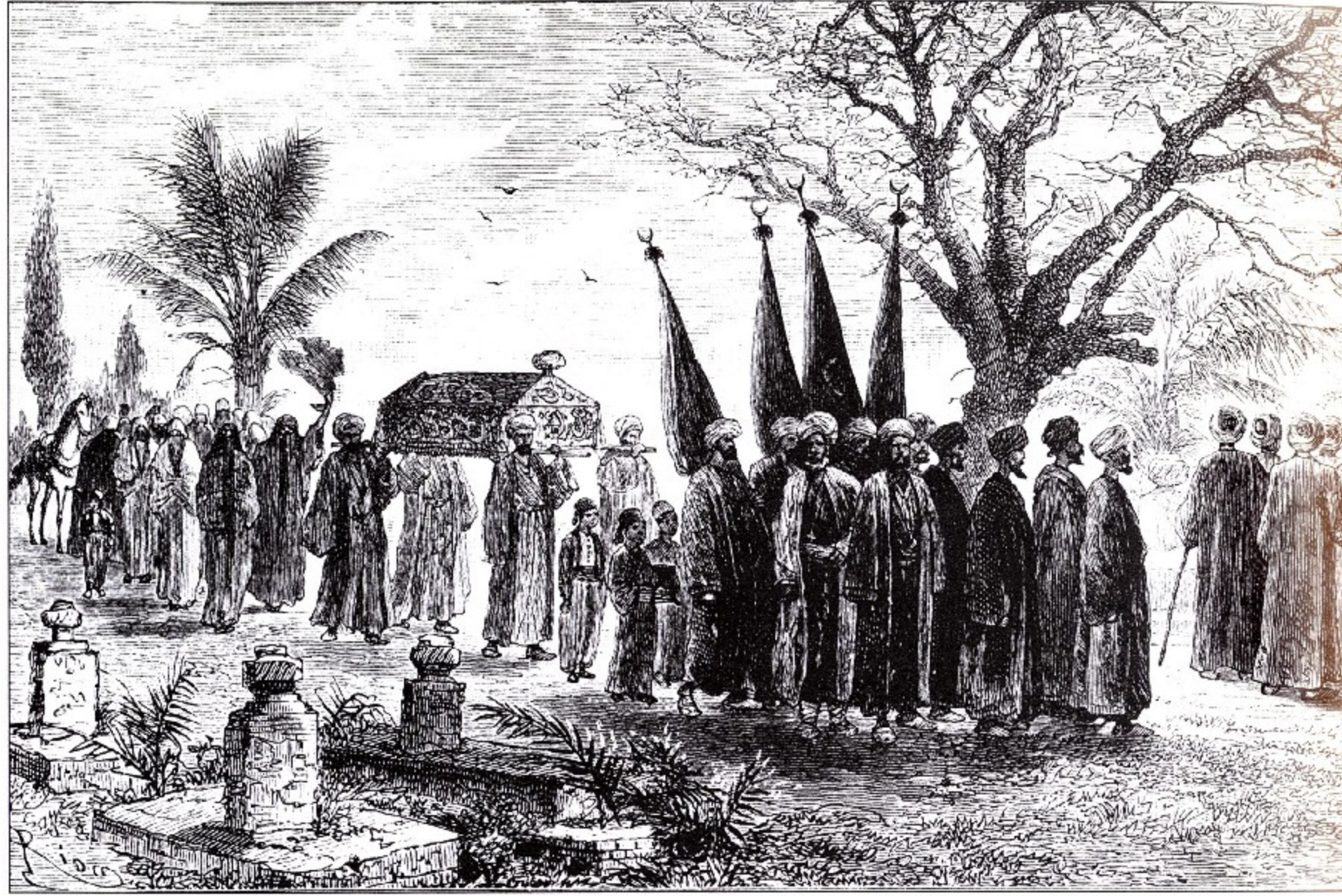
وما أكثر ما تعلو نوافذ المشربيات طاقات من الزجاج الملون المعشق بشكل صوراً لباقيات الزهور أو الطواويس وغيرها من الأشكال المبهجة التي يتفاخر بها أهل الدار . وسميت هذه النوافذ بالشمسية أو القمرية أو الخماروية نسبة إلى خمارويه ثاني الولاة الطولونيين في نهاية القرن التاسع الميلادي حين ازدهر فن تعشيق الزجاج الملون .

وعندما تحتل الدكاكين الجزء الأدنى من المبنى كما هي الحال في الطرقات العامة والدروب ينقسم البناء فوقه إلى مساكن محدّدة المعالم يسمّى كل منها «ربّعة» مستقلاً عن الآخر مثلما هو مستقل عن الدكاكين أسفله . ويؤجر الربّعة للأسر التي لا يسمح دخلها باستئجار منزل كامل مستقل . وتحتوي كل شقة في الربّعة على غرفتي جلوس وغرفتي نوم ومطبخ ودورة مياه ، ويندر أن يكون لكل منها مدخل مستقل من الطريق ، فثمة مدخل واحد ودرج واحد يؤديان إلى العديد من هذه الشقق التي لم يكن يُسمح بتأجيرها للعزّاب إلا إذا كانت لهم أسر يعيشون في كنفها . ولذلك يضطر العزّاب إلى الإقامة في إحدى «الوكالات» وهي المبنى المخصص لاستقبال التجار وبضائعهم .

وكثيراً ما يضم الشارع بأكمله أو في أجزاء منه حوانيت متخصصة في سلع معينة يشتق منها اسم السوق ، هذا إذا لم يطلق عليه اسم المسجد الواقع إلى جواره . فثمة سوق للنحاسين والجواهرجية والخردجية ، كما أن هناك سوق الغورية الذي اشتق اسمه من مسجد السلطان الغوري . على أن هناك أيضاً عدداً من الأسواق العامة الكبرى في المدينة مثل السوق التركي المدعو خان الخليلي . وتُغطى الأسواق عادة بألواح الخشب أو الحُصُر أو الأقمشة المستندة إلى دعائم تمتد بعرض الطريق إما فوق مستوى الدكاكين أو فوق أعلى المباني . والدكان فجوة مربعة لا يتجاوز

(١٠٤) تستخدم الخطوط متلاقية متعاقبة ، ثم متجافية متلامسة متهامسة . ومن الطبيعة يستمد الراقش العناصر الأولى لفته ، من ساق نبات أو ورقته ، ثم ينضم الخيال إلى الإحساس بالتناسب الهندسي ليتكون بعد ذلك الشكل الزخرفي الهندسي الذي يرمز إلى نفس الفنان المسلم في تطّعه إلى الله .  
عن المرحوم الأديب بشر فارس





لوحة (١٩٧) لين : جنازة



لوحة (١٩٩) لين : المحمل



لوحة (١٩٨) لين : موكب ختان الأطفال

ارتفاعها مترين وعرضها مترا، أو فجوتين متتابتين تستخدم إحداهما مخزنا للسلع . وتساوى أرضية الدكان مع سطح المصطبة المشيدة من الحجر أو الطوب أمام مقدم الدكان ، وتحفل هذه الدكاكين بالصباغ والخردجية والنحاسين واخلططين والصباغين والرفائين والحبائين [صانعي الشرائط الحريرية] والعقادين والشوكشية [صانعي الأنايب] والعطارين والدخاخنية والفكهائية والثقيلة [بائع الفواكه المجففة] والشربتلية والزياتين والخضرية والجزارين والفرانين والفظاطرية والفوالين . وتنفرد القاهرة الفاطمية خاصة عن سائر المدن الإسلامية ببعض الخصائص ، منها شارع رئيس طويل هو المعروف بالقصبة يخترقها من الشمال إلى الجنوب من باب الفتوح إلى باب زويلة [ المتولي ] يبلغ عرض الجزء المخصص منه للمرور ثمانية أمتار ، وتخلله دخلات تشغلها الأسواق التي تعقد في الشوارع والساحات . وتحف بالقصبة أبنية فخمة من قصور الخلفاء الفاطميين تليها منشآت أخرى كالمساجد والمدارس ثم مدافن السلاطين المماليك التي أضيفت فيما بعد ، كما كانت تشمل أقساما خصص كل منها لنوع من أنواع التجارة كالخيامية والنحاسين والعطارين والمغربلين إلى غير ذلك ، ومثل هذا نجد أيضا في شوارع أخرى مثل «الدرب الأحمر» بل في بعض الأسواق مثل سوق السلاح .

ثم يمضي لين يصف عيد فتح الخليج فيقول :

«وعيد فتح الخليج في القاهرة أو عيد وفاء النيل كان عيدا لا يتصل بالمعتقدات الدينية ويعود إلى أزمنة ضاربة في القدم . ويتصدر الاحتفال الوالي وكبار رجال الدولة بينما تغطي القوارب سطح ترعة الخليج . وتبدو قوارب السيدات من بين القوارب متميزة بهوادجها التي تحجبهن عن عيون المتطفلين . ويخلع الوالي جبة على عالية القوم ، وما إن يعطي الإشارة حتى يلقي بعض الأفراد بتمثال أو عمود طيني في المجري الرئيس للنيل وسط صخب الهتافات ورنين الآلات الموسيقية . ويقوم الوالي بقطع السد فتتدفق مياه النيل على الفور وتعلو في بعض المواقع إلى الطرقات فتفيض على الشيطان مخلقة عددا من البرك والبحيرات . وقبل أن ينسحب الوالي ينثر على صفحة النهر حفنة من العملات الذهبية والفضية يتسابق إلى الفوز بها غواصون مهرة ، وينتضي ما تبقى من نهار في فرح غامر يستمر حتى الليلة التالية» .

ويُفرد لين فصلين عن أزياء الرجال والنساء فيذكر لنا أن أزياء المصريين لا تعرف التقلبات الحادة إذ ظلت أشكال الثياب ثابتة لا تتغير ، وتحظى الألوان الزاهية باهتمام أكبر مما يحظى به غيرها . وتتسم ملابس الرجال بأنها فضفاضة شأنها في ذلك شأن الملابس الشرقية عامة ، إذ ينفر أهل الشرق من ضيق الملابس والتصاقها بأجسادهم . ويحرص الرجال على أن يتمنطقوا بأحزمة تُرشق بها الخناجر الثمينة المحلاة بالأحجار الكريمة ، ويولعون بتزيين أصابعهم بالخواتم البراقة الفصوص ولعهم باقتناء النرجيلات المختلفة الزخارف والأشكال . على أن الطبقات الشعبية لا تتكلف هذا العناء في ثيابها ، فلا تضم خزائنهم سوى ثلاثة أثواب أو أربعة لا يستبدل بها غيرها إلا إذا بليت أطرافها .

ويرتدي الرجال سروالا من الكتان أو القطن يعقدونه حول وسطهم بتكة مطرزة الطرفين بخيوط الحرير الملونة ، ويتدلى اللباس إلى ماتحت الركبتين أو حتى العقبين . وقمصانهم المنسوجة من الكتان أو المولسلي أو خليط الحرير والقطن الأبيض تصل أكمامها إلى المعصم . وفي الشتاء يعلو القميص صديري بلا أكمام من القطن أو الحرير ذي الخطوط الملونة . وفوق القميص والصديري أو فوق القميص مباشرة يرتدون القفطان الذي ينسدل حتى العقبين ، وهو ذو كمين





لوحة (٢٠١) لين: دكان تاجر تركي بسوق خان الخليلي

بمكانتها الاجتماعية ويقوم غناها و ثراء زوجها . وهي ترتدي السروال اللاصق بالجسد المحلى بالأشغال اليدوية الدقيقة ، وعليه القميص يصل إلى ما بعد الخصر تضمه على وسطها بحزام يدعى التكة . ويتفاوت قدره حسب ثراء المرأة ، فقد يكون من القطن أو الكتان أو الحرير أو الموشين أو الكريب الملون ، وتزيده بهاء باليلك الذي تكتسي به المرأة في الدار أثناء وجودها بين أهلها وزائراتها وأمام زوجها . وهو ثوب طويل الأكمام ضيقها ومفتوح من الجانبين من الخصر حتى القدمين . وقد ترتدي المرفهة في المنزل عوضا عن اليلك صديريا قصيرا يدعى العنترية ، حتى إذا خرجت أسبلت على نفسها مجموعة أردية تسمى التزيرة ، منها البرقع وهو في الغالب أبيض اللون رقيق القوام يحجب وجهها عن أعين الغرباء كما فرض الولاة والحكام وليس دين الإسلام ، تليه الحبرة أو الملاية السوداء ثقيلة القوام تلف جسدها من قمة رأسها حتى عقيها .

على أن ثياب الطبقات الشعبية كانت تعبيرا عن البساطة ورقة الحال ، فلا ترتدي الأنثى غير ما تستر به جسدها ويقيه لفح البرد ووهج الحر ، وهو رداء من نسيج رخيص قد لا تغيره لفترة طويلة تسدل فوقه عباءة من قماش خشن . وتزين البدويات في شعرهن ورؤوسهن بالكثير من العملات المعدنية أو الذهبية في أطراف الضفائر تسمى الصفة . ثم ينتقل لين إلى وصف حمامات القاهرة فيقول :

«تضم القاهرة أكثر من مائة حمام تزداد أهميتها في الشتاء ، وهي مصدر

متعة يسهل على الفقراء الظفر بها ، بل إن الأثرياء الذين يحوزون في دورهم حمامات خاصة يطيب لهم هم أيضا التردد على هذه الحمامات العامة ، ففيها إلى جانب الحصول على نصيب من النظافة يتجاوز ما يتحقق في الحمام الخاص متعة اللقاء مع كثرة من المعارف والصحاب والترويح عن النفس . وما إن يذلف المرء إلى الحمام العام حتى يستقبله الخدم في قاعة الاستقبال حيث يودع ملابسه ويعقد حول جسده بشكيرا ، ثم يقاد إلى دهليز يحتضنه ويغمره بوهج تتزايد حرارته كلما أمعن فيه حتى يصل إلى قاعة تتكثف فيها الأبخرة الساخنة المعطرة التي تنفذ إلى مسام جلده ، فيضطجع على بساط صوفي ويدنو منه صبي يدس كفه في كيس من الصوف السميك الناعم الملمس ، ينتظر قليلا حتى تكون الأبخرة قد ألانت البشرة كلها فيبدأ في قرقعة مفاصل التزليل ثم يدلك جسده بالكيس الصوفي حتى لا يبقى بالبشرة أي أثر كان عالقاً بها . ثم ينهض الرجل وقد لف جسده كله العرق الساخن ، ويمضي إلى قاعة مجاورة تضم مصدرين للمياه الساخنة والباردة يغتسل فيهما بمفرده ، ويتحول بعدها إلى فناء به حوض مليء بمياه شديدة السخونة يغطس فيها بضع لحظات ، ينهض بعدها وقد لف جسده في قميص يعود به إلى قاعة الاستقبال حيث يتناول فنجانا من القهوة يشد معه أنفاسا من الأرجلية مسترخيا على الأريكة التي ما يلبث أن يغادرها ليستقبل جسده نفثات من عطر فاغم ويأخذ في ارتداء ثيابه المفعمه بأريج بخور أعواد شجر الصبر .

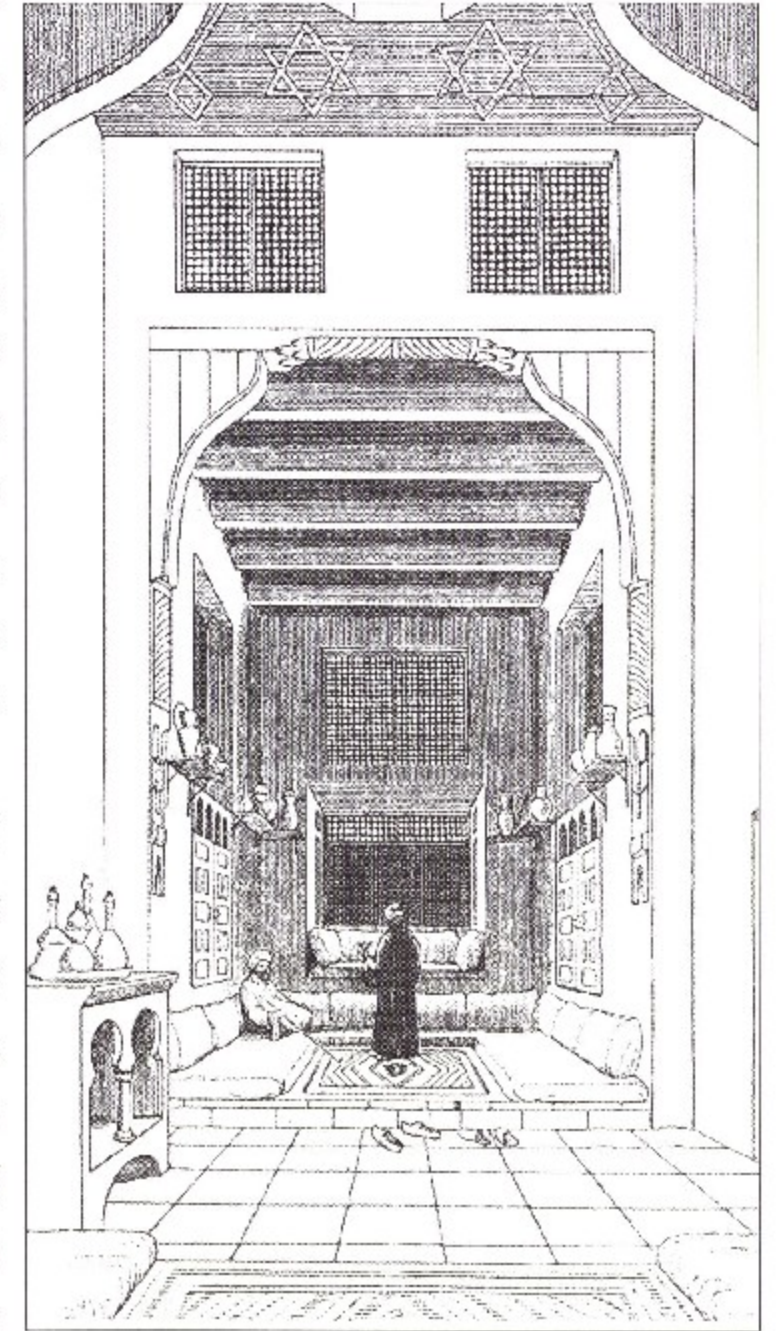
والسائد تخصيص حمام للنساء وآخر للرجال يفصل بينها باب خاص ، فإذا لم يكن هناك في الحي غير حمام واحد خُصصت بعض أوقاته للرجال والبعض الآخر للنساء ، وفي هذه الحالة ينسدل على الحمام ستار معلنا أنه وقت النساء . والحمام العام للمرأة يعد مجتمعا مختلفا ، ففيه

طويلين يتجاوز طولهما أطراف أصابع اليدين ولكنهما ينشطان فوق المعصم أو عند منتصف الساعد من الخلف فيصبح الكفان أكثر تحورا بينما يتاح لهما أن يستخفيا خلف طول الكم في حضرة الكبار أدبا وحياء . ويلتف حول القفطان شال من الكشمير أو وشاح من الموشين الأبيض المنقوش يجدل أحدهما ليصير حزاما يشد القفطان فلا يفتح . ويتمثل الثوب الخارجي في الجبة التي يتنوع لونها والتي لا تكاد أكماتها تصل إلى الرسغين ، فإذا قسا البرد تدثر الرجل فوق ذلك كله بعباءة سوداء . والعمامة غطاء الرأس وهي طربوش أحمر ذو زر قائم اللون يلتف حوله وشاح من الموشين الأبيض ، وعادة تلبس العمامة فوق لاطئة قطنية [طاقية] . وقد تتخذ العمامة من لاطئة يلتف حولها مباشرة شال من الكشمير . ولم تكن الجوارب الطويلة معروفة وإن كانت قلة تستخدم جوارب قصيرة من الصوف أو القطن في الطقس البارد . ولباس القدم مركوب من الجلد الأحمر طرفه الأمامي مدبب يرتفع إلى أعلا . ويدس المصري حول بنصر كفه اليميني خاتما فضيا ذا فص من العقيق محفور عليه اسمه مسبقا بعبارة «العبد لله» يستخدمه في التوقيع على الرسائل والوثائق ، وكانت لبصمة هذا الخاتم قيمة أكبر من التوقيع . ويصطحب الرجل أرجيلته [أو نرجيلته] معه إلى كل مكان غير المسجد ، وقد يتبعه خادم يحملها له ، ويحتفظ بكيس التبغ بين طيات القفطان فوق الصدر مع منديل مطرز بالقصب والحرير الملون مطوي بعناية .

أما أن ثياب الرجال من الطبقة الدنيا فكانت أشد بساطة وتتكون من لباس و قميص طويل من حول وسطه حزاما أحمر أو أبيض من الصوف يستبدل به الخدم عادة حزاما عريضا من الصوف أو الجلد يخبئون فيه كيس النقود . وتتألف عمامتهم من شال صوفي أبيض أو أحمر أو أصفر أو من نسيج قطني فح يلتف حول طربوش فوق النطاقية . غير أن الفقر قد لا يتيح للبعض أن يرتدي غير اللبدة ويقتصر ملبسهم على القميص الأزرق أو البني دون لباس أو حذاء . ويرتدي الكثيرون من عامة الناس خلال موسم الشتاء عباءة بدائية النسيج ذات خطوط بنية وبيضاء عريضة . وبما يميز الأقباط عن المسلمين ألوان عمامتهم إذ يعتزم الأقباط بعمامات سوداء وزرقاء وزمادية أو بنية . وكان الملك الأشرف شعبان (١٣٦٢ - ١٣٧٦) هو أول من أمر الأشراف من سلالة الرسول الكريم بارتداء العمامة والجبة الخضراء .

وثياب المرأة المصرية دليل ثرائها وبذخها . وعلى الرغم من أنها لا تملك أن تكشف عن زينتها وحليها إلا لزوجها وأفراد أسرتها وصديقاتها فإنها لم تكن قليلة الولوج بالأبهة والأناقة ، فهي تتزييا بأغلى الثياب المزدانة بأروع الخلي جمالا وأناقة ، وتحلي جيدها بالعقود الذهبية في صفوف تتتالي حتى صدرها ، ويتدلى منها مصحف دقيق وقينة عطر . وتردان سواعد نساء الطبقة الثرية بأساور من ذهب وتحيط بأدنى سيقانهن خلاخيل ذهبية وثقل أصابعهن الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة . وما تكاد المرأة تنزل إلى الشارع لأداء زيارة أو قاصدة الحمام العام حتى تخفي كل زينة . وترفل المرأة المصرية المرفهة في أفخر الثياب المصنوعة من الأنسجة الباذخة بما يليق

لوحة (٢٠٠) لين: القاعة







لوحة (٢٠٣) لين: العطار

الشيخ على بغلته التي كانت تمشي وئيدا من هول الموقف ، وما إن أقبلت لتدوس فوق ظهور المنبطحين حتى أحجمت ، فقادها أحدهم من مقادها وأخذ آخر من خلفها يحثها حتى خطت فوقهم جميعا بخطي سريعة ، وأمامها رجلان يعدو أحدهما فوق الرؤوس والآخر فوق السيقان ، وهنا صاح المشاهدون باسم « الله » يمدون به أصواتهم . ومن الغريب أن الرجال المنبطحين لم يُصَبَّ أحدهم بسوء ، وكان كلما مرت البغلة فوق واحد منهم انتصب واقفا يتبع الشيخ . ويقال إن هؤلاء جميعا - الشيخ والذين ينبطحون - كانوا يهثون أنفسهم لتحمل هذا العناء بأدعية وابتهالات يرددونها قبل حفل الدوسة بليلة ، وإذا ما تخلف واحد منهم عن أن يتهل أو أن يدعو كان لابد من أن يلحقه أذى الدوسة . وكانت الدوسة تعد كرامة من كرامات شيوخ السعديين ، وكانوا يزعمون أن البغلة كانت تنزع حوافرها ، ولكن المؤكد عندي أن هذا الزعم غير صحيح . وبعد أن تجري هذه الكرامة دون أن يصاحبها حادث ما يتجه الشيخ إلى حديقة منزل نقيب الأشراف يصحبه عدد قليل من الدراويش . وما إن يصل حتى ينزل عن بغلته ويفترش سجادة فوق منصة كانت تعد عند نهاية التختبوش بفناء الدار ويجلس منكثا مسبلا عينيه متأملا والدموع تسيل من مقلتيه غير كاف عن التسبيح .

ويقف أمامه فوق الحصر المفروشة الدراويش الذين كانوا لا يجاوزون العشرين على شكل نصف دائرة ، ويتقدم منهم ستة يأخذون في الذكر قائلين « الله . . . الله حتى . . . ياداي » مرددين ما يقولون مع قرعات الباز . وبعد انتهاء الذكر يؤخذ في تلاوة القرآن وقتا ثم يعودون إلى الذكر ، وكانوا يكررون ذلك مرة وراء مرة . وفي النهاية عندما يريدون الانصراف يهرعون إلى تقبيل يد الشيخ الذي ما إن ينصرفوا عنه حتى يدلّف إلى الدار .

ثم يتأمل لين مقاهي المدينة فينبئنا بأن مدينة القاهرة :

« تضم أكثر من ألف ومائتي مقهى يتزايد عددها في ساحل بولاق ومصر القديمة . ولا يزيد أثاث المقهى عن بضع أرائك تستند إلى الجدران وبعض الحصر المجدولة من سعف النخيل ، فضلا عن منضدة خشبية بسيطة . وثمة قدر نحاسي كبير يغلي ماؤه فوق وهج الفحم المتقد ، وتصطف فناجين القهوة إلى جوار القدر لتشكّل كل العدة اللازمة حول صاحب المقهى الذي يحظى في العادة بتقدير كبير . وتُقدّم القهوة ساخنة غير محلاة في فناجين من الصيني أو الخزف مندسة في أوعية نحاسية تسمى « ظروف » . وبتربيع الرواد فوق الأبسط أو الحُصْر أو يضطجعون فوق الأرائك وهم يشدون أنفاس أراجيلهم التي اصطحبوها معهم بتبغها هي والقنب الهندي المخدر فتتعقد حولهم سحب الدخان لتخلق عالما له سحره الخاص . ويبلغ متوسط عدد المترددين على المقهى المائتين والخمسين في اليوم الواحد يرتشف كل واحد منهم حوالي سبعة أقداح من القهوة . ولكل مقهى روايته ومنشوده الذين يقصّون حكايات الشخصيات الأسطورية من أمثال أبي زيد وعنترة ، ويتنوع سرد الحكايات بين أسلوبي الإلقاء الخطابي أو الغنائي بصحبة عزف على الربابة . ويجمع هؤلاء المنشدون أجورهم من صاحب المقهى أحيانا ومن رواد المقهى الذين يعطون عن طواعية في غالب الأحيان . »



لوحة (٢٠٤) لين :  
نساء وأطفال الطبقة الدنيا

تنزع الحُجُب التي ترتديها في الطرقات لتحميها من عيون الرجال ، وفيه تستعرض أمام الأخريات ثيابها الثمينة وحليها النفيسة التي لا تملك أن تبرزها للرجال فتزهو بها هنا أمام رفيقاتها في دل يرضي غرورها ، ويصبح اللقاء حفلا بهيجا يشبع فيه النساء ميلهن إلى الثرثرة والقبل والقال والتهامس وتناقل الأخبار والتباهي بمقتنياتهن الجديدة . وتقدم عاملات الحمام للنساء خدمات فوق ما يلقاه الرجال كتصفيف الشعر والتحفيف والتزيين وما إلى ذلك .

ولا تفوت لين حوانيت الحلالة فيحدثنا عنها بأنها :

« متتديات هامة أيضا للرجال شأنها في ذلك شأن الحمامات ، فالحلاق يؤدي أيضا بعض اختصاصات الطبيب إذ يقوم بالحجامة وختان الصبية إلى جانب حلاقته لشعر الرأس بالموسى عدا خصلة في مقدم الرأس . وكانت اللحية تُحلق كلها عدا العنقفة [الشعيرات أسفل منتصف الشفة السفلى] مع إطالة السوالم بينما تُغفى الشوارب عادة اتباعا لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان الحلاق يصبغ اللحية أيضا بالحناء وإن لم يكن هذا يحدث إلا نادرا إذ كانت اللحية الشهباء موضع تقدير وتوقير . ويشير لين إلى الكاتب العمومي فيصف مهنته بأنها :

« من الوظائف المهمة ، فمع شيوخ الأمية كان الرجال والنساء يقصدونه لكتابة الرسائل إلى الأهل والأصدقاء أو الشكاوى والعرائض للحكام والرؤساء ، ومكانه السوق في محطات معروفة يعتلي فيها أريكة خشبية أو مصطبة حجرية مفترشا سجادة يترع فوقها مسكاً بريشته التي يغمسها في محبرة من النحاس أو الفضة ، محتفظا بأوراقه داخل ورّاقة .

ثم يتعرض لين لوسائل المواصلات بالمدينة فيقول :

« الحمار هو دابة الركوب المتيسرة لعامة الشعب ، يقوده مكاري يسرع خلف الحمار إذا كان هذا سريع الخطو ، ويحمل قضيبا مزدانا بجلاجل يستحث بصوتها وبطرفه المذبذب خطو الأتان كلما وهن عزمها أو تراخى . على أن رجال الدين وكبار التجار كانوا يختارون مطيتهم من البغال . وكانت الجياد معروفة وإن بقيت مقصورة على الأمراء من الممالك حتى دخول الفرنسيين مصر . وهذا وصف لحفل « الدوسة » الذي شاهده لين وعايته وكتب عن تلك المعاينة قائلا :  
« بعد أن أمضى خطيب المسجد ليلة الجمعة في خلوة يتعبد وتهجد ويصلي ويتلو القرآن ليؤهل نفسه بذلك لخطبة الجمعة وما يعقبها أدّي الصلاة ، ثم امتطى بغلته المشوقة قاصداً منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف الذي كان يتزعم جميع دراويش مصر ، وكان منزله في الجهة القبليّة من بركة الأزبكية . وكان وهو في طريقه من المسجد إلى منزل الشيخ البكري ينضم إليه الدراويش «السعديون» من مختلف أحياء العاصمة ، وإذا بالموكب يتوقف على مقربة من منزل نقيب الأشراف ، وهنا انبطح على وجوههم عددٌ يتجاوز الستين من الدراويش وغيرهم وقد التحم بعضهم ببعض ووضعوا أيديهم تحت جباههم وانسطت سيقانهم وهم يجهرون باسم «الله» ، ثم انطلق عشرة دراويش حفاة يعدون فوق هؤلاء الذين افترشوا الأرض بينما يقرعون بالزخمة على الباز [ طبلّة صغيرة نصف كروية ] الذي يسكنونه بأيديهم اليسرى مهللين باسم «الله» . وتقدم

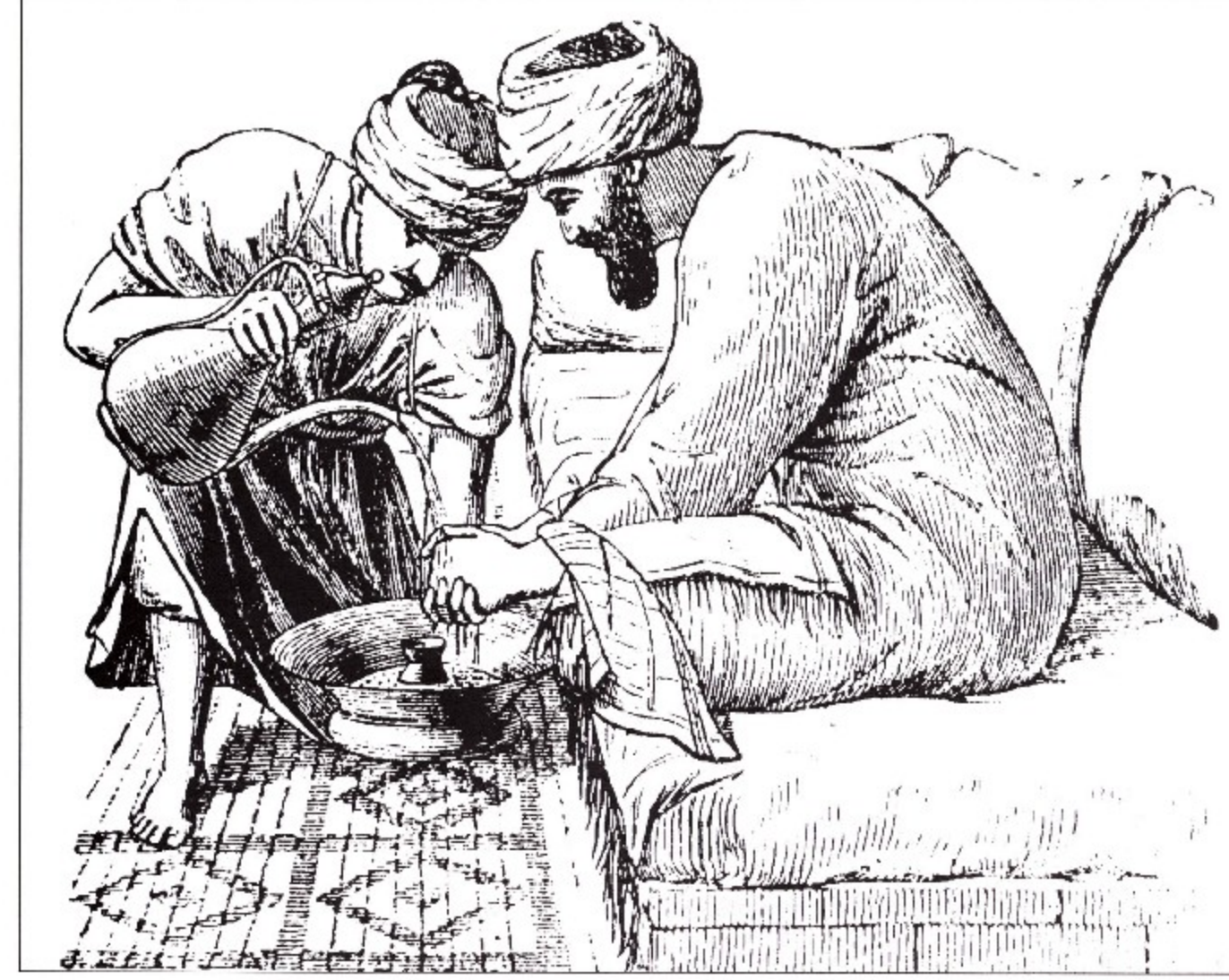


لوحة (٢٠٢) لين: الشاعر  
وعازفو الربابة



لوحة (٢٠٦)  
لين : أدوات الكتابة





لوحة (٢٠٥) إدوارد لين :الوضوء

ثم يعرض لين للراقصات فيصف ليالي القاهرة التي كانت تُحيا على أيدي : « مغنيات يُعرفن بالعوائم أو براقصات يسمين بالغوازي يتمتعن بمقدرة فنية محدودة ، وقد يرقصن في المقاهي أو في الطرقات العامة لتسلية الجماهير واجتذاب نقودهم . ولرقصهن تقاليد خاصة تبدأ بخطوات متأنية متحفظة لا تلبث أن تشتعل مع طرقات الصاجات النحاسية . ويتكون رداؤهن من نفس ثياب نساء الطبقة الوسطى داخل الدور ، كاليك والسروال ويُزْدن عليه شالا يعقدنه حول أردافهن لتظهر بذلك مفاتن أجسادهن ، ويفرطن في التحلي بنفس حلي نساء الطبقة الوسطى ويكتحلن ويضمخن بالحناء أطراف أصابعهن وراحات كفوفهن وأقدامهن . ويرافق الغوازي عادة موسيقيون يعزفون على الربابة بمصاحبة الطار أو على الدربكة بمصاحبة الزمارة ، وتدق على الطار في العادة امرأة مسنة . وتؤدي الغوازي رقصاتهن في صحن الدار أو على قارعة الطريق وأحيانا داخل حريم الدور في بعض المناسبات مثل الزفاف والولادة . وإذا كان من النادر السماح لهن بتأدية رقصاتهن في حريم بعض البيوتات المحافظة فكثيرا ما كن يعملن في بيوت اللهو والمتعة . ومن بين الغوازي ثريات ينعمن بسكنى القصور كما من بينهن من يعشن في أكواخ متواضعة . ولعل لمحمد علي باشا الفضل في انحسار هذه المهنة عن القاهرة والدلتا وانحصارها في أقصى الصعيد بإسنا .

## السائحون يأخذون مكان الرحالة





أثار غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ ، ثم انتصار الأميرال نلسون في موقعة أبي قير في العام نفسه الافتتان بكل ما هو مصري قديم في كل من إنجلترا وفرنسا . فإذا ليدي هاملتون عشيقة نلسون تداعبه في إحدى رسائلها قائلة : « لو كنت ملك بريطانيا لمحتك على الفور الألقاب التالية : الدوق نلسون مركز نهر النيل وكونت الإسكندرية وفيكونت الأهرام ، وبارون التمساح وأمير النصر المظفر ؛ حتى تستطيع التشكل في عالم الخلود في أية هيئة تحلو لك » .

وكان ظهور كتاب « المصريون المعاصرون » لإدوارد لين عام ١٨٣٦ نقطة تحول بارزة في تاريخ العلاقة بين مصر والرحالة والكتاب والفنانين الإنجليز . فحتى ذلك الوقت كانت مصر تجتذب عددا من المهتمين بالآثار مثل ولكنسون أو العلماء مثل لين أو الثروة المغامرين مثل هنكر . ومنذ ظهور هذا الكتاب نلاحظ ازدياد الاهتمام بمصر واتساع نطاق زوارها وتزايد أعدادهم عما قبل ، حتى زار مصر ما بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٥٠ كل من وليام ثاكري وألكسندر كنجليك وإليوت ووربيرتون ولورد لندساي وغيرهم . لقد غدت مصر منتجعا ذائع الشهرة لقضاء الإجازات يجتذب الزوار من كل نوع ، من السياسيين المبعوثين من حكوماتهم ليدلو بأرائهم في حكومة محمد علي ، إلى التجار الساعين إلى عقد الصفقات ، إلى المرضى الملهوفين إلى استرداد الصحة والعافية ، إلى جماعات السائحين ، إلى دارسي الكتاب المقدس ، إلى الكتاب والفنانين المتطلعين إلى ما يحرك أقدارهم وفرشاتهم ، ومما زاد من الاهتمام بمصر استحداث البواخر الذي قرب المسافة بين مصر وأوروبا . ولقد كانت رحلة ثاكري بدعوة من شركة P&O الملاحية الشهيرة بعد أن سیرت خطا ملاحيا بالباخرة بين مصر وأوروبا . كذلك شرع توماس واجهورن في استخدام البواخر النيلية في مصر عام ١٨٤١ ضمن الطريق البري إلى الهند بدءا من قناة الإسكندرية . ونُظمت وسائل المواصلات بالمركبات الإنجليزية التي تجرها الخيول عبر الصحراء ، حتى أصبح الطريق بين القاهرة والسويس طريقا ذائع الشهرة تتخلله استراحات من بينها محطتان تتيح لنزلائها احتساء الشمبانيا وأجود الأنبذة ، على حين أعدت ظهور الحمير بما يشبه المقاعد الوثيرة للنساء والأطفال والمرضى . لقد توافرت كل وسائل الراحة بالنسبة للأوربيين حتى نجد الكاتب الساخر وليام ثاكري في كتابه « ملاحظات حول رحلة من كورن هيل إلى القاهرة الكبرى » يتوجّ الفصل الذي عقده عن الإسكندرية بتفاصيل قائمة طعام أشهر المطاعم اللندنية . لقد غدت الرحلة كما يقول أحد الرحالة « حفلا ممتعا » . ومضت وسائل توفير الراحة للزوار تتكاثر حتى بات بوسع



توماس كوك في غضون بضعة سنين أن يأوي قرابة ألف نفس تحت سقوف الخيام في وقت واحد ، وغدا عدد قاصدي رحلة النيل مساويا لعدد زوار الريفيير الفرنسية (١٠٥) .

وأصبح قضاء موسم الشتاء في مصر بدعة شائعة في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن ابتدعها ولي عهد بريطانيا في عام ١٨٧٢ عندما اختار مصر ليقضي بها فترة نقاهته بعد مرضه . وما كادت تنقضي بضعة سنين حتى زاد إقبال السائحين إلى مصر نتيجة لتلك الجهود التي طوّرت أساليب السياحة على يدي شركة كوك السياحية . ثم جاء من بعد توماس كوك ابنه جون كوك الذي اكتسب خبرة عظيمة بالملاحة في نهر النيل بعد تكليفه بنقل الجرحى الإنجليز من القاهرة إلى الإسكندرية في أعقاب معركة التل الكبير ثم اضطراره بنقل الجنرال جوردون إلى كوروسكو عام ١٨٨٣ ثم بنقل حملة الجنرال هيك الفاشلة لإنقاذ جوردون في العام التالي ، فحظيت مراكب كوك بسمعة عالمية بوصفها «أبسطة الرفاهية العائمة» ، كما دُشنت في عام ١٨٩٠ أولى البواخر النيلية المضاءة بالكهرباء والتي تنفس فيها قاعة مطالعة تضم الكتب والصحف اليومية ، ويُقدّم فيها الإفطار الإنجليزي وشاي الساعة الخامسة ، كما تتضمن أمسياتها فقرات ترفيهية يؤديها أفراد طاقم الباخرة بعد تناول العشاء . كذلك شيد كوك فندقا خاصا بالأقصر كي يأوي إليه الناقهون الذين اجتذبهم وصف ليدي داف جوردون في «رسائلها» لشمس الشتاء في مصر .

وانتشرت الكتب المرشدة التي وضعها أفضل المتخصصين مثل : «دليل ماريز» Murray's Guides to Egypt الذي كتبه العالم ولكنسون ، و«دليل كوك» الذي كتبه اليس بادج . وكان المجال الذي تعرض له هذه الكتب فسيحا لدرجة مذهلة ، إذ تضمنت قوائم طويلة لما ينبغي أن يتزوّد به رحالة النيل ، من بينها أحواض غسيل الأقدام ومكنسة وجاروف لكس الغرف ، والكتب الواجب الاطلاع عليها ، وأدوات القياس ، والفنادق وعناوينها ، والمواقع التي يمكن الحفر فيها والآثار التي ينبغي الالتفات إليها والصور والنقوش التي يحسن استنساخها ، فضلا عن التحذير بعدم النزول إلى الشاطئ دون حراسة مما أسفر عن تدفق أجيال من الترجمة إلى القرى والمدن المجاورة لضفة النهر التي شاء حفظها أن تقع إلى جوار الأطلال الأثرية . كذلك اهتم «دليل ماريز» بالسائح غير المتعجل الذي يتطلع إلى قضاء بضعة شهور في المنطقة ، ومن ثم كان في حاجة إلى من يرشده إلى استئجار البيوت المناسبة في القاهرة حتى يمضي على نهج التقاليد العريقة التي أرساها إدوارد لين والمصور جون فردريك لويس . وكان «دليل ماريز» ينصح بتكليف ثلاثة خدم أو أربعة بتنظيف غرف الدور قبل سكناها لتطهيرها من البراغيث . وابتداء من عام ١٨٧٠ بدأت النصائح تترى على السائحين بتجنب ارتداء الزي الوطني إلا إذا كانوا يجيدون الحديث بالعربية ، إذ أن ذلك قد يعرضهم للسخرية بهم على حين كان ارتداء الزي الوطني في النصف الأول من القرن أمرا ضروريا بالنسبة لسلامة الرحالة .

وفي عام ١٨٣٦ أسس دكتور وولن «الجمعية المصرية» لتكون مركز لقاء للرحالة ولجمع المعلومات المتعلقة بمصر وتسجيلها وتيسير الدراسة والأبحاث من خلال مكتبة تضم أهم الكتب عن البلاد ، إلى جانب جمعية أخرى أسسها دكتور أبوت الإنجليزي والفنان الفرنسي بريس دافن وجعلها هدفها نشر المؤلفات عن مصر وتزويد الباحثين بالكتب والمراجع التي تضمها مكتبتها . وفي الحق لقد أصبحت أية محاولة لتقديم مزيد من المعلومات بعد التفاصيل الدقيقة التي تضمنتها

كتاب لين كأنها محاولة لاعتصار ليمونة قد استنفدت ماؤها حتى لنجد معظم الرحالة الذين قصدوا مصر بعد عام ١٨٣٥ لم يقصدوها لدراسة البلاد أو تقديم التقارير عنها ، فقد تم ذلك كله من قبل وعلق بأخيلة القراء ، فرأينا تاكري لا يدهش وهو يرى الأهرام لأول مرة لأن رؤيتها لم تضاف جديدا إلى صورتها المرتسمة في ذهنة من قراءاته السابقة .

وبدأ الرحالة يسجلون انطباعاتهم وآرائهم عما يشهدون إلى جانب نقد ما لا يروق لهم منها ، غير أن هذه الانطباعات والآراء لم تكن كلها على صواب ، بل لقد ذهب بعضهم إلى كتابة ما هو أقرب إلى الخرافات والأساطير . ولا شك أن عددا لا يستهان به من كتب الرحلات الضحلة قد ظهر خلال القرن التاسع عشر أكثر مما ظهر في أي قرن آخر قبل ذلك أو بعده حتى أصبح من المتعذر ظهور كتاب رحلات يرقى إلى مستوى الكتب الأدبية . على أن أدب الرحلات في الشرق الأوسط عامة جاء مترعا بالكشف عما في صدور الكتاب ومرافقيهم بقدر ما كشف عن مشاهداتهم في البلاد التي مروا بها ، إذ استطاعت قلة من بين المثات الذين نشروا انطباعاتهم الإيحاء إلى القراء بالتعاطف مع أهل هذه البلاد وتراثها فضلا عما أثروا به قراءهم من معارف علمية عن هذه الأقاليم . وما من شك في أن الكتب الرائعة الضخمة التي كتبها جيمس سيلك باكنجهام (١٠٦) هي حلقة وسطى بين كتب الرحلات القديمة المحشوة بالإشارة إلى الآداب الكلاسيكية القديمة وبين كتب منتصف القرن التاسع عشر التي انطوت على جانب أكبر من الذاتية . وإذا كان باكنجهام هو رائد هذا الاتجاه نحو السرد الذاتي في أدب الرحلات الإنجليزي فإن وليام ألكسندر كنجليك هو دون شك ذروة هذا الاتجاه .





السَّابِقُ نَحْوُ الْإِكْزَوْتِيَّةِ |





وهكذا لم تعد حصيلة مطالعاتنا صورة دقيقة للواقع بل انطباعات متنوعة فحسب ، كما لم تعد تصويرا للبلاد بقدر ما كانت تفسيرات ذاتية يستقيها المؤلف من انفعاله بما يقع عليه بصره . ولعل هذا هو سرّ سعي الكتاب الدؤوب نحو « الشرق » جريا وراء الألوان « الإكزوتية »<sup>(١٣)</sup> الإغرابية النائية ، أو بعبارة أخرى جريا وراء الخيال الرومانسي الشائع في هذه الأمصار ، فإذا الرحّالة يتعلّقون بكل ما هو غير مألوف وغريب بعد أن طالعوا قصص ألف ليلة وليلة وجاسوا خلال الديار والبلاد التي شهدت ميلاد هذا القصص الأسطوري ، وكان يغلب عليهم ذلك الشعور العارم بالاختلاف الكبير بين الشرقي المسلم وبين الأوروبي المسيحي . وكان هؤلاء الكتاب الإكزوتيون قد صبغوا مؤلفاتهم بهذه الأحاسيس التي لم يفلت من تأثيرها أي زائر للشرق حتى بات الأوروبيون يخطون في أسواق البلاد الإسلامية وكأنما تغشّي عيونهم غمامة تجعلها تبصر أدنى الباعة بالسوق وكأنه أحد سلاطين القصص الشرقية الخيالية ، وإذا دزرائيلي يسجل في رسالة إلى أبيه عام ١٨٣١ ما اعتوره من أسي جارف بعد أن غاب عنه خادما يوناني كان يرتدي زي الممالك الأرجواني المطرّز بخيوط الذهب ويعتمر بعمامة يبلغ طول شالها عشرين مترا ويتقلّد سيفاً يتألق بألوان قوس قزح . ثم يثير دهشتنا بمكاشفته آياه باضطرابه أسفاً لقبول تابع مصري بقميصه الأزرق وحفاء قدميه ، مما يدلّنا على ولعه بالغريب من الأزياء التي تشدّ خياله إلى الجو الإكزوتي . وعلى هذا النحو تنوّعت اهتمامات الرحّالة بتنوّع ما يبدو لهم من غرائب ، فيكتب أحدهم في عام ١٨٣٢ : أنه مستغرق بكل جوارحه في دراسة الرموز الهيروغليفية ، ويحاول ثانياً أن يثبت أن العمارة القوطية مصرية الأصول ، بينما يعكف ثالث على دراسة السحر على يد شيخ مغربي حتى يذهب إلى أنه وقف على اسم فرعون الذي استورزه النبي يوسف ، وأنه اكتشف اسم الفرعون الذي اضطهد اليهود ، وأنه انتهى إلى إعداد قائمة بأسماء الفراعنة جميعاً ، وأن ثقته بدقتها تفوق ثقته بدقة قائمة ملوك إنجلترا ! .

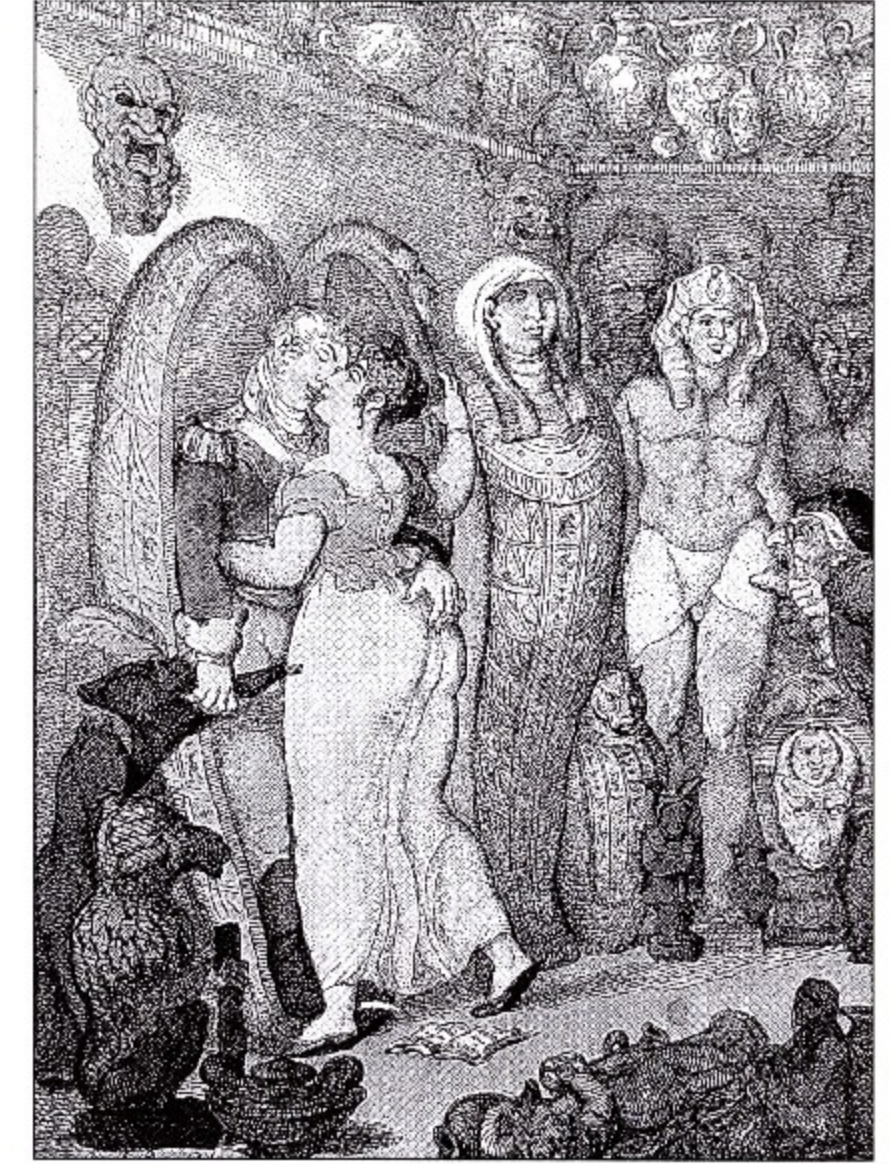
كان الكل يلهث وراء « الإكزوتية » حتى سخر ثاكري بهذه الظاهرة بقوله : « أليس عجيباً أن نكتشف أن الحرير الذي اشتريته من بدوي يرتدي عباءة من وبر الغنم جاء به إلى سراي القوافل محمولا فوق ظهور الجمال قد صنّع في حقيقة الأمر في مدينة ليون الفرنسية ؟ » .

ومع مطلع القرن التاسع عشر قضى ما كفرنلين بما سجله في كتابه « القسطنطينية » ١٨٢٨ إلى غير رجعة على وهم الرومانسيين الذين خالوا أنه ثمة ستة آلاف جمجمة وأكداسا هائلة من عظام





توماس روناالسن: عشاق العاديات العصرية.  
متحف المتروبوليتان



توماس روناالسن: عشاق العاديات المصرية.  
صورة مطبوعة بطريقة الحفر. متحف المتروبوليتان

ضحايا السلطان العثماني مطمورة تحت أسوار الحريم ، وهكذا اكتشف الرحالة الأوروبيون أنهم كانوا واهمين فيما صدقوه من تلك الخرافات ، وأخذوا يتطلعون في شوق وحنين إلى ما انتهت إليه العناصر الإكزوتية المثيرة للخيال في الشرق عامة ومصر خاصة من انحسار . وإذا الليدي براسي تختتم ذكريات رحلتها حول العالم في أسي وحسرة بقولها: « لقد مُنيت القاهرة بما مُنيت به باريس على يد المحافظ «أوسمان» . فلم يعد ثمة غير بضع طرق ضيقة وقلة من البيوت القديمة التي نستطيع من خلال مشاهدتها استعادة ذكريات ألف ليلة وليلة والافتناع بأنها كانت حقيقة لا مرء فيها» . وظهرت في تلك الآونة سلسلة من الصور الكاريكاتورية للفنان توماس روناالسن تعبّر بدورها عن روح الولع المحموم بكل ماهر مصري قديم .

## سخرية هادئة مارك توين



ومن الكتاب المشهورين الذين قصدوا مصر الأديب الأمريكي الفكه مارك توين ( ١٨٣٥ - ١٩١٠ ) الذي كان ذا قدرة فائقة على النقد الاجتماعي الساخر وإن كان في نقده أقرب إلى الهدم منه إلى البناء ، ومن أروع كتبه « مغامرات توم سوير » ( ١٨٧٦ ) و « مغامرات هكلبري فين » ( ١٨٨٤ ) . وقد رحل فيما رحل إلى الأراضي المقدسة ووضع كتابه « الأبرياء في الخارج » ( ١٨٦٩ ) الذي لقي رواجاً شديداً . وكتب توين عن الشرق في سخرية ولكنها كانت دون سخريته بالكنيسة الكاثوليكية ، كما كانت روحه الفكاهية قائمة هادمة مستهترة . من ذلك تشجيعه للفتى المصري الذي عرض أن يتسلق الهرم في تسع دقائق مقابل دولار واحد عدة مرات متتالية أَمْلاً . كما يروي - في أن يهوي الفتى من فوق قمة الهرم حتى تتخلص جماعته من مضايقاته المتصلة . على أنه من الإنصاف أن نقول إنه لم يخصّ مواطننا المصري وحده بهذه النظرة ، بل كان يشرك معه فيها جميع البشر من غير مواطنيه الأمريكيين . غير أن هذا المصري الذي هزم الهرم مرات متتالية دون أن يحقق أمنية توين التي تنافي أبسط قواعد الإنسانية قد حرك حفيظته التي عبر عنها قائلاً : « من المؤسف أن باءت محاولتي بالفشل ، فثمن المصريين في وطنهم مرتفع تنوء به طاقتي ، ألا ما أغرب هؤلاء القوم الذين يتظاهرون بالتحضّر بحال لا تتفق وما هم عليه من همجية » . ويغالي توين في هذا اللون من السخرية غلوا يثير البرم والاشمئزاز حين يقول : « ثمة فارق شاسع بين أن يقتحم فريق من السائحين مسجداً فيطؤون حُصْر الصلاة بأحذيتهم ويقتطعون قطعاً من زخارفها يتخذونها تذكّاراً ، وبين أن تقتحم مجموعة من الأجانب المسلحين كنيسة قروية في أمريكا فيحطّون زخارف قضبان الهيكل لكي يتخذوها تذكّاراً ثم يصعدون المنبر ويطؤون الكتاب المقدس ووسادته ، إذ أن ثمة تدينسا لمعبد مخصص لعقيدتنا نحن ، في حين أن ما يحدث في الأولى ليس إلا تدينسا لعقيدة وثنية ، وأعني بالوثنية كل ما هو غير المسيحية » . أي غرور منحط وأي تعصّب مقيت !

ويتعمّد توين تقمّص النزعة المضادة للرومانسية حينما يعبر عن أسفه على زوال الأوهام الرومانسية فيقول متهمّاً : « كلما فكرت في مدى ما خدعتني به كتب الرحلات إلى الشرق وسوست إلى نفسي أن ألتهم سائحا في إفطاري . . . ولست أجد الآن في النرجيلة والدرأويش والقهوة المعطرة والحمام التركي وكل تلك الأشياء التي اجتذبتني منذ طفولتي وأمنت بها براءة ودون استرابة إلا أقصى ما في الدنيا من زيف وإثارة للتقزّز » . ثم يستطرد : « لقد اختفت أسواق



الرقيق الكبرى التي طالما قرأنا عنها حيث كانت تُنزع ثياب الصبايا اليافعات للكشف عن مفاتهن أو مثالبهن وكأنهن الخيل في السوق ، ولم يعد لشيء من ذلك وجود . ولا يُمسك مارك توين لسانه عن الطعن في أخلاقيات العرب فيقول ساخراً : «ما أكثر المساجد وما أكثر الكنائس ولكن ما أندر الأخلاق والويسكي . فالقرآن لا يبيح للمسلمين شرب الخمر ، وغرائزهم الطبيعية لا تسمح لهم بالتمسك بالفضيلة ، حتى يقال إن للسلطان ثمانمائة زوجة وهو ما يدل على ذبوع مبدأ تعدد الزوجات» . لكنه لا يلبث أن يكشف عن تعصّب أعمى وتناقض جليّ حين يزعم احتراق وجناته خجلاً عند مشاهدته هذه الأمور مسموحاً بها ، ومع ذلك فإنه لا يكثر كثيراً إذا وقع ذلك في مدينة صولت ليك حيث كان المرمون الأمريكيان يبيحون تعدد الزوجات . وهكذا يكشف مارك توين بنفسه عن ازدواج في الرؤية والمعايير قائم على نظرة عنصرية منبئة الصلة بالإنسانية إلى حد ازدرائه بكل شعب آخر ، وإن كان يشفع له مقابل قبحته المسرفة أن قد توقف بين الفينة والفينة ليتهكم على نفسه التي يبدو أنها هي الأخرى لم تجد فرصة تفلت من لدغات نابه الجارح .



تأثر  
الأدب الإنجليزي  
بالشرق





وقبل أن تظهر الترجمات الإنجليزية لكتاب ألف ليلة وليلة من اللغة العربية مباشرة خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر كانت الحكاية العربية قد غدت مصدرا ثريا للقصص الخيالي المثير والقصص العاطفي الخفيف . وكانت اللغة الفرنسية ماتزال هي اللغة المعترف بقدرتها على ترجمة الحكايات الشرقية الأصيلة ، فكتب وليام بيكفورد روايته «واثق» باللغة الفرنسية غير أن الترجمة الإنجليزية هي التي ظهرت أولا في عام ١٧٨٦ حين نشرها المترجم بدون إذن المؤلف ، وكان بيكفورد ينوي أن ينشر النص الفرنسي أولا مصحوبا بجملة من القصص الشرقية عرفت باسم The Episodes of Vathek ، ولذا عجل بنشر الأصل الفرنسي عام ١٧٨٧ . واستطاع بيكفورد أن يثبت في هذه الحكاية كيف أن الإطار العام للقصص الشرقي يمكن صبغه بطابع يواكب الذوق العام المتعطش إلى الصور الخيالية النابعة من بيئات نائية غريبة . وكان بيكفورد قد طالع أكثر ماكتب عن الشرق في وقته ودرس العربية والفارسية واستطاع أن يقدم لقرائه أكثر مميزات الفن القصصي العربي من جن وحوريات وأبالسة ، ونهج الحياة داخل الحريم وجلبة الجوّاري وصخبهن ودسائسهن ومؤامراتهن .


كذلك وجدت قصة «الأميرة زخ» (١٨١٧) لتوماس مور رواجاً واسعاً في وقتها حتى بلغت طبعاتها خمسة في غضون سنة واحدة ، كما تحوّلت إحدى قصصه الشعرية «الفردوس والجنّة» إلى مسرحية وترجم الكتاب كله في مستهل القرن التاسع عشر إلى اللغة الفارسية بنجاح كبير حتى «بات الناس يترنمون في طرقات أصفهان تحت ضوء القمر بأناشيد مور باللغة الفارسية» لوفق ما جاء على لسانه في ثنايا ذكريات زيارته للشرق ، إلا أنه في الحقيقة قد اعتمد أكثر ما اعتمد على المراجع المعترف بها لا على تجاربه هو فيما يتصل بتفاصيل الوصف . كذلك استغل بايرون في الكثير من أشعاره معارفه «الإكزوتية» إلى أبعد مدى ، غير أنه يسخر في مذكراته صادقاً من تطبيق معيارين مختلفين على واقع يراه واحداً في الشرق والغرب ، ففي رأيه أن الشرقي هو الآخر يمكن أن يحسّ بالضيق في أي بلدة في الريف الإنجليزي بأكثر مما يحسّه أوربي يعيش في الشرق . كما أنه لا يرى فارقاً حقيقياً بين معاملة الأتراك لليونانيين ومعاملة الإنجليز للأيرلنديين بل ويتساءل في سخرية : «أو لم يحن بعد أن نحرّر عبيدنا الأيرلنديين؟» ثم يذهب إلى أن في هذه العبودية ما يدين المسيحيين بأكثر مما يدين المسلمين الذين يستعبدون اليونانيين . وإلى جانب ذلك نلاحظ أن بايرون قد نشر عدداً من «القصص التركية» نظماً بين عامي ١٨١٣ و ١٨١٦ مستلهماً زيارته لإسطنبول واليونان وألبانيا التي جاء وصفها في الكتاب الأول من «تشايلد هارولد» وفي رسائله المنشورة عن تلك الفترة . ويذهب نورمان دانيل في كتابه الممتع المُنصف «الإسلام والإمبريالية الأوروبية» إلى : «أن



الترجمين الأوروبيين قد فشلوا في محاولتهم إضافة الأدب الإسلامي إلى حصيلة الأدب الكلاسيكي المعروفة، بدءاً بريتشارد بيرتون الذي قدّم أول ترجمة كاملة «لألف ليلة وليلة» (١٨٨٠) وإن حوت أكثر الأساليب بذاءة مما بُعد بها عن الأصل العربي المتسم بالبساطة والتلقائية. لقد كان من المؤسف أن ينحصر هذا الكاتب المعتدل النظرة إلى الاتجاهات الأخلاقية الإسلامية وخاصة الجنسية منها هذا المنحى فيتعمّد اختيار أفحش الألفاظ لكي يجعل صورة الغرابة الإسلامية في عيون القراء الأوروبيين أشد إثارة، ولا شك في أن مثل هذا الاتجاه كان مسؤولاً عن توسيع الهوة بين العالمين الأوروبي والإسلامي». وإذا كانت قد نُشرت طبعاات منقّحة لترجمات أنطوان جالان الفرنسية لكتاب ألف ليلة وليلة طوال القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر إلا أنه لم تظهر أية ترجمات إنجليزية قبيل العقد الرابع من القرن التاسع عشر. وكان جالان قد ذهب في مقدمته إلى أن: «ألف ليلة وليلة هي الشرق بعاداته وأخلاقه وعقائده وشعوبه من الخاصة إلى السوق والصورة الصادقة له، ومن قرأها فكأنه رحل إليه فسمعه وراه ولمسه لمس اليد». وقد نشر هنري تورنر طبعة لألف ليلة وليلة سنة ١٨٣٨، وأخرج إدوارد لين طبعة أوسع انتشاراً فيما بين عامي ١٨٣٨، ١٨٤١ خلت من الشوائب الخلقية، شاء لها أن تكون ترجمة سوية تصلح للمطالعة في محيط الأسرة، فحذف الحكايات والطُرف التي تفتقر إلى ما يثير الاهتمام أو التي تنطوي على ما هو مستهجن خلقياً وإن جاء أسلوبه ثقيلاً لم تستسغه كثرة من القراء. وقد شاء لين أن تحل ترجمته محل ترجمة جالان التي عدّها خليعة ماجنة وتنمّ في الوقت نفسه عن جهل المترجم، فانطوت حكاياته على عناصر إخبارية أكثر من العناصر الرومانسية إذ مضى يصف أسواق بغداد وشوارعها التي كان الخليفة هارون الرشيد يتعسّس فيها ليلاً مع وزيره جعفر البرمكي، وكذا أساليب الحياة في حاشية الخليفة والمعيشة اليومية في منطقة الشرق الإسلامي وصفاً دقيقاً يفوق أي وصف في كتاب للرحلات. وقد أرفق لين ترجمته بهوامش موسّعة عن حياة العرب المسلمين وعاداتهم، قام حفيد شقيقته ستانلي لين پول فيما بعد بنشرها منفصلة في كتاب بعنوان «المجتمع العربي خلال العصور الوسطى» Arab Society in the Middle Ages.

المسترخي بين  
أحضان الطبيعة  
لورد لندسي



أخذ معظم الرحالة الإنجليز يعبرون عما يحسونه تحت سماء الشرق من فراغ واسترخاء  لاشك أنهم كانوا يفتقدونه في موطنهم . وقد يكون من الخطأ الظن بأن هذا الإحساس الغامر بالراحة والبهجة منعه ما توحى به المزاياء الجوهرية للمشاهد المصرية وحدها ، ففي الحق أن ثمة شيئا آخر كان يثير هذا الإحساس في نفوس الكتاب الغرباء هو ما يضيفونه هم أنفسهم من ثقافتهم على هذه المشاهد . فلم يسجل لورد لندسي حين كتب إلى أمه يصف رحلته وهو يصعد في النيل عام ١٨٣٦ وصفا واقعيا لما وقعت عليه عيناه بقدر ما سجل إحساسه المنبثق عن مشهد مترع بالحياة للحظات عاشها وسط معالم شرقية أدخلت السكنينة إلى نفسه ، فيقول :

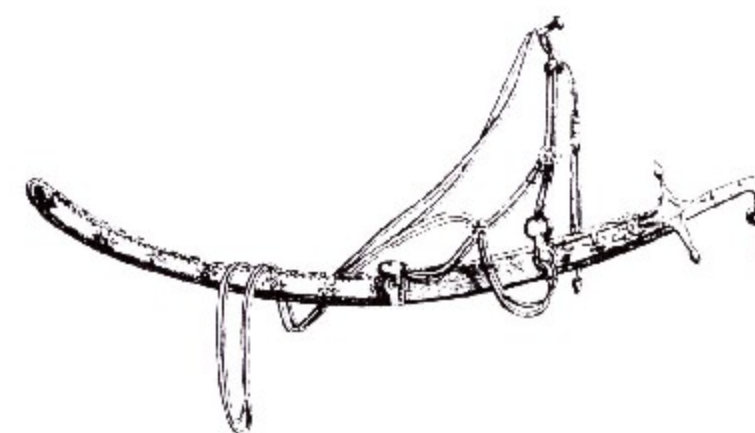
«وأخيرا حققت تصوّر هوراس للراحة المثلى وأنا مستلق تحت شجيرة خضراء إلى جوار نافورة مماثلة لتلك التي كان يستلقي إلى جوارها في لوكريتيليس . ولكن أي قيمة لذلك التصوّر إذا ما قارناه بالاستلقاء تحت سقف خيمة شرقية فوق أريكة تركية أو على سطح مركب عربية تصعد في النيل ؟ عندها ينبسط أمامك منظر مجسّد لجمال لا يتناهى . فيها هي ذي القرى وأبراج الحمام ومآذن المساجد وأضرحة الأولياء وخلوات النسك ، ثم إليك شتى المعابد الفرعونية والأهرامات وطرقات تكتنفها أشجار السنط المسننة الأوراق . ويفوق هذا وذاك جمالا صوار النخيل يتلو صوار النخيل ، تنحني قمم أشجاره المتوجة بالسعف والمثقلة بالثمار الحمراء في تكاسل كأنها صبايا يدعوهن النعاس إلى فراشهن الحريري . كل هذه المناظر التي تضي كالرؤى قمر أمام العين مرور الأحلام الناعمة المتسللة خلال النفس الوادعة في سلام . . . . في سكون» .



الحققد المرّ  
على الشرق والإسلام



كنجاليك







وكما كان ظهور كتاب «المصريون المعاصرون» عام ١٨٣٦ تنويعاً لحركة أدبية، إذ ساعد على ظهور اتجاه جديد في أدب الرحلات المصرية بعد أن كان كل شيء قد سبق بدقة فائقة وغداً من الصعوبة بمكان الكتابة عن حياة المصريين دون التحرر من التكرار، كذلك كان ظهور كتاب «إيوثن»<sup>(١٠٧)</sup> لكنجليك تنويعاً لاتجاهات أدبية متعددة معاصرة حين التزم بالانطباعية والذاتية المتطرفة والرومانسية والسعي وراء اللون الشرقي.

Alexander Kin- (١٠٧)  
glake: Eothen, London  
1844.

واستغرق كنجليك في تأليف كتابه عن مصر والشرق الأدنى برغم عدد صفحاته المحدودة تسع سنوات بذل فيها جهداً جباراً في تسجيل أدق مشاعره وانطباعاته الشخصية عن مشاهد كان أسلافه من الرحالة قد فرغوا من وصفها وصفاً تفصيلياً دقيقاً. وقد أهدى كنجليك كتابه «إيوثن» إلى صديقه إيوت ووربيرتون لعله يتخذ منه دليلاً يسترشد به خلال رحلته التي اتبع فيها نهجاً مماثلاً بعد سنة واحدة فقال: «... أنت خير من يعلم كم أحسن الهبة أمام القراء، فمن العسير أن أحسن أنسا بيني وبين أولئك الغرباء الطائرين. لذلك أثرت أن أصارح الناس سلفاً بأنني قد وضعت كتاباً سطحي الطابع، بالرغم من أنني قد اخترت له عنواناً متحذلقاً يشكل الكلمة الوحيدة الصعبة فيه، إذ إنني استعرت من اليونانية كلمة «إيوثن» التي تعني من الفجر المبكر أو من الشرق. وحرصت على ألا أستمد أية معلومات من تلك التي حوتها مؤلفات الآخرين. وهكذا جاء الكتاب خلواً من تفاصيل الاكتشافات الجغرافية والأثرية والمعلومات الدينية والصور التاريخية والعلمية وشئ الإحصاءات المفيدة، بل ومن الأبحاث السياسية والأحكام الخلقية، وعزائي الوحيد هو ما ينطق به الكتاب من صدق».

ولقد وفق كنجليك حين أخذ يسجل انطباعاته عن زيارته للشرق الأدنى عام ١٨٣٤ في الكشف عن أمور لم ينجح من قبله أحد إلا في مسّها مسّاً خفيفاً. ونحن نتبين في كتاباته إحساساً بمواقع الروعة وولعاً بالأعاجيب والمغامرة، كما نلمس حرصه على إبراز المفارقة الواضحة بين الشرق والغرب. وحين ظهر هذا الكتاب علّق عليه صديقه ووربيرتون بقوله: «ينطوي هذا الكتاب على قدر أكبر من الحقائق، وعلى قسط أوفى من حيوية الوصف، وعلى أفكار أشد عمقا، وعلى روح دعاية أرق مما وجدت في أي كتاب قرأته عن الشرق من قبل... وإذا كان الرحالة الآخرون يكتبون عن الشرق، فإن ما يقدمه لنا كنجليك هو الشرق نفسه». وهكذا جاء الكتاب محققاً لآمال القراء الإنجليز الذين كانوا قد ضاقوا بما قرؤوه من قبل عن أسواق القاهرة وأهراماتها، إذ أشاع في وجدانهم الإحساس بالانتماء إلى عالم مختلف كل الاختلاف، وهو ما كانوا يتوقون إليه. ففي هذا الكتاب يتكامل الجمال المتخيّل مع ما انطوت عليه الرحلة إلى الشرق، هذان العنصران اللذان يُبرزان بوضوح دنيا الشرق في صورة أخرى تختلف عن موطن الرحالة نفسه بل هي على الضدّ



منه . وما من شك في أن مصدر هذا كله كان كامنا في ذاتية المؤلف التي تهيمن على كتاباته هيمنة كاملة . وكان النجاح الذي لقيه هذا الكتاب مفاجأة للجميع بما فيهم المؤلف نفسه ، بعد أن كان قد رفضه ناشر حصيد مثل جون مري واضطر كنجليك إلى المساهمة في نفقات النشر للطبعة الأولى . ويذهب د . رشاد رشدي الذي ناقش رحلة إيونن باستفاضة إلى أن كنجليك قد اتخذ لنفسه منهجا صارما ينطوي على إحساس بالصراع والتحدّي الخارق الموسوم بالشجاعة ، وهو منهج قائم على بسط القضية وإردافها بنقيضها . فعلى حين تراه يبدأ بالصحراء المحرقة يتبعها بخضرة وادي النيل النديّة ، ثم يريح مشاق سفرته المضنية إلى السويس على «سريّر نظيف دافئ» ينتظره في نهاية الرحلة يغريه بالنعاس كلما استيقظ .

ويكشف كنجليك عن تحدّيه للحياة في مواجهة مناظر الموت التي تضيق بها النفوس والتي يشيعها وباء الطاعون المنتشر في القاهرة فيقول : «حاولت جاهدا أن أقنع نفسي بحجج أشبه ما تكون بالدعابة . من ذلك مثلا أن الطاعون على عكس ما يعتقد الأوروبيون ليس مرضا مُعدّيا ، فالعناية الإلهية هي التي ترسم له مساره . وقد كان من العسير على أن أخال أن لسي لثوب امرأة مريضة أو استنشاقها لأنفاسها كفيلا بأن ينتهي بي إلى الموت . ولذلك عقدت العزم على ألا يغيّر الوباء شيئا من مسلكي اليومي أو عاداتي ، وكان ذلك أحكم قرار اتخذته لتأكيد ثقتي بنفسني فيدفع عني بعيدا الملاك ذا الأجنحة الصفراء فلا يقوى على أن يرشقني بسهامه المهلكة . على أنني مع ذلك احترمت رأي الأوروبيين فتجنّبت ملامسة ما ليس فيه متعة . وقد أتاحت لي هذه المحاولة لونا من التسلية صرت أمارسه كلما اجتزت شوارع القاهرة متخذًا وسيلة الانتقال الشائعة وهي امتطاء الحمير التي تحتشد المدينة بأعداد غفيرة منها على أهبة المسير برفقة سوّاس من الصبية . وكان بخدمتي صبيّان رهن الإشارة على بابي دوما إلى أن فتك الطاعون بأحدهما . وقد كشفت لي هذه الوسيلة في الانتقال عن متعة جعلتني استمسك بها دون غيرها ، وما كان عليّ إلا امتطاء ظهر الدابة فما ألبث أن أجد نفسي منزلقا في خطو وادع . وإذا كانت شوارع القاهرة غير مرصوفة فتترشها تربة رملية جافة تكتّم الأصوات فلا يكاد يُسمع وقع خوافر الحمير ، وإذا لا تكتنف الشوارع أروسة ، فإنك ما تلبث أن تختلط أثناء ركوبك بالمارة المترجّلين الذين ما يكادون يسمعون صياح المكاري وهو يحذّرهم حتى ينحرفوا إلى الجانبين مخلفين لك طريقا ضيقا لمورك تعاود انطلاقك خلاله وسط الحشود الغفيرة دون توقف أو مضايقة حتى يخيل إليك أن المكاري هو الذي يحملك منطلقا بك بصياحه وسط الجماهير الباشّة والهواء الثخين العابق بعبير أفاويه الجنازات . ويتيح لك هذا الممر الضيق الذي تشقّه لك تلك الصيحات قطع مسافة طويلة دون أن تلامس شخصا ما . ونجحت محاولتي تلك في تجنّب ملامسة الغير في التخفيف من كآبة وحدتي ، فإذا انتهيت من شارع دون أن ألمس أحدا أحسستُ فرحة ، وإذا مسّني أحد أحسستُ غصة . لقد كانت مباراة مسلية يتناوب على فيها الكسب والخسارة كلما أفلت من شارع دون أن يلمسني أحد أو تعرّضت للمسة من أحد المارة في شارع آخر» (١٠٧) .

وفي الحق أن هذه اللفّات الخيالية في كتابات كنجليك هي التي تثير في أعماق القارئ الأوروبي شعورا بأن الشرق الذي يصفه عالم غريب عليه ، وأنه كما أوضح المؤلف في موضع سلف : «ليس مزارا يُقصد منه طرّح الملل بل يُقصد منه حفز العزيمة ، ذلك أن هذه الرحلة هي رحلة المولعين بالغرائب والساعين في دأب وراء المغامرة والمجهول» .

ومن نافذة منزله راح كنجليك يحصي ضحايا الطاعون بينما يرقب جنازات الموتى من الصباح الباكر حتى الظهيرة فيقول في وصفها :

«... يستند النعش على أكتاف رجال يعدّون به في خطو سريع على حين يتقدم النعش مُشدان أو ثلاثة يتبعهم النائحون الذين يؤجّرون نظير جهودهم في الجهر بأصواتهم ، ثم يأتي في إثرهم المشيعون من أقربائه وأصدقائه القادرين على مسيرة هذا الخطو السريع . ومن بين هؤلاء ولاسيما النساء من يعاجله اللّهات فيبطي من خطوته حتى يبتعد الموكب عنه ويخلفه . ولم يكن لهذا الخطو السريع أن يبقي على أي أثر للحزن على وجوه المشيعين ، فقد كان إيقاع السير السريع أقسى من أن يخلف على الوجوه ارتسامات الحزن الوقورة . . . . وتنتشر الجبانة فوق ساحة فسيحة وسط التلال الشاسعة من القمامة المتراكمة عبر العصور والمحيط بالمدينة ، كما تفتقر المنطقة - على النقيض من المدافن التركية التي تجملها أشجار السرو - إلى ما يخفّف من جو الكآبة ويلطّف من ضراوة الموت ، إذ تسيطر الحيوانات الضارية وانطويور الجارحة على الجبانة خلال الليل ، ولا يكاد النهار يطلّ حتى تعود الحياة من جديد إلى المنطقة بالوافدين الجدد من الموتى ومشيعيهم . على أن الطاعون الذي تفشّى في المدن لم يمنع الناس حين اقترّب موعد عيد الأضحى من أن يهرعوا إلى الإعداد له في حماسة وفرح فيقيموا السراقات والخيام وينصبوا الأراجيح للأطفال ، وأخذت الأحزان والأفراح يتقاسمان نفس المكان . . . . فيأله من عيد غريب مروّع ! إذ يتمسك القوم هنا في اعتزاز بأعرافهم القديمة القديمة لا يحرفهم عنها حتى الموت . والعجيب أنه لم يطرق سمعي طول إقامتي بالقاهرة نبأ إقامة صلاة جماعية في مسجد ما تضرّعا إلى الله أن يرفع عنهم الوباء . ويبدو لي أن المسلمين يواجهون الوباء بصبر طويل لا يلجؤون معه إلى الله إلا بعد أن يكون الوباء قد طحنهم ، وحينئذ يلتمسون من الله أن يأخذ الوباء بعيدا عنهم . . إلى بلد آخر» (١٠٧) .

هذا الذي يقدّمه كنجليك هو خليط من المفارقات الحادة توقظ إدراكنا بعالم يتعاقب فيه الأسود والأبيض ولم يستطع أحد من قبل أن يصوّر لنا بمثل هذه الصورة المثيرة ، ولم يكن هدفه وهو يصيغ الشرق بهذه الألوان الرومانسية إلا أن يسوقه لنا في صورته الواقعية الدنيوية مثلما فعل وهو يصف الأهرام وأبا الهول :

«لقد لعب الزمن دوره في هذا الأثر الذي تقع عليه أبصارنا ، حتى أن قدّم أصله وإيغاله في النسب جعله يبدو لنا عصيا على الفهم ، فبتنا لا نتصور أنه قد شُيد بأيدي الإنسان ، وكأنه عملاق هبط علينا من عهد سحيق ليحتم فوق هذا الكوكب الأصغر منه سنا . ومع ذلك فإن الحقيقة هي أن هذه الأهرامات جزء من الواقع الدنيوي تم تشييدها على هذه الصورة الصاعدة إلى السماء استجابة لنزوة ملوك طمحووا في أن تحقّق لهم الخلود ، أو لعل هذه الضخامة قد جاءت وليدة جشع الكهنة الذين كانوا يطمعون في مزيد من أجر يتضاعف مع ارتفاع حجم البناء . ولست أرى في هذا المبنى إلا شبيها بالشعّب المرجانية شيدتها حشود من الكائنات الحية الدقيقة ، فقد ارتفع هذا المبنى بجهود حشود المصريين البائسين الذين كانوا أدوات مسخرة للسلطة فحسب ، لا يتناولون من أجر على جهودهم الخالدة غير قسمة من خبز وحزمة من بصل . . . إن الأهرام بالفعل تنتمي لعالمنا الدنيوي . . . وإلى جوار الأهرام يرقد ذلك الكائن الذي يفوق كل شيء آخر في مصر : أبو الهول النوسيم وإن لم تتم وسامته إلى هذا العالم . وهو تمثال الحيوان المعبود الذي شكّل في هيئة وحش شائه يبعث الرعب في نفوس أجيالنا . ومع ذلك فإن العين لا تغفل جمال تلكما الشفتين المكنترتين



المشككتين وفق معايير جمالية قديمة ما لبثت أن طغت عليها معايير يونانية جديدة حين قدّمت إلى العالم أفروديتي المنبثقة من زبد بحر إيجه متأقّة بشفتيها الرقيقتين المستديرتين . ومع ذلك فإنك لا تملك إلا الإعجاب أمام الصّبايا القبطيات اللاتي يتطلّعن إليك بنظرة جادة حزينة قبل أن يقبلن يدك السّخية بتلكما الشفتين البارزتين اللتين يميّز بهما أبو الهول نفسه . اضحكوا ماشاء لكم الضحك واسخروا ما حلّت لكم السخرية من عبادة الأصنام الحجرية ، ولكن لو أنكم يا محطّمي الصور والتمائيل قد أمعنتم النظر لحظة إلى أبي الهول الحجري لتبدّى لكم الشبه الغريب الذي يحمله لذات الألوهية ، ولرأيتم استحالة قابليته للتغيّر وسط عالم لا يتوقف عن التّغير . لقد ظل أبو الهول هذا الذي يبدو وكأنه وافد من عالم الغيب يطلّ بنفس النظرة الحادة المتأملّة ونفس السّحنة الحزينة الوداعة إلى سلاّات الفراغة القدماء والملوك الإثيوبيين وإلى الغزاة الإغريق والرومان والعرب والأتراك ، وإلى نابليون الجّالِم بإقامة إمبراطورية شرقية ، وإلى الحروب والأوبئة ، وإلى تتابع البؤس على المصريين ، وإلى الرّحالة النافذي البصيرة من هيرودوت بالأمس إلى وُوريرتون اليوم ، إلى كل هؤلاء وغيرهم . وبينما يتخطفنا الموت نحن ، ويذوي الإسلام تتتابع خطوات المقاتلين الإنجليز بعيدا عن وطنهم للاحتفاظ بالهند الأثيرة ويرسّخون أقدامهم على ضفاف النيل بعد اقتلاع المؤمنين بالإسلام من مقاعدهم واحتلالها . وحينئذ تطلّ هذه الصخرة التي لا تغفل على هؤلاء الغزاة الجدد بنفس النظرة الحادة المتأملّة ونفس السّحنة الحزينة الوداعة ، فيستحيل عليهم أيضا السخرية من أبي الهول» (١٠٧) .

على هذا النحو يُفصح كنجليك عن ميوله الاستعمارية التي تزدري الشرق وتطمع فيه في نفس الوقت ، وكأنه فارس صليبي قديم بُعث من قبره حاملا نفس روح التعصب المقيت والعدوان الآثم . ولقد اعترف كنجليك نفسه بلا حياء بأن لديه استعدادا غريزيا للشطط يتجلّى على سبيل المثال في تفضيله المسيحيين الشرقيين على المسلمين في حين أن أغلب الإنجليز - كما كان يتصوّر - ميّالون إلى ازدراء المسيحيين الشرقيين باعتبارهم مجرد شيعة في الدولة المحمدية . . . بمعنى أنهم زنادقة إسلاميون . على أن كتاب « إيوثن » يجمع إلى جانب الحديث عن البلاد التي رآها مؤلفه والمصاعب التي عاهاها خلال رحلته عرضا مستفيضاً لمواقفه من الناس والحياة وانطباعاته الذاتية وتأمّلاته الفكرية . ولذلك ظفر الكتاب بتقريظ شديد لما يتدفق به من حيوية حتى عقّب عليه أحد المعلقين بقوله إن رجلاً مُسنّاً لا يمكن أن يكتب بمثل الحرارة التي تحسّها في هذا الكتاب ، فقد أظهر المؤلّف قدرة خارقة على التيسّط ومسّ الموضوع ببراعة دون الخوض في أعماقه .

ويصف كنجليك أسلوبه في كتابه « إيوثن » بأنه محاولة للتعبير عن الحقيقة بمعناها الواسع ، إذ هو يقدّم المشاهد والمواقع والأحداث من خلال الانطباعات التي ثارت في وجدانه لحظة مروره بها ففجّرت فيه تلك الأحاسيس دون أن يتسرّب إلى ذهنه أثر لأفكار غيره . على أنه إلى جانب ذلك قد اعترف بأن هناك تناقضا في كتاباته بين الانطباعات التي ارتسمت في وجدانه عن الأماكن التي أثار انتباهه وبين الأسلوب الساخر عند الحديث عن معالم تحمّس لها أشد الحماس . ثم إنه قد عني عناية كبرى بالأمر التي حرّكت وجدانه بأكثر من غيرها لالتصاقها به ، كأن يسهب في وصف شخصية دليله وزيّه وتفاصيل مخيمه ومرقد قافلة جماله وملاح البدو الذين يستأجرهم وبعثرة حقايقه على الرمال على حين يخلف الأوابد الخالدة وروائع الزمن الغابر التليدة دون ذكر ، أو يكتفي بوصفها وصفا عابراً باهتا اعتمادا على أن غيره قد طرق هذا الموضوع من قبل .

ويتضح من كتاب « إيوثن » كيف حالت الأخيلة الإكزوتية بين الرّحالة وبين الغوص إلى أعماق تجربتهم الفعلية ، فكنجليك يسخر من أي أجنبي لأنه ليس إنجليزيا ، في حين أنه يسخر أيضا من نفسه عندما يقول : « أفهمتُ العرب أنني كنت أسفا على موتهم جوعا بينما كنت أستطيع تقبّل مصيرهم هذا بروح وادعة مثلما أستطيع أن أتقبّل أية كارثة ليست كارثتي . موجز القول أنني كنت مستسلما تمام الاستسلام لما يصيبه عليهم القدر من قسوة » . من الواضح إذن أنه كان يحتقر أهل البلاد الإسلامية التي كان يُقابل فيها بترحاب شديد ، وأنه حتى في عباراته الفكاهية لم يكن يتحرّر من سوداوية ممعنة في الكآبة . ثم إن السطحية التي وصف بها المؤلّف نفسه طابع كتابه تُعطينا من التعقيب على ما كتب من تحقير للمصريين واستهانة بآثار يعترف العالم كله بجلالها وخلودها . وفي الحقيقة إنه لم يكتب كتابا عن مصر والمصريين بل إنه قدّم عملا فنيا استوحاه من البيئة المصرية . وفي هذا المعنى يذهب إدوارد سعيد في كتابه الشائق « الاستشراق » Orientalism إلى أن ما يصفه كنجليك في كتابه : « هو رحلة استبضاع في سوق شرقي أكثر منه خوض مغامرة كما يزعم . ولا يعدو كتاب « إيوثن » الرائج والذي اكتسب شهرة عن غير حق أن يكون ثبّتا قميّتا لتعبيرات رثانة عن إعجاب المؤلّف بجنسيته ولأوصاف مملّة عن الشرق كما يتخيله المواطن الإنجليزي . لقد كان قصده الواضح من كتابه أن يثبت للقارئ أهمية رحلة الشرق لأنها حسب تعبيره تصقل شخصية الإنسان صقلا أو بمعنى آخر تعمق شعوره بهويّته الإنجليزية ، غير أن هذا القصد ما لبث أن يتحول عداء خالصا للعرب وكرهية للأجانب بعامة وتعصبا عنصريا ضد كل الأجناس باستثناء جنسية الكاتب . ومع أنه يسلم بأن « ألف ليلة وليلة » هي عمل يتميز بالحيوية والعبقورية الخلاقة إلا أنه لا يستطيع أن يتصوّر أن مؤلفها إنسان شرقي لأنه لا يرى في الشرق أية قدرة على الخلق والإبداع . وبالرغم من أن كنجليك لا يخفي جهله التام بأية لغة شرقية فهو لا يخجل من ذكر أحكام متجنّية على الشرق وحضارته ومجتمعه ، فيعرب عن أنه كلما زاد احتكاكه بالشرقيين رسخ إيمانه بأن خير الوسائل للتعامل معهم هي تحريك الخوف في قلوبهم ، وإذن فما أبلغ السوط أداة للتخويف في يد الغرب المتربّع على عرشه . والخلاصة أننا إذا استثنينا ما اتّسمت به كتابات كنجليك من فردية صارخة لا نجد شكّا في أن آراءه تعكس تعاليا إنجليزيا قوميا كان هو أحد أدوات التعبير عنه » .

على أنه بقدر ما جاء هذا الكتاب متجنّيا بعيدا عن الصدق فقد جاء متماسكا من الناحية الفنية حتى بدا أقرب ما يكون إلى قصة أدبية عايشنا فيها الراوي معايشتنا لبطل قصة ذاتة . وإذا كنا لا نملك إلا الاستهانة بهذا البطل الزائف النظرة للواقع الحقيقي فإننا نعترف للكاتب بقدرته على نسج عمل فني استقبله مواطنوه الإنجليز خاصة بالتقدير وإن خلفّ فينا نحن غصّة مريرة ، لأن الكاتب لم يغص في أعماق المصريين - باعترافه - كما كان ينبغي ، ولو فعل لكُتب لعمله نجاح أوسع . صحيح أنه قد اختار لكتابه قالبا رصينا كان مصدر شهرة له ، إلا أنه صبغ المشهد الشرقي بألوان متنافرة مع ذاته الشخصية ، ولم يكتف بذلك بل نفث فيه أيضا تعصّب روحه الإنجليزية المؤمنة بتفوق شعبه على من عداه ، وبهذا الشعور الدفين في أعماقه نجد سطره اللادعة توجّج بشاعة المشهد الشرقي . ومن ناحية أخرى فلا شك أن تمجيده الذي لا ينقطع لكل ما هو إنجليزي واستبعاده المقصود لكل ما طرّقه غيره من الرّحالة قد أضفيا على ألوان لوحاته بريقا جذابا شدّ إليه مواطنيه الذين يؤمنون بما آمن به .



نزعة التعصب  
البغيض والتحريض  
على احتلال مصر  
**وُورْبِرتون**







مع تعصّب وُوربيرتون الذي فاق به تعصّب صديقه كنجليك إلا أن أسلوبه الخيالي جاء أسخى رومانسية. هاهو ذا يصف رحلته في النيل قائلا : « إن للإقلاع في ضوء القمر جاذبية من العصي الإفصاح عنها. فهو يرقّق من كل مشهد ويغشي كل صوت بالنغم ، ويجعل كل نسمة تعبقّ الجو بأريج عطر. وتكشف الأضواء البعيدة المتألّقة في شحوب بين المآذن التي يشقّ على العين تبيّنها ، عن مدينة القاهرة التي تتراعى إلى أذاننا أصواتها خافتة بين الفينة والفينة .

وحينا تعكّر صفو هذه السكينة صرخة أوزة أو قرقرة سمكة تنساب في الماء ، غير أن الهدوء ما يلبث أن يحو هذا كله . لقد غشّى الوجوم الطبيعة كلها ، ولقّت الأحلام الكون بأسره حتى بتنا لا نكاد ندرك هويّتنا . . . لم نعد في حاجة إلى النوم كي نستغرق في الرؤى والأحلام» .

يؤكد ووربيرتون على هذا العالم الخالم في سائر أوصافه ، عالم يفقد المرء فيه هويّته ويوحي إليه الشعور بالفراغ والقدم والبعد والغموض والاستغراق في حالة من اللامبالاة تتباين بحدّة مع ما يشيع في الحياة الأوربيّة من هموم ومعاناة . ولكن إلى جوار هذا الطابع الرومانسي الذي يستطيب الاسترخاء والسكينة يكشف كتاب ووربيرتون « الهلال والصليب »<sup>(١٠٨)</sup> عن تعلق عارم بالحياة الأوربية الشديدة الخفق وتمجيد لها حين يوازن مشاهدتها بالمشاهد الشرقية مفضّلا إياها .

وفي هذا التباين المتواتر يتجلّى لنا تعاليه المشوب بقلّة الاكتراث بعنصر الخيال الرومانسي ، هذا التعالي الذي يعدّ سمة قومية غالبية على كتّاب الرحلات البريطانيين ، تبدّى في وصفه على سبيل المثال لامرأة من نساء الحريم : « . تلقّها أوشحة حريرية ذات ألوان رفاة في رقة قوس قزح من أعلى جبينها الثلجي البياض إلى ساقها الدقيقتين غير الرهلتين وهي تغوص بين حشّيات وثيرة تشنّى حولها كالأمواج . إن وضعتها هذه هي ذاتها ترجمة لشاعرية الاسترخاء المتجلّية في الجو الغامض والعزلة المحيطين بالجارية البيضاء . ومع ذلك فإن مدفأة إنجليزية أو جبلا أسكوتلانديا أو واديا إنجليزيا تجتذبنني إليها بأشدّ مما تجتذبنني أية جارية في بلاد العرب ، فإن نساءنا النقيّات السريرة الراجحات العقل المعتمرات بقبعات ريفية متواضعة أحق بأن نغامر بحياتنا في سبيلهن من كل جميلات الشرق المعمّات والمفعّعات بالشهوانية» .

لقد توافد الإنجليز على مصر فرادى وجماعات ، لا لمشاهدة آثار حضارة قديمة غريبة عنهم فحسب ، بل تحذوهم الرغبة إلى الحديث عند عودتهم عن مشاهداتهم مع مقارنتها بحضارتهم ، للزهو بتفوق بلادهم على بلاد العالم كله جمالا وعظمة .

R.E. G. Warburton: (١٠٨)  
The Crescent and the  
Cross. 1844.



وفي الحق إن الجديدي في كتاب ووربيرتون « الهلال والصليب » هو ما ينطوي عليه من اتجاه سياسي . حقيقة إن كنجليك من قبله قد تنبأ بنبؤة غامضة حين ذكر أن الإنجليز سيرسّخون أقدامهم على ضفاف النيل ، ولكن أحدا قبل ووربيرتون لم يقل : « إن مصر موشكة على الوقوع السريع لا تحت قبضة الشعب الذي يمدّ جيشها بالضباط [ يقصد الأتراك ] وإنما تحت قبضة الشعب الذي يزوّدها بالتجار ورؤوس الأموال التي تساند اقتصادها المنهك ، فهي تلقى العون شيئا فشيئا من الثروات التي تجود بها عليها إنجلترا غير مدركة لما سترتب على ذلك من نتائج . ومع مرور الأيام تنزلق رويداً رويداً في شرك الأغلال الذهبية التي لم يحاول شعب أن يتخلّص منها . إن الشرق في انتظار مسارعة الإنجليز إليه دفاعاً عن الهلال وعن ممتلكاتهم لازوّدًا عن الصليب الذي حارب الإنجليز من أجله منذ قرون ستة ، فإن أطماعنا في الهند تفوق أطماعنا في استرداد قبر المسيح » . وفي هذا الحديث الناشئ يتجلّى نموذج خارق لاختفاء القيم الخلقية أمام إغراء الذهب المخزون في الأمم النامية .

وإذا كان كنجليك بعباراته اللاذعة عن الشرقيين قد هبط بهم إلى مرتبة الأقزام إلى جوار العملاق الإنجليزي ، فإن ووربيرتون يضع الصليب في مواجهة الهلال بصراحة ووضوح يكشفان عن أطماعه الاستعمارية وازدراؤه للشرقيين والبعد عن الدقة والإنصاف بإطلاق سلسلة من الأحكام العامة العشوائية تنطوي الكثرة منها على تناقض وتعال وصلف أحمرق . فيُثني على ترجمانه بقوله إنه أفضل المترجمين وإن كان يستكثر هذا القول على واحد من المصريين ، ويشجب الأغاني المصرية دون أن يعرف حرفاً من اللغة العربية ويستخف بأهل القاهرة حين يصفهم قائلاً : « لا يلبث المرء أن يصيبه الانهالك من قوم لا تتجاوز مشاركاتهم نحو المجتمع تدخين أراجيلهم ، وتتناقض جميع مبادئهم - إن كان ثمة مبادئ لهم - مع مبادئنا ، وتتضاءل معلوماتهم - إذا تراءى لهم الإدلاء بمعلومات - إلى حد التفاهة » .

رائد السخرية اللاذعة  
وليام ثاكري



وصل وليام ثاكري إلى مصر خلال فترة ازدهار الكتابة الساخرة في إنجلترا (١٨٤٦)، وكان هو نفسه أحد عمالقه الكتاب الساخرين ورئيس تحرير مجلة «پانش»، لذا لم يستطع أن يتحرّر من سيطرة هذا القالب الفني الذي يكتب به حين بدأ يصف مشاهداته في مصر خلال زيارته لها في كتابه «مذكرات من [شارع] كورن هيل [بقلب لندن] إلى [قلب] القاهرة الكبرى»<sup>(١٠٩)</sup>.

وعلى الرغم من أنه أكّد في بداية حديثه عن مصر أنه جاءها وقد أعدّ نفسه ليحيا فترات من التأمل العميق وليستجمع كل مشاعره الجياشة عند مرأى عمود يومي الذي تصوّره شامخا كالجبل وسط سهل أصفر تحيط به غابة من المسلات، وعند مرأى أبي الهول وهو يلقي بنظرات غامضة هادئة فوق مياه النيل، وليرقب وجهي تمثالي ممنون وهما يتطلعا أمامهما بنظرة وادعة، وليستحضر في ذهنه صور الآثار والكتابات الهيروغليفية المنقوشة عليها، إلا أنه حين يقف في مواجهة الأهرام لا يجد ما يقوله غير أنها: «عمائر شامخة وردية اللون تنتصب وقورة متباعدة ساخرة بغموض أسرارها الملكية ولكنها مع ذلك قريبة إلى النفس». بل إنه يعترف في بساطة بأنه لم يفعل بروعة ما شاهدته لا هو ولا رفاق رحلته لأن ما يراه: «ليس في حقيقة الأمر سوى كومة هائلة من الأحجار... ألا ما أضحل الوصف الذي يعنى بتسجيل الواقع في تفاصيله الدقيقة في حين أن وصفه الشعري قد يفوق بجماله جمال الواقع، فإن أجمل منظرين للأهرام في نظري هما اللذين يوحى بهما إلى خيالي حينما يسترسل بعد مطالعة قصيدتي شيلي عن الأهرام، إذ يعسر على ذهني في هذه اللحظة أن أستحضر هئات الواقع البائس». ثم ما يلبث ثاكري أن يعترف بعد هذه السخرية الغريبة بأن ضميره قد وخزه فيما بعد لأن منظر الأهرام لم يثر في نفسه شيئا من الهيبة أو التبجيل، وما نشك في أنه محقّ في لوم نفسه إذ لم تتأثر بروعة الأهرام. ونحن نكتشف بُعد الكاتب عن الجو الرومانسي الذي يشيعه مشهد الأهرام حين نتأمل انكباؤه على متابعة خطى الأهالي وتعمّقه في الكشف عن شقائهم تعمّقا يجرّه إلى السخرية من هذا الشقاء، وتصبح هذه السخرية قضيتته الأولى التي تنسيه الشغل بالأهرام، فإذا هو لا ينبض قلبه بخفقة إعجاب أمام إحدى عجائب الدنيا السبع مفضّلا عليها قصيدتين للشاعر الإنجليزي. غير أن هذا المسلك لا يبدو لنا غريبا بعد أن نراه يسخر من رفاقه في الرحلة سواء من يغالون في إطراء المشهد أو يبالغون في الاستهانة بأمره فيعتدون على شاعرية الجو المحيط بتسابقهم على الدخول إلى قاعة الطعام، كما يسخر من أحد خريجي جامعة أوكسفورد وهو يلتهم برحشية في ظلال الأهرام فخذه خنزير





لوحة (٢٠٦) جولة السائحين  
الإنجليز قرب الأهرام. عن مجلة  
إلستريند لندن نيوز في  
٩ يناير ١٨٥٨.

ويصلون مقرعين بسيوفهم مسددين فوهات بنادقهم سافكين للدماء ، قد بتن أكثر سعادة وأشدّ  
مرحاً وهن يطلن على السائحين الإنجليز الجالسين حول الأهرام في دعة وهذوء يكرعون الجمعة  
الإنجليزية ويجمعون الثروات الطائلة».

ومع كل هذا الزهو الذي يملأ نفس ثاكري في كتابته عن وطنه ومواطنيه فإنه لا يتردد في  
السخرية من أبناء وطنه حين لم تتحمس الحكومة الإنجليزية لتقبل المسلة المصرية التي أراد محمد  
علي أن يهديها لها ، ومع ذلك فهو يصف هذه المسلة مزدياً لها إذ لم تكن في نظره غير ساق  
ضخمة ملقاة على الأرض دون أن يكثرث بها أحد ، ملطخة بالقاذورات تجذب الصبية فيتسابقون  
إلى اعتلائها ويتساقطون حولها دون أن تجذب إليها التفات المارة . وكان يرى أن اهتمامه ورفاق  
رحلته برؤية هذا العملاق الحجري المطروح إن هو إلا خيانة لحكومتهم التي أبدت فتورها عن  
تسلم هذه المسلة التي كان إهداؤها رمزاً لانتصار الإنجليز على الفرنسيين في مصر عام ١٨٠١ .  
وتصل بنا الدهشة ذروتها ونحن نراه يسخر أيضاً بالعمود التذكاري الذي يتوسط ميدان الطرف  
الأغر أشهر ميادين لندن ويتمنى لو أن حكومته تدفع بهذا العمود إلى مصر كي يرقد إلى جانب  
المسلة المصرية فيلتقي الحجران الكريهان معاً بين القاذورات ! .

علي أن كل هذه السخریات اللاذعة لا تُخفي شماتة ثاكري في الفرنسيين لفشلهم في البقاء  
بمصر ، كما لا تخفي فرحته الحقيقية بتسلل الإنجليز إلى مصر ليأخذوا مع مرور السنين مكان  
الفرنسيين وينجحوا هم فيما فشل فيه الآخرون ، كما أنها لا تُخفي إيمانه بأن غنائم الرومان التي  
كانوا يحملونها في مواكب انتصاراتهم لا تبلغ في قيمتها ولا ضخامتها ولا روعتها ما أخذ الإنجليز  
يغنمونونه بدون حرب من آثار مصر الرائعة .

غير أن الفنون المعمارية القاهرية هي التي تصرفه عن الاسترسال في السخرية وتستأثر بحسه  
الجاد فيعترف قائلاً في خشوع : « لم أر قط مثلما رأيت في القاهرة من التنوع في أساليب العمارة

باردة ، ومن موظف بريطاني جليل الشأن تباعد قليلاً عن الأهرام لينقض على عنقود عنب في  
نهم مستور ( لوحة ٢٠٦ ) .

على أن مناظر الطبيعة هي الأخرى لم تحرك إعجاب ثاكري فهي في نظره متماثلة محدودة  
التنوع وليس فيها ما يجعلها جديرة بالمشاهدة . وكل ما استرعى انتباهه هو « الشاطئ الموحد الذي  
تعلوه سماء زرقاء وتتناثر عليه أكواخ مستديرة مشيدة من اللبن ، وتعبّر فوقه نساء في جلابيب  
زرقاء وغلمان لا يستترهم غير جلودهم الداكنة التي زودتهم بها الطبيعة » ، ومع ذلك تشده مياه  
النيل إليها بلونها الداكن الحمراء وانعكاس ضوء الشمس عليها هنا وهناك من بين سعفات النخيل  
وأكواخ الطين . ومع إحساسه بعظمة النهر الذي يعدّه : « رب أرباب الأنهار قاطبة والذي لا يزال  
إلهاً كما كان في الماضي » ، فإنه لا ينسى أن يغمز كعادته فيزعم : « أن أرباب أنهار أصغر منه قد  
خلعته عن عرشه » ، ومع هذا فإنه يتمتم أمامه في إذعان : « تحية لك وإجلالا يا أبا التماسيح  
العتيق الوقور » .

ونكاد نحس أن ثاكري قد وفد على مصر وفي حساباته أن متعا كثيرة تنتظره ليرتشف منها على  
هواه ، لكنه للأسف لم يظفر بشيء منها ، فهو يعترف أنه لم يُتج له أن يقلّب طرفه خلال « الحرم »  
الذي سمع عنه الكثير ، كما أنه لم يسعد برؤية الفتيات الراقصات : « أولئك القيان الجميلات  
اللاتي كان يأمل أن يشهدن ويسجل عروضهن تسجيلاً شائقاً لا يخرج فيه عن الأصول  
المرعية » ، ذلك أن أمراً بطردهن إلى الصعيد كما أسلفت كان قد سبق وصول ثاكري ، وهو ما  
حدث كذلك مع فرق الحواة المشعوذين . وعرج بسخريته على « الحمير » التي كانت وسيلة  
الانتقال السائدة في ذلك الوقت فعذر كوابها أمراً مشيناً بعيداً عن الوقار يحجم المرء عنه قبل  
الإقدام عليه . وقد رأى في الخمار كائناً بائساً تعلو رأسه أذنان طويلتان ، ومع ذلك فإن رؤيته  
للعديد من الأوروبيين والمصريين يمتطون ظهور الحمير شجعه على أن يقبل على ركوبه أيضاً بعد أن  
انزوى عن عيون مواطنيه ، متصوراً أنه لن يكاد يعلو الخمار الضامر الخفيض حتى يدفع به ويُسلمه  
إلى الأرض ، غير أنه فوجئ به يندفع إلى الأمام في حيوية مذهلة جعلته يقطع ستة أميال أو سبعة  
في الساعة دون حاجة إلى مهماز يستحثه ، فقد كان صراخ الغلام المصري الذي يسوسه كافياً لكي  
يعدو بينما يجري الصبي وراءه .

ثم يسخر من محمد علي حاكم مصر أيامها فيحاصره بحشد من المزارع يدعى أنها شائعات  
يتهامس بها أهل الإسكندرية من أن الوالي منزو في عزلة خائفة يجترأ أحزان قصة غرام تعذبه في  
كهولته ، وأنه قد بات أسير مخدر أدمته حتى أورثه البلادة والتعاسة والزهد في الحكم ، ثم يعود  
بعد لقاء زملائه بالوالي الموفور الصحة والحيوية فيؤكد أنه بريء من هذه النبوة ولم يعد يفكر في  
التخلي عن الحياة ولا عن العرش .

وترتفع حدة سخريته وهو يسدد سهامه اللاذعة إلى الفرنسيين وجيوش حملتهم التي قادها  
نابليون شاهراً سيفه وهو يعدو هنا وهناك بينما تتطاير ضفيرة وراء رأسه في الهواء ، فهو يرى أن  
إنجازات « بوناپرت الخارقة » في مصر لا تتجاوز كونه قد هزم المماليك عند الأهرام ، ثم فر هارباً  
تاركاً كليبير في مأزق لا ينجو منه إلا بالاغتيال . في حين أن الإنجليز هم الذين ظفروا بغنائم  
السلام ، بعد أن بدأ « واجهورن » يشد الأهرام إلى إنجلترا مختصراً زمن الطريق بينهما بقطره  
البخارية الجديدة شهراً كاملاً . ومع هذا كله فإن ثاكري يحسّ الحنين إلى رؤية الأهرام من جديد  
ناذراً أن يسكب عند سفحها حين يبلغها قرباناً من « الجمعة المُرّة ومن الصلصة الإنجليزية » ، بل إنه  
يحسّ بأن : « بنات الزمن ، تلك الأربعون قرناً التي كانت تطل على جنود نابليون وهم يجولون



وفي ضروب الحياة، ومن الاختلاف في مواقع الجمال المثيرة للخيال، ومن تعدّد الألوان الناصعة، ومن اضطراد الأضواء والظلال، فثمة صورة جديدة تطالعك تلفت العين في كل شارع وعند كل حانوت بالسوق. وقد حاكى مصوّرنا الشهير الفنان جون فردريك لويس بعض هذه المناظر بالألوان المائية في تصاوير تتميز بالصدق المبين وبالدفقة المفرطة وبالجمال الأخاذ، غير أن المجال لا يزال مفتوحاً للمثاق من الفنانين كي ينسجوا على منواله. وإذا كان ثمة فنان قرأ ما أكتبه وكانت في وقته فسحة، وكان ذا عزم لابتكار الجديد في فنّه فليمض ليَجرب الشتاء في القاهرة، ولسوف يقع على أجمل الأجواء وخير الموضوعات لفرشاته».

حتى إذا صعد إلى القلعة وجد عينيه تشدّان إلى الجامع الجديد الذي كان محمد علي قد أخذ في بنائه على مهل وفي غير عجلة فيسجلّ أنه يُشاد من المرمر الناصع البياض المشوب بحمرة خفيفة، غير أن زخارفه كلها تكاد تكون أوروبية. ثم يبدي دهشته من أن الفن الشرقي الجميل العريق المفعم خيالاً قد أهمل كل الإهمال: «فإن المساجد القديمة بالقاهرة التي أمعنت النظر في جملة منها وكان لي حظ دخول اثنين منها تفوق هذا المسجد كثيراً، إذ إن التنوع في زخارفها مثير للإعجاب. وما من شك في أن اختلاف أشكال القباب وتنوع طرز المآذن التي جاوزت قواعد النسب المألوفة جرأة وجاءت رشيقة غاية الرشاقة قد أثارت إعجاب كل مهندس معماري شاهدها. وحين يتاح لك السير في الشوارع ما تلبث أن تكتشف أن هذه التحف المعمارية تسحر العين بلا انقطاع، فهنا تجد «سبيلاً» من الرخام بسقفه النائي والمحلّى بالزخارف العربية، ولك أن تمنع النظر في رونقه الذي تخال معه لروعة تنفيذه ودقة تقنيته أنك أمام جوهرة عريقة. ثم إذا أنت بعد ذلك أمام مدخل لأحد المساجد معقود شامخ، مثل ماذا؟ مثل التفافة سريعة لبائيرينا رشيقة. فلنسلم بذلك جدلاً، فإن هذه العمارة ليست في سكية البارثينون وكماله، تلك التحفة المعمارية التي إذا ما قسناها بالكولوزيوم والپانثيون رأيناها مبنين مبتدلين غليظين كأنهما ماردان عريضا الكتفين أمام الإله جوبيتر واهب الأمبروزيا<sup>(١١٠)</sup>. إن هذه المآذن والقباب والقنوات والأروقة تثير الخيال وترقه عنه بل وتداعيه مداعبة تسحر العين. على أنني لم أجد إلا القليل من المختلفين إلى الصلاة في مسجد السلطان حسن الشهير، بل لم أجد به غير خادم المسجد الذي كان يتطلع إلى من يمنحه حلواناً شأنه شأن مثيله في أي كاتدرائية إنجليزية، وهو الذي هياً لنا انتعال حُفّ من القش كي لا ندسّ أرضية المسجد الطاهرة قبل أن يقودنا نحو داخله. إنه مبنى خارق من حيث انفساح الفراغ وسطوع الضوء، بل أستطيع القول بأن أفضل نماذج الفن النورماندي التي وقع عليها بصري لم تُفّق هذا المسجد رشاقة وبساطة وجمالاً. وما من شك في أن فرسان الحروب الصليبية قد أخذوا معهم إلى أوطانهم في أخيلتهم النماذج التي شاهدوها لهذه المعابد التي تُمّت إلى دين غير دينهم. لقد ذهب المتصوّفة في وطننا إلى أن العمارة القوطية ما هي إلا كاثوليكية منحوتة حجراً. وإذا كان صحيحاً مايشيرون إليه من أن العمارة القوطية لأنها جميلة كانت الكاثوليكية هي الأخرى جميلة، إذا صحّ هذا فما من شك في أن المحمدية كانت هي الأخرى ذات يوم جميلة. فلم يؤثّر قط أن عقيدة كانت لها معابد أكثر رشاقة من هذه المساجد التي تبدو في جمال كاتدرائية روان ومعمودية پيزا. غير أن الحال قد تغير الآن فالمساجد خلت من المصلّين ولا تجد بها غير الخدم الرسميين. لقد اضمحل الإيمان هنا فأصبح الناس أعجز مايكونون عن أن يشيّدوا مثل هذه العمائر أو أن يبتكروا مثل هذه الأشكال المثلى. نخذ مثلاً الابتذال الرخيص في مسجد الباشا الجديد، وتلك الإخفاقات التعسة التي بثّنا نراها في مباني إستنبول بأخرة.

(١١٠) Ambrosia . كان طعام الآلهة عند الإغريق القدامي يسمى أمبروزيا على حين كان شرابهم يسمى «نكتار». وكلمة أمبروزيا تدل على كل ماله خلود ولا يضرأ عليه فناء، إذ كان معروفا عندهم أن من يطعم الأمبروزيا يكتب له الخلود هو الآخر. وكان الإغريق يصفونها بأنها أحلى مذاقاً من العسل وذات رائحة عطرة نفاذة. [م.م.م.ث]

صفاء التأمل

## هاريت مارتينو



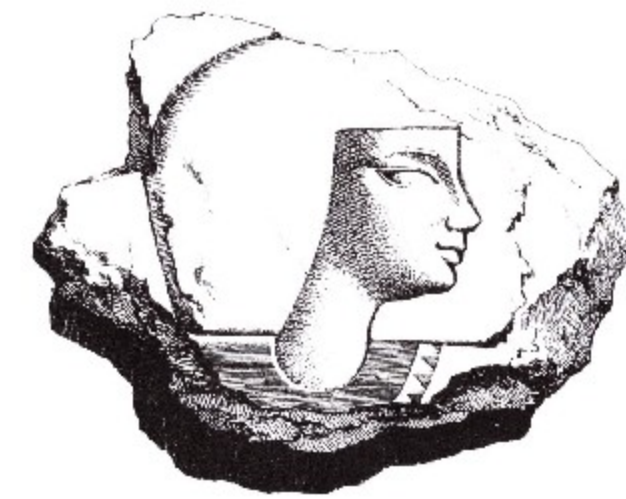


ومن بين السيدات الأوروبيات اللاتي زرن مصر تتألق أربع سيدات إنجليزيات من الكتابات الموهوبات، أولهن الأنسة هاريت مارتينو الكاتبة والروائية المعروفة، وثانيتهن السيدة صوفيا پول شقيقة المستشرق إدوارد لين، وثالثتهن ليدي لوسي داف جوردون، ثم الروائية الذائعة الصيت أميليا إدواردز، وقد استطعن بحسّهن الأنثوي أن يسجلن أموراً لم تكن متاحة للذكور من الرحالة أن يصلوا إليها. وهاريت مارتينو<sup>(١١١)</sup> كاتبة مسيحية تنكر التثليث وتقول بالتوحيد، عملت بالصحافة ونشرت العديد من الروايات، اجتذبتها الفلسفة وقدمت ترجمة موجزة لكتاب أوجست كونت بعنوان «الفلسفة الوضعية» (١٨٥٣) فكان لها بذلك فضل نشر هذه الفلسفة بالجلترا، وزارت مصر عام ١٨٤٦ وأصدرت كتابها «الحياة الشرقية» (١٨٤٨) الذي ضمته ذكرياتها عن رحلتها في مصر وفلسطين. ونلمح أولى انطباعاتها عن مصر في تلك الدهشة العميقة التي تعبّر عنها قائلة: «كم أتضاءل حين أبدأ الحديث عن مصر فإذا أنا قد تعدّرت على نقل صورة دقيقة لها. فمصر تستقبلك بشمس ساطعة وضوء باهر يخالطان شعورك النفسي الذي قدمت به، فإذا هذه الثلاثة تشكّل انطباعتك الأول الذي قلّ أن يتشابه فيه اثنان. وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أنقل ما وقع عليه بصري بكلماتي القاصرة».

والى جانب اهتمامها بوصف الحقائق الموضوعية اتسم أسلوبها ببريق وتوهّج لم تتسم بهما أساليب الكثرة من الرحالة الآخرين، ثم إننا لا نلمس أثراً كبيراً للتعصّب في كتاباتها. وتسري انطباعاتها صافية تتلقّاها عين دقيقة الملاحظة تغوص إلى الأعماق ويلوّنها خيال مولع بالتأمل، غير أننا لا نتلقّى ما تكتبه كأوصاف لحقائق بقدر ما تثير فينا ذكريات تشدّ عقولنا رغم بعدنا عنها، فهدوء إيقاعها في وصف المناظر يتماوج مع انسياب نثرها الشفاف. ولا ريب أنها كغيرها من رحالة ذلك العصر كانت معنيّة باللون الشرقي غير أنها كانت تفصح عنه دون إسراف أو محاولة موازنته بما للغرب، مكثفية بالمنظر ذاته تعدّه متعة مثلى للعين الأوروبية. وكانت تعتقد أن التأثير الذي يحدثه توجّس هذا الشعب من الصحراء في عقول أبنائه وطباعه لا يستطيع أحد أن يقدره حقّ قدره فتقول: «كان من الطبيعي أن يقدّس المصريون الأقدمون نهر النيل، فقد كان إلهاً للجماهير له في عيون الكهنة مظهر الآلهة. وإذا كان النيل منبع ما بين أيديهم من خيرات وما في قلوبهم من آمال، كما كان مكن القوة الدائبة التي لا تكفّ عن الحركة الدافقة أمام أبصارهم قاهرة معظم ما يصادفهم من صعاب، وإذا كان النيل عندهم هو قوى الخير والصحراء هي قوى الشر، نشأ الجانب الرئيس في عقيدتهم الرامز إلى دفن أوزيريس في النهر المقدس حيث يبعث مرة كل عام لكي ينفع الكون بركاته».

Harriet Martineau: (١١١)  
Eastern Life, Present  
and Past. 1848





اقتحام عالم الحریم

صوفیا پول



Sophia Poolc: An (١١٢)  
English Woman in  
Egypt. Letters from  
Cairo written during  
residence there in  
1842,3,4 with E.W.  
Lane. London 1844.

ونلتقي بثانية الكاتبات في شخصية صوفيا پول ، وكانت قد اصطحبت ولديها وشقيقتها إدوارد لين عند زيارته لمصر عام ١٨٤٢ ، وعاشت بالقاهرة سبع سنوات زارت خلالها حريم محمد علي ، كما حصلت على معلومات وافرة عن الحياة الأسرية في المجتمع الإسلامي الذي تطرقت إليه بعض التأثيرات الأوروبية . وقد أسفرت هذه التجربة التي خاضتها عن مجموعة من الرسائل نشرتها تحت عنوان « امرأة إنجليزية في مصر » (١١٢) (١٨٤٤ - ١٨٤٦) . وقد أفاضت المؤلفة في وصف الطبيعة المصرية ومناظر النيل والشوارع والمتاجر في الأحياء الوطنية ، كما أوردت بعض الملاحظات التاريخية عن القاهرة استخلصتها من مذكرات شقيقتها وقام هو بمراجعتها بنفسه . غير أنها حين تحدثت عن المرأة المصرية احتفت بها احتفاء يدل على حيدة موضوعية ، كما عطفت على ذكر تفاصيل التقاليد المتبعة عند استقبال الضيوف من السيدات في بيوتات الكبراء بما نستشعر معه تقديرها العميق لحسن الضيافة . وقد كشفت عن أن « الحريم » في هذه البيوت ليس جناحا خاصا في أحد الطوابق بل هو منزل قائم بذاته مستقل عن المنازل المسموح بدخول الرجال إليها . كما بهرها الاستقبال الكريم الذي لقيته من أسر المجتمع الراقى المشوب بالود والاحترام والتميز بالملاطفات الأسرية ، مثل إقبال بنات صاحبة الدار على خلع معطفها عند الدخول ثم التسابق به لإلباسها عند الخروج ، ومثل الإسراف في تقديم الشراب والقهوة والحلوى في أوان وأكواب وصحاف تحتذيها بغلاء ثمنها لبرقة صنعتها ، إلى غير ذلك من تفاصيل جذابة قد لا يكون هذا الكتاب موضعها ، وخلاصة القول أنه كتيب صيغ في مودة وتعاطف يستحقان التقدير . وكانت صوفيا قد وهبت حياتها بعد أن انتهت من مهمة تربية ولديها لخدمة شقيقتها إدوارد لين حتى وفاته عام ١٨٧٦ . وكان حفيدها إدوارد ستانلي پول عالما في اللغة العربية وهو الذي أشرف على إعداد الطبعة الجديدة من كتاب « ألف ليلة وليلة » (١٨٥٩) الذي ترجمه خاله والطبعة الخامسة من « المصريون المعاصرون » (١٨٦٠) .



---

ملاك الرحمة



لوسي داف جوردون







وللتقى بالكاتبة الثالثة في شخصية لوسي [ليدي] داف جوردون التي ظهرت رسائلها خلال العهد الفكتوري حيث كان ثمة كثرة من كتاب الرسائل الأدبية الممتعة وإن لم يبلغ غير القليل منهم من الروعة ما بلغته لوسي ، فإن رسائلها من مصر تستحق القراءة لا من أجل دقة ملاحظتها فحسب ، بل كذلك من أجل استشرافها للمستقبل الذي تسود فيه حكومة صالحة وتقل فيه الفوارق بين الطبقات ويجري فيه إصلاح الريف ، وفوق ذلك كله شجاعته في إعلان رأيها . وكانت ليدي داف جوردون قد أصيبت بالسل وهي في سن الأربعين فكان عليها أن تقضي ما بقي لها من عمر في مناخ جاف فجاءت إلى مصر لتبقى فيها بعيدا عن زوجها وأطفالها ، تقطع النيل ذهابا وإيابا مع اختلاف الفصول وراء الأنسام الجافة . ومع ذلك تحملت قدرها بشجاعة مذهلة ، وعقدت العزم على أن تجد بين المصريين الصُّحبة التي فقدتها في بلادها ، ولم تختَر أصدقاءها من بين طبقة الباشوات وإنما من بين البسطاء ومن الفقهاء وأئمة المساجد والسقائين وسيدات الحريم والأطفال والصبيبة الذين أنسوا جميعا بلطفها وبساطتها فأفضوا إليها بمشكلاتهم يسألونها النصيح ، كما تصوِّع الملاحون لرتق صدوع مركبها دون أن يتقاضوا على ذلك أجرا ، لأنها كانت تتمثل بعادات المصريين فتشارك صاحبها الطعام كما كانت تأكل مع «رئيس» مركبها في طبق خشبي ، مؤمنة أن ذلك يجلب الفأل الحسن أو [البركة] كما يقول المصريون . وبهذا السلوك كانت تُرضي صاحبها حتى بات تابعها «عمر» يردد لها قوله « ما أحلى العيش الذي أطعمه معك ».

لقد منحتنا لوسي كتابا من أشد الكتب رقة وإنصافا عن طباع المصريين وعاداتهم وحياتهم اليومية ، هو كتاب «رسائل من مصر»<sup>(١٢)</sup> ، وتوحي لنا رسائلها التي بعثت بها إلى زوجها وأمه وأبنائها وأصدقائها بأنها لو لم تكن معتلة الصحة الجسدية لتصدت لانتقاد أسلوب حكم الخديو إسماعيل بصورة إيجابية . ومن المؤسف ألا تكون مثل هذه المشاعر المرهفة لهذه السيدة الرحيمة إلا لقلة قليلة من البريطانيين الذين عاشوا أو عملوا أو تنقلوا في مصر ، فإن اللامبالاة بالمصريين التي اتصف بها كل من لم يتكلموا العربية من بينهم قد أسفر مع مضي الزمن عن قيام علاقة يعوزها الاحترام المتبادل بينهم وبين المصريين . ولو تفهّم الكثيرون كما تفهّمت لوسي مشاعر المصريين لقلّ ميل الإنجليز إلى ارتكاب حماقات دنشواي ثم حرب السويس فيما بعد ، فقد كان يملؤها حنقا ميل بني وطنها الإنجليز إلى اعتبار «العصا» الوسيلة المثلى لحكم العرب .

وبعد صدور كتاب «رسائل من مصر» الذي يتضمن نقداً لاذعاً لأسلوب إسماعيل باشا في حكم البلاد وما يلاقىه الشعب من عسف وقهر أمر الخديوي بوضع لوسي تحت المراقبة حين تنتقل

Lady Duff Gordon: (١١٢)  
Letters from Egypt.  
London.



صيفاً إلى القاهرة، ومصادرة رسائلها التي تبعت بها من الأقصر، وهو ما حملها على أن تعهد برسائلها إلى الرحالة والسائحين الأجانب.

ولقد كشفت هذه السيدة لمن صحبتهم من المصريين عن رقة صادقة فكانت تغمرهم بحنان الأمومة بالرغم من اختلاف الجنس والدين، كما كانت سريعة التعاطف مع كل من لزمهم سوء الطالع، وكانت دائماً حرباً على استبداد الحكام الطغاة وذلك في عصر لم يكن الانتصاف فيه للباثسين والمحرومين سائغاً ولا مقبولاً. وكان معروفاً لكل من أنس إليها أنها لم تكن تكيل المديح زيفاً لأحد أو تبيح لنفسها أن تتحدث في غلظة انتقاصاً من قدر إنسان، ولم تُغرها روح الدعابة التي كانت تتمتع بها بالخروج يوماً واحداً عن حدود اللياقة، بل إنها تتحدث عن مشاهد الصعيد بتقدير وإعجاب فتقول: «الدور هنا لا يعلنها طلاء ولا طبقة من الجص الأبيض ولا تتخللها نوافذ، بل هي لا تعطي للوهلة الأولى الانطباع بأنها مساكن للبشر. ولكن سرعان ما تعتاد العين كل ما غاب عنها في دور السكنى الأوربية، وما يلبث انطباع البؤس أن يتوارى ويفطن المرء إلى جمال تلك الدور بأشجار النخيل المحيطة بها وأبراج الحمام المحلّق حولها والقباب المتناثرة هنا وهناك فوق أضرحة الأولياء. وعلى مرمى البصر نشهد الفلاحين الكادحين على ضفة النهر وقد اتخذت أجسادهم لون مياه النيل بينا تسري دفقة دافئة من الدماء تحت بشرتهم وكأنما شكّلهم بروميثيوس<sup>(١١٣)</sup> من مواد الأرض ونفحتهم الشمس روحها. ما أشدّ بؤس هؤلاء الفلاحين الذين يرثي لحالهم حتى ملأحو مركبي المهلهلو الثياب حين يروني مستغرقة أتاملهم وهم يكدحون.»

وكانت لوسي قد لمحت في زيارتها الأولى لمدينة الأقصر بيتاً كبيراً أبيض اللون عند الطرف الجنوبي من القرية العشوائية المشيد داخل حرم معبد الأقصر نال إعجابها. فإذا هي تنطلق جاهدة لاستتجار هذا البيت التابع للحكومة الفرنسية إلى أن تحققت لها هذه الأمنية على يد قنصل فرنسا في القاهرة. وتوجّهت على الفور بصحبة خادمها الوفيّ عمر إلى خان الخليلي لشراء ما يلزمها لتأثيث دارها من أرائك وموائد وسجاجيد صلاة وصوان وحوض نحاسي للاستحمام، عاقدة العزم على أن تحيا حياة المصريات.

كان البيت مبنياً بالطوب المحروق المطلي بالجير الأبيض شيده هنري صولت قنصل بريطانيا العام سنة ١٨١٥ أثناء قيامه بالحفائر في معبد الرامسيوم بطيبة تحت إشراف المغامر الإيطالي جوفاني بلزوني - كما مرّ بنا - الذي عاش هو الآخر في هذا البيت عام ١٨١٧. وما لبث صولت أن باع البيت عام ١٨٢٠ إلى الحكومة الفرنسية، ومن هنا أطلق عليه اسم «بيت فرنسا» Maison de France. وفي عام ١٨٢٩ نزل به عالم المصريات الأشهر شمبوليون، كما أقام به الضباط الفرنسيون المكلفون بنقل المسألة الشهيرة أمام الصرح الأول لمعبد الأقصر إلى باريس، والذين زرعوا حديقة بديعة خلف المبنى. ولعل أشهر مَنْ شَغَلَ «بيت فرنسا» قبل لوسي هما الأدبانيان الفرنسيان جوستاف فلووير ومكسيم دوكان في عام ١٨٥٠ اللذان كانا يقضيان أُمسياتهما - ومن بعدهما لوسي - في رحاب أشجار النخيل والميموزا وشجيرات الليمون والياسمين. وبعد وفاة لوسي عام ١٨٦٩ غدا «بيت فرنسا» أحد المعالم التي يحجّ إليها الرحالة والسائحون والعلماء، ومن بينهم أميليا إدواردز عالمة المصريات التي لا شك قد طالعت كتاب «رسائل من مصر». غير أن البيت ما لبث أن هُدم مع أطلال القرية العشوائية داخل حرم المعبد عندما أقدم عالم المصريات

(١١٣) Prometheus الميثولوجيا الإغريقية هو الإله الذي منح البشر النار فمدّ لهم في حبال المدنية والحضارة. وتعني كلمة بروميثيوس: العارف بالغيب أو الثاقب البصيرة. وإلي هذا يُعزى خلق الإنسان من طين حتى نفخت فيه الرّبة أثينه من روحها [م. م. م. ث].

الفرنسي ماسبيرو مدير مصلحة الآثار المصرية عام ١٨٨٥ على تطهير المعبد من كل ما هو دخيل. وعلى الرغم من أن معظم الأوروبيين كانوا يرون البيت الذي افتتنت به لوسي مشيرةً إليه باسم «قصرها الطبيي» عارياً مفتقراً إلى وسائل الراحة - وهو الوصف الذي سجّله أميليا إدواردز في كتابها الشائق «ألف ميل صعوداً في النيل» عام ١٨٧٣ - إلا أن البيت ظلّ يكتسب في عيني لوسي يوماً بعد يوم المزيد من الروعة والجمال. كان العديد من نوافذ بيت لوسي تنقسه ألواح الزجاج وكذا العديد من عتباته، غير أنها ما كانت تعباً بذلك، ولا حتى بطير البوم الذي يعيش في أركان الدار على هواه، أو بمختلف أشكال الحرباء المتقلّبة الألوان الزاحفة فوق السقف والجدران. فلم يكن ما تعشقه لوسي في قصرها الطبيي ما تضمّه جدرانها، بل هو المشاهد الخلابة التي يقع عليها بصرها سواء من الشرفة الأمامية المطلّة على النيل أو من النوافذ الخلفية المطلّة على الحقول الخضراء والفسحة الممتدة والهضاب البرتقالية التي تحدّها. كانت هذه المشاهد هي التي حوّلت فقر الدار المدقع إلى ثراء مبدع.

وكانت لوسي في شبابه متألّفة الجمال ذات عيون داكنة وبشرة ناصعة البياض ووجه روماني القسمات باستثناء أنفها الإغريقي الطابع. وكانت النساء يعترفن رغم ولعهن بنقد بعضهن البعض بأن دخولها إلى قاعة الرقص كان يأخذ بجُماع الباب الحاضرين، على حين أجمع كل مَنْ عرفها من الرجال على أن لها قلباً من ذهب، وأنها من ذلك النوع من النساء الذي لا يقابله الرجل المحنك إلا مرة أو مرتين خلال حياته كلها. وقد عبّرت في إحدى رسائلها لزوجها عن مدى تعلق المصريين بها إلى حدّ تقدّم أحد شيوخ العرب لطلب يدها وكيف وصفها بأنها ليست مثل غيرها من السيدات العصريّات الحمقاوات إذ هي تبدو في عينيّه أميرة عربية عريقة تستحق الفوز بعنّة بن شدّاد أو بأبي زيد الهلالي، وأنها جديرة بأن يقتتل الرجال في سبيل الفوز بها أو يضعون نهاية لحياتهم إذا لم يظفروا بها. وقد أبدى هذا الموته بها استعداداً لدفع كل ما يملك مهرّاً لها. وهي تكشف في هذه الرسالة عن عادات المصريين في طلب يد أنثى عن طريق إرسال الخاطبة لها، وعن عدم الاكتراث بفارق السن بين الزوجين، إذ أشارت إلى أن شيخ العرب هذا الذي كان عاقدا العزم على الزواج منها لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره وهي وقتئذ ابنة الثالثة والأربعين.

وإن الأدب الإنجليزي<sup>(١١٤)</sup> كَيدين لمُعزّل هذه السيدة في مصر بظهور كتاب شديد الرواج هو «رسائل من مصر» المفعم بالحيوية وبالأوصاف النابضة للشعب الذي عاشت وسطه، وبآمالها المعقودة على مستقبل أفضل له، وبالامتزاج التام بين سلوكها ومشاربها وسلوكه ومشاربه. فما أسرع ما كان رثاؤها مَنْ تُجالسهم وتلمس مدى معاناتهم أن يتحول إلى عاطفة مشبوبة، بل لقد كانت تضيق باعتداءات مواطنيها على هؤلاء الكادحين، وتودّ أن تثير كتاباتها عنهم الرأي العام الإنجليزي حتى ترفع عن كاهلهم ما يتقلهم من هوان.

ووفقاً لعادة المصريين بتكثية بعضهم بعضاً بأبي فلان اعتادت ألا تشير إلى زوجها سير ألكسندر داف جوردون إلا باسم «أبو موريس»، بل لقد كانت تناديه في رسائلها أحياناً بهذا الاسم. ولقد تعلّمت اللغة العربية التي كانت تُعلّمها أطفال الأقصر فخلّفت وراءها ذكرى عاطفة مترعة برقّتها وطيبتها التي لم تحظ بها أية سيّدة أوروبية مرّت بمصر، ولقنت كيف تجوّد كتابة اسمها بالعربية، ثم إذا هي توقع به رسائلها مستخدمة التقويم الهجري في تأريخها.

كانت تجتذبها وسامة الفلاحة المصرية وتجذبها جمالاً لم تشهد من قبل، كما لفتت نظرها براعة راقصة شابة تستطيع تحريك ثدييها واحداً في إثر الآخر وفي استقلال تام عنه! ووجدت في

(١١٤) جاء في تعليق صحيفة وستمنستر ريفيو على كتاب «رسائل من مصر»: «نشكّ كثيراً إذا ما كان هناك أي أوروبي قد نفذ إلى أعماق مصر الحديثة والنقط صورة صادقة لها بمثل ما فعلت ليدي داف جوردون التي تختلف كل الاختلاف عن سائر الرحالة المعاصرين، لأنها لا تنظر إلى أفراد الشعب - على غرارهم - باعتبارهم ملحقات أو مستلزمات ضمن مشهد شرقي إكزوتي».



أهل الصعيد لطفاً أعمق من لطف أهل الدلتا ، وتردّ ذلك إلى سريان الدماء العربية في شرايين أهل الصعيد مما يجعلهم أوفر رجولة وأشدّ استقلالاً وأكثر تحرراً في ممارسة عقائدهم . ثم إنها وجدت شبهاً كبيراً بين حفلات زفاف الفلاحين المصريين وحفلات العطلات الريفية الألمانية حيث يجري إطلاق رصاص البنادق وعرض أثاث منزل العروس الحديد فوق ظهور الجمال لا فوق العربات ، كما أنها تعزو تفاصيل طقوس الزفاف المصري إسلامياً كان أو قبطياً إلى طقوس أسرار إيزيس .

لقد عاشت لوسي دف جورودون حتى وفاتها بين المصريين تشاركهم وجدانياً أفرحهم وأتراحهم ، وتمدّ لهم يد المساعدة وتعالج مرضاهم لا سيما في أوقات الأوبئة ، فلم تدّخر وسعاً في سبيل مساعدة البسطاء من الناس بدوّاً أو فلاحين ، مستغلة خبراتها المكتسبة في التطبيب والتمريض والإسعافات الأولية ومداداة الحمى والجروح حتى لهج الناس بالشناء على «الست الحكيمة» وأغدقوا عليها حبهم وتقديرهم بشتى الأساليب التي في متناولهم . ومن لم يكن يعرفها من قبل يسارع إلى سؤالها عن اسمها لكي يدعو لها في صلاته عرفاناً وامتناناً ، فتشرح لهم بوداعة أن اسمها معناه «النور» . وإذا كان النور هو أحد أسماء الله دعوها «نور على نور» . وكم تغنى القوم بمآثرها عليهم ، فمنهم القائل - كما جاء في إحدى رسائلها- : « بنت الإنجليزي زهرة على رؤوس العرب ، وعلى من ينتابه المرض أن يقصدها ليستاف عبق الزهرة ويستمتع بألق نور على نور . . فيبراً » .

وفي نهاية احتفالات مولد الشيخ أبي الحجاج بالأقصر شهدت مسيرة الموكب الذي يحمل الناس فيه على أكتافهم كسوة ضريح الشيخ الحديد والمركب المقدسة القديمة فكتبت تصفه : « خيل إلى أن الموكب ينبعث من معابد الكرنك إلى معبد الأقصر وبالعكس مثلما كان يحدث في الأزمنة القديمة<sup>(١١٥)</sup> مع فاروق واحد هو الغبار المتناثر حوله والثياب المهلهلة التي يرتديها مريدوه بدلاً من أبهة الفراغة وجلالهم . . ما أشبه هذه الاحتفالات بتلك التي أشار هيرودوت إليها بأنها كانت تقام تشريفاً «لذلك الراقد في فيله الذي لا يجرؤ واحد على التّفوّء باسمه ، والفارق الوحيد هو أن الاسم قد تغير والمومياء قد غابت» . وهي عبارة كثيراً ما كان يردّها السائحون وقتذاك دون استناد إلى قرائن .

كان كتاب «رسائل من مصر» أعظم إنجاز توجت به ليدي داف جورودون حياتها الأدبية ، وإن كان نشره قد تولّد في الحق عن حاجة مادية بعد أن ثبت بما لا يقبل الشك أن حالتها الصحية لن تسمح لها بالعودة إلى ممارسة حياتها العائلية بين زوجها وأولادها في إنجلترا . فعلى الرغم من رخص المعيشة في مصر مضاهاة بلندن إلا أن نفقات معيشة لوسي غدت عبئاً ثقيلاً على زوجها ، ومن هنا كان قرارها بضرورة نشر رسائلها من مصر لاستخدام ما تدرّه عليها حصيلة بيع الكتاب في تغطية نفقات إقامتها وترحالها ما بين الصعيد شتاء والقاهرة صيفاً .

ولم يكن يدور بخلدها حينما قصدت مصر للاستشفاء أنها قد تضطر إلى احتراف الكتابة مهنة بعد ما أمضت حياتها أدبية هاوية ومترجمة بارعة عن الفرنسية والألمانية .

كذلك تصدّت لوسي لتفنيد بعض الحقائق التي وردت على لسان هارييت مارتينو مما خالته مجاناً للصواب . والحق إنها اعترفت بأن كتاباتها جذابة رائعة غير أنها عابتها بقلّة تفهمها للناس وبقلّة اهتمامها بأن تعرفهم حق المعرفة ، إذ تدور في خلدتها المشاعر نفسها التي يحسّها معظم

(١١٥) تقصد عيد أوبت «عيد الخصب» حيث كان ينتقل ثالوث الكرنك آمون ومُون وخونسو من بيته بمعابد الكرنك إلى حريمه بمعبد الأقصر فتوضع الفوارب المقدسة للآلهة الثلاث فوق قارب كبير يجره قارب آخر يعتليه الملك ، وتصاحب الموكب على الشاطئ الشرقي للنيل احتفالات مثل تلك التي نشاهدها اليوم في الموالد . وعند وصول الموكب إلى معبد الأقصر تُنقل الفوارب المقدسة إلى داخل المعبد لتأدية الطقوس اللازمة لزواج إلهي يرمز في أغلب النظم إلى عودة الخصب إلى الأرض بعد فيضان النيل .

الإنجليز في مصر من أن اختلاف الطباع يشكل هوّة لا سبيل إلى اجتيازها بين الشعبين ، في حين تؤكد لوسي تشابه مشاعر الشعبين الإنجليزي والمصري ، وتحمل على مواطنها قائلة : « الغريب أن كل كتب الرحلات القديمة التي قرأتها حين تعرض لشعوب دول غريبة عنها تدّكرهم دون استعلاء وبأسلوب أشد رفقا مما تدّكرهم به كتب الرحلات الحديثة . أثّرانا قد بلغنا اليوم من المدنية حداً يفوق ما كنا عليه منذ مائة عام حتى تبدو الشعوب المتخلّفة دمي فحسب في أيدي غيرهم لا مخلوقات بشرية ؟ » . وتعجب من التعصب الأعمى للأنسة مارتينو ضد الأقباط إذ هو يثير السخرية عندما يُوأكّن بتوقيعها الشديد الصائب « لذلك الراقد في فيله » ، كما أنها تندّد بهجومها على الحريم وتشبيه دورهن ببيوت الدعارة ، وإذا كانت لوسي قد اعترفت بأنها لم تشهد بيوت الحريم فإنها تؤكد أن الأنسة هارييت لم يقع بصرها هي الأخرى على بيوت حريم ما . وتذهب إلى حد لفت أنظار الأوربيين إلى أن للنساء في مصر أن يقاضين أزواجهن في المحاكم للمطالبة بنفقاتهن الشرعية أو لطلب الطلاق إن كان ثمة خلاف بينهما وبين الرجال . كما تذهب إلى أن الأغلب في تعدد الزوجات يرجع إلى رغبة الرجل في رعاية أرملة أخيه المتوفى وأبنائها ، وترى أن الفسق المتفشّي بين الرجال في مصر شبيه بالفسق بين رجال أوروبا ، فالرجال كلهم في نظرها سواسية ، وكلهم إلى آدم ينتسبون . وانبرت لوسي تنفّد كل ما يشاع عن فجور بين الحريم وعدّت ذلك كله باطلاً ليس له ظل من حقيقة ، إلى أن تورد حديثاً كان بين إنجليزي وتركّي متمصّر شوّه فيه الإنجليزي صورة ما يدور في الحريم ، فردّ عليه التركي الوقور متسانلاً : « ناشدتك أن تخبرني أنت الشاب اليافع كم عدد النساء اللاتي خالطتهن في حياتك ؟ وإذا عجز الإنجليزي عن إحصاء عددهن ، ردّ التركي قائلاً : حسناً يا بنيّ إنني رجل مُسنّ تزوجت حين كنت في الثانية عشرة من عمري ، وقد ماتت أربع زوجات لي وأنا اليوم أعيش مع زوجات ثلاث في منزلي تظللنا حياة هائلة . ترى أين هذا من كل من خالطت أنت من نساء حتى الآن ؟ .

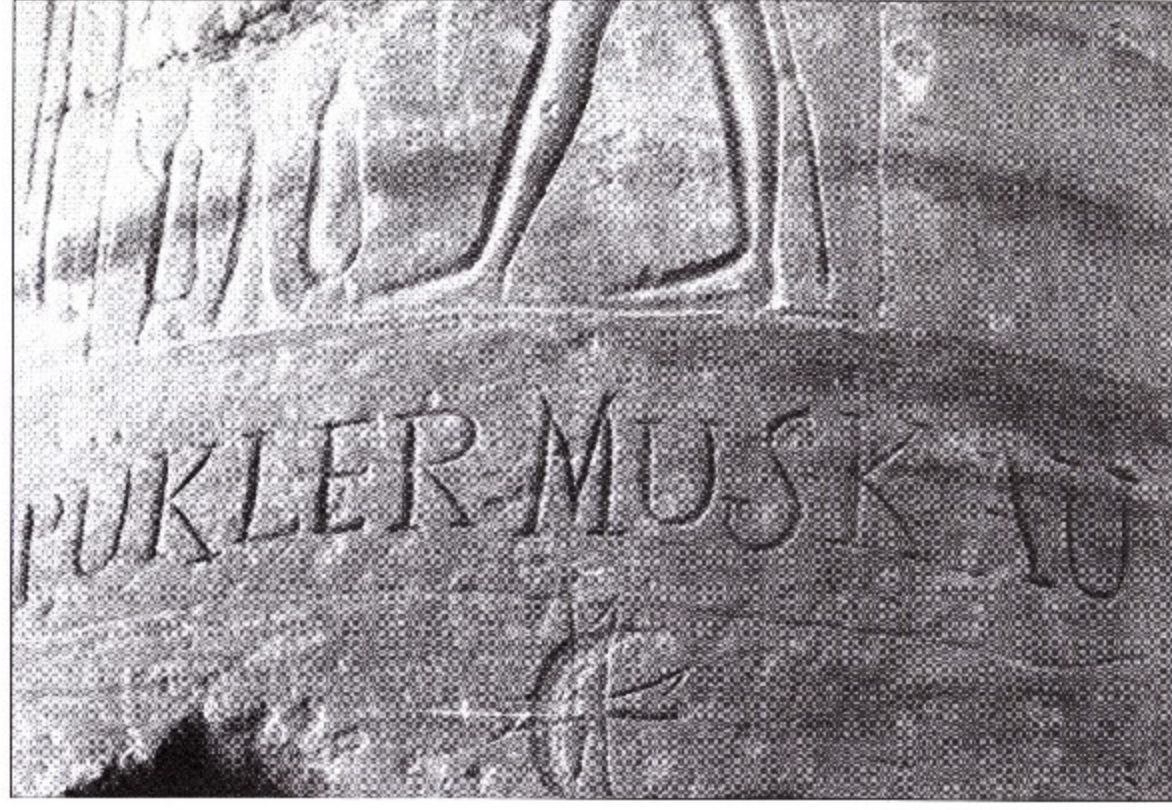
وكم أحسّت لوسي بالأسى حين لم تجد مصوراً يصور مسجدها القديم الأثير الذي ألفته وقد بدأ يتداعى بينما تنبثق من وسطه ثلاث نخلات ، ولو تسنّى لها ذلك لاحتفظت بسجل حافل بتصاوير بديعة لعماير هي للأسف الشديد في سبيلها إلى الزوال : « فالحي القبطي القديم بالقاهرة على وشك الاندثار بينما ترتفع بسرعة عجيبة المباني الفرنسية التي لا تروقني ومثلها الدار التي أسكنها ، على حين أنه في مثل هذا المناخ ليس ثمة ما هو أفضل من صحن الدار العربية بمصاطبها وناפורاتها » . وتستجد لوسي بزوجها أن يبعث لها بمن يملك التأثير عليه من الفنانين كي يسجّل للتاريخ مشاهد بديعة نادرة لا حصر لها<sup>(١١٦)</sup> . فليست هنالك كلمات قادرة مهما بلغت فصاحتها على التعبير عن الجمال الجدير بالتصوير في القاهرة أو عن روعة أجساد أهل الصعيد وخاصة أهل النوبة الذين تبلغ نشوتها ذروتها حين تقع عينها على وسامة أحدهم امرأة كان أم رجلاً .

وتحسّ لوسي ما يحدثه المارة من جلبة في شوارع القاهرة : « غير أنه ما يكاد جمعهم يلتقي في المقهى حتى تجدهم أهدأ مخلوقات الله ، حيث لا يتحدث في الوقت الواحد إلا رجل واحد يستمع الآخرون له دون مقاطعة . وهكذا تجد أن عشرة من المصريين لا تصدر عنهم الجلبة التي تصدر عن ثلاثة من الأوربيين » .

الحق أن هذه السيدة كانت - كما قال زوجها - مولعة بطباع العرب ، ولقد بذلت من الجهد كي ترى وتعرف المزيد عن حياتهم الأسرية ما لم يبذله أي أوربي عاش هنا سنوات . وهي تعزو نجاحها

(١١٦) كان ثمة مصوّر أوربي يعيش بالأقصر وقتذاك يدعى أنطونيو بياتو يضمّ له فصل التصوير الفوتوغرافي في نهاية هذا الكتاب صورتين [ يقطن بيتاً متواضعا إلى الشمال من معبد الأقصر ، التقط فيما بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٨٠ العديد من الصور الرائعة غير المسبوقه للمعابد والآثار المصرية باع الكثير منها للرحالة والسائحين الوافدين على الأقصر . وقد اقتنى معهد جامعة شيكاغو للآثار بالأقصر بأخرة مجموعة ضخمة غير معروفة من قبل لسلبات أفلام المصور بياتو . ومن بين هذه السلبات صورة نادرة لـ «بيت فرنسا» أثناء الفترة التي أقامت به لوسي .





لوحة (٢٠٧)

النقش المعيب الذي حفره الأمير بوكليروسكو مسجلاً اسمه مقروناً بوسام الصليب الحديدي على عمود بمعبد رمسيس الثاني الجنازي بطيبة. وعندما شاهدت لوسي نقشا آخر لنفس الأمير بمعبد أبي سمبل كتبت قائلة: في إحدى رسائلها: «كم وددت لو أن أحد صفعه نظير إنتهاكه حرمة المعبد».



لوحة (٢٠٨)

«بيت فرنسا» الذي كانت تقيم فيه لوسي دف جوردون، وهو البيت الأبيض المربع على يسار السارية. تصوير بياتو.

في معرفة الكثير من العرب إلى أن الإنسان العربي إذا أحس أن هناك من يهتم به بادر فبادله اهتماماً أكثر. وهكذا كان الإنسان المصري هو همها الأكبر، ومع هذا فإنها قد خصت آثار مصر القديمة بلقطة ذكية تبيّن في قولها: «أظن أنه قد بات من نافلة القول الآن الخوض في الحديث عن الآثار القديمة بعد أن كُتب عنها كل ما يمكن أن يكتب. على أن معبد فيله قد جاوز في عظّمته كل تصوراتي، فلا عجب إذن إذا جاءت أساطير العرب عن قصر أنس الوجود مترعة بالرومانسية. وإن ما يثير حنقي حقاً ضد الأوربيين هو نزوعهم إلى تسجيل أسمائهم بجانب النقوش القديمة البديعة. ولعل أسوأ ما صادفت هو فعلة الأمير بوكليروسكو الذي حفر اسمه مقروناً بوسام الصليب الحديدي على الصدر العاري للعملاق الحزين الرابض أمام معبد أبي سمبل وهو ما أعدّه تدينسا معيباً، وكم وددت لو أن أحداً صفعه نظير إنتهاكه حرمة المعبد» (لوحة ٢٠٧، ٢٠٨).

وتسجل لوسي روح التسامح التي تلمسها في كل مكان حيث يسود الوئام التام بين المسلمين والأقباط. وتلاحظ في دهشة مشاركة المسلمين للمسيحيين في احتفالات القديسين من أمثال القديس مارجرس وتبركهم بالأماكن التي حلت فيها «ستنا مريم» و«سيدنا عيسى»، وتسأل بعض التقاليد الفرعونية إلى عدد من طقوس المسيحية والإسلام في بعض المناطق. وتحدثنا أنها عرفت أن ثمة ولياً في الدنيا إليه زمام التماسيح، كما كانت تُطعم وهي في مركبها - على غرار هيرودوت - الطيور التي كانت تحطّ عليه لالتقاط فئات الخبز، تلك الطيور التي كانت تنقر بمنافيرها جبال القوارب التي يأبى ملاحوها أن يطعموها، ولا حظت أن القطط التي كانت معبودة أولى في برباسا [الزقازيق حالياً] بوصفها قاتلة الأفاعي وحامية الدور تحظى برعاية كبيرة حتى إن الدولة كانت تتولي إطعامها على نفقتها!، وترى أن القديس مارجرس الذي يختلف إلى كنيسة المسيحيون والمسلمون على السواء ليس إلا إلهاً فرعونياً قديماً، كما تذهب إلى أن الحفلات التي تقام بمناسبة مولد السيد البدوي في طنطا ليست إلا صورة من أعياد أوزيريس الصاخبة. ولا حظت قيام الفلاحات المصريات بتقديم القرбан إلى النيل في عيد وفائه كما كان يحدث في عهد الفراعنة، وأنهن يَطْفُنّ حول التماثيل القديمة طلباً للإنجاب، وأن حفلات الولادة ومراسم الدفن تستمد طابعها من التقاليد الفرعونية القديمة.

لقد أدركت لوسي بعد اختلاطها الوثيق بالمصريين أن الإسلام قد طبع المسلمين بطابع شاعري حتى اكتسبه بعض منهم ممن لم يكن متأصلاً فيه هذا الطابع، بل إنها غانت فذهبت إلى تصور أن «دون كيخوته» لا بد وأن يكون من سلالة عربية!

وتؤمن لوسي بأن الإيمان بالله هو القدر المشترك الذي يقوم جسراً للتفاهم بين الشرق والغرب، فما أبعد الغرب المسيحي عن الشرق المسلم اختلاف العقيدتين بل متأثر به الغرب من التراث اليوناني والروماني فحسب.

وهي تقدّر شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم كل التقدير وتعدّه نموذجاً يُحتذى فهو وإن كان يستوحى الله فيما يفعل إلا أنه كان إنساناً مثالياً بمعنى الكلمة، فهو يعبد الله وفي الوقت نفسه يجاهد في الحياة ويشارك الناس دنياهم ويتزوج كما يتزوجون. وكان تفهمها لروح الإسلام هي التي أثارته ضد الاتجاه الأوروبي التبشيري الذي يرمي إلى تنصير المسلمين، وقد عدت ذلك السلوك سخفاً بل وخطأً جسيماً، إذ هي ترى أن العقيدة الإسلامية بسيطة ومنطقية لا يقوم عليها كهنة وهو هدف مقصود بلا جدال. كما وجدت في العبادات حفزاً للنشاط الإنساني وقضاء على



خمول الكسالى ، وأشادت بما في الدين من فرض للاغتسال والوضوء ، وعدت الصلاة رياضة مثلى .

ولاشك أن السيدة لوسي داف جوردون كانت شديدة الاهتمام بالمسائل العقائدية ، وأنها لم تكن بالقارئة العجلة ، فقد ألقت نظرة دقيقة فاحصة على نصوص التوراة ، وأدركت ما ينطوي عليه سفر اللاويين وسفر التثنية من ظلال وثنية ، وهو الأمر الذي لم تجد له أثرا في القرآن الكريم . وإذا كانت قد اتجهت إلى وصف قدماء اليهود بالشعب القذر الذي اضطر أنبياءه إلى ملاحظته بقواعد التحليل والتحريم ، فقد حرصت على ألا تفصح عن هذا الاتجاه إلا إلى زوجها في رسالة ناشدته فيها ألا يذيع ما بها من آراء حتى لا يحرقوها كما أحرقوا غيرها ، وإلا لم تجد ملاذا من ذلك . . . . إلا أن تعتنق الإسلام .



روائية شهيرة يجتذبها  
علم الآثار المصرية

**أميليا إدواردز**

١٨٩٢-١٨٣١





وهذه روائية شهيرة ألّفت أكثر من عشر روايات أذاعت صيتها بالإضافة إلى كتيابين عن الشعراء القدامى والمحدثين ، لم تكد تزور مصر عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤ حتى وقعت في أسر علم المصريات فعكفت على دراسته ، بل لقد أجرت عدة حفائر كما بذلت جهوداً جبارة لجمع دعم مالي للإنفاق على الحفائر في مصر خلال عام ١٨٨٢ ، وحاضرت عن مصر في الولايات المتحدة ، ونشرت محاضراتها عن « الفراعنة والفلاحين والمكتشفين » عام ١٨٩١ . وقد وهبت مكتبتها الأركيولوجية إلى « يونيفرستي كوليدج » بلندن كما أوصت بجزء من ثروتها لإنشاء كرسي لعلم المصريات بها . على أن أهم ما تركته لنا في مجال موضوعنا هو كتابها « ألف ميل صعوداً في النيل »<sup>(١١٨)</sup> ، وهو عمل ضخيم في مجلدين أعدّه من بين أجمل المؤلفات التي طالعته عن وصف مصر بأفلام رحالة القرن التاسع عشر . وإذا كنت لا أفتأ أسترّجعه فما ذلك إلا لأرشف من عذوبة أسلوب الكاتبة الشاعري الغنائي الذي لا تعوزه في الوقت نفسه دقة العالم ، فضلاً عن المداعبات الساخرة خفيفة الظل غير الجارحة التي تتخلل سطره بين الفينة والفينة . وقد تناولت في كتابها القاهرة بفنادقها وأسواقها وأهراماتها ومساجدها وبواباتها وموكب المحمل ، ثم انتقلت إلى الرحلة عبر النيل لزيارة جميع المعالم الأثرية بدءاً بالبدرشين وسقارة ومنف ومروراً بالمنيا وأسيوط ودندرة وطيبة والأقصر وأسوان وفيله والنوبة وأبي سمبل حيث شاركت في إزاحة الرمال عن مقصورة منحوتة في الصخر . وقد حرصت خلال عرضها لما كان يصادفها من عادات الشعب وآثاره على الصدق والدقة دون إقحام مشاعرها مسبغة على وصفها أسلوبها الروائي الجذاب وإن تردّت مع ذلك في بعض الأخطاء الهيئية . ولست هنا بطبيعة الحال بصدد نقل هذه الأوصاف الأركيولوجية وسأكتفي بانتقاء بعض الفقرات الجذابة التي تعكس أسلوب الكاتبة وروحها .

استهلّت المؤلفة كتابها بالإشارة إلى الانطباع الأول لجان چاك أمبير عن مصر المعاصرة : « بأن نزهة الوافدين إليها تنحصر في التجول على ظهور الحمير والإبحار على المركب والجوس خلال الأطلال » ، ولكنها تضيف إلى ذلك أنه إذا تزوّد المرء بسرج إنجليزي وأقام داخل « ذهبية » على النيل باتت نزهته أشدّ بهجة ، كما أنه إذا درس تاريخ مصر غدت رحلته أوفى إمتاعاً . غير أنها تكشف عن أن المؤلفات المنشورة عن هذا الموضوع غير متجانسة برغم وفرتها ، كما تكشف سرّ ذلك في أن علماء الآثار المصرية المنكبين على دراساتهم هم عادة قليلو التنقل والترحال ، على

Amelia Edwards: A (١١٨)  
Thousand Miles Up the  
Nile. Leipzig, B.  
Tauchnitz, 1878.



حين يفتقر الرحالة برغم دقة ملاحظاتهم إلى الدراية بحقيقة المواقع التي يصفونها وتاريخها . ولهذا رأيت أن تعدّ كتاباً عن النيل يفي بهذين الشرطين . وميزة كتابها أنه حوى الأوصاف التي سجلتها في نفس مواقعها ، كما أن كل عجالة تخطيطية ظهرت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد رسمتها أيضاً في الموقع حرصاً على الدقة والأمانة .

وقد عادت من رحلتها إلى مصر بانطباع بأن مصر وأهلها لم يتغيروا كثيراً عما كانوا عليه قديماً : « فحياة الفلاح العصري وتكوينه الجسماني لا يختلفان عما كانا عليه في العصور القديمة : فهي هي ذا الفلاح المنقوش في التصاویر الجدارية بالمقابر يبدو بنفس الأكتاف العريضة والأطراف القوية رغم نحولها والشفاه المكتنزة والبشرة السمراء . وها هو ذا الفلاح المعاصر يرتدي نفس المنزر ويستخدم نفس الشادوف ونفس المحراث ، ويطهو طعامه بنفس الأسلوب ويتناول بأصابعه من نفس الصحن الذي كان يستخدمه أسلافه منذ ستة آلاف عام . كذلك لاحظت بقاء التقاليد الاجتماعية لعلى القوم في الأقاليم ، فالماء يُصبّ على الأيدي قبل تناول العشاء من نفس الأبريق ليستقر في نفس الطست الذي نشاهده مرسوماً في مشاهد اللائم بطيبة . وإذا كانت زهرة اللوتس قد اختفت فما زال العرف يقضي بتقديم باقة زهور إلى الضيف قبل أن يتخذ مكانه إلى مائدة الطعام ، كما لا تزال عادة التصدق برأس الخروف المذبوح قبل المأدبة إلى الفقراء سارية ، وما يزال الموسيقيون يتخذون مجلسهم في الطرف الأدنى من القاعة ، والمغنون يصفقون بأيديهم في مصاحبة غنائهم . وما تزال أواني الماء هي نفس الأواني الفخارية التي تُصنع في نفس المدينة على عهد خوفو وخفرع ، وتُدسّ في فوهاتنا نفس أوراق الشجر والزهور كسابق العهد .

وتشهد أميليا إدواردز : « أن طبق الخيار المحشو باللحم المفروم الذي كان شائعاً في الأيام الخوالي مازال شهيّاً في عام ١٨٧٤ . كما لا يزال الصبية في بلاد النوبة يتحلّون بخصلة جانبية من الشعر على نسق رمسيس صبيّاً [أغلب ظني أنها تقصد على نسق صورة الإله حورس الطفل] ، كما تلفّ الصبايا حول خصورهن نفس الزنار الذي كانت تتمنطق به أميرات عهد تحتمس الأول . ولا يسير الشيخ إلا قابضاً على عصاه على غرار تمثال شيخ البلد تجسيداً لما يتحلّى به من قوة ، وتضفر الفتاة النوبية شعرها في العديد من الجداول المتدلّية ، وتتخذ المركب النيلية المخصّصة لنزهة المدير أو المحافظ وكذلك الذهبيات التي يستأجرها الرحالة الأوروبيون نفس شكل السفن الشراعية ذات المجاذيف المصوّرة على جذران مقابر وادي الملوك » .

على أنها تنصح السائح الذي يود الاستمتاع بانطباع أوليّ سحري لا يُنسى عن الحياة الشرقية خارج الدور بأن يبدأ جولته في أحد الأسواق الوطنية دون أن يتابع أو يرسم أو يجمع المعلومات ، إذ يكفي أن يتأمل المشهد تلو المشهد بما ينطوي عليه كل منهما من أضواء وظلال وألوان وأزياء وعناصر معمارية . فكل واجهة حانوت وكل ركن في الطريق وكل مجموعة من الأهالي المعمّين تشكّل لوحة متناسقة ، مثل التركي الذي يتخذ مجلسه إلى مائدة بيع الفطائر في مدخل منحوت لبوابة أندلسية الطراز ، والمكاري في رفقة الأتان ذات السرج المزركش بألوان تظفر منها البهجة في انتظار الزبائن ، والشحاذ الغارق في سباته فوق درج المسجد ، والمرأة المنحجّة تملاً جرتّها من السبيل العام . كل هؤلاء يبدون جميعاً في عين السائح وكأنهم قد احتلوا أماكنهم خصيصاً كي يصوّروهم . وتكتظّ طرقات المدينة بالناس من كل حذب وصوب يتدفقون وينحسرون بلا انقطاع ،

لا يكفّون عن الجلبة ، ولا يستقرّون كالموج المتعدّد الألوان ، منهم الشرقيون ومنهم الأوروبيون ، سائرين أو ممتطين الخيل أو راكبين العربات . وهنا التراجمة الشوام بسرّويلهم المنتفخة الفضفاضة وستراتهم المطرزة ، وهناك الفلاحون المصريون الحفاة في حلل زرقاء مهلهلة ولبدات من الجوخ . وهنا اليونانيون الذين يثيرون الضحك بجلّاباتهم البيضاء المشاة وكأنهم أعمدة أسطوانية تتحرك على أقدام . وثمة فريق من العجم بقلنسواتهم العالية القائمة النسيج كتيجان الأساقفة ، وآخر من البدو داكني البشرة في أرديتهم المتهدّلة العاجية اللون تتخللها خطوط بنية عريضة . وهناك الإنجليز بقبعاتهم الخوص وبنطلوناتهم القصيرة الواسعة المزمومة عند الركبة تتدلّى سيقانهم الطويلة حول الحمير التي تكاد لا يظهر لها أثر تحتهم ، ونساء مصريات من الطبقة الدنيا محجّبات ببراقع سوداء لا يبدو منها غير عيونهن مكتسيات بحبرات قطنية ذات خطوط زرقاء وسوداء ، ودرّايش في سترات مرقّعة تسدل شعورهم المجدولة من تحت طرايرهم العجيبة ، والأحباش بلون بشرتهم الأزرق الداكن وسيقانهم الهزيلة المقوّسة وكأنها قضبان سياج أبنوسية نحيلة ، والقسس الأرمن في عبااتهم السوداء الطويلة وقلنسواتهم العالية المربعة على غرار قلنسوة بورشيا بطة مسرحية شكسبير الخالدة « تاجر البندقية » وقد تسرّبت بزيّ رجال القانون ، والأطيان الجليلية لعرب الجزائر الذين يكسوهم برؤس أبيض من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم ، وفرسان الإنكشارية بسيوفهم المصلصلة وستراتهم المقصّبة ، والباعة والمتسوّلون والجنود والنوتية والعمال كل في زيّه المتنوع ، وكلّ بلون بشرة مختلف يتراوح بين الأبيض والأسود وبين الأسمر المائل للصفرة والنحاسي وبين البرونزي القاتم والأسود المشوب بالزرقة .

وكان أشدّ ما لفت نظرها تلك الأسواق التي تحتل فيها كل سلعة منطقة قائمة بذاتها حيث تجتاز بوابة حجرية قديمة أو تدور مع زقاق ضيق لتجد نفسها وسط مستعمرة صانعي السروج المنكفئين على سروجهم يخيطنون ويدقّون . ولا تكاد تخطو بضع خطوات حتى ترى بين واجهات الحوانيت أطقم رؤوس الخيل المزيّنة بالشرابات والسروج المحدثّة من مختلف الأنواع والألوان معلّقة ، فهنا سروج خيول السيدات وهناك سروج خيول كبار رجال الدولة ، وسروج الحمير والسروج الحربية والسروج المغشّاة بالجلد الأحمر تفرشها أغطية من المخمل القرمزي والبنفسجي أو القماش الأحمر الداكن أو الأرجواني ، والسروج المطرزة بالقصب والفضة والمزوّقة بأزرار نحاسية أو المزركشة بالشرائط .

ولا تكاد تستدير نحو زقاق آخر حتى تقع على سوق الأحذية فتجد نفسها سائرة وسط طرق تكتظ بالمراكيب المغربية الحمراء المصنوعة في مصر والصفراء المصنوعة في تونس ، والنعال المختلفة أنواعها ، منها ذو الطرف المدبّب والمدبّب الملتوي والمفلطح . وإلى جوار الأحذية السميكة الكعوب أحذية خفيفة صفراء بلا كعوب ، وأحذية الأطفال المزيّنة بالشرائط ، والأحذية البنية المغربية المخصّصة لسوأس الخيل ، والأحذية المخملية والمطرزة بالقصب والخرز واللالئ للنساء الحريم الموسرات . هذه الأحذية جميعاً معروضة للبيع بأسعار تتراوح بين خمسة شلنات وخمسة جنيهات .

ثم يمتد أمامها سوق السجاد وكأنه بغير حدود لأنه يضم شبكة من الأزقة الضيقة إلى يمين الموسكي . وتزخر الدور في هذه الأزقة بالمشربيات القديمة والأبواب العربية . . وثمة ميدان صغير



افترشته الأبسطة العجمية والشامية وسجاجيد الصلاة التركية وأخراج [جمع خُرج] السروج الدمشقية، بينما يستلقي الباعة وسط سلعهم يدخنون أراجيلهم . وفي ركن من الميدان «نادل» مقهى عجوز يذرع المكان جيتة وذهابا وهو يؤدي مهنته المتواضعة وقد نصب موقده الصغير وصف رفوفه إلى جوار مدخل أحد الخانات المتهمة التي تكتسي جذراتها بزخارف الأرابيسك المحفورة على الحجر . وتُبهّرنا سجاجيد تونس المخططة وأبسطة الجزائر ذات اللونين الرمادي والأزرق أو الرمادي والأحمر ، وأبسطة أزمر خشنة الوبر ، وسجاد تركيا ذو الألوان الزرقاء والخضراء والحمراء الرقيقة، هذا فضلا عن نماذج السجاد الفارسي الشهير المتناغم الزخارف . وتتابع أميليا خطواتها دون كلل عبر الطرق التي لا يتطرق إليها إلا بصيص من ضوء النهار بينما تتألق بالألوان الزاهية للمعروضات، وتكتظ بالمارة والعابرين الذين يوحون إلى المشاهد الأوربي بالممثلين المشتركين في مسرحيات عيد الميلاد المقتبسة عن قصص ألف ليلة وليلة .

ولا ترى سلعا معروضة في سوق الصاغة الذي تضيق أزقته عن غيرها حتى لا تكاد تسع لشخصين يمرّان جنباً إلى جنب في نفس الوقت، كما تَصْمُرُ محالّه وكأن كلا منها صوان، فلا يتجاوز عرضه متراً . وقد أعدّ كل صوان منها بصفوف من الأدراج الصغيرة والكوى التي تُخترن فيها الحليّ . وتتصب أمام الخانات مصطبة حجرية مغطاة بالحصى تُستخدم مقعداً ومنضدة في آن معا، فيجلس المشتري على طرفها على حين يترجّع التاجر القرفصاء في الداخل، وبذلك يستطيع استخراج الدرّج وراء الدرّج دون حاجة إلى النهوض . وتشمل الحليّ المصنوعة في القاهرة العقود وأقراط الأذن والأساور والخلاخيل والقلائد التي تتدلّى منها النقود أو الحليّات الهلالية والتماثيل المشغولة بتقنة التفرّيع أو الكبس والطرق، ومع أن الصياغة قد تكون أحيانا فجّة إلا أنها تنطوي على تصميمات عريقة متوارثة . وتشيد الكاتبة بلطف التجار وكياستهم وحلمهم وصبرهم الذي لا نهاية له، فقد يحدث أن يقلّب أحدهم ما يحتويه الخانات من بضاعة ويفحص كل معروضاته ويغادره دون أن يشتري شيئا مرة ومرات ، ومع ذلك يقابل دائما بالترحاب ويُشيع بالبسمات .

ولا تفوتها الأسواق المتخصصة بالقاهرة مثل سوق الحلوى وسوق الخردوات وسوق الدخان وسوق السلاح وسوق النحاسين وسوق المغاربة حيث تباع البرانس والقلنسوات الفاسية ، بل والأسواق الرائجة لبيع البضائع الإنجليزية والفرنسية التي تُصنع خصيصا للشرق كنسيج المسلمين الفج المطبوعة عليه أشكال جان سوداء صغيرة تثب فوق أرضية صفراء يُعدّ خصيصا لثياب الأطفال في مصر .

ولم تكن أسواق القاهرة وحدها هي التي أثارها فقد اجتذبها عدد من المساجد والبوابات الإسلامية العريقة والكنائس القبطية القديمة وأضرحة الخلفاء وآثار هليوبوليس والأهرام وأبو الهول . وقد كان عليها أن تقصد إلى مرفأ بولاق كي تستأجر الذهبية التي ستقطع بها رحلتها عبر النيل . والذهبيّات كما وصفتها سفن مشيدة كلها لوفق تصميم واحد لا يختلف ، على العكس من الدور، فهي تتشابه إحداها مع الأخرى كما يتشابه المحار ، ولا تختلف أي منها إلا من حيث حجمها أو من حيث نظافتها أو قذارتها . كذلك تغيّر الذهبيات أماكن رسوها على العكس من الدور ، فقد ترسو الذهبية اليوم على الضفة الشرقية ثم ترسو في الغد على الضفة الغربية أو تختفي وسط العشرات من زميلاتهن على مبعدة ميل من موقعها بالأمس . وتضيق الذهبيات

الصغيرة عادة براكبيها، ولا توفر لهم الراحة أو الأمان لاسيما حين تهبّ الرياح الشديدة . أما الذهبيات متوسطة الحجم [التي عادة ما تستخدم أثناء الصيف في نقل البضائع] فتفتقر في أغلب الأحيان إلى النظافة، بينما تضم الذهبيات الكبيرة التي يصل طولها إلى ثلاثين مترا من ثمانية إلى عشرة كبائن فضلا عن قاعة طعام تضم بيانو وغرفة جلوس ، وهي عادة باهظة الإيجار .

وقد كانت النظرة الأولى التي ألقتها إلى الأهرام هي تلك النظرة التي يلقيها الرحالة عادة عليها من نافذة القطار القادم من الإسكندرية والتي لا تترك في النفس انطباعا مؤثرا . ولكنها لا تكاد تجتاز الصحراء المتاخمة للقاهرة صاعدة المنحدر لتصل إلى الهضبة الصخرية التي تستقر فوقها الأهرام حتى يتراءى لها الهرم الأكبر بكتلته الضخمة الرهيبة وجلاله المهيب محوّا فوق الرؤوس فتحسّ : « برهة فجائية تملك عليها مشاعرها إذ يوصد الهرم صفحة السماء والأفق ، وكما يحول دون رؤية بقية الأهرام يحول دون الإحساس بغير مشاعر الرهبة والإعجاب » . وتضيف قائلة : « ويفاجئنا الهرم الأكبر بأنه على غير الصورة التي عرفناها عنه منذ علمونا في الصبّا أن الكتل الخارجية التي كانت تكسوه قد نُزعت عنه منذ خمسمائة عام لتشييد المساجد والقصور [وهذه مقولة ظالمة لم تحدث ، وكل ما في الأمر أن سقطت بعض الأحجار بفعل الزمن فاستخدمت في بعض العصور] . ولقد باغتنا هذا الدرج الصخري العملاق بروعته ، ولم يبد الهرم وكأنه أثر عدا عليه الدهر بل وكأنه بناء شامخ انصرف عنه العاملون فيه ليأخذوا قسطا من الراحة ثم يعودوا مواصلة العمل في صباح اليوم التالي ، كما كان لون الهرم هو الآخر مفاجأة مذهلة ، فقليل هم الأوربيون الذين يعرفون اللون الأصفر المغبرّ الذي يغشي الحجر الجيري المصري بعد تعرّضه لوهج السماء المصرية على مدى الزمن ، وإذا بهذه الأهرام تبدو تحت أضواء معينة وكأنها أكوام هائلة من سبائك الذهب » .

وقد استطاعت بمساعدة الأدلاء الأعراب تسلّق الهرم الأكبر . ولم تكن هذه بالمهمة اليسيرة لولا عون أولئك المواطنين البالغين الرقة الذين يحفزون همّتها هي ورفقاءها لانتزاعهم من صخرة إلى أخرى بتريد عبارات مشجّعة بمختلف اللغات الأوربية . فكان منهم من يقول بالإيطالية « صبرا يا سنوره » ، وبالفرنسية « تقدّمي رويدا رويدا » ، وبالإنجليزية « كل شيء على مايرام » . لقد قطعنا نصف الطريق « أو « بقيت ست درجات » ، وبالألمانية « لم يبق إلا نصف الطريق يا فراولين » ، وحين استمعت إلى أحدهم يقول لها بالإيطالية « ها هي ذي القمة » . من يتقدم بحرص يتقدم بعيدا « التفتت إليه قائلة : « كان يجدر بك لو أضفت النصف الآخر من هذه الحكمة الإيطالية أيها الصديق ، وهو أن من يندفع بلا تبصّر ينطلق إلى حتفه » ، فإذا بالبهجة تغمر الأدلاء بهذه الحكمة التي لم يكونوا قد استمعوا إليها من قبل ، وإذا بهم يردّدونها وقد وعثها ذاكرتهم اليقظة فأثاروا دهشتها . وحين اقترحت أن ينحتوا درجا يسهل على النساء تسلّقه إذا بها تستمع إلى إجابة تبين فيها صراحة هؤلاء القوم وسرعة بديهتهم إذ كشفوا لها عن حمق ذلك ، فلو أنهم صنعوا درجا أمنا لأمكن للسائحات تسلّقه وحدهن دون عون من دليل وهو ما يفقدنهم مورد رزقهم . وحينما بلغوا قمة الهرم أدهشها الأدلاء حين عرضوا عليها أن ينشدوا أغنية «يانكي دودل» الشعبية الأمريكية ، ولكن ما كادوا يكتشفون أن مجموعة السائحين هي مجموعة إنجليزية حتى انطلقوا في ترديد نشيد «حفظ الله الملكة» .



وقد كان من المنطقي أن تعرج في اليوم التالي بعد زيارة الهرم على مسجد السلطان حسن وهو أحد العماائر الإسلامية والتاريخية العظمى ، استخدمت في تشييده أحجار من الكسوة الخارجية للهرم الأكبر [كما تزعم] . وتجد الكاتبة أن هذا المسجد الذي بناه الناصر حسن هو أجمل مساجد القاهرة بل لعله أجمل مساجد الإسلام على الإطلاق ، ولا ترجع عظمته إلى ضخامة حجمه أو إلى روعة ما استخدم في تشييده من رخام ، فحجمه لا يصل إلى حجم المسجد الأموي بدمشق ، كما لا يبلغ رخامه مستوى رخام مسجد أيا صوفيا في إستنبول ، غير أن هذا المسجد بتصميمه ومقاييسه ورشايقته المهيبة العصرية على الوصف يتجاوز سائر المباني وجميع المساجد . ولقد تنبأت الكاتبة له أن سيغدو في القريب العاجل أحد الأطلال البديعة ، غير أن القدر ما لبث أن كشف عن خيبة نبؤتها ، مع أنها شهدت بداية الاهتمام بالمحافظة على هذا المسجد وإزالة بعض البيوت المحيطة به حتى أصبح الطريق المغطى إلى المسجد يجتاز مساحة مكشوفة كان الإعداد يجري لتحويلها إلى ميدان عام . وقد كانت تشهد كل يوم ستة من العمال يحملون الجمال بالأنقاض في كسل وتراخ دعاها إلى تقدير أنهم إذا ظلوا مثابرين على عملهم وظل وزير الأشغال يدفع أجورهم بانتظام فلن ينتهوا من تمهيد الأرض قبل ثماني سنوات أو عشرة . وقد لاحظت بعد أن جهدت في صعود درجات المسجد المحتشدة بالمتسكعين المسترخين في بلادة وهم يشدون أنفاس الطباق شرخا طويلا في سبيله إلى الاتساع يكاد يحتل واجهة المبنى كلها بالقرب من المئذنة ، وبدا لها مثل الشروخ التي تحدثها هزات الزلازل ، وهالها ألا تكون الحكومة قد شرعت في رأب هذا الصدع حتى همس لها بعض الخباء بأن القاهرة على غرار إستنبول تنبثق فيها المباني الجديدة بسرعة فائقة بينما تعاني المباني القديمة مهما بلغ جلالها من إهمال يعرضها لاندثار ولا يترك منها غير كومة من الأنقاض . وذلك هو ما قادها إلى التفكير فيما سيؤول إليه هذا المبنى العظيم بعد مائة عام لو هوت قبته ومنارته<sup>(١١٩)</sup> وبات المسجد البديع أطلالا كئيبة وأخذت تساءل : « ترى هل سيخطر على بال علماء المستقبل أن يفحصوا الأحجار التي شُيد بها المسجد ، وإذا فعلوا فهل سيكون بوسعهم أن يستخرجوا من نقوشها الهيروغليفية تلك الأساطير المفقودة التي كانت تغطي سطح الهرم الأكبر ؟ فلا شك أن بناء هذا المسجد لم يضيعوا وقتهم وجهودهم في محو تلك الكتابات القديمة التي لم يكن هناك على سطح الأرض من يدرك كنهها بعد ، مكتفين بأن يطمروا السطح المنقوش للحجر الذي تكمن فيه صفحات نفيسة من تاريخ الأسر الحاكمة المصرية قبل خوفو وخفرع . وقد شهدت اجتلاب كتل الأحجار التي تقام بها المباني الجديدة في القاهرة - سواء قصور الخديوي أو المباني العامة أو الفيلات العصرية الأنيقة أو المقاهي - من طرة ، التي اقتطعت منها أحجار الأهرام منذ أكثر من ستة آلاف عام حيث شاهدهت ألواح ذات كتابات هيروغليفية وكهوبا اكتست جدرانها بالنقوش وسط المحاجر القديمة .

(١١٩) وقع زلزال ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ بعد مائة عام من وفاة الكاتبة وما يزال المسجد قائما دون أن تنال منه الهزة الأرضية .

وتشير الكاتبة إلى متحف بولاق للآثار بحماس شديد ، وتذكر أن الفضل فيما يضمه من تحف أثرية يعود إلى بُعد نظر الخديوي إسماعيل وإخلاص مارييت باشا . فباستثناء محمد علي الذي سمح بالكشف عن معبد دندرة لم يسبق أن اهتم أحد الولاة بالآركيولوجية المصرية . ولقد كان بوسع كل من يتوق إلى حياة تلك الأنقاض التي تعترض التربة المصرية أو تختفي تحت رمال الصحراء أن يلتقطها على هواه . ولم يكن هناك ما هو أيسر من الحصول على تصريح بالحفر لاقتناء « الأنتيكة » . وتعترف الكاتبة قائلة بأن هذا هو سبب ثراء متاحف الغرب بالآثار المصرية

وسبب وجود العديد من المجموعات الخاصة المتناثرة في أنحاء أوروبا . على أن إسماعيل باشا قد وضع نهاية لهذا النهب العالمي وبدأت مصر بذلك تشكل مجموعتها الخاصة بعد أن « اكتشف الخديوي بثاقب فكره في شخص السيد مارييت المسؤول المساعد عن الآثار الشرقية في متحف اللوفر أفضل مدير للمحافظة على الآثار القومية » .

وإذا كانت الكاتبة قد نعمت بفرصة أوسع مما نعم به غيرها في النفاذ إلى أعماق الحريم المصري وتأمله عن كتب ، فقد خرجت منه بانطباع مشوب بالأسى والشجن . فلقد تبين لها أن ما يشغل نساء القاهرة طوال نهارهن لا يتجاوز الاهتمام بأشغال التطريز ، وبيع بعض الآلات الموسيقية المصنوعة في جنيف ، والنرجيلات والسجائر والخلوى والجواهر والحلي وتبادل القيل والقال . وتحرص أميليا على أن تؤكد أنها لا تقصد نساء الأمراء والحكام والباشوات اللاتي يملأن مقاصير دار الأوبرا ليلا بل نساء الطبقة الوسطى العليا المحرومات من أية رياضة ذهنية أو بدنية ، وتذهب إلى أن الزمن ثقیل عليهن وأنهن لا يحفلن بما يدور حولهن كما تقبع على وجوههن على الدوام دلائل الملل .

وتثبت المؤلفة ما يتناقله الرحالة من شائعات تتهم الأقباط بالتجهّم المستمر والتعصب ضد المسيحيين الأجانب ، ولكنها تنفي رؤيتها لشيء من ذلك ، وتعترف بأنها وزملاء رحلتها سعدوا بالكثير من آيات المودة التي أحاطهم بها من التقوا بهم من الأقباط . وتنصح كل زائر لمصر ألا يفوته حضور قداس في كنيسة قبطية : « فهي المكان الوحيد الآن الذي يمكن أن تطرق أذنيه فيه آخر ما تداولته ألسن ذلك الجنس العريق الذي جعلتنا الصور الجدارية على ألفة بنشاطه ومتعه . ونحن نعلم أن ثمة تغييرا كبيرا طرأ على اللغة التي كان يتحدث بها رمسيس الأكبر والتي كتب بها پتاتور<sup>(١٢٠)</sup> ، كما نعلم أن اللغة القبطية المعاصرة تحمل بعض الشبه بلغة المصريين على عهد الفراعنة على نحو ما تحمل إنجليزية القرن التاسع عشر شبيها بإنجليزية القرن الرابع عشر . ومع ذلك فهي في جوهرها لسان مصر القديمة . وإنه لشيء مبهر حقا أن تسمع آخر الأصدا المتخلفه عن تلك اللغة على ألسنة السلالة غير المشكوك فيها لقدماء المصريين . ومن المحتمل أن تحلّ اللغة العربية محل اللغة القبطية في قداس الكنائس بعد حوالي خمسين عاما ، ومن ثم سنفتقد تقاليد نطقها [ يجري القداس الآن وبعد مائة عام من وفاة الكاتبة باللغة العربية طواعية واختيارا مع جزء بسيط يتردد باللغة القبطية ] . ويقال إن الأقباط يتحولون بسرعة إلى الإسلام ولعله عندما يحين مرور ألفي عام على مولد المسيح لن يكون ثمة أثر للقبط أو الأقباط في مصر »<sup>(١٢١)</sup> .

وقامت المؤلفة بوصف « بيت فرنسا » بالأقصر ، وقد شُيد من قوالب الطين المحروق وشُدّ عليه سقف من جذوع النخيل ، وقد أسند جانب منه إلى الجدار الجنوبي لمعبد الأقصر وأقيمت وجهيته مطلّة على واجهة المعبد . ورأت أن هذا البيت قد دخل التاريخ منذ عام ١٨٢٩ حين أقام فيه شمبوليون وروسيليني وعملا معا خلال وجودهما بطيبة ، وكانا يجتمعان بالليل لتبادل ثمار جهودهما التي أنجزها بالنهار . وعلى حين كان شمبوليون يعكف على نسخ ما قد يعينه على تحقيق قواعد اللغة المصرية ، كان روسيليني ينكبّ على الكلمات الجديدة التي يثري بها قاموسه . وفي هذا البيت أيضا أقام ضباط البحرية الذين أوفدتهم الحكومة الفرنسية عام ١٨٣١ لنقل المسلة التي تنتصب الآن في ميدان الكونكوردي بباريس ، كما قضت به ليدي داف جوردون مواسم الشتاء

(١٢٠) پتاتور : أديب شاعر مصري من القرن ١٣ ق . م ، سجل ملحمة معركة قادش لرمسيس الثاني .

(١٢١) يبلغ تعداد الأخوة الأقباط في مصر وقت كتابة هذه السطور في نهاية عام ١٩٩٧ وبعد مرور ألفي عام على مولد المسيح مايربو على سبعة ملايين نسمة وفقا لآخر إحصاء رسمي .



الأخيرة من حياتها لتكتب رسائلها الممتعة التي أدخلت بها البهجة على الجميع . غير أن الكاتبة لم تستطع الوصول إلى الغرف التي كانت تحتلها ليدي داف جوردون والشرقة التي كانت تأنس إليها نظرا لنداعي الدّرج المؤدي إليها ، وإن بقيت أريكتها وبساطها ومقعدها القابل للطّي في أماكنها ، كما بقيت الجدران تكتسي ببعض الصور الرخيصة المطبوعة بطريقة الحفر ويحامل مصابيح من الصفيح ، وقد خمدت الحياة في البيت تماما . وحين سألت الكاتبة القنصل عما كانت عليه حال البيت أيام كانت تقيم فيه ليدي جوردون حدثها عن منضدة ومكتبة كانت تستخدمهما . وأحسّت أميليا في البداية بكآبة المكان إلى أن بلغت النافذة المطلّة على النيل وعلي السهل الغربي لطيفة فإذا بهذه النافذة تكسو الغرفة بالنضارة وتحيل فقرها بهاء حتى ثمتت لو حالفها الحظ لتتضي أكثر من موسم شتاء في هذا البيت مهما خلا من وسائل الراحة طالما انبسط أمامها هذا المنظر الزاخر بجمال أضوائه وألوانه وانفساحه وبأريج تاريخه العريق وبغموضه الساحر . ومع أنها تعترف بأن هذا البيت يشوّه منظر المعبد وأنه في سبيله العاجل إلى الانهيار فإنها ترى أن أحدا لا يجروّ على أن يتمنّي له الزوال . كما تذهب إلى أن أهالي الأقصر لا يكادون يذكرون من سكن هذا البيت أو غيره من العلماء من أمثال شمبوليون أو روسيليني أو ويلكنسون ، غير أنه لا يكاد يوجد واحد منهم إلا ويحتفظ بذكرى ليدي داف جوردون في أعماق قلبه ولا يُذكر اسمها إلا مصحوبا بإحساس من الحسرة ومقرونا بفيض من الدعوات .

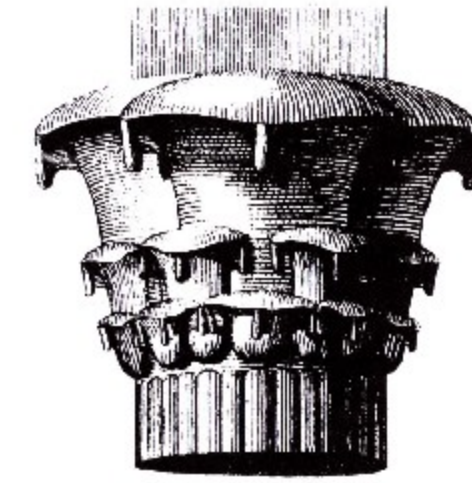
وتستشعر الكاتبة روعة البقطة في الصباح حين تفتح عينها ويقع نظرها قبل أن ترفع رأسها عن الوسادة على ذلك الصف من الوجوه العملاقة التي تملأ الأفق على مدخل معبد أبي سمبل ، والتي تبدّت لها الليلة السابقة على ضوء القمر ذات قدرات خارقة ، وإذا بها في ضوء الفجر الجليل الشاحب تكتسي عيونها بنظرة محملقة تجمّد أطراف مَنْ يرنو إليها وتبثّ الإحساس بالهول في نفس مشاهدتها . وما إن تدفأ السماء بضوء الشمس حتى تتشعّ الوجوه الجليّة بنضارة يخيل للمرء معها أن الدم يتدفّق فيها ويزيدها وهجا وتورّدا . وتبدو وكأنها تبسم وسط هالة الجلال الذي يحوطها ، وإذا بوميض يلتمع التماثل الخاطر في ذهن المرء ترسله الشمس البازغة هنيهة ثم ما لبث أن يختفي ، ويتبدّى الجبل والنهر والسماء في ضوء النهار المضطرب ، كما تتجلى التماثيل وقد غدت مجرد كتل من الأحجار الساكنة تحت أشعة الشمس . وقد ظلت الكاتبة طوال إقامتها على الشاطئ المنحدر حريصة على أن تستيقظ كل صباح مع الفجر كي تشهد هذه المعجزة المتكررة ، حيث مكثت تتأمل أولئك التوائم الأربعة المهيبة وهي تنتقل من الموات إلى الحياة ، ومن الحياة إلى الحجر المنحوت ، حتى لقد ساورها الوهم أنها ستستيقظ ذات يوم لترى هذا السحر وقد توقّف وإذا بهؤلاء العمالقة ينهضون من أماكنهم وينطقون . وترى الكاتبة أنه من الصعوبة بمكان التطلع إلى هذه التماثيل على الرغم من ضخامتها ، ذلك أن المشاهد إذا وقف بين الصخرة والنهر يكون شديد القرب ، وإذا تطلع إليها من الجزيرة المقابلة لها فإنه يكون شديد البعد ، على حين لا يوفّر النظر إليها من المنحدر الرملي غير نظرة جانبية . ولهذا السبب فإن الكثيرين من الرّحالة لا يلمحون غير التشوّهات في أجمل الوجوه التي أبدعها الفن المصري القديم . وتذهب الكاتبة إلى أن رأس أوجسطس الشهير المحفوظ بروما لم يُنحت نحنا أسمى من هذه التماثيل ، فهي پورترهات بمعنى الكلمة ، وهي أربع پورترهات مكررة لنفس الشخص الذي هو رمسيس الأكبر . كما تضيف : «أنه إذا كان رمسيس الأكبر يشبه پورترهاته مثلما تشبه پورترهاته بعضها البعض فلا بد وأنه كان

أوسم الرجال قاطبة ، لا رجال عصره فحسب بل على مدى الزمن . وحيثما نلتقي به سواء في تمثاله المتهاوي في منف أو في جذعه من الصخر الأسواني المحفوظ بالمتحف البريطاني أو في النقوش البارزة العديدة في طيبة وأبيدوس والقرنة وبيت الوالي فإن ملامحه دائما هي ذاتها بالرغم من أنها تحمل أحيانا علامات الصبّ وأحيانا أخرى سمات النضوج ، فالوجه بيضاوي والعينان واسعتان بارزتان ينسدل عليهما جفنان ثقيلان ، والأنف معقوف قليلا غير أن طرفه مفلطح بعض الشيء وفتحتا الأنف عريضتان تمنّان عن شدة الحساسية والشفة السفلى ناتئة والذقن قصيرة مربّعة» .

ولعل أشد ما أثار عجب أميليا إدواردز من عادات النوبة ما يجده أهلها من متعة في زيت الخروع شرباً ورائحة ، فهم يستخدمونه في إعداد طعامهم استخدام الأوربيين للزبد ، وتسوّي الإناث ضفائرهن به ، ويدهن الأطفال به أجسادهم حتى تعبق به بشرتهم وأنفاسهم وثيابهم وطعامهم ، بل إنه يشيع في الجو الذي يعيشون فيه بأسره بما لا يمكن أن يحتمله أوربي إلا إذا كان يسعد بما يسعد به أهل النوبة .

وأخيرا أمضت الكاتبة ثمانية أيام ساحرة في جزيرة فيله ، وفي عصر اليوم الثامن وجدت نفسها وحيدة بالمعبد . وأضافت إليها عزلة المكان لمسة من إثارة الوجدان والشعور بالبعد عن عالم الواقع في ذلك اليوم القائظ ، وكانت قد فرغت لتوها من رسم آخر عجالاتها ، وراحت تطوف بالمعبد تكاد تهمس بكلمات الوداع للأعمدة المزينة بالتصاوير والنقوش ولسائر الشرفات والمقاصير وأشجار النخيل ، وتختلس النظر إلى مقصورة أوزيريس المخصصة للعبادة وتتطلع إلى غروب الشمس لآخر مرة من فوق سقف معبد إيزيس . وتشهد بعد تلاشي كل ذلك التدفق الرائع من الألوان الوردية والذهبية حمرة الشفق اندافئة تغشي الأفق ، وتعترف بأنه : « ليست هناك كلمات تستطيع أن تفي جمال فيله الحزين حقّه في تلك اللحظة حيث تبرز الجبال المحيطة مستنّة تسبح في ضوء قرمزي متميز عن السماء الكهرمانية الشاحبة . ولا تهبّ نفحة من نسيم ولا تبدو فقاعة لتعكّر المنظر البرّي المنعكس مقلوبا على صفحة الماء ، فكل نخلة تبدو مزدوجة وكل صخرة مكررة ، على حين تنعكس الجلاميد الصخرية الشامخة في وسط النهر على الماء انعكاسا يبلغ من الكمال ما يجعل التمييز بين نهاية الصخر وبداية الماء أمرا مستحيلا . أما المعابد فقد تحولت إلى لون البرونز الذهبي المخفّف ، بينما تعمر الأعمدة بأطياف تومض بحياة من صنّع الخيال وتبدو وكأنها تتأهب لتهبّط من فوق قواعدها» . وأخيرا تناجى أميليا نفسها في أسى : « العزلة هنا تامة . ثمة سكون سحري يخيم على الهواء . أسمعُ أمّا تُهدد رضيعها متممة بأغنية وهي جالسة بالجزيرة المجاورة ، وعصفورا يشقشق في عشّه الصغير المندسّ في تاج أحد الأعمدة ، كما أسمع صراخ حدأة شاكية وهي تحلق على مبعدة بين الصخور . إنني ألقى نظري وأنصت وأعدّ نفسي أنني سأذكر ذلك كله في السنين المقبلة ، سأذكر هذه التلال الجليّة وهذه المجموعات من الأعمدة الصامتة وتلك المساحات الفسيحة الساكنة من الظلال وهذه الصوّارات المسترخية من النخيل تتدلّى أعداقها» . وظلت شاردة وسط هذا الحلم الأسطوري حتى أخذت العتمة تخفي في جوفها كل شيء ، فاستدارت لتأخذ طريق العودة وقلبها مفعم بالخوف خشية ألا تشهد هذا المنظر مرة ثانية في حياتها .





## الفصل الثالث



## الفصل الثالث

### نظرتان مختلفتان لواقع واحد

«لقد آن الأوان لهذا الشرق المتفكك الذي يضم شعوبا بلا أرض ولا وطن ولا قانون ولا أمان أن ينتقل إلى قبضة السيادة الأوروبية المشروعة صاحبة حق احتلال هذه البلدان وتلك الشطآن، كي تنشئ فوقها مدنا حرة ومستعمرات غربية ومواني تجارية وتموينية. لقد بات هذا الشرق مشوقا إلى المرفأ الأمين الذي يركن إليه».

ألفونس لامارتين  
{ رحلة في الشرق }

« إن مصر في الشرق كنز لا بد من الظفر به فهو أشد إغراء لمطامع الأوربيين ، لا يعلم عليه في ذلك السبيل حتى القرن الذهبي [إستنبول] نفسه » .

ريتشارد بيرتون  
{ الحج إلى المدينة ومكة }

« البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود . وقد أنشؤوا المدارس ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل . . جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام » .

الطبيب صالح  
{ موسم الهجرة إلى الشمال }







قد يخيّل إلينا للوهلة الأولى وجود فارق بين كتابات الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر وكتابات الإنجليز الذين زاروها خلال القرن نفسه . فعلى حين نجد عددا لا يستهان به من الفرنسيين يتعاطفون مع مصر والمصريين نجد الكثرة الغالبة من الإنجليز متغطسة متعصبة تنظر إلى الشرق عامة وإلى مصر خاصة نظرة التعالي والغطرسة . غير أننا نكاد ننعم النظر حتى نتبين أن هذا الفارق يكمن في الأسلوب فحسب ، وأن الفريقين يشتركان في هدف واحد . ولا شك في أن اختلاف الأسلوب مرده إلى اختلاف المزاجين الفرنسي اللاتيني والأبجولوسكسوني ، وإلى جو العداء الذي تأجج بين الإنجليز والفرنسيين عند اندلاع الثورة الفرنسية ومحاولة الإنجليز إعادة الملكية إلى فرنسا فأنبروا يستقبلون بالترحيب من هجروا فرنسا من الملكيين إبان الثورة ، وأسبغوا عليهم رعايتهم وأمدوهم بالتأييد والمؤازرة سواء في ديارهم أم في ألمانيا وبلجيكا ، وأقاموا شبكات التجسس لخدمتهم ، وأوفدوا عملاءهم لإنفاذ النبلاء الفرنسيين من المقصلة . لقد هبّ الإنجليز يناهضون حركة التحرر الفرنسية على الرغم من أن جزيرتهم كانت سبّاقة إلى الظفر بالحرية ، ومضوا يأخذون على الفرنسيين سعيهم للتخلص من سطوة الملكية الفاسدة في حين أنهم سبقوهم إلى شقن مليكهم من قبل ، حتى ازدحمت كتابات هؤلاء وأولئك بالسخریات اللاذعة التي ينال بها بعضهم من بعض ، وكلهم مستعمر وكلهم غاصب ، ولم ينج إلا القليل من هذا المنزلق حتى من كانت منزلته مرموقة بين الكتاب العالميين . على أننا نحدّد الاختلاف بين كتابات الفريقين في نقاط خمس أساسية :

**أولاهما:** أن الشرق قد اتخذ عند الإنجليز شكلا غير ذلك الذي أخذه عند الفرنسي . فكانت الهند إبان القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر تحت الحكم الإسمي لإمبراطور مغولي ، وفي الوقت نفسه مرتعا خصبا للنهب الذي تمارسه شركة الهند الشرقية البريطانية إلى أن ضُمَّت إلى ممتلكات التاج البريطاني خلال وزارة دزرائيلي بعد ثورة «السياهي» أو ثورة الفرسان المتمردين عام ١٨٥٨ . ومن هنا كان الإنجليز يتخذ من الشرق الأدنى طريقه إلى أضخم الغنائم البريطانية بعد أن هزمت إنجلترا ناپليون وطردت فرنسا من مصر عام ١٨٠١ وأخضعت لنفوذها المنطقة الممتدة من شواطئ البحر المتوسط إلى الهند ، فلم تعد الكتابة عن مصر وسوريا وتركيا عند الإنجليز تعبيراً عن عوالم الخيال الأسطورية بل تعبيراً عن مملكة السياسة والواقع . على حين باتت رحلة الفرنسي إلى الشرق على العكس من ذلك مشوبة بالإحساس بفقد الشرق وضياع السيادة الفرنسية حتى غدا الفرنسي يتسمّع وهو يطوف بشواطئ البحر



المتوسط إلى صدى هزائم الفرنسيين منذ عهد الصليبيين حتى نابليون . ومن ثم ابتكر الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر حيلة جديدة حين توسّموا في أنفسهم القدرة على الاضطلاع بها وسمّوها « رسالة نشر المدنية » La Mission Civilatrice ، وكانت هي الوسيلة السياسية المسورة للتسلّل إلى المنطقة من جديد . وهكذا كان الرحالة الفرنسيون بدءاً من قولني وشاتوبريان يتطلّعون ويخطّطون لفرض مضامعهم في المنطقة التي عدّوها منبع الذكريات وأرض الأطلال الموحية والأسرار المخبوءة ، منهم من كان يجاهر بأطماعه الدينية في جسارة وتعال ، ومنهم من كان يغلف أدبه بالنسيج الخيالي الذي يخفي هذه الأطماع .

وما أكثر ما تردّي لامارتين في كتابه « رحلة في الشرق » في أخطاء ، وما أكثر ما وقع في تناقضات ، وما أكثر ما تسرّع في إصدار أحكام وانحاز فيما ذهب إليه من نظريات . كما اتسم حديثه بالغموض حين تناول المسائل الدينية بل لقد خلط بين ما هو عقلائي وبين ما هو روحاني وما هو دنيوي ، وأقام نظراته السياسية على حجج دينية ، وتجلّى افتقاره إلى المنطق الذي يزعم أنه يردّ إليه كل حججه في حكمه على الإسلام ، فهو تارة يعدّه أكثر العقائد تقدّمية في تاريخ الإنسانية وتارة أخرى يعدّه معوّقاً للحضارة مُطلّقا عليه عبارة « الثقل المعطل » ، واعتبره صورة مشوّهة للدين المسيحي . وانتهى إلى أن لأوروباً رسالة « نبيلة ! » ينبغي عليها تحقيقها ، وهي رسالة نشر المدنية في الشرق حتى لو تطلّب ذلك اللجوء إلى القوة العسكرية . وتوقع أنه سيكون ثمة زحف من الأوربيين على الشرق حيث يعيش الغزاة جماعات تستوطن كل منها مدينة بمعزل عن مدن السكان الأصليين نائراً بذلك بذور التفرقة العنصرية . ويحاول لامارتين التوفيق بين ما يظهره من تعاطف مع الإسلام وبين دعوته إلى التدخل الأوربي المسلّح ، بادعائه أن الإسلام رغم عقيدته التي تثير الإعجاب ينطوي على مزالق تقود إلى الانحلال ، في حين أن عقيدة الغرب المسيحية متجدّدة يحكمها ارتباطها بالمنطق العقلاني ، وهو ما يكشف عن تعصب يطغى على كل ما يتمتع به من مثالية شاعرية . وهكذا نكتشف أن الهدف السياسي قد بلبل رؤية الشاعر الكبير وغشّى كل ما هو سام ومثالي فيها ، فإذا بالسياسي الواقعي الشديد التعصّب يعصف بكل غنائية الشاعر المرهف الذي يشدو كذبا بتعاطفه مع الإسلام . وإن كان لامارتين مع ذلك قد خالف شاتوبريان فميّز بين أداة الحكم التركي الجائرة وبين العقيدة « المحمدية » - كما يطلقون على الإسلام - ولم يقصر اهتمامه كما فعل سلفه على المنشآت الإسلامية المشيّد بالحجر بل عني كذلك بالإنسان الذي بناها وهو ما أضفى الحيوية على كل ما كتب ، مثل قوله إن صوت المؤذن في نظره يسمو على صوت أجراس الكاتدرائيات الصادر عن معدن لا ينبض فيه الوعي الخافق في صدر الإنسان الذي يتلوّن أذانه على وجيب قلبه المؤمن .

**ثانياً :** أن إنجلترا كانت ماثلة في الشرق فعلا على حين كانت فرنسا تلوح بالإغواء الحضاري والتوسل بالوسائل الروحية . وفي هذا الصدد يقول الأديب الفرنسي باريز : « إن بين الشرق وفرنسا لشعور روحاني جارف يجمع بينهما نستطيع أن نتخذه مطية لتحقيق أطماع فرنسا في الشرق . فنحن كما يرانا الشرق نمثّل الروحانية والعدالة المثالية ، وإذا كانت إنجلترا تهيمن على الشرق بقوّتها فنحن نهيمن عليه بروحانياتنا » . وإذا كرومر البريطاني يردّ عليه بقوله : « إذا كانت الحضارة الفرنسية تجذب إليها الشرقيين بروحانياتها أكثر مما تجذبهم إليها الحضارة الإنجليزية فهذا لشدة تقبل نفوس الشرقيين للروحانية . ونستطيع أن نوازن بين الإنجليزي بما طبع عليه من حياء

وحبس لعواطفه وميل للعزلة وبين الفرنسي ومرحه المشهود له به في أنحاء العالم ويُعدّه عن الحياء والخجل وتهافته إلى التقرب من يلقاه أو يصادفه . إن الشرق - وهو على حظ قليل من العلم - لا يدرك تميّز الإنجليزي بالصدق عن غيره ويُعد الفرنسي في صلاته عن الصدق . من أجل هذا ينصرف الشرقي عن الإنجليزي عابسا في الوقت الذي يهرع فيه إلى أحضان الفرنسي » .

ومن هنا كانت نظرة فرنسا إلى إنجلترا أنها كانت تعرقل شيئا ما قيامها بنصيبها الإمبريالي في الشرق ، ولم يكن في ملئك فرنسا إلا القليل لكي ترحل إنجلترا عن تلك الرقعة الشاسعة التي فرضت عليها سلطانها من شواطئ البحر المتوسط حتى حدود الهند . ومنذ العقد الرابع من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون في غزو الجزائر وارتكب جنودهم خلال حملاتهم الفظائع والأهوال مما تقشعر له الأبدان ، وبلغ حماس فرنسا للتوسّع الاستعماري أشده خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر في أعقاب هزيمتها على أيدي الألمان في الحرب السبعينية ، وسرعان ما كان الاتفاق بين فرنسا وإنجلترا على اقتسام الإمبراطورية العثمانية حين يحين الحين ، فإذا لورد سولسبوري يكشف في البرلمان الإنجليزي عام ١٨٨١ عن نيته قائلا : « عندما يكون لك حليف مخلص لا يفتأ يتدخل في شؤون بلادك فيها مصالح حيوية شتى فليس أمامك إلا واحد من حلول ثلاثة : إما أن تتخلّى عن هذه المصالح ، وإما أن تشبّث بها وتحتجزها لنفسك ، أو أن تقاسمها إياها . أما الحل الأول فمعناه أن نخلّي بين فرنسا وبين طريقنا إلى الهند ، وأما عن الثاني فمعناه أن نكون قاب قوسين أو أدنى من الحرب . ومن أجل ذلك كان لا مفر من الحل الثالث وهو التقاسم » . ويعقب إدوارد سعيد على هذا التصريح في كتابه « الاستشراق » قائلا : « إن ما تقاسمه لم يكن الأرض أو المغام أو السلطة فحسب بل ذلك المجال الواسع للاستشراق والإفادة من هذا الزاد الفكري الضخم . ولم يكن الخلاف بين الاستشراق الفرنسي والإنجليزي إلا في الأسلوب ، فكلاهما يعمّم في حكمه على الشرق والشرقيين ، وكلاهما مؤمن بتفوّق الغرب على الشرق ، وكلاهما يُصدّر عن رغبة حتمية في سيطرة الغرب على الشرق ، فالاستشراق في الواقع نظرة سياسية لحمة وسُدى ، مبناها بيان الخلاف بين ما هو طبيعي أي أوروبا والغرب ، وبين ما هو عجيب شاذ وهو الشرق » .

وإذا كان ما ذهب إليه إدوارد سعيد من تعميم ينطبق على كثرة من المستشرقين إلا أنه لا يسري بطبيعة الحال على الاستشراق بإطلاقه ، فهو لا يفصل بين ما هو استشراقي موضوعي وما هو استشراقي مُعْرض يفرض المضمون الشائئ الذي يحقق أهدافا إمبريالية ، فضلا عن إغفاله كثرة من أعمال التحقيق والمراجعة والمعاجم والدراسات التي قامت بها جامعات ألمانيا والنمسا وهولنده والتي لم تشترك دولها في الحملات الاستعمارية على دول الشرق الأوسط الإسلامية<sup>(١٢٢)</sup> . وإذا كان ما ذهب إليه ينطبق على البعض من المستشرقين إلا أنه لا يسري على الاستشراق جملة .

ومن قبل الأستاذ إدوارد سعيد يعارض أستاذ جليل آخر هو محمود محمد شاكر منهج البحث الأدبي الذي يعمّ الساحة الأدبية من حوله<sup>(١٢٣)</sup> ، مؤكداً أنه ناتج عن تأثيرات أجنبية غريبة عن روح وأصالة الحضارة العربية الإسلامية . وفي عرضه لوجهة نظر الأستاذ شاكر يقول د . مجدي وهبة<sup>(١٢٤)</sup> : إنه يذهب إلى أن هذه التأثيرات الأجنبية جاءت نتيجة صراع لا يهدأ بين العالم العربي وبين أوروبا على امتداد حقبة تاريخية طويلة يميّز من بينها أربع مراحل : الأولى الغضب الناتج عن سقوط الأراضي المقدسة في أيدي المسلمين ، والثانية الإحباط الناتج عن هزيمة الجيوش الصليبية ،

(١٢٢) لانتزام جانب الدقة ، فإن المستشرقين الهولنديين قد سخروا دراساتهم الاستشراقية منذ القرن ١٧ في خدمة الغزو الهولندي الغاشم ضد المسلمين في جزيرة سومطره [إندونيسيا حاليا] .

(١٢٣) محمود محمد شاكر . المتنبي . الطبعة الثالثة ١٩٨٧ . صفحة ٤٩ .

(١٢٤) د . مجدي وهبة . غضب مرتقب An Anger Observed . تحليل رسالة في الطريق إلى ثقافتنا « نقله إلى العربية زهير على شاكر ١٩٩١ .



والثالثة الحقد بسبب اضطرارهم إلى التراجع والانحصار داخل الحدود الجغرافية لأوروبا الغربية في فترة اتسمت بتأمل الذات. ثم تلت ذلك المرحلة الرابعة، مرحلة الإحساس بالإهانة بسقوط القسطنطينية. وكان لابد أن تنتج عن هذه المراحل رغبة ملتهبة لدى أوروبا بأجمعها في الانتقام والانتصار لكرامتها فثارت كراهية المسيحيين للإسلام يُذكّنها الرهبان والقساوسة حين أثارت جشعهم حكايات الثروات الباهرة التي كان يروونها العائدون إلى الوطن من المحاربين في صفوف الجيوش الصليبية المهزومة في حملاتها السبع. وأصبح من المحتم على رجال الدين المسيحي أن يكتشفوا سرّ قوة المسلمين. ومفتاح هذا السرّ هو إتقان اللغة العربية. فكان هذا هو السبب عند الأستاذ شاكر في تكوين تلك الجماعة من الرجال التي عُرفت بعد ذلك باسم المستشرقين. وكان هؤلاء الرجال يزورون الشرق الأوسط وعلى وجوههم سيماء البراءة فيتملقون مَنْ هم في ضيافتهم من المسلمين ويتزلفون لهم حتى يفضوا إليهم بأسرار معارفهم، ويسلموا لهم مخطوطاتهم وكتبهم التي لا تقدر بثمن. وسرعان ما انعقد التحالف بين الاستعمار من ناحية وبين حركة التبشير المسيحية وحركة الاستشراق من ناحية أخرى، كل واحدة من الثلاث تدعّم الأخرى طبقاً لخطة موضوعة للتدمير والهدم. وانتهبت المكتبات الإسلامية حيث عكف المستشرقون من المسيحيين الشماليين على طبع بعض هذه الكتب في طبعات محدودة يوزعون نسخها القليلة على أنفسهم لأنهم كانوا يعدونها لكي تكون الوثائق السريّة التي تستخدم في الغزوات التالية لقلب العالم الإسلامي. وكانت إحدى الوظائف التي يُكلّف بها المستشرق الأوربي أن يتعلم كل ما يستطيع تعلّمه عن العالم الإسلامي لا بغرض البحث الأكاديمي بل من أجل هذا الهدف المحدّد بدقّة، وهو تزويد النخبة المختارة من الأوربيين بالمعلومات والتوجيهات اللازمة لقيامهم بهذا الغزو. كانت هذه كلها أجزاء من مؤامرة حاكتها المسيحية الأوربية لغزو الأراضي الجنوبية التي تحت أيدي المسلمين. ولذا، فقد كان من المستحيل مع وجود هذه الدوافع لدى المستشرق أن تكون نظريته موضوعية علمية، أو أن يتوصل من استكشافه للعلوم الإسلامية إلى أية نتائج أكاديمية ذات قيمة تفيد القارئ أو الباحث في أي مكان في العالم. لقد كان المستشرقون يفتقدون عنصراً ضرورياً لقيامهم بمثل هذا الدور أسماه محمود شاكر «ما قبل المنهج» وهو أن يكونوا من أبناء اللغة والثقافة والتكوين الوجداني للإسلام. ولم تكن لدى المستشرقين إلا لغة يتعلمها الواحد منهم بعد أن استوى رجلاً، ونوازع متعصبة وليدة نظام وجداني أجنبي عن الإسلام، تحول دون فهمهم له فهما عميقاً.

ويرى كاتب هذه السطور في هذا التعميم - رغم صحّته وسلامته - بعض الميل، فلا نتجاهل أنه لو لم يُسهم المستشرقون في الكشف عن الأدب العربي لظل مجهولاً بين أيدي المسلمين، فلقد يسّروا لنا المداخل إلى اللغة والحديث والقرآن. فكان فنسك النمساوي هو أول من أعد فهرساً للأحاديث النبوية الشريفة من خلال كتب الأحاديث الإثني عشر. كما كانوا أول من فهرس ألفاظ القرآن الكريم، وأول من جمعوا اللغة العربية معجماً، فزودنا قارئان الفرنسي بالألفاظ التي لم ترد بالمعاجم السابقة في كتابه «إضافة إلى المعاجم العربية»، وأعدّ فيشر الألماني لمعجم موسوعي كبير يجمع ما جاء بالمعاجم وما فات المعاجم، لأنه اعتقد أن ثمة ألفاظاً لم ترد بالمعاجم فغربل الكتب القديمة يستخرج منها الألفاظ التي تصلح أن تكون معجمية والتي جاءت بمزيد من المعاني لم تجيء في الكتب العربية فأضافت جديداً إلى المعاجم العربية. وكان قد أعدّ جزائز هذا المعجم وأراد أن يستكملها في مصر فأفرد له مجمع اللغة العربية مكاناً مستقلاً وأعطاه بعض معاونين

وظل يعمل سنين غير أن المنية وافته ولم يتم هذا العمل. وبين أيدينا «تكملة المعجمات العربية» للإنجليزي دوزي الذي احتوى ألفاظاً كثيرة لم ترد في المعاجم العربية، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان الألماني الذي حصر المكتبة العربية حصراً شاملاً لم يستطع عربي أن يدانيه. كذلك كان المستشرقون أول من وضع أقدام العرب على طريق تحقيق التراث، ثم مضينا نحن على نهجهم ولم نكن نعرف تحقيق التراث بمعناه العلمي حتى طالعونا بالكتب العربية التي حققوها فتعلمنا منهم نهجهم وطريقتهم في التحقيق. وبعد أن أخذ العثمانيون معظم الكتب العربية من الأمصار التي فتحوها ضموها إلى مكتبة إستنبول التي أصبحت تضم أكثر التراث العربي، وظل هذا التراث مجهولاً غير مفهرس حتى جاء مستشرق ألماني ووضع لهذه المكتبة الحافلة التي لم تكن تُعرف محتوياتها فهرساً جامعاً. ثم هناك الأستاذ ريجيس بلاشير المستشرق الفرنسي الذائع الصيت الذي نقل معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية، والذي اشتهر عنه ميله القوي إلى العرب والذي حفل سجله بالكفاح المشرف ضد الاستعمار الفرنسي، كما زخرت الصحف بمقالاته النارية ضد المارشال جوان حين عزل السلطان الشرعي للمغرب وضد وزير خارجية فرنسا آنذاك جورج بيدو. لقد كان بحسّة السياسي الإنساني يقف إلى جانب مواطني شمال أفريقيا مدافعاً عن حقوقهم المشروعة من خلال رابطة «فرنسا-المغرب» التي أسسها وضم إليها الكثير من المستشرقين والأدباء الأحرار من الفرنسيين، من بينهم المستشرق المعروف لوي ماسينيون، ولم يكتف بهذا بل نراه فيما بعد ينشر المقالات المنددة بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. أما المستشرق الفرنسي جاك بيرك الأستاذ بالكوليج ده فرانس فقد ظل طوال حياته الممتدة يواصل رسالته المفعمة بالتعاطف مع العرب والمناهضة للاستعمار إلى أن توفاه الله عام ١٩٩٥. وقائمة الأمثلة على المستشرقين غير المغرضين تغني بهم، فما من شك في أن الاستشراق قد عبّد الطريق للغوي والأدبي والديني أمامنا بعد أن وقع على التراث وفهرسه وألمّ بمحتوياته، ومن هنا أصبحت مصادر البحث متوافرة. وما أكثر المستشرقين الذين أنصفوا الإسلام فيما كتبوا أو ترجموا، أما إذا كان من بينهم من طعن في الإسلام فقد نعدّله هذا فضلاً لأنه أيقظ فينا ملكة الردّ وروح الحجّة لتوضيح الأمور. فلولا رسائل هانوتو الفرنسي التي نال فيها من الإسلام ما استيقظ عالم جليل مثل الإمام الشيخ محمد عبده وانبرى له بتلك الحجج التي اكتسب بها الإسلام شيئاً جديداً. إن المستشرق الذي ينحرف عن طريق الاستشراق ويعمل مأجوراً للسياسة أو لأي غرض آخر لا نعدّه من المستشرقين، فالاستشراق يعني العمل خالصاً لوجه العلم لا لشيء غيره. وهؤلاء هم المستشرقون الذين نعينهم ويطلق عليهم لفظ الاستشراق، أما غيرهم فلا حساب لهم عندنا.

**وثالثها:** أن الكثرة من الرحالة الإنجليز. وخاصة خلال القرن الثامن عشر - كانوا من الطبقة

الأرستقراطية المترفة من مرتادي النوادي الخاصة في لندن المعروفين بتعاليمهم وحذقتهم،

وإسرافهم في التأنق والتغرّ في استعمال اللغة أسلوباً ومعنى، وازدراء ذوق الجماهير وانزاهم بعبادات وتقاليد خاصة لا يحيدون عنها فإن انتقلوا إلى بلاد أخرى نراهم: «لا يقصدون - كما يقول بيير دانيوس<sup>(١٢٥)</sup> - إلا مشرب الشاي أو النادي الإنجليزي. وسواء أكان في بومباي أم في

كاراكاس أو في هاوانا أم في لوسرن فإنه لا ينسى دعائمة الأربع: نادية والشاي والويسكي ولحم الخنزير المدخن. وما يكاد يحلّ المساء حتى ينال في رعاية الله مطمئناً على أي أرض كان، واثقاً أنه حين يدهمه خطر ما سوف يلوذ برعوته التي تحميه مردداً بينه وبين نفسه: إني مواطن بريطاني

(١٢٥) انظر: بيير دانيوس: فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون. ترجمة كاتب هذه السطور. الطبعة الثانية. دار الهلال ١٩٨٩.



Civis Britannicus sum، متذكراً القول القديم المأثور «إني مواطن روماني» الذي ينطوي على الاعتزاز بالنفس والزهو لمن يتمتع بهذه الجنسية أتى حل في جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية. وهم فيما بينهم يتتهجون أسلوباً خاصاً حين يتحدثون وحين يكتبون، سمته التهكم والسخرية من كل شيء للتعبير عن علو معنيتهم وامتياز طبقتهم. هذا فيما كان بينهم فما بالك فيما كانوا يأخذون فيه مع الشعوب الأخرى كتابة وحديثاً، فلقد كانوا يزدرون كل ما هو غير بريطاني، وكان مما يُعزى إليهم اعتقادهم بأن كل الكائنات التي تعيش خارج الجزيرة البريطانية بدءاً من كاليه هي من الجنس الأسمر! وهو زعم نجد دليلاً عليه في كتاباتهم عن أنحاء أوروبا والتي لا تخلو من السخرية اللاذعة بالشعوب الأوروبية الأخرى، وهي سخرية لا يفلت من قسوتها حتى الفرنسيون والإيطاليون. ولم تكن هذه بطبيعة الحال سمات جميع الرحالة الإنجليز، إذ سرعان ما لحق أبناء الطبقة الوسطى بصقوف الأرستقراطية خلال القرن التاسع عشر نظراً لبلوغ هذه الطبقة مرتبة الثراء واحتلالها مكانة اجتماعية مرموقة. وعليه حين كان عدد كبير من الرحالة إلى مصر من طبقة الموظفين في طريقهم إلى الهند أو من رجال الجيش، كانت جملة منهم أفاكين أو صحفيين أو أتباع نبيل من النبلاء يقوم برحلته السنوية المعهودة. وحتى كنتجلك نفسه الذي أبدى من ضروب انعطاف واستعلاء ما غدا نموذجاً يحتذى فيما بعد كان من أبناء الطبقة الوسطى.

ولقد خال الإنجليز أنهم حين ينتقلون إلى بلاد غير بلادهم فإنما يكون ذلك فقط لأداء رسالة علمية أو أركيولوجية أو إثنوجرافية إلى آخره، دون أن يلقوا بالاً للنواحي الاجتماعية باستثناء قلة قليلة منهم. ومن هنا كان ازدراءهم انغاشم للشعوب الشرقية المنخلفة الخاضعة للأتراك دون محاولة منهم لسبر غور السلبيّة المتمثلة في وداعة الفلاح المصري وقلة أكرائه بمستعمريه وانكبابه على أرضه بفلحها وإن لم يئل من حصاها غير الفئات الذي يفيض بعد أن يمتصّ دمه المستعمرون سواء من الأتراك أو الحكام المماليك الذين حرموه هو وأبناءه من فرص التعليم، وهو الأمر الذي لم يتح له أن ينعم به قبل خاتمة القرن التاسع عشر. وعلى حين يزدري الإنجليز هذه اللامبالاة يعدّها بيير لوتي في كتابه «موت فيله» لونا باهراً من الصمود في انتظار بعث جليل جديد. ويعلّل الأستاذ أندريه سيجفريد غطرسة الإنجليز بأنه: «من الصعوبة بمكان على الإنجليز رسم حد فاصل بين احترام حرية الغير وبين إهماله للغير الذي يكاد يكون احتقاراً له، إذ هو يعتقد في قرارة نفسه أنه من جوهر آخر غير جوهر بقية البشر». كما ذهب دانيوس إلى «أن الإنجليز قد تعلّم بصفة قاطعة أن هذا العالم يحتوي على جنسين: الإنجليز، ثم قبائل أخرى متنوعة... إنه يطوف بكوكبنا الأرضي وكأنه بريطانيا العظمى منتقلة في صورة مصغرة». غير أن الإنصاف يقتضي أن نعترف بأن هذه الأوصاف جميعاً تنطوي على قدر كبير من المغالاة، فنحن لا ننسى أيضاً أن المستشرق الذي صور حياة أهل مصر بدقة بالغة وموضوعية جادة بقي أثرها إلى يومنا هذا هو إدوارد ولیم لين الإنجليز، كما سبقه الطبيب ألكسندر رسل وپاتريك رسل إلى تصوير حياة المسلمين في حلب خلال القرن الثامن عشر تصويراً دقيقاً محايداً، وسبقت أجميع الليدي ماري ورتلي موتاجيو زوجة سفير إنجلترا باستنبول في مستهل القرن الثامن عشر بتصوير حياة العائلات التركية تصويراً بديعاً جذاباً في رسائلها التي احتشدت بالإعجاب والثناء والشعور بتفوق المسلمين على أهل أوروبا وقتذاك. والواقع أن النعرة الإثنولوجية التي أصابت الإنجليز في تعاملهم مع الهنود المصريين والأفارقة هي وليدة نشأة الإمبراطورية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر والمنحى الإنجلي المتعصب في عقيدتهم المسيحية.

وحقيقة الأمر أنه لم يكن ثمة فارق كبير بين الحياة في كل من أوروبا وسائر أنحاء العالم خلال العصور الوسطى، فلم يكن هناك ما يدعى بالإكزوتية أو حب الاطلاع على كل ما هو غريب إلى أن جاء التطور التقني والصناعي فغيّر من ملامح الغرب ومن ثم تباينت طرق المعيشة في الغرب والشرق، وبدأ الأوربي يغالي في إبراز أوجه الاختلاف بين الحضارتين في نفس الوقت الذي أهمل فيه أوجه الشبه الأساسية، وكانت هذه هي الخلفية التي انبعثت منها الاتجاهات الإمبريالية. وكان الرحالة الإنجليز يعترية إحساساً عاماً بالرغبة في رؤية كل ما هو غريب ناء وشعوره بأن كل ما هو غير إنجليزي أقل قيمة وقدرًا، وإن يكن من الإنصاف أن نقول إن ثمة فئة من بين الإنجليز الرحالة كانت أشد تواضعاً وأكثر بعداً عن الأغراض النفعيّة، وكانت تحجّ إلى الأماكن المقدسة وليس لها من وراء هذا الحج أي هدف دنيوي.

**ورابعها:** أن الإنجليز على الرغم من بُعد ما بينهم وبين أرسطو فإنهم يتظاهرون بأنهم مؤمنون بنظرة أرسطو التي تقضي بالتزام الأخلاق المثالية في مجال السياسة، ولكنهم كانوا إذا اتصل الأمر برخاء الشعب الإنجليز والحفاظ على مصالحة القومية فما أسرع ما كانوا يحدون عن هذه النظرة المثالية خارجين على القوانين الخلقية دون مبالاة. والإنجليز مطبوع بطابع التربية البروتستانتية، فعلى حين يصدر الفرنسي ثقافته يُحجّم الإنجليز عن ذلك مؤثراً تصدير عقيدة الكنيسة الأنجليكانية والتبشير بها حتى يستمتع سكان الكرة الأرضية جميعاً بنعمة «الحرية المنضبطة التي يقتضيها النظام» والتي هي من وحي «المذهب البروتستانتية» وبمبدأ العدالة التي هي من وحي «العهد القديم»، فنشأت الجمعيات الدينية التبشيرية التي سرعان ما امتد نشاطها جهاراً إلى معاضدة حركة التوسع الاستعماري.

أما الثورة الفرنسية فكما ضربت على أيدي الإقطاعيين قلّمت أظافر الكنيسة فتقلّصت أملاكها وضعف نفوذها وذاغت مبادئ الثورة الفرنسية لا في فرنسا وحدها بل بين الشعوب الأخرى، فساد التسامح الديني بين الفرنسيين الذين بلغوا درجة كبيرة من التحرر العقلي. فبالرغم من انطوائهم تحت العقيدة الكاثوليكية إلا أنهم لم يستسلموا لهيمتها على فكرهم بل نراهم ينخرطون في مذهب الشك تارة ويتلفعون بروح النقد المطلقة تارة أخرى حتى وصل بهم الأمر إلى استقلال فكري لم تعرفه إنجلترا البروتستانتية المتطهّرة التي بلغت فيها البروتستانتية أشدّها فجمع الملك بين رئاسة الدولة والكنيسة وشاع بين الإنجليز التعصّب الديني الذي دفعهم إلى الإيمان بأن الكنيسة الأنجليكانية أشد استنارة من الكاثوليكية الأوربية العتيقة ومن البروتستانتية الألمانية المتطرّقة، فلا كاثوليكية الأوربيين تحظي باعترافهم ولا ترمّت اللوثرية الألمانية ينال تقديرهم. وبطبيعة الحال كانت نظرة الأغلبية منهم إلى الإسلام نظرة بعيدة عن الواقعية بعيدة عن الإنصاف، فيكتب سين چون في كتابه «رحلات في وادي النيل»: «إن النظرة الأولى لأخلاق المصريين وعاداتهم لتوحي بتوقيرهم واحترامهم. ولكن ما من شك في أن هؤلاء الطغاة الذين كان الجهل والدناءة عماد حياتهم إنما يتظاهرون في سلوكهم وحديثهم بالوقار والكرم اللذين هما أعلى مراتب الحكمة. ومثل هذا التظاهر باعث على السخرية، فالرحالة يعلم في قرارة نفسه أن القاهرة ما هي في الحقيقة إلا صورة مصغرة للعالم الشرقي بأسره».

لقد رأى سين چون في الشرق تربة خصبة تزدهر فيها الرذائل المقرونة بطغيان حكام الشرق ذوي السيطرة الباطشة القصيرة العمر، الذين يستطيع المرء بعد التحدث إلى واحد منهم أن يلمس



بين مظاهر الأخلاق التي تبهره والسلوك الذي يسحره أفكاراً شططية ومبادئ شيطانية تطل كالأنفيس أو العقرب بين باقات الزهور . وتصل به المغالاة إلى حد الإعلان بأن : « الفساد هنا إن لم يكن شاملاً فهو لا يكاد يخلو منه مكان » .

ويصف كرومر الشرقيين والعرب في كتابه « مصر المعاصرة » فيقول : إنهم قوم سذج من السهل خداعهم ، تعوزهم روح الجد والمبادرة ، شأنهم أن يداهنوا مدهنة تبعث على الاشمئزاز ، كما من طبعهم المكر والخداع والقسوة على الحيوان . والشرقيون بعيدون عن أن يعرفوا نظام السير في الطرق وعلى الأتورة ، فما أبعد ما بينهم وبين الأوروبيين في هذا الشأن . ومن سجايا الشرقيين التورط في الكذب وميلهم إلى الدعة وتشككهم فيما يرون . ثم هم عامة يستخفون بالأنجلوساكسون وما هم عليه من نبل . ولقد رُضت نفسي على أن الشرقي جبل على غير ما جبل عليه الأوروبيون » .

ولعل القارئ لما كتبه كثير من الكتاب الإنجليز الذين عرضوا لوصف مصر عرضاً لا يمت إلى الحقيقة بسبب يعرف الآن أن هذا التعريض المشين بمصر على لسان هؤلاء الكتاب أملت انطباعاتهم المجانية للصواب عن مصر والشرق ، فكان تصويرهم الإسلام والشرق يستمدحاً في طبعهم من جور لا يتخلون عنه . ولم يبعد التصوير الأدبي للبيئة عن أن يناله ما ناله غيره من حيف ، ولم ينصف هذا التصوير منهم إلا قلة يأتي في مقدمتهم إدوارد لين في كتابه عن المصريين المعاصرين ولوسي ليدي داف جوردن في رسائلها من مصر التي تفيض حبا لمصر والمصريين وتشيد بكرم أخلاقهم وتسخر من ظلم الرحالة الأوروبيين لهم . ومن هنا نتيين هذا العداء القديم المتوارث ضد الإسلام الذي لا يزال امتداً إلى ذلك العهد الذي كتب فيه أمثال هؤلاء الرحالة تلك العبارات النابية التي استشرى أسلوبهم فيها وازداد ضراوة واشتعل حدة . ننمى هذا فيما كتبه رحالة يدعى شيرر ( ١٨٢٤ ) في كتابه « مشاهد وانطباعات » حيث يقول : لا غضاضة في أن نتأمل هذه المخلوقات والوجوه والأزياء والأسلحة والأعراف والعادات التي توحى إلينا بما كانت عليه الحال في سالف الزمان ، ولكننا في الوقت نفسه نحس سعادة كبرى وتلج صدورنا ونحن نلاحظ اضرار من حولنا يعم والاضمحلال يسري . فكم من مسجد مهجور قد علاه التراب ، وكم من أهلة ماذن زالت عنها وضاعتها ، وكم من خانات خلت من قاطنيها ، وكم من بيوت أثرية تداعت سقوفها » . ونحن نجد إلى جانب هؤلاء الكتاب الإنجليز الذين أسفوا وأسفروا في عداوتهم آخرين مثل كنجليك تختلج نفوسهم بأصداء الحروب الصليبية ، وفريقاً ثالثاً لبسوا مسوح الورع ليطعنوا الإسلام في أعز ما يملك وهو العقيدة ، فيقول قائلهم متمنياً والتشفي بطفى على أمنياته : « أبشروا فإن ظل المحمدية يتراجع وينمحي . وما من شك في أن هذه العقيدة قد بدأت تفقد أثرها في قلوب معتنقيها ، وهو ما سوف يُخلي السبيل أمام المسيحية المخلصة لتحل محلها في قلوب هؤلاء الناس عامة والقضاء على الإسلام قضاء مبرماً ، وهو ما نصبو إليه ويرجوه كل راج » .

أين هذا التجني من موقف شارل بلان عضو المجمع العلمي الفرنسي حين كان مستغرقاً في تأملاته بالإسكندرية مستعرضاً أمجاد مصر منذ الفراعنة حتى البطالة متحسراً على ضياع مخطوطات مكتبتها العريقة ، وإذا بالرسام ستوب يسخر من ميوله الإسلامية وتعاضفه مع المسلمين فيذكره بأن الزعيم الظالم الذي أمر بحرق مكتبة الإسكندرية هو الخليفة عمر بن الخطاب ، فإذا بشارل بلان يأخذ عليه غلوّه ويلفته إلى ما في ترديد هذا القول من زيف

شائن ، ويوضح له أن مكتبة الإسكندرية قد التهمت النيران أول مرة بسبب حروب قيصر حينما كان يدافع عن أسطوله ضد أهل الإسكندرية ، واشتعلت فيها النيران مرة ثانية في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، إلى أن قُضي عليها تماماً في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس عندما أمر بإحراق كل ما يمت للوثنية بصلّة فانقضّ جنوده على السيرايوم وأحرقوه عن آخره بإشراف البطريق تيوفيل ، وعندما فتح عمرو بن العاص مصر لم يكن في مكتبة الإسكندرية من مؤلفات إلا النذر اليسير ، إلى أن ينتهي إلى القول : « ومن الحق على أن أبرئ الخليفة عمر من هذا السلوك الهمجي ، فإنني في قرارة نفسي أكن إعجاباً لا حد له لهذا الزعيم الفذ الذي أثر عنه قوله يوم مبايعته هذا القول الرائع الذي طبّقه فعلاً خلال ولايته : لست إلا واحداً منكم ، ولست خيركم . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . أعينوني إن أحسنت وقوموني إن أسأت . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه » ( ١٢٦ ) .

**خامساً ،** أنه كثيراً ما يُعاب على الفرنسيين حرصهم المحموم على تصدير ثقافتهم باعتبارها أيضاً لونا من الاستعمار ، إلا أنهم ينبرون إلى الردّ على ذلك بأنهم إنما يبغون نشر دولة الفكر مضطلعين برسالة نشر المدنية لأن العالمية هي المناخ الطبيعي لبث أفكارهم ، إذ يزهو الفرنسي - زيفا - بأن لكل إنسان في الوجود وطنين : وطنه الأصلي ثم فرنسا ، بينما يؤمن في قرارة نفسه بأن فرنسا للفرنسيين وحدهم ولا يفتأ يردد عبارته المأثورة « أجنبي قدر » Sale étranger ، كما لا يغيب عن بالنا أن سلوك الجنود الفرنسيين في الجزائر لم يكن أكثر « تمدناً » من سلوك الجنود الإنجليز في مصر أو الهند . على أن الفرنسيين في الحق يصونون لغتهم بنفس العناية التي تُصان بها أداة صاحب الحرفة حتى غدت شفافية الفكر الفرنسي وقدرته على أن ينقل نفسه ويتصل بغيره أعظم إسهام له في حضارة الإنسان ومن ثم طغى على الأفكار كلها . ويتميز اللاتيني عامة والفرنسي خاصة بطاقة خلاقة وقدرة على التحليل وتمسك بالمنطق العقلاني وكفاءة في التعبير جعلته ينظر إلى الأمور من وجهة نظره الشخصية دون قيد . ولعل مردّ هذا إلى ذلك الجانب من الأرومة الكلّية ( ١٢٧ ) التي ينتسب أيضاً إليها فزرعت فيه ذلك الجانب الفوضوي في فريته .

لقد كان كل خير في الفرنسيين وكل شرّ فيهم وكل عظمتهم وكل ضعفهم ينبع على حد قول أندريه سيجفريد من مفهوم الفرنسيين للفرد وخاصة استقلاله الفكري ، فهم تلامذة الفيلسوف ديكارت والشاعر لافونتين ، يؤمنون بمذهب الشك ولا يأخذون الكلام على علاقته كما يفرقون بقرحتهم الصافية بين الطيب والخبيث ، وتمكنهم ملكة « التحليل » ( ١٢٨ ) التي يتحلّون بها من الإفصاح عن خصائص ما تقع عليه أنظارهم تارة بذكاء وفطنة وموضوعية ، وتارة أخرى بحماسة رومانسية غنائية غير مسبوق لا تزال حيّة لقدرتها المستمرة على إثارة الفكرية والعاطفية ، كما يملكون بقدرتهم الفذة على « التركيب » ( ١٢٩ ) أن يستقروا من التفاصيل طابعاً عاماً للظواهر الاجتماعية والحقائق الفنية الشاملة . وعلى حين كان الفرنسي يعبر عن تفوق فرنسا التي تسكن وجدانه تعبيراً يتسم بالبساطة وخفة الظل والمجاملة ، كان الإنجليز المؤمن بأن بريطانيا أرقى بلاد العالم دون منازع حريصاً على أن يفرض على الناس بتعاليمه الممجوج الإحساس بذلك .

على هذا النحو اختلف سلوك الرحالة الإنجليز في البلاد التي يزورونها عن سلوك أقرانهم الفرنسيين ، فبينما تتخبر الكثرة من الإنجليز العزلة المريحة والتفرد والبعد عن الأهالي ، تخالط

( ١٢٦ ) لقد التبس الأمر على هذا الأديب الفرنسي الجليل فإذا هو يعزو هذه العبارة المأثورة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في حين أنها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن تمّت له البيعة .

( ١٢٧ ) الكلّت مجموعة من الشعوب عرفت منذ أوائل الألف الثانية قبل الميلاد وبلغت مرتبة الرعامة السياسية والثقافية في غرب أوروبا ووسطها بين ١٢٠٠ و ٢٠٠٠ ق . م .

( ١٢٨ ) Analysis المنهج التحليلي وهو تجزئة العمل الأدبي أو الفني تجزئة تُعرف بها مكوناته أو عناصره الأولية [ م . م . ث ] .

( ١٢٩ ) Synthesis المنهج التركيبي ويعتمد على الاتجاه من الأجزاء إلى الكل الذي يضمها ، أي البدء بالجزئي وضمّ مثله إليه ليتكون منه الموضوع المراد تركيبيه ، على العكس من المنهج التحليلي الذي يعتمد على الاتجاه من الكل إلى الأجزاء .

[ م . م . ث ]



الكثرة من الفرنسيين الطبقات الاجتماعية المحلية وتعيش بينها تشاركها أفراحها وأعيادها ومسراتها دون استعلاء أو برم، ينشد الواحد منهم أن يُحِبَّ وَيُحَبَّ مُلقياً على عاتقه نشر إشعاع فرنسا الثقافي ومبادئ ثورة ١٧٨٩، ولا يتورع كما يقول بيردانيوس « عن السعي وراء مغامرة غرامية حتى في مواخير الملايو أو بين الملونين ». وقد رأينا كيف أقام جيران دي نرغال بالأحياء الشعبية مختلطاً بالأهالي متظاهراً باعتناق دينهم مقتنياً الجوارى الشرقيات مثلهم، وظل الحنين إلى مصر والمصريين يلزمه بعد عودته إلى فرنسا، وهو القائل : لا مناص من أن أتزوج فتاة ساذجة نبتت على أرض هذه التربة المقدسة التي هي أول وطن لنا في الشرق، ومن أن أستحم في ينابيع الإنسانية المفعمة بالحياة والتي منها انبثق الشعر وإيمان آبائنا. وحينما سئل كيف رأى نساء الشرقيات أجاب بأسلوبه الرومانسي الغنائي مشدوها وكأنه في حلم : « إنهن متباينات الجمال كالطيور، منهن الذهبية ومنهن النحاسية، ومنهن الصفراء ومنهن البيضاء ».

أما شارل بلان الجليل فلم يقو على كتمان ما اعتلج في نفسه من انفعالات حتى ما جنح منها إلى شهوة الجسد، بل لقد استعاد شبابه من جديد حين أثاره مشهد وقعت عليه عيناه بينما كان يتأمل عمود يومي في الإسكندرية حيث ظهرت فجأة صبيّة مصرية تقود والدها الكهل الضريع نحو مسكنهما المتواضع القريب فتفتنته بجمالها وسمرة بشرتها وعينها وشعرها وقوامها وهي تخطو غير مدركة لسحرها فتصبيه بنشوة مباغتة، ومن ثم يسارع إلى مناداة زملائه من المصورين والمثاليين كي يستلهموا هذا « النموذج » الفني المتحرك الذي وصفه بقوله : « إنها نحاسية اللامحات يميل شعرها الأسود إلى الزرقة من أثر الشمس، وفي عينيها نغومة المخمل، وقد حالت أنوان ثوبها الرث بيننا تقود أباه العجوز الذي ذهب الرمد ببصره فاتكأ بيده على كتفها على حين استندت يده الأخرى على عصا وهو يسير ببطء يستجدي الصدقات. إنهما يمثلان معا نموذجاً فريداً يحلم به أي فنان لتسجيل صورة حية لأوديب في صحبة ابنته أنتيجونا. . . واندفعت أنادي [المصورين] فرومانتان وچيروم وجيوم ألقت أنظارهم إليها غير أن أحداً منهم لم يكن إلى جوارى، فأسرعت إلى الفتاة أملاً كفها بغطاء كان في جزائه ما يعدل ما هي عليه من جمال طاع لم تلتفت هي إليه ». إننا لانصادف كثيراً حالة إنجليزيا يفصح عن مشاعره الذاتية أمام مثل تلك الصور والمشاهد

بمثل هذه الصراحة والوضوح، فهو متحفظ يدور داخل نفسه صراع بين ذاتيته وبين إحساسه بتمثيله لدولة عظمى حتى نرى أغلبهم يتنكر لكل ما هو خارج عن موضوعية رحلته وهدفها العلمي أو الاقتصادي أو التبشيري أو الاستعماري، لأنه في قرارة نفسه يؤمن أنه يجتاز بلاداً مألها في ظنه أن تنضم يوماً ما إلى ممتلكات انتاج البريطانيين الذي أوفده الي تلك البلاد، فحتى إدوارد لين الذي تظاهر باعتناق الإسلام نراه بعد أن يصف مراسم الزواج ومواكب العرس وحفلات الزفاف التي يستهلها بملاحظته عن العار الذي يلحق بالشباب المصري المنحجم عن الزواج حين يبلغ سنًا معينة دون أن يكون ثمة ما يعوقه عنه، أقول إن إدوارد لين كان حريصاً على أن يسجل أنه على الرغم من الضغوط التي استهدف لها كي يتزوج من مصرية فإنه رفض المبدأ بلا تردد، كما رفض عرضاً آخر من صديق مصري بأن يهين له زواجا عرفيا، وإن كان ثمة من يدحض الزعم بعدم اهتمام لين بالمسائل الجنسية فيكشف عن أنه كان متزوجاً من أمة معتقة تدعى نفيسة كانت جارية يونانية أهداها روبرت هاي للين الذي تعهد بها بالرعاية إلى أن تزوجها، وقد امتد بها العمر بعده وباعت مخطوطاته لمكتبة المتحف البريطاني. والراجح أن لين قد أثر التظاهر بالتمسك بهويته

المزدوجة بوصفه مسلم المظهر رهباني الطوية، فتخلّى عن متعته البشرية كي يحتفظ بنزاهته العلمية وبقدرته على الملاحظة الموضوعية المحايدة في دراسته التي أعدّها في الأصل لمواطنيه الأوروبيين. فكان على العكس من الفرنسي الذي لا يكبح مشاعره الإنسانية، حتى نرى كاتباً وقوراً مثل بيير لوتي الذي بدأ كتابه الفذ « موت فيله » برصانة وجلال لا يخجل من أن يختلس نظرة شبقية إلى صدر إحدى النوبيات اللاتي يصفهن بقوله : « تسير الفلاحات برشاقة تستعصي محاكاتها في ثياب سود يجرون أذيالها فوق التراب أو الرمال شأن سيدات البلاط وهن يجرون أذيال أثوابهن فوق أبسطه القصور. ما أغربهن في أرديتهن القائمة التي تتجلى فيها سمات الحداد على عظمة هذا الشعب الغابرة وهن يخطرن بين الحقول أو فوق رمال الصحراء الساطعة بأضواء كأنها أضواء الأعياد، يخطرن غير مدركات لرشاقتهن الفطرية التي لم يلقنّها عن أحد مثلاً كانت تخطر في الماضي صبايا الإغريق تقطر حركاتهن وإيماءاتهن رفعة ونبلا. وما من امرأة من نساتنا الأنينات تستطيع أن تسبغ على نفسها مثل هذا التنسيق البديع في مثل هذه الثياب البدائية السوداء ذات النسج الفخ، لاسيما عندما ترفع إحداهن ذراعها فيتعري وهي واضحة فوق رأسها جرتها المليئة بالماء، ماضية شامخة في أنفة وقد برز ردفاها المستديران رجراجين على الرغم مما تحمل، متشحة بطرحة شفافة سوداء يكتمل بها زينها، على حاشيتها شريط أحمر أو حبات من الترت الفضي. وليس ثمة ما يضم شق صدر جلبابها الضيق الهابط إلى الوسط، فيكشف شيئاً عن بشرة عنبرية وعن ثديين متكورين عاجيين كانتا في شبابها المولى محط الأنظار بما تحملان من جمال مفرط ».





## ثبت المراجع

تمهيد تاريخي

- عبدالرحمن الجبرتي. دراسات وبحوث. المكتبة العربية. الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- \* قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣ .
- \* التاريخ السري لاحتلال إنجلترا لمصر. سلسلة «اخترنا لك» .
- \* سيكولوجية بعض الشعوب. ترجمة غنيم عبدون . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- \* الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد . ٩٧٧-١٠٢٩ م . أخبار مصر . حققه أمين فؤاد سيد وتياري بيانكي . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨ .
- \* اسماعيل المفتري عليه . ترجمة فؤاد صروف . دار النشر الحديث . القاهرة ١٩٣٣ .
- \* كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقرزية . مؤسسة الحلبي
- \* القيم الجمالية في العمارة الإسلامية . دار المعارف ١٩٨١ .
- \* حيّ الجمالية منذ قرن مضى . أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . مارس - أبريل ١٩٦٩ . وزارة الثقافة . مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ .
- \* تاريخ الحركة القومية في مصر . ثلاثة أجزاء . مكتبة النهضة ١٩٤٨ . «عصر إسماعيل . جزءان . مكتبة النهضة ١٩٣٢ .
- \* عجائب الآثار في التراجم والأخبار . مطبعة بولاق ١٨٧٥ .
- \* القاهرة . تاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨٢٥) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .
- \* موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ .
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠) .
- \* مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . عيد القاهرة الألفى ١٩٦٩ . مكتبة الخانجي .
- \* أتباع سان سيمون . فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٣ .
- \* راسلاس أمير الحبشة . ترجمة د . مجدى وهبة وكامل المهندس . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٩ .
- \* المستشرقون . دار المعارف . مصر .
- نجيب عفيفي



\* Abu-Lughod. Janet L.: **Cairo, 1001 years of the City Victorious**. Princeton University Press. Princeton. New Jersey 1971.

\* Ayalon. David: **Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. A challenge to a mediaeval Society**. London. Vallentine. Mitchell. 1956.



- \* Faculté des Lettres de Rennes 1951.
- \* Ampère, J.J. : **Voyage en Egypte et en Nubie**. Paris. Calmann-Lévy 1881.
- \* Auriant, L. : **L'Egypte, La Proie de ses Métèques**. (1805-1920). Chez P. M. Delesalle. Paris 1920.
- \* Blanc, Charles : **Voyage de la Haute Egypte. Observations sur les arts égyptien et arabe**. Paris. Renouard 1876.
- \* Bertrand, Louis : **Gustave Flaubert**. Ed. du Mercure de France 1923.
- \* Chassebocuf, C.F. : **Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785**. Paris, 1799. Chateaubriand, François-René de: **Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris, en allant par la Grèce et Revenant par l'Egypte, la Barbarie et l'Espagne**. Paris, Le Normant, 1811.
- \* Chateaubriand, François-René de: **Oeuvres Romanesques et Voyages**. Ed. Maurice Regard . Paris, Gallimard, 1969.
- \* Carré, Jean-Marie : **Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte**. L'Institut Français D'Archéologie Orientale . Le Caire 1956. (2Vols.).
- \* Coste, Pascale : **Architecture Arabe ou Monuments du Caire. Mesurés et dessinés 1818 à 1825** par Pascale Coste. Typographie de Firmin Didot Frères. Imprimerie de l'Institut de France. Rue Jacob.56.
- \* D'Avennes, Prisse : **L'Art Arabe, d'après les monuments du kaire 1878, Morel et Cie. Libraires- Editeurs**.
- \* Du Camp, Maxime : **Egypte, Nubie, Palestine et Syrie**. Dessins photographiques recueillis Pendant les années 1850 et 1851. Paris, Gide et J.Baudry. Editeurs, 1852.
- \* Du Camp, Maxime : **Souvenirs Littéraires**. Paris. Hachette 1882-1883.
- \* Du Camp, Maxime : **Le Nil, Egypte, et Nubie**. Paris 1854. Michel Lévy.
- \* Dumesnil, R. et D. L. Demorest : **Bibliographie de Gustave Flaubert**. Paris. Giraud Badin.
- \* Denon, Vivant : **Voyage dans la Basse et la Haute Egypte**. Paris 1803. **Description de l' Egypte ou Recueil des recherches qui ont été faites en Egypte Pendant l'Expédition de l'Armée Française**. Publié par les ordres de sa majesté l'Empereur Napoléon le Grand à Paris, l'Imprimerie Impériale 1809.
- \* C.E. Savary : **Lettres sur L'Egypte -Ou l'on offre le Parallèle de mœurs anciennes et modernes de ses habitants, ou décrit l'état, le commerce, l'agriculture, le gouvernement, l'ancienne religion du pays, et la descente de St. Louis à Damiette**, tiré de Joinville et des auteurs Arabes. Paris 1785-86.
- \* Volney (C.F. Chasseboeuf, Comte de) : **Voyage en Syrie et en Egypte Pendant les années 1783, 1784 et 1785**. Avec deux cartes géographique et deux planches gravées . Paris 1787.
- \* Flaubert, Gustave: **Voyage en Egypte** (1849 - 1850).
- \* Hanoum. Alihé : **Les Musulmanes Contemporaines**. Trad. de la langue turque par Nazimé- Roukié. Editeur Alphonse Lemerre, Paris 1894.

- \* Blachère. R: **L'Agglomération du Caire vue par quatre voyageurs Arabes du Moyen Orient**. Annales Islamologique VIII. Volume commémoratif du millénaire du Caire. (969-1969). Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale 1969.
- \* Clerget, Marcel: **Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et d'Histoire Economique**. Le Caire. Imprimerie Schindler 1934. (2 Cols).
- \* Daniel, Norman: **Islam, Europe and Empire**. At the University press. Edinburgh 1966.
- \* Hanotiaux, Gabriel : **Histoire de la Nation Egyptienne**. Librairie plon.
- \* Herold, J. Christopher : **Bonaparte in Egypt**. London 1962.
- \* Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid : **A Socio-economic sketch of the "Ulama" in the 18th Century** : Colloque International sur L'Histoire du Caire. 27 Mars-5 Avril 1969. Ministry of Culture of the Arab Republic of Egypt.
- \* Mansfield, Peter : **The British in Egypt** . Holt, Rinehart and Winston. New York 1971.
- \* Raymond, André : **Les Bains Publics au Caire à la fin du XVIIIe Siècle**. Annales Islamologiques VIII. Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale. 1969.
- \* Raymond, André : **Artisans et Commerçants au Caire au 18e Siècle**. Institut Français de Damas. 1973-1974.
- \* Rose, J. H : **Life of Napoleon** .George Bell, 1901.
- \* Russel, Dorothea : **Medieval Cairo and the Monasteries of the Wadi Natrun**. A Historical Guide. Weidenfeld and Nicolson. London 1962.
- \* Said, Edward : **Orientalism**. Pantheon books. New York 1978.
- \* Stewart, Desmond : **Great Cairo. Mother of the World**. Rupert Hart-Davis. London 1969.
- \* Von Eckardt, Wolf : **The Man who Destroyed Paris**. Horizon Magazine. May 1963.
- \* Wahba, Magdi : **A Dictionary of Literary Terms**. Librairie du Liban 1974.

## الباب الأول : الفصل الأول

### الرحالة الفرنسيون

- ج. ده شابرول \* وصف مصر . الدول الحديثة . دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر الحديثون . ترجمة زهير الشايب . القاهرة ١٩٧٦ .
- محمد طلعت عيسى أتباع سان سيمون . فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر . مطبعة جامعة القاهرة .

- \* Abdel Meguid, Soad : **Aperçu sur la vie et L'oeuvre de Maxime du Camp**. 1822-1894.



- \* Lane, Edward W : **An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians**. Written during the years 1833-1835. With 65 illustrations and 27 full-Page engravings. Alexander Gardener. London 1896.
- \* Lane-poole. Stanley : **Cairo, Sketches of its History, Monuments and Social Life**. London . J.S. Virtue and Co. 1895.
- \* Le, Sidney : **Dictionary of National Biography**. Oxford University press.
- \* Madden, R.R : **Travels in Turkey ,Egypt, Nubia and Palestine in 1824-27**, London 1829.
- \* Moussa, Fatma : **W. R. Hamilton "Aegyptiaca", 1809, An Evaluation** .Annual Bulletin of English Studies . Cairo University 1954 .
- \* Raymond. André : **Les Bains Publics au Caire à la fin du XVIIIe Siècle**. Annales Islamologiques VII. Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale. 1969.
- \* Rushdi, Rashad : **English Travellers in Egypt during the Reign of Mohammed ali**. Bulletin of the Faculty of Arts. Fouad I University. December 1952.
- \* Rushdi, Rashad : **The Literary interpretation of Egypt 1835-1850**. Annual Bulletin of English Studies, Cairo University 1954.
- \* Rushdi, Rashad: **The Lure of Egypt**. The Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo(n.d).
- \* Said, Edward : **Orientalism**. Pantheon Books . New York,1978.
- \* Searight, Sarah : **The British in the Middle East**. East-West Publications, London and the Hague, in association with Livres de France. Cairo, 1979.
- \* Thackeray, W. M : **Lovel the Widower, Etc and A Journey from Cornhill to Grand Cairo**. London. Collins' Cleartype Press.
- \* Urquhart, D : **The Spirit of the East**. London 1838.
- \* Warburton, B.E. G : **The Crescent and the Cross**. London, 1844.
- \* Webster, James : **Travels through the Crimea, Turkey and Egypt, Performed during the years 1825-1828**. London 1830.



- \* Lamartine, Alphonse : **Voyage en Orient**. Hachette, Paris 1887.
- \* Lichtenberger. Marguerite : **Ecrivains Français en Egypte Contemporaine (de 1870 à nos Jours)**, Paris. Librairie Ernest Leroux 1934.
- \* Loti, Pierre : **La Mort de Philae**. Calmann-Lévy Editeur. (n.d.).
- \* Nerval, Gérard de : **Voyage en Orient**. Bibliothèque des Editions Richelieu. Paris 1950.
- \* Poitou, Eugène : **Un Hiver en Egypte**, 1857.
- \* Sainte Beuve : **J. J. Ampère. Portraits contemporains**. Tome III.
- \* Taha-Hussein, Moenis : **Le Romantisme Français et l'Islam**. Dar El-Maaref. Liban 1962.
- \* Tissot, P.D : **Notice sur Vivant Denon, en tête du Voyage dans la Basse et l**  
**a Haute Egypte.1829.**

### الفصل الثاني والثالث

الرحالة الإنجليز ونظرتان مختلفتان لواقع واحد .

حسن فتحي \* القاعة العربية في منازل القاهرة. تطورها وبعض الاستعمالات الجديدة لمبادئ تصميمها . أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . مارس-أبريل ١٩٦٩ وزارة الثقافة . مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ .

- \* Ahmed, Leila : **Edward W. Lane. A Study of his life and work and of British ideas of the Middle East in the 19th Century**. Longman . Librairie du Liban, 1978. .
- \* Anderson, M.S: **The Eastern Question. 1774-1923**. New York. Macmillan 1966.
- \* Brombert, Victor : **Orientalism and the Scandals of Scholarship**. the American Scholar. Autumn 1979.
- \* Curzon, Robert : **Visits to Monasteries in the Levant**. London 1849.
- \* Daniel , Norman : **Islam, Europe and Empire**. At the University Press. Edinburgh. 1966.
- \* Daniel , Norman : **Edward Said and the Orientalists**. Extraits de Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales, tome 15,1982.
- \* Edwards. Amelia : **A Thousand Miles Up the Nile**, In two volumes . Leipzig, Bernhard Tauchnitz.1878.
- \* Gordon, Lady Duff : **Letters from Egypt**, Brimley johnson. London1902.
- \* Henniker, Frederick : **Notes During a visit to Egypt, Nubia, The Oasis, Mount Sinai and Jerusalem**. London1823.
- \* Hill, S.S : **Travels in Egypt and Syria**. Longmans, Green . London 1866.
- \* Kinglake, Alexander W. : **Eothen** . New Edition. University of Nebraska press. Lincoln, 1970.





كلمة أولى	٩
تمهيد تاريخي	١٥

## الباب الأول

الفصل الأول:	٦٥
الرحالة الفرنسيون	٦٩
إرهاصة رومانسية بشاعرية مصر «ساقاري» (١٧٥٠-١٧٨٠)	٧١
رحالة غاز بعقل عالم وروح جاسوس «قولني» (١٧٥٥-١٨٢٠)	٧٥
الومضة الأولى لعلم المصريات «قيشيان دينون»	٨١
الضيق الثقافي	١٢٥
صليبي في عبادة محدثة «شاتوبريان»	١٧١
مزيج الظلمة عن غوامض الأسرار «شمبوليون» (١٧٩٠-١٨٢٢)	١٧٧
اتباع سان سيمون	١٨٥
الريشة العاشقة للفن الإسلامي «پاسكال كوست وپريس دافن» (١٧٥٠-١٧٨٠)	٢٠٣
التوفيق بين الأديان والانبهار بالإسلام «جيرارده نرقال» (١٨٠٨-١٨٥٥)	٢٤٩
استاذ جامعي يواصل مهمة شمبوليون «جان چاك أمبير»	٢٦٣
أديب مطبوع «جوستاف فلوبير» وأديب دارس «مكسيم دوكان»	٢٧١
الحالم المفتون بمصر «تيوفيل جوتييه»	٢٨٩
مصنف الشعوب «الكونت جوبيينو»	٣٠٥
الفيلسوف المتشبهت بهيلينيته «إرنست ريتان»	٣٠٩
مفكر تشغله قضية الفلاح «إدموند أبو»	٣١٣
ناقد يجتذب الملايين إلى تذوق الفن الإسلامي «شارل بلان»	٣٢١
أديب أفاق «شارل إدمون»	٣٢٥
عملاق يلهو على أرض مصر «إدوار شوريه»	٣٢٩
عاشق مصر وأثارها «بيير لوتي»	٣٣٣



الفصل الثاني:	٢٤٢
الرحالة الإنجليز	٢٤٥
الدبلوماسي المتسربل بالعجرفة البريطانية «وليام هاملتون»	٢٥١
شمشون الحفائر «بلزوني» - قنصل وتاجر «هنري صولت»	٢٥٧
رائد الأركيولوجيين الإنجليز «ولكنسون»	٢٦١
حياة نابضة تحت سقف مقبرة «روبرت هاي»	٢٦٥
الجراح «مادين» وسنم الزعاف	٢٨٩
قمتان للتعصب «ولسون وريتشاردسون»	٢٩٣
الورع المبدع «البارون كيرزون»	٢٩٧
اكتشاف الواقع بالصدق الفني «إدوارد لين»	٤٠١
السائحون يأخذون مكان الرحالة	٤٢٣
السباق نحو الإكزوتية	٤٢٩
سخرية هادئة «مارك توين»	٤٣٣
تأثر الأدب الإنجليزي بالشرق	٤٣٧
المسترخي بين أحضان الطبيعة «لورد ليندسي»	٤٤١
الحقد المرعى الشرق والإسلام «كنجليك»	٤٤٥
نزعة التعصب البغيض والتحريض على احتلال مصر «ووربيرتون»	٤٥٣
رائد السخرية اللاذعة «وليام ثاكري»	٤٥٧
اقتحام عالم الحريم «صوفيا پول»	٤٦٧
ملاك الرحمة «لوسي داف جوردون»	٤٧١
روائية شهيرة يجتذبها علم الآثار المصرية «أميليا إدواردز» (١٨٣١-١٨٩٢)	٤٨١

الفصل الثالث:	٤٩٢
نظرتان مختلفتان لواقع واحد	٤٩٥
ثبت مراجع المجلد الأول	٥٠٩



















وُلِدَ بالقاهرة عام ١٩٢١، وتَخَرَّجَ فى الكلية الحربية عام ١٩٣٩، ثم فى كلية أركان الحرب عام ١٩٤٨. فاز بجائزة «فأروق الأول العسكرية» الأولى فى مسابقة القوات المسلحة للبحوث والدراسات العسكرية عام ١٩٥١. حصل على دبلوم الصحافة من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) عام ١٩٥١، ونال درجة الدكتوراه فى الأدب من جامعة السوربون بباريس (١٩٦٠). وشارك فى حرب فلسطين (١٩٤٨) وفى ثورة يوليه (١٩٥٢). عيِّن رئيساً لتحرير مجلة التحرير (٥٢ - ١٩٥٣)، ثم مُلْحَقاً عسكرياً بالسفارة المصرية ببرن ثم باريس ومدير (٥٣ - ١٩٥٦)، ثم سفيراً لمصر فى روما (٥٧ - ١٩٥٨)، ثم وزيراً للثقافة (٥٨ - ١٩٦٢)، وشغل منصب رئيس مجلس إدارة البنك الأهلى المصرى (٦٢ - ١٩٦٦)، ثم منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (٦٦ - ١٩٧٠). ثم عيِّن مساعداً لرئيس الجمهورية للشئون الثقافية (٧٠ - ١٩٧٢)، وعمل أستاذاً زائراً بالكوليج ده فرانس بباريس لمادة تاريخ الفن (١٩٧٣)، وانتخب زميلاً مراسلاً بالأكاديمية البريطانية الملكية (من ١٩٧٥ - )، كما انتخب رئيساً لجمعية الصداقة المصرية الفرنسية (من ١٩٦٥ - ).

انتخب عضواً بالمجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو (٦٢ - ١٩٧٠)، كما عمل نائباً لرئيس اللجنة الدولية لإنقاذ فينيسيا وآثارها (٦٩ - ١٩٧٨). انتخب رئيساً للجنة الثقافية الاستشارية لمعهد العالم العربى بباريس (١٩٩٠ - ١٩٩٣). منحته الجامعة الأمريكية بالقاهرة درجة الدكتوراه الفخرية فى العلوم الإنسانية (١٩٩٥).

فاز بجائزة الدولة التقديرية عن الفنون عام ١٩٨٨. وانتخب عضواً بالمجمع العلمى المصرى عام ١٩٩٧. فاز بجائزة مبارك للفنون عام ٢٠٠٢.

ومن بين الأوسمة والميداليات التى نالها وسام اللجيون دونير (وسام جوقة الشرف الفرنسى) بدرجة كومان دور (١٩٦٨)، ووسام الفنون والآداب الفرنسى بدرجة كومان دور (١٩٦٥)، والميدالية الفضية لليونسكو لتتويجا لجهوده فى إنقاذ معبدى أبو سمبل وآثار النوبة (١٩٦٨)، والميدالية الذهبية لليونسكو لجهوده فى إنقاذ معابد فيله وآثار النوبة (١٩٧٠)، والميدالية الفضية التذكارية لليونسكو عام ٢٠٠١ تكريماً له بمناسبة مرور ٣٠ سنة على حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٦٠ - ١٩٨٠).



